مارس
2017



الحـوار المتوسطي

مجلة محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية و الإجتماعية و الفكرية يصدرها
مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس - الجزائر



ردمد: 1112-945X
ردمد-إ: 2571 - 9742

DIALOGUE MEDITERRANEEN

N°
15-16









الحوار المتوسطي

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية و الاجتماعية والفكرية ، يصدرها مخبر البحوث و الدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس- الجزائر

العدد 15-16
مارس 2017

ردمد ورقي : **1112-945X**
ردمد إلكتروني : **2571-9742**
الإيداع القانوني : **2009-4402**

الحـــوار المتوسـطـي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة المجادلة آية 11]

العلم تخدمه بنفسك دائماً ... والمال يخدم عنك فيه نائب

والعلم نقش في فؤادك رسخ ... والمال ظل عن فنائك ذاهب

العلم مبلغ قوم ذروة الشرف ... وصاحب العلم محفوظ من التلف

العلم يرفع بيتاً لاعماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

عن جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب

مؤيد الدين الأصبهاني الطفرائي

الحوار المتوسطي العدد 15-16

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب و الأساتذة و الباحثين .

تقبل للنشر الدراسات و المقالات المتعمقة وفقا للقواعد التالية :

1. أن يكون محتوى العمل المقترح للنشر أصيلا لم يسبق نشره، و أن لا يتعدى حجمه 15 صفحة و ألا يقل عن 10 صفحات.

2. أن يتبع العمل المقترح للنشر الأصول العلمية المتعارف عليها عالميا، و خاصة ما يتعلق بالتوثيق و إثبات الهوامش و المراجع و الخرائط و الوثائق.

3. ترسل الأعمال المقترحة للنشر في نسختين ورقيتين و نسخة إلكترونية على قرص مدمج، و لا ترد أصولها لأصحابه سواء نشرت أو لم تنشر.

4. أن لا يقل عدد صفحات البحث عن 10 صفحات ولا يزيد عن 25 صفحة مكتوبة بخط Traditionnel Arabic مقاس 14 وتباعد 1. وتكتب الهوامش بطريقة عادية في نهاية البحث، وبمقاس 10 وتباعد فردي، مع تقديم ملخص باللغة الإنجليزية بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغة العربية، وبالعربية بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغات الأجنبية(فرنسية- إنجليزية- إسبانية)، مع اضافة الكلمات المفتاحية. كما يدرج البريد الإلكتروني للمساهم.

5. تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي، ولا تقبل المقالات التي لا تحترم الشروط المذكورة سابقا.

6. عروض وقراءات لكتب، عروض لمجلات وأخبار علمية مختلفة.

7. ترسل الرسومات (الخرائط، الأشكال، الصور، الجداول...) وفق نظامي Word و JPG مع ذكر الترقيم، العنوان و المصادر.

8. لا يسمح بإعادة نشر مقالات المجلّة إلا بموافقة لجنة التحرير.

9. لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

10. الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

المقالات المنشورة في هذه المجلة لا تعبر إلا عن آراء أصحابها و لا تعكس رأي المجلة.

ترسل المقالات باسم مدير المجلة :

كلية التكنولوجيا– مقر المخابر رقم 12 جامعة سيدي بلعباس-الجزائر

مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي

البريد الإلكتروني: hanifi_andalous@yahoo.fr

صفحة الواب للمخبر: http://www.univ-sba.dz/lreocmi

الصفحة التشعبية للمجلة : www.univ-sba.dz/med_dialogue

مجلة الحوار المتوسطي

عنوان المجلة : الحوار المتوسطي
مدير المجلة : أ.د. حنيفي هلايلي
رئيس التحرير : أ.د. عبد القادر صحراوي
الناشر : منشورات مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية.
الخطوط : حنيفي هلايلي
الطبعة : مارس2017
العدد : عدد مزدوج 15-16
الطبع : دار الأصول سيدي بلعباس
الإيداع : القانوني : 4402- 2009
ردمد ورقي :1112-945X
ردمد إلكتروني : 2571-9742

كلمة العدد

تكريم الرجال و الوفاء لهم والاحتفاء بهم أحياء نبل مشكور وفضل غفل عنه كثير من أصحاب الامكانات المادية والفكرية، فكثير من العلماء الأفذاذ والمفكرين الأجلاء الذين أدركناهم لم يعرف الناس فضلهم إلا بعد أن طواهم الموت وغاب كثير من معالم حياتهم معهم؛ فهذه السنة الحميدة تستحق أن تذكر ويحمد لصاحبها فعلها.وفي هذا التكريم إضاءات لحياة كثير من هؤلاء الكبار الذين تركوا أثراً في حياة الناس، وبياناً في جوانب حياتهم.

إن تكريم الأستاذ الدكتور المؤرخ عبد الحميد حاجيات رائد تحقيق تراث المغرب الإسلامي في نظري وأمثاله سجل لتراجم رجال كانوا أهلاً لأن يُكرموا وإن أعرف الناس بحقيقة الرجل هو نفسه فعندما يتحدث عن نفسه أو يجيب عن الأسئلة التي تقدم إليه معلومات هي في غاية الأهمية، وهذه المعلومات هي أصدق ما يمكن أن يقف الباحث عليه في حياة الرجل.

ولشيخنا عبد الحميد حاجيات غرام بالكتب فمكتبته تعد من أعظم المكتبات الخاصة في الجزائر، فيها نفائس المطبوعات النادرة وفيها المخطوطات والمصورات والدوريات والوثائق ذات الشأن، ومن مزاياه أنه كان يجمع الوثائق والمصورات كلما سنحت له الفرصة بالإضافة إلى كم هائل من الرسائل الجامعية في حقول العلوم الإنسانية و الاجتماعية و الأنثروبولوجيا.

وبعد فإني أسأل الله أن يبارك لشيخنا في عمره وأن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يختم لنا وله بالحسنى، والحمد لله رب العالمين.

إنه لمن دواعي سُرورنا و اغتباطنا أن يكونَ معنا و بيننا في يومِ الوفاءِ و العرفانِ هذا شيخ المحققين، الذي تُحْييه مؤسستنا الجامعية و أعني جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس تحت إشراف مخبر البحوث
و الدراسات الإستشراقية تحت رئاسة الأستاذ الدكتور حنيفي هلايلي واحتفاءً بالأستاذِ الكريمِ الشيخ" عبد الحميد حاجيات " الذي أنهى خدمتَهُ بعدَ مسيرة حافلَة بالعطاء في ميدان الشرف، ميدان التربية و التعليم .

و إننا إذ نكرم اليوم زميلاً عزيزًا، له في قلوبنا كل المحبة و التقدير، فإننا نتطلع في مؤسستنا إلى إرساء تقليد حضاري، يكون فيه الاِحتفاء بأهل الفضل، و العِرفان بحق السابقين، واجبا لا مناصَ من تأديته، و نهجا لا بد من مواصلته و ترسيخه. إن كل ما يحتاجه المعلم حتى يرتقي لِمصاف الأنبياء شروط ثلاث: ضمير حي، و قلب مُحِب، و إخلاص في العمل، و قد توفرت جميعُها فيكم طيلة حياتِكم المهنية، و هو ما تستحقون عنه الحفاوة و العرفان بالجميل، لقد أديتم الأمانة، و حققتم الرسالة، و سجلتم بَصَماتٍ يَشهد لكم بها تلامذتكم و مختلف الأطر التي اشتغلت معكم، و ستبقى شهاداتهم في حقكم وساما فخريا يتوج سِنين حياتكم .

أشكركم جميعا على حضوركم و مشاركتكم في هذا الحفل الذي نكرّم فيه اليوم رجلا ينتمي لأسرة تحمل أسمى رسالة، ألا و هي رسالة التربيةِ و التعليمِ التي حملها خاتم الأنبياء و المرسلين محمد عليه الصلاة و السلام. فالمعلم كان و لا يزال مربيا يقود الجاهل، و يهدي الضال، و ينير الطريق لِكل مَنِ التجأ إليه، فهو كالمنارة على رأسها نورٌ وَ ضِياء ،يراه من فقدَ الطريقَ، فيهتدي به و ينتفعُ من نوره. و ما هذه الألوف المؤلفة من أبنائنا إلا أَغراس تعهدها المعلم بماء علمه، فانبعثت و أثمرت و فاضت معرفة و فضلاً. فجدِير بنا أن نَحتفِي و نُكرمَ من حمل هذهِ الرسالة و أداها على أكمل وجهٍ.

كيف لا وَ قد كرمه ُرسول اللّهِ (ص) بقوله: " إن الله و ملائكتَهُ وأهل السمواتِ والأرضِ حتى النمل في جحرها و حتّى الحوت في جَوف البحر لَيصلّون على مُعلّم الناسِ الخير "

و ختاما، نسأل الله تعالى أن يُكَلِّلَ جُهُودَكُم السابقةَ بالسّعيِ المشكورِ و الذّنْبِ المَغْفُورِ و الأجرِ و الثّوابِ منه سبحانه و تعالى، و أن يبارك لكم فيما تستقبلون من أيامِ عُمْرِكُم ، و أن يجعل حياتَكم سعادة، و رِزْقَكم زيادة، و خاتمتكم شهادة... و السلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته.

وفاء منا و حرصنا على إنزال الرجال منزلتهم تعهد المخبر و لسان حاله مجلة الحوار المتوسطي أن تخصص هذا العدد المتواضع لهذه القامة العلمية المتواضعة، فكنت من تلاميذته الذين اشرف عليهم، فوجدنا منه الأستاذ و المشرف و الأب الحنون، فجزاه الله عنا كل خير و جعله في ميزانه حساناته يوم يقوم الناس لرب العالمين.

تكلل العدد بـ **38** دراسة في ثلاث ملفات ،جاء الملف الأول بعنوان عبد الحميد حاجيات بـ**5** دراسات، و الملف الثاني الذي كان ندوة في الأصل أعدّتها وحدة بحث تاريخ الزيتونة، المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة، جامعة الزيتونة بتونس، الموسومة بـ: تاريخ الزيتونة في النصف الأوّل من القرن العشرين: الزيتونيّون في مواجهة قضايا عصرهم: التجديد الدينيّ، إصلاح التعليم، التحرّر الوطنيّ المنعقد بجامعة الزيتونة بتونس يومي**29-30** نوفمبر **2016** بـ **8**دراسات.أما الملف الثالث فتضمن أبحاث مختلفة تعنى بالتراث، احتوت على **18** دراسة.

ختمت المجلة بـ**6** دراسات باللغات الأجنبية. وقد شارك في هذا العدد من الدول العربية :الجزائر، المغرب، تونس، المملكة العربية السعودية، العراق.

شكر و تقدير لكل المساهمين الذين وقفوا معنا في مساندة ندوة التكريم ماديا و معنويا.والله ولي المتقين.

أ.د حنيفي هلايلي

مدير المخبر ومدير المجلة

فهـــرس العـــدد

ملف الزيتونيون وقضايا عصرهم

ملف التراث

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عبد الحميد حاجيات رائد تحقيق تراث الغرب الإسلامي

أ.د. هلايلي حنيفي
مدير مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية
في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة سيدي بلعباس

يحتوي هذا العدد بين دفتيه على مجموعة من الأبحاث أعدها زملاء و تلامذة الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات بمناسبة بلوغه الثامنة و الثمانين، ومضي أربعة و خمسين عاما على بدء عطائه المتواصل في الجامعة الجزائرية بحثا، و تدريسا، و علما. لقد حمل الأستاذ حاجيات عبر مراحل حياته عبء دراسة تاريخ الجزائر و كتابته و تدريسه، وسيلته البحث و الإستقصا ، وغايته الحقيقة و المعرفة في اطار من الموضوعية و المنهجية.

كانت كتاباته التي وضع فيها خلاصة فكره و تجربته الغنية معينا لا ينضب و مصدرا لا بد لدارس تاريخنا العربي الإسلامي عامة و الجزائري خاصة من الرجوع إليه. درس تاريخ المغرب الإسلامي برؤية شاملة وفكر مبدع و استقراء رصين، متوجا ذلك بخلق رفيع يدركه كل من كان له حظوة التعامل معه.

يضم هذا العدد من مجلة الحوار المتوسطي عددا من البحوث و الدراسات العلمية، يسعد كتابها بتقديمها هدية للأستاذ العلامة الدكتور عبد الحميد حاجيات، مكبرين فيه الأدب الغفير، و التواضع، و الخلق الرفيع، و الموقف الثابت، و المعرفة الأصيلة، و الأستاذ المثال، و الكاتب المحنك، و الإنسان الحر.

ولد الأستاذ عبد الحميد حاجيات في 1 أكتوبر 1929 بمدينة تلمسان ، اسم والده محمد واسم والدته شريفة ممشاوي. كان الأستاذ حاجيات أكبر إخوته الخمسة (ثلاث أولاد وبنتان) .عرفت عائلته في الأوساط التلمسانية باسم حجي، و هي أسرة أندلسية من منطقة بسطة(Baza) الأندلسية نزحت إلى تلمسان في اطار نزوح الجاليات الأندلسية إلى عدوة المغرب بعد سقوط الحواضر الأندلسية بيد النصارى.(1)

عند صدور قرار التلقيب في 23 مارس 1882، حولت الإدارة الاستعمارية لقب العائلة إلى اسم حاجيات. هاجرت عائلته سنة 1910 إلى اسطامبول عاصمة الخلافة العثمانية و مكثت ثلاث سنوات ثم انتقل جده إلى دمشق و القاهرة ليعود من جديد إلى أرض الوطن. امتهنت العائلة النشاط الزراعي و الرعوي كبقة الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و في سنة 1935 التحق بالمدرسة الفرنسية بتلمسان، مع محافظته على مداومة حفظ القرآن الكريم بإحدى الجوامع بالقرب من المشور عند الشيخ سي بكار مراح. التحق بمدرسة دار الحديث سنة 1945، التي نهل منها مشارب الحرية و الوطنية. وبعد انهاء دراسته الثانوية، انتقل إلى فرنسا حيث درس على نفر من الأستاذة المعروفين كالبروفسور روبار منتران و غيرهم.

انضم إلى اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين التي اضطلعت بدور بارز في خدمة القضية الوطنية والثورة التحريرية، و هذا خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1956-1958 ، وهي السنة التي اكتشفت عيون الإدارة الاستعمارية النشاط الثوري لعبد الحميد فحاولت القبض عليه بعدما كانت غرفته الخاصة بفرنسا مكانا لعقد الاجتماعات لقادة الحركة الطلابية، فانتقل إلى المغرب، ونجى من الاعتقال بسبب فطنة الطلبة آنذاك..

مؤهلاته العلمية:

- دبلوم الدراسات العليا الإسلامية ،كلية الآداب، جامعة الجزائر ،جوان 1950.
- ليسانس أداب عربية، الجزائر-ليون، 1954.
- دبلوم دراسات عليا، جامعة بوردو في الآداب فرنسا 1959.
- شهادة التبريز في الآداب، جامعة السوربون، فرنسا 1960.
- دكتوراه الحلقة الثالثة في الحضارة الإسلامية، بإكس أون بروفانس، 1974، **و عنوان الأطروحة** عبارة عن تحقيق لكتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد " (2) ، لمؤلفه يحي بن خلدون.(3)
- دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي(4)

الوظائف:(5)

- أستاذ مساعد بمعهد التاريخ ،جامعة الجزائر **1966-1975**.
- أستاذ مساعد مكلف بالدروس بجامعة الجزائر **1975-1986**.
- أستاذ مساعد مكلف بالدروس بمعهد الثقافة الشعبية جامعة تلمسان **1975-1986.** (6)
- أستاذ محاضر بنفس الجامعة 1986-1997.
- أستاذ التعليم العالي منذ 1997.

له أكثر من **18** مؤلفا في التاريخ و الآداب و التصوف و الحضارة ، و أكثر من **40** مقالا باللغتين العربية و الفرنسية منشورة في الجزائر و خارجها ضمن مجلات متخصصة أهمها الأصالة و الثقافة و أوراق بمدريد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإسبانية.[7] اهتم عبد الحميد حاجيات كثيرا بتحقيق تراث المغرب الإسلامي. كما أشرف و ناقش أكثر من 60 أطروحة جامعية ما بين الماجستير و الدكتوراه في مختلف الجامعات الجزائرية.

و اليوم، و بمناسبة بلوغ شيخ المحققين الجزائريين أستاذنا الجليل الثامنة و الثمانين من العمر، يقدم أصدقاؤه و زملاؤه و تلاميذه هذا العدد، بما تضمنه من دراسات و بحوث، سائلين المولى القدير، أن يمد في عمر، و أن يكثر أمثاله من العلماء الجادين الذين ينشدون الحق و الحقيقة.

الإحالات:

---

(1) سقطت بسطة على يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو الثاني ملك أراغون وإيزابيلا الأولى ملكة قشتالة (1469–1516) إثر حروب الاسترداد سنة 895هـ/1490م ، وهي من نواحي غرناطة . قال عنها الحميري: " مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وهي متوسطة المقدار، حسنة الموضع، عامرة، آهلة، حصينة، ذات أسواقٍ، وبها تجارات، وفعلة بضروب الصناعات، وبينها وبين جيان ثلاث مراحل؛ وهي من كور جيان، وشجر التوت فيها كثير. وعلى قدر ذلك غلة الحرير والزيتون، وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة، وأرضها عذاة كثيرة الريع، وبها كانت طرز الوطاء البسطى من الديباج الذي لا يعلم شفيرها، وبها جبل يعرف بجبل الكحل، لا يزال ينقر منه كحل أسود، يزيد بزيادة القمر، وينقص بنقصانه، لم يزل على ذلك من قديم الدهر. ومدينة بسطة مدينة مفردة من الجزء الرابع من قسمة قسطنطين، وهي مشهورة بالمياه والبساتين، وكان الأديب أبو الحسن على بن محمد بن شفيع البسطي . يقول: لو طبعت على الزهد لحملنى حسن بلادي على المجون والتعشق والراحات! ، وكان شاعر بسطة.". ينظر: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم،الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خير الأقطار،(نشر و تصحيح و تعليق: ليفي بروفنصال)،ط2،بيروت: دار الجيل، 1408هـ/1988م،ص ص 44–45.

(2) يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ،طبعة خاصة، عالم المعرفة ، الجزائر ، 2011.

(3)عبد الحميد حاجيات ، يحي بن خلدون وكتابه بغية الرواد ، العدد 3–4 ،مجلة عصور الجديدة ، مختبر البحث التاريخي –تاريخ الجزائر– ، جامعة وهران ، 2011– 2012، ص 21 .

(4) Abdelhamid , Hadjiyat , le Maghreb central sous le règne du sultan Abdalwadide Abu Hammu Musa II (760-791/1359-1389)) , thèse pour le doctorat d'état est –lettres et sciences humaines, facultés des lettres et des sciences humaines , Marseille , 1990-1991.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(5) درس حاجيات التاريخ و الآداب بالفرنسية و العربية، و هو من الأساتذة مزدوجي اللغة، كما ساهم في تعريب التاريخ بالجامعة الجزائرية.

(6)ساهم حاجيات رفقة مجموعة من أساتذة تلمسان في تأسيس معهد الثقافة الشعبية سنة 1985، و الذي أصبح بفروعه : الأنثروبولوجيا و الفنون و اللهجات ، أهم معهد في العلوم الإنسانية و الاجتماعية بالجزائر حيث تخرج منه عديد الإطارات الجامعية التي تتكون منهم أغلب جامعات الجزائر في هذا التخصص.

(7) لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة الدراسات التالية :

– نصر الدين ،بن داود ،" الأستاذ عبد الحميد حاجيات ومنهجه في التحقيق والتأريخ "، ،مجلة عصور الجديدة، العدد 3-4، مختبر البحث التاريخي –تاريخ الجزائر- جامعة وهران، الجزائر، 2011-2012 ، ص 301-302.

– بوداود، عبيد،" حصيلة خمسين سنة من تحقيق المخطوطات التاريخية في الجزائر"، مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع و التاريخ، العدد 7، ديسمبر 2012.ص 168-169.

ملف عبد الحميد حاجيات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إسهامات عبد الحميد حاجيات في تحقيق التراث الإسلامي
كتاب "أخبار المهدي بن تومرت" أنموذجا

د. بوشريط أمحمد
جامعة معسكر
البريد الإلكتروني : bouchrit59@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2016/07/03 تاريخ القبول: 2016/09/04

الملخص:

يعتبر التحقيق علم من العلوم الصعبة، إذ لا يمكن لأيّ باحث أن يركب هذا العلم، إلاّ إذا كان ملمّا بأدبيات فن التحقيق وقواعده، فلهذا الأخير تقنيات تختلف من محقّق لآخر، وعلى الرّغم من صعوبة ركوب هذا النّوع من العلم، إلاّ أنّ هناك باحثون ساهموا فيه وأثْروا السّاحة العلمية بما حقّقوه، فبعملهم هذا أخرجوا مخطوطات عدّة كانت مرصوفة في رفوف دور المكتبات وغياهب الأرشيف، والذي امتلأت رفوفه بمخطوطات لا زالت تنتظر من يفكّ أسرها.

وعلى الرّغم من الصعوبات التي تعترض المحقّق، وبخاصة صعوبة الحصول على المخطوطات بأيسر السبل، إلاّ أنّ بعضهم بدل مجهودات معنوية ومادية لاقتناصها والخوض في عملية تحقيقها، فامتلأت بمجهودات هؤلاء، مكتباتنا بمصادر متنوّعة نحن في أمسّ الحاجة لنغرف منها معلومات قيّمة في ميادين معرفية شتّى، فمن هؤلاء الباحثين الذين يعتبرون قامة علمية لا يستهان بها، الباحث والمحقّق عبد الحميد حاجيات الذي أنقذ العديد من المخطوطات حينما قام بتحقيقها، وجعلها في متناول الباحثين وطلبة العلم. ففي هذه الورقة، ستكون لنا إطلالة على تلك المجهودات التي قام بها هذا المحقّق في هذا الميدان الصعب، وأهم التقنيات التي اتبعها في تحقيق بعض المخطوطات، وليكن كتاب "أخبار المهدي ابن تومرت" لمؤلّفه البيذق نموذجا حيّا لتلك المجهودات التي قام بها لإخراج هذا المخطوط كما أراده له مؤلّفه. جادت قريحة عبد الحميد حاجيات بأعمال ترك فيها بصماته كمحقّق يشار له بالبنان.

الكلمات الدالة:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التحقيق – عبد الحميد حاجيات– التراث الإسلامي– أخبار المهدي بن تومرت

العنوان بالإنجليزية:

Contribution of the Abdul Hamid Hadjiyat in the realization of Islamic heritage the book "News of the Mahdi Ben Toumart" model.

Abstract:

Is a researcher Abdul Hamid hadjiyat needs, investigators prominent on the national scene and who have been sold in this science, and this is what Niche through the work done by, as it has a great balance in achieving Arab and Islamic heritage, and in particular the achievement of what is left of the heritage of center Maghreb .

Among the works that attest to the superiority in this science, to achieve a manuscript Albaidaque, and tagged with: "Mehdi Ben Toumart News." Through this paper, we will try to identify the most important stages that went through to achieve the manuscript, and through the methodology followed during the investigation. Including: the most important methods used in this work, and what is the method adopted by that? Then definition margins contained in the investigation sections explaining that graphic drawings and comment.

Then the stages in this investigation, most notably including: organizing text, so by giving examples from the text by the investigator, and the most important punctuation adopted by Abdelhamid Hadjiat needs while doing this process started.

The second step, is represented in the commentary, which has a direct relationship margins, as a function as a media asked addition text investigator of information, such as: Explanation of flags and geographical places, graduation verses and the Hadith, and the completion of a minus, and other information contained in the fluorescence tenderloin.

In addition to this technical work, commentary has paid great attention to rule that basically took care of everything related to the book and the author, with inflicting this study technical indexes facilitate the process of research and exploration between the folds of the manuscript to be achieved.

Key words:

Abdul Hamid hadjiyat – investigators- manuscript- Mehdi Ben Tumart

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يعتبر التحقيق علم من العلوم الصعبة، إذ لا يمكن لأيّ باحث أن يركب هذا العلم، إلاّ إذا كان ملمّا بأدبيات فن التحقيق وقواعده، فلهذا الأخير تقنيات تختلف من محقّق لآخر، وعلى الرّغم من صعوبة ركوب هذا النّوع من العلم، إلاّ أنّ هناك باحثون ساهموا فيه وأثْروا السّاحة العلمية بما حقّقوه، فبعملهم هذا أخرجوا مخطوطات عدّة كانت مرصوفة في رفوف دور المكتبات وغياهب الأرشيف، والذي امتلأت رفوفه بمخطوطات لا زالت تنتظر من يفكّ أسرها.

وعلى الرّغم من الصعوبات التي تعترض المحقّق، وبخاصة صعوبة الحصول على المخطوطات بأيسر السبل، إلاّ أنّ بعضهم بدل مجهودات معنوية ومادية لاقتناصها والخوض في عملية تحقيقها، فامتلأت بمجهودات هؤلاء، مكتباتنا بمصادر متنوّعة نحن في أمسّ الحاجة لنغرف منها معلومات قيّمة في ميادين معرفية شتّى، فمن هؤلاء الباحثين الذين يعتبرون قامة علمية لا يستهان بها، الباحث والمحقّق عبد الحميد حاجيات الذي أنقذ العديد من المخطوطات حينما قام بتحقيقها، وجعلها في متناول الباحثين وطلبة العلم. ففي هذه الورقة، ستكون لنا إطلالة على تلك المجهودات التي قام بها هذا المحقّق في هذا الميدان الصعب، وأهم التقنيات التي اتبعها في تحقيق بعض المخطوطات، وليكن كتاب "أخبار المهدي ابن تومرت" لمؤلّفه البيذق نموذجا حيّا لتلك المجهودات التي قام بها لإخراج هذا المخطوط كما أراده له مؤلّفه.

1- مجهودات عبد الحميد حاجيات في تحقيق التراث المخطوط.

جادت قريحة عبد الحميد حاجيات بأعمال ترك فيها بصماته كمحقّق يشار له بالبنان، فمن هذه الأعمال التي قام بها، نخصّ بالذكر منها:

أ- بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: لمؤلّفه أبي زكريا يحيى بن خلدون، حيث قام بتقديمه وتحقيقه والتعليق عليه وأخرجه في جزأين، وقد احتوى الجزء الأوّل على 268 صفحة[1]، في حين ضمّ الجزء الثاني 358 صفحة. قامت بنشره عالم المعرفة للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 2011م، ضمن طبعة خاصة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أما المجموعة المحقّقة من طرف المحقّق عبد الحميد حاجيات، والتي ضمّها كتاب واحد، فهي على النّحو التالي:

ب- زهر البستان في دولة بني زيان: لمؤلّف مجهول، وهذا الكتاب هو السّفر الثاني، حيث قام بإخراجه في 266 صفحة.

ج- تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب **نظم الدُّرِّ والعقيان**): لمؤلّفه أبي عبد الله التنسي، المتوفى سنة 899هـ/1494م. قام بإخراجه في 107 صفحة.

هذه المجموعة من المخطوطات المُحقّقة، طبعت في كتاب واحد، ضمن طبعة خاصة بدعم من وزارة الثقافة في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية سنة 2011م، وقامت بنشرها عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر.

د- كتاب أخبار المهدي بن تومرت: لمؤلّفه أبي بكر بن علي الصنهاجي، المكنى بالبيذق. حيث قام بتحقيقه وإخراجه في 152 صفحة.

هذه نماذج من بعض المخطوطات التي قام بتحقيقها الباحث المحقّق عبد الحميد حاجيات، وفي هذه الورقة سأعتمد على نموذج واحد ممّا حقّقه، لإبراز الطريقة التي اتبعها في تحقيقه لكتاب "أخبار المهدي بن تومرت" وما هي المنهجية التي اتبعها؟ وهل اختلفت هذه الأخيرة عمن سبقوه، أو الذين أتوا بعده.

2- منهجيته في التحقيق: قبل التطرّق إلى المنهجية المتبعة من طرف محقّقنا لهذا المخطوط، يجدر بنا أن نضع القارئ أمام بعض الطرق المتبعة من طرف بعض المحقّقين في هذا الميدان، فكتب المنهجية تطلعنا على ثلاثة طرق أساسية، قد تكون بمثابة قاعدة أساسية لمن أراد أن يختار طريقة على أخرى، على الرّغم من العيوب التي تحتويها إحداها، فمن هذه الطرق نخصّ بالذكر منها ثلاثة نماذج، وهي على النّحو التالي:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الطريقة الأولى: وفيها يهتم المحقّق بكلّ ما تقع عيناه من شروح وإضافات التي توضّح ما ورد في المخطوطة من معلومات. كما يهتم ببعض الإضافات التي يقتضيها سياق الكلام، وتعرف هذه الطريقة في أدبيات التحقيق بثقل الهوامش.

الطريقة الثانية: يهتم فيها المحقّق بعملية إخراج النّص فقط، مع ذكر لتلك الاختلافات الواردة بين نسخة وأخرى.

الطريقة الثالثة: وهي تتوسّط الطريقتين سالفتي الذكر، وفيها تكون عناية المحقّق بإخراج النّص كما أراده له مؤلّفه، مع الاستعانة بشرح ما أستعصي من مفردات لغوية ومصطلحات صعبة، وفي الأخير يقوم بوضع فهارس فنية للنّص المحقّق.[2]

في حين يذهب الباحث بشار عواد معروف للقول برأيين، وهما على النحو التالي:

الرأي الأول: يرى الاقتصار على إخراج النّص بشرط أن يقوم بتصحيحه من غير الاعتناء بالتعاليق التي يتبعها بعض المحققين.

الرأي الثاني: ذهب بالقول: أنّ المحقّق يقوم بعمليتين ضروريتين، وهما: توضيح النّص والتعليق على كلّ كبيرة وصغيرة، وتكون هذه العملية بمثابة شرح للنّص الأصلي.[3]

أما الباحث عبد الواحد ذنون طه، فيرى أنّ المحقق يجب عليه أن يقدّم المخطوط صحيحا، كما وضعه مؤلّفه، ثمّ يضيف قائلا: دون أن يقوم المحقّق بإثقال النّص المحقّق بالهوامش، وهذا قد يشغل القارئ عن النّص الأصلي.[4]

تلك هي أهم آراء بعض الباحثين بخصوص الطرق التي المتّبعة في التحقيق، ولازال يتبعها المحقّقون، وذلك تبعا للمدارس التي ينتمون إليها، فمنهم من يفضّل الطريقة الأولى، ومنهم من يتبع الطريقة الثانية، وفريق منهم يعتمد على الطريقة الثالثة، ومن خلال هذه الآراء المتضاربة، يمكن طرح السّؤال التالي، أيّ الطرق قام باتباعها محقّقنا عبد الحميد حاجيات؟

يمكن التعرّف على الطريقة التي اتبعها عبد الحميد حاجيات، وذلك بعرضنا لبعض الرّسوم البيانية والتي ستوضّح لنا بشكل أدق الطريقة المعتمدة من طرف محقّقنا هذا.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إجماليُ الهوامش في أقسام الكتاب

100%
98%
96%
94%
92%
90%
88%
86%

	القسم الأول	القسم الثاني	القسم الثالث	
Série 2	2,4	4,4	1,8	
Série 1	25,61	48,25	26,13	

التعليق: يمثّل هذا الرّسم البياني مجموع الهوامش الذي احتواها كتاب "أخبار المهدي ابن تومرت".

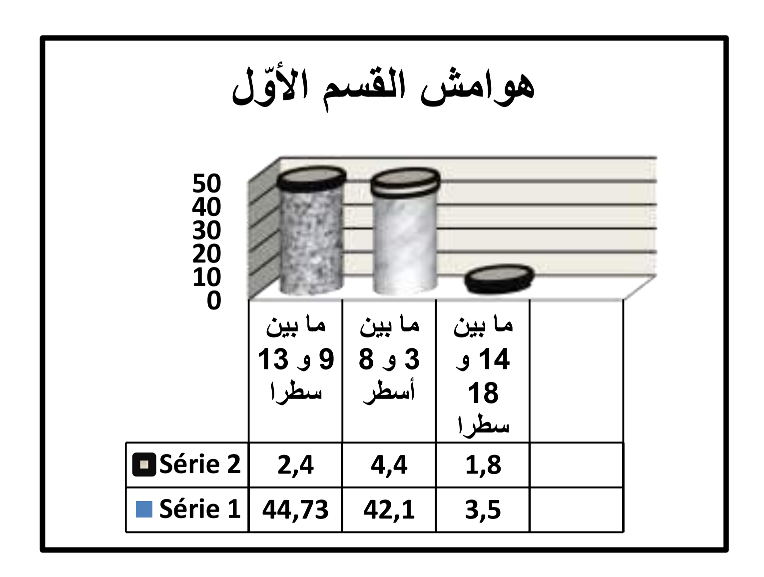
العمود الأوّل: المقدّر بنسبة 25.61% وهي نسبة الهوامش الذي احتوى عليها القسم الأوّل من هذا الكتاب، وهذه النسبة تحتلّ المرتبة الثالثة مقارنة بالنسب التي تليها.

العمود الثاني: وقد قدّر بنسبة 48.25% وهي نسبة الهوامش التي اعتمدها المحقّق في القسم الثاني من نفس الكتاب المحقّق، وهي بذلك تحتلّ المرتبة الأولى، وهذا يدلّ على مدى اهتمام المحقّق، واعتنائه بالتهميش في هذا القسم من الكتاب، وقد يكون للمحقّق مبرّراته في ذلك، فقد توجد معلومات تحتاج إلى إحالات وشروح، وتوضيحات يقتضيها سياق الكلام، ممّا اضطرّ عبد الحميد حاجيات ليصبّ كلّ اهتماماته على هذا القسم من الكتاب.

العمود الثالث: هذا العمود يحتلّ المرتبة الثالثة من مجموع هذا الرّسم البياني بنسبة 26.13%، وفيها اعتنى الباحث بالإحالات، وذلك على حسب ما تقتضيه بعض الشروح والإحالات إلى المصادر والمراجع.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من خلال ما تقدّم ذكره، يظهر لنا جليّا مدى اهتمام المحقّق عبد الحميد حاجيات بالهوامش مع اختلاف في عددها من قسم لآخر، وهذا يدلّ على مدى اتساع أفقه المعرفية، إذ أعطى لكلّ تهميش حقّه، ولم يخرج عن الإطار المتفق عليه، والمعتمد في أدبيات منهجية تحقيق المخطوطات.



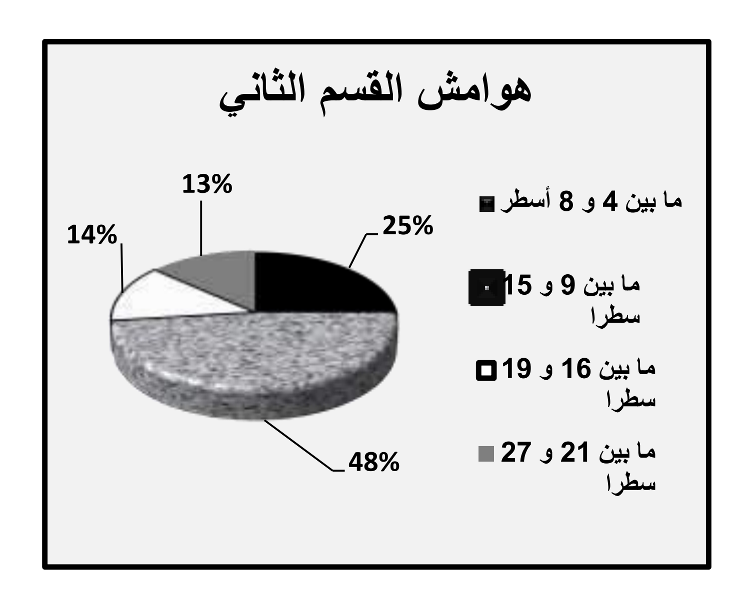
التعليق: يتضّح لنا من خلال هذا الرّسم البياني، والممثّل في أعمدة أسطوانية، مدى عناية المحقّق بالهوامش، وهذا ما يتضّح لنا من خلال استقرائنا للنسب الواردة في هذا الرّسم.

<u>العمود الأوّل</u>: الممثّل بنسبة تقدّر بـ: 44.73%، وهو بذلك يحتلّ المرتبة الأولى مقارنة بالنسب الأخرى الواردة في الرّسم البياني، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى اهتمام المحقّق بهوامش القسم الأوّل من الكتاب، بما احتواه هذا الأخير من معلومات تاريخية دسمة تحتاج إلى تعليقات وشروح، ومقارنات تستدعي من المحقّق الاهتمام بدرجة أكبر بهذا الجانب المنهجي الذي تقتضيه أدبيات منهجية التحقيق، وإن كانت الهوامش الواردة في الكتاب مثقلة، فلا تخلّ بتحقيق النّص لأنّها تصبّ في صلب الموضوع.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العمود الثاني: يأتي هذا العمود في المرتبة الثانية، بنسبة تقدّر بـ: 42.73% بفارق بسيط مع سابقتها، فكان هناك توازن ما بين القسم الأوّل، والقسم الثاني من حيث إيراد المعلومات الواردة في الهوامش، من شرح وتعليق وتعليل، وغيرها من المعلومات التي يعتني بها المحقّق إذا ما أراد أن يُخْرِجَ هذه المخطوطة على النّحو التي تقتضيها أساسيات علم التحقيق.

العمود الثالث: وهذا الأخير يحتلّ المرتبة الثالثة، وبنسبة ضئيلة جدّا مقارنة بمثيلاتها، والمقدّرة بـ: 3.5%، ويرجع ذلك إلى أنّ المحقّق في القسمين الأوّل والثاني قد استوفى تقريبا كلّ المعلومات التي يخضع لها التحقيق، ولذلك جاءت هوامش هذا القسم خفيفة، أضف إلى ذلك قلّة عدد أوراق هذا الفصل، الأمر الذي لا يستدعي شروحا مفصّلة ولا تعليقات قد تثقل الهوامش.



التعليق: تمثّل هذه الدائرة النسبية، التفاوت النسبي بين هوامش هذا القسم، إذ تتراوح الفوارق في تعاليق الصفحات ما بين 13% و 48% وذلك تبعا للمعلومات الواردة في صفحات هذا القسم، فكلّ

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ما استدعت الضرورة العلمية المحقّقَ أن يعلّق أو يفسّر، أو يشرح معلومة من المعلومات، أو يقارن بينها، كان يقوم بذلك، الأمر الذي اكتسى هذا العمل قيمة علمية أضافت إلى المخطوطة معلومات قد تفيد الباحث إذا ما رام البحث في مثل هذه المواضيع، والتنقيب عن جوانب عدّة تحوم حول شخصية المهدي بن تومرت. وأثناء تعليقنا عما ورد من معلومات تاريخية قيّمة، سنبدأ بأكبر نسبة فما دونها حتى يتبيّن لنا جليّا تلك الفروق الموجود بين هوامش صفحات هذا القسم.

النسبة الأولى: المقدّرة بـ: 48%، وهي أعلى نسبة احتلّها هذا الرّسم البياني، وهذا يدلّ على أنّ الهوامش كانت مثقلة بالتعاليق والمعلومات التي يقتضيها منهج التحقيق لدى المحقّق عبد الحميد حاجيات.

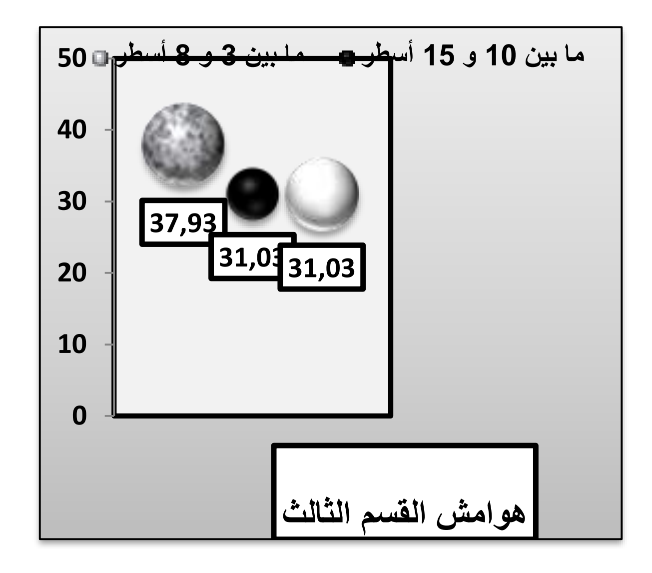
النسبة الثانية: ممثّلة بنسبة 25%، إذ تمثّل نصف تعاليق النسبة الأولى تقريبا، حيث نلاحظ تناقص تعليقات المحقّق.

النسبة الثالثة: وهي مقدّرة بـ: 14%، وهي تمثّل تقريبا نصف النسبة سالفة الذكر، مما يدلّ على أنّ اهتمام المحقّق بالتعاليق بدأ يقلّ بما تقتضيه ضرورة التحقيق والتعليق.

النسبة الرّابعة: وهي مقاربة للنسبة الثالثة، إذ وصلت إلى 13%.

من خلال ما تقدّم ذكره، فالملاحظة التي يمكن الخروج بها من خلال هذه التعاليق المقتضبة، نلاحظ أنّ المحقّق في هذا القسم قد جمع بين الطريقتين، الأولى: التي تعتني اعتناءً كبيرا بكلّ كبيرة وصغيرة ممّا ورد من معلومات بين ثنايا المخطوطة، والثانية: وهي الطريقة التي اعتمدت التعليق على ما هو ضروري في مضان المخطوطة، فجاءت هوامشها متوسّطة، وغير مثقلة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI



التعليق: يمثّل هذا الرّسم البياني نسب التعاليق التي اتبعها المحقّق في تحقيقه للقسم الثالث، إذ يُظْهِرُ لنا هذا الأخير ذلك التوازن الموجود بين هذه النسب، والتي توزّعت معلوماته في صفحات هذا القسم.

الدائرة الأولى: الواقعة على يسار الإطار والممثّلة بنسبة 37.93%، وهي النسبة التي تراوح عدد أسطرها ما بين 3 و 8 أسطر.

الدائرة الثانية: الواقعة على يمين الإطار والممثّلة بنسبة 31.03%، تحتلّ المرتبة الثانية بفارق بسيط بينها وبين النسبة الأولى، والتي تتراوح ما بين 10 و 15 سطرا.

الدائرة الثالثة: الواقعة وسط الإطار والتي تمثّل نسبة مساوية للنسبة الثانية، والمقدّرة بـ: 31.03%، تحتلّ نفس المرتبة مع قرينتها الدائرة الثانية بعدد أسطر تتراوح ما بين 16 و 22 سطرا.

ملاحظة عامّة حول معطيات الرسوم البيانية سالفة الذكر.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يتبيّن لنا من خلال هذه الرّسومات، أنّ محقّقنا عبد الحميد حاجيات قد اعتنى عناية كبيرة بالهوامش وما احتوته من معلومات قيّمة، وكانت عدد أسطر الأقسام الثلاثة متوازنة على العموم، فتارة هي هوامش مثقلة بالمعلومات التي تقتضيها تقنيات الهوامش، وتارة أخرى تكون متوسّطة، وأخرى غير مثقلة، ولهذا فإنّ المحقّق قد التزم بالمنهجية العامة للهوامش، وما احتوته من تعاليق، والتي سنتعرّض إليها بالشّرح والتعليل، وإن كان هناك ما يقال حول المادة العلمية التي احتوتها هذه الأخيرة، والمنهجية التي اتبعها المحقّق. لا مناحة من أنّ الهوامش قد أضفت على عمل المحقّق مصداقية علمية، وهذا يدلّ على اتساع أفقه العلمية، فالهوامش هو كلّ عمل يخرج عن النّص أو المتن إمّا شرحا وإما إشارة أو تعليقا، وتستخدم هذه الهوامش لعدّة أغراض، منها: ذكر لأسماء المصادر والمراجع، واستخدام المفاهيم والحقائق التي يعتمدها المحقّق أخذا عن أعمال أخرى، أو شرحا لبعض المفردات الواردة في المتن أو تصحيحا للأخطاء الواردة بالمخطوطة، وغيرها من التعاليق التي تخدم النّص المُحَقَّق.[5]

3- مراحل التحقيق: مرّت عملية تحقيق مخطوطة أخبار المهدي بن تومرت بعدّة مراحل، وهي على النّحو التالي:

<u>المرحلة الأولى</u>: وهي المرحلة التي يجب على كلّ محقّق الالتزام بها، والمتمثلة فيما يلي:

* <u>الاعتماد على عدد من النسخ</u>: بعد أن يختار المحقّق المخطوطة موضوع الدراسة، فلزاما عليه أن يقوم بجمع عدد ممكن من نسخ المخطوط، ولا يمكن أن يتأتى له ذلك إلا بالاعتماد على مراجعَ متخصّصة في هذا الميدان، فمن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر منها:

- تاريخ الأدب العربي: Geschichte der Arabischen Litteratur لمؤلّفه كارل بروكلمان، C. Brokelman، وهو مستشرق ألماني، ولد سنة 1868م وتوفي في 6 مايو سنة 1956م، وألّف الكثير من الكتب القيّمة في اللّغة العربية واللّغات السّامية.[6] وهذا الكتاب يتكوّن من ستة أجزاء، حيث اعتنى فيه بالأدب العربي بمفهومه الواسع ومن خاض فيه، وكان التاريخ إحدى هذه العلوم.[7]

- تاريخ التراث العربي: لمؤلّفه فؤاد سزكين، وفيه اعتنى مؤلّفه بتراجم مهمّة تتعلّق بمختلف العلوم، وهو كثير الفائدة، لأنّ مؤلّفه خصّص جزءا منه للمخطوطات الموجودة في مكتبات العالم، وهو يتكوّن من عدّة أجزاء.[8]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– خزانة التراث: وهي قاعدة معلومات المخطوطات العربية في العالم والتي أنشأها مركز الملك فيصل.

– معهد المخطوطات العربية الموجود بالقاهرة، والذي قام بتصوير آلاف المخطوطات التي كانت موزّعة في العالم.

– مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث: الكائن بدبي والذي يتوفّر على ما يقارب 30000 نسخة من المخطوطات المصوّرة، إذ لهذا الأخير اتصال كثيف مع الباحثين المهتمين بهذا التراث.

– فهارس المخطوطات: التي تساعدنا كثيرا، وتعطينا معلومات وافية حول المخطوطات، ولا زالت المكتبات تُصْدِر مثل هذه الفهارس التي تساعد كثيرا الباحثين.[9] أما السّؤال الذي يطرح نفسه، هل استطاع المحقّق الحصول على أكثر من نسخة حتى يمكن له القيام بالمقارنة؟

لم يحالف محقّقنا الحظ في العثور على أكثر من نسخة، فكان اعتماده على نسخة وحيدة والموجودة بـ: الاسكوريال، والتي اعتمد عليها ليفي بروفنسال أثناء قيامه بالترجمة لهذه النسخة ونشرها.

لقد حُرِم المحقّق من نسخ أخرى للمخطوط، وهذا ما يصعّب عليه القيام بعمله كما تتطلّبه منهجية التحقيق، لأنّ النسخة الفريدة قد تعتريها بعض العيوب، مثل: كونها مبتورة، كما هو الشّأن لمخطوطة البيذق التي اعتبرت مبتورة الأوّل،[10] فهذا يؤدي إلى نقص معلومات مهمّة حول المخطوط. إضافة إلى وجود نسخ مشوّهة أو بها خرم،[11] وغيرها من العيوب.[12]

4– التحقيق: تعتبر هذه الخطوة من أهم الخطوات التي يلتزم بها أيّ محقّق، إذ الغاية منها هو تقديم المخطوط صحيحا، والتحقيق، يقصد به عناية خاصة به للتثبت من استيفاء هذا الأخير لعدّة شروط، منها: جعل متن الكتاب أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها عليه مؤلّفه، أو كما أراده له مؤلّفه. إضافة إلى التثبت من صحة العنوان واسم المؤلّف، وغيرها من الشروط التي يعتني بها أيّ محقّق.[13] ومن قواعد التحقيق، التي يتبعها أيّ محقّق هي على النّحو التالي:

أ– تنظيم نص المخطوط:

* تقطيع النّص وتوزيع فقراته: لم يكن المؤلّفون والنسّاخ يهتمون بهذا الجانب، والمعروف في أدبيات التحقيق بتنظيم مادة النّص،[14] فلا بأس من ترتيب النّص على حدّ قول بعض المختصين في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التحقيق.[15] أما بخصوص هذه الخطوة، فقد التزم المحقّق عبد الحميد حاجيات بها، وهذا ما نستشفه من خلال تصفحّنا للكتاب، إذ يظهر لنا ذلك جليّا من خلال بعض الأمثلة التي نودّ التوقّف عندها، وهي على النّحو التالي:

ص **37**: قام المحقّق بتقسيمها إلى ثلاث فقرات.

ص **42**: قام بتقسيمها إلى أربع فقرات.

ص **99**: قسّمها إلى خمس فقرات.

ص **144**: قسّمها إلى فقرتين.

من خلال هذه النماذج التي توقّفنا عندها، فقد تراوح تقسيم هذه الفقرات ما بين فقرتين إلى خمس فقرات، وهذا يدلّ على مدى اعتناء المحقّق بهذا الجانب المنهجي المهمّ، والذي يسهّل علينا قراءة النّص قراءة صحيحة، وبدون تعب أو كلل.

ب- علامات الترقيم: إنّ العناية بعلامات الترقيم هذه، وبخاصة في المتون، تعتبر ذا أهمية في عملية تحقيق النّصوص، وإن كانت هذه العلامات لم يهتم بها العرب إلا في وقت متأخّر، ولكن هؤلاء كانت لديهم أكثر من علامة.[16] وعلامات الترقيم هذه، توضع بين أجزاء الكلام المكتوب، وذلك بهدف تمييز بعضه البعض، أو لتنويع الصوت به عند العرب عند قراءته، وهي كذلك بمثابة فصل بين الجمل والعبارات الواردة في المتن.[17] من هذه العلامات، نخصّ بالذكر منها:

* الفاصلة: الغرض منها أن يسكت القارئ عندها سكتة خفيفة، وهي توضع بين الجمل والكلمات، فهذه العلامة هي جدّ مهمة في عملية تحقيق النّص، ولهذا نجد عبد الحميد حاجيات قد اعتنى بوضع الفواصل في مكانها، وهذا ما سنحاول تتبعه من خلال هذه النماذج المختارة.

في باب ذكر دخول المعصوم مكناسة.[19]

"اعلم أنّ الله تعالى لما أمر بخروج المعصوم من فاس نزلنا بمغيلة،[20] عند يوسف ابن محمد، وعبد الرّحمن بن جعفر، ثم منها نحو مكناسة، فلما أشرفنا على الكدية البيضاء، نظر المعصوم للكدية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

فإذا بها مملوءة رجالا ونساء تحت شجرة لوز، فدخل المعصوم فيهم ميمنة وميسرة وبددناهم يمينا وشمالا... ثم ارتحل منها في ساعة سعد وسلامة".[21]

في باب ذكر الثائرين بالأندلس على الأمير.

أولهم أبو القاسم بن حمدين،[22] القائم بقرطبة، بقستنتينة وفرنجولش، قتله عبد الرحمن بن ينعمان ويخلف بن يلولي. والثالث ابن وزير، وحد، والرابع البطروشي والفخار، خرج إليهما يحيى بن يومور، فغزاهما وبدد شملهما بمدينة لبلة.[23] والخامس ابن علي القائم ببطليوس،[24]... والسادس أبو الغَمْر... السابع دردوش قام في قرمونة،[25]... والثامن ابن علي، ... والتاسع ابن قسي في شلير[26] مع أزكش بوادي آش،.......[27]

* النقطة: وهي التي تنتهي بها الجملة الكبرى، ويوقف بعدها، أو ينتهي بها النّص، فالنقطة لا توضع هكذا، وإنّما توضع في المكان المناسب،[28] فمن أمثلة ذلك، ما التزم به المحقّق عبد الحميد حاجات في تحقيقه.

في باب بيعة الإمام المهدي:

ثمّ بعد ذلك رحل إلى تينملل، فبايعه بها، وذلك تحت شجرة الخروب.[29] فأوّل من بايع المعصوم الخليفة عبد المؤمن بن علي، ثم أبو إبراهيم.[30]... ثمّ سائر الموحدين.[31]

* النقطتان والشّولتان: توضع بعد العناوين الفرعية وبين لفظ القول وبين الكلام المقُول، وبين الشيء وأقسامه، وأمام لفظ مثل.[32] وأما الشولتان، فتوضعان بينهما العبارات المنقولة حرفيا من النصوص المقتبسة، حتى يمكن لنا التمييز بين ما ورد في النّص الأصلي، وكلام الباحث.[33]

ومن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر منها بعض الأمثلة.

في باب ذكر دخول المعصوم تلمسان:

فقال المعصوم: "سيروا معه لا تفسدوا عليه خاطره". فلما نزلنا عنده قال: "سألتكم بالله العظيم، لا تفسدوا علينا سيرتنا ادفعوا لنا من يختار ضيافتكم من الغنم". فقال المعصوم لعبد المؤمن: "سر معه" وقال لي: "مر أنت معه"...".[34]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

* علامة الاستفهام: توضع هذه العلامة عقب جملة استفهامية، سواء أكانت أداته ظاهرة أو مقدّرة.[35] وعند مطالعتنا للنّص المُحَقَّق، نجده قد التزم بهذه العلامة، فمن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر هذه الفقرة.

في باب ذكر اتصال الخليفة بالإمام المهدي:

"اعلم يا أخي أنّه لما جد السير نحو الإمام اجتمع مع الطلبة في طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد فرفع المعصوم رضه رأسه فواقفه أمامه، فقال له: أدخل يا شاب، فدخل... فقال له المعصوم: ما اسمك يا فتى؟ فقال: عبد المؤمن، فقال له المعصوم: وأبوك علي، فقال نعم. فتعجّب النّاس من ذلك، فقال له: يا شاب من أين أقبالك؟....".[36] تلك هي أهم علامات الترقيم التي التزم بها المحقّق، فمثل هذه العلامات هي أكثر استعمالا عندما نروم تحقيق المخطوطات، مما يسهّل على القارئ سهولة قراءة النّص المحقّق.

* الالتزام بقواعد الرّسم الإملائي: من المحقّقين من يلتزم بالرّسم الإملائي للنّص المُحَقّق، ويتركه كما ورد في المخطوط، ومنهم من يتدخّل في ذلك ويغيّر رسم الكلمة بما يوافق العصر، دون الإشارة إلى ذلك في الهامش. ولكن السّؤال المطروح، ما هي الطريقة التي اتبعها محقّقنا عبد الحميد حاجيات بهذا الخصوص؟

للإجابة على هذا السّؤال، كان لزاما علينا تتبع ما ورد في النّص المُحَقّق، ومقارنته بتحقيق آخر لنفس الكتاب، والذي قام به عبد الوهاب بن منصور الذي حافظ على الرّسم الإملائي للغة ذلك العصر، والتي كانت معروفة عند المغاربة في العصور الوسطى. فمن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر منها:

في باب ذكر دخول المعصوم تونس:

كتابته للفعل المعتلّ الأخير، بهذا الرّسم الإملائي: **صلى.**[37] والمعهود في الخط المغربي الوسيط أنّ الفعل إذا كان مُعْتَلَّ الآخر، يُكْتَبُ على هذا النّحو: **صلا** أي: بالألف المدودة، فمن أمثلة ذلك، ما ورد عند ابن أبي زرع في مقدمة كتابه "روض القرطاس". باسم الله الرّحمان الرّحيم. **وصلا** الله على سيدنا محمد وآله وصحبه[38] وبنفس الرّسم وردت في طبعة الرّباط.[39]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كتابته بهذا الرّسم لاسم **يحيى.**[40] في حين نجدها في طبعة الرّباط المحقّقة، بهذا الرّسم: **يحيا** بن إسماعيل.[41] ورد اسم الإشارة في تحقيق عبد الحميد حاجيات، على هذا النّحو: **ذلك.** في حين ورد هذا الاسم بهذا الرّسم **ذالك**. بألف ممدودة بعد حرف الذال المعجمة في طبعة الرّباط.[42]ذِكْرُ المحقّق لكلمة الفتى بنفس الرّسم الحديث، أي: **فتى.**[43] في حين وردت في طبعة الرّباط بنفس الرّسم الذي تَعَوّدَ عليه مؤرّخو العصور الوسطى بالألف المدودة. **فتا**.[44]ذِكْرُهُ لفعل رأى بنفس الرّسم الحديث الذي تعوّدنا عليه..[45] بينما نجدها في طبعة الرّباط بهذا الرّسم.[46]

هذه بعض النماذج التي وقع عليها اختيارنا، والتي تُبَيّن بما لا يدعو للشّك أنّ المُحقّقَ عبد الحميد حاجيات لم يحافظ على الرّسم الإملائي الذي كان معمولا به في العصور الوسطى، وتصرّف فيه على حسب ما رآه ضروريا للفهم، وحتى لا يُعْتَبَرُ خطأ نحويٌّ، وهذه الطريقة قد يعتمدها بعض المحقّقين. ومن المحقّقين من يقوم بعملية التصحيح في متن النّص، ويشير إلى ذلك في الهوامش حتى يحافظ على النّص الأصلي، ويُعْلِم القارئ أنّ المحقّق قد تدخّل في النّص. وهذا ما قام به بعض المحقّقين من أمثال: عبد القادر بوباية، عندما رام تحقيق كتاب "تاريخ الأندلس"، حيث تدخّل في النّص وقام بتصحيح كلمة –أعذبها– والتي وردت في المخطوطة بهذا الرّسم –أغربها– معتمدا في تصحيحه هذا، على مخطوطة "م".[47]

ولكن، إذا اعتمدنا على المقولة التي تذكر ما مفاده: "صار معلوما أنّ المخطوطة عمل مؤلّف وأنّ المحقّق هو الذي يبرزها إلى النّور، فلا يجوز للمحقّق أن يصوّب للمؤلّف، ولا أن يُعْمِلَ قلمَه على قلم مؤلّفها، وإلا اختلط فعل هذا بفعل ذاك".[48]

فإذا اعتمدنا هذا القول، فلا يصحّ للمحقّق أن يغيّر شيئا مما ورد في النّص الأصلي،[49] ويجب عليه أن يحافظ على ما ورد في نص المخطوطة كما أرادها لها مؤلّفها، وهذا ما قام به محقّق نسخة الرّباط، إذ حافظ على الرّسم الإملائي لنص المخطوطة كما وردت. دون أن يشير إلى التصحيح في الهوامش.[50]

ومنهم من يحافظ على نفس رسم الكلمة الواردة عند مؤلّف المخطوطة، ثم يضيف بعدها كلمة (كذا)،[51] وقدا اتبع هذه المنهجية الباحث والمحقّق يحيى بوعزيز –رحمه الله–، وهذا ما يظهر لنا جليّا في هذا النّص. "... ولما ملكها الإسبانيون في المرة الأولى سكن بعضهم عند قبره فرءا (كذا) ما يكرهه

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التزاما..."[52] ونفس الطريقة اتبعها بعض المحقّقين من أمثال الباحث والمحقّق محمد بن عبد الكريم –رحمه الله– الذي قام بتحقيق كتاب "التُّحْفَة المَرْضِيَة"، فأشار في المقدمة بأنّه لم يتدخّل في النّص، وهذا ما نفهمه من خلال قوله: "ولم نبدّل حرفا قد وضعه قلم النّاسخ في غير موضعه".[53]هذه نماذج من بعض أعمال المحقّقين، والذي التزم كلّ واحد منهم بطريقته الخاصة، والمعمول بها عند باقي المحقّقين الآخرين، فهذه الطرق قد اعتمدتها كتب منهجية تحقيق المخطوطات، ولا ضير في ذلك أن يعتمدها المحقّقون، وقد التزم محقّقنا عبد الحميد حاجيات بإحداها، فوُفِقَ في ذلك.ومن الطرق المعتمدة في أدبيات منهجية التحقيق، أن ينبّه المحقّق على هذه التصحيحات والتعديلات في أصل النّص في مقدّمة التحقيق حتى لا يضطر هذا الأخير لتكرارها في كلّ هوامش النّص المحقّق، وهي طريقة صحيحة لمن اتبع هذه المنهجية. * الالتزام بوضع القوسين المزهرين: وهي العلامات اللّتان تستعملان لحصر الآيات القرآنية الكريمة.[54] ويقوم المحقّق بوضعهما، حتى لا يختلط كلام الله عزّ وجلّ بكلام آخر، ويمكن للمحقّق أن ينزلهما مع الآيات الواردة في المخطوطة من القرآن الكريم مباشرة بالاستعانة بجهاز الحاسوب.[55]

وردت في مخطوطة البيذق بعض آيات القرآن الكريم التي استدلّ بها أثناء تأليفه لهذا الكتاب، وقد قام المحقّق بحصرها ضمن مزدوجتين، وكان من الممكن أن توضع مثل هذه الآيات –كما هو متفق عليه في أدبيات تحقيق المخطوطات– بين القوسين المزهرين، فمن أمثلة ذلك، قوله تعالى: "ولا يُبْدِينَ زينَتَهُنَّ إلاّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا".[56] في حين نجد في طبعة الرّباط،[57] أنّ المحقّق وضعها بين قوسين، وقد وردت الآية على هذا النّحو: (وقلْ للمؤمناتِ يغضُضْنَ مِنْ أبصارهِنَّ ويحفظْنَ فروجَهُنَّ ولا يُبدينَ زينتهُنَّ إلا ما ظهر منها).[58] الآية.[59]

* الالتزام بوضع القوسين: يقعان في وسط الكلام، وذلك حينما يريد المؤلّف تفسير ما قبله أو شرحه، أو توضيحه. كما يوضعان في الجمل الدعائية، مثل: (جلّ جلاله) و (صلّى الله عليه وسلّم)، و (رضي الله عنه).[60] عند العودة إلى النّص المحقّق، هل نعثر على مثل هذه العلامات في تحقيق عبد الحميد حاجيات؟ فمن خلال هذه الأمثلة المختارة، سنحاول التعرّف على منهجه في ذلك. فمن بين الأمثلة الواردة في النّص المخطوط، جملة رضي الله عنه، والتي وردت في العنوان على هذا النّحو: **رضه**،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولم يقم المحقّق بوضعها ضمن القوسين، بل وضع القوسين ضمن جزء من العنوان. باب نذكر فيه (دخول سيدنا المعصوم رضه تونس).[61] وتتكرّر نفس الطريقة في الصفحات المتبقية من النّص المُحَقَّق.[62]

أما في طبعة الرّباط، فقد التزم محقّقها بنفس منهج عبد الحميد حاجيات، أي بدون وضع القوسين، ولكن يذكر هذه الجملة الدعائية على هذا النّحو: **رضي الله عنه**.[63] كما استعمل القوسين، في مواضع أخرى، منها: في باب (**وفاة تاشفين بن علي وافتتاح وهران)** يضع العنوان ضمن قوسين، وكذا ذكره ضمن هذا الباب، جملة. وقائدها **(ابن)** ميمون بن المنتصر. كما يذكر عنوانا آخر ضمن قوسين، وهو **(فصل في ذكر افتتاح مراكش)**.[64]

من خلال مقارنتنا للنّص الذي قام بتحقيقه عبد الحميد حاجيات، والنّص المحقّق في طبعة الرّباط من طرف عبد الوهاب بن منصور، نجد بأنّ القوسين اللّذين استعملهما عبد الحميد حاجيات، هي إضافات من عنده، ففيما يخصّ العناوين فهي من وضعه، لأنّ في نسخة الرّباط، نجد المحقّق قد حافظ على النّص كما أورده مؤلّفه، دون وضع مثل هذه العناوين الذي اجتهد فيها محقّقنا عبد الحميد حاجيات في وضعها، ولكن المتفّق عليه في أدبيات منهجية التحقيق، أنّ إضافات أو اجتهادات المحقّقين والتصرّف في النّص، توضع بين الخطين العمودين [ ]، وهو ما يعرف في منهجية التحقيق، بالقوسين المركبين، واللّذين يعتمدها المحقّق عندما يضطر إلى بعض الإضافات، أو يجتهد في وضع عناوين للفقرات الواردة في متن النّص حسب التسلسل الزمني، أو حسب توارد الأحداث، أو لإكمال النقص كما هو الشّأن لمخطوطة البيذق.[65]

* اجتهاد المحقّق في وضع عناوين للمخطوطة: من خلال تصفّحنا لمتن المخطوطة، نجد لمسة المحقّق عبد الحميد حاجيات، واجتهاده في وضع عناوين له، وأمثلة ذلك كثيرة، نخصّ بالذكر منها:

في باب ذكر غزاة البشير رضه: بعد الانتهاء من سرد هذه الغزاة، يضع عنوانا في وسط الصفحة، بهذا الشّكل: **(وفاة المهدي)** "فأقمنا بها ثلاثة أشهر، فوجد المعصوم في نفسه مرضا فطلعنا معه لفدّان أمدَيوس والصبيان معه... وتوفي مولانا الإمام، رضي اللّه عنه، ونوّر ضريحه، وقدّس روحه، ورزقنا بركته، وجمع بينه وبين أصحابه في الملأ الأعلى، قبل الفجر من يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة...".[66] ولكن عند العودة إلى نسخة الرّباط، نجد محقّقها لا يعتمد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مثل هذه العناوين، ففي نفس الباب وأبواب أخرى، تلتسقط هذه العناوين بالفقرة التي يذكر فيها مؤلّف المخطوط مثل هذه الغزوات، فمن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر منها هذه الفقرة، في **باب خروج المهدي للغزو**. والتي وضع لها عبد الحميد حاجيات هذا العنوان: (**غزاة فازاز**). أما في طبعة الرّباط، فقد وردت على شكل فقرة، دون عَنْوَنَتِها، والنّص هو على النّحو التالي: ""ثم تقاسم العسكر على أعداد، فخرج ابن زَجكّو لبني كانون، وخرج آخر لتيظاف، فوحد آيت سدرات، وبنو آمَرْسال، وأهل ملوية، ثم رجع ابن زَكّو نحو آزرو، ورجع العسكر كلّه...ووحد أهل فازاز ونزلوا على القلعة، وتاشفين بفاس والابرتير معه[67]، ثم خرج عسكر من فاس ومكناسة بالميز والغياث، ونزلوا على القلعة، فدخل الشتات بينهم...".[68] * من حيث استعمال الخط المائل: يستعمل هذا الخط للفصل بين صفحات المخطوط، وقد يستعمل في أوّل السّطر أو في وسطه أو في آخره، ويشير إلى جانبه إلى رقم ورقة المخطوط.[69] وعند العودة إلى منهج عبد الحميد حاجيات في ذلك، نجده يستخدم القوسين وبداخلهما رقم ورقة المخطوطة،[70] فمن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر منها بعض الفقرات، وهي على النّحو التالي:

في باب ذكر دخول المعصوم قسنطينة:

"وذلك أنّه لما دخل المعصوم قسنطينة نزل بها عند الفقيه عبد الرحمن الميلي ويحيى بن القاسم وعبد العزيز بن محمد. وكان أميرها سبع بن عبد العزيز، وكان قاضيها قاسم بن عبد الرّحمن، وكان الطلبة الذين (**22ظ**) (بها يأتون) المعصوم يقرؤون عليه...".[71] تلك هو منهج المحقّق في ذلك، إذ استعمل الأقواس بدل الخط المائل (/) ليحدّد بداية أرقام ورقة المخطوطة، ولم يهمل ذلك باعتبار هذه العملية تدخل في صميم تحقيق المخطوطات.

* الالتزام بوضع الشولتين: ويطلق عليها كذلك —علامة التنصيص أو علامة الاقتباس، بحيث تقوم مثل هذه العلامات بحصر النّص المقتبس حرفيا عن باقي النّصوص الأخرى.[72] لقد التزم مُحَقِّقُنا عبد الحميد حاجيات بهذه المنهجية التي يعتمدها علم التحقيق، فما نكاد نطالع صفحة من صفحات النّص المُحَقَّق، إلا ووجدنا التزاما كليّا من طرفه بوضع هذه العلامة، فمن أمثلة ذلك:

في باب دخول المعصوم بجاية: حيث استعمل الشّولتين في مواضع عدّة، منها هذه الفقرة التي سنذكرها باختصار.وذلك أنّ المعصوم رضه لما دخل بجاية نزل بها بمسجد الريحانة. وكان ينهى النّاس

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عن الاقراق الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحيات للرجال... فلما كان يوم الفطر اختلط الرجال والنساء في الشّريعة[73]. فلما رآهم الامام "رضه" دخل فيهم بالعصا يمينا وشمالا حتى بددهم فلما رآه ابن العزيز يفعل ذلك قال له: "يا فقيه لا تأمر السوقة بالمعروف وهم لا يعرفونه، فإني أخاف أن يأمروا فيك وتهلكهم، لا يستوي حر كريم مع شيطان رجيم"... فبينما هو ذات يوم قاعد إذ سمعناه يقول: "الحمد لله الذي انجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره". وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال: "الحمد لله على كلّ حال، قد بلغ وقت النصر، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. يصلكم غدا طالب، طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره".[74] من خلال ما تقدّم ذكره، نجد المحقّق عبد الحميد حاجيات، قد أعطى لهذه العلامة حقّها في نص البيذق، مما يسهّل عملية قراءة هذا المخطوط المُحَقَّق، ولكن على العكس من ذلك، فطبع الرّباط، محققّها لم يلتزم بمثل هذه العلامة، وهذا ما نستشفه من خلال اطلاعنا على النّسخة المحقّقة، وقد يكون المحقق قد التزم بالمنهجية القائلة: أنّه لا يمكن للمحقق أن يتدخّل في النّص، لا بالزيادة ولا بالنقصان.[75]

4- التعليق: تعتبر هذه الخطوة من الخطوات المهمّة في عمل المحقّق، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالهوامش، وهذه الأخيرة يُطْلِقُ عليها بعض الباحثين اسم "الحواشي"، وهي الخطوة الثانية من خطواته، فبعد انتهائه من ضبط النّص.هذه الأخيرة، تعتبر من الأمور الضرورية التي يتطلبّها البحث التاريخ، وكذا تحقيق المخطوطات، حيث تُسْتَعْمَل عندما يرغب المحقّق توضيح فكرة ما وردت في متن النّص، وغيرها من المعلومات،[تن] فالهوامش تحتوي على معلومات لا يمكن الاستغناء عنها، فممّا تحتويه هذه الأخيرة، نخصّ بالذكر منها: الإشارة إلى المصادر والمراجع، وتفصيل مجمل أو الإشارة إلى الأماكن والأعلام، وغيرها من المعلومات الضرورية. فهو عبارة عن عمل نقديّ بالدرجة الأولى تنمّ على مدى اتساع مدارك المحقِّق العلمية.

ما من شك أنّ المحقّق عبد الحميد حاجيات، قد أولى كلّ اهتماماته بهذا الجانب المهمّ في عمله، وسيتضّح لنا ذلك جليّا من خلال بعض النماذج التي وقع عليها اختيارنا، والتي من خلالها تتضّح لنا منهجيته في التعامل مع الهوامش.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أ- تراجم الأعلام: لا يخلو أيّ تحقيق من ذلك، والذي يقف فيه المحقّق على بعض الأعلام، سواء أكانت شخصيات سياسية أو علمية، وبخاصة المغمورة منها، وبهذا الصدد يجب على المحقّق أن يذكر هذه الشّخصية أو تلك، بكنيتها ولقبها واسمها، واسم أبيها ونسبها وشهرتها، وأهم الفنون التي ظهرت واشتهر بها، وغيرها من المعلومات التي تحوم حول مثل هؤلاء الأعلام.[77]

لقد ورد في تحقيق عبد الحميد حاجيات ترجمة لعدد لا بأس به من هؤلاء الأعلام، وهذا يظهر لنا جليّا من خلال بعض الأمثلة التي سنقف عندها.

ص 32- هامش رقم 3- ترجم فيه لأبي محمد عبد الواحد الشرقي، حيث ترجم له ترجمة وافية، وبخاصة نسبته والمهام التي أسندت له، ثم النهاية التي انتهت بقتله، وما يزيد في أمانة المحقّق العلمية، إشارته إلى أهم المصادر والمراجع التي اعتنت بالترجمة لهذه الشّخصية، من بينها البيان المغرب لابن عذاري، والمعجب لعبد الواحد المراكشي.

ص 85- هامش رقم 6- ترجم فيه المحقّق لشخصية أبو علي الأشيري، حيث قام بتصحيح الاسم، وذلك بقوله: والأصح أنّ اسمه أبو علي بن الأشيري، ثم يقوم بإظهار اتجاهاته العلمية، وبخاصة الأدبية منها، وأهم مؤلّفاته منها: كتابه في التاريخ الذي اعتمد عليه بعض المؤرّخين، كان من بينهم ابن عذاري، وغيرهم.أما الأمر الثاني الذي ننوّه به في تحقيق عبد الحميد حاجيات، هو اعتماده على بعض المصادر المهمّة، منها: كتاب التكملة لابن الأبار، والمن بالإمامة لمؤلّفه ابن صاحب الصلاة، وتظهر لنا جليّا أمانته العلمية، حينما يشير ضمن هذه الإحالة، بأنّه أخذ المعلومات من هامش المحقّق.

ب- التعريف بالأماكن الجغرافية: كانت عناية المحقّق بهذا الجانب عناية تستحق الذكر، فقد وردت بعض الأعلام الجغرافية التي قام بالترجمة لها، نخصّ بالذكر منها هذه النماذج التي وردت في تعليقاته.

ص 38- هامش رقم 2- وفيه يقوم المحقّق بالتعريف بالبطحاء، فيذكرها على أساس أنها مدينة من بنيان القدامى، ويحدّد موقعها الجغرافي تحديدا دقيقا، ثم يحيل إلى مرجع أجنبي، ألا وهو Huici، وتحديد الجزء والصفحة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ص **40– هامش رقم 8–** حيث ورد في المخطوطة اسم صاء ويقوم المحقّق بإحالتنا في الهامش إلى الاسم المتداول حاليا، ألا وهو –تاوريرت–[78] وكانت تلك التفاتة طيّبة من طرف محقّقنا، ثم يحيل إلى البكري الذي يذكرها بهذا الرّسم صاع مخالفا الرّسم الوارد بالمخطوط.[79]

ص **39– هامش رقم 8–** وفيه يعرّفنا على موضع يطلق عليه اسم الصخرتين ويقوم فيه بتحديد موقعه بقوله: أنّه يقع بضواحي مدينة تلمسان، بالقرب من المنصورة التي بناها بنو مرين. إلاّ أنّه في هذا المقام لا يفيدنا بالمصادر أو المراجع التي استقى منها هذه المعلومات.

ت– شرح المفردات والمصطلحات والألفاظ الغامضة: من مهام المحقّق أن يقوم بتفسير ما غمض من ألفاظ وعبارات وبعض المفردات الواردة في المخطوط، سواء أكانت مدوّنة بلغة المخطوط أو بلغة أخرى، ذلك لأنّ بعض المخطوطات العربية جاء فيها استخدام لمثل هذه التعابير والألفاظ غير المفهومة، فكان لا بدّ من شرحها وتفسيرها، ووضعها في الهوامش.[80] ما من شك أنّ المخطوط قد احتوى على بعض الألفاظ التي يصعب على المتصفّح له فهمها، فمن الضروري أن يتعرّض المحقّق إلى إعطاء تفاسير أو شروح تسهّل عملية فهم النّص المُحَقّق، وهذا ما حاول القيام به عبد الحميد حاجيات حتى يكتمل عمله كمحقّق.فمن أمثلة ذلك، سنقتصر على بعض الأمثلة، منها:

ص **52– هامش رقم 4–** عند تعرّضه للفظة بربرية غير مفهومة، أو موجودة في القواميس التي اعتاد الباحثون استعمالها، وهي كلمة –آساراك– فقام المحقّق بتفسيرها بقوله: "وهو حظيرة الخيل باللّسان البربري".[81]

ص **58– هامش رقم 1–** عند ذكره لكلمة –كيك– يقوم المحقّق بشرح هذا المصطلح، فهذا الأخير غير معروف لدى العامّة وحتى عند الخاصة، لأنّه قليل الاستعمال، فكان من واجب محقّقنا أن يقوم بتفسيرها، فقال: أنّه اسم يطلق على الهضاب الواقعة بين جبال هنتانة ومراكش، ثم قام بذكر حدوده.

من خلال هذا الشّرح، يظهر لنا جليّا مدى اتساع مدارك عبد الحميد حاجيات المعرفية، وبخاصة أنّ له تجربة رائدة في هذا الميدان، ولكن ما يلاحظ على هذه الإحالة، هو غياب المصادر أو المراجع الذي اعتمد عليه المحقّق، حتى يمكن لنا الاستفادة منها إذا ما رمنا ولوج هذا الميدان الصعب

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ألا وهو التحقيق، لآنّ هناك مراجع متخصّصة في مثل هذه المصطلحات الغريبة، والتي يمكن الاستفادة منها، فكان من الممكن أن يطلعنا عليها المحقّق، وإن كان مصدر هذه المعلومة مصدرا شفهيا، فكان من الممكن أن يفيدنا باسم صاحب هذه الرواية الشفهية.

ص 90– هامش رقم 6– عند ورود كلمة غير مفهومة لدينا، ألا وهي كلمة –أسافوا–والتي قام بشرحها على هذا النّحو: "هو المشعال باللّغة البربرية".هذه نماذج من بعض المفردات والمصطلحات الواردة في المخطوط، والتي بدل فيها محقّقنا جهدا لشرحها وتفسيرها، حتى يصبح النّص سهل القراءة.

ث– الإحالات الخارجية: وهي أن يحيل المحقّق في الهامش إلى نصوص موجودة في مصادر أو مراجع أو بحوث تخدم المتن. وقد اتبع عبد الحميد حاجيات هذه المنهجية، والتي أضافت للمخطوط معلومات إضافية، فمن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر منها:

ص 33– هامش رقم– 1. وفيه يحيل إلى معلومة موجودة في مصدر آخر، وهو نظم الجمان، فيذكر فيه أنّ عبد المؤمن كان طالبا بمسجد العباد في ضاحية من ضواحي تلمسان، وأنّ شيخه أبا محمد التونسي، والذي أعجب بابن تومرت والذي أرسله أصحابه ليستفيد منه الطلبة برباط ملالة...

هذه المعلومة الإضافية، أفادنا بها المحقّق، وذلك اعتمادا على مصادر متعدّدة، منها: المعجب[82]والحلل الموشية وابن أبي زرع، وغيرها من المصادر.[83]

ص 36– هامش رقم– 3 وفيها يحيلنا المحقّق إحالة خارجية استعمل فيها أسلوب المقارنة بين المؤرّخين، فيذكر أنّ البيذق قد أسهب في ذكر قصة لقاء عبد المومن بن المهدي، وهي إحالة داخلية، في حين عند اعتماده على الإحالات الخارجية، فيذكر ما مفاده أنّ هذه المعلومة ذكرها بعض المؤرّخين باختصار، في حين أهملها بعضهم، ويشير إلى مصدرين مهمين، وهما الحلل الموشية والمعجِب. ويشير إلى ضرورة الرّجوع إليهما.

ج– المقارنة بين الرّوايات: باعتبار المحقّق أثناء تعامله مع المخطوط، فمن الضروري أن يتبّع المنهج المقارن بين مختلف الرّوايات الواردة في النّص المحقّق قدر المستطاع، فهذا يدلّ على مدى اتساع

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مداركه العلمية. وهذا ما سنحاول الكشف عنه من خلال اتباعنا للتعاليق الواردة في الهوامش، باعتبار هذه الأخير تقوم بوظيفة إعلامية بالدرجة الأولى.فمن أمثلة ذلك، نخصّ بالذكر منها:

ص 52- هامش رقم- 9 في باب بيعة الإمام المهدي حيث يقوم بعملية المقارنة بين المصادر التي تعرّضت لهذه البيعة واختلافها في المكان الذي تمّت فيه، فيذكر البيذق أنّها وقعت تينملل[84]، وقد نحا نحوه كلّ من ابن خلكان وعبد الواحد المراكشي وابن أبي زرع، وأما من عارض هذا القول، فيقوم المحقّق بتعدادهم ضمن الهامش الذي خصّصه لهذه المقارنة، فيذكر ما مفاده: "ويعارضه ما ورد عند المؤرّخين الآخرين... من أنّ البيعة وقعت بإيجيليز هرغة، وأجمعت هذه المصادر على أنّ البيعة وقعت سنة 515ه، وجلّها يجعلها في منتصف شهر رمضان منها، ثم يحيل إلى بعض هذه المصادر، منها نظم الجمان والحلل الموشية، والعبر والزركشي والروض القرطاس، وغيرها من المراجع التي اعتمدت على بعض هذه المصادر.

ص 53- هامش رقم- 5. وذلك في باب غزوات المهدي، حيث يقارن المحقّق بالرواية التي توافق رواية البيذق، والمُخالِفة لها، وهذا يظهر لنا جليّا من خلال مجموعة من المصادر، نخصّ بالذكر منها تلك التي وافقت رواية المهدي، وهي على النّحو التالي: ابن خلدون، صاحب كتاب العبر، ورواية ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ وكتاب الاستقصا لمعرفة دول المغرب الأقصا، لمؤلّفه السّلاوي.

أما فيما يتعلّق بالروايات التي تختلف مع رواية البيذق، يخصّ بالذكر منها: رواية ابن القطان، في كتابه نظم الجمان والتي نقلها عن ابن اليسع. من خلال ما تقدّم ذكره، يظهر لنا جليّا مدى اهتمام المحقّق عبد الحميد حاجيات بالنّص المحَقّق حيث بذل مجهودات معتبرة في المقارنة بين النّصوص حتى يضع القارئ أما هذا التناقض الموجود بين مختلف الرّوايات، وهذا ما يجّب أن يلتزم به أي محقّق، حتى تعمّ الفائدة لكلّ من يريد الاستفادة من المعلومات الواردة في المخطوطة، ومحاولة المقارنة بما ورد في المصادر الأخرى، وهذا يدخل في صميم عمل المحقّق.

ح- اهتمام المحقّق بإتمام النقص الوارد في المخطوط: لقد أولى المحقّق عناية بهذا الجانب المهمّ في عمل أيّ محقّق، ولهذا سنحاول الوقوف على بعض النماذج التي اعتنى فيها المحقّق عبد الحميد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حاجيات في تصحيح بعض الأخطاء الواردة في النّص، فمن أمثلة ذلك، نذكر على سبيل المثال لا الحصر.

ص **60- هامش رقم- 2.** وفيه يقوم المحقّق بتصحيح سياق الجملة الواردة في النّص المحقّق بسبب وجود اضطراب في الجملة، وهذا ما نستشفه من خلال هذا المثال.

النّص: ""... فلما أقبل ياسين بن فيلو بعسكره وأقبل الغرب ودخل مراكش ونزل بجانبنا في البحيرة..." وأما تعديل النّص على حسب سياق الكلام الذي اورده البيذق، فهو على النّحو التالي: "فأقبل ياسين بن فيلو بعسكر الغرب، ودخل مراكش، ثم أقبل عسكر القبلة، ونزل بجانبنا...".

ص **72- هامش رقم- 1.** وفيه يقوم المحقّق بإكمال بعض الأسطر التي سقطت من النّص.

النّص: "فلما أقبلنا (1) حصرنا بموضع يقال له..." وابتداءً من هامش رقم (1) يذكر ما مفاده: يظهر أنّه سقطت بعض الأسطر قبل هذا، وقد رأينا أن نورد فيما يلي ما يناسب هذا الحادث نقلا عن كتاب نظم الجمان. "وفي هذه السنة (533هـ). تحرّك سيدنا ومولانا الخليفة الإمام رضي الله تعالى عنه، من مدينة تينملل شرفها الله تعالى...".[85]

خ- تخريج الآيات القرآنية: يعتبر كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمؤلّفه محمد فؤاد عبد الباقي من المراجع المهمّة التي تساعد المحقّق على معرفة لفظة من ألفاظ آي القرآن الكريم، والرّجوع بها إلى اشتقاقاتها الأصلية، كما يساعد على معرفة الآية والسّورة ورقمها في المصحف الشّريف.[86] لقد اهتمّ المحقّق بهذا الجانب، فما من آية ورد ذكرها بالمخطوط إلاّ وقام بتخريجها من القرآن الكريم، ولدينا بضع الأمثلة على ذلك، نخصّ بالذكر منها:

ص **40.** ورد في متن المخطوط الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُن إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا} . في المقام الأوّل اهتم المحقّق بتشكيل الأية الكريمة، وهو من الشّروط الأساسية في عملية التحقيق، حتى تقرأ بالشّكل الصحيح، وكخطوة ثانية، أحال في الهامش رقم 10 إلى السّورة ورقم الآية على النّحو التالي: سورة النور، الآية 41.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ص **55**. ورد في المتن، قوله تعالى: { وَرَدَ اللّه الذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا } . يقوم المحقّق بالإحالة إليها بهذه الطريقة. القرآن، سورة الأحزاب. الآية 25. أمّا الملاحظة التي يمكن التوقّف عندها في هذا المقام، أنّ المحقّق أشار إلى السورة ورقم الآية، وهذا هو المعمول به في أدبيات التحقيق، ولكن النقطة الملفتة للنظر في هذا الهامش، أنّ المحقّق ذكر في بداية الإحالة (القرآن)، وكان من الممكن أن لا يذكر ذلك باعتبار الآية هي من صميم القرآن الكريم. وتتكرّر نفس العملية في

ص **72**. قوله تعالى: { سَيَجْعَلُ اللّه بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرا} . وكانت الإحالة على هذا النّحو: القرآن، سورة الطلاق، الآية 7.

د– تخريج القصائد الشّعرية: [87] وردت بعض القصائد الشّعرية في متن النّص المُحَقَّق، ولذا كان من بين أولويات المحقّق أن يقوم بتخريج مثل هذه القصائد الواردة في كتاب البيذق، فمن أمثلة ذلك.

ص **63**. يظهر لنا جليّا أنّ مثل هذه القصيدة، هي ردّ على هاتف سمعه الإمام المهدي عندما حضرته الوفاة، وكان مطلعها.

كأني بهذا البيت قد باد أهلُه وقد درست أعلامه ومنازله[88]

فأجابه المهدي ببيت آخر، جاء فيه:

كذلك أمور الناس يبلى جديدها وكل فتى حقا ستبلى خصائله

واستمرّ عرض القصيدة بهذه الطريقة، الهاتف يقرض بيتا، والمهدي يجيبه ببيت آخر، إلى أن تنتهي القصيدة ببيت للهاتف الذي وقعت عليه أذني الإمام المهدي.ما يلاحظ على تعليق المحقّق عبد الحميد حاجيات، أنّه اعتنى بالقصيدة من عدّة جوانب، نخصّ بالذكر منها:

تخريج القصيدة الشّعرية: قام المحقّق بالإحالة إلى مكان وجود هذه القصيدة عند ابن أبي زرع في كتابه "روض القرطاس".

لقد أشار البيذق إلى وجود هذه القصيدة في كتاب "المجموع"، ويشير عبد الحميد حاجيات في الهامش أنّه عبارة عن كتاب، ولكن لا زال في عداد المؤلّفات المفقودة، والذي تناول فيه صاحبه دولة الموحدين. لم يكتف المحقّق بتخريج القصيدة الشّعرية، بل قام بمقارنة ما ورد فيها من اختلافات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بين المصدرين المعتمدين من طرف المحقّق، وأقصد بذلك كتابي البيذق وابن أبي زرع، فمن أمثلة هذه المقارنة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر. البيت الرّابع، الشّطر الثاني (عجز البيت). وذلك قول (5) ليس تخفى (6) فضائله.(5) في روض القرطاس: وذاك مقال.[90] (6) في روض القرطاس: تحصى[91].

أما الأمر الثاني الذي يجب الإشارة إليه، أنّ المحقّق لم يقم بتشكيل الأبيات الشّعرية، لأنّ التشكيل يسهّل علينا قراءة القصيدة قراءة صحيحة، وتبعدنا في الوقوع في أخطاء قد لا تؤدي المعنى التي أرادها لها صاحبها، ولذلك نرى من الضروري شرح بعض حروف الكلمات الواردة في القصيدة، وليس كلّ القصيدة حتى نعطي للتحقيق حقّه.

المرحلة الثانية: بعد أن ينتهي المحقّق من عملية التحقيق، والاعتناء بالهوامش التي تعتبر عملا نقديا ومتمّما لعملية تحقيق أيّ مخطوط من المخطوطات، ينتقل إلى الخطوة الثانية وهي جدّ مهمة، إذ تبيّن لنا مدى اتساع أفق المحقّق المعرفية، وهذا ما سنحاول الوقوف عنده.

المقدمة: تشتمل المقدمة على عدّة عناصر، من بينها ترجمة وافية للمؤلّف صاحب الكتاب المُحَقَّق، والتعرّض لقيمة الكتاب والتأكد من نسبته لمؤلّفه، وغيرها من الخطوات التي يجب على المحقّق أن يمرّ بها حتى يستوفي كلّ شروط المقدّمة.[92]

عند اطلاعنا على تلك الخطوات المتبّعة من طرف محقّقنا عبد الحميد حاجيات، وجدناه قد التزم بهذه الشّروط التي تعتبر من القواعد الأساسيات في تحقيق المخطوطات، وهذا ما يظهر لنا جليّا من خلال تصفحنا للكتاب المحقّق.

التعريف بالمؤلّف: يحتاج الأمر في هذه الخطوة إجراء تحقيق علمي يطمئن فيه المحقّق إلى أنّ الكتاب هو لمؤلّفه، فوجود اسمٍ على نسخة المخطوطة لا يعني بالضرورة أنّ الكتاب هو لصاحب هذا الاسم، ذلك أنّ أسماء المؤلّفين كثيرا ما تكون عرضة للتزييف لسبب أو لآخر، لهذا يجب التحقّق من اسم مؤلّفه.[93]

من بين الخطوات التي اتبعها المحقّق في تحقيقه لكتاب البيذق، هو التعريف بالمؤلّف، إذ قام فيها بالتعريف بنسبه مختصرا، ثمّ أسباب تسميته بالبيذق الذي غلب عليه معتمدا في تفسيراته على المصادر المتخصّصة وبعض دراسات المستشرقين، مثل ليفي بروفنسال.[94] وأما الخطوة الثانية، فقد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ركّز فيها على نسبه (البيذق والقبيلة التي ينتمي إليها) معتمدا كذلك على المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال، حيث جعل للبيذق علاقة بعمر بن علي الصنهاجي المدعو عمر آصناج الذي كان من أشهر رفاق المهدي ابن تومرت، ومن أهل الجماعة. لم يكتف المحقّق بما ورد على لسان ليفي بروفنسال بخصوص هذه العلاقة، بل سيتدخّل عبد الحميد حاجيات ويبدي برأيه في ذلك، وهذا ما يفهم من قوله: بأنّه لا وجود لعلاقة بين الرّجلين مع تقديم بعض الأدلّة على طرحه، فكانت التفاتة طيّبة من طرف محقّقنا.

أما عن حياة المؤلّف، فقد ذكر لنا المحقّق أنّ هناك معلومات شحيحة حول حياته، الأمر الذي لا يساعدنا على معرفة بعض الجوانب من شخصية مؤلّف المخطوط، وذلك في غياب النّصوص المصدرية الموجودة ضمن كتب التراجم والطبقات، وعدم إشارة الأدباء المغاربة والمشارقة إلى هذه الشخصية ضمن أبحاثهم ودراساتهم. وأما عن المعلومات التي تميط اللّثام عن بعض جوانب حياته، فقد تعرّف عليها المحقّق من خلال لقاء البيذق بابن تومرت ومرافقته له، وذلك اعتمادا على مؤلَّفه "أخبار المهدي بن تومرت" فمن بين هذه الجوانب، نخصّ بالذكر منها: المهام التي قام بها أثناء صحبته للمهدي، وهي عبارة عن خدمات بسيطة.

<u>تحقيق الكتاب</u>: إنّ التحقّق من الكتاب، يشمل عدّة خطوات يلتزم بها أيّ محقّق إذا ما رام إتمام عملية التحقيق بطريقة علمية، وهذه الخطوات حسب المنهج الذي اتبعه عبد الحميد حاجيات، هي على النّحو التالي:

<u>عنوان الكتاب</u>: على المؤلّف أن يثبت عنوان المخطوط كما أراده له مؤلّفه، بحيث لا يجوز للمحقّق أن يتصرّف فيه، إذ جرت عادة بعضهم إلى وضع عنوان رئيس ثم يذكرون أسفله العنوان الأصلي.[95]

يذكر المحقّق أنّ المخطوطة التي اكتشفها ليفي بروفنسال ونشرها سنة 1928م، لا تحتوي على العنوان، لأنّ المخطوطة كانت مبتورة الأوّل، ولذا رأى هذا الأخير أن يسميه "كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين". وقد احتفظ عبد الحميد حاجيات بنفس العنوان باعتباره يتلاءم ومحتوى الكتاب، إلاّ أنّ عبد الحميد حاجيات احتفظ بالقسم الأوّل من العنوان، وأصبح على هذا النّحو: " كتاب أخبار المهدي ابن تومرت".[96]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

نسبة الكتاب إلى مؤلّفه: من أدبيات التحقيق، أن يتأكّد المحقّق من أنّ المؤلَّف هو من تأليفه،[97] فليس بالأمر الهيّن أن نسلّم بنسبة أيّ كتاب كان إلى مؤلّفه، وبخاصة الكتب الخاملة التي لم تشتهر في العصر الذي كُتِبَت فيه، فلذلك كلّه يجب أن نعرض هذه النسبة على فهارس المكتبات وكتب التراجم لنستمدّ منها اليقين أنّ هذا الكتاب يُنْسَبُ إلى مؤلّفه.[98]

بتتبعنا لما ورد عند محقّق كتاب البيذق، نجده قد التزم بهذه الخطوة الأساسية، إذ عنونها بـ: "**صحة نسبته إلى البيذق**". الذي جاء بعبارة صريحة، أنّ الكتاب لا مراء في نسبته إلى البيذق على الرّغم من أنّ المخطوط هو مبتور الأوّل، إلاّ أنّ البيذق عند ذكره للأحداث التي كانت له فيها أدوار يذكر اسمه، الأمر الذي يؤكّد على أن كتاب "أخبار ابن تومرت" هو لمؤلّفه البيذق على الرّغم من أن اسمه لا يرد ذكره في بقية الأقسام. لهذا كلّه جعلت المحقّق يميل إلى الاعتقاد بأنّ ما ألّفه ينتهي بذكر حوادث سنة 550هـ.[99]

تاريخ تأليف الكتاب: من الصعوبات التي مرّ بها المحقّق، هو تاريخ التأليف، إذ لم يرد في الكتاب السنة التي بدأ فيه المؤلّف كتابة هذه الأحداث، وحتى المصادر التي تعرّضت له، لم تشر إلى ذلك، ولذا –على ضوء المعطيات التي جاء بها المحقّق– يجعل تاريخ انتهائه من تأليف الكتاب بعد سنة 580هـ، ثم يضيف قائلا: "ولا يستبعد أن يكون ذلك في أوائل عهد يعقوب المنصور (580هـ–595هـ/1184م– 1198م) أي بعد توليه الحكم بأشهر معدودات.[100]

محتوى الكتاب: قام المحقّق في هذا المقام بإعطائنا لمحة موجزة عمّا تضمّنه الكتاب من أحداث تاريخية مهمّة، وهي على النّحو التالي:

القسم الأول: ذكر فيه عودة ابن تومرت إلى المغرب، وأمر فيها بالمعروف ونهى عن المنكر، وفيه وصف البيذق مراحل رجوع المهدي بعد تلك الرّحلة الطويلة التي قام بها، ومروره بأقطار المغرب.

القسم الثاني: تناول فيه بيعة عبد المؤمن بعد وفاة المهدي، وأهم الغزوات التي قام بها، ثم حركة عبد المؤمن عبر المغربين الأقصى والأوسط، ثم ذكر بعض الثورات التي قام بها في أغلب مناطق المغرب الأقصى والتي قام فيها بعملية تطهير واسعة النطاق. بعدها ينتقل إلى ذكر فتح بجاية والقضاء على كلّ معارضيه.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القسم الثالث: وفيه ذكر قائمة من أولئك الذين ثاروا على الموحدين بالمغرب والأندلس، تتخلّلها بعض التفاصيل التي حامت حول نهاية ابن مرذنيش[101]، وغيرها من الأحداث. كما أضاف النّاسخ في هذا القسم، وثيقة تتضمّن تلخيصا لأهم الأحداث التي وقعت أثناء دعوة المهدي ابن تومرت، ولم يفدنا بمن قام بتأليف ذلك، إلاّ أنّ بروفنسال –يضيف عبد الحميد حاجيات– اعتبر هذه الوثيقة من جملة كتاب البيذق.

منهجه وأسلوبه: لم يكتف المحقّق بعرض أهم ما جاء في كتاب البيذق من معلومات، بل أفادنا بالمنهج والأسلوب الذي اتبعه في عرضه لهذه الأحداث.

منهجه: بيّن لنا المحقّق أنّ المنهج الذي اتبعه البيذق في كتابه هذا، قد اختلف تماما عن منهج غيره ممن أرّخ للدولة الموحدية، ثم يبيّن أنّ سبب ذلك، هو معاصرة البيذق للأخبار التي وردت في الكتاب، واعتماده على الذاكرة لسرد هذه الأحداث. ويمكن إجمال منهجه على النّحو التالي:

– اعتماده على المشاهدة العينية.
– اعتماده على الرّواية الشفهية.
– شحن كتابه بمعلومات كثيرة عن الأعلام والأماكن الجغرافية.
– امتلاء الكتاب بأخبار ليست لها قيمة هامة، إلاّ أنّها مفيدة من النّاحية الاجتماعية والفكرية.
– غلب على منهجه الخيال والأسطورة.

أسلوبه: يبيّن المحقّق أنّ اسلوب البيذق يميل إلى البساطة، ويبتعد عن التعقيد، إذ لا نجد فيه أيّ نوع من المحسّنات البديعية من تشبيه وكناية واستعارة، كما اعتمد المؤلّف على اللّهجة الشّعبية، كما نجد في بعض مضان الكتاب مفردات بربرية كان استعمالها شائعا في تلك الفترة التي أرّخ لها.ويخلص المحقّق إلى النتيجة، والتي مفادها: أنّ أسلوب البيذق –بالرّغم من النقائص التي اعترضته– "لا يخلو من رشاقة ومتعة لما اتسم به من سهولة وبساطة وخفة".[102]

قيمة الكتاب: لقد أفادنا المحقّق بالقيمة العلمية للكتاب، باعتباره مصدرا تاريخيا لمن أراد أن يؤرّخ لهذه الفترة من تاريخ المغرب، باعتبار البيذق قد عاصر الفترة التي يؤرّخ لها، فجاء وصفه لهذه الأحداث وصفا دقيقا، وقد تميّز المؤلّف بقوّة الذاكرة، وما يدلّ على ذلك، تراكم المعلومات الواردة في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الكتاب، الأمر الذي حافظ على كلّ ما يتعلّق من معلومات حول أخبار المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن.[103] هذا ما يؤكّده عبد الوهاب بن منصور حين قال: "هو كتاب قيّم جدّا من الوجهة التاريخية، ترجع أهميته إلى كون مؤلّفه شارك بنفسه في صنع الوقائع التي وصفها، لأنّه أحد تلاميذ الفقيه محمد بن تومرت الهرغي مَهدي الموحدين، ورفيق من رفقاء خلفه العبقري عبد المومن بن علي الكومي باني دولتهم".[104]

وصف المخطوط: وفيه نذكر مكان وجودها، وعدد أوراقها، ومسافات كلّ ورقة، وعدد السّطور في كلّ صفحة، وكذا عدد الكلمات في كلّ سطر، ومدى وضوحها، وأهم العيوب الموجودة بها، وغيرها من المعلومات التي كانت محور دراسة المخطوطة.[105] قام المحقّق في آخر المقدمة بإعطائنا معلومات حول المخطوط، وذلك عن طريق وصفه معتمدا في ذلك على ليفي بروفنسال –وهنا تكمن أمانة المحقّق العلمية– فعرّفنا بأنّ المخطوطة هي فريدة من نوعها ولا توجد نسخة أو نسخ منها، وهذه الأخيرة كانت محفوظة في مكتبة الأسكوريال تحت رقم 1919، ثم يضيف قائلا: بأنّ هذه النسخة تحتوي على ثلاثة كتب كلّها مبتورة، وبعدها يعطينا مضمون هذه الكتب.ثمّ يتعرّض المحقّق إلى عدد أوراق المخطوطة، وترقيمها ومسطرتها، ومقياسها، والخط الذي كتبت به، بالإضافة إلى تلك الأخطاء الواردة فيها، من لغوية ونحوية وصرفية، وغيرها من المعلومات التي تخصّ المخطوطة.[106]

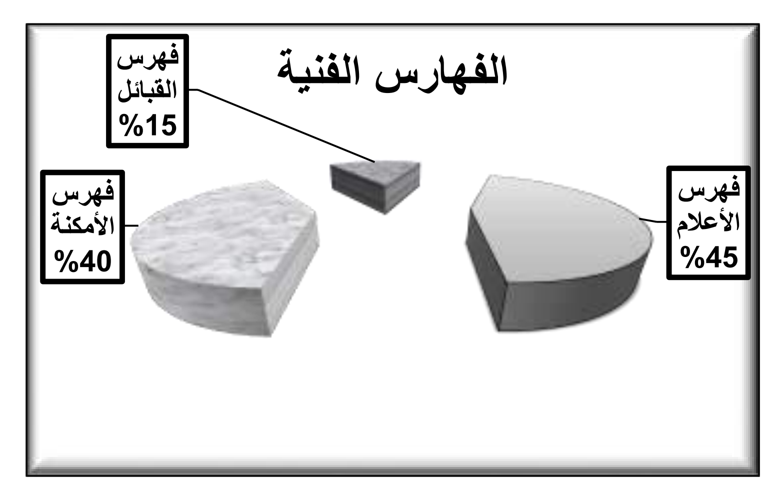
الملاحق: قد يصادف المحقّق في بعض الأحيان العثور على مادة علمية لها صلة بالموضوع، إلاّ أنّها ليست ضرورية حتى تكون جزءا رئيسا في البحث، وذلك تحاشيا للاستطراد، وقطع انسجام الموضوع، فيضعها ضمن الملاحق.[107]

إذن، الملاحق تضم قوائم وجداول، وخرائط توضيحية، وبعض الرّسومات البيانية، أو بعض الوثائق المصوّرة التي تضاف من أجل إفادة القارئ بها وبالمعلومات التي تحويها هذه الأخيرة، وغيرها من الرّسومات التوضيحية الأخرى. وهذا ما لم يعتمده المحقّق في تحقيقه للمخطوطة موضوع الدراسة، وقد يكون مردّ ذلك إلى عدم توفّر الوقت لديه، لأنّ هذا الأخير قام بتحقيق عدد من المخطوطات التي أفادتنا كثيرا في الأطاريح الجامعية، وهذا –مما لا شكّ فيه– لا ينقص من القيمة العلمية لتلك المجهودات التي قام بها عبد الحميد حاجيات في تحقيقه للتراث العربي الإسلامي.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الفهارس: تعتبر الفهارس بمثابة المفاتيح الحقيقية له حتى يمكن للقارئ أن يصل إلى مبتغاه بأيسر الطرق والسبل، إذ تعتبر هذه الأخيرة، هي الفيصل الحقيقي في الحكم على هذا الفهرس أو ذاك بالجودة أو الرداءة.[108] والفهارس تختلف نوعيتها من كتاب تأليف إلى كتاب تحقيق، ومن موضوع إلى موضوع، فللكتاب الأدبي فهارس تختلف عن فهارس كتاب تاريخ أو جغرافية، وغيرها من العلوم. فمضمون الكتاب هو الذي يحدّد فهارسه العامة.[109] أما أنواعها، فهي على النّحو التالي: فهرس الأيات الكريمة وفهرس الأحاديث النبوية الشّريفة وفهرس الأمثال والأقوال المأثورة، وفهرس القصائد الشّعرية وفهرس الكتب الواردة في الكتاب، وفهرس الأعلام والأماكن الجغرافية، وغيرها.[110]

عند مطالعتنا لهذا الجانب، نجد المحقّق قد طبّق جانبا من جوانب هذا الجزء من التحقيق، فأوّل ما بدأ به، هو فهرس أسماء الأعلام والتي بدأها بحرف (السين)[111] وختمها بحرف الياء. ثم يتبعها بفهارس القبائل، ويتبعها بفهارس الأمكنة والمدن ، ثمّ ختمها بفهرسٍ للموضوعات، لكننا نجد هذا الكتاب المحقّق خُلْوًا من باقي الفهارس الفنية الأخرى، وقد يعود ذلك—على سبيل المثال لا الحصر– إلى أنّ باقي الفهارس لا توجد، أو هي قليلة في النّص المحقّق، ولا يمكن لنا أن نصنع منها فهارس فنية. ومن خلال الرّسم البياني، يمكن لنا أن نتبيّن حجم هذه الفهارس الفنية التي اعتمدها المحقّق عبد الحميد حاجيات.



ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التعليق: من خلال هذا الرّسم البياني، يتضح لنا جليّا ذلك التفاوت الموجود بين نِسَبِه، وهي على النّحو التالي:

فهرس الأعلام التي احتلت المرتبة الأولى بنسبة تقدّر بـ: 45% ممّا يدلّ على أنّ المخطوط قد احتوى على عدد لا بأس به من أسماءٍ لشخصيات عدّة تراوحت صفحاته ما يقارب ثمان صفحات ونصف. أما فهرس الأمكنة والمدن، والتي قدّرت نسبته بـ: 40%، فقد احتلت المرتبة الثانية من بين الفهارس الواردة في الكتاب، بصفحات قدرت بثمان صفحات، ممّا يدلّ أنّ المخطوط قد احتوى على عدد لا بأس به من الأمكنة والبقاع. أما النسبة الثالثة والممثلة بـ 15%، والتي احتلت المرتبة الثانية، فهي تمثّل القبائل الواردة في النّص المحقّق، حيث احتلت صفحاتها ما يناهز ثلاث صفحات. وما يلاحظ على هذه الفهارس التي اعتمدها المحقّق عبد الحميد حاجيات، أنّه اعتمد فيها الترتيب الأبجدي، الأمر الذي يسهّل للقارئ عملية استخراج ما يحتاجه من مادة يحتاج إليها في بحثه أو تحقيق لمخطوط آخر.

الخاتمة: يعتبر المحقّق عبد الحميد حاجيات من المحقّقين البارزين في هذا النّوع من العلوم الصعبة، والذي لا يركبها إلى من كان متمكّنا منه، ويُحْسِن استعمال أدواته بدقّة وجديّة، ويكون ملتزما إلى حدّ كبير بمنهجية وتقنية تحقيق المخطوطات.

يعتبر هذا العمل الذي قام به المحقّق، من الأعمال الجليلة التي تحسب له، والتي تحتاج إلى كثير من التضحيات حتى يقوم بإخراجه على النّحو الذي ارتضاه له مؤلّفه، وهذا ليس بالأمر السّهل والهيّن، لأنّ الحصول على كذا من المخطوطات تتطلّب مجهودات مادية ومعنوية، وقد حاول محقّقنا الحصول على مثل هذه المخطوطات مهما كلّفه ثمنه، وهكذا كان دأبه دائما. يعتبر تحقيق هذا المخطوط من الأعمال النادرة التي أعادت الاعتبار لتراثنا الإسلامي والتي مازالت بعض الخزائن تغصّ به، وهي تنتظر مثل هؤلاء المحقّقين لإخراجه من دهاليز مثل هذه المكتبات حتى لا يضيع هذا الأخير مثلما ضاعت بعض الكنوز والتي تؤرّخ لفترات زمنية مختلفة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولا يسعنا في هذه الورقة، سوى تثمين هذا العمل الجيّد والفريد من نوعه، ونطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيل في عمر شيخنا الأستاذ عبد الحميد حاجيات حتى يفيدنا بأعمال أخرى تمتلئ بها مكتباتنا، ولما لا؟ مكتبات العالم العربي الإسلامي للتعريف بأعمال هؤلاء المحقّقين الجزائريين والتي عجزت الألسن بمختلف لغات العالم عن تقديم الشّكر لهم والامتنان على هذه المجهودات الجبّارة التي قاموا بها، والتي أخذت منهم نصف عمرهم، إن لم نقل عمرهم بأكمله، جزاهم الله خير جزاء وجعل عملهم هذا —الذي استفاد ولا يزال يستفيد منه القاصي والداني– في ميزان حسناتهم إن شاء الله سبحانه وتعالى.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

1– ابن أبي زرع علي بن عبد الله الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس– دار المنصور للطباعة والوراقة– الرباط– 1972م.

2– ابن القطان المراكشي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان درسه وقدّم له وحققه محمود علي مكي– دار الغرب الإسلامي– بيروت– دت.

3– ابن بسام الشنتريني علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة– تحقيق إحسان عباس– دار الغرب الإسلامي– بيروت– ط1– 2000م.

4– ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب– حققه وعلّق عليه شوقي ضيف– دار المعارف– القاهرة– ط4– د ت.

5– ابن سماك العاملي محمد بن أبي العلاء: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية– دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية– دار الكتب العلمية– بيروت– ط1– 2010م.

6– الإدريسي الشريف أبو عبد الله: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس– مقتبس من كتاب نزهة المشتاق– تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي– ديوان المطبوعات الجامعية– الجزائر– 1983.

7– البكري أبو عبيد: المسالك والممالك– حقّقه ووضع فهارسه جمال طلبة– دار الكتب العلمية– بيروت– ط1– 1423هـ– 2003م.

8– البيذق علي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت– تحقيق عبد الحميد حاجيات– عالم المعرفة للنشر والتوزيع– الجزائر– 2011م.

9– حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

10- الحميري محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الرّوض المعطار في خبر الأقطار- عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها- إ. لافي بروفنسال- دار الجيل- بيروت- ط2- 1408هـ- 1988م.

11- الزركشي محمد بن إبراهيم أبو عبد الله: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية- تحقيق وتعليق محمد ماضور- المكتبة العتيقة- تونس- د ت

12- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب- شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- ط1- 1426هـ- 2006م.

13- كربخال مارمول: إفريقيا- ترجمه عن الفرنسية- محمد حجي وآخرون- دار نشر المعرفة- الرباط- 1408هـ- 1409هـ/ 1988م- 1989م- ج2- ص 269.

14- مجهول: تاريخ الأندلس- دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2007م.

15- المقريزي تقي الدين: جني الأزهار من الرّوض المعطار- تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم- الدار الثقافية للنشر- ط1- 1426هـ- 2006م.

16- النباهي علي بن عبد الله الجذامي المالقي- قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- ط1- 1426هـ.

17- ياقوت الحموي: معجم البلدان- دار صادر- بيروت- 1397هـ- 1977م.

ثانيا: المراجع:

1- ابن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية- تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر.

2- بن عميرة محمد: منهجية البحث التاريخي- مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر) حتى نهاية العهد العثماني- دار هومه للطباعة والنشر- الجزائر- 2012م.

3- بن عودة المزاري الآغا: طلوع سعد السعود "في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا" "أواخر القرن التاسع عشر"- تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 1990م.

4- بنبين أحمد شوقي وطوبي مصطفى: معجم مصطلحات المخطوط العربي- الخزانة الحسنية- الرّباط- ط3- 2005م.

5- التونجي محمد: المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات- عالم الكتب- د ت.

6- حسن عبد المنعم: أصول البحث العلمي- المنهج العلمي وأساليب كتابة البحوث والرسائل الجامعية- المكتبة الأكاديمية- القاهرة- 1996م.

7- دياب عبد المجيد: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره- دار المعارف- القاهرة- 1993م.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

8- سزكين فؤاد: تاريخ التراث العربي- نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي- إدارة الثقافة والنشر بالجامعة- الرياض- 1411هـ- 1991م.

9- الطباع إياد خالد: منهج تحقيق المخطوطات- دار الفكر- دمشق- ط1- 1423هـ- 2003م.

10- طه عبد الواحد ذنون: أصول البحث التاريخي- دار المدار الإسلامي- ط1- 2004م.

11- عبد الباري فرج الله: مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة- دار الآفاق العربية- القاهرة- ط1- 2004م.

12- عبد التواب رمضان: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط1- 1406هـ- 1986م.

13- العطيّة مروان: دليل المحقّقين والباحثين- دار العلا للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية- ط1- 1435هـ- 2014م.

14- العقيقي نجيب: المستشرقون – ط 4 – دار المعارف – القاهرة –د ت.

15- فوزي غرايبة وآخرون: أساليب البحث التاريخي في العلوم الاجتماعية والانسانية- كلية الاقتصاد والتجارة- الجامعة الأردنية- ط2- 1981.

16- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي- نقله إلى العربية عبد الحليم النجار- الطبعة الخامسة- دار المعارف- القاهرة- د ت.

16-المسلوت صالح حسن: علم التاريخ ومناهج البحث فيه- مكتبة المتنبي- الدمام- المملكة العربية السعودية- 1432هـ- 2011م.

17- معروف بشار عواد: في تحقيق النّص- أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية- دار الغرب الإسلامي- بيروت-ط1- 2004م.

18- مَلحسن ثريا عبد الفتّاح: منهج البحوث العلمي للطلاّب الجامعيين- دار البشير- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط6- 1419هـ- 1998م.

الهوامش :

[1]- قمنا بتعداد الصفحات، بدءا بمقدمة الدراسة إلى غاية نهاية النّص المحقّق دون إدخال الفهارس الفنية.

[2]- فرج الله عبد الباري: مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة- دار الآفاق العربية- القاهرة- ط1- 2004م- ص 115.

[3]- بشار عواد معروف: في تحقيق النّص- أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1- 2004م- ص 341.

[4]- طه عبد الواحد ذنون: أصول البحث التاريخي- دار المدار الإسلامي- ط1- 2004م.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[5]– عبد الواحد ذنون طه: أصول البحث التاريخي– صص 177– 178– صالح حسن المسلوت: علم التاريخ ومناهج البحث فيه– مكتبة المتنبي– الدمام– المملكة العربية السعودية– 1432هـ– 2011م– صص 284– 285.

[6]– رمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين– مكتبة الخانجي– القاهرة– ط1– 1406هـ– 1986م– ص 60.

[7]– كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي– نقله إلى العربية عبد الحليم النجار– الطبعة الخامسة– دار المعارف– القاهرة– د ت.

[8]– فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي– نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي– إدارة الثقافة والنشر بالجامعة– الرياض– 1411هـ – 1991م.

[9]– إياد خالد الطباع: منهج تحقيق المخطوطات– دار الفكر– دمشق– ط1– 1423هـ– 2003م. صص 24– 25.

[10]– مروان العطيّة: دليل المحقّقين والباحثين– دار العلا للنشر والتوزيع– الرياض– السعودية– ط1– 1435هـ– 2014م– ص 152.

[11]– الخرم: وهو مصطلح يستعمل في التحقيق، بمعنى هو ذلك المخطوط إذا ثقبه السّحاء. أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي: معجم مصطلحات المخطوط العربي– الخزانة الحسنية– الرّباط– ط3– 2005م– ص 89.

[12]– مروان العطية: المرجع نفسه– ص 152.

[13]– ثريا عبد الفتّاح مَلحسن: منهج البحوث العلمي للطلاّب الجامعيين– دار البشير– مؤسسة الرسالة– بيروت– ط6– 1419هـ– 1998م– ص 250– محمد بن عميرة: منهجية البحث التاريخي– مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر) حتى نهاية العهد العثماني– دار هومه للطباعة والنشر– الجزائر– 2012م– ص 137.

[14]– بشار عواد معروف: في تحقيق النّص– أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية– دار الغرب الإسلامي– بيروت– ص 344.

[15]– محمد التونجي: المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات– عالم الكتب– د ت– ص 177.

[16]– محمد التونجي: المنهاج... ص 149.

[17]– عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره– دار المعارف– القاهرة– 1993م– ص 263– رمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث– ص 206.

[18]– فرج الله عبد الباري: مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة– دار الآفاق العربية– القاهرة– ط1– 2004م– ص 103.

[19]– مكناسة: بكسر أوّله وسكون ثانيه، هي مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشّرق، وأكثر شجرها الزيتون، وعلى حدّ قول الشريف الإدريسي: هي عبارة عن مدائن عدّة، تقع على بعد أربعين ميلا في جهة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المغرب، وهي في طريق سلا، ومكناسة تنسب إلى أحد قبائل البربر. وقد سميت مكناس البربري حين نزلها عند دخوله المغرب. الشريف الإدريسي أبو عبد الله: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس- مقتبس من كتاب نزهة المشتاق- تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983- ص 146- 154- ياقوت الحموي: معجم البلدان- دار صادر- بيروت- 1397هـ- 1977م- مج5- ص 181- المقريزي تقي الدين: جني الأزهار من الرّوض المعطار- تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم- الدار الثقافية للنشر- ط1- 1426هـ- 2006م- ص 62.

[20]- مغيلة: بلد بالمغرب كانت كبيرة عامرة، إلاّ أنّها الآن عبارة عن خراب بها بعض بقايا العمارات. تخترقها المياه في كلّ جانب، كما تمتاز باعتدال هوائها. المقريزي: المصدر نفسه- ص 62.

[21]- البيذق علي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت- تحقيق عبد الحميد حاجيات- عالم المعرفة للنشر والتوزيع- الجزائر- 2011م- ص 45.

[22]- أبو القاسم بن حمدين:

[23]- لبلة: مدينة قديمة تقع الأندلس، والتي كانت تعرف بالحمراء. فيها آثار الأوّل. لها سور عظيم ومنيع، وبها أسواق وتجارات، كثيرة الزيتون والثمار. الحميري محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الرّوض المعطار في خبر الأقطار- عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها- إ. لافي بروفنسال- دار الجيل- بيروت- ط2- 1408هـ- 1988م- صص 168- 169.

[24]- بطليوس: هي حديثة بناها عبد الرّحمن بن مروان المعروف بالجليقي بإذن من الأمير محمد بن عبد الرّحمن عندما قام بإخراجه من قلعة الحنش، فاتخذ بطليوس مستقرا له. البكري أبو عبيد: المسالك والممالك- حقّقه ووضع فهارسه جمال طلبة- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1423هـ- 2003م- مج2- ص 393- مجهول: تاريخ الأندلس- دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2007م- ص 102.

[25]- قرمونة: هي مدينة تميّزت بضخامة الأسواق والحمامات، وهي كذلك إحدى المعاقل الحصينة، ومن الحصون الإسلامية المشهورة. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب- حققه وعلّق عليه شوقي ضيف- دار المعارف- القاهرة- ط4- د ت- ج1- ص 299.

[26]- شلير: بلفظ التصغير، وبضم أوله، هو جبل بالأندلس من أعمال إلبيرة تتساقط به الثلوج، وتبقى على قممه شتاء وصيفا. ياقوت الحموي: المصدر السابق- ج3- ص 360.

[27]- البيذق: المصدر السابق- صص 127- 128.

[28]- مروان العطيّة: دليل المحقّقين والباحثين- ص 64.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[29] – ينظر عن هذه البيعة الزركشي محمد بن إبراهيم أبو عبد الله: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية– تحقيق وتعليق محمد ماضور– المكتبة العتيقة– تونس– د ت– ص6، ابن سماك العاملي محمد بن أبي العلاء: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية– دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية– دار الكتب العلمية– بيروت– ط1– 2010م– ص 176 وما يليها.

[30] – أبو إبراهيم: هو إسماعيل بن يسلالي الهزرجي. وكان يلقبه المهدي بإسماعيل إيجيج. لمزيد من المعلومات عنه، ينظر ابن القطان المراكشي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان هامش 3– ص 126.

[31] – البيذق: المصدر نفسه– ص 53.

[32] – صالح حسن المسلوت: المرجع السابق– ص 294– 295– فرج الله عبد الباري: المرجع السابق– ص 102.

[33] – صالح حسن المسلوت: المرجع السابق– ص 296– حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات ص 194.

[34] – البيذق: المصدر نفسه– ص 38.

[35] – صالح حسن المسلوت: المرجع نفسه– ص 295– فرج الله عبد الباري: المرجع السابق– ص 102– حسان حلاق: المرجع السابق– ص 193.

[36] – البيذق: المصدر نفسه– ص 35– وينظر ص 45.

[37] – البيذق: المصدر السابق– تحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 29.

[38] – ابن أبي زرع علي بن عبد الله الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس– دار المنصور للطباعة والوراقة– الرباط– 1972م– ص 12.

[39] – البيذق: المصدر نفسه– طبعة الرباط– ص 12.

[40] – البيذق: المصدر نفسه– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 30.

[41] – البيذق: المصدر نفسه– طبعة الرباط– ص 12.

[42] – البيذق: المصدر السابق– طبعة الرباط– ص 13.

[43] – البيذق: المصدر نفسه– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– ص35.

[44] – البيذق: المصدر نفسه– طبعة الرباط– ص16.

[45] – البيذق: المصدر نفسه– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– ص41.

[46] – البيذق: المصدر نفسه– طبعة الرباط– ص21.

[47] – مجهول: تاريخ الأندلس– تحقيق عبد القادر بوباية– دار الكتب العلمية– بيروت– 1971م– ص 42.

[48] – مروان العطية: دليل المحققين– ص 199.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[49] – هذه بعض المدارس التي تختلف في الفروع وليس في الأصول، وأنا أقول في هذا الصدد: أنّ كلتي الطريقتين صحيحتين، فللمحقّق حرية الاختيار في المحافظة على الرّسم الإملائي الوارد في النّص المحقّق، ثم يقوم بتصحيحه في الهامش، أو أن يقوم بعملية التصحيح في المتن، ثم يشير في الهامش إلى أصل الكلمة الواردة في النّص المحقّق.

[50] – ينظر البيذق: المصدر السابق– طبعة الرباط– ص 16– 21.

[51] – محمد بن عميرة: منهجية البحث التاريخي– ص 103.

[52] – المزاري الآغا بن عودة: طلوع سعد السعود "في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا" "أواخر القرن التاسع عشر"– تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز– دار الغرب الإسلامي– بيروت– ط1– 1990م– ص 81.

[53] – ابن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية– تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم– الشركة الوطنية للنشر والتوزيع– الجزائر– مقدمة المحقق– ص 107.

[54] – عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي– ص 278.

[55] – مروان العطية: المرجع السابق– ص 68.

[56] – سورة النّور: الآية 31– وينظر نص الآية عند البيذق: تحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 40.

[57] – البيذق: المصدر السابق– طبعة الرباط– ص 21.

[58] – سورة النّور: الآية 31.

[59] – هنا يطرح السّؤال التالي: هل تصرّف عبد الحميد حاجيات في الآية ولم يذكرها بتمامها كما وردت في المخطوط، أم النسخة التي اعتمدها، أوردت هذه الآية مختصرة؟

[60] – مروان العطية: المرجع نفسه– ص 68– عبد المجيد دياب– المرجع السابق– ص 277.

[61] – البيذق: المصدر السابق– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 29.

[62] – ينظر البيذق: المصدر نفسه– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 30– 31– 35– 37– 114.

[63] – البيذق: المصدر نفسه– طبعة الرباط– صص 11– 14.

[64] – البيذق: المصدر نفسه– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 85– 86– 93.

[65] – فرج الله عبد الباري: المرجع السابق– ص 105– أحمد عبد المنعم حسن: أصول البحث العلمي– المنهج العلمي وأساليب كتابة البحوث والرسائل الجامعية– المكتبة الأكاديمية– القاهرة– 1996م– ص 159– محمد التونجي: المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات– عالم الكتب– حلب– د ت– ص 149.

[66] – البيذق: المصدر السابق– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– صص 62– 65– وينظر المصدر نفسه– صص 75– 78.

[67] – معه: ساقطة في النسخة التي حقّقها عبد الحميد حاجيات. البيذق: المصدر نفسه– ص 76.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[68]– البيذق: المصدر السابق– طبعة الرباط– صص 50– 51.

[69]– ينظر ابن بسام الشنتريني علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة– تحقيق إحسان عباس– دار الغرب الإسلامي– بيروت– ط1– 2000م– ق4– ج7– ص 126 وما يليها.

[70]– عبد الواحد ذنون طه: أصول البحث التاريخي– ص 262.

[71]– البيذق: المصدر نفسه– بتحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 30. وينظر المصدر نفسه– ص 31– 78– 111.

[72]– محمد بن عميرة: منهجية البحث التاريخي– ص 149–

[73]– الشريعة: هي كلمة كانت تطلق في المغرب على ساحة تقع خارج المدينة وتقام فيها سوق أسبوعية. هذا ما ذكره حاجيات، ولكن في طبعة الرّباط وردت بهذا التفسير، بأنّها "مصلا العيدين". البيذق: المصدر السابق– تحقيق عبد الحميد حاجيات– هامش رقم 5– ص 31– البيذق: المصدر نفسه– طبعة الرباط– هامش رقم 5– ص 13.

[74]– البيذق: المصدر نفسه– تحقيق عبد الحميد حاجيات– صص 31– 32.

[75]– ينظر البيذق: المصدر نفسه– طبعة الرباط– صص 13– 14.

[76]– فوزي غرايبة وآخرون: أساليب البحث التاريخي في العلوم الاجتماعية والانسانية– كلية الاقتصاد والتجارة– الجامعة الأردنية– ط2– 1981– ص 169.

[77]– إياد خالد الطباع: المرجع السابق– ص 71.

[78]– تاوريرت: مدينة عتيقة بناها الأفارقة القدامى في أعلى جبل، تحيط بها أراضي غنية بالقمح والماشية. كربخال مارمول: إفريقيا– ترجمه عن الفرنسية– محمد حجي وآخرون– دار نشر المعرفة– الرباط– 1408هـ– 1409هـ/ 1988م– 1989م– ج2– ص 269.

[79]– البكري أبو عبيد: المسالك والممالك– ج2– ص 265– وينظر البيذق: المصدر السابق– طبعة الرّباط– ص 21.

[80]– حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي– صص 150– 151.

[81]– ورد تفسير هذه الكلمة في نسخة الرّباط على هذا النّحو: "مربط الخيل باللّغة البربرية". وهو نفس التفسير الذي جاء به عبد الحميد حاجيات. ينظر البيذق: المصدر السابق– طبعة الرّباط– هامش 48– ص 33.

[82]– عن عبد المومن، ينظر عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب– شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري– المكتبة العصرية– صيدا– بيروت– ط1– 1426هـ– 2006م– ص 146 وما يليها– ابن سماك العاملي: المصدر السابق– ص 170 وما يليها– ابن أبي زرع: الأنيس المطرب– ص 183 وما يليها.

[83]– المصادر هي: العبر لابن خلدون والزركشي في تاريخ الدولتين، وابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[84]– تينملل: وردت عند مارمول كاربخال بهذا الرّسم تينمل وهو عبارة عن جبل شاهق شديد البرودة، يسكنه البربر من قبيلة مصمودة، وتوجد في قمته مدينة تينمل التي دفن بها ملوك الموحدين الأوائل. كربخال مارمول: المصدر السابق– ج2– ص 66.

[85]– ينظر تمام النّص في هامش رقم 1– ص 72.

[86]– إياد خالد الطباع: منهج تحقيق المخطوطات– ص 84.

[87]– ينظر إياد خالد الطباع: المرجع نفسه– ص 70.

[88]– ابن أبي زرع: ص 179.

[89]– البيذق: المصدر السابق– تحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 63– هامش 2.

[90]– ابن أبي زرع: روض القرطاس– ص 180.

[91]– ابن أبي زرع: المرجع نفسه– ص 180.

[92]– رمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث– ص 175.

[93]– محمد بن عميرة: منهجية البحث التاريخي– ص 138.

[94]– ولد بالجزائر سنة 1894، وتحصّل على شهادة اللّيسانس من كلية الآداب فيها سنة 1913، وشارك في الحرب العالمية الأولى سنة 1914. في سنة 1928 انتدبته كليّة الآداب بالجزائر أستاذا لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية، فقسّم وقته بين الجزائر والرّباط، وفي سنة 1938 دعته جامعة القاهرة أستاذا زائرا. من آثاره: التكملة لتاريخ قلعة بني عباس (مجموعة جمعية الآثار بقسنطينة 1913)، ونشر بمعية الأستاذ محمد ابن شنب التقويم التاريخي لمطبوعات فاس (الجزائر 1922) بالإضافة إلى الأعمال الكثيرة التي قام بها من تأليف وتحقيق. لمزيد من المعلومات ينظر نجيب العقيقي: المستشرقون– دار المعارف القاهرة– 2006– ج1– صص293– 300.

[95]– إياد خالد الطباع: المرجع السابق– ص 29. فمن أمثلة ذلك كتاب "المرقبة العليا، إذ قام محقّقه بوضع العنوان في الأعلى على هذا النّحو "تاريخ قضاة الأندلس" وفي أسفله العنوان الأصلي "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا". النباهي علي بن عبد الله الجذامي المالقي– قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري– المكتبة العصرية– صيدا– بيروت– ط1– 1426هـ– 2006م.

[96]– البيذق: المصدر السابق– تحقيق عبد الحميد حاجيات– ص 11.

[97]– ثريا عبد الفتاح مَلحسن: منهج البحوث العلمي– ص 250.

[98]– عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي– ص 137.

[99]– ينظر البيذق: المصدر نفسه– صص 12– 13.

[100]– البيذق: المصدر السابق– تحقيق عبد الحميد حاجيات– صص13– 15.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[101]– ابن مرزنيش: هو محمد بن سعد بن محمد بن أحمد الجذامي. المكنى أبا عبد الله. ولي ملك شرق الأندلس. كان شجاعا إلا أنّه كان يميل للهو، وهو الذي استعان بالفرنج ضد الموحدين، فنهض الموحدون لقتاله فحصروه بمرسية، فمات أثناء هذا الحصار، وقد ذكر الصفدي: أنّ أمه سقته السّم، فلما أحس بقرب أجله أمر أهله بتسليم البلاد إلى عبد المومن الموحدي. الزركلي: الأعلام– ج 6– ص 137.

[102]– البيذق: المصدر السابق– صص 19– 20.

[103]– البيذق: المصدر نفسه– صص 20– 21.

[104]– البيذق: نفسه– طبعة الرّباط– مقدمة المحقّق– ص 5.

[105]– محمد التونجي: المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات– ص 184.

[106]– لمزيد من المعلومات، ينظر البيذق: المصدر نفسه– تحقيق عبد الحميد حاجيات– مقدمة المحقّق– صص 22– 23.

[107]– عبد الواحد ذنون طه: أصول البحث التاريخي– ص 222.

[108]– رمضان عبد التواب– المرجع السابق– ص 213.

[109]– مروان العطية: دليل المحقّقين– ص 249.

[110]– مروان العطية: المرجع السابق– ص 250– فرج الله عبد الباري– المرجع السابق– ص 122.

[111]– يبدو أنّ هناك بتر في فهارس الأعلام، فمن المنطقي أن يبدأ المحقّق بحرف الألف، ثم تتبعه باقي الحروف الهجائية الأخرى.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

جهود عبد الحميد حاجيات في إبراز الإشعاع الفكري والثقافي لتلمسان عاصمة الزيانيين بين القرن(7–9هـ).

د. دهاش الصادق
جامعة البليدة 2
البريد الإلكتروني : dahaches@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2016/07/05 تاريخ القبول: 2016/09/12

الملخص:

عرف المغرب الإسلامي ما بين القرن السابع و التّاسع الهجري حركة فكرية وعلمية وثقافية بارزة ، وبخاصة القرنيين الثامن والتاسع الهجريين ، بحيث تربعت تلمسان عاصمة الزيانيين عرش الانبعاث التعليمي ، وصارت مركز إشعاع فكري ومنارة ثقافية قصدها رحالة العلم والمعرفة من المغرب و المشرق والأندلس ،فكان حكام تلمسان من محبي العلم والعلماء ، فساهموا مساهمة فعالة في تشجيع و دفع عجلة الحركة العلميّة والأدبية وأمدوها برعايتهم و اهتمامهم وعطاياهم التي استثمرت في دور العلم وأماكن العبادة ، فكانت تلمسان بحق تصنع الحدث و تساهم في بناء العلم والمعرفة من بابه الواسع، وبهذا تشجيع ورعاية للعلم والعلماء، أصبحت تلمسان حاضرة من أعظم حواضر العلم في العالم الإسلامي كله، نافست فيه أرقى الجامعات الإسلامية كالقرويين بفاس والزيتونة بتونس والأزهر بمصر. و أما الإشكالية التي يمكن طرحها هي: ما مدى مساهمة الأستاذ عبد الحميد حاجيات في إظهار الطابع التراثي العلمي والثقافي لتلمسان عاصمة الزيانيين وانعكاسات ذللك على الهوية الثقافية للمغرب الإسلامي ؟.

الكلمات الدالة:
عبد الحميد حاجيات– المغرب الإسلامي – تلمسان– الزيانيون

العنوان بالإنجليزية:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Abdel Hamid Hadjiyat efforts to highlight the intellectual and cultural radiation of Tlemcen, the capital of Zayani, between the 7th and 9th centuries.

Abstract:

The Islamic Maghreb between the seventh and ninth century AH was known as a great intellectual, scientific and cultural movement, especially the eighth and ninth centuries. Tlemcen, the capital of Zayani, took the throne of educational resurgence and became a center of intellectual radiation and a cultural beacon for the journey of science and knowledge from Morocco, Orient and Andalusia. From the lovers of science and scientists, they have contributed effectively to the promotion and advancement of scientific and literary movement and provided them with their care and attention and their gifts which invested in the role of science and places of worship.

Tlemcen was the right to manufacture the event and contribute to building science and knowledge by its door Sa, thus encouraging and take care of science and scientists, Tlemcen became the capital of one of the greatest science metropolises in the entire Islamic world, competing with the most prestigious Islamic universities Kalkaroaan Fez Zaytuna in Tunisia and Al-Azhar in Egypt. The problem that can be asked is: What is the contribution of Professor Abdul Hamid Hadjiyat to show the scientific and cultural heritage of Tlemcen, the capital of Zayani and the implications of this on the cultural identity of the Maghreb?

Key words:

Abdelhamid Hadjiyat - Islamic Maghreb - Tlemcen – Ziyani.

عرف المغرب الإسلامي ما بين القرن السابع و التّاسع الهجري حركة فكرية وعلمية وثقافية بارزة ، وبخاصة القرنيين الثامن والتاسع الهجريين ، بحيث تربعت تلمسان عاصمة الزيانيين عرش الانبعاث التعليمي ، وصارت مركز إشعاع فكري ومنارة ثقافية قصدها رحالة العلم والمعرفة من المغرب و المشرق والأندلس ،فكان حكام تلمسان من محبي العلم والعلماء ، فساهموا مساهمة فعالة في تشجيع و دفع عجلة الحركة العلميّة والأدبية وأمدوها برعايتهم و اهتمامهم وعطاياهم التي استثمرت في دور العلم وأماكن العبادة ، فكانت تلمسان بحق تصنع الحدث و تساهم في بناء العلم والمعرفة من بابه الواسع، وبهذا تشجيع ورعاية للعلم والعلماء، أصبحت تلمسان حاضرة من أعظم حواضر العلم في العالم الإسلامي كله، نافست فيه أرقى الجامعات الإسلامية كالقرويين بفاس والزيتونة بتونس والأزهر بمصر. و أما

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإشكالية التي يمكن طرحها هي: ما مدى مساهمة الأستاذ عبد الحميد حاجيات في إظهار الطابع التراثي العلمي والثقافي لتلمسان عاصمة الزيانيين وانعكاسات ذللك على الهوية الثقافية للمغرب الإسلامي ؟.

1- تركيز حاجيات على الإشعاع الثقافي لتلمسان و عوامله:

كرّس الأستاذ عبد الحميد أغلب وقته في إبراز الصورة الحقيقية التي كانت عليها حال الجزائر" المغرب الأوسط"، مسلطا الضوء بصفة خاصة على ما يسمى بالهوية الثقافية الني طبعت الجزائر في عصر الازدهار العلمي والثقافي في العهد الإسلامي، فكان الأستاذ عبد الحميد حاجيات يبرز دائما الدور الذي لعبته الحواضر الثقافية في الجزائر تلمسان ، بجاية ،تيهرت، وقلعة بني حماد، وقسنطينة والجزائر العاصمة[1] .و كان الدكتور حاجيات يتتبع بذور و جذور المسار الفكري للنهضة العلمية الحقيقية التي شهدها المغرب الأوسط بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين، والتي اختزلها حاجيات في ستة رموز وأقطاب هي :ابن خميس التلمساني (ت708هـ)،عالم الرياضيات، أبي العباس بن البناء المراكشي(ت721هـ)، لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)،أبي زكرياء يحي ابن خلدون (ت780هـ)،ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ)، عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ) [2].

ويشكو الأستاذ عبد الحميد حاجيات من صعوبة تحديد الإطار الزماني ، انطلاقا مما توفر لديه من مصادر لعصر الإشعاع العلمي والفكري والثقافي لتلمسان، نظرا لقدم الفترة وتداخل حقبها ، ويعترف حاجيات بقلة حيلته للذهاب أبعد ما توصل إليه في معرفة زوايا وخبايا النشاط الثقافي التي كانت تنتجه تلمسان في العصر الوسيط الإسلامي، خاصة وأن هذه الأخيرة شهدت نشاطا مكثفا لتحقيق مهمة التعريب، ولكن في غياب المصادر الحقيقية التي تعذر لحاجيات الوصول إليها، لذلك فقد جهل التعرف على مراحل التعريب ، خاصة وأنه يقر صراحة بأن انتشار التعريب شرط أساسي لقيام ثقافة عربية إسلامية [3].و يعلل الأستاذ حاجيات ذلك بأن مدينة تلمسان بحكم بعدها عن مركز الدعوة الإسلامية في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

شبه الجزيرة العربية فإنها شهدت حركة تعريب بطيئة ، فكانت متقطعة وعلى مراحل ، مقارنة بمدن أخرى كالقيروان والمسيلة وبعض المدن الأندلسية (4)، وكان من أهم عوائق تعريب تلمسان بحسب رأي المؤرخ عبد الحميد حاجيات ، هو "انتشار مذاهب الخوارج والشيعة الأدارسة والفاطميين ، غير أن عملية تعريب تلمسان بدأت منذ القرن الخامس الهجري"(5)، وتتميز كتابات المؤرخ عبد الحميد حاجيات في معظمها بالموضوعية ، ويظهر ذلك من خلال كتاباته التي يعلن فيها وبصراحة كبيرة بأن أعماله المنجزة لا ترقى إلى مستوى الكمال ، بل يعتريها النقص وهذا شيء طبيعي في كل الدارسات التاريخية، لأنها تفتقد لأمهات المصادر المحلية والأجنبية، لحقب زمانية وتاريخية صارت جد متقادمة .

بدأت الحركة الفكرية والثقافية بتلمسان في التوسع والانتشار بعد استفادتها من تأسيس بعض المدن التي كان لها فضل على تلمسان نذكر منها تيهرت(160هـ)،تنس وهنين ووهران(ق3هـ)، المسيلة (ق313هـ)،أشير (327هـ)،الجزائر المدية ومليانة (ق4هـ)،قلعة بني حماد (ق398هـ)، مما نتج عنها توسع في حركة التعريب بالمغرب الأوسط (6).ولم ينسى الأستاذ حاجيات أن يزودنا بعامل مهم كان وراء بروز الإشعاع الفكري لتلمسان، وهو تأسيس المرابطين لمدينة تاجرارت والتي كان يطلق عليها المؤرخون " تلمسان الجديدة"، وجعلوها مقرا لولايتهم(7)، فبدأت الحركة الفكرية والثقافية تشتد بها (8). ومع ذلك يفرق الأستاذ حاجيات بين الإشعاع الثقافي الذي شهدته تلمسان، وبين النمو الثقافي الذي لم تبلغه تلمسان إلا في عهد ملوك الدولة الزيانية (9).

كان الفكر السياسي الإسلامي ملائما في جزائر العصر الإسلامي الوسيط مما انعكس إيجابا على نتاج وإبداع العلماء في مختلف المجالات، لذلك أحصى الدكتور قويدر بشار ما لا يقل عن إحدى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عشرة عاملا من عوامل إثراء الصرح الثقافي لتلمسان وغيرها من حواضر الجزائر، وهي: رعاية الملوك والأمراء للعلم والعلماء ومساندتهم ماديا ومعنويا حرية تنقل العلماء في داخل وخارج الجزائر كثرة مجالس الأدب وحلقات العلم، دور المساجد في خدمة الثقافة، إتباع علماء الجزائر لمناهج علمية وتعليمية متطورة تنوع أفكار وثقافة علماء الجزائر مما وسع من دائرة الجدال والنقاش والمناظرات العلمية واستفادة الجزائر من هجرة علماء الأندلس في إعطاء دفع قوي لانتشار الثقافة الشفوية والمكتوبة [10].

يبرر الدكتور عبد الحميد حاجيات أسباب تركيزه واهتمامه بدراسة وتحقيق التراث الثقافي للجزائر عامة وتلمسان خاصة ، مؤكدا على أن الموروث الثقافي للعرب المسلمين متعدد وغني والاشتغال عليه عمل شاق وصعب جدا ، لأنه يعتمد في الغالب على المسموع من الأدب الشعبي ، وعلى ما حفظته الذاكرة الشعبية، ويرى حاجيات من جهة أخرى بأن هناك نقص كبير للتأليف في التراث الثقافي بسبب استغناء الناس عن المكتوب واكتفائهم بالمسموع [11]. وفي الحقيقة كان الدكتور حاجيات منذ فترة طويلة قد تخصص في البحث عن آثار تلمسان وتاريخ الدولة العبد الوادية ، فكان مولعا بالبحث في المخطوطات التي تحوي تاريخ الجزائر الثقافي في حواضره الأساسية كتيهرت وتلمسان وبجاية وعنابة..، خاصة وأن الثقافة الشعبية الجزائرية في العصر الإسلامي كان يغلب عليها الطابع الفولكلوري النظمي المبني أساسا على الشعر الملحون ، مثل مخطوط" الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان " والتي جمعها محمد بن محمد امرابط ونسخها بيده سنة 1855[12].

ومما يدل على أهية التراث الشعبي وقيمته الاجتماعية والثقافية ، فكان الاستعمار الفرنسي ينتدب بعض الجزائريين للتنقيب والكشف عن كنوز الثقافة الجزائرية عبر العصور الماضية، مما لا يدع مجالا للشك أن بعض المستشرقين قد ساهموا بطريقة أو أخرى في استخراج تراثنا العربي الإسلامي ونفض الغبار عليه ، لذلك فقد أخبرنا محمد مرابط بنفسه بأنه انتدبه المستشرق الفرنسي بروسلار[13] لجمع

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التراث الشعري، لأن هذا الأخير كان يولي عناية كبيرة لدراسة تاريخ تلمسان وآثارها الإسلامية، ليس هذا فحسب ، بل عني كذلك بالأدب الشعبي ، والموسيقى المغربية ذات الطابع الأندلسي [14].

و مع ذلك غريب أمر الاحتلال الفرنسي ، فقد كان يتلهف شوقا للعثور على الثقافة الشعبية الجزائرية ولذلك اهتم بجمعها وتحقيقها ونشرها، ليس حبا لها أو فيها، ولكن إعجابا بما أنتجته عقول الجزائريين وما سطرته أناملهم ، والغريب هو أن يستفيد الاحتلال الفرنسي من هذا الإرث الثقافي لاستعماله في هدم وطمس الذات الجزائرية والهوية العربية الإسلامية للجزائر ، ولذلك بمجرد جمع "كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان "بعد مرور حوالي عشرين سنة ، قام الاحتلال الفرنسي بتنفيذ سلسلة من المشاريع المعمارية والتي للأسف أدت إلى هدم كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية ، ومن أهمها المدرسة التاشفينية [15]، ليس هذا فحسب ، بل أقدم الاحتلال الفرنسي على تحويل الهندسة المعمارية في معظم أحياء مدينة تلمسان إلى هندسة عصرية تحمل الطابع الأوربي الغريب عن ثقافة الجزائريين [16]. لعل اهتمام الدول العربية الصديقة والشقيقة بالأدب الشعبي دراسة وتأليفا ونشرا، كان هو الآخر سببا إضافيا مشجعا لدفع الدكتور عبد الحميد حاجيات لأن يهتم هو الآخر بالأدب الشعبي الجزائري ، ويعترف حاجيات صراحة بأنه اعتمد على بعض المؤلفات العربية وخاصة المشرقية منها في تحقيق كتاب " الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان " لوجود قواسم مشتركة في الثقافتين المشرقية والمغاربية (الجزائرية)، بهدف تصحيح بعض الاضطراب في اللغة والمعنى أو خلل في الوزن [17].

ومن جهته يتحسر الدكتور عبد الحميد حاجيات كثيرا لما آل إليه وضع الأدب الشعبي الجزائري من موشحات و أزجال[18] و أحواز [19]ومدائح [20]، وكثيرا من المختارات الشعرية ذات القيمة الأدبية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

، لا لشيء حسبه إلا لأن شباب اليوم وخاصة الفنانون، لا ينشدونه ولا يتغنون به ، لذلك كان حاجيات يرى بأن الضرورة والحاجة هي التي كانت سببا وراء تحقيق كتاب الجواهر الحسان والتعليق عليه ،ويؤكد حاجيات مرة أخرى على أن هذا التحقيق الذي قام به قد سد فراغا عانى منه كثيرا المغاربة والعرب عامة، وليكون هذا العمل على وجه التحديد في متناول هواة الموسيقى الأندلسية[21] خاصة وأن الأدب الشعبي يتميز بعدة خصائص هي : أن يصاغ باللّهجة العامية، ولأنه يخاطب الطبقة الأمية من المجتمع ، ويتميز بالبساطة ، والوضوح، والتلقائية والعفوية [22].

2- نشأة مراكز الإشعاع الثقافي وشروطه:

كان المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات قد قدم مجموعة من الشروط الطبيعية والسياسية والاقتصادية الواجب توفرها لتكوين مراكز إشعاع ثقافي قارة، ذكر منها: الموقع الجغرافي العوامل السياسية أهمية النمو العمراني ،كثافة التبادل التجاري والعلاقات الاجتماعية [23].و في حقيقة الأمر كان هناك تبادل ثقافي وثيق بين مختلف بلدان المغرب الإسلامي ،بل وتعداه إلى حدوث علاقات ثقافية بين المغاربة والمشارقة نسج خيوطها هؤلاء العلماء الذين رحلوا إلى المشرق والتقوا بنخبتها ، فأثروا وتأثروا بها، وعليه فقد استفادت تلمسان من هذا التبادل الفكري والثقافي " فكان لها حظ وافر من النهوض بالعلوم ونشرها ،والسعي الى خدمة الحضارة الإنسانية وتطويرها ،وبذلك تواصلت الحركة الثقافية بتلمسان أثناء القرن التاسع ، رغم ما أصابها من ضعف واضطراب وفتن وكان الكثير من الملوك الزيانيين من أبناء أبي حمو الثاني[24] وأحفاده، قد ورثوا عنه تضلعه في العلوم والآداب وحبه للعلماء وتشجيعه لهم ،فكان بلاطهم يزخر بالعلماء والأدباء ، وكان عهدهم عهد تقدم حضاري [25].

3- الحياة الثقافية لتلمسان: مراحلها وخصائصها:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد تميزت الحياة الثقافية لتلمسان في العصر الوسيط المتأخر بعدة مراحل لكل مرحلة مميزاتها الخاصة ، فأما المرحلة الأولى التي تمتد إلى غاية أواخر القرن السابع الهجري، فقد تميزت بالتركيز على علوم أصول الدين ، كالفقه والحديث ، وعلوم اللّغة وآدابها (لغة ، نحو، صرف، بلاغة، شعر، نثر)،مما أدى إلى انتشار ظاهرة التصوف ،وكان من أهم أقطابها الغوث أبي مدين (ت594هـ)،كما تميزت تلمسان بكثرة سكانها وتوسع عمرانها بسبب كثرة مهاجري الأندلس إليها (قرطبيين، إشبليين، مرسيين،وبلنسيين [26].

تميزت تلمسان على وجه الخصوص في مرحلتها الأولى، بنموها الثقافي الكبير الذي ساهم في بنائه ثلة من المثقفين من المغرب العربي و الأندلس، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الأديب الأندلسي أبوبكر ابن خطاب المرسي(ت686هـ)،أبي إسحاق التنسي(ت680هـ)،و شقيقه أبا الحسن التنسي(706)، و وتجدر الإشارة إلى أن القرن الثامن الهجري[27] كان يعد أحسن قرن لعصر نمو الثقافة في تلمسان، فإزهرت بذلك العلوم والمعارف، بسبب التوسع في بناء المدرس، مثل المدرسة التي كانت تحت إشراف الأخوين العالمين الجليلين: أبي زيد وأبي موسى إبني الإمام الزياني الذين تخرج على يديهما علماء كثيرون، نذكر منهم:الآبلي،المقري الكبير،أبو عبد الله الشريف،وابن مرزوق الجد[28]. وأما المرحلة الثانية التي تبدأ منذ تأسيس الدولة الزيانية(العبد الوادية) على يد يغمراسن بن زياد سنة 633ه، وصارت عاصمتها تلمسان التي أصبحت فعليا تنافس ثقافيا عواصم المغرب الإسلامي الثلاث وهم : تونس ، فاس ، غرناطة [29].

وبالفعل لا يمكن إعطاء مثال أكثر من التنبيه إلى علو كعب علماء تلمسان الذين تخرج على أيديهم فطاحلة من العلماء نذكر منهم: العلامتان عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحي اللّذان درسا عن أبو عبد الله الأبلي(681-757هـ)[30] ، و من ناحية أخرى يدعوالأستاذ حاجيات الباحثين إلى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإسراع في دراسة وتحقيق وتقييم ونشر الإنتاج الفكري والثقافي لعلماء تلمسان الذين ساهموا في بناء نهضتها، لأن ما نشر منه لحد الساعة يعد قليل جدا وغير كاف، ونذكر منها المصادر التالية، المسند لإبن مرزوق الخطيب ،بغية الرواد ليحيى ابن خلدون، تاريخ تلمسان لأبو عبد الله بن هدّية(ت735ه) [31].

و في هذا السياق يوافق الدكتور قويدر بشار أستاذه عبد الحميد حاجيات في مسألة قلة اهتمام المؤرخين بإبراز أهمية ومكانة تلمسان الثقافية، ولكنه في نفس الوقت، فهو متفاءل جدا ،ورأى بأن هذا الأمر سيزول في المستقبل القريب ، عندما يلتفت أبناء الجزائر البررة إلى أهمية تراثهم ويقفون عند ما خلفه أسلافهم من رصيد حضاري غني ،وعناصر ثقافية ،كانت بالأمس تشع بأنوارها لتضيء سبيل الشعوب المغاربية ، وتنير طريقها وتوجهها إلى ما فيه الخير والصلاح [32].وهنا يطمئن الدكتور عبد الحميد حاجيات قراءه بأنه تصرف بأمانة علمية ورغبة في تسهيل قواعد اللّغة العامية ،و قام حاجيات بإخضاع الشعر الشعبي لقواعد الشعر الفصيح ، حتى يتسنى للمواطن الجزائري التلمساني تحديدا من فهم كلماته ، واستعذاب معانيه على النحو الذي ارتضاه صاحبه [33].

و من نافلة القول فقد شهدت تلمسان عاصمة الزيانيين في القرن التاسع الهجري رغم القلاقل والفوضى السياسية، مجموعة من فطاحل العلماء والأدباء الذين كان لهم الفضل الكبير على واقع المشهد الثقافي للمغرب الأوسط، ومن هؤلاء نذكر:سعيد العقباني [34]، ابن مرزوق الحفيد(766 ـ842هـ) ،عبدر الرحمن الثعالبي [35]،محمد بن عبد الكريم المغيلي(ت909هـ)، ومن أهم مميزات هذه الفترة "ازدهار حركة التصوف التي كانت قد قطعت أشواطا بعيدة منذ الموحدين، وأحرزت في القرن الثامن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الهجري على تقدم ملحوظ، إلا أن الأوساط العلمية كانت في أغلب الأحيان لا تزال متمسكة بموقف معتدل،في الصراع الحاد القائم منذ قرون بين أنصار العقلانية من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، و أعدائها من الصوفية بصفة خاصة، وكان العلماء الذين يمثلون هذا الموقف المعتدل ينتمون غالبا الى فريق السلفية المناهضين للبدع " [36].

و الواقع لم يبق الوضع في القرن التاسع الهجري على حاله ، فقد انقلب الأوضاع رأسا على عقب ،بحيث تمكن التصوف من التوسع في الانتشار بين مختلف الفئات كالعلماء والفقهاء مما جعل التصوف المعتدل الذي قاده الغزالي يتحول إلى نشاط اجتماعي تنظمه عدة طرق كالطريقة الشاذلية[37] ،مما أدى إلى استنكار فريق السلفية للبدع التي أقحمت في حركة التصوف، وكان من بينهم ابن مرزوق الحفيد و ابن زكري [38]. ومن أسباب طغيان ثقافة المتصوفة على ثقافة الفقهاء تشجيع حكام الدولة الزيانية وتعاطيهم للحركة الصوفية، مثل ما فعل السلطان أحمد العاقل (834-866ه)، إلى درجة أن هذا الأخير استجار بقبر الولي القطب الغوث أبي مدين شعيب[39] عندما انهزم أمام أبو ثابت المتوكل وانتزع منه الحكم سنة 866ه [40].

يرى الأستاذ حاجيات بأن القرن التاسع الهجري كان عصر سيطرة ثقافة التصوف على تلمسان بصفة خاصة والمغرب الأوسط بصفة عامة، على حساب ثقافة العلوم الإنسانية والاجتماعية كالتاريخ والفلسفة، وكذلك العلوم الطبيعية والرياضية كعلم الفلك والرياضيات والكيماء والطب..،أي طغيان الثقافة الدينية الصوفية على الثقافة العلمية،مما نتج عنه خللا في التوازن بين العقلانية والروحانية،مما كان له انعكاسات سلبية على مستقبل الحركة الفكرية والثقافية للدولة الزيانية، انطلاقا من عاصمتها تلمسان، التي بدأت تؤسس لعهد جديد، هو عصر الجمود الفكري والثقافي الذي طال ليله، وطي عصر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

السجال العلمي والأدبي لتلمسان عاصمة الزيانيين [41].وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كان قصر السلطان المتوكل الزياني [42] يعج بالعلماء والأدباء، وكان أبو عبد الله التنسي[43] من أشهرهم وأقربهم من السلطان المتوكل، لأنه كان كريما يحسن للعلماء والأدباء فيكثر جوده وعطائه عليهم [44] ، وكان التنسي شديد الإعجاب بأخلاق وسيرة المتوكل ،فكان يمدحه كثيرا ،و لكنه لم يك يمدح من أتوا بعده ، لأنهم ببساطة لم يكونوا في مستواه، ولأن هذا الأخير سقط تحت ضربات الحفصيين [45].

4- المنهج المتبع عند حاجيات:

كان الأستاذ عبد الحميد حاجيات يسير على هدى منهج تاريخي واضح وبسيط ، يربط من خلاله العلة بالمعلول والنتائج بالأسباب، وهذه منهجية المؤرخ، لأنه لا خير في دراسات تاريخية لا تبحث عن العوامل الداخلية والخارجية أو القريبة والبعيدة لتفسير الظواهر الطبيعية وتطور الأحداث التاريخية، ولذلك نرى عبد الحميد حاجيات يركز في هذا الإطار على فترة الازدهار التي شهدتها حاضرة تلمسان مع الإشارة إلى أهم مميزاتها و الوقوف على تأثيراتها على الأقاليم الجزائرية والمغاربية الأخرى[46] ،وفي الحقيقة اتبع الدكتور عبد الحميد حاجيات عدة مناهج علمية بحثية ، كان أهمها المنهج التاريخي الوصفي التحليلي والمنهج المقارن ، ومزج بين عمل الأديب والمؤرخ ، فقام بذلك بـتأريخ الأدب وتأديب التاريخ ، هذا المنهج الذي لا يستطيع أي باحث في الأدب والتاريخ تجاهله خاصة وأن التاريخ كان مختلط بالأدب وجزء منه في فترة متقدمة من التاريخ ،فكان حاجيات يوظف تاريخ الأدب أدب التاريخ، و من جهة أخرى كان حاجيات يعود إلى المصادر الأدبية من معاجم لغوية وموسوعات أدبية وتاريخية، وروايات شفوية، للتأكد من صحة الرويات التاريخية المتضاربة في كثير من الأحيان، لذلك

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كان حاجيات يستقرئ التاريخ انطلاقا من قضايا أدبية ، فضلا على أنه كان يضع المواضيع الأدبية في سياقها التاريخي والفكري والثقافي .

وليس هذا وحسب ، بل كان حاجيات يطبق المنهج التاريخي الشكي على كل الوثائق التي يتناولها فيثبت الصحيح بإيراد الأدلة والبراهين بمقابلة المصادر والمراجع بعضها البعض ، ويقطع دابر الخطأ مهما كان نوعه ، حتى لا تتواتر هذه الأخطاء القاتلة ، فتنقلها الأجيال أب عن جد ، فتشوش ذهنها وتعكر صفو حياتها، فتعيش مضطربة الفكر والعقل وقلقة على طبيعة مصيرها وحقيقة مستقبلها ، تائهة وحيرانة ، مما يروج لها من أباطيل وأكاذيب، وصراعات سياسية وفكرية وثقافية مفتعلة ، تحمل في طياتها سموما قاتلة ، لا يفجر قنابلها، ويفكك عبواتها إلا المؤرخ الموضوعي والصادق النزيه الذي يحمل هموم الشعوب والأمم، وكان الدكتور عبد الحميد حاجيات واحدا من هؤلاء المؤرخين الذين أدوا ما عليهم وزيادة في ربط مصير الخلف بالسلف ، وإعادة كتابة التاريخ الوطني الجزائري من جديد ، من منظور مدرسة تاريخية جزائرية جديدة ، يكون هدفها تصحيح وتصويب الكتابات التاريخية ، وفي نفس الوقت القيام بالتجديد والإبداع والإضافة الهادفة إلى البناء التاريخي وصنع المعلومة التاريخية وترقيتها، لأن البحث مهما كان فهو في النهاية زيادة وتطوير وإضافة في البحث والمعلومة التاريخية .

و على أساس هذا منهج ،كان الأستاذ حاجيات في كثير من المرات يصحح الأخطاء وبخاصة التاريخية منها ، ويعيد نصاب الحق إلى أهله ، ومن ذلك الخطأ الذي أورده محمد امرابط في القسم الثاني من كتاب الجواهر الحسان حيث نسب قصيدة واحدة من نوع الحوزي إلى ابن سهل الأندلسي [47] ، ومع ذلك لم يقدم لنا حاجيات الاسم الحقيقي لهذه القصيدة ، ولكن يكفيه شرفا أنه أشار إلى الخطأ وأنصف صاحبها[48] ، و من ناحية أخرى أشار الدكتور حاجيات مشكورا إلى سبب رئيسي كان وراء الأخطاء المتكررة في نسب القصائد لغير أصحابها الحقيقيين من أمثال أقطاب الحوزي المشهورين : كابن تريكي،ابن مسايب، محمد ابن سهلة، و أبو مدين ، "ويتمثل في الأوضاع الفكرية والاجتماعية التي نشأ وترعرع فيها الأدب الشعبي ، وبصفة خاصة الأزجال ، أين انتقلت هذه الأشعار من جيل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إلى جيل آخر بواسطة الملحنين و المغنين الذين استعملوها في الموسيقى ، وأكثر ما كان ذلك عن طريق السمع [49].ومن جهة أخرى فقد نبه الدكتور حاجيات إلى وجود كثير من الأزجال مجهولة المؤلف في كتاب "الجواهر الحسان"مثل الأرقام التالية: 20، 22، 25 [50] .

فيما يخص الأخطاء اللغوية الكثيرة فلم يهملها الدكتور حاجيات ، بل حذر منها وعدها عدا ، و أرجعها إلى جهل الرواة لكثير من المفردات ،وقلّة بضاعتهم الثقافية ، والتي كانوا ينطقونها بما يمليه عليهم سمعهم أو ذاكرتهم من دون فهم وتبصر [51]، وبذلك حدث تضارب بين تعدد الروايات والنص الأصلي ، مما دفع بالدكتور حاجيات إلى إجراء مقارنة الرواية المتواترة بالسماع بالنص الأصلي، كالمقارنة بين شعر ابن سهل والأعمى التطبلي في الجواهر الحسان [52]، ومن طريق آخر لم يكن حاجيات يمر مر الكرام على الغريب من الكلام ، بل كان يقف عند كل مفردة غريبة فيشرحها شرحا وافيا حتى يسهل على القارئ الفهم السليم ،وبعد الدراسة والتمحيص ومقابلة النسخ بعضها لبعض تبين الدكتور حاجيات إلى أن القصائد التي جمعها محمد امرابط هي الأسلم والأكمل وبالتالي فهي الأقرب إلى الأصل مما جعل حاجيات في النهاية يقرر بأن كتاب الجواهر الحسان يعد مصدرا هاما للباحثين في الشعر الشعبي الجزائري [53].و نخلص في الأخير أن الدكتور عبد الحميد حاجيات قد أرسى قواعد متينة للمنهج الصحيح في كتابة تاريخ الجزائر ،و هو يطالب بإلحاح بضرورة إعادة النظر في كل ما كتب حول تاريخ الجزائر ،وبخاصة تاريخ المغرب الإسلامي ، على أن يصحح كل ما ورد فيه من طعن في الأشخاص والجماعات ، ومن تحيز وتعصب،على ضوء الموضوعية والاعتماد على المصادر النزيهة ، و يدعو حاجيات مرة أخرى المؤرخين الموضوعيين التصدي إلى الكتابات المغرضة ويخص بالذكر كتابة تاريخ ابن خلدون من جديد وبموضوعية، لأن الطبعة المتداولة بحسب رأي حاجيات هي طبعة تجارية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مملوءة بالأخطاء الفادحة ، خاصة ما تعلق منها بأعلام الأشخاص والقبائل والأمكنة المتعلقة ببلاد المغرب الإسلامي [54].

كان لازدهار الفكر والثقافة في المغرب الأوسط في العهد الزياني عدة تمظهرات شهدتها تلمسان وضواحيها، خاصة وأنها غدت قبلة للعلماء والأدباء والشعراء وهي: ازدهار النشاط الاقتصادي و التجاري في تلمسان خلال العصر الزياني (7-9ه)،ونشاط وحيوية حركة التأليف وانتشار المكتبات المتعددة الأنواع والوظائف، تنافس الحكام في بناء وتشيد دور العلم والعبادة من مدارس ومعاهد عليا ومساجد أية في الإبداع، تنشيط الحركة العلمية بنشاط وحيوية الوقف الإسلامي ، لذلك اهتدينا إلى النتائج التالية :

- غدت تلمسان عاصمة الزيانيين حاضرة للعلم والعلماء والأدباء المتميزين.
- تأكيد حاجيات على البعد الفكري والثقافي لتلمسان وهو إنصاف لعصر الزيانيين الذي صوره المستشرقون على أنه كان كله عصر حروب وفتن وفوضى.
- ساهم حاجيات في إرساء مدرسة تاريخية جزائرية لتاريخ الجزائر في العصر الإسلامي التي تركز بصفة خاصة على الجوانب المشرقة في استظهار عناصر الهوية الثقافية الحضارية.
- كان حاجيات من المؤرخين الجزائريين القلائل الذين اهتموا بتوضيح العلاقة بين الأدب والتاريخ، وكيف خدم الأول الثاني.
- كتابة التاريخ انطلاقا من وثائق الأدب الشعبي لما تحمله من معلومات تاريخية قيمة وثرية ومتنوعة.
- اقتراح إقامة مخبر باسمه، وإقامة ملتقى دوليا حول أقطاب المدرسة التاريخية الجزائرية في تاريخ الجزائر الوسيط ويستدعون لحضور الملتقى طبعا.
- فتح تخصص دكتوراه كمشروع بحث للتخصص في دراسة وتحليل أعمال حاجيات.
- جمع كل ما كتبه حاجيات وما كتب عنه.
- تسمية جائزة سنوية باسمه ، تتبناها إحدى الجهات أو الجامعات كتلمسان، أو الجزائر،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أو سيدي بلعباس ، ولما لا الثلاثة معا.

الهوامش:

(1) عبد الحميد حاجيات ،" تلمسان مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط"، (**مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ الجزائر1997، ص 181).

(2) عبد الحميد حاجيات ،" الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان " ،(**مجلة الأصالة**، عدد 26، الجزائر 1975 ،ص 136-156).

(3) عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز اشعاع، ص 182.

(4) نفسه، ص 182.

(5) نفسه، ص 182-183.

(6) نفسه ، ص 183.

(7) لقد إتخذها أيضا الموحدون عاصمة لهم .

(8) نفس المرجع ، ص 183.

(9) نفسه ، ص 185.

(10) قويدر بشار، " إطلالة على الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر: نموذج لأبي حمو موسى الزياني "، (**مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ ،الجزائر 1997،ص197-198).

(11) مجموع ، **كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان** ،تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982،ص5 ،6.

(12) نفس المصدر، ص 6.

(13) شارل بروسلار (1816-1889)، مستشرق ومؤرخ فرنسي، إستقر بتلمسان سنة 1835 وعمل بها شرطيا ،كان يشغل منصبا إداريا ساميا كرئيس بلدية سنة 1854، ثم رئس دائرة ، وكان مولعا بالأدب الشعبي والموسيقى المغربية، له كتاب "دراسة أثرية تاريخية حول قبور ملوك بني زيان" سنة 1876 عن المطبعة الملكية الفرنسية بباريس ، و الزهرة النيرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الكفرة لابن رقية التلمساني ترجمه إلى الفرنسية ألفونس روسو، تلمسان وتامبكتو1861،

(14) نفس المصدر ، ص 7.

(15) المدرسة التاشفينية، تقع بمحاذاة الجامع الكبير ، وأسسها أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (718-738ه) ، وكان من أهم معلميها : أبو عبد الله محمد السلاوي (ت: 737)، وأبي موسى عمران بن موسى المشدالي (ت: 745) .

(16) نفس المصدر،ص 7.

(17) نفسه،ص 8.

(18) الزجل هو نوع من أنواع الأدب الشعبي ، وهو فن العامة بالأندلس من الشعر ، وكان مؤسسه هو أبوبكر ابن قزمان.

(19) الحوزي هو الشعر المنظوم بالعامية ، وهو نفسه الشعر الملحون عند أهل تلمسان ..

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(20) المديح هو نوع من الأغراض الأدبية، يستعمل غالبا في الحفلات الدينية وفي بعض مناسبات الأعراس والختان وكذلك المديح الصوفي الذي يعتمد على الزهد، وحتى في أيام الأموات، ولكن في الغالب الاعم هي مدائح نبوية كمديح البردة .

(21) نفس المصدر ، ص 9.

(22) محمد بلقراد، "الأدب الشعبي "، (**مجلة التاريخ**، عدد 19، المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر 1985، ص62).

(23) عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز اشعاع ، ص 185.

(24) أبي حمو الثاني(723هـ – 791 ه)،مؤسس دولة بن عبد الوادية ، وهو باني المدرسة اليعقوبية سنة 765 هـ ، بلغت الثقافة أعلى مستوياتها في فترة حكمه1389-1359م

(25) أبو عبد الله التنسي، **تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان)**، تحقيق وتقديم الدكتور عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1984 ،ص 11.

(26) نفس المصدر، ص 185.

(27) تميز القرن الثامن الهجري بنبوغ عدد كبير من رجال العلم والأدب إمتاز انتاجهم بالإجتهاد والإبداع في مختلف المجلات كالطب والرياضيات. أنظر، تلمسان مركز اشعاع، ص187.

(28) نفس المصدر ، ص 186.

المصادر و المراجع:

(1) بشار قويدر ، " إطلالة على الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر: نموذج لأبي حمو موسى الزياني "، (**مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ ،الجزائر 1997).

(2) بلقراد محمد ، "الأدب الشعبي "، (**مجلة التاريخ**، عدد 19، المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر 1985).

(3) التنسي أبو عبد الله ، **تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان)**، تحقيق وتقديم الدكتور عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1984 .

(4) حاجيات عبد الحميد ،" تلمسان مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط"، (**مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ الجزائر1997).

(5) ———————— ،" الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان " ،(**مجلة الأصالة**، عدد 26، الجزائر 1975).

(6) ——————— ،" نقد المصادر و أهمية ذلك في كتابة تاريخ الجزائر"، (**مجلة التاريخ**، عدد 19،المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر 1985).

(7) دهاش الصادق ، " العلاَمة عبد الرحمان الثعالبي رحلة علم وعمل"، (**مجلة الدراسات الإسلامية**، العدد 11، جامعة الجزائر، جوان 2007).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عبد الحميد حاجيات والتأريخ لشخصيات المغرب الأوسط الزياني أبو حمو موسى الثاني نموذجا.

د. الزين محمد
جامعة سيدي بلعباس
البريد الإلكتروني : zineeddine0130@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2017/01/05 تاريخ القبول: 2017/01/12

الملخص:

حظي تاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وبالخصوص في فترة قيام آخر دولة في هذه الحقبة التاريخية ونعني بذلك الدولة العبد الوادية أو الزيانية التي امتد عمرها من سنة 633-954ه/1235-1554م، بنصيب وافر من الدراسات الأكاديمية في مرحلة ما بعد التدرج، ولأن المادة العلمية لتاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط كان معظمها في صفته المخطوطة فإن تسليط الضوء على تاريخه يبقى ناقصا إذا لم يتم تحقيق هذا التراث وإخراجه في قالب أكاديمي يسهل على الباحث استخدامه، وعليه فإن النشاط البحثي في هذه الفترة سار في اتجاهين أحدهما مكمل للآخر. وهما: الاتجاه التحقيقي و الاتجاه البحثي.

الكلمات الدالة:

عبد الحميد حاجيات– المغرب الأوسط – تلمسان– التأريخ– أبو حمو موسى الثاني

العنوان بالإنجليزية:

Abdel Hamid Hadjayat and history of the characters of Middle Morocco ZayaniAbu Hamou Musa II model

.Abstract:

The history of the Middle Maghreb during the Middle Ages, especially during the period of the last state in this historical period, namely the slave or valiant state, which lasted from 633-954 / 1235-1554, had a large share of academic studies in the post-gradient phase. The history of medieval Morocco during the Middle Ages was mostly in the form of the manuscript, the highlight of its history remains incomplete

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

if this heritage is not achieved and output in an academic template easier for the researcher to use it, so the research activity in this period went in two directions, one complementary to the other. Namely: the investigative trend and the research trend.

Key words:

Abdelhamid Hadjayat - Middle Morocco - Tlemcen - History - Abu Hamou Musa II

حظي تاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وبالخصوص في فترة قيام آخر دولة في هذه الحقبة التاريخية ونعني بذلك الدولة العبد الوادية أو الزيانية التي امتد عمرها من سنة 633-954هـ/1235-1554م، بنصيب وافر من الدراسات الأكاديمية في مرحلة مابعد التدرج، ولأن المادة العلمية لتاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط كان معظمها في صفته المخطوطة فإن تسليط الضوء على تاريخه يبقى ناقصا إذا لم يتم تحقيق هذا التراث وإخراجه في قالب أكاديمي يسهل على الباحث استخدامه، وعليه فإن النشاط البحثي في هذه الفترة سار في اتجاهين أحدهما مكمل للآخر وهما :

الاتجاه التحقيقي:

حيث تم الإقبال على تحقيق مخطوطات تطرقت بالتفصيل أو بالتعميم لتاريخ الدولة العبد الوادية، وهي في حالتين فإما مخطوطات تظهر لأول مرة، أو مخطوطات منشورة من قبل مستشرقين وبالتالي تحتاج إلى إعادة تحقيق بضوابط علمية منهجية من طرف الناطقين بلغة الضاد، ولعل رائد هذا المجال بدون منازع هو المؤرخ عبد الحميد حاجيات الذي كان له الفضل في تحقيق مخطوطات تحقيق علمي أكاديمي بعيد عن سموم وتشويهات المستشرقين، نذكر على سبيل المثال تحقيقه لمخطوط زهر البستان في دولة بني زيان لمؤلف مجهول[1]، وأيضا تحقيقه لمخطوط بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد[2] لأبي زكريا يحيى بن خلدون كما لاننسى أيضا المؤرخ بوزياني الدراجي الذي حقق مخطوط زهر البستان في دولة بني زيان[3] والمؤرخ محمود آغا بوعياد الذي حقق الجزء الخاص بتاريخ بني زيان

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المقتطف من مخطوط نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان[4]، وللتذكير فإن هذه المخطوطات لم تحقق في إطار رسائل جامعية لنيل شهادات، وإنما كعمل أكاديمي مستقل .

الاتجاه البحثي:

وذلك بالتنقيب وتسليط الضوء على تاريخ دولة بني عبد الواد وفق الضوابط المنهجية التالية:

– تناولها في دراسة سياسية اقتصادية ثقافية بصفة عامة مثلما هو الحال مع دراسة الباحث عبد العزيز فيلالي الموسومة ب" تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية"[5] أو مع دراسة الباحث مختار حساني المعنونة ب" الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية[6]" .

– اختيار جانب معين ودراسته مثلما هو الحال مع أطروحة الباحث الأخضر عبدلي المعنونة ب" الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان"[7] وأطروحة الباحثة نبيلة حساني المعنونة ب" القضاء والقضاة في عهد الدولة الزيانية "[8].

– دراسة تاريخ الدولة العبد الوادية في عهد حاكم معين، مثلما هو الحال مع أطروحة المؤرخ عبد الحميد حاجيات والمعنونة ب" المغرب الأوسط في عهد السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني" و أطروحة الباحث خالد بلعربي المعنونة ب" التطور السياسي والحضاري للدولة العبد الوادية في عهد السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م)"[9] ، وأطروحة الباحث محمد مكيوي المعنونة ب" الأوضاع السياسية والثقافية للدولة العبد الوادية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول (633هـ/1235م – 737هـ/1337م)"[10].

– دراسة العلاقات الخارجية للدولة العبد الوادية: مثلما هو الحال مع الباحث مبخوت بودواية المعنونة ب" العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان"[11] وأطروحة الباحث محمد مكيوي المعنونة ب " العلاقات السياسية والفكرية المغاربية للدولة الزيانية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول"[12]، وأطروحة الباحثة هوارية بكاي المعنونة ب" العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى خلال القرنين السابع والعاشر الهجريين

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(633-962هـ/1235-1554م)"[13] ، ومذكرتها للماجستير المعنونة ب" العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا"[14]، وأطروحة الباحث إدريس بن مصطفى الموسومة ب " العلاقات السياسية والاقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية في عهد الدولة الزيانية"[15] وأطروحة الباحث بلحسن إبراهيم بعنوان " العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأدنى من القرن 7 إلى القرن 9 هـ/13 إلى 15م"[16] وأطروحة عبد الرحمن بالأعرج بعنوان " العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك"[17] وأطروحة الباحث عبد القادر بوحسون بعنوان " العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني"[18]. ومن خلال هذه العناوين يتبين أن تاريخ المغرب الأوسط خلال العهد الزياني قد لقي اهتماما من قبل الباحثين وقبل أن ندخل في صلب الموضوع لابأس أن نسجل الملاحظات التالية:

تم تناول تاريخ الدولة الزيانية بالتدرج في تناول المواضيع من العام إلى الخاص فبعدما نال التاريخ السياسي حقه من البحث تم تسليط الضوء على التاريخ الثقافي والاقتصادي .عرفت الدراسات التاريخية في السنوات الأخيرة نقلة نوعية في طريقة التناول وطبيعة الموضوع وحتى المادة العلمية المستخدمة، فإذا كان الباحث في التاريخ السياسي قد وجد ضالته في كتب التاريخ العام فإن الباحث في التاريخ الاقتصادي يحتاج إلى مصادر أخرى وهو ما حذا بهم إلى توظيف ما يصطلح عليه بالمصادر الدفينة وهي المصادر التي لا يقصد من كتابتها أنها للتاريخ، مثل كتب النوازل الفقهية وكتب الحسبة .

يبدو من خلال الكم الهائل من الدراسات التاريخية حول الدولة الزيانية أن تاريخ هذه الدولة لازال يحتاج إلى تسليط الضوء على بعض المناطق المعتمة على غرار تاريخ الذهنيات .معظم الدراسات ركزت على العاصمة تلمسان وأهملت باقي مناطق الدولة الزيانية بداعي قلة المادة، وهي هفوة منهجية تحتاج إلى إعادة النظر .

في هذا الإطار نسعى من خلال هذه السطور إلى تسليط الضوء على إحدى أهم الدراسات الأكاديمية التي تناولت تاريخ الدولة الزيانية ونعني بذلك أطروحة الدكتوراه التي قدمها المؤرخ عبد الحميد حاجيات لنيل درجة دكتوراه من جامعة السوربون، والتي جاءت بعنوان " المغرب الأوسط في عهد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني " لكن قبل ذلك نرى أنه من الضروري أن نقدم نبذة مختصرة عن هذا المؤرخ الألمعي.

السيرة الذاتية للمؤرخ عبد الحميد حاجيات:

ولد مؤرخنا في 20 أكتوبر سنة 1929 بمدينة تلمسان، تلقى تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه، ثم نال شهادة البكالوريا سنة 1950 بمدينة وهران ليشد الرحال بعد ذلك إلى فرنسا حيث درس الأدب العربي بجامعة ليون وتخرج منها ليسانس دفعة 1954، ثم واصل دراسته بجامعة بوردو ونال دبلوم الدراسات العليا سنة 1959 وشهادة التبريز في الآداب العربية من جامعة السوربون سنة 1960، ثم سجل في جامعة اكس ان بروفانس وتخرج منها بشهادة دكتوراه الحلقة الثالثة تخصص تاريخ سنة 1974 ولم يقف النهم العلمي عند مؤرخنا عند هذه الشهادة، بل تخرج سنة 1991 دكتوراه دولة من جامعة ايكس أون بروفانس بفرنسا .

شغل المؤرخ عبد الحميد حاجيات عدة وظائف جامعية فقد شغل منصب أستاذ مساعد بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر في الفترة الممتدة من 1966-1975 ثم أستاذ جامعي بمعهد الثقافة الشعبية وقسم التاريخ بتلمسان، كما شغل عدة مناصب إدارية كترأسه المعهد الوطني للتعليم العالي للثقافة الشعبية بتلمسان في الفترة الممتدة من سنة 1985م إلى سنة 1989، ورئيس المجلس العلمي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة تلمسان من 1999 إلى 2003، ومدير مخبر الدراسات الحضارية والفكرية منذ سنة 2000 ورئيس قسم التاريخ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تلمسان ورئيس اللجنة العلمية لقسم الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان، له العديد من المؤلفات نذكر منها كتاب الجزائر في التاريخ وكتاب بعنوان عبد الله بن المقفع حياته وآثاره، كما حقق عدة مخطوطات على غرار بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد وزهر البستان في دولة بني زيان والجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، وأخبار المهدي بن تومرت وسلوان المطاع في عدوان الأتباع.

له عشرات المقالات المنشورة في مجلات وطنية ودولية محكمة بالإضافة إلى عشرات المحاضرات التي ألقاها في المحافل الوطنية والدولية، دون الحديث عن تأطيره للرسائل الجامعية،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

فمؤرخنا عبد الحميد مدرسة بما تحمله الكلمة من معنى، إذ تخرج على يديه أكثر من خمسين باحثا جامعيا فقط في مرحلة ما بعد التدرج ناهيك عن مرحلة الليسانس، هذا باختصار شديد نبذة عن مؤرخنا الفاضل البروفيسور عبد الحميد حاجيات حفظه الله وأطال في عمره.

عبد الحميد حاجيات مؤرخا لأبي حمو موسى الثاني:

حينما نستعرض محتويات الكتاب فقد قسم حاجيات أبواب الكتاب على النحو التالي:

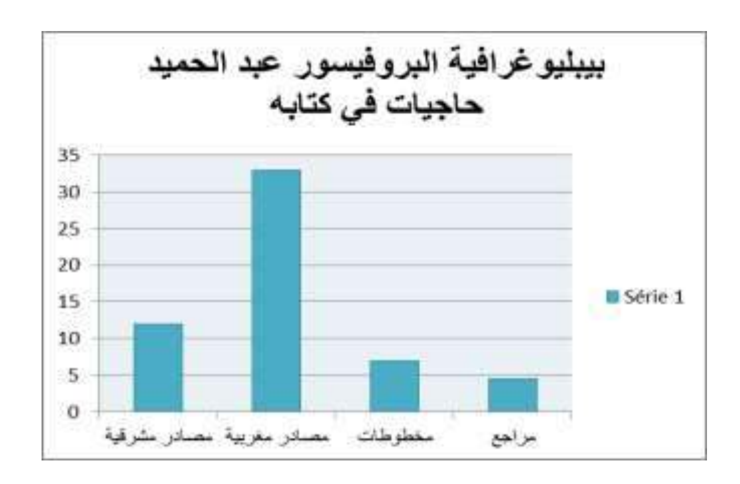
القسم	الباب	الصفحات
القسم الأول: الدولة العبد الوادية قبل إمارة أبي حمو الثاني	الباب الأول: الأوضاع السياسية. الباب الثاني: الحياة الفكرية. الباب الثالث: الفنون والعمران	11-34
القسم الثاني: حياة أبي حمو الثاني وآثاره	الباب الأول: حياته وسياسته الباب الثاني: حضارة المغرب الأوسط في عهد أبي حمو الثاني. الباب الثالث: آثار أبي حمو الأدبية.	35-52
القسم الثالث: مختارات من آثار أبي حمو.	الباب الأول: منتقيات من كتاب واسطة السلوك الباب الثاني: شعر أبي حمو	67-57

تنوعت مصادر و مراجع الكتاب ، و هذا ما يدل عليه الجدول التالي:

نوع البيبليوغرافيا	عددها
مصادر مغربية	33
مصادر مشرقية	12
مخطوطات	7
مراجع عربية	9

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و الرسم البياني يوضح هذه التقديرات و البيانات البيبليوغرافية على النحو التالي:



منهجه في الكتابة التاريخية:

إيراد مختلف الروايات حول الحادثة الواحدة: استعرض حول حادثة القبض على أبي ثابت الزياني وحاشيته كل من رواية يحيى بن خلدون وعبد الرحمن بن خلدون والتنسي مفككا كل رواية ومحللا لمكنوناتها وما تنطوي عليه من آراء تاريخية ومقارنة الروايات ببعضها البعض من أجل الخروج بنتيجة أقرب إلى الصواب[19]

نقده للرواية التاريخية وتحريه الموضوعية:

ذلك أن يحيى بن خلدون قد أورد قصة في بغية رواده حول تضحية أبو حمو بنفسه لأجل عمه أبو ثابت، فلم يستسغ المؤرخ حاجيات هذه الرواية مبرهنا على صحته بقوله " والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن المؤرخ الذي نسب لأبي حمو دورا بطوليا في هذا الحادث، يحيى بن خلدون، كان كاتب السلطان الزياني ومستشاره، وأنه ألف كتابه بغية الرواد بقصد تمجيد عهد أبي حمو وتخليد ذكره، فليس من الغريب أن ينسب له أعمالا شاع ذكرها بين رجال البلاط من دون أن يحاول التثبت من صحتها"[20]

توظيفه للمنهج النفسي :

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أبان هنا عن احترافية متناهية وتحكم تام في المادة العلمية وتأويلها، فقد ذكر أن العوامل النفسية متنافية تماما مع ما ذكره يحيى بن خلدون حول تضحية أبو حمو الثاني بنفسه وكشفه أمام المريخيين أنه هو الأمير بدلا من عمه أبي ثابت، وقد فسر ذلك بمعطيات تاريخية تساند تماما مايقول، فيعقوب والد ابو حمو كان أكبر من اخويه أبي ثابت وأبي سعيد، وبالتالي فإنه أولى منهما بالإمارة، وبالتالي فعودتهما من فاس واستقراره بندرومة بدل تلمسان قاعدة الملك كانت تصريحا منه باعتزاله الحكم حتى لا يكيد له أخواه لأن الشرعية معه، وعليه فمن سلب لهم الحكم لا يعقل أبدا أن يضحي بنفسه من أجلهما حيث يقول " وعلى كل فلسنا نرى أن عواطف أبي حمو نحو عميه الأميرين كانت قوية إلى درجة أن يقدم نفسه فداء لأحدهما، بل نعتقد أن العلاقات بين أبي يعقوب وأخويه لم تكن طيبة إلى حد يجعل أبا حمو يضحي بحياته لأجل عمه أبي ثابت[21].

إبداء رأيه حول بعض الأحداث التاريخية:

يقول حول القصة التي أوردها يحيى بن خلدون عن أبو حمو الثاني " ولذا فرواية يحيى بن خلدون لا تمثل عندنا إلا ما كان شائعا بين رجال البلاط بتلمسان وأنصار الدولة من الحكايات الموضوعة التي ترمي إلى تمجيد الملوك وتحبيبهم إلى الناس"[22].

أبو حمو القائد السياسي :

يقودنا المؤرخ عبد الحميد حاجيات في رحلة إلى العصر الوسيط لنطلع فيها على إبداع شخصية حملت في طياتها عدة روافد بحيث يندر اجتماعها في رجل واحد، إننا بصدد الحديث هنا عن القائد السياسي أبو حمو موسى الثاني محيي أمجاد الدولة الزيانية بعد الأفول، فمن دون شك أن المطالع لهذا الكتاب يلحظ جيدا النزعة الإخبارية من طرف المؤرخ حاجيات لهذا الرجل، بحيث تتبع سيرته منذ مولده بل وسبق ذلك ذكر نسبه ليدلل على أنه سليل القادة والحكام من قبيل بني عبد الواد فيقول " يتصل نسب أبي حمو موسى الثاني بمؤسس الدولة العبد الوادية يغمراسن بن زيان فهو ابو حمو موسى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن [23] وهناك إشارة مهمة استطرد بها هذا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القول إن دلت على شيئ تدل على أن أبو حمو الثاني كان حالة خاصة إذ أن سلفه من أسرته لم ينل الإمارة حيث يقول " ولم تكن الإمارة في أحد من أسلافه بعد يغمراسن"[24] فهي إذن حالة خاصة تميز بها أبو حمو موسى الثاني جعلته في مصاف شهرة مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان، ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن نشأته بتلمسان وطلبه للعلم بها وهي المرحلة المهمة في حياته لأنها ستصقل فيه أبو حمو العالم ،كما تحدث عن إقامته بفاس، وعندما تندر المادة العلمية عن إعطائنا تفاصيل عن اقامته هذه، فإن المؤرخ حاجيات استنتج بعد تحليله العميق وربط النمط الشخصي لأبي حمو الثاني بالأوضاع الثقافية التي كانت تعيشها فاس أنذاك، توصل إلى أن فترة إقامته بفاس كانت فرصة له للعكوف على طلب العلم فقد كان يبلغ من العمر أنذاك أربعة عشر سنة حيث يقول " أما عن إقامة أبي حمو منذ 737ه فلسنا نعرف شيئا، وقد يكون وجه نشاطه في هذه المدة لطلب العلم ولا سيما أن فاسا كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية أنذاك"[25] .

لم يكتفي حاجيات بالمنهج التاريخي بل استعان بنظريات علم الاجتماع والتي في مجملها تنطلق من تأثير الظاهرة الاجتماعية والظروف السائدة على الفرد فينطبع بها ويكون كما قال ابن خلدون " ابن بيئته" ولا يكتفي بهذا المنهج فقط بل وظف أيضا المنهج النفسي منطلقا من فكرة أن فترة المراهقة تعد مرحلة مناسبة للتحصيل العلمي حيث يقول " ولسنا نشك في أهمية إقامة أبي حمو بفاس بالنسبة لتكوينه العلمي والأدبي، وذلك أنها تناسب فترة تحصيل العلوم في حياته، إذ تمتد من سن الرابعة عشرة إلى السابعة والعشرين وإذا راعينا مستوى أبي حمو العالي في الفنون الأدبية ودرسنا إنتاجه النثري والشعري، تأكد لدينا أنه لم ينقطع عن الاشتغال بطلب العلم"[26]، بعد ذلك عاد رفقة والده أبي يعقوب إلى المغرب الأوسط واستقرا بندرومة وقد صاحب ذلك إحياء أبي سعيد وأبي ثابت للدولة الزيانية ثم انهزامهم في معركة أنجاد أمام المرينيين، وهي التي حددها المؤرخ حاجيات كنقطة تحول فاصلة في شخصية وطموحات أبو حمو موسى الثاني، ذلك أنه انطلاقا من هذه المعركة ومانتج عنها من تفرق بني عبد الواد في مختلف مناطق بلاد المغرب

كان أبو حمو موسى الثاني ممن هاجر إلى المغرب الأدنى سنة 753ه والتي استغلها من أجل قراءة صحيحة للأوضاع السياسية واستغلالها استغلالا ذكيا من خلال حسن إدراك المناورات السياسية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وآنية التحالفات، فقد لاحظ قوة العرب وكثرتهم العددية وكلمتهم المسموعة، وهو ما حذا به إلى التقرب من قبيلة الذواودة وبني عامر من أجل ضمان مساندتهم العسكرية له لطرد المرينيين من المغرب الأوسط وإحياء الدولة الزيانية برئاسته، وقد أحسن استغلال الوقت الأمثل لذلك فكانت وفاة أبو عنان سنة 759هـ فرصة للزحف على تلمسان رفقة بني عامر والذواودة لطرد المرينيين، واستمالة أبو حمو للأعراب تنبئ عن حنكة سياسية كبيرة استجلاها لنا مؤرخنا بعد قرائته المتأنية لما جرى من أحداث أنذاك، ولندعه يصفها لنا " أما دور أبي حمو في هذه الحركة لم يكن دون الرئيس المدبر بأتم معنى الكلمة، فترشيحه للإمارة لم يكن حسب التقاليد المألوفة، إذ لم يكن ابن سلطان ولم يعين من طرف أشياخ بني عبد الواد، وإنما اتجهت أنظار العرب إليه للأسباب السياسية المذكورة، ولم يكن ذلك لاحتياجهم إلى رئيس يقودهم إلى النصر، بل لتكتسي عمليتهم طابعا شرعيا، فهم إذن يغيرون على المغرب الأوسط يقومون بإعادة أمير. على عرش أجداده ويساهمون حينئذ في أخذ حق ورد عدوان"[27] ، ويرى مؤرخنا أن أبو حمو رغم ذكائه وحسن تقديره للأمور لا يخلو من إقدام ومغامرة فقد وصف لنا تحالفه مع بني عامر بالإقدام لأنهم كانوا ينتظرون منذ زمن الفرصة السانحة للاستيلاء على التل والمراعي الخصبة، فأبو حمو قد تنازل لهم وأرضاهم بتحقيق رغبتهم مقابل مناصرته، فكان عقدا سياسيا تمكن خلاله أبو حمو من إحياء دولته.

أبو حمو المنظّر السياسي :

تعد محاولة أبو حمو التأليف في علم الوصايا السياسية وأخلاق الملوك ضمن إطار عام عنى به العرب بعد تطور حركة الترجمة في العهد العباسي، ويعد ابن المقفع أول من حاول في هذا المجال وذلك من خلال ترجمته لكتاب كليلة ودمنة[28] الذي حمل في طياته دروسا أخلاقية وسياسية للحاكم على لسان الحيوانات، ثم أتبعه بكتاب رسائل الصحابة[29] التي خصها بتفصيلات عن سياسة الخليفة وما ينبغي له فعله، فهذا العلم كان منشؤه فارسيا، غير أن المسلمين أدخلوا عليه تعديلات، فإذا كان هذا العلم يعتمد على القصة كمكون أساسي لتكون جانبا واقعيا ونموذج حي للقيم والأخلاق، فإن المسلمين قد أدخلوا عليه القصص الإسلامية في هذا الفن سواء من تاريخ العرب أو السيرة النبوية وقصص الصحابة والتابعين، وسجل الجاحظ محاولة أخرى في هذا الفن بتأليفه كتاب التاج في أخلاق الملوك[30]، كما ألف

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الماوردي كتاب الأحكام السلطانية[31]

ولم يقتصر التأليف فيه على المشرق الإسلامي، بل انتقل إلى الغرب الإسلامي فقد ألف أبو بكر الطرطوشي كتاب سراج الملوك[32] الذي قسمه إلى أربع وستين بابا تحدث فيها عن الحكمة من السلطان ومنافعه ومضاره وخصال الملك التي أمر الشرع بها وصفات الملك، وألف أيضا ابن ظفر الصقلي كتاب سلوان المطاع في عدوان الأتباع[33] الذي قسمه إلى خمس سلوانات، كل واحدة منها تضم مجموعة من القصص، وهذه السلوانات الخمس هي: التفويض، التأسي، الصبر، الرضى، الزهد .

بناء على هذه الملاحظات يأتي كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك كمحاولة في هذا المضمار، حيث ألفه أبو حمو موسى الثاني ليكون دليلا سياسيا وأخلاقيا لولي عهده أبو تاشفين في تسييره للدولة " فرأينا أولى ما نتحف به ولي عهدنا ووارث مجدنا والخليفة ان شاء الله تعالى من بعدنا، وصايا حكمية وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك[34]"، حيث قسمه إلى أربعة أبواب، تحدث في الباب الأول عن الوصايا والآداب والحكم التي ترشد إلى طرق الصواب، وخصص الباب الثاني للحديث عن قواعد الملك وأركانه، حيث حصرها في أربع قواعد تتمثل في قاعدة العقل وقاعدة السياسة وقاعدة العدل وقاعدة جمع المال والجيش، أما الباب الثالث فقد خصه بالحديث عن الأوصاف المحمودة للملك وهي. الشجاعة والكرم والحلم والعفو، أما الباب الرابع والأخير فقد تحدث فيه بالتفصيل عن الفراسة، ودعم وصاياه هذه بمجموعة من القصص من مختلف الحقب التاريخية سواء من تاريخ صدر الإسلام أو تاريخ الفرس وحتى تاريخ أسلافه من أمراء بني عبد الواد .

يكتسي هذا الكتاب قيمة تاريخية كبيرة، ويتجلى ذلك في الرصيد الهام من القصص التي استشهد بها والتي تبين بوضوح فكره الثاقب ونظرته الإسلامية بدليل أنه استشهد بعشر قصص من سيرة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويقول البروفيسور حاجيات في هذا الصدد " وفي واسطة السلوك بعض الملاحظات التاريخية أوردها أبو حمو في أثناء حديثه، وهي تبرهن عن فكره الثاقب ونقده الصائب"[35].

بعد استعراضنا لهذه الورقات حول تأريخ المؤرخ عبد الحميد حاجيات حول إحدى أهم الشخصيات في تاريخ الدولة الزيانية، تكون قد اتضحت الصرامة المنهجية وسعة الاطلاع اللذين تميز بهما هذا المؤرخ الألمعي، وتحكمه في آليات التحليل ومستويات استقراء النص التاريخي وكرونولوجية الحادثة التاريخية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وإبداعه في حسن توظيف ثنائية المعلومة والمنهج الملائم لتفسيرها، فالتاريخ في نظر مؤرخنا ليست أحداث جامدة، بل يحركها الإنسان الذي هو عبارة عن جسد وروح فلا ينبغي أبدا غض الطرف عن هذه المعادلة إذا أردنا كتابة تاريخ حقيقي.

الهوامش:

1. مؤلف مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
2. يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2،1، تحقيق عبد الحميد حاجيات،عالم المعرفة،الجزائر، 2011.
3. مؤلف مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع،الجزائر، 2013.
4. محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان–مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان– ، تحقيق محمود آغا بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
5. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية، دكتوراه الدولة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1995.
6. مختار حساني، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية، رسالة الدكتوراه الحلقة الثالثة، المعهد الوطني للدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، 1986.
7. الأخضر عبدلي، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان، رسالة دكتوراه الدولة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2005.
8. نبيلة حساني، القضاء والقضاة في عهد الدولة الزيانية (633–962هـ/1235–1554م)، مذكرة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1999.
9. خالد بلعربي، التطور السياسي والحضاري للدولة العبد الوادية في عهد السلطان يغمراسن (633–681هـ/1235–1282م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 2004.
10. محمد مكيوي، الأوضاع السياسية والثقافية للدولة العبد الوادية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول. (633هـ/1235م – 737هـ/1337م)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2001.
11. بودواية مبخوت، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، دكتوراه دولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2006.
12. محمد مكيوي، العلاقات السياسية والفكرية المغاربية للدولة الزيانية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2008.
13. هوارية بكاي، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربية الأوسط والأقصى خلال القرنين السابع والعاشر الهجريين. (633–962هـ/ 1235–1554م)، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2014.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

14. هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2008.
15. إدريس بن مصطفى، العلاقات السياسية والاقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية في عهد الدولة الزيانية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2007.
16. بلحسن إبراهيم، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأدنى من القرن 7 إلى القرن 9 هـ/13 إلى 15م، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2005.
17. عبد الرحمن بالأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2008.
18. عبد القادر بوحسون، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2008.
19. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره عالم المعرفة، الجزائر، 2011، صص، 76-77.
20. نفسه، ص78.
21. نفسه، ص79.
22. نفسه، صص، 80-81.
23. نفسه، ص69.
24. نفسه، ص69.
25. نفسه، ص72.
26. نفسه، ص73.
27. نفسه، ص90.
28. ابن المقفع، كليلة ودمنة، دار الكتب العلمية ،بيروت، 1989.
29. ابن المقفع، رسالة في الصحابة، دار الكتب العلمية ،بيروت، 1989.

الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا ،المطبعة الأميرية القاهرة، 1914.

30. الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الحديث ،القاهرة ،د.س.
31. أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، 1994.
32. ابن ظفر الصقلي ،سلوان المطاع في عدوان الأتباع، تحقيق عبد الحميد حاجيات، دار الألمعية، 2011.
33. أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، المطبعة التونسية، 1279هـ، ص3.
34. عبد الحميد حاجيات ،المرجع السابق، ص202.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إسهام عبد الحميد حاجيات في تحقيق التراث المخطوط "سلوان المطاع في عدوان الأتباع أنموذجا".

د. مطهري فطيمة
جامعة تلمسان
البريد الإلكتروني : a_metahri@yahoo.fr
تاريخ الاستلام: 2017/01/05 تاريخ القبول: 2017/01/12

الملخص:

يمثل التراث المخطوط جزءا هاما من تاريخ وحضارة الأمم، و ميراث الأجيال المتعاقبة، لذا حظيت باهتمام كبير من طرف الباحثين والمهتمين بها دراسة وتحقيقا، بهدف إعادة بعث مكوناتها ونفض الغبار عن معالمها الفكرية والعلمية والحضارية بصفة عامة ، والجزائر كغيرها من البلدان العالم الإسلامي والعربي تمتاز بتنوع تراثها وإنتاجها المخطوط، إلا أنه كما قال الأستاذ عبد الله بابا: "أن تحقيق هذا التراث وإخراجه في حلة جديدة بات يعرف فتورا ويسير بوتيرة بطيئة جدا، مقارنة مع أشقائنا المغاربة والمشارقة"، وهذا ما اضطر باحثي الجزائر ومؤسساتها ومخابرها المختصة في التراث الحضاري والمخطوطات خوض غمار تحقيقها ودراستها، ثم نشرها ووضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين قصد الاستفادة منها والإفادة بها، فبرز في هذا المجال ثلة من العلماء والأساتذة من بينهم الأستاذ عبد الحميد حاجيات الذي أنفق وقتا وجهدا مضاعفا في دراسة وتحقيق ومراجعة مجموعة من المخطوطات التاريخية والمختصة في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، كان من بينها مخطوط "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" الذي هو موضوع هذا المقال، وقبل الحديث عن هذا المخطوط ومضمونه ومنهج تحقيقه علينا أن نقدم نبذة تعريفية للمحقق وبعض وظائفه وأعماله ونشاطاته العلمية.

الكلمات الدالة:

عبد الحميد حاجيات– التراث المخطوط – المغرب الإسلامي– سلوان المطاع في عدوان الأتباع

العنوان بالإنجليزية:

The contributions of Abd el-Hamid hadjiyat in the realization of the Manuscript Heritage of Silwan Almotaa fi odouan Atbaa

.Abstract:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

The manuscript heritage represents an important part of the history and civilization of the nations and the legacy of successive generations. Therefore, it has received great interest from researchers and interested parties in studying and achieving the aim of re-creating its components and dusting its intellectual, scientific and cultural features in general. Algeria, like other countries, "However, as Professor Abdullah Baba said," The realization of this heritage and its emergence into a new situation is becoming very cold and moving at a very slow pace, compared to our Moroccan and Moroccan brothers. "This forced Algeria's researchers, institutions and specialized laboratories In this regard, a number of scholars and professors emerged, among them Professor Abd el Hamid Hadjiyat, who spent a lot of time and effort in studying, investigating and reviewing a collection of historical and specialized manuscripts in history. And the civilization of the Islamic Maghreb, including the manuscript "Silwan obedience to the enemy of the followers" which is the subject of this article, and before talking about this manuscript and its content and the methodology of its achievement we have to provide an overview of the investigator and some of his functions and work and scientific activities..

Key words:

Abdelhamid Hadjayat - Islamic Maghreb - Silwan Almotaa fi odouan Atbaa-Manuscript Heritage

يمثل التراث المخطوط جزءا هاما من تاريخ وحضارة الأمم، و ميراث الأجيال المتعاقبة، لذا حظيت باهتمام كبير من طرف الباحثين والمهتمين بها دراسة وتحقيقا، بهدف إعادة بعث مكوناتها ونفض الغبار عن معالمها الفكرية والعلمية والحضارية بصفة عامة ، والجزائر كغيرها من البلدان العالم الإسلامي والعربي تمتاز بتنوع تراثها وإنتاجها المخطوط، إلا أنه كما قال الأستاذ عبد الله بابا: "أن تحقيق هذا التراث وإخراجه في حلة جديدة بات يعرف فتورا ويسير بوتيرة بطيئة جدا، مقارنة مع أشقائنا المغاربة والمشارقة"، وهذا ما اضطر باحثي الجزائر ومؤسساتها ومخابرها المختصة في التراث الحضاري والمخطوطات خوض غمار تحقيقها ودراستها، ثم نشرها ووضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين قصد الاستفادة منها والإفادة بها، فبرز في هذا المجال ثلة من العلماء والأساتذة من بينهم الأستاذ الدكتور:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عبد الحميد حاجيات الذي أنفق وقتا وجهدا مضاعفا في دراسة وتحقيق ومراجعة مجموعة من المخطوطات التاريخية والمختصة في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، كان من بينها مخطوط "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" الذي هو موضوع هذا المقال، وقبل الحديث عن هذا المخطوط ومضمونه ومنهج تحقيقه علينا أن نقدم نبذة تعريفية للمحقق وبعض وظائفه وأعماله ونشاطاته العلمية.

أولا- التعريف بالأستاذ عبد الحميد حاجيات[1]:

1- مولده و نشأته:

الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات من الشخصيات البارزة التي فرضت مكانتها و وجودها من خلال أعمالها المتميزة، فهو من الجيل الأول جيل الثورة من الباحثين الجادين و المميزين في مجال البحث في التاريخ الوسيط و مجال البحث العلمي عموما، و هو من مواليد مدينة بني زيان تلمسان بتاريخ 1929/10/20، نشأ في أسرة متواضعة و محافظة تتكون من ثمانية أفراد، الأب محمد الذي كان متحصلا على شهادة التعليم الابتدائي و ممتهنا للتجارة، و الوالدة شريفة ممشاوي و هي ربة بيت و من عائلة محافظة، و من أربعة أولاد أكبرهم أستاذنا عبد الحميد، و بنتين، و كلهم تحصلوا على شهادة التعليم الابتدائي لحرص والدهم الشديد على تعليم أولاده في ظل تلك الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الجزائر خلال فترة الاستدمار الفرنسي.و قد هاجرت عائلته إلى تركيا عام 1910، ثم عادت بعد ثلاث سنوات إلى موطنها الأصلي، كانت تعتمد على النشاط الزراعي و تربية الماشية لمواجهة الحياة القاسية، و توفير متطلبات الحياة الكريمة، و بعد الاستقلال أخذت هذه الأسرة مكانة محترمة في الأوساط التلمسانية، و يكفيها شرفا أنها أنجبت المؤرخ عبد الحميد[2].

2- مساره الدراسي و العلمي:

كانت رغبته شديدة في كسب العلم و المعرفة، و قد أسعفه الحظ مثل قلة من الشباب الجزائري بمزاولة التعليم المزدوج في المدرسة القرآنية العربية و المدرسة الفرنسية، فعندما بلغ سن الثالثة من عمره التحق بالكتاتيب (بجامع قرب المشور) لحفظ القرآن و تلقي الأصول الأولى للعلم و المعرفة من قراءة و كتابة، و بعد بلوغه سن السادسة التحق بالمدرسة الابتدائية الفرنسية بتلمسان، التي لم يكن من السهل مزاولة الدراسة بها بسبب ضغط وسيطرة سلطات فرنسا عليها، و يقول عبد الحميد حاجيات عن هذه

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المرحلة: "...هي المرحلة الأساسية التي تكونت فيها خياراتي و هنا أحببت مجال الأدب...و نمت هذه الوجهة خاصة بعد التحاقي بمرحلة التعليم الثانوي، ففضلت بعد نهايتها التخصص بالأدب في جامعة الجزائر". و عند بلوغه سن الخامسة عشر من عمره التحق بثانوية دار الحديث، فتتلمذ على يد العلامة البشير الابراهيمي و غيره من شيوخ و علماء جمعية العلماء المسلمين، و مما قاله عن هذه المرحلة:...أنها مرحلة شبابي والمرحلة التي تحددت فيها خياراتي و رأيت أنه لا بد لي أن أحددها ككل شاب في هذه الفترة، و هنا كانت قدراتي في مجال الأدب قد ظهرت أكثر من غيرها".

أما تعليمه العالي فقد زاوله بجامعة الجزائر، أين كانوا يعانون صعوبات كبيرة بسبب التمييز و التفرقة بين الطلبة و هو ما دفعه إلى وصف هذه المرحلة بقوله: "هي حقا المرحلة الأصعب في فترة دراستي و تكويني، حددته تلك الظروف التي كانت تعيشها الجزائر في ظل الاستدمار من صدامات في المجال السياسي...و بعد حصولي على الشهادة فضلت التوجه إلى فرنسا"، و فعلا في سنة 1950 سافر إلى فرنسا وواصل دراسته بكلية الآداب الجزائر-ليون ،فتوج نشاطه بالإنضمام إلى اتحاد الطلبة الجزائريين الذي كان له دورا كبيرا في الثورة التحريرية الكبرى، خاصة بين سنتي 1956م و1958م حيث دافعوا على القضية الوطنية بالعلم والمعرفة .

3-وظائفه ومساره العملي :

التحق الأستاذ حاجيات بعد الإستقلال مباشرة بعالم الشغل فتوجه إلى الدار البيضاء ودرس بها لمدة قصيرة، بعدها عاد إلى أرض الوطن باستدعائه سنة 1962م فاشتغل في الديوان الرئاسي كمستشار لأول رئيس للدولة الجزائرية المستقلة، لوقت قصير لأنه أدرك أن هدفه في هذه الحياة علمي وليس سياسي وهذا ما أكده بقوله: "اخترت أن أبتعد عن الأجواء السياسية كل البعد لأنها مسألة شعب واحترامه..." أو كما قالت زوجته: "عرض على الأستاذ أعلى المراتب السياسية في الوزارة والسفارة على مدى 29سنة التي قضيناها بالعاصمة لكنه كان في كل مرة يرفض الطلب ،لأنه كان يفضل التدريس والتأليف والعلم عن السياسة[3]، ومن هنا كانت انطلاقته في تطوير قدراته المعرفية وتحقيق مشاريعه في البحث العلمي .

وبداية من عام1966م تقلد وظائف جامعية عديدة نذكرها في الآتي:

- أستاذ مساعد بمعهد التاريخ -جامعة الجزائر-1975/1966م .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– أستاذ مكلف بالدروس بمعهد التاريخ –جامعة الجزائر–1986/1975م .

– أستاذ مكلف بالدروس بمعهد الثقافة الشعبية–جامعة تلمسان–1992/1986م .

– أستاذ محاضر بمعهد الثقافة الشعبية–جامعة تلمسان–1997/1992م .

– أستاذ التعليم العالي بقسم الثقافة الشعبية–جامعة تلمسان–2010/1997م .

– أستاذ التعليم العالي بقسم التاريخ–جامعة تلمسان–منذ2010م .

– مدير مخبر الدراسات الحضارية والفكرية–جامعة تلمسان–من 2015/2000م .

4– مؤهلاته العلمية:

الأستاذ حاجيات متحصل على العديد من الشهادات من داخل الوطن ومن خارجه منها:

- دبلوم معهد الدراسات العليا الإسلامية، كلية الآداب–جامعة الجزائر–1950م.
- ليسانس آداب عربية،كلية الآداب–الجزائر–ليون–1954/1950م.
- دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب–جامعة بوردو(فرنسا)1959م.
- شهادة التبريز في الآداب العربية، كلية الآداب السربون بباريس(فرنسا)1960م.
- دكتوراه الحلقة الثالثة في الحضارة الإسلامية، كلية الآداب–إكس أن بروفانس–فرنسا1974م.
- دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي إكس بروفانس1991م.

5– نشاطاته العلمية:

للأستاذ حاجيات مؤلفات عديدة ومشاركات في ملتقيات وطنية ودولية نذكر منها:

أ– مؤلفاته:

- **باللغة العربية:**

– **أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره:** الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى1975م، والطبعة الثانية سنة 1982م. ويقع في398صفحة، تضمن حياة أبي حمو موسى الثاني ودوره السياسي والثقافي طيلة ثلاثين سنة من حكمه(760ه/1359م–791هـ/1389م)، ضمنه أيضا شعر أبي حموموسى الثاني ونصوص من كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك".

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- **عبد المؤمن بن علي:** منشورات الجامعية والعلمية، الجزائر،1983، ويقع في27صفحة، وهو عبارة عن قصص للأطفال باللغتين العربية والفرنسية، ضمنه ظروف قيام الدولة الموحدية، وسير عبد المؤمن بن علي في شكل حوار يدور بين الأب وابنه، وألحق هذه القصة التاريخية ببعض الصور الكرتونية في 57 صفحة[4].

- **الجزائر في التاريخ، الجزء الثالث، العهد الإسلامي:** بالمشاركة مع مجموعة من الأساتذة الباحثين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1984، تضمن هذا الجزء تاريخ وحضارة الجزائر في عهدي المرابطين والموحدين، استمرار النفوذ المريني في الجزائر في عهد بني زيان، خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية.

- **حياة الشيخ أبي مدين الإشبيلي:** الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1989، ويقع في 150صفحة، تناول فيه حياة الشيخ أبي مدين شعيب ورحلاته إلى المغرب الأقصى لطلب العلم ثم إلى المشرق، وبعدها إلى إفريقية، فالإستقرار في بجاية[5]، تناول أيضا الحياة الثقافية في المغرب في عصر أبي مدين، خاصة في فترة تطور التيار الصوفي قبل عهد الموحدين، والتصوف الفلسفي والأخلاقي في عهد الموحدين[6].

- **عبد الله بن المقفع حياته وآثاره:** المؤسسة الوطنيةللكتاب الجزائر1990، ويقع في 108صفحة، تناول فيه التطورات العامة لعصره، وحياته وآثاره منها: رسالة الصحابة، الأدب الكبير، الأدب الصغير وكليلة ودمنة، وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة ويعد من روائع الأدب العالمي.

- **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط:** بالإشتراك مع معروف بلحاجو مبخوت بودواية منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954لوزارة المجاهدين، الجزائر2007، ويقع في295صفحة، ويتناول دراسة تاريخ الجزائر من الفتح الإسلاميإلى انهيار الدولة الزيانية.

- **دراسات حول التاريخ السياسي والحضاري لتلمسان والمغرب الإسلامي الجزء الأول:** عالم المعرفة، الجزائر2011، ويقع في479صفحة **والجزء الثاني** يقع في498صفحة، ويتضمن حوالي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عشرين مقالا حول الحياة السياسية والحضارية، خاصة الجوانب العلمية والفكرية لتلمسان، وأعلام وحواضر المغرب الإسلامي.

- **مؤلفاته باللغة الفرنسية:**

– Le maghreb central sous le règne du sultan ziànide ;abou hammou moussà 2-760-791h/1356-1389 ;Edition Erached, Sidi Bel Abbes, Algérie ; 2009 ; 609 pages.

تناول فيه التطور السياسي والحضاري في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، فمهد فيه بايطار جغرافي وبشري للمغرب الأوسط، وتحدث في الفصل الأول عن نشأة الدولة الزيانية، ومن الفصل الثاني إلى الفصل الثامن تناول بعث وإحياء الدولة في عهد أبي حمو موسى الثاني، وعرض أهم التطورات التي شهدتها إلى غاية وفاته، أما الفصل التاسع فقد خصصه للعلاقات السياسية والدبلوماسية، والفصل العاشر للتنظيمات الإدارية، وأنهى الكتاب بمجموعة من الملاحق تضمنت نصوص من مراسلات أبي حمو موسى الثاني بالعربية وترجمها إلى الفرنسية، وجداول الحكام الزيانيين والحفصيين والمرنيين، وشجرات النسب للقبائل العربية والبربرية.

- **الترجمة من الفرنسية:**

– **المهدي بن تومرت،** رشيد بورويبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ويقع في172صفحة،ذكر عنه المترجم الأستاذ حاجيات أن هذه الدراسة تمتاز بالدقة والوضوح والنزاهة، بذل فيها المؤلف مجهودا واضحا، باعتماده على العديد من المصادر والمراجع الحديثة[تن]، وقد تتبع حياة المهدي بن تومرت من مولده468هـ/1075م إلى رحلته إلى المشرق ثم عودته، إلى بيعته و وفاتهسنة524ه/1130م.

ب– المقالات والمحاضرات:

للأستاذ عبد الحميد حاجيات أكثر من ثلاثين مقالا وطنيا ودوليا، في مواضيع متنوعة شملت شتى الجوانب الفكرية والتاريخية والسياسية والحضارية، وكذا في السير والتراجم والمناقب باللغتين العربية والفرنسية، وكان له حضورا في عدة ملتقيات وطنية ودولية بمداخلات ومحاضرات علمية وصلت أو تعدت 19 محاضرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- **المقالات باللغة العربية:**

- **ابن المقفع زعيم التعريب في عصره**، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد، 17-18، 1973-1974، من ص305إلى ص 311.
- **الآداب محاولة تحريره اعتمادا على كتب الجاحظ على الخصوص**، مجلة الدراسات العربية، كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1952، العدد57، من ص 35إلى ص 41.
- **الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، الجزائر**، عدد خاص، السداسي الأول، 1983 من ص 89 إلى ص 91.
- **المرابطون ودورهم في تاريخ المغرب وحضاراته**، مجلة التاريخ، العدد 3 ،1976، من ص 29 إلى ص 40.
- **عبد المومن بن علي مؤسس دولة الموحدين**، مجلة الأصالة، العدد، 1978.
- شخصية عقبة بن نافع الفهري، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد ، 1986.
- **تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط**، مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطني للحضارة الإسلامية، جامعة وهران، العدد 1، 1993، من ص 34 إلى ص 46، وأعيد نشرها في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1997، العدد10، من صم181 إلى ص 192.
- إضافة إلى مقالات أخرى حول تراجم لشخصيات علمية، كعبد الرحمن ابن خلدون، وعبد الرحمن الثعاليبي، وعبد الكريم المغيلي، ومصطفى بن ابراهيم، وغيرهم كثير.

- **باللغة الفرنسية:**

- **أوزان الشعر الشعبي**، مجلة آمال، وزارة الثقافة، الجزائر، العدد4، 1969، من ص إلى ص 20.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- **دور التصوف في تطور شعوب المغرب**، أعمال المنتدى الدولي الجزء الثانين الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، من ص 439 إلى ص 446.

- **مظاهر الشعر الشعبي الحضري بالمغرب**، من تنظيم مركز البحث في الأنثروبولوجيا، ما قبل التاريخ والعناصر البشرية حول الأدب الشفهي، الجزائر، جويلية1979، ونشرت ضمن أعمال المائدة المستديرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، من ص 71 إلى ص 75.

- **المحاضرات والمداخلات باللغة العربية:**

- **أثر الفتوحات الإسلامية في الحياة الثقافية بالحجاز في عهد الخلفاء الراشدين**، الملتقى الدولي الثالث حول تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، 21-27 أكتوبر، 1983.

- **الحياة الثقافية لدولة بني حماد**، الملتقى الدولي حول تاريخ قلعة بني حماد، المسيلة، 23-1987/9/25.

- **شخصية الأمير عبد القادر من خلال إنتاجه الأدبي**، الملتقى الوطني حول التعليم والعلماء في عصر الأمير عبد القادر، جامعة سيدي بلعباس، 2001.

- **مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال الشعر الملحون**، الندوة الوطنية حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت، 2002/10/14.

- **منهج عبد الرحمن بن خلدون في كتابة تاريخ المغرب**، الملتقى الوطني حول ابن خلدون والكتابة التاريخية، جامعة تلمسان، 14-2006/4/15.

- **نماذج من التجارب الوحدوية المغاربية خلال العصر الوسيط**، الملتقى المغاربي حول المساهمة الجزائرية في الوحدة المغاربية عبر التاريخ، إتحاد المؤرخين، الجزائر، 29-2008/4/30.

- **محاضرات باللغة الفرنسية:**

- **ملاحظات حول تطوير خط تيفيناغ**، الملتقى الوطني حول الخط الليبي البربري أو خط التيفيناغ، من الأصالة إلى الإستعمال التطبيقي، المحافظة السامية الأمازيغية، الجزائر، 12-2007/3/22.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ج- مشاريع البحث العلمي:

للأستاذ حاجيات عدة مشاريع في البحث العلمي نتيجة لاختلاف مجالات تخصصه وبحوثه كتاريخ المغرب الإسلامي السياسي والحضاري، والترجمة والثقافة الشعبية والتحقيق، ومن أهم هذه المشاريع نذكر:

- **تفاعل المواد في العلوم الإجتماعية**، أنجز هذا المشروع بالإشتراك مع مجموعة من الأساتذة الباحثين منهم محفوظ قداش، وعبد القادر بن حراث، خلال سنتي 1978-1978، وتم نشره في مجلة الجامعة، الجزائر، العدد14، 1980، باللغتين العربية والفرنسية.
- **نصوص أمازيغية للغرب الجزائري، دراسة سوسيولغوية**، وترجمتها إلى العربية والفرنسية و أنجز هذا المشروع خلال 1998 و2001.
- **الحياة الثقافية في الجزائر في القرن 8ه/14م**، وأنجز المشروع سنة 1996.
- **تطور التيار الصوفي بالجزائر في العصر الوسيط**، وأنجز المشروع سنة 2006.

- **الإشراف وتكوين ما بعد التدرج:**

لقد أشرف الأستاذ حاجيات على العديد من الرسائل والأطروحات في مجالات متنوعة في التاريخ و علم الآثار والفنون والثقافة الشعبية، على مستوى جامعات الوطن منها : الجزائر، وهران، تلمسان، سيدي بلعباس، فضلا عن المناقشات العلمية نذكر بعضها:

رسائل الدكتوراه:

- **المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية معمارية وفنية**، للباحث عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر،1999.
- **العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي ميزاب**، للباحث بلحاج معروف، قسم الآثار، جامعة تلمسان، 2002.
- **الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان**، للباحث لخضر عبدلي، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2004.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- **العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد بني زيان**، للباحث مبخوت بودواية، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2005.

رسائل الماجستير:

- **الربط في المغرب الإسلامي ودورها في عصر المرابطين والموحدين**، للطالب محمد الأمين بلغيث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987.

- **القضاء والقضاة في عهد الدولة الزيانية**، للطالبة نبيلة حساني، معهد التاريخ،جامعة الجزائر، 1999.

- **علماء أسرة المرازقة ودورها الثقافي بتلمسان من القرن 7ه/13م إلى القرن10ه/16م**، للطالب نصر الدين بن داود، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2004.

- **العلوم الدينية في المغرب الأوسط خلال القرن 9ه/15م**، للطالب محمد بوشقيف، قسم التاريخ، جامعة وهران 2004.

7- التحقيق والتقديم والمراجعة:

قام الأستاذ حاجيات بتقديم وتحقيق عدة كتب، ولا يزال يشتغل على بعض المخطوطات ويعكف على تحقيقها، فالله العلي القدير نسأل أن يبارك له في صحته و وقته وجهده، حتى يتم هذه الأعمال ويخرجها إلى النور، و من أهم ما حققه نذكر:

- **الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان**، من منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى سنة 1974، و الطبعة الثانية سنة 1986، ويقع في 427 صفحة، ثم طبعة جديدة وخاصة سنة 2011، و يقع في 420 صفحة، و هو عبارة عن مجموعة أشعار لأبي مدين شعيب و حوازي بن مسايب وابن تريكي و محمد و بومدين ابنا سهلة، و أزجال أبي سهل الأندلسي و لسان الدين ابن الخطيب، و كان جمع هذه الأشعار في هذا المؤلف بطلب من المستشرق الفرنسي حاكم تلمسان بروسلارد عام 1871، و الذي قام بجمع بعض المختارات الشعرية التي اعتاد الناس على تلحينها، و كتبها و صنفها محمد لمرابط 1855.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- **أخبار المهدي بن تومرت لأبي بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق**، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 1975، ط2، 1986، مؤلف الكتاب كان معاصرا للأحداث و شاهد عيان باعتباره أحد رفقاء المهدي بن تومرت حين عودته من المشرق إلى المغرب الأقصى، تتبع فيه تطورات الدولة الموحدية بداية من الدعوة لنظام سياسي جديد، و بيعة عبد المؤمن بن علي، ثم توسعات الدولة و صراعاتها مع القبائل.

- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ليحيى بن خلدون، ج1، من منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، و يقع في 332 صفحة، ثم طبع سنة 2007 في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، و طبعة خاصة للجزء الثاني في إطار تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية سنة 2011، و يقع 355 صفحة، تناول الجزء الأول تاريخ الدولة الزيانية من مؤسسها يغمراسن بن زيان إلى ما قبل أبي حمو موسى الثاني، و يعرف بقبيلة بني عبد الواد و يصف تلمسان و أقادير و تاقرارت و في الجزء الثاني تعرض في بابه الثالث و هو أضخم باب في الكتاب إلى تاريخ أبي حمو موسى الثاني متبعا في ذلك نظام السنوات فينتهي بأحداث آخر سنة 776هـ.

- **تاريخ دولة الأدارسة من كتاب الدر و العقيان لأبي عبد الله التنسي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، و يقع في 114 صفحة، يرجع تأليفه إلى عهد السلطان الزياني أبي ثابت محمد المتوكل الذي لم يخفي التنسي إعجابه بحزمه و كرمه و إحسانه لرجال العلم فأولاه كل الاحترام و التقدير و نظم شعرا لمدحه[13]، و قد حقق الأستاذ حاجيات الفصل الخاص بالأدارسة بالمغرب الأقصى، و أبناء عمومتهم الحموديين بالأندلس والسليمانيين بالمغرب الأوسط.

- **زهر البستان في دولة بني زيان لمؤلف مجهول**، منشورات عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة 2011، ويقع في 188 صفحة، و هو يمثل السفر الثاني، أما الأول و الثالث فهما مفقودان، تناولا أخبار دولة بني زيان في عهد أبي حمو موسى الثاني من أوائل 760ه/1359م إلى أواخر سنة 764هـ/ 1363م، و به ملحق لقصائد شعرية منها قصيدة تعزية أبي حمو موسى الثاني إثر وفاة والده أبي يعقوب يوسف[14].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- **أنس الوحيد و نزهة المريد لأبي مدين شعيب،** منشورات عالم المعرفة، الجزائر، 2011، و يقع في 108 صفحة، تناول نظرة حول تطور الخطاب الصوفي و دراسة تامة لعصر أبي مدين و حياته و فكره و جوانب عدة في التصوف و العقيدة و الزهد و الأخلاق و قصائد متنوعة[15].

- **سلوان المطاع في عدوان الأتباع لأبي عبد الله محمد بن ظفر الصقلي،** دار الألمعية للنشر و التوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011، و يقع في 378 صفحة، و يعد هذا الكتاب من أشهر و أهم ما ألفه ابن ظفر في أخلاق الملوك و الصفات التي ينبغي التحلي بها لضمان ثقة الأتباع، و هذا الكتاب هو ما يهمنا في هذا المقال، فما هو المنهج الذي اتبعه الأستاذ حاجيات في تحقيق هذا المخطوط وفي التحقيق بصفة عامة ؟

ثانيا- كتاب سلوان المطاع و منهج الأستاذ حاجيات في تحقيقه:

من الخطوات التي تتبعها الأستاذ حاجيات في تحقيق النصوص عموما هي:

الخطوة الأولى: مقدمة التحقيق و فيها يقوم بتقديم المؤلف و الكتاب، يحدد العنوان الكامل للكتاب، و يبرز تاريخ و دوافع التأليف، يعرض مضمون الكتاب و مصادره، و ينتهي بالتعريف بمنهج المؤلف في كتابته للنص ثم القيمة العلمية للكتاب.

الخطوة الثانية: تحقيق النص، و يبدأ بتصنيف النسخ إلى نسخة أساسية و هي الأم، و هي عادة التي تكون سليمة، غير مبتورة، و أقربها إلى نسخة المؤلف الأصلية و يرمز إليها بحرف، ثم نسخ ثانوية و هي التي يكون بها نقص و سقط و يرمز لها كذلك بحروف، و بعد هذا التصنيف للنسخ يقوم بمقابلة النسخة الأم مع النسخ الأخرى لرصد أوجه الاختلاف بينها من حيث النقص و الزيادة، و التقديم و التأخير، و إذا وجد زيادات في النسخ الثانوية، و أضافها الأم لضرورة تصحيح السياق، يشير إلى ذلك في الهامش و يضعها بين معقوفتين و يستعمل الهوامش على وجهين، وجه خاص بذكر الاختلافات بين النسخة الأم و النسخ الأخرى، باستعمال الرموز والعلامات الدالة على ذلك مثل المعقوفتين و النجمتين، أو حروف النسخ التي ذكرها في البداية حين تصنيفه للنسخ، و الوجه الثاني يخصصه للشروح كترجمة الأعلام و تحديد الأماكن و البلدان، و شرح المفاهيم الواردة في النص و كل ما يتطلب المزيد من الإيضاح و التدقيق.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الخطوة الثالثة و الأخيرة: يقوم الأستاذ حاجيات بإخراج النص، فيقابل النص المحقق بالمصادر التي تناولت الموضوع لتأييد و تأكيد الخبر أو الاختلاف معه، و ذلك بالرجوع إلى مصادر المخطوط أولا لتصحيح الأخطاء الواردة، ثم العودة إلى المصادر الأخرى، و ينتهي بترجيح الأصح منها، كما يزود النص المحقق بملاحق تشمل صورا لصفحات من المخطوط (الصفحة الأولى و الصفحة الأخيرة لكل النسخ)

و فهارس للأعلام و البلدان و القبائل، وفهرس الكتب الواردة في النص، و الكتب المستعملة في الدراسة

و التحقيق، و أخيرا فهرس الموضوعات.

و يهدف الأستاذ حاجيات من عملية التحقيق إلى إخراج النصوص على الشكل الذي كان يسعى إليه المؤلف، و يرغب في تحقيقه ليصبح بعد ذلك نصا محققا متكاملا و صحيحا و منقحا كما أراده صاحبه.

و في كتاب "سلوان المطاع" اتبع الأستاذ حاجيات هذه الخطوات ندرجها في الشكل التالي:

1- منهجه في مقدمة التحقيق:

بدأ الأستاذ حاجيات تحقيقه بتقديم الكتاب و مؤلفه، بين أن كتاب "سلوان المطاع" يعد من أهم ما أنتجه الأدباء العرب في فن أخلاق الملوك لما ناله من شهرة في المشرق و المغرب، و ترجم إلى لغات عديدة من فارسية و تركية و إيطالية و إنجليزية، فاحتل بذلك مكانة مرموقة ضمن التراث الفكري العالمي[16]، و يتعجب ويستغرب المحقق من أن المؤلف لم يحظ بعناية الباحثين و العلماء، فلم يترجم له سوى القليل من العلماء ترجمة مختصرة، أغفلت الكثير من الأخبار كذكر تاريخ رحلته من مكة إلى مصر ثم إلى افريقية، و تاريخ مغادرته صقلية عائدا إلى مصر، ضف إلى ذلك عدم الاتفاق على نسبه و كنيته و مكان مولده، و تاريخ وفاته، لهذا يقول المحقق: "أننا حاولنا أن نجمع ما ورد من أخبار عنه في مختلف المصادر، و لجأنا إلى ترجيح ما ورد في أغلبها، أو ما كثر وروده فيها، مع محاولة ربطها بالأوضاع السياسية و الثقافية السائدة في عصر المؤلف[17]، لهذا تكررت عبارات و مصطلحات الترجيح في تعريفه للمؤلف مثل: (و الراجح، و الغالب على الظن، يبدو، لا يستبعد، يمكن ترجيح، أدنى تقدير...).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و مما ذكره لنا في تعريفه للمؤلف: ولد أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر الصقلي سنة497ه/1104م، أيام استلاء النورمان على جزيرة صقلية، و نشأ بمكة ثم رحل إلى مصر لطلب العلم فأخذ عن علمائها علوما كثيرة، من تفسير وحديث و فقه وأدب وبلاغة وتاريخ وغيرها من العلوم، ثم رحل إلى افريقية واستقر بالمهدية، ويرجح اعتبار تاريخ سنة 554ه/1159م أدنى تقدير لتحديد تاريخ مغادرة ابن ظفر لصقلية عائدا إلى مصر، ثم الشام حيث استقر مدة بحلب، ثم بحماه وبها توفي سنة 565ه/1170م، وقيل سنة 567ه/1172م، أو سنة568ه/1173م.[18]

أما صفاته الخلقية و الخلقية فكان ابن ظفر قصير القامة، ذميم الخلقة، كان يعاني من الفقر طيلة حياتي، وفي المقابل وصف الورع و الصلاح والزهد في ملذات الدنيا، و أشيد بغزارة علمه تأليفه و منها: ينبوع الحياة في تفسير القرآن، المسنى في الفقه المالكي، النصائح، رياض الذكرى، السفر في اللغة...و حسب المحقق معظم هذه الكتب قد ضاعت و لم يصل اليها سوى اربعة و هي:

1- خير البشر بخير البشر.

2- ينبوع الحيات في تفسير القرآن

3- ورد الدرر و انباء نجباء الأبناء.

4- سلوان المطاع في عدوان الاتباع.

و في آخر الترجمة استنتج المحقق تباينا صارخا بين ضآلة بن ظفر المادية وفاقته وبين طول باعه في المجال الأدبي والعلمي والفكري والاخلاقي.

وفي تقديمه للكتاب: ابرز اهميته وشهرته الادبية والفكرية والاخلاقية معتمدا على بعض المصادر[19]، وقد ركز فيه ابن ظفر على خمسة خصال اصطفاها من بين سائر القيم الأخلاقية واحلها المنزل اللائق بالرؤساء وخصص لكل واحدة منها بابا اطلق عليه السلوان تشبيها بالخرزة [20] التي تزعم العرب ان الماء الصبوب عليها اذا شربه المحب سلا، وهذه الخصال هي: 1-سلوانة التفويض، 2-سلوانة التآسي، 3-سلوانة الصبر، 4-سلوانة الرضى، 5-سلوانة الزهد، كما استخدم الرمزية من خلال الحيوانات في معالجة موضوع أخلاق الملوك، فاستمد مثلا من كليلة و دمنة طريقة ابن المقفع الرمزية، فأورد كثيرا من قصص الحيوانات وشرح رموزها، كما استمد من المؤلفين الآخرين طريقتهم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التحليلية، لاجئا، في اغلب الأحيان، الى ايضاح مفاهيم ما ذكره من الخصال، و مدعما ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية و أقوال الصحابة والحكماء العرب والعجم، وقصص الرسل والملوك، وغير ذلك، فمزج بين الطريقتين.

وقد تحدث ابن ظفر نفسه عن المنهج الذي طبقه في كتاب "سلوان المطاع" قائلا: "فانتخبت حكايات من الحكميات الغرائب العديمات الضرائب، منها ما روي عن بعض أمراء المؤمنين، ومنها ما حكي عن بعض الملوك المتقدمين". و يؤكد المحقق ان ابن ظفر اتقن استخدام الرمزية ، وأجاد في استعمالها بين العرض النظري و ما يتلوه من النماذج الميدانية المتمثلة في الاخبار والحكايات الموضحة للتحليلات النفسية والاجتماعية والأخلاقية.لقد انفرد باستعمال الرمزية اللفظية، فرمز الى المالك بأنه "المطاع" في عنوان الكتاب، وسمى الثعلب الخداع "ظالما" و الثعلب الوفي "مفوضا" كما رمز الى سابور الملك بالغزال، والى وزيره المسن بالظبي.

ان الجانب القصي يحظى بالنصيب الأوفر من ابداع المألف و تفننه، وعلو كعبه في اللغة والمحسنات البديعية وسعت اطلاعه على المأثور من الشعر و النثر في الحكمة والمثل ومهارته في رواية الحكايات والربط بين ما تشتمل عليه من أحداث، وما يتصل بذلك من دلالات اجتماعية وخلقية.

فنراه مثلا يورد في السلوانة الأولى خبر خروج عبد المالك بن مروان من دمشق لمحاربة عبد الله بن الزبير، الثائر ضد لخلافة الأموية بالحجاز وغير ذلك من الأقطار التي انضمت تحت لوائه ويذكر حادث ثورة احد انصار عبد المالك، يدعى عمرو بن سعيد واستيلائه على بيت المال وسرير الخلافة، وما آل الى ذلك ارغام عبد الملك على توقفه في مسيرته الى الحجاز، و عودته الى بلاد الشام لتخليص دمشق و القضاء و القضاء على ثورة عمرو بن سعيد نكث بيعته للخلافة، وخان أمانته[21] .

2- منهجه في تحقيق النص:

لقد وضع المحقق في الصفحة 57 عنوانا "طريقة تحقيق كتاب سلوان المطاع"، فوفر لنا بذلك وقتا، وسهل علينا البحث عن منهجه في التحقيق، و الذي كان على الشكل التالي:

أ- تصنيف و وصف النسخ المتوفرة و المعتمدة في التحقيق، فبدأ بجرد النسخ المطبوعة، حيث طبع كتاب "سلوان المطاع"، دون تحقيق، بالقاهرة سنة 1278هـ/ 1861م، ثم بتونس سنة 1279هـ/

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

1862م، و ببيروت سنة 1300هـ/ 1883م، و لم يطبع بعد ذلك، و أصبح اقتناؤه غير ممكن لفقدانه في المكتبات.

ب- بعد ذلك يصنف النسخ المعتمدة في التحقيق و هي:

- مخطوط باريس رقم 3506: وينتمي إلى نسخ الصياغة الأولى للكتاب وهي النسخة الوحيدة للصياغة الأولى، وهي محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس، اعتمدها لقدمها و قلة الأخطاء فيها، ورد في آخرها تاريخ نسخها 26 جمادى الأولى سنة 586هـ، و اسم ناسخها سليمان بن محمد علي الحراني، و رمز لها بحرف "ب".
- مخطوط باريس رقم 3505: و هو كنموذج لمخطوطات الصياغة الثانية، يمتاز بقلة الأخطاء و ندرة الإسقاط في النص، ذكر فيه تاريخ النسخ بداية دي القعدة سنة 867هـ و رمز له بحرف "ت".
- مخطوط باريس رقم 3508: هو من نوع مخطوطات الصيغة الثانية أيضا يمتاز بخط جميل و واضح ورد فيه اسم الناسخ و هو قاسم بن محمد بن قاسم بن سعد بن حسين السامي الصعدي، و تاريخ النسخ و هو يوم الأربعاء الحادي عشر ربيع الأول 998هـ، و رمز له بحرف "د".
- المخطوط الخاص: يوجد في مكتبة المحقق الخاصة و هو من نوع مخطوطات الصيغة الثانية، يمتاز بخط مغربي واضح، لم يرد في آخره ذكر اسم الناسخ و تاريخ النسخ، رمز إليه بحرف "أ".
- النسخ المطبوعة: لم يتمكن المحقق من استعمال هذه النسخ الثلاث لفقدانها في المكتبات العامة التي أجرى فيها أعمال البحث[22].

ج- دوافعه في التحقيق: ذكر المحقق أن الطبعات الثلاث المذكورة سابقا لا تكتسي الطابع العلمي إذ أنها لم تكن موضوع تحقيق و دراسة، و مما يجعل هذا الكتاب في حاجة ماسة إلى التحقيق أن مؤلفه لم يقم بصياغته مرة واحدة، بل كتبه مرة أولى سنة 545هـ و أهداه للأمير الحسن بن علي آخر أمراء بني زيري بافريقية، ثم أجرى عليه بعض التعديلات و أهداه مرة ثانية لأحد أمراء بني حمود بصقلية سنة 554هـ.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولقد مست تلك التعديلات اختصار بعض الفقرات أو حذفها و تعويضها باختصار تجنبا للإطناب، كما أن الطبعات الثلاث لهذا الكتاب اعتمد في طبعها على مخطوطات الصياغة الثانية التي كثر انتشارها، بينما لم تحض الصياغة الأولى بالطبع لقلة المخطوطات التي نسخت عنها.

و ذكر لنا المحقق أن بداية اهتمامه بكتاب "سلوان المطاع" كانت في إطار تحقيقه لكتاب "بغية الرواد" وقيامه بالبحث في مصلحة المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بباريس، و هذا ما تطلب الرجوع إلى مصادر هذا التأليف و منها "سلوان المطاع" باستعماله عددا من مخطوطات هذا الكتاب خاصة نسخ الصياغة الثانية[23]، كما أن الصياغة الأولى فاقت الثانية لما انفردت به من المعطيات العلمية و التحليلية، مما دفعه إلى الاعتماد على مخطوطة هذه الصياغة، مع إثبات ما أجراه المؤلف من التعديلات في الصياغة الثانية و الاشارة إلى ذلك في الهوامش مع الرجوع أحيانا إلى ما ورد في التآليف التي اقتبست بعض القصص و الأخبار من كتاب سلوان المطاع، حيث اقتبس منه المصنفون في الأخلاق و السياسة و التاريخ، فنقل عنه أبو حمو موسى الثاني الزياني في كتابه واسطة السلوك ثلاثة قصص[24]، و نقل يحيى ابن خلدون قصتين من بين تلك القصص الثلاث في كتابه بغية الرواد[25]، أما سبط ابن الجوزي فإنه ألف كتابا سماه كنز الملوك في كيفية السلوك، نقل الكثير مما جاء في سلوان المطاع، من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و الأمثال و الحكم و القصص، و قسمه إلى خمسة أبواب تحمل نفس العنوان التي تحملها السلوانات الخمس[26].

د- أما فيما يخص الملاحق، فقد اكتفى المحقق بوضع أربع صور للمخطوط في بداية الكتاب من الصفحة السابعة إلى الصفحة الحادية عشر، و فهرس الموضوعات في أربع صفحات في آخر الكتاب من الصفحة 380 إلى الصفحة 383.

إن التراث العربي و الإسلامي عامة و الجزائري خاصة في حاجة ماسة إلى مضاعفة الجهود من أجل دراسته و تحقيقه ليستفيد منه أهل الاختصاص و النشأ، و نحن نشيد و نشكر الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات على الجهد الذي يبذله في التعريف بهذا التراث و نفض الغبار عليه، و ندعو إلى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المزيد من تكاثف الجهود من أجل خدمة هذا التراث و المعرفة الانسانية عموما، و من أجل حفظ حق التاريخ و الحضارة الإنسانية كافة .

الهوامش:

---

[1]– السيرة الذاتية للأستاذ عبد الحميد حاجيات، عن طريق زيارة خاصة لبيته في مارس 2013، ثم مكالمة هاتفية جانفي 2017 .

[2]– نصر الدين بن داود، الأستاذ عبد الحميد حاجيات ومنهجه في التحقيق والتأريخ، مجلة عصور الجديدة، مخبر البحث التاريخي، تاريخ الجزائر، العدد 3–4، جامعة وهران، 2011–2012، ص301.

[3]– السيدة زوجة الأستاذ حاجيات، شهادة حية، زيارة خاصة، مارس 2013.

[4]– عبد الحميد حاجيات، عبد المومن بن علي، منشورات الجامعية والعلمية، الجزائر، 1983، ص 9.

[5]– عبد الحميد حاجيات، حياة الشيخ أبي مدين الإشبيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989، ص4–5.

[6]– عبد الحميد حاجيات، حياة الشيخ أبي مدين، نفسه، ص5.

[7]– رشيد بورويبة،ابن تومرت، تر، عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1982.

[8]– أبو مدين شعيب، الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، تح، تق، عبد الحميد حاجيات،طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص7.

[9]– نفسه، نفسها.

[10]– نفسه، ص 7–8.

[11]–يحيى بن خلدون، بغية الرواد في كر الملوك من بني عبد الواد، تح، عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

[12]– نفسه، ص 13.

[13]– عبد الله التنسي، دولة الأدارسة من كتاب الدر والعقيان، تح، عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص،ص،5–11.

[14]– مؤلف مجهول، زهرة البستان في دولة بني زيان، تح، عبد الحميد حاجيات، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص11–12.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[15] – أبو مدين شعيب، أنس الوحيد ونزهة المريد، تح، عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 6–7.

[16] – ابن ظفر الصقلي، سلوان المطاع في عدوان التباع، تح، عبد الحميد حاجيات، ط1، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011، ص13.

[17] – نفسه، ص، 13–14.

[18] – نفسه، من ص 15، إلى ص 22.

[19] – ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج 5، ص 371–372، وياقوت الحموي، معجم الأدباء ، ج19، ص 48–49، ورضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 10، ص 241–242.

[20] – خرزة : جمع خرزات : حبة تنظم في سلك أو خيط لتكون عقدا يتزين به، أو سبحة، خرزات الملك : جواهر تاجه، ومعنى خرز في لسان ابن منظور: فصوص من جيد الجوهر.

[21] – ابن ظفر الصقلي، المصدر السابق، ص–ص 37–39.

[22] – نفسه، من ص37، إلى ص 63.

[23] – نفسه، ص–ص 57–59.

[24] – أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص ص 34–51.

[25] – يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، المصدر السابق، ج 2، ص–ص، 53–354.

[26] – ابن ظفر الصقلي، المصدر السابق، ص 55–56.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أضواء على الإنتاج العلمي للباحث عبد الحميد حاجيات

آيت حبوش حميد
جامعة وهران 1
البريد الإلكتروني:hamidaithabouche@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2017/01/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

يعتبر الأستاذ الباحث عبد الحميد حاجيات من مؤسسي المدرسة التاريخية الجزائرية إلى جانب ثلة من الأساتذة الباحثين ، من بينهم أبو القاسم سعدالله ، يحي بوعزيز، ناصر الدين سعيدوني ، مولاي بلحميسي . و هذا من خلال كتاباته العديدة و المتنوعة ، حيث سخر قلمه لإزالة الغموض عن تاريخ الجزائر خاصة في الفترة الوسيطة و الحديثة ، الذي حاول الاستعمار الفرنسي تزييفه و أهملته الجزائر غداة الاستقلال . و الأستاذ حاجيات ليس مؤلفا فحسب ، بل هو أيضا محققا و مترجما و محاضرا حيث حاضر في عدة ملتقيات دولية و وطنية.

الكلمات الدالة:

الإنتاج العلمي– عبد الحميد حاجيات – المدرسة التاريخية الجزائرية

العنوان بالإنجليزية:

Highlights on the scientific production of the researcher Abdul Hamid Hajiyat**Abstract:**

Professor Abdelhamid Hagiyat is one of the founders of the Algerian Historical School, along with a number of research professors, among them Abu Al-Qasim Saadallah, Yahya Bouaziz, Nasiruddin Saidouni and Moulay Belhamisi. This was done through his numerous and varied writings. His pen was used to demystify the history of Algeria, particularly in the intermediate and modern period, which the French colonialists tried to falsify and which Algeria neglected after independence. Mr. Hajiyat is not only an author but also a researcher, translator and lecturer, and has lectured at several international forums And national

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Key words:

Scientific production - Abdel Hamid Hajiyat - Algerian Historical School

يعتبر الأستاذ الباحث عبد الحميد حاجيات من مؤسسي المدرسة التاريخية الجزائرية إلى جانب ثلة من الأساتذة الباحثين ، من بينهم أبو القاسم سعدالله ، يحي بوعزيز، ناصر الدين سعيدوني ، مولاي بلحميسي . و هذا من خلال كتاباته العديدة و المتنوعة ، حيث سخر قلمه لإزالة الغموض عن تاريخ الجزائر خاصة في الفترة الوسيطة و الحديثة ، الذي حاول الاستعمار الفرنسي تزييفه و أهملته الجزائر غداة الاستقلال . و الأستاذ حاجيات ليس مؤلفا فحسب ، بل هو أيضا محققا و مترجما و محاضرا حيث حاضر في عدة ملتقيات دولية و وطنية .

1- مولده و نشأته :

ولد الأستاذ الباحث عبد الحميد حاجيات في 10 أكتوبر 1929 بتلمسان و هو من أسرة محافظة ، مثقفة و متواضعة متكونة من مجموعة كبيرة من الأفراد ،والده محمد تاجر له محل تجاري ، ولقد أسعفه الحظ على غرار قلة من الشباب أن يزاول تعليمه في المدرسة القرآنية و في المدرسة الفرنسية في نفس الوقت. فعند بلوغه سن الثالثة من عمره أدخله أبوه إلى جامع قرب المشور ،هناك تلقى تعليمه الأول فتعلم فيه القراءة و الكتابة ، و في سنة 1935 عند بلوغه سن السادسة من عمره التحق بالمدرسة الفرنسية بتلمسان و أتم تعليمه بها بالموازاة مع تعليمه في المدرسة القرآنية ، فحرص على متابعة تعليمه حتى في أيام العطل .

و عند بلوغه سن 15 من عمره ، سمح له مستواه العلمي أن ينتقل إلى مدرسة دار الحديث التي تتميز بمستوى تعليمي راقي ، و يتتلمذ عند العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي . في سنة 1950م انتقل إلى فرنسا ليزاول دراسته هناك ، و في سنة 1958 م يتعرض للمطاردة من قبل السلطات الاستعمارية و ذلك بسبب منحه غرفته الخاصة بباريس لزعماء الحركة الطلابية لعقد اجتماعاتهم بها ، و اضطر إلى أن يلجأ إلى المغرب الأقصى ليشتغل في التدريس بثانوية مولاي إدريس بالدار البيضاء ، ثم في إحدى ثانويات بالرباط .مع استقلال الجزائر سنة 1962 م عاد مباشرة ليتم تعيينه من قبل الرئيس أحمد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بن بلة في الهيئة الرئاسية كمستشار ، إلا أنه استقال لظروف خاصة ، حيث فضّل المسار العلمي عن المسار السياسي(1) .

2- **مؤهلاته العلمية** :

- لقد تحصل الأستاذ الباحث عبد الحميد حاجيات على عدة شهادات ، أول شهادة كانت سنة 1950 وهي دبلوم معهد الدراسات العليا الإسلامية من كلية الآداب جامعة الجزائر

-ليسانس آداب عربية ، كلية الآداب ليون بفرنسا (1950-1954).

-ثم دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب جامعة بوردو بفرنسا سنة 1959 .

-شهادة التبريز في الآداب العربية ، من كلية الآداب ، السوربون باريس 1960

-دكتوراه الدرجة الثالثة في الحضارة الإسلامية ، كلية الآداب –إيكس أون بروفانس مرسيليا سنة 1974 ،عنوان الأطروحة : "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد " ليحي ابن خلدون حيث قام الباحث بتحقيق هذا المصدر .

- دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي بعنوان : " تاريخ المغرب الأوسط في عهد السلطان أبي حمو موس الثاني من جامعة إيكس أون بروفانس مرسيليا سنة 1991 تحت إشراف الأستاذ "روبرت منتران " Robert Mantran

3- **وظائفه الجامعية** :

التحق الأستاذ الباحث عبد الحميد حاجيات بالجامعة سنة 1966م ، ارتقى من أستاذ مساعد إلى أستاذ التعليم العالي .بين 1966 و 1975م اشتغل كأستاذ مساعد بمعهد التاريخ جامعة الجزائر .1975-1986م أستاذ مكلف بالدروس بمعهد التاريخ جامعة الجزائر .

أستاذ مكلف بالدروس بمعهد الثقافة الشعبية ،جامعة تلمسان بين 1986 و 1992.

أستاذ محاضر بمعهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان 1992-1997

أستاذ التعليم العالي بقسم الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان 1997-2010

أستاذ التعليم العالي بقسم التاريخ ، جامعة تلمسان 2010-2015 م

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و نظرا لتقدمه في السن و ظروفه الصحية يحال إلى التقاعد عن عمر يناهز 86 سنة، أفناه في خدمة الجامعة الجزائرية و البحث العلمي(2)

4-انتاجه العلمي :

***-التأليف :**

أ- باللغة العربية :

1-أبو حمو موسى الثاني الزياني حياته و آثاره (3): يتضمن الكتاب عرضا مفصلا عن حياة أبي حمو موسى الثاني ، و دوره السياسي و العسكري و الثقافي أثناء حكمه (760-791ه/1359-1389م) ، كما ركّز على إنتاجه الأدبي باختياره لبعض النصوص و الأشعار من كتاب السلطان المعنون : " واسطة السلوك في سياسة الملوك "

2- عبد المؤمن بن علي(4) : هذا الكتاب عبارة عن قصص للأطفال باللغتين العربية و الفرنسية ، يحكي فيها ظروف قيام دولة الموحدين ، و سيرة عبد المؤمن بن علي في حوار يدور بين الأب و إبنه ، و ذيّل القصة ببعض صور كرتونية .

3-الجزائر في التاريخ(5) : ، لقد شارك في تأليف هذا الكتاب مجموعة من الأساتذة ، فقد ساهم عبد الحميد حاجيات في الجزء الثالث من الكتاب الخاص بالعهد الإسلامي في الأقسام التالية : التطور السياسي و الحضاري للمرابطين و الموحدين ، إحياء الدولة الزيانية ، استمرار النفوذ المريني ، الحياة الفكرية بالجزائر على عهد بني زيان ، خطر النصارى و انهيار الدولة الزيانية(4) .

4-عبدالله بن المقفع ، حياته و آثاره(6) : تناول فيه الأستاذ التطورات العامة لعصر ابن المقفع ، ثم حياة و شخصية ابن المقفع (106-142ه/724-760م) ، ثم تطرق إلى آثاره المتنوع و الغني : رسالة الصحابة ، الأدب الصغير ، الأدب الكبير ، و أهم مؤلفاته : "كليلة و دمنة " الذي تناول فيه الحكم على لسان الحيوانات ، و يعتبر ابن المقفع حسب عبد الحميد حاجيات رائدا للحكاية الرمزية الأخلاقية .

5- تاريخ الجزائر في العصر الوسيط(7): شارك في تأليفه الأستاذان معوف بلحاج ، و بودواية مبخوت ، يتناول هذا المرجع تاريخ الجزائر منذ الفتح الإسلامي إلى إنهيار الدولة الزيانية .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

6-دراسات حول التاريخ السياسي و الحضاري لتلمسان و المغرب الإسلامي(8): يتضمن الكتاب مجموعة من المقالات التي نشرها الأستاذ في مختلف المجلات العلمية المحكمة الوطنية و الدولية ، تتعلق بالحيلة السياسية والحضارية و العلمية لحاضرة تلمسان و حواضر و أعلام المغرب الإسلامي .

7- الشيخ أبو مدين شعيب الإشبيلي ، حياته و آثاره(9): تطرق فيه الأستاذ إلى حياة هذا العالم الصالح ، نشأته ، سيرته ، مناقبه و آثاره و إنتاجه ، كما بتحقيق أحد مؤلفاته التمثل في : " أنس الوحيد و نزهة المريد "

ب- باللغة الفرنسية :

8-Le Maghreb central sous le règne du sultan ziyanide Abou Hammou moussa II (760-791H/1359-1389)[10] :

لقد قام الأستاذ عبد الحميد حاجيات بطبع أطروحة الدكتوراه التي ناقشها بإكس أون بروفانس باللغة الفرنسية ، كما ترجمها إلى اللغة العربية كما ذكرنا سالفا ، و يتضمن الكتاب عشرة فصول كلها تدور حول حياة هذا السلطان من ميلاده حتى وفاته و التطورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي عرفتها الدولة الزيانية في عهده ، كما يتضمن الكتاب مجموعة من الملاحق و هي مراسلات أبي حمو موسى الثاني ، و جداول سلاطين بني عبد الواد و المرينيين و الحفصيين ، و أيضا شجرات النسب للقبائل البربرية و العربية

***- تحقيق المخطوطات :**

لقد حقق الأستاذ عبد الحميد حاجيات عدة مخطوطات في مجال التاريخ و الآداب ، من أهمها :

9-تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان لأبي عبدالله التنسي المتوفي سنة 899هـ /1494م (11): حقق فيه الأستاذ الفصل الخاص بالأدارسة بالمغرب الاقصى ، و الحموديين بالاندلس والسليمانيين بالمغرب الأوسط ، و هذا الكتاب يغطي فترة طويلة ممتدة من أواخر القرن الثاني الهجري إلى أواسط القرن الخامس .

10- أخبار المهدي بن تومرت لأبي بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيدق(12) : يتضمن الكتاب الحركة المهدية و الدعوة إلى قيام نظام سياسي جديد ، و كذلك بيعة عبد المؤمن بن علي و تطور الدولة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و توسعاتها ، كما أشار إلى القبائل التي ثارت على الموحدين ، و مؤلف هذا الكتاب كان أحد رفقاء المهدي بن تومرت فهو معاصر لمعظم الأحداث التي ذكرها .

11–الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان(13) : هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الأشعار الدينية لأبي مدين شعيب و أحمد الحلبي و الداودي الفهري ، و أيضا عبارة عن موشحات و أزجال لأبي سهل الأندلسي ، ولسان الدين بن الخطيب و غيرهم . و لقد تم جمعها بأمر من حاكم تلمسان الفرنسي " بروصلار " سنة 1871 و كتبها محمد لمرابط ، و كانت هذه الأشعار حسب عبد الحميد حاجيات تغنى حسب طبوع الأنواع الموسيقية المألوفة من مدائح و موشحات و أزجال و حوازي .

12– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحي ابن خلدون(14) : يتناول هذا المصدر تاريخ المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية منذ تأسيسها من قبل يغمراسن بن زيان إلى ما قبل أبي حمو موسى الثاني ، بدأ بتعريف قبيلة عبد الواد و كيفية اعتمارها ، ثم وصف تلمسان و أقادير و تقرارت ، ثم تطرق إلى علماء و صلحاء تلمسان ليفصّل بعد ذلك في تاريخ تلمسان من الفتح إلى عهد الموحدين ، ثم قيام دولة يغمراسن 633هـ/1235م وتطورها إلى غاية نهاية عهد السلطانين أبي سعيد و ابي ثابت 760هـ/1359م.

13– سلوان المطاع في عدوان الأتباع لأبي عبد الله محمد محمد ابن ظفر الصقلي المتوفى سنة 565هـ/1170م(15) : هذا الكتاب أهم ما ألف في أخلاق الملوك و الصفات التي ينبغي التحلي بها قصد ضمان ثقة الأتباع وهي : سلوانة التفويض ، سلوانة التأسي ، سلوانة الصبر ، سلوانة الرضا ، سلوانة الزهد في الملك ، و قد استخدم مؤلف الكتاب الرمزية من خلال الحيوانات .

14– دولة بني عبد الواد من كتاب ترجمان العبر و ديوان المبتدأ و الخبر لعبد الرحمن بن خلدون(16): تطرق فيه إلى قيام الدولة الزيانية و تطوراتها السياسية و الحضارية إلى غاية مطلع القرن الخامس عشر ميلادي .

15– أنس الوحيد ونزهة المريد لأبي مدين شعيب الحسين الإشبيلي(17) : يتناول فيه المؤلف كل ما لديه علاقة بالتصوف حيث تطرق إلى العقيدة و الزهد و حكم و كذلك قصائد متنوعة .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

16- زهر البستان في دولة بني زيان لمؤلف مجهول(18) : تناول المؤلف في هذا الكتاب تطور الدولة الزيانية في عهد أبي حمو موسى الثاني ، حيث تابع التطورات الداخلية للحكم و العلاقات الخارجية للدولة ، و ضمنه بقصائد لشعراء ذلك العصر .

منهجه في تحقيق المخطوطات :

يعتمد الأستاذ عبد الحميد حاجيات في تحقيق المخطوطات على منهجية علمية دقيقة تتوفر فيها كل الشروط التي لابدّ لكل محقق أن يلتزم بها .

يقوم الأستاذ بالبحث عن النسخ المتوفرة للمخطوط المرغوب في تحقيقه ، ثم يقوم بتصنيفها : إما نسخة أساسية و هي الأصلية و التي تكون غير مصابة بنقص ، أو النسخة الثانوية ، و هي التي يكون بها ثغرات و نقص ، و لذلك لا تنتمي إلى نسخة الأم ، و يرمز لكل نسخة بحرف معين ثم يلجأ إلى تحقيق النص ، و يكون بمقارنة النسخة الأساسية مع النسخ الأخرى لرصد أوجه الاختلاف بينها تقديما و تأخيرا ، نقصا أو زيادة ، و كل ما يضاف إلى النسخة الأساسية ، يضعها الأستاذ بين معقوفتين ، و يشير إليها في الهامش .

أما الهوامش ،فهناك هوامش تحقيق النص و يذكر فيها الاختلافات بين النسخ ، و استخدام الرموز للدلالة على الزيادة ، أو النقص ، المعقوفتان للدلالة على النقص الواقع في النسخة الأساسية ، النجمتان للدلالة على الجمل أو الفقرات الناقصة في النسخ الأخرى .

إضافة إلى هوامش الشروح ، و هي خاصة بالأعلام و الأماكن و الكتب الواردة في النص ، أو الإيضاح و التدقيق و التعقيب .

و في نفس الوقت يحاول الأستاذ ، العودة إلى المصادر التي تناولت النص المحقق لتأكيد صحة المعلومات أو الاختلاف مع صاحب المخطوط بالاستناد إلى المصادر الأخرى الغير الواردة فيه ثم يرجح الأصح منها .

و كل مخطوط محقق يقدّم الأستاذ عبد الحميد حاجيات صاحب المخطوط بالتعريف الكامل به : نشأته ، تكوينه ، نشاطه ، منهجه و أسلوبه في الكتابة ، ثم التعريف بالكتاب : العنوان الكامل ، تاريخ و دوافع التأليف ، مضمونه و مصادره ، ثم القيمة العلمية للكتاب .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و أخيرا يذيل النص المحقق بملاحق يتضمن صور لصفحات من المخطوط ، خرائط توضيحية ، فهارس الأعلام ، القبائل و الأماكن ، عناوين الكتب الواردة في النص المحقق ، ثم قائمة المصادر و المراجع المعتمدة في التحقيق .

⁎-الترجمة من الفرنسية :

17- إبن تومرت ، تأليف رشيد رشيد بورويبة(19) :تناول صاحب الكتاب حياة المهدي بن تومرت ، مولده سنة 468ه/1075م و نشأته ، رحلته إلى المشرق ، عودته ، بيعته ، كما تناول تنظيم جماعة الموحدين و تأسيس دولتهم ، و هو عمل أكاديمي اعتمد المؤلف بورويبة على العديد من المصادر و المراجع ، دراسة تمتاز بالدقة و النزاهة و الموضوعية ، و على هذا الأساس ترجمه الأستاذ عبد الحميد حاجيات إلى اللغة العربية بأسلوب رائع لتعميم الفائدة .

⁎-نشر المقالات : نشر الأستاذ عبد الحميد حاجيات 33 مقالا(20)و طنيا و دوليا في مختلف المجلات المحكمة و في مواضيع متنوعة في الأداب ن التاريخ السياسي و الحضاري ، و منها الكتابة عن التراجم و السير و المناقب و من بينها :

– عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين ، مجلة الأصالة ، العدد 1978 م .

– تأسيس دولة الموحدين ، مجلة التاريخ ، العدد 8 سنة 1980 م .

الأمير عبد القادر و إنتاجه الأدبي ، مجلة التاريخ ، الجزائر، عدد خاص 1983.

– حول شخصية عقبة بن نافع الفهري ، مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ ، الجزائر ، العدد 1 ، 1986 م . إضافة إلى تراجم أخرى لشخصيات علمية منها : عبد الرحمن بن خلدون ، ابن المقفع ، عبد الرحمن الثعالبي ، محمد بن عبد الكريم المغيلي ، مصطفي بن براهيم ..

– المشاركة في الملتقيات :

شارك الأستاذ في ملتقيات وطنية و دولية بمداخلات و محاضرات علمية قيمة .

– مشاريع البحث العلمي : ساهم الأستاذ عبد الحميد حاجيات في عدة مشاريع الخاصة بالبحث العلمي نظرا لتعد تخصصاته مؤرخ ، محقق و مترجم ، و من أهم هذه المشاريع :

–الحياة الثقافية بالجزائر في القرن 8ه/14م ، أنجز سنة 1996 م

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– نصوص أمازيغية للغرب الجزائري دراسة اجتماعية ثقافية و ترجمتها إلى العربية و الفرنسية ، أنجز سنة 2001 م

–تطو التيار الصوفي بالجزائر في العصر الوسيط ، أنجز سنة 2006م

– التكوين ما بعد التدرج : يعود الفضل للأستاذ عبد الحميد حاجيات في تأسيس قسم الثقافة الشعبية و قسم التاريخ بجامعة تلمسان ، كما يعود له الفضل في فتح مشاريع الماجستير في كلا القسمين ، حيث كوّن و أشرف و ناقش العديد من الطلبة الباحثين الذين أصبحوا اليوم نخبة من الأساتذة الجامعيين .

من خلال هذا النشاط العلمي الكبير و المتنوع في مجال التأليف في التاريخ ، الآداب الثقافة الشعبية ، تحقيق المخطوطات و الترجمة ،يمكن اعتبار الأستاذ عبد الحميد حاجيات من رواد و عمالقة المدرسة التاريخية ، ساهم في إثراء المكتبة الجزائرية بمؤلفاته القيّمة التي يعتمد في أغلبها على كمّ معتبر من الوثائق المكتوبة و الصور و الخرائط والمخطوطات وتحقيقها وتحليلها ومقارنة محتوياتها و استخراج تناقضاتها ثم استخلاص الحقيقة التاريخية أو يقترب منها .

الهوامش:

-1 عبد الحميد حاجيات ، شهادة أدلى بها بقسم التاريخ ، جامعة تلمسان سنة 2015م

2– نصر الدين بن داود ، " الأستاذ عبد الحميد حاجيات و منهجه في التحقيق و التأريخ " ، مجلة عصور الجديدة ، ع 3–4 جامعة وهران 2012/2011 ، ص ص 301–314

3– عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الثاني الزياني حياته و آثاره ، ش.و.ن.ت، الجزائر ، ط1 1975 ، ط2 1982 ،ط3 ، 2011 ، 398ص

4–نفسه، ، عبد المؤمن بن علي ، المنشورات الجامعية و العلمية ، الجزائر 1983

5 – عبد الحميد حاجيات و آخرون ، الجزائر في التاريخ –العهد الإسلامي –ج3، م.و.ك ، الجزائر 1984، 605ص

6– عبد الحميد حاجيات ، عبد الله بن المقفع : حياته و آثاره ، م.و.ك –الجزائر 1990 ، 108 ص

7– عبد الحميد حاجيات و آخرون ، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط ،منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في تاريخ الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، وزارة المجاهدين ، الجزائر ، 2007 ، 295 ص

8– عبد الحميد حاجيات ، دراسات حول التاريخ السياسي و الحضاري لتلمسان و المغرب الإسلامي ، ج2 ، مطبعة عالم المعرفة ، الجزائر 2011م

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[9]– نفسه ، الشيخ أبو مدين شعيب الإشبيلي ، حياته و آثاره ، عالم المعرفة ، النشر و التوزيع ، الجزائر 2011 م

[10]- Abdelhamid Hadjiat ,Le Maghreb central sous le règne du sultan ziyanide Abou Hammou Moussa II (760-791H/1359-1389) , Edition Errached ,sidi belabes Algérie 2009 , 609 p.

[11]– أبو عبدالله التنسي ، تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان) ، تحقيق و تقديم : عبد الحميد حاجيات ،م.و.ك ، الجزائر 1984م ، 107 ص

[12]– أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق ، أخبار المهدي بن تومرت ، تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات ، ش.و.ن.ت ، الجزائر ط1 1974، ط2 1986 م

[13]– **جواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان ، تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات ، ش.و.ن.ت ، الجزائر، ط1 1975 ، ط2، 1986م ،**

[14]– يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات ، ج1 ، إصدارات المكتبة الوطنية ، الجزائر 1980 م، 332 ص ، ط2 2007 ، ط3 2011 .

[15]– أبو عبد الله محمد بن ظفر الصقلي ، سلوان المطاع في عدوان الأتباع ، تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات ، دار الالالمعية للنشر و التوزيع ، قسنطينة ، الجزائر 2011م

[16]– عبدالرحمن بن خلدون ، ترجمان العبر و ديوان المبتدأ و الخبر – دولة بني عبد الواد – تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ش.و.ن.ت الجزائر 2011 م ، 200ص

[17]– أبو مدين شعيب بن الحسين الإشبيلي ، أنس الوحيد و نزهة المريد ، تقديم و تحقيق عبد الحميد حاجيات ، عالم المعرفة للنشر و التوزيع ، الجزائر 2011م

[18]– مجهول ، زهر البستان في دولة بني زيان ، تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات ، عالم المعرفة للنشر و التوزيع ، الجزائر 2011م

[19]– رشيد بورويبة ، إبن تومرت ، ترجمة عبد الحميد حاجيات ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 م ، 172 ص

[20] – ناصر الدين، بن داود ، المرجع السابق ، ص 308 .

ملف الزيتونيين

و قضايا عصرهم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تعليم المرأة في مرحلة التّحرّر الوطني: الفكر والممارسة

د. ة.رفيعة عطية بوملاّسة

جامعة الزيتونة تونس

البريد الإلكتروني : zeitouna.unite@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

وصل مسار تحرير المرأة التونسية إلى الإعلان عن مجلة الأحوال الشخصية يوم 13 أوت 1956 ليكون هذا القانون أول ثمرة لجهود الزيتونيين في تونس الذين ناضلوا على امتداد النصف الأول من القرن العشرين من أجل حقّ المرأة في التعليم الذي اعتبر مدخلا لتحررها من الجهل والتعصب والتخلف وبالتالي مدخلا لإصلاح المجتمع وتصدّيا للتفكك الذي بدأ يصيبه بفعل الاستعمار. لكنّ جوهر التعليم الذي طالب به الزيتونيين هو ذاك الذي ينبثق من القرآن والسنة حتى لا تسلب المرأة المسلمة شخصيتها وحتى لا ينحرف مسار الإصلاح. لقد اتّخذ هذا الجهد بعدين: بعد تنظيريّ بدأه الشيخ الثعالبي في كتابه روح التحرر في القرآن وبعد ميدانيّ ختمه الشيخ محمد الصالح النيفر بتعليم البنت المسلمة.

الكلمات الدالة:

تحرّر – مرأة – تعليم – تجديد – إصلاح.

العنوان بالإنجليزية:

Education of women in the stage of national liberation: thought and practice

Abstract:

The efforts which aim to emancipation Tunisian woman results in the declaration of « The personal issues magazine » in August 1956. This law was the first fruit or reward to the struggle of Zaitouna's educated people in Tunisia who was fighting during the first half of the twentieth centry for the sake of woman's right in education which was considered as a key to her freedom and to her emancipation from ignorance, racism and degradation. Woman's education was also an entrance to the social change and a protection from the division caused by the colonization.But zaitouna's educated people

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

asked for an education based on ideas which spring from the Quran and the Sunna in order to prevent the Muslim woman from loosing her personality and to avoid the deviation of the corrective approach.

This effort had two sides: a theoretical one started by "Taalbi" in his book "the spirit of freedom in the Quran" and a practical one finished by "Mohamed Salah Ennifer" in his project which aimed to teach the Muslim girl.

Key words:

Liberation, women, Education, Repair.

حققت المرأة في تونس المكاسب العظيمة التي جعلتها تتقدم بشكل لافت في مستويات عدة مثل التعليم والشغل إضافة إلى المشاركة السياسية خاصة بعد الثورة. وإنّ ما تحقق لها من مكاسب كان ثمرة مباشرة لمجلة الأحوال الشخصية[1] والتي تعدّ من أقدم النصوص القانونية في العالم الإسلامي في مجال الأحوال الشخصية، وقد نهلت من الفقه ومن تعاليم الشريعة بل وكتبها فقهاء[2] . كما أنّ إعلان تونس دولة جمهورية وما استتبع ذلك من إجراءات تعلقت بما يعرف في تاريخ تونس بتحديث المجتمع مثل الاتجاه إلى التعليم وتوحيده وجعله إجباريّا ومجانيّا وعدم التمييز في ذلك بين الإناث والذكور[3]

إنّ هذه المكاسب التي تحوّلت اليوم في مجتمع تونس إلى شكل من أشكال المسلّمات التي لا يسمح بإعادة مناقشتها أو التّشكيك فيها، فالأمر قد حسم بالنسبة إلى تعليم المرأة وعملها وحسمت مسألة منع تعدد الزوجات ومسألة المشاركة السياسية، لكن الذي لم يحسم بعد ولا يزال موضع نقاش وجدل مسألتان تتعلق الأولى بالراهن والمستقبل والثانية بالتاريخ: فأما الراهن فيتمثل في انعكاسات مشاركة المرأة في الشأن العام على الأسرة وعلى المجتمع وعليها كإمرأة وإنسان إذ يطرح اليوم سؤال عميق: كيف يمكن الحفاظ على الأسرة وعلى النسيج المجتمعي وحمايته من التفكك والانهيار أمام الثغرات القانونية المتعلقة بالأحوال الشخصية والتي لم تعط إجابات عن الوضعيات المترتبة عن خروج المرأة والمرتبطة أساسا بالأبناء والأسرة ومن ثمة المجتمع؟

لقد طرح هذا السؤال في الحقيقة تاريخيا في مطلع القرن العشرين مع مصلحي تونس عندما كان ديدنهم إنقاذ الأسرة التونسية مما تردّت فيه من تفكك (كثرة القضايا في المحاكم الشرعية) بسبب جهل المرأة [4] ، فكانت الدعوة إلى تعليمها ولكن ضمن ضوابط القيم الإسلامية والضوابط الشرعية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من هذا المنطلق تأتي إثارتنا للمسألة الثانية المتعلقة بالتاريخ: إلى أيّ حدّ ساهمت النقاشات الفكرية في مطلع القرن العشرين في تمهيد الطريق نحو تعليم المرأة وتحريرها؟

هل يمكن أن نتحدث عن مدرسة إصلاحية داخل جامع الزيتونة الأعظم كان لها من الجرأة على طرح فكرة تجديد الفكر الديني الذي من أهم مداخله مسألة المرأة وما يتعلق بضرورة تحريرها والذي لا يمكن أن يتحقق إلا بالتعليم؟ ما هي جذور هذه الفكرة؟ وكيف تعاطى معها عموم المجتمع وخاصة في الحواضر؟ ألم يسهم النقاش الفكري الذي ركّز أسسه عبد العزيز الثعالبي إلى ميلاد كتاب روح التحرر في القرآن والذي سيكون منطلقا لمؤلفات أخرى أكثر جرأة وأكثر تحدّيا للفكر التقليدي الزيتوني مثل كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" للطاهر الحداد؟ ألم تثمر هذه النقاشات الفكرية تجربة ميدانية رائدة في أربعينات القرن العشرين حققها أحد شيوخ الزيتونة وهو الشيخ محمد الصالح النيفر الذي أنشأ ما يعرف بالمدارس القرآنية للبنات والتي كان من نتائجها توفير رصيد بشري سنوي في الإدارة المستحدثة؟ ألا يحق لنا اعتبار مجلة الأحوال الشخصية وإجبارية تعليم البنات في دولة الاستقلال ثمرة مرحلة نضالية طويلة في تونس خاضها الزيتونيون جنبا إلى جنب مع المدرسيين؟

إنّ هذه الأسئلة تدفعنا إلى قراءة هذه التجربة التأسيسية الأولى من خلال التطرق لأبعادها الفكرية مع شيخ الزيتونة المجدد عبد العزيز الثعالبي ومع إرهاصات هذه النقاشات في مستوى الحوار بين النخبة من خلال قراءة في أهم الصحف التونسية خلال النصف الأول من القرن العشرين، ومن خلال التجربة الميدانية للشيخ محمد الصالح النيفر من خلال مدارس تعليم البنات.

1.الثعالبي والدعوة إلى تعليم المرأة

هل يمكن أن نعتبر الثعالبي أول رواد الإصلاح زمن الحماية الذين دعوا إلى الإصلاح الديني من خلال التطرق إلى أكثر القضايا التي اعتبرت مدخلا لانحطاط المجتمع: التعليم والمرأة؟

الشيخ الثعالبي وهو جزائري الأصل (1874 – 1944) انقطع عن مزاولة تعليمه بالزيتونة ولم يتحصّل على شهادة التطويع، ولكنه نجح في اكتساب مهارة الاطلاع والكتابة حيث بدأ مسيرته العلمية محرّرا العديد من المقالات الصحفية [5] التي مثّلت امتدادا للفكر الإصلاحيّ في تونس ولكن أيضا كانت مرآة عاكسة لفكر النهضة العربية الإسلامية التي كانت قد انطلقت مع الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وتواصلت زمن الثعالبي مع محمد عبده وتلميذه رشيد رضا[6] . وقد كان الجميع متفقون حول أسباب انحطاط المسلمين كما كانوا متفقين سبل الخروج من ذلك مستندين إلى التجربة الأوروبية التي لم يكن لها سند في القديم وإنما تحققت بالقوانين والمؤسسات القائمة على العدل السياسي والأمن والعلم. ولذلك فإنّ أسباب النهضة والانحطاط تبدو في نظر الإصلاحيين مستقلة عن قضية الإيمان والكفرمرتبطة بالأخذ بعوامل القوة والسؤدد[7].

لقد شكّل هذا المدخل الفكريّ منطلقا لمسيرة الثعالبي الفكرية الإصلاحيّة والتي دعا فيها إلى ضرورة تجديد الخطاب الديني وتخليص العقول من أدران التقليد والتزمّت والاتّكالية داعيا إلى إعادة قراءة التجربة النبوية بما يمكّن من الاستلهام منها والاقتداء بها حيث يقول: "إنّ الأفراد ينفرون من كلّ إصلاح إذا كان يهدد مصالحهم أو حتى ألقابهم الفارغة فكيف تسنّى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يجرف كل تلك العقبات في عشر وبضع سنين ليسير بالموكب العربي حافلا لهداية البشر. هذا هو السر والطلسم الذي نسميه النبوة والذي هو المعجزة الإلاهية الخالدة"[8] . لقد كان الثعالبي يرى أنّ الإسلام لا يعوق التقدّم والمدنية بل إنّ توظيف الدين من أجل تأبيد مصالح الأفراد وطبقة المحافظين هو الذي يحول دون النهضة[9].

فالمنهج الذي رأى الثعالبي أنه السبيل الرئيسي للخروج من الانحطاط هو الاجتهاد وتجديد الخطاب الديني وتحريره من جمود المحافظين ومن وطأة الخطاب الديني السائد الذي لم يراع مقتضيات الزمان والمكان بل واصل إهمال ما لا يكون نهوض المسلمين إلا به، وقد عبّر عن ذلك في أولى الصحف التي أدارها وهي سبيل الرشاد التي صدرت في ظلّ نظام الحماية وقبل حوادث الجلاّز حيث عبّر من خلالها عن طموح كبير "لتجاوز معوقات الحاضر لإسلامي ويؤكد أنّ رغبته كانت في إنشاء ثورة بالمعنى الكامل للكلمة من أجل إنقاذ العالم الإسلامي من الوهدة التي سقط فيها. "[10]

فالاجتهاد وسبل إحيائه شكّل اللّبنة الأولى للخطاب الصحفي الذي حاول من خلاله الثعالبي تجديد الفكر الديني وذلك بالتطرق إلى أهمّ مداخله وموضوعاته وخاصة تلك المتعلقة بالتعليم والمرأة والطرق الدينية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ما يهمنا في هذا المقال هو موضوعا المرأة والتعليم حيث جعل الثعالبي من سبيل الرشاد لبنة من لبنات الخطاب الصحفي في تونس الذي حاول تجديد الفكر الديني عبر اقتحام مجالاته الأساسية ونقد آليات عمله. إلا أنّ الاجتهاد أو "الفرض المتروك" كان يهدف إلى تحرير الخطاب الديني من قبضة النخبة التقليدية ولكن دون السقوط في الفكر الغربي لأنّ الاجتهاد ليس تجنّسا وإنما هو تدعيم للكيان الحضاري الإسلامي[11]..

إنّ قضيّة المرأة وتعليمها بالنسبة إلى الثعالبي بقدر ما كانت محدودة في سبيل الرشاد طرحت بجرأة كبيرة في كتابه "روح التحرر في القرآن" (12) والذي بسببه اتّهم بالزندقة وحوكم بالسجن ثلاثة أشهر لما اعتبرته النخبة التقليدية مسّا بمكاسبها العلمية وخوفا على عقائد العامة من الانحراف[13] . فهو في نص طريف يعتبر أنّ "حجاب المرأة أو غطاء وجهها إنما هو بدعة انتشرت بسبب احتكاك العرب بالشعوب المفتوحة وخاصة الفرس"[14] . وقد استند الثعالبي إلى عدة آيات وأحاديث ليستخلص منها أنه يجب على النساء كشف وجوههن ولا ينبغي لهنّ الانزواء في بيوتهنّ والاحتجاب عن الأنظار ويتحتم عليهنّ طلب العلم والالتزام بسلوك لائق ومحترم.-إنّ هذا الخطاب إنّما هو تواصل لخطاب النهضة العربية التي دعاء مفكروها منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى ضرورة تعليم البنات. فالطهطاوي ألّف حول هذا الموضوع كتابا عنونه "المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين" [15]، كما ألّف قاسم أمين كتابين في نفس الموضوع. [16]

2 . الصّحافة التونسيّة في مطلع القرن العشرين والدعوة إلى تعليم المرأة

إنّ هذه المحاولة التجديديّة الاجتهاديّة لم تكن تقتصر على الثعالبي وإنّما سادت تقريبا عددا كبيرا من الصحف التي صدرت بتونس في مطلع القرن العشرين نذكر منها جريدة الحاضرة [17] التي طالبت بتعليم المرأة كمطمح يتماشى مع الأوضاع الاجتماعية الجديدة حيث دعت إلى وضع مدارس لها برنامج مخصوص مطابق لرغائب الهيئة الإسلامية موافق لشأنها ولاحتياجاتها يشتمل أولا على تعليم الآداب العربية والعقيدة والفروض الدينية ثم تختص بقسم تعليم الخياطة والطرز والتصوير وتدبير المنزل مع جعل تعليم آلة الطرب اختيارية. [18]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

فالمرأة في تصوّر روّاد الإصلاح ومنهم الثعالبي لها مهمة تربوية أي "تربية النّشئ على القيم التي تدعم كيان الأمة وتحصن خصوصياتها القائمة على مخافة الله وحب الوطن وحسن العقيدة"[19] وهو شكل من أشكال التصدي الفكري للدعوات الأوروبية لتحرير المرأة هذه الدعوة التي شبهتها بالسم في الدسم لأنّ فيها إفراغ للأمم في قالب واحد من حيث الشعائر والأخلاق والأفكار. صدر للحاضرة التي كان رئيس تحريرها علي بوشوشة ما يقرب من خمسة وعشرين مقالا ما بين سنتي 1889 و1911 حول مسألة المرأة وتعليمها [20] ومن العناوين اللافتة في هذا الصدد نذكر: "النساء والكتابة" (10 سبتمبر 1889)، "ضعف النسل وقلة الزواج" (1893)، "تعليم البنات" (1899)، "أول معهد للبنات" (1900)، "تحرير المرأة ورفع الحجاب ومضاره" (1903).لقد اعتبرت الحاضرة أنّ الأوضاع الاجتماعية في غير مصلحة التونسيين والإسلام لذلك جاءت الدعوة صريحة لتعليم المرأة كمدخل من مداخل الاجتهاد وتجديد الخطاب الديني. ولتحقيق هذا المطلب كانت الدعوة إلى إقامة المدارس الخاصة بالبنات التي تكون مطابقة لرغائب الهيئة الإسلامية موافقة لنشأتها واحتياجاتها تشتمل على تعليم الآداب والعقيدة والفروض الدينية ثم تختص بقسم لتعليم الخياطة والطرز والتصوير وتدبير المنزل مع جعل تعليم آلة الطرب اختيارية. [21]

لقد حرصت جريدة الحاضرة عبر هذه المقالات على اعتبار تعليم المرأة أمر يندرج ضمن النهضة الوطنية، وأنّ التعليم وفتح الآفاق الذهنية للمرأة سيساعد على نشأة جيل قادر على النهوض لأنّ المرأة "لم تخلق للفراش والطبخ بل هي شريكة الزوج في قيام مادة الحياة وتحضير أسباب العمران وعليها مدار سعادة الأولاد"[22] . وبالتالي فإنّ التحرير الذي كان يدعو إليه المصلحون التونسيون لم يكن يعني رفع الحجاب أو الانفصال عن الأخلاق الإسلامية بقدر ما كان يعني إشراك المرأة في تحقيق نهضة الوطن ولكن وفق سلّم القيم الإسلامية[23]..

يبدو أنّ الحاضرة كما الثعالبي وبقية رواد الإصلاح متوجسون من التعليم الإفرنجي[24] مراعاة للوضع الاجتماعي عامة والنسائي خاصة وتفاديا لإفراغ الأمم في قالب واحد من حيث الشعائر والأخلاق والأفكار والحرية، ولذلك فإنّ المرأة التونسية هي امرأة وطنية ويجب أن تكون متعلمة ولكن في إطار محافظ ومع ذلك يمكنها أن تجاري المرأة التركية لو تحولت حالتها من الاستعمار إلى الاستقلال.[25]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

في نفس السياق وللنهوض بالمرأة والأسرة أطلقت صحيفة المشير[26] صيحة فزع سنة 1911 لما تعانيه الأسرة التونسية من تفكك تجسد في ظاهرة العزوف عن الزواج بسبب الإسراف والتبذير وكثرة القضايا المقدمة إلى المحاكم الشرعية وتطرح المشير أشكالا علاجية لعل أبرزها ضرورة تعليم البنات والنّأي بهن عن الخرافات والشعوذة التي سادت المجتمع التونسي في ذلك الظرف ولكن في المقابل أقرّت برفض التعليم النسائي الذي ركزته إدارة المعارف الفرنسية لأنه حسب المشير لا يحقّق الترابط المحلي ولا يحقق الوحدة الوطنية بل إنّ مشروع تعليم البنات أمر موافق للشرع والعقل[27] قاعدته يجب أن تكون على مستويين: التربية والتعليم. فالتربية النسائية يجب أن تكون موافقة للطبائع والعوائد دافعة لتذبذب الشخصية والخذلان الذي يضر بجسم الأسرة والمجتمع والأخلاق هي جزء أساسي في هذه التربية. وبناء على هذا المنهج لابدّ للمرأة من تعليم يراعي كمال عقلها ولكن أيضا يراعي بنيتها الجسدية المختلفة عن الرجل وأن يتّجه إلى المهمّة الأساسية الموكولة للمرأة وهي تدبير المنزل وتربية الأطفال.
وعليه فإنّ هذا التعليم يجب أن يكون باللغة العربية وعلى أياد تونسية. ومن هنا رفض نشرية المشير التعليم الفرنسي ورفض للمعلمات الأجنبيات (مقالات للطيب بن عيسى). إذ يرى صاحب هذه المقالات أنّ المسلمين يعانون من تفكك الأسرة وأنّ الخلاص لا يكمن في ما يقدمه النموذج الأوروبي من تحرر النساء وإنما يكمن في ما قدمه السلف الصالح عندما كانت المرأة تبعث روحا حيّة في المجتمع وتدفع به نحو الرقي. [28]

يبدو أنّ هذه الدعوة قد راجت في الصحافة التونسية في مطلع القرن العشرين وذلك بسبب ما ذكر من تفكك للأسرة وعزوف عن الزواج بين الشباب بسبب استشراء التبذير وكن أيضا بسبب انتشار الجهل حيث أنّ الزواج بالمرأة الجاهلة لا يعود على الرجل والأسرة بالنّكد والأحزان، لذلك رأت مجلة خير الدين[29] أنّ المرأة يجب أن تتعلّم لسدّ الثّغرة الهائلة في المجتمع، وأن يقتصر تعليمها على العقيدة والفقه والأخلاق والحساب والجغرافيا واللغة بالعربية والطبخ والخياطة وتربية الأطفال وتدبير المنزل [30] وذلك حتى يتحقق مبدأ التقارب بين المرأة والرجل وحتى نحمي المؤسسة الأسرية من التفكك. وقد استند الجعايبي في هذه الدعوة ‘لى القرآن الكريم الذي كان صريحا في المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وذلك خلافا لاعتقاد البعض بأنّ المرأة سافلة ساقطة وغير مساوية للرجل وهو اعتقاد أسس له

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

شيخ العارفين أرسطو "النساء شياطين خلقنا لنا". كما اعتبر الجعايبي أنّ هذا الاعتقاد إنما هو ذريعة يريد الرجال من خلالها الحفاظ على سطوتهم على المرأة بدعوى أنّ تعليمها يفتح أبواب الفجور في حين أنّ التعليم يهذّب[31]. عنوان الجعايبي يؤكّد أنّ المساواة يجب أن تستند على الأصل الإسلامي وأن لا تحاكي التجربة الأوروبية حيث كانت المساواة التّامّة بين الجنسين ثورات اجتماعية. ولذلك لا مطمح للمرأة في مشاركة الرجل في أعماله[32].

هذا التوجه الفكريّ بدا من خلال دراسة أهمّ المقالات الصادرة في الصحافة التونسية في مطلع القرن العشرين إطارا يشترك فيه الكثير من الإصلاحيين الزيتونيين، ذلك أنّ أغلب الصحف الصادرة مديروها ومحرروها زيتونيون ولكنهم مجددون. فصاحب "النّصيحة" [33] محمد الصادق بن إبراهيم كان يرى أنّ المرأة أنزلها الله مكانة ملائمة لفطرتها الإنسانية لكنّ النّاس انقسموا في شأنها: فريق رفعها فوق تلك المكانة فتمردت وطغت وفريق استعبدها واغتصب حقوقها.. ورأى أنّ المسلمين ذهبوا مع الفريق الثاني فمنعوا المرأة الكثير من الحقوق مثل التعليم. لذلك رأت مجلة النصيحة أنّ تعليم المرأة ليس بدعة وإنّما له ما يؤكده في تاريخ المؤمنات.أمّا صحيفة التقدّم [34] فقد عالجت مسألة تعليم المرأة ودعت إلى حقها في تعليم عصري يبعدها هن الخرافات والمعتقدات السحرية المنحرفة مع تجنّب بعض العادات الاجتماعية كتعدد الزوجات الذي أدخل اضطرابا اجتماعيا كبيرا فشوّش الألباب وجلب الشر وذهب ضحيته العديد من النساء. [35]

في حصيلة لهذا الجرد لبعض من الصحافة التي راجت في تونس في مطلع القرن العشرين تبيّن أنّ جل هذه الصحف إن لم تكن كلها كان يشرف على تحرير مقالاتها زيتونيون تشربوا الفكر الإصلاحي[36]. وتطرقوا إلى أهم موضوعاته وأهمها مسألة تعليم المرأة.حصل شبه إجماع بين هذه النخبة على أحقية التعليم بالنسبة إلى المرأة وذلك للخروج بالمجتمع من حالة التفكك والموت التي أصابته وتحقيق النهضة المرجوة. إلا أنّ جلّ الإصلاحيين كانوا يحترزون ويتخوفون من الثقافة الفرنسية التي كانت تسعى آنذاك إلى اختراق الأسرة عبر التدخل في تعليم المرأة التونسية من خلال بعث المدارس المختلطة والتي تقوم أساسا على اللغة الفرنسية [37]. لذلك كانت دعوة الإصلاحيين إلى تعليم المرأة وتحقيق مساواتها مع الرجل إسلامية أي كما أقرها الدين، وتأتي ضمن سياق الدعوة إلى تجديد الخطاب

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الديني وإصلاح التعليم وهي المواضيع التي روجت لها صحيفة الحاضرة لصاحبها علي بوشوشة والزهرة لصاحبها عبد الرحمان الصنادلي وكذلك مجلة المنار المصرية لصاحبها محمد رشيد رضا التي انتشرت انتشارا واسعا بالقطر التونسي وكانت تدعو بتوجيه من الشيخ محمد عبده إلى تأبيد حركة الإصلاح التعليمي وتقرنها بدعوة الإصلاح الديني. [38]

لذلك كانت الدعوة إلى تعليم المرأة ضمن هذا السياق وليس من خارجه أي التعليم كما أقره الدين لا كما أقرته أوروبا وذلك تفاديا لمزيد تفكك المجتمع وروابط الوحدة الوطنية والإسلامية. والحقيقة أنّ هاجس أوروبا ظلّ حاضرا بقوة في النقاشات المتعلقة بالمرأة وظلت رؤى الإصلاحيين الزيتونيين تعكس رؤيا مجتمعية محافظة تقرّ بأهمية تعليم المرأة وإصلاح وضعها، ولكن يبقى ذلك ضمن السياق العربي الإسلامي. وقد استمرّ هذا الثبات في التوجه حتى أربعينيات القرن العشرين وذلك على الرغم من صدور كتاب الطاهر الحدّاد "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" [39] وعلى الرغم من التحولات التي بدأت تطرأ على البنية التقليدية للمجتمع التونسي بفعل السياسة الاستعمارية التي قامت على تكريس جملة من الاختلالات على بنية الدولة وعلى بنية المجتمع والعمل على خلق معادلة الثنائيات: إدارة عصرية/ إدارة تقليدية، تعليم عصري مدرسي/ تعليم تقليدي زيتوني.

لكنّ مقاومة الاستعمار ومحاولة اختراق البيئة التقليدية المحافظة للمجتمع واجهت مقاومة مدنية عملت على إنزال ما وصلت إليه أفكار الإصلاحيين المتعلقة بالإصلاح الديني وبتعليم المرأة على الواقع والخروج من ذاكرة القول إلى دائرة الفعل مستفيدة من انتعاشة حركة التحرر الوطني في جل ميادينها السياسية والنقابية والجمعياتية والثقافية والتي شهدتها تونس منذ أواخر عشرينات القرن العشرين إلى مطلع الخمسينات من نفس القرن.تتمثل هذه التجربة في ما يعرف بمشروع تعليم البنات ضمن ما سمي بالمدارس القرآنية التي أسسها الشيخ محمد الصالح النيفر.

3 .الشيخ محمد الصالح النيفر ومشروع تعليم البنت المسلمة

تبينا مما عرض أنّ جل الصحف التي عالجت موضوع تعليم البنت في الربع الأول من القرن العشرين قد دعا أصحابها إلى أن يكون تعليمها طبق برنامج قومي. وقد لخص محمد الجعايبي هذا المنحى في جريدة الصواب سنة 1920 بقوله: "نحن لا نكره تعليم المرأة بل نراه شرطا لأمة تنشد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الرقيّ وتتحفّز إلى نهضة صادقة ولكننا نريد أن نعلّم بناتنا طبق آدابنا وأخلاقنا وبلغتنا التي هي لساننا الرسمي والواسطة العظمى لفهم ديننا الذي يحتم على المرأة المسلمة أن تتشبع بمبادئه العالية. "[40]

جاءت هذه الدعوات في ظرف اتسم بتنامي عدد المدارس وعدد التلاميذ المقبلين على التعليم العمومي من جهة ومن جهة أخرى بداية انقسام النخبة التونسية حول أهداف وطرق تعليم المرأة: فالحركة التعليمية وإن بدت ضيّقة إلاّ أنّها أخذت في الاتّساع، فقد شهد الثّلث الأول من القرن العشرين تزايدا في المدارس القرآنية والعربية الفرنسية فانتشرت في المدن وأحدثت في بعض القرى.ودلت إحصائية لسنة 1906 على أنّ عدد المتعلمين بالمدارس الحكومية بلغ 3289 فتى و66 فتاة، أما في سنة 1923 فإنّ عدد المدارس ارتفع إلى 367 مدرسة وإنها كانت تأوي 17817 تلميذا منهم 1688 فتاة، وفي سنة 1929 فقد باغ عدد التلاميذ ما يقارب 28000 تلميذا في المدارس الابتدائية وتجاوز 3500 في المعاهد الثانوية دون احتساب تلاميذ التعليم القرآني وطلبة الجامع الأعظم. وفي سنة 1938 بلغ عدد التلاميذ في الابتدائي 38609 تلميذا منهم 5714 تلميذة. [41]

هذه الأرقام تبين أنّ المجتمع التونسي بدأ يشهد تحولات عميقة في بنيته وما انتشار التعليم إلا أحد مؤشرات هذا التحول الذي يبدو أنه لم يشمل البنت المسلمة إلا بصورة محتشمة عكست توجسا مجتمعيّا من طبيعة التعليم والبرامج التي كانت تتلقاها المرأة في هذه المدارس العمومية وذلك في وقت احتدم فيه النقاش بين النخبة حول مسألة تحرير المرأة وانقسمت هذه النخبة بين دعاة التعليم دون سفور وبين دعاة السفور وخلع الحجاب. [42]

عارض جل التونسيين تعليم الفتيات التونسيات في مدارس حكومية طبق المناهج والبرامج المتبعة في أوروبا حتى جلوسهنّ أمام معلمة فرنسية لم يبحه البعض منهم وذلك خوفا من القضاء على الروح القوميّة، إذ المرأة درع تجب حمايتها من التذبذب والاندماج الذي كانت تسعى فرنسا إلى تحقيقه. [43]

في المقابل بدأ يظهر على الساحة الفكرية والأدبية التونسية تيّار إصلاحي ينادي بأن يكون تعليم المرأة مقترنا ومؤديا إلى سفورها ومشاركتها الرجل وظائفه[44] . وكثرت الأصوات بين الكتاب والصحافيين التونسيين حول تعليم المرأة والحجاب وانقسموا كما ذكرنا إلى ثلاثة فرق: أحدهما يدعو إلى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تحررها الذي يعني السفور والثاني محافظ يناصر الحجاب أما الثالث فوسطي اعتبر أنّ المجتمع التونسي غير مؤهل لقبول السفور .

لقد بينت الدراسات التاريخية أنّ ثلاثينات القرن العشرين اتسمت بذروة الكتابات والمقالات الجدلية الحجاجية حول السفور. وقد بين أحمد خالد أنّ كتابات كثيرة كتبت بأسماء نسائية مستعارة للتدليل على وجود صوت نسويّ يكتب ويطالب بالتحرر(45) . وقد ساهم هذا المناخ الفكري الجدالي إلى حدّ كبير في ظهور مؤلفات على قدر كبير من الجرأة منها كتاب الطاهر الحداد "امرأتنا في الشريعة والمجتمع"، ولكنها أيضا ساهمت في بوادر ظهور عمل نسوي وإن بصفة محتشمة تمثل في بدء ظهور نساء سافرات يخطبن في منتديات فكرية (46)، ولكن أيضا ظهور جمعيات نسوية ولكنها كانت محدودة الانتشار (47) وربما يفسّر ذلك بمحدودية عدد الفتيات والنساء اللواتي يقبلن على التعليم العمومي رغم نسق ارتفاعه الطفيف ورغم ما أفرزه من ظهور لأسماء ناشطات في الحركة النسوية التونسية.

فقد بينت دراسات تاريخية أنّ عدد التلميذات المسلمات في المدارس الابتدائية عام 1930 بلغ 2924 تلميذة وفي المدارس التكميلية خمسة وفي المدارس الابتدائية الخاصة 617 تلميذة وفي الابتدائية العالية (الثانوية) 246 تلميذة وتفوقت بعضهن في الدراسة مثل توحيدة بن الشيخ أول طبيبة تونسية(48) .

تبقى هذه الأرقام على أهميتها محتشمة وغير ممثلة لعموم التونسيين الذين لايزالون غير واثقين في التعليم العمومي الذي كان بالنسبة إليهم شكلا من أشكال الفرنسة وتذويب الشخصية التونسية وذلك على الرغم من أن طبيعة التونسي كما بين الهادي التيمومي توّاقة للتعليم (49). وإننا نجد ما يبرر من الوقائع التاريخية هذه النزعة، ذلك أنه، أمام امتناع التونسيين عن تعليم بناتهم في المدارس الحكومية في مقابل تنامي التيار الإصلاحي الزيتوني والمدرسي الداعي إلى ضرورة تعليم المرأة، جاءت مبادرة الشيخ محمد الصالح النيفر (50) لتأسيس فرع نسائي لجمعية الشبان المسلمين باسم "الاتحاد النسائي الإسلامي"، ومن بين السيدات النشطات سعاد بنت محمد الصالح ختاشي حرم الشيخ محمد الصالح النيفر وشريفة بنت محمد بن حسونة وبشيرة بن مراد وغيرهن كثيرات. وقد اتفقت مؤسسات الفرع النسائي على أن يكون في طالع عملهن التعليم والإرشاد وإلقاء الدروس على الأمهات والأهم هو إنشاء

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مدرسة للبنات المسلمات يتثقفن فيها ثقافة إسلامية صميمة[51]. ويذكر أنّ هذه الدعوة لقيت قبولا واسعا لدى التونسيين حيث تقبل الرأي العام التونسي هذه الحركة النّسوية الواقعة تحت إشراف جمعية الشبان المسلمين الزيتونية المنشئ والأهداف في حين كان يعارض بشدة كل حركة قبلها بسبب التوجس من مشروعها الهادف إلى توجيه المرأة التونسية نحو تقليد المرأة الأوروبية. أما جمعية الشبان المسلمين فقد دعت إلى حركة نسوية وفق النظم الإسلامية. [52]

ويذكر الشيخ محمد الصالح النيفر أنّ هذا الفرع كان يموّل التعليم وأثاثه، ووقع السعي لبناء مدرسة قرآنية لتعليم البنات، كما قام الفرع بتعليم الأميات والمسلمات التونسيات اللواتي تعلمن بالفرنسية ولا يتقن العربية وتم فتح قسمين لتعليم الصغيرات. [53]

لقد أثمر هذا الجهد الأولي لجمعية الشبان المسلمين إنشاء ما يعرف بمدرسة "البنت المسلمة" سنة 1947 بنهج السراجين. وقد امتد تعليم البنت المسلمة من تونس إلى ماطر. وكان التعليم يشتمل على القراءة والكتابة والعلوم والفنون بالعربية وحصة واحدة في اليوم باللغة الفرنسية كلغة أجنبية مع حصة في اليوم للصناعة اليدوية. [54]

وقد انبثق عن مدرسة السراجين توسعا في المشروع شمل الأطفال ببعث ما عرف "روضة البنت المسلمة" التي وجدت إقبالا شعبيا كبيرة حسب شهادة النيفر مما سمح ببعث فروع لها بكل من حمام الأنف وباب الخضراء. لقد حقق هذا المشروع جملة من النتائج المهمة منها:

- نشر التعريب بين التونسيات والتونسيين وبذلك أسقطت مشروع فرنسا العامل على فرنسة الأسرة التونسية وتغيير نمط عيشها. [55]

- اندماج هذه المدارس النسائية في المنظومة التعليمية الرسمية (الزيتونة، وزارة المعارف) وغذتها بالفتيات اللواتي يتقن العربية، وقد تأسس الفرع الزيتوني للبنت المسلمة سنة 1949 وتغذي من مؤسسة محمد الصالح النيفر[56].

- زوّدت مؤسسة النيفر البنت المسلمة المؤسسات والإدارات الحكومية برصيد مهم من النساء اللواتي يتقن العربية خاصة وأنّ سياسة الحكومة قبل الاستقلال ارتكزت على مبدأ التعريب.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كما وجدت هذه المدرسة مساندة من المحافظين في الزيتونة ورأوا فيها استجابة لمطلبهم في تعليم البنت دون مسخ هويتها، كما لاقت التجربة رواجا في الشرق حيث يذكر النيفر في مذكراته زيارة شرقيين للجمعية وتبرعهم لتعليم البنت المسلمة[58].

إلا أنّ هذه التجربة برمتها انتهت إلى الغلق والمنع كما حصل مع التعليم الزيتوني برمته. ويذكر الشيخ محمد الصالح النيفر أنّ الأستاذ سعيد الأفغاني تنبّأ بزوال مدرسة تعليم البنت المسلمة لأنه كان يرى أنّ جماعة الحكومة في تونس الاستقلال "وراءهم الكنيسة، والكنيسة لا تسمح بمدرسة مثل هذه " [59].

إنّ هذا الاستشراف ربما كان صائبا إذ أنّ مشروع التعليم في تونس مع دولة الاستقلال بني على مشروع دوبياس وهو المشروع الفرنسي الذي كان يدعو للإبقاء على ازدواجية لغة التعليم وتكريس أفضلية اللغة الفرنسية في تدريس العلوم والتقنية وتقزيم دور الجامعة الزيتونية بجعلها مجرد كلية للشريعة ضمن جامعة تونسية تابعة بشكل أو بآخر لجامعة باريس. [60]

لقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

- لقد تبينا أنّ فكرة تحرير المرأة قديمة ولها جذور ترتبط بالمدرسة الإصلاحية التونسية والعربية عامة وهي تندرج ضمن ملف تجديد الفكر الديني في بعده الاجتماعي. ولعل تحرير المرأة يعدّ أحد الأبعاد الاجتماعية لتجديد الفكر الديني وذلك منذ رفاعة رافع الطهطاوي.
- إنّ الحراك الفكري الذي عبرت عنه النقاشات والكتابات الجريئة في تونس منذ مطلع القرن 20 أثمر نواتات لعمل ميداني شمل مسألة تحقيق إخراج المرأة من خدرها وفتح آفاق التعليم أمامها.
- إنّ الحيوية الفكرية وما رافقها من تجارب ميدانية في أربعينات القرن العشرين وحتى قبل ذلك استفادت من ظرفية تاريخية نشطة تميزت بإبداعات فكرية وأدبية تونسية قياسية في ظل الاستعمار في قطع هذا العقل عن جذوره الإسلامية العربية وذلك على الرغم من البوادر الطولى لنشأة التيار العلماني الذي يقوده بورقيبة والحزب الدستوري الجديد.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- إنّ هذا الحراك هو الذي شكل أرضية خصبة وثرية أولا لتحرير مجلة الأحوال الشخصية من قبل ثلة من فقهاء الزيتونة وعلمائها وثانيا نجاح بورقيبة في تمرير هذه المجلة وعدم مجابهته لأية مواجهة مجتمعية بل أصبحت مسألة تحرير المرأة في تونس تنسب له.

الهوامش:

(1) صدرت مجلة الأحوال الشخصية يوم 13 أوت 1956 وأصبح هذا اليوم عيدا وطنيا للمرأة التونسية.

(2) الجندلي (حامد)، قانون الأحوال الشخصية التونسي وعلاقته بالشريعة الإسلامية، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس 2011.

(3) ضيف الله (محمد)، أواخر الزّيتونيين وجوه وأدوار وعلاقات، مكتبة تونس، ط 1، تونس 2016.

انظر أيضا: الزّيدي (علي)، دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفارابي للدراسات والبدائل، صفاقس 2014، ص 95.

(4) الثعالبي (عبد العزين)، روح التحرر في القرآن.

(5) اتسمت هذه المرحلة (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) بازدهار الصحافة العربية مشرقا ومغربا.

راجع: الزيدي (علي)، دراسة في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفارابي للدراسات والبدائل، صفاقس 2014.

(6) النّيفر (احميدة)، الخطاب الديني في الصحافة التونسية، مركز النشر الجامعي، تونس 2007، ص 53. / انظر أيضا: الزيدي (علي)، دراسة في تاريخ التعليم،م. س، ص 23: وقد ذكر أنّ مجلّة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا قد انتشرت انتشارا واسعا بالقطر التونسي وكانت تدعو بتوجيه من الشيخ محمد عبده إلى تأييد حركة الإصلاح التعليمي وتقرنها بحركة الإصلاح الديني. / راجع أيضا ابن عاشور (محمد ةالفاضل)، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1972، ص 65.

(7) النيفر (احميدة)، الخطاب الديني، م. س، صص 53 – 54.

(8) الثعالبي (عبد العزين)، مقال صدر له بجريدة تونس التي يشرف على إدارتها زين العابدين السنوسي يوم 29 مارس 1938 ذكره احميدة النيفر في كتابه: الخطاب الديني، م. س، ص 118 .

(9) النيفر (احميدة)، الخطاب الديني، م. س، ص 118 يقول الثعالبي في رسالة منسوبة إليه نشرت في مجلة المنار: "لنا علماء لكنهم جاهلون متكبرون متغابون حديثهم حديث بطونهم ومباحثهم خاصة بعجائب التكايا وكرامات القبور."...

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(10) النيفر، م. ن، ص 125.

(11) النيفر، م. ن، ص 154.

(12) الثعالبي، روح التحرّر في القرآن، تعريب حمادي الساحلي، مراجعة محمد المختار السّلاّمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.

(13) العياشي (المختار)، البيئة الزيتونية 1910 – 1945، تعريب حمادي الساحلي، دار التركي للنشر، تونس 1990.

(14) الثعالبي، روح التحرر في القرآن، م. س، ص 29.

(15) الطهطاوي، المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين.

(16) أمين (قاسم)، تحرير المرأة/ المرأة الجديدة.

(17) الحاضرة جريدة أسبوعية سياسية أدبية تصدر كل يوم ثلاثاء ظهر عددها الأول في 24 ذي القعدة 1305 ه/ 2 أوت 1888م، النيفر، م. س، ص 69.

(18) النيفر، الخطاب الديني، م. س، 101، مقال بعنوان "تعليم البنات" بتاريخ 01 ماي 1900.

(19) الحاضرة، مقال "نظرة في تعليم المرأة" بتاريخ 12 مارس 1904.

(20) النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 102.

(21) م.ن، ص 103.

(22) مقال صدر بالحاضرة بتاريخ 09 أكتوبر 1889 بعنوان "النساء والكتابة."

(23) النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 104.

(24) الحاضرة 12 مارس 1901: جاء في مقال عنوانه "نظرية في تعليم المرأة: "التعليم تعليمتن إسلامي وإفرنجي فلا يسوغ للبنات التوغل في العلوم والفنون المستطرفة ‘لى درجة تحاكي الرجال."

(25) الحاضرة 12 جوان 1904 في مقال "السم في الدسم" استشهدت الجريدة بالأميرة نازلي فاضل التي كان قصرها في المرسى قبلة لرجال الإصلاح مشرقا ومغربا منهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وعبد الجليل الزاوش والشيخ محمد عبده. ذكر ذلك احميدة النيفر في كتابه الخطاب الديني، م. س، ص 104.

(26) المشير، نشرة إسلامية إصلاحية أسبوعية مديرها الطيب بن عيسى، صدر أول عدد منها بتاريخ 01 جانفي 1911.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(27) ترى جريدة المشير (17 سبتمبر 1911) "أنّ موروث عصور الانحطاط ساهم في تركيز معتقدات وحقائق غير قابلة للنقاش في حين أنها مجرد أوهام... حتى ساد الاعتقاد أنّ انحطاط المرأة سنة من سنن الله. إنها قضية خاطئة لأنّ تربية البنات وتعليمهن فرض محتوم مثل الذكور بلا فرق ولا ميز" ، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 287.

(28) مقال ورد بجريدة المشير للطبيب عيسى تحت عنوان: النفائس الشعرية بتاريخ 27 جانفي 1911، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 289.

(29) مجلة خير الدين مديرها محمد الجعايبي صدر أول عدد منها بتاريخ 27 مارس 1906، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 205.

(30) مجلة خير الدين 24 جوان 1906، مقال للجعايبي، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 233.

(31)احميدة النيفر : م. ن، ص 234.

(32) م. ن، ص 235.

(33) مجلة أسبوعية أدبية أخلاقية تصدر في منتصف كلّ شهر، وقد صدر العدد الأول يوم 14 جوان 1908 ومديرها محمد الصادق بن إبراهيم.

(34) جريدة يومية سياسية أدبية تجارية مديرها البشير الفورتي صدر أول عدد منها بتاريخ 30 جويلية 1907.

(35)احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 377.

(36) الزيدي (علي)، دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، م. س، ص 23.

(37) م. ن، ص 25/ انظر أيضا العياشي (مختار)، البيئة الزيتونية 1910 – 1945، دار الفكر للنشر، تونس 1990، ص 24 ..

(38)علي الزيدي، م. ن، ص 23/ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية، م. س، ص 73.

(39) حول كتاب الطاهر الحداد "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" والسجال الذي فجّره بين النخبة التونسية الزيتونية والمدرسة المحافظة والمجددة راجع كتاب: خالد (أحمد)، أضواء من البيئة التونسية : الطاهر الحداد ونضال جيل، الدار التونسية للنشر 1985.

(40)جريدة الصواب، 7 ماي 1920 مقال بعنوان: "المرأة واللغة والدين" بقلم: محمد الجعايبي.

(41) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية، م. س، ص 93.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(42) م. ن، ص 245. / انظر أيضا: عبد الوهاب (حسن حسني)، شهيرات تونسيات، مكتبة المنار، تونس 1986، ص 151.

(43) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية، م. س، ص 246، يذكر أنّ الأديب سعيد بوبكر كتب في جريدة لسان الشعب 1928 مقالا عنوانه "حول تعليم البنات" أشار فيه إلى ضرورة درء الخطر الذي يهدد الذاتية التونسية في عهد الاستعمار، واقترح فتح مدارس وطنية حرة وجلب معلمات مصريات أو سوريات.

(44) م. ن، ص 272. حيث عقد المؤلف فصلا تحت عنوان: شعراء مصلحون في معركة السفور وتعليم المرأة وترقيتها. كما يذكر المؤلف ص 249 أنّ الشيخ سالم بن حميدة الذي طبق دعوة تحرير المرأة في بناته وكتب في رسالة إلى أحد أصدقائه "إنّ التعليم الواجب إعطاؤه للمرأة التونسية المسلمة هو الذي يؤهلها لأن تكون معلمة ومشرعة ناخبة ومنتخبة سياسية داعية للسلم والصلح كأم المؤمنين عائشة."...

(45) م. ن، ص 253.

(46) م. ن، صص 253 – 260 حيث يذكر في هذا الإطار اسم منوبية الورتاني التي خاطبت جمهور الرجال سافرة سنة 1924 والسيدة حبيبة المشري التي اعتلت سافرة منبر جمعية الترقي يوم 09 جانفي 1929.

(47) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية،م. س، ص 267.

(48) م. ن، ص 206.

(49) التيمومي (الهادي)، تاريخ تونس الاجتماعي 1881 – 1956، دار محمد علي الحامي، صفاقس 1997.

(50) من رواد الصحوة الإسلامية في تونس والجزائرالشيخ محمد الصالح النيفر 1902 – 1993 مسيرة نضال، د. د. ن، 2007: الكتاب عبارة عن مجموعة وثائق ومذكرات تركها الشيخ محمد الصالح النيفر جمعتها ابنته أرو النيفر بمعية الأستاذ الباحث عبد الرحمان الهذلي.

(51) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية، م. س، ص 273.

(52) م. ن، ص 274/ انظر أيضا محمد صالح النيفر مسيرة نضال، صص 148 – 149 حيث يذكر النيفر: "سمينا هذا الفرع الجديد السيدات المسلمات وأهم ما اعتنى به ذلك الفرع التعليم العربي وشكلت الهيئة المديرة له فترأستها زوجة رئيس الجمعية."

(53) محمد صالح النيفر، م. س، ص 150.

(54) م. ن، ص 154.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(55) م. ن، ص 232.

(56) م. ن، ص 154.

(57) علي الزيدي،دراسات في تاريخ العليم، م. س.

(58) محمد الصالح النيفر، م. س، صص 156 – 157.

(59) م. ن

(60) علي الزيدي، دراسات في تاريخ التعليم، م. س، ص 117./ حول مشروع دوبياس انظر مقالا في نفس الكتاب بعنوان "دوبياس ولغة تدريس العلوم بتونس" صص 121 – 134.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزيتونة: دورها في حركة التحرير الوطنيّة التونسيّة

أ.د. الزيدي علي
جامعة صفاقس (تونس)

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

قام النشاط الصحفي التونسي منذ تأسيس جريدة "الرائد التونسي" سنة 1860 بالأساس على الزيتونيّين. وأسّس هؤلاء، منذ 1907، ما يصعب إحصاؤه من الجمعيّات. لكنّ السلطات الاستعماريّة ظلّت ترمق بعين الريبة المفرطة أيّ مسعى تنظيمي زيتوني مهما كان نوعه لفترة طويلة من الزمن. فنشط الزيتونيّون بمختلف طبقاتهم في كلّ الجمعيّات التي ظهرت على الساحة التونسيّة، وتسلّم عدد منهم أعلى المسؤوليّات في بعضها.

وقد كان لالتقاء الزيتونيّين مع حركة الشباب التونسي، ووجود الشيخ الثعالبي إلى جانب علي باش حانبة على رأس الحركة، أثر في توجيهها وإعطائها البعد الشعبي الذي كانت تفتقر إليه. كما انفرد الزيتونيّون بالنشاط السياسي مدّة الحرب العالميّة الأولى، انسجاما مع نشاط الشيخ صالح الشريف ورفاقه في تركيا وأوربا، ثمّ مع نشاط الشيخ الثعالبي في باريس. وصولا إلى تأسيس الحزب الحرّ الدستوري التونسي عام 1920 الذي كان مشروعا زيتونيّا بالأساس. وخاضوا التجربة النقابيّة منذ بدايتها في بداية القرن 20، وصولا إلى الاتحاد العام التونسي للشغل، الذي تمّ تأسيسه سنة 1946. كما اندفعوا بقوّة في تأييد شباب جريدة L'action tunisienne، والنشاط في صفوف الحزب الدستوري الجديد وغيره من الأحزاب والتنظيمات السياسيّة وصولا إلى اتفاقيّات 1955 والمشاركة النشيطة في الصراع البورقيبي اليوسفي.

الكلمات الدالة:

زيتونة، صحافة، جمعيّة، حزب، نقابة.

العنوان بالإنجليزية:

Zaytouna: Her role in the Tunisian National Liberation Movement

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

.Abstract:

Since the founding of Al-Raed al-Tonousi in 1860, the Tunisian press activity has mainly focused on the Zaytona. Since 1907, they have established what is difficult to enumerate. But the colonial authorities continued to speculate with suspicion of any kind of regulatory effort of any kind for a long period of time. The Zaytounists were active in all their strata in all the associations that appeared on the Tunisian scene, and some of them received the highest responsibilities in some of them.

The meeting of the Zaytona with the Tunisian youth movement, and the presence of Sheikh Taalibi and Ali Bash Hanabeh at the head of the movement, had an impact on the direction and give it the popular dimension that it lacked. The Zeitounists were also active in the political activity during the First World War, in line with the activities of Sheikh Saleh Al-Sharif and his comrades in Turkey and Europe, and with the activity of Sheikh Thaalabi in Paris. Until the founding of the Tunisian Free Constitutional Party in 1920, which was originally a Zaytania project. They have been active since the beginning of the 20th century, leading up to the Tunisian General Union of Labor, which was established in 1946. They also strongly supported the youth of The Tunisian action,the activity of the new Constitutional Party and other parties and political organizations up to the 1955 Conventions And active participation in the porcupine conflict.

Key words:

Al Zaytouna, Press, Association, Party, Syndicate.

مثّلت فترة النصف الأوّل من القرن 20 الميلادي مرحلة مهمّة من مراحل تشكّل حركة التحرير الوطنيّة التونسيّة ونموّها. فحقّقت تلك الحركة خلال المرحلة المعنيّة نجاحات، كما شهدت إخفاقات وانتكاسات. ونحن إذا قمنا بتتبّع مختلف التقلبات التي مرّت بها حركة التحرير تلك، ورصد للعناصر الزيتونيّة الفاعلة على الساحة الوطنيّة التونسيّة، يمكننا القول إنّ هذه العناصر كانت حاضرة باستمرار في خضمّ الأحداث، في مجالات الصحافة والسياسة، وفي النشاطات النقابيّةوالجمعيّاتيّة والحزبيّة، سواء كانت حركة التحرير في حال مدّ أو جزر.فإذا علمنا أنّ الزيتونيّين كانوا دائما يشكّلون أغلبيّة المتعلّمين والمثقّفين بالبلاد التونسيّة، وظلّوا كذلك حتّى سبعينات القرن 20، فمن الجدير بنا أن نتساءل عمّا إذا يستقيم الحديث عن حركة تحرير وطنيّة تونسيّة إذا حاولنا تجاوز هؤلاء الزيتونيّينأو إقصاءهم بأيّ حال. خاصّة إذا اطلعنا على الحقيقة الآتية التي اعترف بها رئيس تونس الأسبق الحبيب بورقيبة نفسه في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حفل اختتام السنة المدرسيّة 57ـ1958 الذي انتظم بالمدرسة الصادقيّة، وهو يعلن قراره بتوحيد التعليم التونسي وإلغاء التعليم الزيتوني، رغم ما حقّقه هذا التعليم من تطوّر، بفعل ما أدخلت عليه من إصلاحات توّجت بإحداث الشعبة العصريّة: "... إنّي لا أنكر ما للتعليم الزيتوني من الفضل في مقاومة الاستعمار والصمود أمام تيّار الفرنسة هنا وفي الجزائر رغم أساليبه العتيقة مثلما كان الديوان الشرعي الذي كنّا نتشبّث به فرارا من المحاكم الفرنسيّة".[1]

1ـ الزيتونيّون في مجال الصحافة

برز الزيتونيّون أوّل ما برزوا في مجال الصحافة، وكانوا روّادا بحقّ في هذا المجال. فقام النشاط الصحفي التونسي منذ عام 1904، بل منذ تأسيس جريدة "الرائد التونسي" عام 1860، بالأساس على كواهل الزيتونيّين، وبرز من بين صفوفهم كبار الصحفيّين التونسيّين من أمثال محمّد السنوسي، وابنه زين العابدين، وعبدالرحمن الصنادلي، ومَحمّد الجعايبي (الملقّب بعميد الصحافة التونسيّة)، والطيّب بن عيسى، وحسين الجزيري، وغيرهم كثير.[2]

كما نسب أشهر ما راج من صحف سريّة في ظلّ الرقابة خلال الفترة التي تلت حوادث أفريل (نيسان) 1938 واستمرّت إلى ما بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية، من قبيل "الهلال"، و"الهلال الأسود"، إلى طلبة زيتونيّين بالأساس من أمثال مَحمّد المرزوقي، ومحمّد بسباس، ونصر المرزوقي، وعبدالسلام الفارسي، وعبدالقادر الفقيه وغيرهم. بحيث يمكن القول إنّ الصحافة التونسيّة كانت تقوم بالأساس على الزيتونيّين، فهم أهمّ من كان يصدرها ويحرّرها، وأغلب من كان يقرأها. وبدونهم لم تكن تلك الصحافة شيئا يذكر.

وقد أسّس الزيتونيّون منذ إنشائهم "جمعيّة تلامذة جامع الزيتونة" أو "الجمعيّة الزيتونية" عام 1907 ما يصعب إحصاؤه من الجمعيّات، وقدّموا إلى الحكومة المطالب تلو المطالب من أجل الحصول على رخص العمل العلني لهذه الجمعيّات. لكنّ السلطات الاستعماريّة ظلت متمسّكة بسياسة وحيدة، تتمثّل في العمل بمختلف السبل لعرقلة قيام جمعيّات زيتونيّة. وذلك بإهمال الجواب على طلبات الترخيص مددا تصل إلى أربع سنوات أحيانا، قصد تثبيط همم كلّ من تسوّل لهم أنفسهم السعي لتأسيس جمعيّة من أيّ نوع كانت. ثمّ بفرض الرقابة الأمنيّة عليهم، لترهيبهم والضغط عليهم بشتّى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الوسائل، من أجل إرهاقهم وتشتيت شملهم، قبل رفض الترخيص لجمعيّاتهم في النهاية. ولم تهدأ تلك الحرب التي أعلنتها السلطات الاستعماريّة على العمل الجمعيّاتي الزيتوني إلّا لفترة وجيزة خلال ثلاثينات القرن العشرين، دون أن تضع الحرب أوزارها. وظلّت تلك السلطات ترمق بعين الريبة المفرطة أيّ مسعى تنظيمي زيتوني مهما كان نوعه. ولعلّ حالة الفزع التي أثارها تأسيس "جمعيّة المدرّسين الزيتونيّين" أو "هيئة علماء الجامع الأعظم" عامي 1932 و1937 من أحسن الأمثلة على ذلك.

كان من نتائج تلك السياسة حرمان الزيتونيّين، لفترة طويلة من الزمن، من التنظّم في جمعيّات خاصّة بهم معترف بها. لكنّ غياب مثل هذه الجمعيّات لم يمنع الزيتونيين من النشاط، فشاركوا بمختلف طبقاتهم في كلّ الجمعيّات التي ظهرت على الساحة التونسيّة، سواء كانت ثقافيّة، أو اجتماعيّة، أو سياسيّة، أو نقابيّة. وبرزت عناصر زيتونيّة بنشاطات مهمّة ومتنوّعة في صلب تلك الجمعيّات، وتسنّم عدد منهم أعلى المسؤوليّات في بعضها، فترأّس كلّ من عبدالرحمن الكعّاك والشيخ محمّد الفاضل بن عاشور أقدم جمعيّة تونسيّة ونعني بها جمعيّة الخلدونيّة.

2ـ الزيتونيّون في مجال العمل السياسي

قاسم الشيخ عبدالعزيز الثعالبي علي باش حانبة قيادته لحركة الشباب التونسي، فأثّر وجوده ومن معه من الزيتونيّين في توجيه الحركة باتّجاه فكرة الجامعة الإسلاميّة. وهو اتجاه ظهر جليّا في الدور الذي لعبته تلك الحركة إبّان الحرب الطرابلسيّة عام 1911، وازداد وضوحا مع نشاط "اللجنة الجزائريّة التونسيّة لتحرير المغرب الإسلامي" التي تزعّمها الشيخان صالح الشريف وإسماعيل الصفائحي عام 1916، وتبنّي محمّد باش حانبة نفسه هذه الفكرة في آخر مراحل حياته. وقد أعطى وجود الزيتونيّين في صلب حركة الشباب التونسي لتلك الحركة البعد الشعبي الذي كانت تفتقر إليه، وهيّأها لكسب ثقة الجماهير الشعبيّة إبّان حركة مقاطعة الترام عام 1912.[3]

كاد الزيتونيّون ينفردون بالنشاط السياسي دون غيرهم مدّة الحرب العالميّة الأولى، في وقت خلد غيرهم من عناصر حركة الشباب التونسي إلى السكينة، وقدّم بعضهم فروض الولاء والتأييد لفرنسا المحاربة. فبقي جامع الزيتونة ينبض بنشاط سياسي معاد لفرنسا وحلفائها، ومجالا لصدى نشاط الشيخ صالح الشريف ورفاقه في تركيا وأوربا. الأمر الذي جعل مصالح الأمن والاستخبارات الاستعماريّة تركّز

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

اهتمامها على وسط مدينة تونس، وخصوصا على الوسط الزيتوني. فقامت بعدّة اعتقالات في الزيتونيّين، كان من أشهرها عمليّتي اعتقال حسين الجزيري وأحمد توفيق المدني. كما قامت برصد نشاطات قدماء الطلبة الزيتونيّين، من أمثال الشيخ الثعالبي ومَحمّد الجعايبي، وأماكن اجتماعاتهم، تلك النشاطات التي كان لها أثر في التحضير لتحرّكات الوطنيّين التونسيّين غداة الحرب العالميّة.[4]

وقد كان للشيخ الثعالبي دور مركزي في تلك التحرّكات، سواء قبل سفره إلى باريس، أو أثناء وجوده بها. وكان مريدو الشيخ الثعالبي في تونس – ومعظمهم من الزيتونيّين– من أمثال محمّد الرياحي، وصالح بن يحيى، وعلي كاهية، يتابعون أخباره، ويردفون نضاله بنشاط في الأوساط الشعبيّة، لم يقتصر على العاصمة فحسب، بل شمل بعض مدن الداخل والأرياف.

ولّما تأسّس الحزب الحرّ الدستوري التونسي عام 1920 كان مشروعا زيتونيّا بالأساس، من حيث قيادته، وإطاراته، ومموّليه، ودعاته في تونس ومختلف جهات البلاد. وعندما وجّه الحزب وفوده، كان الشيخ محمّد الصادق النيفر رئيس وفده إلى محمّد الناصر باي، وكان الزيتونيّون كتبة العرائض التي حملتها تلك الوفود، والقائمين بجمع التوقيعات عليها، ولم يخل وفد من زيتوني. ولذلك نال الزيتونيّون القسط الأوفى من حملة القمع التي ردّت بها السلطات الاستعماريّة على باكورة نشاط الحزب عام 1920 في تونس وباريس.وكانت مشاركة الزيتونيّين بارزة في الأحداث التي عقبت انتشار خبر اعتزام الناصر باي التنازل عن العرش في شهر أفريل (نيسان) 1922. ولّما خرج الحزب الدستوري مهزوما من تلك المعركة، وشدّد عليه المقيم العام لوسيان سانLucien Saint قبضته ليجهز عليه، واضطرّ الشيخ الثعالبي لمغادرة البلاد في جويلية (تمّوز) 1923، لم يجد الحزب عناصر أكثر التزاما وأصلب عودا من الزيتونيّين أمثال أحمد توفيق المدني، ومحيي الدين القليبي، والمنصف المنستيري، والحبيب شلبي، والطاهر الحدّاد، وأحمد الدرعي، وصالح بن يحيى، وعليكاهية، الذين حافظوا على ما بقي من جذوة الحزب في ذلك الجوّ العاصف.[5]

كان هؤلاء الدستوريّون الزيتونيّون بالخصوص هم الذين أداروا المعركة ضدّ سياسة التجنيس عام 1923، اعتبارا لأنّ المسألة قد وضعت بالأساس في إطار ديني، ونظر إليها من منظور إسلامي، وذلك هو ميدان الزيتونيّين الذي لا يضارعهم فيه غيرهم. فنشطت صحافة الحزب وبقيّة الصحف التونسيّة في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

هذه المعركة بأقلام زيتونيّة في معظمها. وتوّجت هذه الحملة الصحفيّة بصدور فتوى محليّة للشيخ أحمد عيّاد، رفدتها فتوى مصريّة لكلّ من الشيخ محمّد شاكر والشيخ علي سرور الزنكلوني. ونجح الشيخ الثعالبي في إثارة اهتمام الأوساط الفكريّة والسياسيّة المصريّة خاصّة، والعربيّة والإسلاميّة عامّة، بالقضيّة التونسيّة، حتّى بلغ صدى مسألة التجنيس بتونس الهند، واشتغلت بها صحف المسلمين هناك. وكان من نتائج الحملة التي خاضها التونسيّون ضدّ قانون التجنيس أن فشل ذلك القانون، واستعاد الحزب الدستوري حركيّته وثقة التونسيّين فيه والتفافهم حوله، فرجع إليه شبابه.

كان الزيتونيّون أساس الحركة الشعبيّة إبّان الصحوة الوطنيّة بين 1925 و1933. خاضوا حملات الاحتجاج ضدّ نصب تمثال الكاردينال لافيجريLe Cardinal Charles Lavigerie في نوفمبر (تشرين الثاني) 1925، وانعقاد المؤتمر الإفخارستي في قرطاج في ماي (آيّار) 1930، والاحتفال بخمسينيّة الاحتلال. كما قاوموا فتوى التجنيس التي عملت السلطات الاستعماريّة على استصدارها من المجلس الشرعي عام 1933، من أجل نسخ الفتوى بحرمة دفن المتجنّسين التي أصدرها مفتي بنزرت الشيخ إدريس بن محفوظ الشريف في مطلع ذلك العام، وبنضالهم نجح الحزب الدستوري في القضاء على مشروع التجنيس نهائيّا. وإن لم يكن الزيتونيّون وحدهم في هذه المعارك، فإنّهم كانوا دائما في الطليعة، ويمثّلون باستمرار القوّة الضاربة والأكثريّة الساحقة في كلّ التحرّكات. ممّا كلّفهم دائما الكثير من التضحيّات وعرّضهم للاعتقال، والمثول أمام المحاكم المدنيّة والعسكريّة، والرفت من الدراسة، والطرد من مدارس السكنى، والإبعاد، والوضع تحت الإقامة الجبريّة.[6]

3ـ الزيتونيّون في مجال العمل النقابي

بدأت المسألة النقابيّة تطرح بجديّة على الساحة التونسيّة في عشرينات القرن 20، وقد سبق للزيتونيّين أن خاضوا التجربة النقابيّة في قطاعات مهنيّة مختلفة كان جلّ العاملين بها من خرّيجي جامع الزيتونة، رغم أنّ التونسيّين لم يحصلوا على حقّ ممارسة العمل النقابي إلّا بموجب أمر 16 نوفمبر (تشرين الثاني) 1932. وذلك من خلال جمعيّات مهنيّة من قبيل "الجمعيّة التونسيّة للوكلاء" التي تأسّست سنة 1907، و"وداديّة معلّمي اللغة العربيّة" التي تأسّست عام 1919، و"جمعيّة الرابطة القلميّة" التي كانت تمثّل أصحاب الصحف والكتّاب التونسيّين. كما لم يتغيّب الزيتونيّون عن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

نضال العمّال والحرفيّين والتجّار التونسيّين ضدّ حيف الإدارة الاستعماريّة واستغلال الرأسمال الأجنبي. فمن ذلك دخول التاجر الزيتوني، وصاحب مجلّة "البدر"، محمّد العربي المشيرقي طرفا في المشادّة التي وقعت بين تجّار سوق البلاغجيّة وموظّفين لمراقبة البراءات (الباتيندة) تابعين لإدارة الماليّة بتونس يوم 16 فيفري (شباط) 1922. الأمر الذي أدّى إلى اتّهام المشيرقي بالبلشفيّة، واقتياده إلى المحافظة، وحدوث توتّر شديد بالسوق وتظاهر تجّار السوق أمام مشيخة مدينة تونس. ومن ذلك أيضا مشاركة أحمد الدرعي في إدارة الاجتماع الذي انعقد في قاعة سينما ابن كاملة عام 1924، بدعوة من محمّد علي من أجل تكوين شركة تعاونيّة للعمّال ذات أسهم، ودخول أحمد الدرعي والطاهر الحدّاد في الهيئة الوقتيّة للشركة المذكورة. ومشاركة أحمد توفيق المدني في إضراب عملة رصيف تونس لتشجيع المضربين ومدّهم بالإسعافات. واعتقال أحمد الدرعي في إضراب عمّال معمل الآجر بمنزل جميل يوم 11 سبتمبر (أيلول) 1924.

وكان هؤلاء الزيتونيّون الدستوريّون في مقدّمة من احتضنوا محمّد علي منذ البداية، وسارعوا بتحويل وجهته من إنشاء مجرّد شركات تعاونيّة للعمّال إلى تأسيس نقابات وطنيّة. وكان هدفهم اغتنام الفرصة لتقوية الحزب الحرّ الدستوري وإدخال حركيّة جديدة في دمه، عن طريق إسناده بالقوّة العمّاليّة على أثر الإضرابات العمّاليّة التي حدثت في شهر أوت (آب) 1924. وتمّ انتخاب الحدّاد – إلى جانب الزيتوني الشيخ العربي القروي – عضوا في اللجنة التنفيذيّة الوقتيّة لجامعة عموم العملة التونسيّة خلال الاجتماع الذي انعقد يوم 3 سبتمبر (أيلول) 1924 ضمن الأعضاء المكلفين بالدعاية. ورغم الاختلاف في وجهات النظر والمواقف بين أعضاء اللجنة التنفيذيّة للحزب الدستوري بشأن الحركة النقابيّة التونسيّة، فقد انضمّ إليها العديد من الدستوريّين بصفتهم الشخصيّة، وقام أعضاء قياديّون من الدستوريّين بمهمّات على جانب من الأهميّة في صلبها، من أبرزهم الزيتونيّين المدني والدرعي والحدّاد. وسعى هؤلاء القادة الدستوريّون ـ مثل الشيوعيّين تماما ـ من أجل استغلال سياسي للحركة العمّاليّة التونسيّة الناشئة، قصد إقحام العمّال في حركة مقاومة السياسة الاستعماريّة. ومع ذلك فإنّ العلاقة التي نشأت بين الحزب الدستوري والحركة النقابيّة لم تصل إلى حدّ سعي ذلك الحزب لفرض هيمنته على

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

جامعة عموم العملة التونسيّة على نحو ما سيفعل الحزب الدستوري الجديد مع كلّ من جامعة عموم العملة التونسيّة الثانية في ثلاثينات القرن 20 والاتحاد العام التونسي للشغل في الأربعينات وما بعدها.[7]

وبعد جامعة عموم العملة التونسيّة قرّر المدرّسون الزيتونيّون ابتداء من آخر ديسمبر (كانون الأوّل) 1932، تكوين نقابة للدفاع عن مصالحهم ووجهات نظرهم، أسموها "جمعيّة العلماء". لكنّ ردّ فعل السلطات الاستعماريّة على تأسيس هذه الجمعيّة الأستاذيّة الزيتونيّة ذات الطابع النقابي جاء سريعا وحازما.حيث وجّه الوزير الأكبر الهادي الأخوة إلى شيخ الإسلام المالكي وشيخ الجامع الأعظم محمّد الطاهر ابن عاشور رسالة في 4 مارس (آذار) 1933 يطلب منه استجواب الهيئة المؤسّسة للجمعيّة عن الغرض من تأسيسها، ولماذا لم يعلم مؤسّسوها شيخ الجامع قبل البتّ في جمعيّتهم، ويبلغهم أنّ هذه الجمعيّة وأمثالها لا يمكن تشكيلها بوجه نهائيّ قبل استصدار إذن خاصّ فيها من الدولة، حيث لم تكن من النوع الذي تنطبق عليها أحكام الأمر العليّ المؤرّخ في 16 نوفمبر (تشرين الثاني) 1932. وكان للشيخ ابن عاشور موقف مشين جدّا إزاء الجمعيّة ومؤسّسيها، حيث أجاد في أداء دور العصا الغليظة التي سلّطتها السلطة على زملائه المدرّسين، فانحلت نقابتهم.

وقد أعاد المدرّسون الزيتونيّون تأسيس جمعيّتهم باسم "جمعيّة المدرّسين الزيتونيّين" في أوّل نوفمبر (تشرين الثاني) 1937، على أثر صدور القانون الذي يسمح بتأسيس جمعيّات ونقابات دون ترخيص مسبق وبمجرّد إعلام الحكومة في عهد حكومة الجبهة الشعبيّة. لكنّ السلطات الاستعماريّة بتونس لم تكن مستعدّة أبدا للقبول بوجود "جمعيّة علماء تونسيّين" على غرار "جمعيّة علماء المسلمين بالجزائر". ووقف الشيخ المدير صالح المالقي موقفا مناوئا للجمعيّة لا يختلف عن موقف سلفه الشيخ ابن عاشور من قبله. وتلقّى نائب الكاتب عام الجمعيّة الشيخ محمّد الصالح النيفر استدعاء لمقابلة الكاتب العام للحكومة، فقابل نائب مدير الداخليّة قودياني Godiani، الذي أبلغه أنّ الباي لا يسمح بوجود نقابة في جامع الزيتونة على نحو ما قيل عام 1933. لكنّ الجمعيّة بقيت – رغم ذلك – قائمة، لأنّ الظرفيّة الوطنيّة والعالميّة في أواخر ثلاثينات القرن العشرين لم تعد تسمح للسلطات الاستعماريّة الفرنسيّة بوأد الحركات الشعبيّة بالسهولة المعهودة قبل ذلك.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وفي الأربعينات بدأت معركة على الصعيد النقابي، تمثّلت في ظهور النقابات التونسيّة المستقلّة في جنوب البلاد أوّلا ثمّ بوسطها وشمالها بعد ذلك، فيما يشبه حركة تدريجيّة لإحياء جامعة عموم العملة التونسيّة. وقد لعب الزيتونيّون عموما أدوار متميّزة في صلب هذه الحركة النقابيّة بمختلف جهات البلاد، لأنّ جميع معلّمي اللغة العربيّة في المدارس الحكوميّة والخاصّة، والأكثريّة الغالبة من موظفيّ المحاكم الأهليّة، ونسبة معتبرة من موظّفي المصالح الإداريّة كانوا من الزيتونيّين. وكاد ينحصر المثقفّون بالمدن الصغيرة والقرى فيهم. وشارك هؤلاء الزيتونيّون بتأسيس نقاباتهم، فكانت قوام جامعة الموظّفين التونسيّين التي شكّلت – مع النقابات المستقلّة للجنوب واتحاد النقابات المستقلة للشمال – الاتحاد العام التونسي للشغل عام 1946. وكان للمشايخ الزيتونيين حضور ومشاركة متميّزين في أعمال المؤتمر التأسيسي لهذا الاتحاد يوم الأحد 20 جانفي (كانون الثاني) 1946، بحيث لم يكن من الصدفة أن نرى الشيخ محمّد الفاضل بن عاشور يتولّى الرئاسة الشرفيّة لهذه المنظّمة العمّاليّة بعدما قام بدور مهمّ للغاية في تأجيج الحماس الديني والوطني لدى العملة التونسيّين ودفعهم للانسحاب من النقابات الفرنسيّة والانضمام للاتحاد العام التونسي للشغل.[8]

4ـ الزيتونيّون في الحزب الدستوري الجديد

يبدو أنّ ما ألفه الزيتونيّون من اندفاع للعمل المباشر والنضال الميداني هو ما جعلهم – مع عوامل أخرى لا نستبعد منها عامل الانتماء الجهوي نظرا لوجود عدد كبير من طلبة الساحل في الجامع – يندفعون لتأييد شباب جريدة L'Action Tunisienne المنشقّين عن الحزب الدستوري عام 1934، فشارك عدد منهم في التحضير لمؤتمر 2 مارس (آذار)، الذي حضره العديد من الزيتونيّين.[9] ولعب الطلبة الزيتونيّون دورا متميّزا في التحرّكات السياسيّة لعام 1934 التي أدّت إلى اعتقالات شهر سبتمبر. وتعرّض العديد من الزيتونيّين للاضطهاد في فترة 1934–1938، ونزلت بكثير منهم عقوبات متنوّعة، بسبب انتمائهم للحزب الدستوري الجديد ونشاطاتهم في صفوفه ونشرهم لدعايته في مختلف أرجاء البلاد. وكانت مشاركة الزيتونيّين، والطلبة منهم خاصّة، في الاجتماعات التي عقدها الحزب الدستوري الجديد في مطلع شهر أفريل (نيسان) 1938، والمسيرات التي كانت تعقب تلك الاجتماعات، وفي مظاهرتي يومي 8 و9 أفريل (نيسان) متميزة.[10] وقد اضطلع الزيتونيّون بأدوار مهمّة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

في النضال السرّي لذلك الحزب خلال الفترة التي عقبت تلك الحوادث، واستمرّت إلى عام 1942 مع الدواوين السياسية المتعاقبة سواء في العاصمة أو خارجها. فكانت مدارس سكنى الطلبة مأوى للعديد من الاجتماعات السريّة التي تتمّ فيها صياغة المنشورات، وإصدار الجرائد السريّة، والتخطيط للمظاهرات وأعمال المقاومة أو "التخريب" على حدّ تعبير الديوان السياسي. وقد برز في هذا المجال عديد الزيتونيّين من أمثال محمود شرشور، ومحمّد بسباس، ويوسف ابن عاشور. وقدّم هؤلاء مع غيرهم للمحاكم، وتواصلت عمليّات رفت الطلبة من الجامع الأعظم، وإبعادهم إلى المنطقة العسكريّة بالجنوب التونسي، رغم قلة عدد الطلبة الذين كانوا يتابعون الدروس بسبب ظروف الحرب، وميل السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة للتصالح مع الشبان الزيتونيّين، قصد تهدئة الوضع. وكان العنصر الزيتوني حاضرا في انتفاضة المرازيق (1943-1944)، سواء في التمويل والتسليح أو بالمشاركة في العمليّات الميدانيّة.

وخلال الحرب العالميّة الثانية، وفي مرحلة الانتصارات الألمانيّة، لم يكن بورقيبة وحده من أدرك أنّ النصر النهائي سيكون للحلفاء. بل كان العديد من التونسيّين والعرب قد أدركوا هذه الحقيقة وتعاملوا مع الأحداث على هذا الأساس، ومن هؤلاء زيتونيّون أمثال الشيخ الثعالبي. وبالمقابل نجد من التونسيّين من راهن فعلا على المحور ولعب ورقته، أملا في أن ينتصر فتنتصر القضيّة التونسيّة بانتصاره، ومن هؤلاء زيتونيّون ومدرسيّون. وقد عرف التونسيّون في فترة الاحتلال المحوري، التي صادفت عهد المنصف باي، هامشا واسعا من الحريّة، ودخل عدد من المشايخ الزيتونيّين في ميدان العمل الوطني والسياسي. فلمّا انهزمت قوّات المحور أمام الحلفاء وانسحبت من تونس، صحبها عدد من التونسيّين الذين تعاملوا مع تلك القوّات أو أظهروا عداء سافرا لفرنسا، وكان بينهم زيتونيّون أيضا. كما صحبها أيضا بعض ممّن أطلق الألمان سراحه من السجون وخشي أن يقع في يد الفرنسيّينمن أمثال يوسف الرويسي والهادي السعيدي، وقد أسهم هؤلاء في خدمة القضيّة الوطنيّة في أوربا ثمّ في مكتبي المغرب العربي في القاهرة ودمشق.[11]

أمّا في تونس، فقد دفع هول الوضع الناجم عن تعطّش الفرنسيّين للانتقام والتشفّي، بعد استرجاعهم السيطرة عليها، إلى تقارب بين مختلف التيّارات السياسيّة في البلاد التونسيّة، أخذ شكل جبهة وطنيّة جمعتها المطالبة بإعادة المنصف باي إلى عرشه، وعرفت بالحركة المنصفيّة. وقد ضمّت هذه الجبهة فيمن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ضمّت مشايخ جامع الزيتونة. وبرزت مساهمة الزيتونيّين على سطح هذه الحركة السياسيّة من خلال احتداد نضالات الطلبة والمدرّسين الزيتونيّين على حدّ سواء، من أجل تحقيق مطالب اجتماعيّة وسياسيّة، ودخول العديد من المشايخ المدرّسين ميدان النضال السياسي. وقد تجلّى ذلك خاصّة في استقبال الطلبة الزيتونيّين للأميرين فيصل وخالد ابني عبدالعزيز آل سعود عند زيارتهما الجامع يوم 10 جانفي (كانون الثاني) 1944 بهتافات "يحيى الإسلام! تحيى الوحدة العربية! يحيى المنصف باي!"، ودخول المدرّسين الزيتونيّين في إضراب عام عن التدريس ابتداء من يوم 14 الشهر، من أجل الحصول على تنظيرهم بغيرهم من الموظّفين التابعين للتعليم الرسمي على نحو ما كانوا يطالبون به منذ عام 1936. وقد كان لهذين الحدثين الزيتونيّين مضاعفات معتبرة على المستوى الداخلي والخارجي، اضطرّت السلطات الاستعماريّة معها للاستجابة لأهمّ مطالب المدرّسين الزيتونيّين.[12]

إلّا أّن ذلك لم يمنع من اشتداد الغليان السياسي بالجامع الأعظم، واستفحال النشاط السرّي في الوسط الطالبي الزيتوني فيما بقي من عام 1944 وعام 1945،واندفاع عدد متزايد من المشايخ المدرّسين الدستوريّين الشبّان نحو العمل السياسي، سواء في إطار الحزب الدستوري الجديد أو خارجه. ممّا جعل السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة تقبل ـ بدعوة المشايخ المدرّسين في مؤتمرهم الأوّل الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور لتولّي مشيخة الجامع الأعظم في شهر فيفري (شباط) 1945 ـ أملا في أن يتمّكن الرجل بشخصيّته القويّة من لجم هذه المؤسّسة الجموح. وقد أهّل النضج الذي بلغته الحركة الأستاذيّة الزيتونيّة في سنتي 1943 و1944 المشايخ المدرّسين للعب دور فاعل ضمن النشاط السياسي الوطني، تجلّى في دخولهم طرفا في العمل الجبهوي الذي بدأ في تونس، باجتماع اللجنة السباعيّة في شهر أكتوبر (تشرين الأوّل) 1944، والتي توسّعت بدورها لتشكّل لجنة التسعة عشر التي دعت للمؤتمر الوطني، الذي انعقد مساء يوم 22 فيفري (شباط) 1945 وحصر مطالب الشعب التونسي آنئذ في مبدأ الاستقلال الداخلي، على أن يكون تونسيّا ديمقراطيّا يعيّن شكله من قبل هيئة منتخبة بالاستشارة الشعبّية.

ولّما شكّل الحزبان الدستوريّان لجنة الثمانية أو "لجنة التنسيق المزدوجة" بينهما في شهر أكتوبر (تشرين الأوّل) 1945، وظهر الخلاف بشأن الاستقلال الذاتي أو الاستقلال التامّ، كان لمبادرة مجموعة من مدرسي جامع الزيتونة بتحرير عرائض تتضمّن مطالبة الشعب التونسي بالاستقلال التامّ، أثّر على

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

دفع اللجنة الدستوريّة المذكورة نحو الاستقلال التامّ وصياغة النصّ النهائي لوثيقة الاستقلال، والتحضير لعقد مؤتمر الاستقلال ليلة القدر يوم 23 أوت (أب) 1946.[13]

إنّ المتتبّع للأحداث وما قام به الزيتونيّون في مختلف مراحل حركة التحرّر الوطنيّة التونسيّة، وفي مختلف مجالاتها، والمتأمّل في كلّ ذلك لا بدّ أن يلاحظ أنّنا نتحدّث عن الزيتونيّين كأفراد أو كمجموعات أو شرائح وقطاعات من قبيل الصحفيّين، والطلبة، والمشايخ المدرّسين، وربّما مدرّسي الطبقة كذا أو مدرّسي الآفاق إلخ...ويجدر التساؤل إذًا عمّا إذا لم يكن بين هؤلاء الزيتونيّين، الذين كانوا يشكّلون غالبيّة المتعلّمين والمثقّفين التونسيّين، رابط من شعور أو انتماء يجمعهم أو إيديولوجيا توحّدهم. بحيث يمكن أن نضعهم ضمن مجموعة في سلة واحدة تحت عنوان "زيتونيّين" فحسب، في مقابل مجموعة أخرى بعنوان "مدرسيّين" أو "صادقيّين" على وجه التخصيص؟ ثمّ التساؤل عمّا إذا كانت تلك المجموعة من الزيتونيّين لم تحاول تأسيس حزب أو أحزاب خاصّة بها، أو التشكّل في كتلة متميّزة أو لوبيات ضمن الأحزاب القائمة لتلعب لحسابها، وتفرض توجّهاتها وتضمن مصالحها؟

وهنا نقول إنّ ما لاحظناه أنّ الزيتونيّين لم يشعروا في أيّ وقت من الأوقات أنّهم "فئة" متميّزة عن بقيّة المجتمع التونسي. ولو أن نوع التعليم الذي كان يتلقّاه أولئك الزيتونيّون ـ والقائم بالأساس على العلوم الدينيّة الإسلاميّة واللغويّة العربيّة ـ كان يؤثّر كثيرا أو قليلا في تعميق الخلفيّة العربيّة الإسلاميّة الموجودة بالفعل في كلّ تونسي، بفعل نشأته في أسرة عربيّة مسلمة ضمن مجتمع عربيّ مسلم. وقد ظلّ المجتمع التونسي متمسّكا بعروبته وإسلامه منذ الفتح، متّجها بروحه إلى المشرق. وقد جعل هذا التعليم الزيتونيّين على العموم أكثر تحسّسا للمؤثّرات المشرقيّة التي كانت تهبّ على البلاد التونسيّة، ومنها حركتا الجامعة الإسلاميّة والقوميّة العربيّة، من غيرهم من خرّيجي المدارس الحكوميّة، الذين كانوا أكثر تحسّسا للمؤثّرات الغربيّة والفرنسيّة تحديدا، التي تحصل لهم بفعل مباشرتهم للمناهج التعليميّة الفرنسيّة ولاحتكاكهم بمدرّسيهم الفرنسيّين. ولم يصل ذلك "التمايز" بين الزيتونيّين والمدرسيّين ـ فيما نرى ـ إلى حدّ التناقض والقطيعة، ولو أنّ التنافر والتناوش والجفاء كان يحصل بين طرفي المتعلمين أو المثقّفين التونسيّين. بحيث كان التمازج بين الزيتونيّين والمدرسيّين ـ بمن فيهم الصادقيّين ـ هو الغالب سواء في الجمعيّات أو الأحزاب السياسيّة. بداية من الخلدونيّة، إلى حركة الشباب التونسي، إلى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الحزبين الدستوريين القديم والجديد، وحتّى أحزاب الإصلاحي والدستوري المستقلّ والشيوعي نفسها. حيث لم تمنع ثقافة الزيتونيّين هؤلاء من التفاعل مع كلّ التيّارات الفكريّة والانتماء إلى مختلف الحركات السياسيّة، ولا غرابة أن تتّسع حركات أو أحزاب التحرّر الوطني إلى اختلاف بهذا القدر وأكثر. بحيث لم يشعر الزيتونيّون أنّهم "فئة" مستهدفة لإسلامها أو عروبتها ليتمرسوا خلف أيّ من هاتين الخصوصيّتين. فالمجتمع في تونس عرب ومسلمون، ولا مبرّر للتمييز بين العروبة والإسلام، كما أنّ الكلّ يستند للمرجعيّة الدينيّة الإسلاميّة، فشعار الحز الدستوري الجديد نفسه(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).[14] ثمّ أنّ الزيتونيّين كانوا دائما يمثلون أغلبيّة في "مجتمع" المتعلمين والمثقّفين، وكذلك في كلّ الحرّكات بما فيها الحزب الدستوري الجديد، الذي كانت قيادته "الصادقيّة" في غالبيتها، لا تظهر للزيتونيّين غير الودّ، ولم يبرز خلال فترة دراستنا ما من شأنه أن يضع الدستوري الزيتوني في وجه الدستوري المدرسي. ولذلك كانت الانتماءات الجهويّة والولاءات القبليّة "العروشيّة" هي التي تحدّد العلاقات عادة بين الأطراف ضمن الحزب نفسه، أكثر من الانتماء للزيتونة أو للصادقيّة. وقد ظلّالزيتونيّون في الحزب الدستوري الجديد يمثّلون دائما القواعد والقيادات الدنيا، فلم يتجاوز منهم حدّ عضويّة المجلس الملّي إلى الديوان السياسي إلّا القليل.

ولم نجد ما من شأنه أن يفيد بأنّ الزيتونيّين الذين بلغوا مراتب متميّزة في قيادة الحزب الدستوري الجديد كانوا يعملون على تشكيل "لوبي" زيتوني داخل الحزب. ثمّ أنّ السياسة التي سلكتها فرنسا ـ وهي الدولة ذات التقاليد الديمقراطيّة ـ في مجال الحريّات بتونس لم تساعد عادة على انتشار تقاليد التنظّم في المجتمع التونسي عامّة وبين الزيتونيّين على وجه الخصوص.

وعندما نما رصيد المشايخ المدرّسين الزيتونيّين في الشارع التونسي إبّان فترة الحرب العالميّة الثانية، عقب انتصارهم في الإضراب الذي خاضوه عام 1943، وإثر تدخّلهم لجرّ المفاوضات المتعثّرة بين الحزبين الدستوريين عام 1945 باتجاه تبني مطلب الاستقلال التام، ثمّ بروزهم في مؤتمر ليلة القدر، بدا ميل بعض الزيتونيّين للبروز كقوّة مستقلة على الساحة التونسيّة واضحا. وقد كان مثال "جمعيّة علماء المسلمين بالجزائر" يستثيرهم. لكنّ قادة الحزب الجديد أدركوا جيّدا ذلك الميل، فعملوا من أجل استيعاب هذا "الخطر" بضمّ الشيخين محمّد الفاضل بن عاشور والشاذلي بن القاضي إلى الديوان

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

السياسي بعد مؤتمر ليلة القدر المذكور. إلّا أّن الشيخ الفاضل لم يستطب المقام ويركن إلى الهدوء، وما فتئ "خطره" يتعاظم ضمن الديوان السياسي نفسه بعد الدور الذي لعبه في تأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل، الأمر الذي قضى بالمواجهة. وقد حدثت تلك المواجهة بين الطرفين خارج الإطار الزمني الذي حّددناه لبحثنا. فوجب إذًا أن نتجاوز هذا الحدّ، لنرى بداية الصراع سنة 1947 على زعامة ما تمّ إنجازه بالتعاون بين الزيتونيّين والمدرسيّين، سواء كان بالنسبة للحزب الدستوري الجديد أو للاتحاد العام التونسي للشغل. ثمّ لنرى الصراع يستفحل سنة 1951 بين الطرفين، حول ما إذا كان يجب أن نبقى في الحكومة كيفما كان الوضع، أم نواصل المشوار من أجل إنجاز مطالب الإصلاح الزيتوني المتّفق عليها سابقا.

ولم تشهد المرحلة ما بعد ذلك وصولا إلى عام 1956، نشوء حزب سياسي زيتوني، سواء كان ذلك الحزب قوميّا عربيّا أو إسلاميّا. وذلك لأسباب عديدة منها ما سبق أن أشرنا إليه من أنّ الزيتونيّين لم يكن لهم شعور بأنّهم يؤلّفون فئة متميّزة عن بقيّة الشعب التونسي، وكان ولاؤهم للحزب ولتونس ـ بما فيه الجهة والقبيلة أو العرش ـ أقوى منه لجامع الزيتونة ولما يمكن تسميته تجاوزا بالرابطة الزيتونيّة إن صحّ التعبير، وللجامعة الإسلاميّة وللقوميّة العربيّة بمعناها المطروح في المشرق العربي. ومنها أيضا أنّه لم يكن ممّن تصدّوا لزعامة الحركة الزيتونيّة ـ سواء من المدرّسين أو الطلبة ـ من كان قادرا على الوقوف أمام زعماء الحزب الدستوري الجديد آنئذ، وقد كان صالح بن يوسف مشرفا على حظوظ الحزب، ولا على مجاراتهم في الأساليب التي يستعملونها لبلوغ غاياتهم وفرض سياساتهم. ناهيك أن الشيخ محمّد الفاضل بن عاشور اضطرّ للانسحاب من حلبة الصراع مع ابن يوسف، بعد ما رفت من الديوان السياسي، وفصل من المكتب التنفيذي لاتحاد العام التونسي للشغل، وألصقت به وبوالده أبشع النعوت، ثم تعرّض الشيخ الفاضل للاعتداء عليه مساء يوم 15 فيفري (شباط) 1951 في نهج جامع الزيتونة.[15]

إنّ الباحث في تاريخ المؤسّسة الزيتونيّة والزيتونيّين يجد صعوبات جمّة، بسبب اتساع مجال نشاط الزيتونيّين وتنوّعه (صحافة، جمعيّات، ثقافة، سياسة ونقابة). ممّا يجعل من الصعب تتبّع نشاطهم ورصد مواقفهم على مدى نصف قرن من الزمان.وبسبب عدم وجود ما يمكن تسميته "أرشيف جامع الزيتونة وفروعه"، نظرا لغلق تلك المؤسّسة العريقة بموجب قرار إصلاح التعليم التونسي عام 1958،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وتبعثر وثائقها بين مختلف مصالح وإدارات وزارة التربية، باستثناء الجزء اليسير المحفوظ في الأرشيف الوطني التونسي.

والمتتبّع لنشاط الزيتونيّين في مختلف المجالات يستنتج أن الزيتونيّين أسهموا في تلك الفعاليّات انطلاقا من قناعاتهم التي نشأت لديهم من تعليمهم بالجامع وفروعه. بحيث أدّوا دورهم في حركة التحرّر الوطني دفاعا عن الثوابت التي كانت تجيش بها نفوسهم. لكنّهم دفعوا الثمن غاليا عندما تنكّر لهم نظام دولة الاستقلال وقياداته السياسيّة، التي اتخذت منهم موقفا عدائيّا، وقامت بتذويبهم في هيكلة الدولة الجديدة، والقضاء على مؤسّستهم التاريخيّة وتصفية قياداتهم، من خلال تصفية المعارضة اليوسفيّة. وكذا اتهامهم بالتخلّف العقلي وعدم الانفتاح، وتأمين تعليم قروسطي بائس ومتخلّف.

الهوامش :

---

[1]. بدون إمضاء، "حديث فخامة الرئيس الأسبوعي"، في، **العمل**، تونس، 26 جوان (حزيران) 1958، ص 3.

[2]. أنظر: ابن عاشور (محمّد الفاضل)، **الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس**، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1972.

ابن ميلاد (أحمد) ومحمّد مسعود إدريس، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنيّة 1892ـ1940، ج1: مقدّمة النشاط الفكري والسياسي للشيخ عبد العزيز الثعالبي في تونس من خلال وثائقه**، المؤسّسة الوطنيّة للترجمة والتحقيق والدراسات "بيت الحكمة"، قرطاج، 1991.

Dabbab (Mohammed), *La presse arabe de Tunisie 1860-1914*, S.T.D., Tunis, 1990.

[3]. أنظر: ابن عاشور، **نفس المرجع**، ص112.

ابن ميلاد، **نفس المرجع**، ص114ـ116.

مناصريّة، **الحزب الحرّ الدستوري التونسي 1919ـ1934**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص30.

Guezmir (Kaled), *Jeunes Tunisiens*, Alif, Tunis, 1986.

Ayadi (Taoufik), *Mouvement réformiste et mouvements populaires à Tunis (1906-1912)*, Pub. De l'Uni. de Tunis, 1986.

[4].عمايريّة (حفناوي)، "تقديم وثيقة"بيان توحّش فرنسا في القطر التونسي الجزائري والاستنجاد إليه" لصالح الشريف وإسماعيل الصفايحي"، في، **روافد**، عدد4، تونس، 1998، ص226ـ251.

الساحلي (حمّادي)، "نشاط الوطنيّين في المهجر أثناء الحرب العالميّة الأولى"، في، **المجلة التاريخيّة المغاربيّة**، عدد 33ـ34، تونس، جوان1984، ص ص182ـ192.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزيدي (علي)، جامع الزيتونة أهمّ ميدان للتحرّكات السياسيّة بتونس خلال الحرب العالميّة الأولى، في، **المجلة التاريخيّة المغاربيّة**، عدد 104، زغوان، سبتمبر 2001، ص ص375ـ392.

Abdel Moula (Mahmoud), *Jihad et colonialisme – La Tunisie et la Tripolitaine (1914-1918)*, Edition Tier-Monde, Tunis, 1987, p.88.

[5] .المدني (أحمد توفيق المدني)، **حياة كفاح (مذكّرات)**، ج1: في تونس 1905ـ1925، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

Dabbab (Mohamed), *Les délégations destouriennes à Paris ou la «Question tunisienne» dans les années 1920 – Revendications, Manœuvres, Polémiques, Scission – Période: 1919-1921*, M.T.E, Tunis, 1980.

[6] . ابن ميلاد، **نفس المرجع**، ص277ـ278.

El Ghoul (Yahya), *Naturalisation française et mouvement national tunisien*, C.A.R. à la Fac. Des lettres, Tunis, 1973, p.80.

[7] .القناوي (بلقاسم)، **مذكّرات نقابي وطني**، حقّقها وعلّق عليها فريد بن سليمان، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة، تونس، 1998، ص19.

Tlili (Béchir), *Nationalismes, socialisme et syndicalisme dans le Maghreb des années 1919-1934*, T.II :*Nationalisme, socialisme, syndicalisme en Tunisie et en Algérie 1919-1934*, Publication de l'Université de Tunis, 1984, p.221.

[8] . ابن حسن (إبراهيم)، "الزيتونة في الحقل النقابي"، في، **ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونة**، تونس، 1979، ص76.

ابن حميدة (عبدالسلام)، **الحركة النقابيّة للشغّيلة التونسيّة 1924ـ1956**، ج1، ترجمة جماعيّة، دار محمّد على الحامي، صفاقس، 1984، ص81ـ82.

ابن عاشور، **نفس المصدر**، ص220ـ222.

Kraïem (Mustapha), *Mouvement national et Front populaire – La Tunisie des années trente (2)*, Institut supérieur d'histoire du mouvement national, Tunis, 1996, p.168.

[9] . جلّاب (الهادي)، مؤتمر 2 مارس 1934 قطيعة أم تواصل، في، **مؤامر قصد هلال 2 مارس 1934**، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة، تونس، 1994، ص 10.

[10] .**المعهد العالي للتاريخ المعاصر، منّوبة، وحدة التاريخ الشفوي**. شريطان برقم 67.

المحجوبي (علي)، **الحركة الوطنيّة التونسيّة بين الحربين**، منشورات الجامعة التونسيّة، تونس، 1986، ص114.

Kraïem, *Mouvement national …op. cit.,* p. 386.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Lejri (Mohamed Salah),*L'évolution du mouvement national tunisien des origines à la deuxième guerre mondiale*, vol. II, M.T.E., Tunis, 1974, p.212.

[11]. التميمي (عبد الجليل)، "من مذكّرات مناضل المغرب العربي المرحوم يوسف الرويسي"، في، **المجلّة التاريخيّة المغربيّة**، عدد35ـ36، تونس، ديسمبر 1984، ص 186.

[12].Rush (A. de L.), *Ruling Families of Arabia, Saudi Arabia: the royal family of Al-Sa'ud*, vol. II, Archive Editions, Oxford, 1991, pp.196-98.

العياشي (المختار)، **البيئة الزيتونيّة 1910ـ1945 ـ مساهمة في تاريخ الجامعة الإسلاميّ التونسيّة**، تعريب حمّادي الساحلي، دار التركي للنشر، تونس، 1990، ص208.

[13]. شلبي (محمّد الحبيب)، "خلفيّات مؤتمر الاستقلال 26 رمضان 1365هـ/23 أوت 1946م"، **المجلّة التاريخيّة المغربيّة**، عدد23ـ24، تونس، 1981، ص323ـ330.

Ben Miled (Dr. Ahmed), «Mon témoignage sur le Congrès de l'Indépendance (23 aout1946) suivi de quelques documents inédits», in : *Revue d'Histoire Maghrébine*, no 23-24, Tunis, novembre 1981, p.265.

[14].سورة التوبة، الآية 105.

[15].أنظر: الزيدي (علي)، **دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسيّة في الفترة المعاصرة**، منشورات منتدى الفارابي للدراسات والبدائل، صفاقس، 2014، ص181ـ197.

الزيدي (علي)، **تاريخ النظام التربوي للشعبة العصريّة الزيتونيّة (1951ـ1965)**، منشورات المعهد الأعلى للتوثيق، تونس، 1986، ص138ـ163،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المدارس القرآنية العصرية ومحاولات إصلاح التعليم الزيتوني من خارج الجامع الأعظم (1906-1956)

الجيلاني المحسن
جامعة منوبة تونس

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

مثّلت المدارس القرآنية العصرية تجربة تعليميّة طريفة بتونس زمن الاستعمار، تمّ التفكير فيها بهدف توفير فرص تعليمية للأطفال التونسيين الذين لم يجدوا مكانا لهم في نهاية القرن التاسع عشر ثمّ تطوّرت حتى أصبحت منافسا جدّيا للتعليم العمومي. فرغم البداية المحتشمة سنة 1907 بمبادرة من ثلة من النخبة التونسية وتحديدا من حركة الشباب التونسي بقيادة خير الله بن مصطفى والبشير صفر وبدعم من جمعيّة الأوقاف سرعان ما شهدت التجربة تطّورا ملحوظا. فقد مثلت المدرسة الأهلية سيدي بن عروس بتونس، مثالا تم الاقتداء به في أكثر من جهة البلاد، فظهرت تجارب مماثلة بكل من بنزرت وسوسة والمنستير والقيروان وقابس وجربة. ورغم أنّ كل أصناف التعليم بالأيالة التونسية زمن الاستعمار الفرنسي هي من مشمولات إدارة التعليم العمومي قانونيا ونظرّيا، فإن هذه الأخيرة اكتفت بمراقبة تطور مشروع المدارس القرآنية العصريّة بداية، وربما تفاجأت من النجاح الذّي تحقق، فعملت على ضربه أحيانا واحتوائه أحيانا أخرى وذلك إلى حدود مرحلة الاستقلال الوطني. وحينها تمّ تأميم كل المدارس القرآنيّة العصريّة ومثّلت بذلك نواة مهمة في البنية التحتية لمدرسة الاستقلال.

الكلمات الدالة:

المدارس القرآنية– تونس – التعليم الزيتوني– الجامع الأعظم

العنوان بالإنجليزية:

Modern Quranic schools. And attempts to reform the Zaytouna education outside the Grand Mosque

Abstract:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

The Modern Coranic Schools represented a funny experience in Tunisia during the time of colonization, they were thought of in order to provide educational opportunities for Tunisian children who did not find a place for themselves at the end of the nineteenth century, then they developed to become a serious competitor for public education. Despite its modest beginning in 1907 at the initiative of a group of Tunisian elite and specifically of the Tunisian youth movement led by Khairullah Bin Mustafaand and Bashir Sfar, and with the support of the Association of Religious Endowments, the experience soon witnessed a remarkable development. The civil school of Sidi Ben Arous in Tunis represented an example that was emulated in more than one part of the country, so similar experiences appeared in Bizerte, Sousse, Monastir, Kairouan, Gabes and Djerba. Although all varieties of education in Tunisia during the French colonization was one of the prerogatives of the public education administration legally and theoretically, the latter merely contended itself with monitoring the evolution of modern coranic schools project at the beginning, and it was perhaps surprised by the success that was achieved, and worked to attack it sometimes and contain it sometime other times until the phase of national independence. At that time, all modern coranic schools were nationalized and thus represented an important nucleus in the infrastructure to the School of Independence.

Key words:

Quranic schools - Tunisia - Zaytoun education - the Great Mosque

قامت إدارة التعليم العمومي باستبعاد غالبيّة التلاميذ التونسيين المسلمين، من المدارس العموميّة لأسباب مختلفة بطرق ملتوية دون التصريح بذلك علنا. زد على ذلك أن حملة بعث المؤسسات التعليميّة الموجهة إلى التونسيين وغيرهن والتي بشّر بها لوي ماشوال، أوّل مدير للتعليم العمومي سرعان ما انحسرت[1]. ولمجابهة ذلك الوضع تحرّكت النخب التونسيّة على أكثر من صعيد بحثا عن سبل لتوفير أكبر فرص تمدرس لأبناء الأهالي بمختلف الجهات. وتمّ التفكير سواء الرجوع إلى المؤسسات الموجودة أي الكتّاب، وهو ما باركه بعض المغاليين من الاستعمار، مع تطويرها أو إحداث مؤسسات جديدة تراعي سنة التطور وتكون مقبولة في المخيال الاجتماعي ومن ثمة كانت فكرة المدارس القرآنية العصريّة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

I- المدارس القرآنية العصرية: صعوبة البدايات وتطوير التجربة

إذا ما كانت إدارة التعليم العمومي بكل من توفر لها من إمكانيات قد بدت عاجزة عن توفير فرص تمدرس للكثير من الأطفال التونسيين فكيف بمجموعة صغيرة من النخب التونسيّة بدأت تُخطط لإحداث تعليم عصري وبديل وبإمكانيات ذاتية ومحدودة.

1- ظروف إحداث المدارس القرآنية العصرية

تم التفكير في إحداث المدارس القرآنية العصريّة داخل أوساط النخبة التونسية في نهاية القرن التاسع عشر وذلك لأسباب مختلفة منها ما تعلّق بمواقف إدارة التعليم العمومي من تعليم التونسيين ومنها ما خصّ التونسيين ذاتهم في إطار الإجابة عن سؤال: أيّ تعليم يُناسب منظوريهم؟ هل يُتمّ الانخراط في المنظومة التعليميّة المُحدثة بكل ما لهم عليها من مآخذ؟ هل يُع التنسيق مع السلطة القائمة لإحداث نظام تعليمي خاص بأبنائهم؟ أو هل من الأفضل إصلاح المؤسسات القائمة وتطويرها وهي أساسا الكتايتب؟

من الثابت أن إدارة التعليم العمومي قد سعت خلال السنوات الأولى من تاريخ إحداثها، سنة 1883، إلى الترويج إلى مشروعها التعليمي بكلّ ما توفّر لها مم إمكانيات. وقد شهدت السنوات الأولى إحداث عدد من المدارس اللائكيّة سواء بالحاضرة أو بعدد من الجهات الداخلية مثلما ما تمّ بباجة أو بسوسة أو بتطاوين[2]. وأمام موجة الرّفض التي جابهت بعض تلك التجارب لجأت الإدارة إلى سياسية "العصا والجزرة". فمن ناحية وفّرت لعدد من المؤدبين النّافذين فضاءات داخل البنايات المدرسيّة لاستعمالها ككتاتيب وأغدقت عليهم المنح والعطايا وربطت ذلك بقدر عدد التلاميذ الذين يُسجلون بالمدرسة بواسطتهم. ومن ناحية ثانية فرضت على رموز السلطة المحليّة من خلفوات وقُياد جلب الأطفال وتسجيلهم بالمدارس المُحدثة[3].

لكن ما يُثير الانتباه أنّ تلك السياسة سريعا ما وقع التراجع عنها فبدأت حملة إغلاق طالت العديد من المدارس وذلك لأسباب مختلفة منها تأثير القوى الاستعمارية المغالية الرافضة لأيّ تعليم عصري بالنسبة إلى التونسيّين وومنها ما تعلّق بإدارة التعليم العمومي ذاتها ومدى جديتها في الاهتمام بتعليم التونسييينومنها أيضا ضعف البنية التحتيّة وقلّة الإمكانيات والموارد المُخصصة لهذا القطاع لا سيما إذا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

علمنا أن عديد المدارس قد تمّ فتحها في فضاءات غير مناسبة للتدريس مثل المدرسة اللائكيّة بمكثر التي اتخذت من الآثار الموجودة بالمنطقة مقرّا لها[4].

ونتيجة لحملات الأغلاق التي طالت الكثير من المدارس فقد عدد من التونسيين الأمل في تعليم عصري لأبنائهم مما حدى بهم للبحث عن حلول أخرى، لا سيما وأن القناعات كانت في تزايد بخصوص قدرة التعليم التقليدي سواء بالكتاتيب أو بجوامع عن لعب دور المصعد الاجتماعي الذي يطمح إليه الكثير خاصة بتغيّر المهن وبتشغيل المؤهلات المطلوبة في مختلف الوظائف. وأمام محدوديّة فرص التمدرس بما بقي من مدارس فرنكو–عريبة وبالمدارس الفرنسية تسارعت وتيرة البحث من قبل رموز النخبة التونسية عن حلول أخرى تمكّن أعداد متزايدة من الأطفال التونسيين من اللحاق بالمدارس العصريّة ومن ثمّة تمّ إحداث المدارس القرآنية العصريّة.

وقد حظيت هذه المدارس في البداية بدعم مزدوج، من قبل حزب المعمرين والعديد من الوطنيين وزعماء حركة الشباب التونسي على حد السواء. فبالنسبة إلى المعمرين تم تشجيع إنشاء الكتاتيب "العصريّة" من قبل إدارة الحماية وحزب المعمرين للحدّ من إنشاء المدارس العموميّة[5] لما يمكن أن تمثله من خطر بنشرها لأفكار الحداثة. ووصل الأمر ببعض المتشددين إلى حد تمجيد الطرق التعليمية التقليدية رغم الإجماع على قصورها وضعف نتائجها. فقد كان يُقال مثلا "إن كل هذه السور القرآنيّة هي مصدر الفقه والألوهيّة وحضارة القوم وأن العرب الشبان الذين يحفظونها اليوم بصورة آليّة كالبباغوات سوف يدركون معانيها بعد عشر سنوات ويغتبطون بأنّهم أكتنزوها بفضل صرامة المؤدّب في سن تكون فيه الحافظة طيّعة وقويّة"[6].وفنّد خير الله بن مصطفى هذه الأطروحات المنوهة بحشو الأدمغة ملاحظا إفلاس إنتاجيّة الكتّاب إذ تمكّن 900 فقط من 20 ألف من الالتحاق بمؤسسة الزيتونة بينما عجز البقية عن ذلك.

وضمن إقرار التوجّه بدعم الكتاتيب العصريّة تم تأسيس المدرسة التأديبيّة أو العصفورية[7] (مدرسة ترشيح المؤدبين) بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 8 نوفمبر 1894[8] لتخريج المؤدبين على شاكلة المدرسة الترشيحية. وتنتدب هذه المدرسة كل سنة 5 تلامذة معلمين عن طريق مناظرة تحتوي على مادتي القرآن والنحو[9]. غير أن هذه المناظرة كانت ربما أحد اسباب فشل هذه المؤسسة، من خلال تقديم القدرة على

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الحفظ عند المترشحين على التحليل المنطقي[10]. لذلك ليس بغريب أن تعرف هذه المؤسسة فشلا ذريعا في مهمتها باعتراف الفرنسيين أنفسهم. فقد أكّد ألبان روزي أمام مجلس النوّاب يوم 4 مارس 1904 أن أحسن تلميذ بالتأديبيّة كان عاجزا عن التعبير بالفرنسيّة ولو للاسترشاد عن طريقه كما أكّد شارليتي هذه الحقيقة بقوله "أن لا أحد ينازع في إخفاق هذا التعليم" [11].

إن فشل مشروع المدرسة التأديبية وقصور الكتاتيب عن تلبية طموحات التونسيين قد جعل النخبة أكثر رفضا للمؤسسات التقليدية، فقد استغلّت فرصة انعقاد مؤتمر شمال إفريقيا بباريس من 6 إلى 10 أكتوبر 1908 لتوجّه على لسان لسان خير الله بن مصطفى نقدا عنيفا إلى الكتاتيب وتطالب ببعث المدارس الفرنسّية العربيّة التي تعتبر، في نظرهم، الحل الكفيل بحصول الشباب التونسي على تعليم صحيح مزدوج بالفرنسّية والعربيّة [12].

لقد أدّت محدودية نشر المدارس العصرية العمومية، وضعف مردودية الكتاتيب ببعض رموز النخبة المحلية إلى بعث تجربة تعليمية عصرية بخصوصيات محلية إذ بادر خير الله بن مصطفى بفتح كتّاب عصري[13] في ديسمبر 1906 ضم 200 تلميذ، غير أن التجربة لم تحظ بدعم معظم الشبّان التونسيين[14] وخاصة علي باش حانبه ومحمد نعمان بحجة أن الكتاتيب لا تفرز إلا تعليما منحطا وهو موقف عارضه رموز التعليم التقليدي مثل الشيخ الثعالبي وناصره بعض الغلاة من المعمرين. ورغم ذلك تمكن خيرالله بن مصطفى من تأمين النجاح لمشروعه، بتوفير الأسباب الضرورية، وخاصة التمويل الذي تكفلت إدارة الأوقاف بتوفير أكثره[15].

2- تطوّر تجربة المدارس القرآنية العصرية

لم يتمّ تخصيص المدارس القرآنية العصرية بنص قانوني خاصة بها وبقيت قبل ذلك خاضعة لقانون التعليم الخاص وخاضعة إلى إشراف مدير التعليم العمومي بتونس الذي تمتّع بصلاحيات واسعة بمقتضى المرسوم الذّي أصدره الباي في 6 مارس 1883[16] فقد نصّ على كون "لوي ماشوال أستاذ لغة عربيّة مُكلّف بدارة كل الشؤون التي تهُمّ التعليم بتونس" أي مختلف المؤسسات التعليمية الموجودة مثل الكتاتيب والجوامع ومنها الزيتونة والمُحدثة أي المدارس بمُختلف أصنافها.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وأمام عدم اعتراض إدارة التعليم العمومي على تجربة المدرسة الأهليّة بسيدي بن عروس، تمّ إحداث مؤسّسات أخرى فبلغ عدد المدارس القرآنية العصريّة قبيل الحرب العالميّة الأولى 10 مؤسّسات مرخّص[17] لها أي بمعدّل أكثر سنوي يتجاوز الواحد بقليل، وهو عدد هام اعتبارا لمختلف الإحداثات المدرسيّة في التعليم العمومي ونظرا للكلفة المرتفعة لإحداث المدارس الجديدة وكلّ ما تتطلبه من مرافق. فسرعان ما تعممت التجربة في مختلف أرجاء البلاد وخاصة بالحاضرة، حيث تأسست تباعا، المدرسة الخيرية سنة 1908. ومدرسة الثقافة والمدرسة العرفانية سنة 1913[18]، وتهاطلت المطالب[19] على إدارة التعليم التي رغب أصحابها في تأسيس مدارس قرآنية عصرية غير أنّها العديد منها. بعد أن أثار نجاح بعضها حفيظة المتشددين الفرنسيين[20] وهو ما تطلب تدخل الإدارة لتحقيق هدفين اثنين، مراقبة نشاطات هذه المدارس وتغطية الطلب المدرسي المتواصل والمتنامي بين الأهالي. هذا وقد تحولت عديد المدارس القرآنية العصرية في بداية الخمسينات إلى مدارس فرنكوعربية قبل أن يتم تأميمها نهائيا سنة 1956[21].

زد على ذلك أنّ المدارس المُحدثة اشتغلت بإمكانياتها الذاتيّة باستثناء بعض الاعانات المشروطة من قبل جمعيّة الأوقاف مثلا وانتظرت إلى حدود سنة 1925 لتحصل دعم إدارة التعليم العمومي. ففي منتصف العشرينات حصلت 14 مدرسة على دعم مادي بطلب من ممثلي التونسيين بالمجلس الكبير. ودخلت بذلك . ضمن المدارس الممنوحة التي تمايزت عن المدارس الحرة التي بقيت خاضعة لقانون 1920 المنظم للتعليم الخاص. ومنذ العشرينات تدعمت مدارس الذكور بأخرى للإناث التي انتظرت بدورها الحرب العالمية الثانية حتى تنتر بمختلف جهات البلاد. وقد انتقلت المدارس القرآنية عامة من مجرّد مدارس مُشتتة لتعويض النقص الحاصل في التعليم العمومي إلى فسيفساء منتشرة في أغلب جهات البلاد فقد كانت في حدود 9 مؤسّسات سنة 1920 لمجموع 1310 تلميذا لتصل إلى 14 مؤسسة سنة 1928 بمجموع 3189[22] . غير أن الطفرة الحقيقيّة كانت بعد الحرب العالمية الثانية حين مرّ عدد المدارس من 47 سنة 1945 إلى 118 سنة 1950 إلى 186 سنة 1955 وتجاوز عدد التلاميذ 30 ألف[23].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد انطلق مشروع المدارس القرآنية العصريّة من مجرّد رغبة في إحداث كُتاب مُجدد يختلف عن نظيره التقليدي ويحاول الاقتراب من المدارس العصرية المُحدثة، لكن التجربة تطورا كما وكيفا وأصبحت مشروعا مكتمل المكونات استعملته السلط الفرنسيّة في تغطية العجز الناتج عن قلة نشر التعليم العموم ووجدت فيه دولة الاستقلال رصيدا مدرسيّا ساهم في الحد من محدودية البنية المدرسيّة الوطنيّة.

II- الحياة المدرسّة بالمدارس القرآنية العصرية

تكنت المدارس القرآنية العصرية وإمكانيات ذاتية من التواجد بفاعلية ضمن النسيج المدرسي، وتمكنت من التطور كمّا ونوعا، كما كانت تنظيماتها البيداغوجية ونتائجها تضاهي ما توفّر بالتعليم العمومي بل تمكنت أحيانا من تجاوز ذلك.

1- بنية تحتية في تطوّر رغم المعوقات

قطعت المدارس القرآنية العصريّة مع الشكل المتداول للكُتّاب من حيث الاقتصار على قاعة وحيدة تُفرش حُصرا وتجمع كلّ الأطفال المرسمين حول مؤدبّهم. فبناية المدرسة الأهليّة بسيدي بن عروس بمدينة تكوّنت من خمس قاعات إضافة إلى بقية المرافق الصحيّة وغيرها[24]. وعلى منوالها نسجت بقية المدارس. أمّا بالنسبة إلى الوحدات المدرسية المُضافة فإلى حدود الحرب ا.سنوّيا فقد كان تطورها بطيئا إلى حدود الحرب العالمية الأولى، فلم تتجاوز الوحدتين بتونس وأخرى بسوسة[25].

أمّا بين الحربين فقد شهدت بعض الإضافات، فقد تمّ إحداث ثلاث مدارس قرآنية عصريّة بمدينة تونس ما تمّ تأسيس مدرسة على الأقل بكل من سوسة والقيروان وقابس. غير انّ الطفرة الحقيقية كانت بعد الحرب العالمية الثانية وذلك لأسباب مختلفة، منها ما تعلقّ بالجانب التشريعي بصدور نصوص قانونية خاصة بهذا الصنف من المدارس كالأمر الصادر سنة 1944 أو السنة 1953 ومنها ما ارتبط بتنامي الوعي بأهمية التعليم العصري في الأوساط المحليّة خاصة بعد النتائج الهامة التي حققتها العديد من المدارس في الشهادة الابتدائية مثل مدرسة المكنين التي شهدت خلال سنة 1953 مثلا نجاح 12 مترشح من مجموع 17 تقدموا لنيل الشهاة الابتدائية مقابل 30 من 48 مترشح من المدرسة الفرنكة-عربية بنفس المنطقة[26]. ومن العوامل المساعدة أيضا المساعدات الماديّة التي حصلت عليها المدارس القرآنية التي وافقت على شروط إدارة التعليم وانخرطت ضمن صنف المؤسسات المدعومة. وفي نهاية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الفترة الاستعارية وتحديدا سنة 1955 ارتفع عدد المدارس القرآنية العصريّة فوصل 11 مؤسّسة بقابس و18 بالقيروان، وأعداد أقّل ببقية جهات البلاد[27].

ولّما كانت المدارس القرآنيّة العصريّة بمبادرات فردية فإن العديد منها، وخاصة في السنوات الأولى، تمّ فتحها في محلات مسوغة لكن حالة أغلب البنايات كانت مقبولة بالنسبة إلى إدارة التعليم العمومي. فالمدرسة الأهليّة سيدي بن عروس تكونت من خمس قاعات وحالة البناية جيّدة. أمّا مدرسة "الهداية" بجمّال فقد تمّ افتتاحها في محل صغير سنة 1924 ثمّ وقع سنة 1938 وقع اكتراء منزل كبير الحجم متكون من 4 غرف كُبرى وقع تحويلها إلى قاعات إضافة إلى منزل صغير للسكنى دورة مياه كما كانت مُجهزة ببئر[28]. أمّا المدرسة القرآنيّة العصريّة للفتيات الأمانة بساقية الزيت (صفاقس) وحسب شهادة مديرها فقد " أُسّست في على شكل بديع وقاعات فسيحة وساحة مزدانة بالأشجار"[29]. وكان وضع البنية التحتية للكثير من المدارس القرآنيّة العصريّة أفضل من نظيراتها بالتعليم العمومي، فالمدرسة اللائكيّة بمكثر (سليانة) وقع افتتاحها في الآثار المتواجدة بالمنطقة [30]. أمّا مدرسة الفتيات بنهج زروان (تونس) فقد كانت بنايتها متداعية للسقوط وتتالت مطالب مديرتها لترميمها لكن دون جدوى[31].

تمّ فتح أغلب المدارس القرآنيّة العصريّة في فضاءات لائقة للتعليم، وهو ما يُحسب لإدارة التعليم التّي كانت متشددة في منح التراخيص، خاصة بالنسبة إلى التونسيين، لكن تكاتف الأهلي وحرصهم على إنجاح المشروع الذّي ساروا فيه مكّن من ظهور أعداد كثيرة منهم وبجهات مختلفة. وإضافة إلى البناءات، عمل مديروا المدارس القرآنية العصرية على تمكين التلاميذ المرسمين بالمؤسّسات التي يشرفون عليها من برامج دراسية متنوعة وثرية تراعي خاصيتي الانفتاح والأصالة.

2- التنظيمات البيداغوجيّة والتقييم والموارد البشريّة

اعتمدت المدارس المُحدثة بتونس بعد انتصاب الاستعمار الفرنسي طرق بيداغوجيّة مختلفة عن الكتاتيب التي تعددت أوصافها في كتابات الفرنسيين ومنها وصف شارل أندري جوليان: "كان الكتّاب الذي يؤمّه الأطفال من الخامسة إلى السادسة عشر من عمرهم طريفا في نوعه يثير الفضول بموقعه (على جزء من دار تعلو نهجا) وبالأطفال اللابسين صدريات صغيرة ورديّة اللون أو صفراء فاقعة والمرتدين جبابا في لون الصدور وأخيرا المربي المتجهم الوجهة أو المؤدّب وسلاحه الوحيد عصاه القاسية[32]".

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

فالمدرسة الأهلية بسيدي بن عروس تولّت منذ إحداثها، تدريس القرآن وعلوم الدين الإسلامي واللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والهندسة والحساب ومبادئ اللغة الفرنسيّة[33]. وبشكل تدريجي أصبح للمدارس القرآنية العصرية جداول أوقات واضحة المعالم لا سيما وانّها أصبحت تحت الإشراف المباشر لمتفقدي التعليم العمومي منذ سنة 1944[34]. ويدرس كل فصل 30 ساعة أسبوعيا مثلما هوّ الأمر بالنسبة إلى المدارس الفرنكة–عربيّة وتوجد مواد باللغة العربية أخرى بالفرنسية أي اعتماد اللغتين كمواد دراسية وكأدوات تدريس. كم تقسيم المسار التعليمي إلى نف التوزيع الفرنسي من المستوى التحضيري إلى المستى العالي مثلما يُبين الجدول التالي:

التوزيع الأسبوعي للمواد والتوقيت بالمدارس القرآنيّة العصرية وفق التنظيم البيداغوجي لـ 15 أكتوبر 1953[35]

المادة	المستوى التحضيري (سنتان)		المستوى الأساسي (سنتان)		المستوى المتوسط (سنتان)		المستوى العالي (سنة واحدة)	
	عربيّة	فرنسيّة	عربيّة	فرنسيّة	عربيّة	فرنسيّة	عربيّة	فرنسيّة
القرآن	3س		2س30		2س30		2س	
تربية			0س30		0س30			
أخلاق	0س40		0س30		0س20		0س30	

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

رصيد لغوي	2س30	3س20		2س30				
القراءة	4س10	3س45	3س20	3س40	3س	3س40	2س	4س
خط	2س	1س40	1س	1س				
لغة	1س	0س50	3س30	3س	5س10	5س10	5س	5س 10
حساب	2س30		3س			3س20		3س 50
اشغال يدوية			1س			1س		1س 30
تاريخ					0س30	0س30	0س30	1س 30
جغرافيا					0س30	0س30		

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

رسم، أشغال	0س40			0س30		0س40		0س 20
أناشيد	0س50	0س25	0س30	0س30				
رياضة	1س			1س		1س		1س
راحة	1س40		1س40		1س40		1س40	
المجموع	30س		30س		30س		30س	

يتشابه جدول الأوقات الخاص بالمدار القرآنية العصرية بالخاص بالمدارس الفرنكة–عربية سواء بالنسبة إلى المواد أو التوقيت. والاختلافات محدودة جدّا. فمادة القراءة يُخصص لها عادة بين ساعتين ونصف وأربع ساعات سواء بالنسبة إلى اللغة العربية أو الفرنسيّة. وكذلك الحساب الذّي يتم في ثلاث ساعات كمعدل أسبوعي وهو باللغة العربية بالمستويات الدنيا وبالفرنسية في المستويات الأعلى.

التوزيع الأسبوعي للمواد والتوقيت بالمدارس الفرنكو–عربيّة[36]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المواد	المستوى	المستوى الأساسي	المستوى المتوسط والمستوى العالي			
	عربية	فرنسية	عربية	فرنسية	عربية	فرنسية
القرآن والأخلاق	2س		2س		2س	
رصيد لغوي		4س40دق		4س		
القراءة	4س	4س	3س30	4س	2س30	4س
خط	2س	2س	1س	1س		
لغة	2س 30دق	1س	3س20دق	3س	4س50دق	5س
أناشيد	1س	0س30دق	0س30دق	0س30دق		0س30دق

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حساب	2س 40دق		3س			4س
أشغال يدوية			0س50دق		1س30دق	
تاريخ وجغرافيا		1س		0س40دق		1س30دق
رسم، أشغال يدوية		1س		1س		1س
رياضة					1س30دق	1س
راحة	1س 40	1س40دق	1س40دق			
المجموع	30س	30س	30س			

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولمّا كان الهدف المشترك لأغلب روّاد المدارس الابتدائية على اختلافها الحصول على الشهادة الابتدائية، عملت المدارس القرآنية العصرية على توفير تكوين صلب في الفرنسيّة والرياضيات لاسيما وأن اللغة العربية ظلّت اختيارية إلى حدود سنة 1946، قد تمكنت الكثير من المدارس من تحقيق نتائج مهمة مثلما حصل سنة 1953، ففي المدرسة العرفانيّة بتونس ترشّح 49 نجح منهم 14، أمّا مدرسة الرشاد بباجة فقد سجّلت 40 مترشحا نجح منهم 10، واكتفت المدرسة الفرنكو-عربية المقابلة لها بنفس المدينة بـ 22 مترشح نجح منهم 5فقط، أمّا القرآنية بالقلعة الصغيرة فقد قدمّت 16 مترشح نجح نصفهم أمّا الفرنكو-عربية في الجوار فق ترشح منها 28 تمكن 8 منهم فقط من الحصول على الشهادة الابتدائية[37]

بالنسبة إلى الموارد البشرية وخاصة المعلمين، شهدت أوضاعهم عدة تغييرات، من ذلك أن أجورهم أصبحت تُصرف من ميزانية إدارة التعليم العمومي، وحصل التغيير الحقيقي في هذا الاتجاه خلال السنة الدراسيّة 1952-1953[38] وقد وصلت أعدادهم في نهاية الفترة الاستعمارية إلى 974 منهم 489 من الحاصلين على شهادتي التحصيل أو التطويع بالجامع الأعظم والبقية موزعين بين أصحاب البرفي العربي 100 والشهادة الابتدائية فقط 202 إضافة إلى اختصاصات أخرى[39]. قد تمكن معلمو المدارس القرآنية العصريّة من تنظيم صفوفهم فظهرت نقابة خاصة بهم، ومنذ ذلك التاريخ أصبح بعضهم يتمتع بأجر من إدارة التعليم للحدّ من تاثير غلاء الأسعار[40].ومطلع الأربعينات شهدت أوضاعهم الكثير من التغييرات حتى أصبحوا يقتربون من نظرائهم بالمدارس العمومية منها ضرورة حصولهم على شهادة الكفاءة الصناعيّة[41].

III- المحور الثالث: تفاعل المدارس القرآنية العصرية مع محيطها

نظريّا كانت إدارة التعليم العمومي الهيكل المطالب بتوفير التعليم بالنسبة إلى الأطفال التونسين حسب ما نص عليه الهدف من تأسيس إدارة التعليم العمومي غير أنّ ذلك بقي في مستويات التنظير بل أنّ علاقتها ببعض الأصناف من المدارس شهدت الكثير من السجال.

1- المدارس القرآنية العصرية وإدارة التعليم العمومي: التباعد والاحتواء

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كان القصور جليّا وفي تطوّر مستمر بالنسبة إلى عمليّة قبول التلاميذ التونسيين بالمدارس العموميّة، الفرنسيّة[42] أو الفرنكو- عربيّة[43] على حدّ سواء. فكثيرا ما يتم رفض عديد مطالب الترسيم الخاصة بالأطفال بتعلّة عدم وجود أماكن شاغرة. ولم تتساو حظوظ مختلف التلاميذ في سنوات الدراسة وفي الالتحاق بالمدارس فالفرنسيون خاصة والأوروبيون عامة تمتعوا بمزايا قانون 28 مارس 1882 الذي ينص على إجبارية تعليم الاطفال من الجنسين من سن 6 إلى 13سنة، وتدعم هذا القانون بمذكرة وجهتها إدارة التعليم العمومي تنبه إلى ضرورة قبول كل تلميذ فرنسي يتقدم إلى التسجيل مهما اكتظت المدرسة[44]. غير أنّ يختلف جوهريا بالنسبة إلى الأطفال التونسيين، وقد أثارت تلك الوضعيّة حفيظة أعداد متزايدة من التونسيين وخاصة من رموز النخبة الناشئة المعروفة اصطلاحا بحركة الشباب التونسي. وإزاء تلك الوضعيّة تحرّت بعض الأطراف صلب الحكومة التونسية وإدارة التعليم العمومي للقيام ببعض الإصلاحات علّها تكون مسكّنات، ولو ظرفيّة، من خلال العمل على تعصير الكتاتيب وذلك منذ نهاية القرن التاسع عشر.

أمام محدوديّة عدد المدارس العموميّة والفرنكو-عربيّة بصفة خاصة تدعّم المشهد التعليمي المدرسي بمؤسسّات التعليم الأهلي العصري. وهي تقترب كثيرا في برامجها وهيكلتها من المدارس الفرنكو-عربيّة. بل أن العديد منها أصبح لاحقا من ضمن ذلك الصنف. ومن بينها، على سبيل المثال، مدرسة بسيدي داود التي تأسست سنة 1949 بصفة مدرسةَ قرآنية ثمّ أصبحت سنة 1953 مدرسة فرنكو عربية[45].

ولئن لم تكن المدارس القرآنية العصرية تحت الإشراف المباشر لإدارة التعليم العمومي فإن تحت مراقبة متفقدي التعليم العربي الذين يعودون إليها بالنظر. ورغم ذلك فإن العلاقة بينهما تراوحت بين المهادنة والتقارب والتباعد. فعند بداية التجربة لم تُبد إدارة التعليم العمومي موقفا واضحا إزاء هذه المدارس ولا يُعلم إن كان ذلك قناعة منها بأهمية الدور الذي قد تلعبه تلك المؤسسات كرافد للتعليم العموميأم تجنّبا للاصطدام مجدّدا مع التونسيين في موضوع شديد الحساسية خاصة وأنّ انطلاق التجربة تزامن مع حدثين مهمين: تمثّل الأوّل في تراجع إدارة التعليم العمومي عن الكثير عن وعودها في نشر التعليم وإقرار التعليم المهني بالنسبة إلى التونسيين فعليا من خلال تعيين "شارلتيتي" على رأس إدارة التعليم العمومي.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وتزامنا مع المنح التشجيعية التي تمّ إقرارها لفائدة المدارس القرآنية العصريّة منذ منتصف العشرينات تولّت إدارة التعليم تشجيع ذلك الصنف من المؤسّسات اعتبارا لما تُقدمّه من خدمات في مجال التعليم بالنسبة إلى الأطفال التونسيين وذلك حسب شهادة "روجي ليتورنو"RogerLe Tourneau مدير التعليم العمومي[46]. غير أن ذلك الموقف لم يدم طويلا ففي نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات تراجع اهتمام إدارة التعليم العمومي بالمدارس القرآنية العصريّة وشاب العلاقة الكثير من الجمود الذي وصل أحيانا حدّ التصادم. ففي مطلع السنة الدراسيّة 1937 – 1938 كان هناك 16 مطلب معلّق لفتح مدارس قرآنية عصرية وهو ما كان محلّ انتقاد سواء من قبل أصحاب المطالب أو من الصحافة الوطنيّة[47].

وقد مثّلت المدارس القرآنيّة أحيانا مصدر إزعاج لبعض مديري المدارس الفرنكو–عربية بسبب تفضيل الكثير من تلاميذها المغادرة نحو المدارس القرآنية العصريّة وقد وصل صدى ذلك إلى إدارة التعليم العمومي. ومن بين تلك المناكفات يمكن الإشارة إلى ما حدث بمدينة باجة بين المدرستين المجاورتين الأولى فرنكو–عربية (شارع بورقية حاليا) والثانية الرّشاد وهي قرآنية عصريّة. أمّا بمدينة صفاقس، مثلا، فقد تراجع تلاميذ المدارس الفرنكو–عربية من 631 خلال السنة الدراسيّة إلى 584 خلال السنة الموالية[48].

وبشكل تدريجي تبيّن أنّ الهدف الرئيسي لإدارة التعليم العمومي كان وضع يدها على تلك المؤسّسات الخاصة غير ذلك تمّ بشكل تدريجي ورغم ذلك فقد أثارت تلك التوجهات حفيظة الكثير من أصحاب المبادرات الخاصة. وتجدر الإشارة إلى أنّ نقابة معلمي المدارس القرآنية العصريّة، التي تأسّست سنة 1936 كان لها مساهمة في ذلك من خلال مطالبتها المتكررة بجعل إدارة التعليم العمومي هي الهيكل الذي يتولى صرف أجور المدرسين وحذف ذلك الدور من مديري وأصحاب المؤسسات المعنيّة. وقد تمّ تجسيم ذلك التوجّه لعدد من المدراس القرآنية العصريّة منذ سنة 1942[49]. ومنذ صدور الأمر العليّ المنظّم للمدارس القرآنيّة العصريّة المؤرّخ في 19 أوت 1944، أصبحت هذه المدارس تقريبا تحت إشراف إدارة التعليم العمومي، فإضافة الترخيصالمسبق والتفقّد الذّي أمنّه متفقدو التعليم الابتدائي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تدخّلت الإدارة في التنظيمات البيداغوجيّة والتقييم وانتداب المعلمين وتأجيرهم وترقيتهم[50].

2- المدارس القرآنية العصرية والجامع الأعظم

عادة ما يتمّ قبول المترشحين بجامع الزيتون من بين المتميزين من روّاد الكتاتيب.لإكمال عمليّة التكوين ففترة الكُتّاب عادة ما تكون مُخصصّة لحفظ القرآن عن ظهر قلب لكن دون تفسير. أمّا بالجامع الأعظم فيتلقى الطالب دروس في اللغة العربيّة وعلومها إضافة إلى تفسير القرآن والحديث وغيرها من العلوم الشرعيّة[51]. هل سيتواصل العمل بنفس القاعدة مع التغييرات التي تمتّ وخاصة إحداث المدارس القرآنية العصريّة؟

للإشارة فقط أنّ مشروع إصلاح التعليم الزيتوني الذي تقدمّ به ماشوال نصّ على تخصص الجامع في التعليم العالي مع فتح مدارس جديدة للمستويين الابتدائي والثانوي إضافة إلى إصلاحات أخرى اعتبرتها الحكومة التونسيّة ذاتها ضروية للنهوض بالمؤسسة "حتّى تكون أكثر نجاعة، حسب الوزير الأكبر، لأنّ تدريس العلوم الدينيّة القانونيّة وكذلك اللغة والآداب العربيّة في الجامع الأعظم لا تعطي في الحقيقة الرغبة في متابعتها وهل أنا في حاجة لأقول لكم إلى أيّ مدى معرفة العلوم الصحيحة ضرورية في العمل بالإدارات وكذلك في المهن الحرّة"[52] غير أن ذلك لم يتم إلى حدود مطلع الخمسينات على الأقل حين كانت الصورة مُكتملة: من التعليم الابتدائي الذيّ توفّر بالمدارس القرآنية العصريّة إلى التعليم الثانوي الذي أمنّته الشُعب العصرية الزيتونيّة على أن يتمّ تتويج المسار بالجامع الأعظم.

وإذا لم تكن المدارس القرآنيّة، ظاهريًا، على الأقل، مرتبطة بجامع الزيتونة، فإن أكثر من إشارة تؤكّد ذلك، ومن ذلك الأزمة الحادة التي اندلعت سنة 1946 بين عدد من المعلّمين ومديري المدارس التي يشتغلون بها. فلأسباب متعددة عملت إدارة التعليم العمومي على أحتواء المدارس القرآنية العصرية سواء بالترغيب من خلال المنح أو العطايا أو الترهيب منن خلال الشروط والتعسف والتشدد في التراخيص. ولعل من أسباب ذلك الخوف من التحاقها بالجامع الأعظم وتكوين نظام تعليمي تونسي بمختلف مكوناته. ولعل ما يؤكّد ذلك التوجس الحوار الذّي دار بين مدير مدرسة الثقافة القرآنية وبعض

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

معلمي المدرسة في موضوع انخراط المؤسسة ضمن المدارس الممنوحة لما لذلك من منافع مادية بالنسبة إليهم غير الردّ كان صارما من محمّد قريبع ، مؤكدا أنّ "مصير المدرسة هو إلحاقها بجامع الزيتونة"[53].

وقد بينت الحادثة كون ثلاث مدارس كبيرة بمدينة تونس وهي مدرسة الثقافة القرآنية والمدرسة القرآنية الإسلامية الحرّة ومدرسة العلوم القرآنية الحرة، قد خير جميعها البقاء ضمن المدارس الحرّة رغم أنّ ذلك يحرمها من إعانات هامة ولكنها أيضا مستقلة عن إدارة التعليم العمومي وبالتالي الالتحاق بالجامع الأعظم متى تمّ إرساء النظام الزيتوني الشامل لتتكون بذلك حلقة مهمة في إصلاحه.وممّا يؤكّد العلاقة الميزة بين الجامع الأعظم والمدارس القرآنية العصرية ، أهميّة عدد المتحصلين على شهادتي التطويع والتحصيل من بين المدرسين فقد أعدادهم سنة 1956 أكثر من نصف العدد الجملي للمعلمين وتحديدا 489 من مجموع 974 معلما. فالمدارس القرآنية العصرية تقوم بإرسال الكثير من تلاميذها إلى جامع الزيتونة وتوّفر لعدد منهم لاحقا فرصا تشغيلية.

تُعتبر المدراس القرآنية العصرية المحدثة بتونسبن سنوات 1906 و1956 تجربة فريدة وطريفة. فقد تمّ إحداثها وسط تباين بين مختلف المتدخلة في موضوع التعليم حول جدواها وإمكانية إثراء المشهد التعليمي. غير أنّ نجاح تجربة المدرسة الأهلية بسيدي بن عروس بحماسة بعض رموز حركة الشباب التونسي ودعم جمعيّة الأوقاف قد فاجأ الجميع بما في ذلك إدارة التعليم العمومي التي تعاملت بنوع من الحذر من المدراس القرآنية العصرية ، ثم حاولت احتواء المشروع وقامت بتوفير دعم مهم بالنسبة إلى الكثير من المدارس، وتطورت تلك المدارس حتى اقتربت من المدارس الفرنكو-عربية ثمّ كانت ، بما تميّزت به من ازدواجيّة الأنموذج الذّي مثّل مدرسة الاستقلال.

الهوامش:

[1]. بدأت حملة إغلاق المدارس الفرنكو-عربية سنوات قليلة بعد إحداثها وشهت ذروتها سنة 1897. أنظر :

Zaouch) Abdejlil. – l'enseignement arabe en Tunisie. – Parsi : éd. Sté. Géographies maritimes et coloniales, 1932. – p 30.

[2]. تمّ افتتاح المدرسة اللائكيّة بباجة سنة 1886. أنظر:

المدرسة اللائكيّة بباجة، السجل التاريخي عدد 1، افتتاحية السجل التاريخي.

[3].**نفس المصدر السابق**: السنة الدراسيّة 1896-1897.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[4]. **المدرسة اللائكيّة بمكثر** : السجل التاريخي عدد1، افتتاحية السجل التاريخي.

[5]. جوليان (شارل أندري): **المعمرون الفرنسون وحركة الشباب التونسي**، تونس الشركة التونسيّة للتوزيع، 1970 ص67.

[6]. "**مؤتمر شمال افريقيا**" المنعقد بباريس من 6 إلى 10 أكتوبر 1908: مداخلة خير الله بن مصطفى حول التعليم التقليدي، ص 567. ومن بين التقارير المقدّمة نشير إلى التقارير التي قدمها النوّاب التونسيون من بينهم محمد الأصرم وخير الله بن مصطفى والصادق الزمرلي والبشير صفر ومحمد بالخوجة وعبد الجليل الزاوش.

[7]. سُميّت هذه المدرسة بالعصفورية نسبة إلى المقر، حيث أنها بُعثت بمقر مدرسة النحوي الأندلسي ابن عصفور (ق 8 هـ/14م) التي تحدُّ جامع الزيتونة من الجنوب. كما سميّت بالتأدبيبة بالنظر إلى مهمتها في تكوين المؤدبين، وتحولت قبل حذفها سنة 1908 إلى مقر مدرسة بئر الحجار (وهي أخر مدرسة أسسها علي باشا باي وتوجد بـ 40 نهج الباشا). انظر :

D.I.P : B.O.I.P, N° 59, fevrier 1895.
Idem, N° 23, Octobre 1908.

[8] . **Idem,** N° 59, fevrier 1895.

[9]. جوليان. . **المرجع السابق**. – ص69.

[10] . **نفسه**. – ص70.

[11]. **نفسه**.

[12]. "مؤتمر شمال افريقيا": **المرجع السابق**.

[13]. أسس خيرالله بن مصطفى كتابا عصريا أو مدرسة قرآنية عصرية بمبادرة فردية، ولئن وجد في بداية الأمر تشجيعا إلا أن ذلك سرعان ما توقف وعرفت المؤسسة عديد الصعوبات. لمزيد التعرف على هذه المؤسسة يمكن العودة إلى :
ا.وت. : س E، ص 271، ملف 1/8، وثائق 53– 116. وبقية وثائق متفرقة بالملف المذكور.

[14]. جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا. – **النشرة الرسميّة 1929– 1930**، ص 5.

[15]. يقع المبنى الذي ظم المدرسة في نهج سيدي بن عروس عدد 58 لكنه على وجه الكراء (3450 فرنك معلوم الكراء سنويا في نهاية العشرينات). وتوفرت البناية على قاعات في وضع جيد كما كانت مجهزة بطاولات للتلاميذ بدل الحصر، أي أنها تقريبا قد راعت الشروط الدنيا لفتح المدارس"العصرية". غير أن المدرسة سرعان ما عرفت عديد الصعوبات المادية، فميزانيتها التي أعتمدت أساسا على دعم إدارة الأوقاف عرفت تدهورا واضحا بالتزامن مع تأزم وضع إدارة الأوقاف.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[16] العياشي (مختار) : **الزيتون والزيتونيين في تاريخ تونس المعاصر(1883–1958)**، تونس، مركز النشر الجامعي وجامعة الزيتونة، 2003، ص 29.

[17] Ayachi: **Ecoles**...., p 297

[18] . **ا.وت**: س E، ص 260، م 2/13.– تقرير الشيخ عبد العزيز بن شعبان حول المدارس القرآنية.

[19] .**المصدر السابق**، الملف 8/1، وثائق عدد 99– 109– 85– 87– 86، إدارة الشؤون الأهلية : تحريات عن اشخاص تقدموا بمطالب فتح مدارس قرآنية عصرية.

[20] . **ا.و.ت**: س E، ص 260، م 3/8، وثائق عدد 41–63. – مجموعة وثائق تبين المشاكل التي تعرّض لها عثمان القيطوني صاحب المدرسة القرآنية العصرية من السلط مباشرة أو بإيعاز منها. والتي أكتملت فصولها بمنعه من ممارسة أي نشاط تعليمي.

وفي نفس السياق انظر أيضا :

ا.و.ت: س E، ص 271، م 8/3، و.ع 6. – بلاغ من الكتابة العامة للحكومة التونسية قاضي بإيقاف عثمان القيطوني عن أي نشاط في ميدان التعليم بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 28 جوان 1938.

[21] **الرائد الرسمي التونسي**: أمر تأميم المدارس الفرنكو–عربية، 22 فيفري 1956.

[22] Ayachi: **Ecoles...**, p 313.

[23] **Idem**.

[24] Ben Moustpha (Khairallah): **L'Enseignement primaire des indigènes en Tunisie**. In Congrès de L'Afrique du Nord tenu à paris du 6 au 10 octobre 1908, Tunis, imp. Rapide, 1910, pp 29-41.

[25] Ayachi: **Ecoles...**, p 311.

[26] **Idem**, p 317.

[27] **Ide m**,

[28] . المدرسة القرآنيّة العصريّة الهلال بجمّال: **السجّل التاريخي عدد1**، افتتاحية السجل التاريخي.

[29] . المدرسة القرآنية العصريّة الأمانة بساقية الدائر بصفاقس: السجل التاريخي عدد1، افتتاحية السجّل التاريخي.

[30] . المدرسة اللائكيّة بمكثر: **السجل التاريخي عدد1**، افتتاحية السجل التاريخي.

[31] . مدرسة الفتيات المسلمات بنهج زروان (تونس): **السجل التاريخي عدد1**، السنوات الدراسيّة 1927– 1928، 1928–1929، 1944–1945.

[32] . **نفسه**، ص57.

[33] .أ.و.ت : س E، ص 260، م 13، و 46، تقرير عبد العزيز شعبان حول المدارس القرآنية العصرية.

[34] **Aspects actuels de L'enseignement en Tunisie, p 8.**

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[35]**Aspects...Op.Cit, p 15.**
[36]**Aspects...Op.Cit, p 14.**
[37] Ayachi: **Ecoles...,** pp 317-318.
[38]**Aspects, p 8.**
[39] Ayachi: **Ecoles...,** p 316.
[40] **La Tunisie Française** : le 14 février 1945, Les Ecole Coraniques, Institution Tunisienne,

[41]. **أ.و.ت** : س E، ص 260، م 13، و9، مشروع القانون الأساسي الخاص بالمدارس القرآنية العصرية.

[42]. شمل العجز عن قبول التلاميذ الجدد، من بين التونسيين خاصة، مختلف المدارس وحتّى الفرنسيّة منها. انظر : المدرسة الفرنسيّة المختلطة بالسعيدة. – السجل التاريخي عدد 1. – 1921- 1950. – السنة الدراسيّة 1932- 1933. – في بداية السنة الدراسيّة 1932- 1933 لم يتم قبول 23 تلميذ جديد بسبب عدم وجود أماكن شاغرة.

[43]. **مدرسة الفتيات المسلمات** (الفرنكو – عربيّة للفتيات بداية من 1945/ 1946) نهج زروان بتونس: السجل التاريخي عدد1، تشير مديرة المدرسة إلى أنه مطلع السنة الدراسيّة في 10 أكتوبر 1938 لم يتم قبول طلبات تسجيل تلميذات جديدات بسبب محدوديّة طاقة استيعاب المدرسة. وتكرّرت نفس العمليّة في مفتتح السنة الدراسيّة 1940- 1941 : "رغبات كثيرة في التسجيل لم يقبل منها إلا القليل.

[44]. **م.ا.ت.ح. و:** أرشيف الكيدورسي، ب 246، ص 312، م 1، و 104.

[45]**D.I.P** : **B.O.I.P**, N° 14, 1954, *Décret beylical fixant le statut des Ecoles Coraniques Modernes daté du 15/09/1953*.
D.I.P : **B.O.I.P**, N° 14, 1954. - *Circulaire du Directeur de l'enseignement publique relative à la mutation et à l'état du personnel des écoles coraniques modernes daté du 12/01/1954.*
[46]Le Tourneau (Roger) : **Rapport sur les Ecoles Coraniques Modernes en Tunisie**, Centre des Hautes Etudes sur l'Administration Musulmane, N° 225, p 33.
[47] Ayachi : Ecoles…, Op.Cit, p 298.
[48] Ayachi : **Ecoles…, Op.Cit**, p 301.
[49]**Idem**, p 299.

[50]. الأرشيف الوطني التونسي: س E

[51]. **أ.و.ت**: س E، ص 260، ملف 13، و 46: تقرير عد العزيز شعبان حول المدارس القرآنيّة العصريّة مُوجّه إلى القسم التونسي بالوزارة الكبرى.

[52]. العيّاشي : **الزيتونة...، مرجع سابق**، ص 37.

[53]. **أ.و.ت**: س E، ص 260، ملف 13، و47، مراسلة تظلّم من مديري المدارس القرآنية الحرّة بتونس العاصمة إلى السيّد الطيبّ بالخيرية رئيس القسم التونسي بالوزارة الكبرى.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزيتونيون والوعي بقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال الكامل

الغابري عبد الباسط
باحث تونس

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

تعدّ خمسينيات القرن العشرين منعرجا حاسما في تاريخ تونس المعاصر، إذ تضمّنت إرهاصات أولى تشي بأهمّ خيارات تونس ما بعد مرحلة الاستعمار الفرنسي المباشر. ولئن تباين وعي الزيتونيين بتلك المستجدّات، فإنّ الثابت لدينا أنّ الشبيبة الزيتونية ممثّلة في حركة صوت الطالب الزيتوني كان وعيها عميقا بخطورة المسألة الثقافية في حاضر تونس ومستقبلها. وإذا كان ظاهر نضالها المرير تركّز في مسألة تعصير التعليم الزيتوني في مستوى البرامج والهيكلة والتأطير والبنية الأساسيّة، فإنّ باطنه قد تجاوز ذلك إلى الربط بين التعليم والتثقيف ربطا محكما نظرا إلى أنّه لا فائدة ترجى من تعليم مفصول عن الثقافة الوطنية التي تشكّل أحد أسس الشخصية القاعدية من منظور التيار الثقافي الأمريكي ممثّلا في رالف لنتون R. Linton وغيره. وهو تصوّر مقابل للسياسة الثقافية الاستعمارية. وقد عنى إبراز العامل الثقافي إحياء الثقافة العربيّة الإسلاميّة وتطويرها للإسهام الجاد في تحقيق استقلال حقيقي يضمن المساهمة الفعّالة في الحضارة الإنسانية دون إهدار الحقّ العربي الإسلامي في المحافظة على خصوصيّته الحضارية والحقّ في الاختلاف الفكري والفلسفي. وهو ما يمكن إدراجه ضمن العقلانية الموسّعة أو "العقلانية المفتوحة" على حدّ تعبير إدغار موران E. Morin التي لا ترى تعارضا بين الدين والحداثة بصفتها "مشروع غير مكتمل" بعبارة هابرماس. Habermas

ستتناول مقاربتنا هذه الإشكالية في محورين متكاملين: محور نظري تبحث فيه في معنى ربط الثقافة بالاستقلال انطلاقا من إشكاليات المتخيّلات الاجتماعية والهوية ومرتكزات الشخصية الأساسية والأنظمة الرمزية، ومحور تحليلي يتفرّع إلى عنصرين أساسيين: عنصر أوّل نهتم فيه بمعنى الثقافة في تصوّر طلبة الخمسينيات بالزيتونة، وعنصر ثان نتعرّض فيه إلى دور الثقافة في تحقيق استقلال كامل وأبعاد المشروع الثقافي الزيتوني.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الكلمات الدالة :.

الزيتونيون– الثقافة– الاستقلال– تونس– التعليم

العنوان بالإنجليزية :

.Abstract:

The Fifties of the twentieth century is considered crucial in the modern history of Tunisia, as it included the first indications of significant Tunisia options beyond the stage of direct French colonialism. While awareness zeitounis contrast to those developments, the hard our Zaytuna students who represent the voice of the student movement Zitounis was a deep awareness of the seriousness cultural issue in the present and future of Tunisia.. If the apparent struggle bitter focused on the issue of modernization of Zaytuna education programs and restructuring and supervision and infrastructure level, the essence has exceeded to the linkage between education and education linked arbitrator as it did not benefit in an unbroken teaching of the national culture, which constitute one of the foundations of basal personal American cultural mainstream perspective represented by Ralph Linton and others.. It is perception versus colonial cultural policy. The cultural factor is intended to develop Arab-Islamic culture to contribute seriously to achieve true independence ensures effective contribution to the human civilization without wasting the Arab-Muslim the right to maintain the privacy of the cultural and the right to the intellectual and philosophical differences. Which can be included in the extended rationality or "open rationality" as far as Edgar Morin expression that does not see a conflict between religion and modernity as "incomplete project" with Habermas .

Our approach will address to this problem in two axes complementary: the focus of search, in the sense of linking culture independence from problematic of social imaginaries and identity and personal foundations of basic and symbolic systems, and the focus of analysis is divided into two main components: first we take care of it in the sense of culture in the perception of the fifties students Zaytuna mirror, and an element of a second element we are exposed to the role of culture in achieving full independence and cultural dimensions of the zaitounis project.

Key words:

Zeitounis - Culture - Independence - Tunisia - Education

لئن لم تغب قضيّة الثقافة ومتفرّعاتها عن تصوّرات النخبة التونسية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإنّ مرجعيات مشاريعهم الثقافية ومسالك تكريسها والنماذج المأمول ترسيخها قد تباينت إلى حدّ التقابل. و كان من الممكن أن يكون ذلك التباين معينا في صياغة تعدّدية ثقافية وحضارية خلاّقة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لكن عوامل سياسية وسيسيوسيكولوجية أعاقت ذلك التطوّر المأمول. ويعدّ في هذا السياق المشروع الثقافي للزيتونيين الذي تعاقبت في صياغته أجيال متلاحقة جديرا بالاستقراء والتمحيص لما يتضمّنه من معالم مشروع حضاري كان من الممكن أن يؤدّي على المدى البعيد إلى تحقيق استقلال حقيقي وصياغة نموذج عربي إسلامي بديل يمكّن من استعادة الفعالية الحضارية المعطّلة واستئناف الفعل التاريخي.

سنحاول البحث في إشكالية وعي الزيتونيين بقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال الكامل انطلاقا من مستويين: مستوى نظري ومستوى تحليلي. يشمل المستوى النظري توضيح معنى ربط الثقافة بالاستقلال من خلال عناصر المتخيّلات الاجتماعية والوعي الجمعي والهويّة والشخصية الأساسية ونسق التعليم. أمّا المستوى التحليلي فيتّصل بتفريع أشكال وعي الزيتونيين بذاتهم وبقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال انطلاقا من النظر في تركيبة الزيتونيين ومفهومهم للاستقلال ونوعية مشروعهم الثقافي ومرتكزاته.

1-معنى ربط الثقافة بالاستقلال.

يستندّ الربط الذي نفترضه بين الثقافة والاستقلال إلى معطيات متعدّدة منها ما يتّصل بعلاقة الثقافة بالشخصية الأساسية أو القاعدية والهويّة وقيمة المتصوّرات أو "المتخيّلات الاجتماعية"[1] في صياغة براديغم مشترك. ذلك إنّه يستحيل الحديث عن تثاقف أو تصادم بين الحضارات دون أن يكون هناك شعور بالمغايرة والاختلاف بدليل أنّه عندما يتمّ الحديث عن ثقافة ما مثل الثقافة الأمريكية سرعان ما يتبادر إلى الأذهان ملامح الشخصية الأمريكية المحدّدة في بعض السمات والمقوّمات شأن البراغماتية والفردانية وتقديس العمل والاستقلالية[2].

ولئن كان تقسيم الثقافة إلى قطاعات مادية وفكرية واجتماعية شائعا عند الأنثربولوجيين، فإنّه ظلّ تقسيما تنظيميا[3]. ذلك أنّ مفهوم الثقافة شهد تطوّرات متلاحقة تمّ فيها صهر تلك القطاعات التنظيمية المختلفة[4] مع التيّار الثقافي الأمريكي ممثّلا في مرغريت ميد M.Meed وأبرام كردينار A. Kardiner ورالف لنتون R. Linton. فلنتون عرّف ثقافة المجتمع بكونها "طريقة حياة أفراده، وهي مجموعة من الأفكار والعادات التي تعلّموها وساهموا فيها ثم نقلوها من جيل إلى آخر"[5].

إذا كان لنتون قد اعتمد في صياغته لمفهوم الثقافة المذكور آنفا على تعدّد حاجيات الإنسان وتوزّعها بين الجانبين المادي والنفسي، فإنّ قيمته الأساسية تكمن في تمهيده لصياغة مفهوم سوسيولوجي للثقافة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يستوعب مختلف المقاربات باعتباره نبّه إلى الارتباطات الحاصلة والعلاقات القائمة بين أنماط الإنتاج الفكري من جهة ومعطيات البيئة الاجتماعية بكلّ أبعادها الاقتصادية والسياسية التاريخي منها والمعاصر من جهة أخرى"[6]. وبهذا المعنى تعدّ الثقافة "ماض كما هي حاضر ومستقبل من المنظور السوسيولوجي، أي أنّ في كلّ ثقافة نسقا موروثا ونسقا آخر يكتسبه الخلف بالقوّة من الأنماط الثقافية السائدة والمؤسّسات التي تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج شروط الإنتاج الثقافي، وهذه الناحية من الثقافة قام بتحليلها بيير بورديو Pierre Bourdieu في مؤلّفاته المختلفة[7].

وقد حرصت الاتّجاهات الوظيفية للثقافة على تحديد النظم المختلفة للثقافة وفي هذا الصدد ميّز مالينوفسكي Bronisław Malinowski, بين تسعة نظم هي النظم الأسرية والتربوية والدينية والأخلاقية والجمالية واللغوية والاجتماعية والقانونية والسياسية[8]. والعلاقة بينها تقوم على أساس التكامل[9].

إنّ ذلك التكامل بين تلك النظم المحدّدة للثقافة يجعلها بمثابة "مجموعة من آليات الضبط–خطط ووصفات وقواعد وتعليمات وهو ما يدعوه مهندس الكمبيوتر بالبرامج الموجّهة للتحكّم بالسلوك"[10] على حدّ تعبير كليفورد غيرتز Clifford Geertz. وهو ما يمكن عدّه مبرّرا لمشروعية الحديث عن مميّزات ثقافية لأمّة من الأمم على أساس أنّ تلك النظم قبل أن تكون نتاجا لتجارب تاريخية متلاحقة، كانت ثمرة ل"نظام الاستعدادات والتصوّرات"[11] سواء المترسّخة في المخيال الفردي والجمعي أو الخاضعة إلى إكراهات الأيديولوجيا المهيمنة. إضافة إلى أنّه مادام الإنسان يتميّز عن جميع المخلوقات بقدرته على صنع الثقافة، فإنّ كلّ مجتمع بشري ينفرد آليا بخصائص ثقافية مميّزة عن باقي المجتمعات[12].

إنّ الإقرار بحقيقة التميّز الثقافي بين المجتمعات والأمم في نطاق ما يعرف بالخصوصية الثقافية لا يمكن أن يستمدّ معناه إلاّ في ضوء التسليم بحقيقة ثانية من جنس تلك الحقيقة الأولى. تتمثّل تلك الحقيقة الثانية في حاجة الثقافة إلى الرعاية والتجديد والإضافة لتأمين وظائفها المتعدّدة سواء بالنسبة إلى الفرد أو إلى المجتمع. ويشير بارسونز Parsons وبالس Bales في هذا الصدد إلى أنّ "الثقافة لا تنتقل ببساطة إلى الأطفال ولا يمكن تغييرها أبدا. وإذا هي لم تكرّر وتعزّز في السلوك الحقيقي فبالإمكان تغييرها. لذا فهي تتطلّب دائما رعاية وإعادة بناء"[13].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولمّا كانت النظم الرمزية من لغة ومعتقدات وتعبيرات فنيّة مكوّنا من مكوّنات الثقافة فهي تضطلع بعديد الوظائف مثل الهيمنة أو التضامن[14]. لكن تبقى وظيفة تحديد الهويّة أبرزها على الإطلاق، إذ لا جدال في أنّ الهويّة إفراز من إفرازات الثقافات[15] بحكم ما تختزنه المنظومات الرمزية وغيرها من المحدّدات المكوّنة للثقافة من سمات ثقافية مميّزة خاصّة بمجموعة بشرية ما أو بأمّة من الأمم تسعى إلى ترسيخها جيلا عن جيل. ولعلّه لهذا السبب يسوغ الحديث عن مفهوم الشخصية الأساسية الذي هو مفهوم تجريدي قبل أيّ شيئ آخر.

يضمر الحديث عن الهويّات أو الشخصيات الحضارية المتعدّدة إقرارا صريحا ومضمرا بوجود نوعين من العلاقات بينهما: تتمثّل العلاقة الأولى في ما يمكن اختزاله في التثاقف أو التعارف. وهي بلا شكّ علاقة إيجابية نظرا إلى أنّه لا يمكن لأي ثقافة أن تضمن وجودها وتطوّرها دون انفتاح مقنّن على الثقافات الأخرى. أمّا العلاقة الثانية فهي علاقة سلبية تقوم على الهيمنة والصراع، وهي غالبا ما تكون في علاقة "الغالب بالمغلوب" وفق المصطلح الخلدوني.

يمكن القول أنّه في ضوء تلك العلاقات خاصّة العلاقة الثانية يمكن تنزيل طرحنا لإشكالية دور الثقافة في تحقيق استقلال كامل انطلاقا من نموذج النخبة الزيتونية خلال النصف الأوّل من القرن العشرين. ونعني بالاستقلال الكامل توفير شروط الإقلاع الحضاري في نطاق مقاربة تجمع بين الحرص على التحرّر السياسي والاقتصادي من قبضة الاستعمار الفرنسي وتعزيز مقوّمات الشخصية الوطنية والقومية استنادا إلى سياسة ثقافية تقدّم الصياغة على الدعاية والعمل المؤسّس بعيد المدى على الحلول الارتجالية الآنية. ولا شكّ أنّ التعليم يعدّ ركنا أساسيا في بناء الإنسان الفاعل. ولعلّه لهذا السبب أولى الزيتونيون مسألة تطوير التعليم الزيتوني وتجديده أهميّة قصوى طيلة ما يربو عن النصف قرن. ولم يكن ذلك الاهتمام مقطوع الصلة بموقفهم عن مستقبل تونس المعاصرة. وسنحاول في العنصر التالي النظر في أشكال وعي الزيتونيين بالعلاقة بين الثقافة والاستقلال وطبيعة مشروعهم الثقافي والحضاري.

2-الزيتونيون والوعي بقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال الكامل.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يتطلّب الحديث عن مفهوم الاستقلال وعلاقته بالثقافة في الوسط الزيتوني تحديد بعض الضوابط الأساسية اجتنابا للتعميم. يمكن أن نذكر من بين تلك الضوابط تركيبة الوسط الزيتوني وأهمّ فاعليه الاجتماعيين ثم معنى الاستقلال فالمشروع الحضاري للزيتونيين.

أ–تركيبة الزيتونيين: لقد كانت المؤسّسة الزيتونية طيلة النصف الأوّل من القرن العشرين قطبا متعدّد الأبعاد. يبرز ذلك التعدّد في تنوّع المنطلقات والتوجّهات لأسباب تاريخية وعقائدية وديمغرافية. ويمكن تصنيف ذلك التعدّد في الثنائيات التالية:

•ثنائية المحافظة والإصلاح: إذا كان بعض الزيتونيون اعتقدوا أنّ المحافظة على الطابع التقليدي للزيتونة يقيها مهاوى الانحراف عن وظائفها الدينية والروحية، فإنّ صنفا آخر من الزيتونيين عدّ الإصلاح شرطا ضروريا لاستمرارية المؤسّسة الزيتونية في واقع متسارع التغيّر[16]. وقد برزت هذه الثنائية منذ تولّي لويس ماشويل Louis Machuel إدارة التعليم العمومي يوم 6 ماي 1883[17]، وتوضّحت اكثر مع تحرّكات الطلبة الزيتونيين سنة 1910 وفي الفترات اللاحقة خاصّة خلال الثلاثينيات مثلما تفصح عنه محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني[18].

–ثنائية المالكية والحنفية: تظهر هذه الثنائية بصفة خاصة عند اجتياز مناظرات التدريس بالزيتونة واختيار المترشّحين على أساس المساواة بين المذهبين المالكي والحنفي. وإذا كان الشيخ محمد الطاهر ابن عاشوروبعض فقهاء المالكية قد عارضوا الاختيار على أساس المذهب واعتباطية المساواة بين المذهبين في اختيار المقبولين باعتبار التفاوت الصارخ بين العدد الكبير للمترشّحين من المذهب المالكي مقابل العدد المحدود من المترشّحين من المذهب الحنفي، فإنّ شيخ الإسلام إضافة إلى الشيخ محمد الهادي بن القاضي عارضا ذلك خلال جلسة الإصلاح الرابعة عشر يوم 23 نوفمبر 1925. وقد برّروا ذلك بأنّ الغاية من ذلك التصنيف المذهبي رعاية العلم وضمان استمرارية المذهبين وليس محاباة المترشّحين من المذهبين[19].

•ثنائية الآفاقيين والبلديين: ترتبط بعلاقات متعدّدة بالثنائية السابقة في ما يتّصل بانتماء معظم الطلبة الآفاقيين إلى المذهب المالكي وانحصار المذهب الحنفي في البيوت الكبيرة المقرّبة من الباي. يرجع تزايد عدد الطلبة الزيتونيين الآفاقيين إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، فقد قدّرت نسبة تثيلهم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ب75٪ خلال الثلاثينات. وقد انحدر أغلب طلبة الزيتونة قبل تلك الفترة من العاصمة والمدن الكبرى مع تميّز أبناء البيوت التونسية الكبيرة[20].

تبرز هذه الثنائية في فترات الأزمات خلال وجود اضطرابات اجتماعية وسياسية خاصّة أثناء التنافس في المناظرات الزيتونية مثلما حصل في أواخر أكتوبر 1934 أثناء إجراء امتحان التطويع حيث تمّ ترويج إشاعة بين الطلبة تشير إلى وجود جمعية سرية مكلّفة بالانحياز إلى الطلبة البلديين وإعاقة نجاح الطلبة الآفاقيين في الامتحان والمناظرات الإدارية[21].

•ثنائية الشباب والشيوخ: تعدّ ثنائية نسبية بما أنّ بعض الشيوخ الزيتونيين تميّزوا برؤية تاريخية سليمة مكّنتهم من استيعاب حقيقة التحوّلات وطبيعة المستجدّات. تتلخّص هذه الثنائية في بروز أجيال متلاحقة من الشباب الزيتوني منذ إضراب سنة 1910 للمطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني وجعله مواكبا لروح العصر. ويمكن الإقراربأنّ لجنة صوت الطالب الزيتوني تعدّ أرقى ما وصل إليه وعي الطلبة الزيتونيين بما هي تتويج لسلسلة من النضالات المريرة في سبيل تطوير الثقافة العربية الإسلامية في تونس.

لا شكّ أنّ تعدّد تركيبة الزيتونيين سيؤثّر في مدى قوّة مواقفهم وتماسكها في عديد القضايا مثل مسألة الاستقلال الذي ربطناه في موضوع هذه المحاضرة بالثقافة. فما معنى الاستقلال في تصوّرات النخبة الإصلاحية الزيتونية؟

ب–معنى الاستقلال عند النخبة الزيتونية الإصلاحية: لئن كان لا يتسع السياق للإتيان على معنى الاستقلال عند مختلف الفاعلين الزيتونيين، فإنّه يمكن الاكتفاء ببعض النماذج والعيّنات مع التركيز على الموقف الذي ينسجم مع جوهر الإشكالية المطروحة.

إذا كان معنى الاستقلال قد ارتبط في فكر عبد العزيز الثعالبي ومحمد الطاهر ابن عاشور بضرورة تجاوز الأسباب العميقة التي تحول دون تحقيقه، وهي "أسباب عامة متسبّبة في تخلّف المسلمين"[22] على حدّ تعبير محمد الطاهر ابن عاشور أو "التركيز على روح التحرّر في القرآن"[23] ودحر الاستعمار الفرنسي[24] عند الثعالبي، فإنّ الخطاب الطلابي الزيتوني الذي صاغته لجنة صوت الطالب الزيتوني في صحيفتيها "صوت الطالب" و"صدى الزيتونة" ركّز على الأسباب المباشرة لكن دون إغفال بقية الأبعاد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الأخرى. إذ غالبا ما تتجاور مفاهيم الوطنية والأمتين العربية والإسلامية وبنسبة أقلّ الأمّتين المغاربية والإفريقية جنبا إلى جنب. يبرز في هذا الصدد مفهوم "الاستقلال القومي"[25] باعتباره ثمرة من ثمار الوطنية الحقيقية لا "الوطنية المهداة"[26]. يشرح الشيخ محمد البدوي الفرق بين هذين المستويين من الوطنية بالتركيز على أنّ الوطنية الحقيقية لا تقبل بالتنازل عن القضايا المصيرية ومقوّمات الشخصية الوطنية مهما تبدّلت الظروف وقست الأحوال[27].

ينبني هذا الموقف من الوطنية على فهم عميق لحقيقة الصراع مع الاستعمار الفرنسي. فلئن كان ظاهر الصراع تفاوت موازين القوى بين الآخر المتمكّن ماديا والذات المنهوكة بمساوئ الحكم المطلق و"تقليدية البؤس"(traditionalisme du désespoir) [28]، فإنّه في الحقيقة صراع ثقافي وحضاري تسوّقه الأيديولوجيا الاستعمارية على أساس مهمّة ترقية المجتمعات المتخلّفة لتمدينها وتمكينها من أن تحكم نفسها بنفسها[29]. بينما كان في الحقيقة يسعى وفق استراتيجيا مقنّنة إلى تذويب الخصوصيّة الحضارية ضمن ما عبّر عنه هيقل ب"إفريقيا الأوروبية"[30] في محاضرات فلسفة التاريخ. وقد كثّف الخطاب الطالبي شرحه لهذه النقطة المحورية في مقال نشر يوم 15 ديسمبر 1950 بصحيفة صوت الطالب تحت عنوان "أمّة تذوب بين معاهدات تحت الضغط ومفاوضات تحت طيّ الخفاء". كتب الشيخ محمد البدوي حرفيا ما يلي: "واصل الشعب التونسي في رباطة جأش وقوّة إيمان صراعا عنيفا كانت ومازالت تدور رحاه على أديم العروبة، ومبدإ نشر الإسلام في الأصقاع الإفريقية. ذلك الصراع الطاحن الذي يهدف القائمون به تحت شتّى العناوين إلى قطع لسان القرآن، وطمس معالم الدين الإسلامي الحنيف، وتحويل هذه الأرض التي أريقت فيها دماء الأباء والأجداد وتعالت في قممها ووهادها أصوات الحقّ وصرخات الجهاد إلى رقعة أوروبية وموطن غربي وملجإ فرنسي، يعيشون فيه عن وفرة وثراء ويلتجئون إليه كلّما ألّمت بهم الملمّات أو طاردت الضباع الجائعة الثعالب الجشعة فنزلت هذه إلى أحياء الطيور الداجنة تطحن رؤوسها طحنا وتلقي بأرياشها في مهبّ الرياح العواصف"[31].

لم يكن الوعي بحقيقة الصراع وانعكاساته المختلفة عفو خاطر، وإنّما استند إلى فهم عميق للسياسة الثقافية الاستعمارية التي تقوم على عدّة دعائم منها:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

–الحطّ من قيمة اللغة العربية فقد سبق للمقيم العام مونصرون Manceron أن صرّح في يوم 13 أكتوبر 1932 أنّ من شروط التحاق تونس بالحضارة الحديثة الإقرار بعجز اللغة العربية مقارنة باللغة الفرنسية من ناحيتي الوضوح والدقّة[32].

–الحرص على عدم ضخّ دماء جديدة في جامع الزيتونة وهو ما يفسّر تعدّد جلسات إصلاح التعليم الزيتوني دون الوصول إلى إصلاحات جذرية. ذلك أنّ تعصير التعليم الزيتوني يتعارض مع مصالح فرنسا الاستعمارية بما أنّ بروز نخبة ذات ثقافة عربية إسلامية منفتحة على علوم العصر ومستجدّاته من شأنه أن يفسد برامجها ويعرقل مصالحها[33].

–احترام تقاليد المسلمين ما لم يمس ذلك مصالح الاستعمار[34]، وهو ما يفسّر غضّ سلطة الحماية النظر عن الزوايا والطرق وتزايد عدد الطلبة الزيتونيين من عقد إلى آخر وعدم اعتراضهم على حصر جامع الزيتونة في طابعه الديني.

إنّ ذلك الوعي بحقيقة السياسة الثقافية الاستعمارية التي تعمل على إيجاد "عقلية"[35] تضمن مصالحها على حدّ وصف الخطاب الطلابي يعدّ مجهرهم الأساسي الذي استبقوا بواسطته مواقف عديد القوى السياسية من الاستقلال الداخلي بما فيهم الزعيم صالح بن يوسف. إذ سبق للجنة صوت الطالب الزيتوني أن عدّت التجربة التفاوضية الثانية سنة 1950 وحكومة محمّد شنيق المنبثقة عنها تراجعا لا مبرّر له في مسيرة القضيّة التونسية بما أنّه كان هناك إجماع وطني منذ مؤتمر ليلة القدر يوم 23 أوت سنة 1946 على المطالبة بالاستقلال التام. وقد نبّهوا في هذا الصدد وقبل خمس سنوات من اندلاع الخلاف اليوسفي–البورقيبي إلى سلسلة التراجعات المخيّبة للآمال التي ينتهجها الديوان السياسي للحزب الدستوري الجديد، إذ تمّ التراجع من الاستقلال التام إلى الاستقلال الداخلي إلى النقاط السبع إلى المشاركة في الحكم التفاوضي سنة 1950 [36]. إجمالا يمكن القول أنّ معنى الاستقلال عند الزيتونيين اقترن بالمشغل الثقافي والتعليمي تحديدا. ومن هنا فإنّه قد اجتنب الآفات التي لحقت تصوّرات بقيّة العناصر المكوّنة للمشهد التونسي خلال خمسينيات القرن الماضي. ففيم تتمثّل مقوّمات المشروع الثقافي الزيتوني؟

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ج–المشروع الثقافي الزيتوني: لم يغب مصطلح "المشروع الثقافي" ولا مفهومه عن الأدبيات الزيتونية□□ . ويقترن الحديث عن ذلك المشروع الثقافي بفهم محدّد للثقافة يجعلها مسألة مصيرية تشبه "الماء" و"الهواء"□□ إلى حدّ أنّه لا يمكن دونها الحديث عن حياة إنسانية. يكتسب ذلك التشبيه وجاهته من تقاطع الثقافة بالجانب الروحي والعقائدي للنخبة الزيتونية، إذ لطالما كان مبدأ الدفاع عن العروبة والإسلام عنوانا جامعا لكلّ التحرّكات المواجهة للاستعمار الفرنسي. إضافة إلى الجانب التعليمي الذي توضّحت معالمه منذ لائحة محمد الصالح المهيدي الشهيرة[39] سنة 1929 ونضج في "دستور الزيتونيين الجامع" مع لجنة صوت الطالب الزيتوني سنة 1950 والشعبة العصرية الزيتونية بداية من سنة 1951.

يقوم المشروع الثقافي الزيتوني على توظيف "الرأسمال الرمزي" للزيتونة مع وجوب تطويره وترقيته سواء بتجديد الهياكل والمؤسّسات بإحداث حيّ زيتوني (معهد ابن شرف حاليا) وكلية زيتونية جديدة بـ□ موقعها البناء الذي شيّدت عليه كلية 9 أفريل الحالية أو بإدخال إصلاحات بيداغوجية وتربوية تشمل مواد التدريس ومناهجها والانفتاح على اللغات والعلوم الصحيحة[41].

وقد كان يمكن للشعبة العصرية الزيتونية أن تتطوّر إلى مشروع تعليمي وطني بمقدوره أن يصبح نموذجا مغاربيا وعربيا إسلاميا خاصّة أنّه تزامن مع محاولات مقنّنة ومتدرّجة في تعريب المصطلحات العلمية. غير أنّ رغبة السلطة البورقيبية في دولنة المجتمع إضافة إلى تعارض ذلك مع طموحات النخبة النافذة ذات الثقافة الفرنسية في الاستئثار بجلّ المناصب والمراكز الحيوية في دولة الاستقلال مثلما أشار إلى ذلك محمد عابد الجابري في تقريره عن التعليم ببلدان المغرب العربي أجهض ذلك المشروع، فأدمجت الشعبة العصرية في الشعبة "أ" ضمن مشروع توحيد التعليم التونسي الذي صاغه المتفقّد الفرنسي جان دوبياس Jean Debiesse سنة 1958. يمكن إدراج ذلك المشروع الثقافي الذي صاغه الزيتونيون على امتداد أجيال متلاحقة ضمن "العقلانية الموسّعة" أو "العقلانية المفتوحة"[42] بعبارة إدغار موران.E. Morrin . وهي على نقيض العقلانية الأداتية والمجرّدة لا ترى تعارضا بين الإسلام وقيم التقدّم والتحرّر والعدالة. وقمين بنا الإشارة في هذا السياق إلى أنّ مفهوم الديمقراطية لم يكن غائبا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عن الخطاب الذي صاغته لجنة صوت الطالب في صحيفتيها، إذ تمّ التمييز بين ديمقراطية شكلية موهومة وديمقراطية حقيقية فعلية.

لقد ارتبط مفهوم الاستقلال عند الزيتونيين بصياغة مشروع ثقافي ينفذ إلى روح الحداثة فيراهن على توظيف الرأسمال الرمزي للزيتونة وقابليتها إلى أن تفرز نسقا تعليميا مبتكرا يسهم في تكوين مجتمع متصالح مع ذاته ومع الآخر في نطاق الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة. غير أنّ عدّة عوامل مركّبة سواء في ما يتّصل بالانشقاقات الحاصلة داخل المؤسّسة الزيتونية ولجنة صوت الطالب تحديدا أو عوامل خارجية شأن طبيعة الأيديولوجيا الاستعمارية وخيارات السلطة البورقيبية أجهضت ذلك المشروع.

الهوامش :

---

[1]–تشارلز تايلور، المتخيّلات الاجتماعية الحديثة، ترجمة الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015، ص 29.

[2]–باسم خفاجي، الشخصية الأمريكية وصياغة القرار السياسي الأمريكي، ط1، المركز العربي للدراسات السياسية، 2005، صص 58–101.

[3]–عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص 48.

[4] -Jean Pierre Martinon, Sociologie de la culture, Encyclopédia Universalis, France S/A , 1993, 6/954.

[5]–هارلبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، ط1، دار كيوان، دمشق، 2010، ص 8.

[6]–عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، م س، ص 87.

[7]–م ن، صص 87–88.

[8]–م ن، ص 91.

[9]–م ن، ص ن.

[10]–كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 51.

[11]– عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، م س، ص 103.

[12]– عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، م س، ص 115.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[13] -Parsons, I, and Bales, R,E, (adj) (1955) Family, Sociolisation and Interaction process the free press New work, p301.نقلا عن هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، م س، صص 32-33.

[14]–بيير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 1990، صص 52-54.

[15]–وهو ما يذهب إليه ستيفان فروش Stephen Frosh راجع: هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، م س، ص 15.

[16] -Mustapha Kraiem, L'université de la Zitouna dans les années trente, revue tunisienne des sciences sociales, Année 1987, Publication du C.R.E.S, Université de Tunis, p50.

[17]– راجع: علي الزيدي، حركة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة منذ نشأتها حتّى لجنة صوت الطالب الزيتوني، المجلة التاريخية المغاربية، ع 35-36، ديسمبر 1984.

[18]–عبد الجليل التميمي، محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 21 و22 أفريل 1981، ص 16.

[19]– التميمي، محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني، م س، ص 24.

[20] - Kraiem, L'université de la Zitouna…, op.cit, p54.

[21]–أشار الطلبة إلى أنّ هذه اللجنة ترأّسها الشيخ مختار بن محمود وبعضوية الشاذلي بن القاضي ومحمد بن القاضي والشيخ البشير النيفر والشيخ الطاهر النيفر...، راجع
- Kraiem, L'université de la Zitouna…, op.cit, p76.

[22]–محمد الطاهر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، الشركة التونسية للتوزيع، 1967، ص 114.

[23]–راجع عبد العزيز الثعالبي، روح التحرّر في القرآن، دار الغرب الإسلامي،

[24]– عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

[25]–محمد البدوي، راجع حكمك في الزيتونيين أيّها الشعب، صوت الطالب الزيتوني، السنة الأولى، ع 38، 13 جوان 1951. راجع كذلك كتابنا تونس العميقة الذي جمعنا فيه مقالات الشيخ البدوي، الدار التونسية للكتاب، 2014، ص 171.. وسنكتفي من هنا فصاعدا بالإشارة إليه كلّما اعتمدنا مقالات الشيخ البدوي.

[26]–تونس العميقة، م س، ص 175.

[27]–م ن، ص ن.

[28] -Hichem Abdessamed, La résidence face a la question de la réforme de l'enseignement Zaytounien (1930-1933) in, Les mouvement politiques et sociaux dans la Tunisie des années 1930. Acte du 3em séminaire sur l'histoire du

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Mouvement national (17-18-19) mai 1985, Sidi Bousaid, Tunis, Publication scientifique tunisienne, 1987, p 802.

[29] جيرار لكلارك: الأنثربولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، ط2، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ص 161.

[30] –هيقل، العقل في التاريخ، المج 1 من محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط3، دار التنوير، بيروت، 2007، ص 169.

[31] –محمد البدوي، أمة تذوب بين معاهدات تحت الضغط ومفاوضات تحت طيّ الخفاء ضمن كتاب تونس العميقة، م س، ص 196.

[32] - Abdessamed, La résidence face à la question de la réforme, op.cit, pp 802-806.

[33] -, op.cit, p 804.

[34] -, op.cit, pp 804-806.

[35] –راجع تونس العميقة ، م س ، ص 171.

[36] –عبد الباسط الغابري، صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافية سياسية، مركز النشر الجامعي، 20111، ص 292.

[37] – راجع تونس العميقة ، مس ، صص 197–198.

[38] – الغابري، صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافية سياسية،، م س، ص 387.

[39] –محمد الصالح المهيدي، لائحة في إلاح التعليم الزيتوني، مطبعة الاتحاد، تونس، 1929.

[40] – راجع تونس العميقة ، مس ، ص 143.

[41] – علي الزيدي، تاريخ الشعبة العصرية الزيتونية 51951– 1965)، ط1، منشورات مركز البحوث في علوم المركبات والمعلومات، تونس، 1986.. راجع كذلك الغابري، صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافية سياسية،، م س، ص ص 239–242.

[42] –محمد عابد الجابري، التعليم في المغرب العربي دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم بالمغرب والجزائر وتونس، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1989.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

اهتمامات جريدة البصائر بقضايا الجزائريين الزيتونيين

أ.د. حنيفي هلايلي
جامعة سيدي بلعباس – الجزائر
البريد الإلكتروني : hanifi_andalous@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/01/12

الملخص:

تبوأت الصحافة مكانة عظيمة في نضال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومشروعها الإصلاحي. و الظاهر أن جمعية العلماء أدركت نجاعة وفعالية الصحافة في التأثير على الرأي العام وإيصال المعلومة إليها ودفع الشبه عنها عما يرميها بها أعداؤه الكثر من الطرقيين والمستعمر الفرنسي، ما جعلتها تهتم اهتماما بالغا من مظاهر العناية الفائقة بإصدار الجرائد والمقالات والكتابة فيها باللغة العربية والفرنسية. لا يختلف اثنان أن جريدة البصائر هيأ برز جرائد الجمعية وهي من أهم صحف هذه الجمعية، ومن أكبر الصحف العربية الجزائرية شهرة وانتشارا ومن أعظمها أهمية لما تركته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية من جميع نواحيها. نستشف من نصوص البصائر عبر مراحل نشراتها أنها لعبت دورا إصلاحيا طلائعيا. و الواقع أن الدعاية التي قامت بها جمعية العلماء لصالح الشباب الجزائري للتغرب و طلب العلم نحو معاهد الزيتونة بتونس العاصمة كانت وراء ارتفاع عدد المنتسبين الجزائريين حيث بلغ في سنة 1952 نحو ألف و خمسمائة طالب جزائري. إن مظاهر الوفاء والتكريم الذي أبداه الطلبة الجزائريون المهاجرون نحو تونس تعتدت، وشدت عرى اللحمة بين الشعبين، مما كان له الفضل في جعل الكفاح المشترك ضد المستعمر الفرنسي.

كان للبعثات العلمية الجزائرية نحو تونس دور مميز في تغذية حركة النهضة والإصلاح في الجزائر في مختلف الجوانب التربوية والتعليمية والدينية والسياسية وهذا بفضل الجامع الأعظم وشيوخ الزيتونة حيث توسعت دائرة الأنشطة الثقافية والأدبية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية بالرغم من المضايقات والقوانين التعسفية التي حرمت الجزائريين من التعليم.

الكلمات الدالة:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الطلبة الجزائريون– جامع الزيتونة– العلاقات التونسية الجزائرية– التعليم– الصحافة

العنوان بالإنجليزية:

The interests of Al - Bassair newspaper Algerian Zeitouna

.Abstract:

The press has assumed a great place in the struggle of the Algerian Muslim Scholars Association and its reform project. It seems that the Association of Scholars has realized the effectiveness and effectiveness of the press in influencing the public opinion and providing information to it and paying similarities to what is intended by the enemies of many of the road and the French colonizer, which made them interested in extreme manifestations of intensive care in the issuance of newspapers and articles and written in Arabic and French. It is no different that Al-Bassair newspaper has become one of the most important newspapers in this association. It is one of the largest and most important Arabic newspapers in Algeria, because it has a profound impact on the course of national life in all its aspects. We learn from the texts of the insights through the stages of their publications that they played a reformative role. In fact, the propaganda by the Association of Ulema for the benefit of young Algerians to emigrate and to seek knowledge towards the Zaytouna Institutes in Tunis was behind the rise in the number of Algerian associates. In 1952, there were about one thousand and five hundred Algerian students. The expressions of loyalty and honor shown by the Algerian immigrant students towards Tunisia have been aggravated and the bonds between the two peoples have been tightened, which has been credited with making the common struggle against the French colonizer.

The Algerian scientific missions towards Tunisia have played an important role in feeding the Renaissance and Reform Movement in Algeria in various educational, religious and political aspects thanks to the Grand Mosque and the Elders of Zaytouna, where the cultural and literary activities in Algeria expanded during the colonial period despite the harassment and arbitrary laws that deprived Algerians of education.

Key words:

Algerian students - Zaytouna Mosque - Tunisian-Algerian relations - Education – journalism.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تبوأت الصحافة مكانة عظيمة في نضال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومشروعها الإصلاحي. و الظاهر أن جمعية العلماء أدركت نجاعة وفعالية الصحافة في التأثير على الرأي العام وإيصال المعلومة إليها ودفع الشبه عنها عما يرميها بها أعداؤه الكثر من الطرقيين والمستعمر الفرنسي، ما جعلتها تهتم اهتماما بالغا من مظاهر العناية الفائقة بإصدار الجرائد والمقالات والكتابة فيها باللغة العربية والفرنسية. لا يختلف اثنان أن جريدة البصائر هيأ برز جرائد الجمعية وهي من أهم صحف هذه الجمعية، ومن أكبر الصحف العربية الجزائرية شهرة وانتشارا ومن أعظمها أهمية لما تركته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية من جميع نواحيها.(1)

تعد البصائر رابع صحف جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين الأسبوعيّة. أنشأت بعد تعطيل الإدارة الاستعمارية لثلاث جرائد للجمعية في سنة واحدة و هي السنة المحمدية (1933) ،الشريعة المطهرة (1933) ،الصراط السوي (1933-1934) -. فقد وصل الأمر إلى أن الحاكم العام جول كارد(1930-1935) (Jules Carde1874 -1949) قد أصدر مرة أمراً استبدادياً، يقضي بتعطيل كل صحيفة، تصدرها جمعيّة العلماء مسبقاً، قبل ظهورها. ورغم ذلك لم تنثن إرادة العلماء، وعلى رأسهم الشّيخ عبد الحميد ابن باديس(1889-1940)في مواصلة إصدار الجرائد، فأعادت الجمعيّة طلبها الرخصة القانونية بإصدار جريدة تكون لسان حالها. وبعد مدة ليست بالقصيرة، أذنت لها الإدارة الاستعمارية بإصدار جريدة "البصائر"، وذلك في 1 شوال 1354 هـ الموافق لـ27 ديسمبر 1935 م.

لقد أفلتت (البصائر) من توّقيف الإدارة الاستعمارية حيث ظلّت تصدر بانتظام إلى سنة 1939 م. خلال هذه المرحلة أشرف عليها الشّيخ (الطّيّب العقبيّ : 1898-1960) من أول عدد لها 27 سبتمبر 1935 م (2)إلى العدد 83 الصادر في 30 سبتمبر 1937 م، حين تحولت إدارة تحريرها من العاصمة إلى قسنطينة، وعين المجلس الإداري لجمعيّة العلماء الشّيخ (مبارك الميلي: 1896-1945) مديرا ومحررا لها خلفا للشّيخ (العقبيّ) إلى أن توقفت بسبب الحرب عند العدد 180 الصادر في 25 أوت 1939 م، حيث قررت الجمعيّة تعطيلها مع إعلان الحرب العالمية الثانية، لئلا تتعرض

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لضغوط ومساومات الإدارة الاستعمارية التي طلبت منها أن تعلن باسمها وتكتب في صفحاتها، تصريحات ومقالات ضد دول المحور. كانت جريدة البصائر تصدر يوم الجمعة قبل أن تتحول إلى يوم الاثنين وتحتوي على ثماني صفحات ويكون العنوان دائما أسودا وفي بعض الأحيان أخضرا أو أحمرا، ويكتب فوقه الآية القرآنية ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأنعام آية 105]. [3]

وتحت عنوانا لجريدة نجد هذه العبارة (لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، ويزخر كل عدد بمجموعة من الصور. وتعد (البصائر) الجريدة الوحيدة التي بقية تصدر بعد وفاة الشّيخ ابن باديس من بين الجرائد التي أشرف على إصدارها ،حيث عادت إلى الصدور بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية من عام 1947 م إلى غاية 1956 م، بإشراف وإدارة رئيس الجمعيّة الثاني الشّيخ (محمّد البشير الإبراهيميّ : 1889-1965). وقد بدأ صدورها يوم 25 جويلية 1947 م، ولكنها لم تلبث أن توقفت عن الصدور مجددا من طرف المشرفين عليها في 6 أبريل1956 م بعدد 361 من إصدارها الثاني، بسبب احتدام الثورة التحريرية وصعوبة العمل في ظل القمع الاستعماري الذي لحق بكافة شرائح المجتمع الجزائري في تلك الحقبة. [4]

- مكانة الجريدة محليا و دوليا :

تعد جريدة البصائر من أكبر الصحف العربية شهرة و انتشارا خلال الحقبة الاستعمارية، لما تركته من أثر في مجريات الحركة الوطنية الإصلاحية.و نستقرأ قيمة الصحيفة من تصريح الشيخ باعزيز بن عمر :"إن سرورنا اليوم عظيم بعودة هذه الجريدة التي تعرف ما تقول و تكتب ما ينفع و يسر"[5].لقد نالت إعجاب العرب مشرقا و مغربا، وتناولت قضايا العرب و المسلمين، و هذا كما جاء في إحدى مقالاتها: " البصائر كيف يراها إخواننا في المغرب الأقصى". [6]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– **دور جريدة البصائر في المشروع الإصلاحي** :[7]

نستشف من نصوص البصائر عبر مراحل نشراتها أنها لعبت دورا إصلاحيا طلائعيا من خلال :

❖ وحدت بين جهود المصلحين و مدت روابط التعاون بين طلائع الإصلاحيين الجزائريين إبان الفترة الاستعمارية.

✓ عرفت بالدين الصحيح.

✓ نفخت في نفوس الجزائريين على المستويين الداخلي و الخارجي حب الوطن و التضحية و غرس روح الأمل و النهوض بالأمة الجزائرية في ظل نكسة الاستعمار الفرنسي.

✓ كشفت مكائد أعداء الدين و الوطن من المستعمرين و الخونة عملاء الاحتلال.

✓ أعادت للغة العربية مكانتها الطبيعية.

✓ أيدت قضايا العالم الإسلامي مشرقا و مغربا، وهو ما عبرت عنه : " طلعت علينا من عاصمة الجزائر فأسمعت العالمين الشرقي و الغربي صوتها العالي المرفوع"[8].

✓ ساهمت في تحرير الجزائر فكريا و لغويا و دينيا و قوميا.

✓ أرست للعلم الصحيح و الاجتهاد القويم و أرزت مناهجه الصحيحة.

✓ أيقظت الشعور بالمسؤولية النخبة المثقفة.

– كانت جريدة تربوية دعوية إصلاحية تهذيبية.

– النشاط الطلابي الجزائري في تونس (1881-1954)من خلال جريدة البصائر.

شكلت الشريحة الطلابية الجزائرية في تونس تنظيما طلابيا ،

وقد شاركت في أول إضراب عرفته تونس ضد نظام الحماية في سنة 1912. و تطور هذا التنظيم بتأسيس جمعية تلاميذ جامع الزيتونة التي تولى الطيب بن عيسى الجزائري و عبد الرحمان الكعاك إعداد قانونها الأساسي.[9] تأسست جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين ،في حدود سنة 1933، و

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كان مقرها بنادي الشبيبة التابع لمدرسة جمعية قدماء المدرسة الصادقية، تعاطفت مع الحزب الدستوري، و حصلت على رخصتها في 20 جويلية 1934،تولى رئاستها الشيخ المهدي البجائي و العضوية الشرفية لشيخ الزيتونة المختار بن محمود(1904-1973)، ثم أسندت الرئاسة فيما بعد للشيخ عبد المجيد جرش .[10]

ترجح المصادر التاريخية أن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان وراء تشجيع الطلبة الجزائريين للالتحاق بالحركة التعليمية في تونس ، و هذا منذ زيارة الإبراهيمي (1889-1965)لتونس في أواخر سنة 1934،[11] الذي أوصى بضرورة تأسيس هيئة إدارية لجمعية الطلبة الزيتونيين بالرغم من توافد الطلبة الجزائريين إلى تونس منذ بشكل فردي و جماعي كالبعثة الباديسية التي عانت الأمرين على غرار البعثة الميزابية التي كانت لها حظوظ وافرة بسبب الإيرادات المالية المتواجدة بتونس. و في هذا الصدد يقول الجابري :" استغرق العمل على إخراج الجمعية من طور التمهيد و التفكير و المشادات إلى الطور العلني بضع سنوات تتعلق بالأوضاع الخاصة بالطلبة الجزائريين الذي كانونا مشتتين و غير متمرسين على الأعمال التنظيمية، تنخرهم الحاجة و الفاقة و تستبد بهم الغربة و يعوزهم قلة الوعي و صلابة القيادة." [12]

ساهمت الظروف السياسية في تونس إلى عقد مؤتمر موسع للطلبة الجزائريين في نوفمبر ، انبثق منه انتخاب الشاذلي المكي(1913-1988) رئيسا للطلبة الزيتونيين الجزائريين، و هذا في اطار هيكلة القيادة و تعميق عملها في الطار التربوي و العلمي، وعقد اللقاءات مع الأوساط الطلابية بغرض التحصيل الفكري و الديني و السياسي.[13] توسعت الكتابات بالنشرات الطلابية لتصل إلى مساهمة العديد من الجزائريين ، و من بينها كتابات الشيخ أبو يعلى الزواوي(1862-1952)، الذي كتب عن موضوع الهجرة، و الشيخ على رحومة الذي حث الطلبة على التضحية في سبيل الوطن.[14]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تعددت نشاطات الطلبة الجزائريين في تونس من مرحلة تلقي الدروس و التحصيل العلمي إلى مرحلة تأسيس الجمعيات ، و مشاركتهم لإخوانه التونسيين ، كجمعية الشبيبة التونسية في جانفي 1937 برئاسة حسين بن عيسى الجزائري و جمعية شبيبة شمال إفريقيا في فيفري 1938، و ضمت عديد الطلبة الزيتونيين. وقد عبر الشاعر الجزائري الأخضر السائحي عن هذه القفزة النوعية للزيتونيين في أبعادها السياسية :

سندرأ بالسيف عنك العذاب *** و نرفع بالعلم فيك العلم

فمن للجزائر غير شباب *** يجاهد بالسيف أو بالقلم

غدا ليتحقق ذلك الأمل *** لديك و ليس غد ببعيد(15)

و خلال الحرب العالمية الثانية انعكست آثارها على نشاط الزيتونيين الجزائريين فظهرت جمعية جديدة في شهر أبريل 1946برئاسة الشيخ أحمد بوروح و الرئاسة الشرفية للشيخ الطاهر بن عاشور(1909-1970)، ثم عادت الرئاسة لعبد الرحمان شيبان، الذي ساهم في حل مشكلة إسكان الطلبة بتونس و إقامة الذكرى السادسة لوفاة ابن باديس. و هذا مايفسر ارتباط الطلبة الجزائريين وولائهم لأساتذتهم بجامع الزيتونة.(16) و خلال سنوات 1947-1948، أصدر الطلبة الزيتونيين الجزائريين: نهضة الجزائر المعاصرة ، نحن طلاب العزة و الكرامة، مبلغ الإحساس الوطني الجزائري.(17)هنالك أسماء عديدة ساهمت في استمرار نشاط الطلبة الزيتونيين، نذكر منهم: إبراهيم مزهود، ومصطفى بوغابة، و محمد الميلي،و محمد الشبوكي، و عبد الله شريط، وقد أصبح العمل الطلابي في تونس من اهتمامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في برنامجها الأساسي، و حسب التقارير الفرنسية فإن جمعية الطلبة الزيتونيين كانت بمثابة الناطق الرسمي لجمعية العلماء بتونس.

في عام 1957 انحصر النشاط السياسي للطلبة الزيتونيين في نظام موحد هو الاتحاد العام للطلبة الجزائريين الموجه من طرف جبهة التحرير الوطني.(18)

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

اهتمامات جريدة البصائر بتونس بقضايا الجزائريين الزيتونيين:

أشار الإبراهيمي في مذكراته عن أوضاع الطلبة الجزائريين بالجزائر خلال الفترة الاستعمارية ما نصه: " كان تعداد الطلبة الجزائريين لا يتجاوز عشر مجموع الطلاب البالغ عددهم خمسة ألاف طالب في جامعة الجزائر، كانوا يعيشون في وسط مغلق، لهم حيهم ومطعمهم وجمعيتهم الخاصة، كانت اتصالاتهم بزملائهم الأوروبيين قليلة..."[19].

من القضايا الحساسة التي كانت تناقش في الأوساط الزيتونة منذ مطلع القرن العشرين الأفكار القومية والحركة النقابية ومواضيع تحرير المرأة والنهضة الثقافية والدينية. نشط الطلبة الجزائريون بتونس في إطار جمعوي، فمنذ 1934 أسس الطلبة الزيتونيين من وادي سوف سنة 1937 جمعية تساعدهم على التحصيل الدراسي، ومنذ الأربعينيات تشكلت البعة الجزائرية الزيتونية لجمعية العلماء، وتفرعت هذه الجمعيات تحت إشراف الطلبة الزيتونيين إلى ما يلي:[20]

- جمعيات ذات طابع ثقافي.
- جمعيات إعانة الطلبة والدفاع عن مصالهم.
- النوادي السياسية والثقافية.
- الجمعيات الرياضية.(جمعية الرابطة الرياضية الزيتونية في جانفي 1931).
- جمعيات الكشافة.(الكشاف المسلم التونسي سنة 1944).

يحق للدارس أن يسأل عن العوامل التي أدب بالعلماء و الطلبة الجزائريين إلى الهجرة نحو تونس؟ هناك عوامل كثيرة ،أبرزها:

- العامل الروحي المتمثل في وجود شيوخ طرق صوفية اشتهرت بتونس و ذاع صيتها، و كثرة مراكز التعليم الديني و المدارس القرآنية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- العامل الاستعماري، إذ هاجر العلماء و الطلبة منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، و خاصة بعد نجاح الإصلاحات التعليمية التي قادها خير الدين.و هروب الشباب الجزائري من سياسة التجنيد الإجباري الذي فرضته سلطات الاحتلال منذ 1912، و قد صدرت فتاوى بهذا الشأن في تحريم التجنيد من طرف علماء الجزائر كفتاوى عبد الحليم بن سماية(1866-1933) و الشيح عبد الحميد بن باديس.(21)

- العامل الأمني: شهدت تونس هدوء نسبي و احترام سلطاتها للعلم و العلماء.

- دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و على رأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهو أمر أشار إليه الإبراهيمي في البصائر: " إن قطع ألاف الأميال في سبيل التعليم الابتدائي ليست من العقل و لا من السداد، و ما دامت معاهدنا كليات فالواجب أن لا يرحل إليها إلا من استكمل التعليم الابتدائي في وطنه، وقطع مراحله في مكاتبه أو مدارسه أو زواياه و استعد للتعليم الثانوي، فهناك تحسن به الرحلة و تكون لها فائدة، و هذا واجب تشترك فيه الأمة و الجمعية و الطلبة.(22)"وكان لابن باديس أثر واضح في توجيه طلبته نحو الزيتونة منذ تخرجه منها سنة .نشرت جريدة (المشير) التونسية في عددها الصادر في 6 أوت اسم الطالب عبد الحميد بن باديس ضمن أسماء الطلبة الزيتونيين الذين نالوا شهادة التطويع(العالمية)، من الجامع الأعظم في نهاية السنة الدراسية (1910-1911). و كان ترتيبه الأول بين جميع الطلبة الناجحين كما كان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة.

و في رحاب الزيتونة أتم ابن باديس أربع سنوات دراسية متواصلة(1908-1912)، و خلال فترة تواجده بالزيتونة توطدت و تعمقت صلته بالشيخين محمد النخلي القيرواني(1862-1924)، و محمد الطاهر بن عاشور(1879-1973).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

والظاهر أن تونس أصبحت مركز استقطاب علمي لأفراد الجالية العربية خلال الفترة الاستعمارية، و كان التعليم الزيتوني بالجامع الأعظم و فروعه عامل وحدة و تقارب بين الجاليات العربية المقيمة بتونس. لقد عبرت البصائر بدور الجامع الأعظم ما نصه: " أن الذي يدرك قيمة ذلك المعهد و فضله على هذه الأمة الإسلامية العربية المنتشرة على أرض الشمال الأفريقي في حياطة دينها، و حفظ لغتها و صيانة أدبها و الصورة الحقيقية لروحها و شخصيتها، يدرك و لا شك عندما يأخذ في علاج مشاكله... إن جامع الزيتونة أدام الله عمرانه قد بقي طيلة هذه القرون العديدة التي مرت على إنشائه كعبة الشمال الإفريقي و منارة الدين و مبعث أقطاب الشريعة و علومها و حفظها اللغة العربية و آدابها..." .[23] ونقتبس من الزيتونية ما نصه: "للزيتونية و علمائها و شيوخها و أئمتها أفضال كثيرة جدا على الجزائر و الشعب الجزائري خاصة في نهاية القرن التاسع عشرو النصف الأول من القرن العشرين، و ذلك في ميدان الفكر و الثقافة و التربية و التعليم، لأن الاستعمار الفرنسي عندما احتل البلاد عام 1830، ركز كل جهوده على تجهيل الشعب الجزائري و تفقيره و حرمانه من نور و المعرفة.".[24]

عندما عاد عبد الحميد ابن باديس(1889-1940) من تونس في رحلته الثانية التي شارك فيها في تأبينية البشير صفر(1863-1917)، عبر عن صدق كمشاعره لعلماء تونس بقوله: "حقا إن لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان... إن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي و قومي و التي زرعت في نفسي هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر"[25].

يعد جامع الزيتونة [26]ثاني الجوامع التي أقيمت بإفريقية بعد جامع عقبة بن نافع بالقيروان. وينسب أمر تشييده عام 116هـ-732م إلى عبيد الله بن الحبحاب كما ينسب إلى حسّان بن النعمان فاتح تونس وقرطاجنة فيكون أمر بنائه لأول مرة سنة 79هـ-698م، وهذا هو الأرجح حسب أغلب المؤرخين لأنه لا يحتمل أن تكون مدينة تونس قد بقيت بدون جامع بين فتحها وبين سنة 116هـ

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

.وبناء على هذا فإن عبيد الله بن الحبحاب يكون قد أتم فقط عمارة الجامع وزاد في ضخامته.لقد اختلفت الروايات حول تحديد من قام ببناء هذا الجامع الذي بات ذكر تونس مقترنا به ، ومكّن افريقية من سبق تأسيس أول جامعة علمية إسلامية في التاريخ الإسلامي. فالبكري في كتابه "المسالك والممالك" وابن خلدون في كتابه " العبر" وكذلك السرّاج صاحب "الحلل السندسيّة في تاريخ البلاد التونسيّة" وحسن حسني عبد الوهاب في كتابه "خلاصة تاريخ تونس" يرون أن باني الجامع هو عبيد الله ابن الحبحاب سنة 114 هـ أو 116 ه.

أما المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف في كتابه "اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" فإنه يرى أن بانيه هو حسّان بن النعمان سنة 84 ه– . وقد أصاب ابن أبي دينار في كتابه (المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس) حين غزا تأسيس المسجد إلى حسان بن النعمان والزيادة في ضخامته إلى عبيد الله بن الحبحاب. وهناك من يرى أن حسّان بن النعمان قد بنى مجسدا صغيرا بالقرب من جامع الزيتونة ومن ثمّ فإنّ فكرة تأسيس المسجد يمكن أنّها كانت لحسّان لكن البناء لم يبدأ إلا في عهد عبيد الله.وقد كتب ابن باديس عن الزيتونة ووفاء لتونس: " كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة، رجلا قويا ذكيا واسع الحيلة بعيد النظر، قدم أبناءه لجامع الزيتونة المعمور و حبس أملاكه كلها على العلم". [27]

أشاد الشيخ الإبراهيمي بدوره بقيمة الزيتونة بالرغم من أنه تتلمذ بالمدينة المنورة، و قد أقر بالعلاقة الروحية و العضوية بين الزيتونة و معهد ابن باديس بقسنطينة، و كان يردد دائما :"أنا لم أتخرج من الزيتونة و لم أقرأ في الجامع حرفا و لكنني تخرجت بالمدينة المنورة على أضواء كواكب الزيتونة في وقته." [28]كتب ابن باديس مقالا أخر في البصائر جاء فيه: " تونس قبلة الجزائر العلمية و مأزرها الذي تأزر إليه في النوائب و منارتها التي تشرق منها على الشرق و أنواره، فلا عجب إذا حرصت جمعية العلماء على تمتين الحبال الواصلة بين الجزائر و بينها". [29] ولم ينس شاعر الجزائر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

محمد العيد آل خليفة عندما رثى الشاعر التونس الشاذلي سنة 1954، بذكر أفضال جامع الزيتونة ومسجدها الأعظم:

حبنا الأعظم فيها من أب *** وسعا الأبناء برا و حنانا

قد سبحنا أمدا في أفقه *** و اقتبسنا من دراريه سنانا[30]

و الواقع أن الدعاية التي قامت بها جمعية العلماء لصالح الشباب الجزائري للتغرب و طلب العلم نحو معاهد الزيتونة بتونس العاصمة كانت وراء ارتفاع عدد المنتسبين الجزائريين حيث بلغ في سنة 1952 نحو ألف و خمسمائة طالب جزائري.[31] تحدث أحمد الشريف السنوسي عن دور و مكانة جامع الزيتونة في نفوس الشبان الجزائريين:" لم تزل كلية الزيتونة منذ أوائل القرن الثاني كعبة القصاد و مركز الثقافة الإسلامية العربية و ملقنة المبادئ التي عليها يرتكز هيكل الشعوب الإفريقية.".[32] لقد حث الطالب أحمد بوزيد الجزائريين الزيتونيين بكتابة ذكرياتهم عن الزيتونة و تونس:" تونس الخضراء بجامعها الأعظم المعمور الذي يؤمه الجزائريون للتفقه في علوم العربية و الإسلام قد صارت وطنهم الثاني أو وطنهم الفكري و الروحي،...فأصبحت لهم خالة... تونس الخضراء الكريمة المضيافة... و نزلوا بها على الرحب و السعة منزل المكرمين".[33]

وفي السياق نفسه كتب الطالب عمار النجار الكاتب العام للجمعية بتونس سنة 1948: " لقد فتحت هذه الأمة العطوف ذراعيها لكل نازح و لكل ناهل من ذلكم النهل العذب و المقتبس من تلك الشعلة الثاقبة... فإن المدارس ما يغلب أن تكون أكثريتها من الطلبة الجزائريين....هذا ما عملته الأمة التونسية إزاء شقيقتها الجزائر".[34]بفضل هذا العطاء نوه الشاعر خرفي بما يلي: " ولو أعطينا الأولوية للبيئة العلمية التي تخرجت فيها الطليعة لجاءت تونس في الدرجة الأولى ، و الحقيقة أن الزيتونة كانت دوما محل تقدير من طرف الخرجين، الذين عرفوا ما لهذا المعلم العلمي الجليل من الأثار السياسية و الفكرية و الدينية على الأوضاع و التغيرات التي يمكن أن تحدث بالجزائر".[35]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إن مظاهر الوفاء والتكريم الذي أبداه الطلبة الجزائريون المهاجرون نحو تونس تعتدت، وشدت عرى اللحمة بين الشعبين، مما كان له الفضل في جعل الكفاح المشترك ضد المستعمر الفرنسي، وذلك حاصل نتيجة التجاوب بين المناضلين التونسيين والجزائريين على حد سواء منذ الشيخ عمر بن قدور وسلسلة مقالاته السياسية الوطنية المنشورة في الصحف التونسية منذ 1911، وتتلمذ ابن باديس بالزيتونة (1908–1912)، على يد الإصلاحيين الزيتونيين. إلى ذلك يضاف البعثات العلمية من وادي بميزاب والتي تلاحمت مع النخب التونسية منذ 1913، وساهمت في لعب أدوار سياسية وطنية عند عودتها بالجزائر.(36)

مواقف ابن باديس من سياسة التجنيس من خلال جريدة البصائر.

تبلور الصراع بين جمعية العلماء المسلمين و إدارة الاحتلال الفرنسي في الفترة ما بين عام 1933– 1939 و ذلك منذ أن صدور قرار توقيف الصحف منذ عام 1933، و تطور الصراع أكثر و بصورة واضحة عند طرح مشروع التجنيس مرة ثانية في عهد موريس فيوليت(Maurice Viollette).(37)

إن مسألة التجنيس لم تكن جديدة على ابن باديس بقدر ماكانت مفاجئة عندما طرحت من طرف حكومة الجبهة الشعبية بإعتبارها جبهة يتوقع منها تقدير معاناة الشعب الجزائري فتعمل على منحه الحقوق. لكنها اتبعت أسلوبا زاد في تعقيد الأمور. وقد سبقت محاولة لما صدر القانون الإمبراطوري في 14 جويلية 1865، و المعروف " سانتوس كونسولت"(Sénatus-consulte) تمهيدا لطمس الشخصية الجزائرية، و الذي ينص على أن: " الجزائري لا يمكن أن يتمتع بإمتيازات الجنسية الفرنسية إلا إذا تخلى عن أحواله الشخصية الإسلامية".(38) و الواقع أن قضية اندماج الجزائريين في الحضارة الفرنسية ، و هي مؤشر خطير عبرت عنه سياسة فرنسا الاستعمارية منذ 1965.

كان القانون يشترط على طابي التجنيس التخلي عن أحوالهم الشخصية المستمدة من الإسلام و المتعلقة أساسا بمسائل الزواج و الطلاق و الميراث، و القبول بتحكيم الإجراءات طبقا للأحكام و القوانين

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الفرنسية، و معناه التنازل طواعية عن الدين و الشخصية، و هي عناصر أساسية في البرنامج الإصلاحي لجمعية العلماء.

واجه ابن بادسي سياسة جديدة اسمها التجنيس، بلغت ذروتها عندما سارعت الجمعية في إنشاء لجنة الفتوى و التي يترأسها الشيخ العربي التبسي(1891–1957)و طلبت من ابن باديس إصدار فتوى في حق التجنس و المتجنسين من خلال دراسة واقعية و أصولية شرعية: " التجنس بجنسية غير إسلامية، يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام، عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع... ومن جعل (التيسطاما) أي الوصية، ...على غير القسم الإسلامي، رافضا للحكم الإسلامي، فهو مرتد... ومن يتزوج بامرأة من جنسية غير إسلامية، فقد ورط نفسه في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية...".[(39)]

لقيت الفتوى تجاوبا واسعا بين الناس تعدى صداها حدود الجزائر إلى المغرب و تونس، و عزلت المتجنسين و هي ضربة مدمرة لسياسة الإدارة الاستعمارية. بالرغم من افتتان ابن باديس بشيخه الطاهر بن عاشور إلا أنه كتب عديد المقالات الصادرة في البصائر ما بين 24أفريل 15 ماي 1936 حول الرد على شيخه الذي اختلف معه في بعض المسائل أهمها موقفه من التجنيس. لقد انعقد المجلس الشرعي التونسي المتكون من 10 أعضاء مناصفة بين المالكية (و على رأسهم الشيخ ابن عاشور) و الحنفية (و على رأسهم الشيخ ابن يوسف) . و أصدر المجلس فتواه بالإجماع بجواز قبول توبة المرتد " المتجنس إذا تراجع في هفوته، و أعلن توبته تسقط في حقه تهمة الإلحاد، و يعود إلى صفوف المسلمين. " و هذه الفتوى مخالفة لآراء جمعية العلماء و على رأسها ابن باديس.[(40)]

قدم شيخ جمعية العلماء المسلمين البشير الإبراهيمي، تحية تقدير للطلبة الجزائريين الزيتونيين في افتتاحية البصائر:" إنكم يا أبناءنا مناط آمالنا ومستودع أمانينا نعدكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة... وننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح..."[(41)].يعد ميلاد حركة انتصار الحريات الديمقراطية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

سنة 1946، لم تتأخر الحركة الطلابية في تونس عن مباركة جهود أعمال مصالي الحاج فتأسس مكتب جديد للجمعية بقيادة الشيخ محمد مرزاقة، و تغدت الجمعية بالأفكار الاستقلالية للحزب، و تطور اهتمام الطلبة بقضايا الجزائر ، و في شهر فيفري سنة 1952، تم انتخاب قاسم رزيق رئيسا لجمعية الطلبة الزيتونيين.[42]

كان للبعثات العلمية الجزائرية نحو تونس دور مميز في تغذية حركة النهضة والإصلاح في الجزائر في مختلف الجوانب التربوية والتعليمية والدينية والسياسية وهذا بفضل الجامع الأعظم وشيوخ الزيتونة حيث توسعت دائرة الأنشطة الثقافية والأدبية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية بالرغم من المضايقات والقوانين التعسفية التي حرمت الجزائريين من التعليم.

الهوامش :

[1]جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جمعية عملت على الحفاظ على هوية الجزائر العربية الإسلامية، والمقومات الحضارية للشخصية الجزائرية، عبر مواجهة خطط الاستعمار الفرنسي التغريبية، والتصدي للخرافات والبدع التي شوهت الإسلام.تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في شهر ماي 1931، بنادي الترقي في الجزائر العاصمة، وذلك بعد سنة من إحياء ذكرى مضي قرن على احتلال الفرنسيين للجزائر.حضر الاجتماع التأسيسي أكثر من سبعين عالما ، من مختلف جهات الجزائر ، ومن شتى الاتجاهات الدينية والمذهبية : مالكيين وإباضين مصلحين وطرقيين، موظفين وغير موظفين وانتخبوا مجلسا إداريا للجمعية يتكون من ثلاثة عشر عضوا برئاسة الشيخ ابن باديس.

تعتبر الجمعية امتدادا للحركة الإصلاحية التي قادها الشيخ عبد الحميد بن باديس والتي قامت على مقاومة تأثيرات الاستعمار الفرنسي وترسيخ مقوّمات الشخصية الجزائرية ببعدها الإسلامي.وبعد ست سنوات من تأسيس الجمعيّة، بادر ابن باديس إلى وضع ميثاق للجمعية حدد من خلاله "دعوة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين وأصولها" ونشره في مجلّة "الشّهاب" في جوان.شمل أهداف الجمعية "التّعليم والتربية، وتطهير الإسلام من البدع والخرافات، وإيقاد شعلة الحماسة في القلوب بعد أن بذل الاحتلال جهده في إطفائها حتى تنهار مقاومة الجزائريّين، وإحياء الثقافة العربية ونشرها بعد أن عمل المستعمر على وأدها، والمحافظة على الشخصية الجزائرية بمقوماتها الحضارية والدينية والتاريخية، ومقاومة سياسة الاحتلال الرامية إلى القضاء عليها .لقد حددت جمعية العلماء الأهداف التي ترمي إليها في منشور نشره ابن باديس

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

في جريدة البصائر العدد ، أبريل . للمزيد يراجع : محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من1847إلى1954، ط 3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ، ص 345.

(2)صدرت البصائر في عهد الحاكم العام الفرنسي لبو (Georges Le Beau) (1935–1940) الذي عرف بالرزانة و الهدوءمع طلائع النخبة في الجزائر.بدأ صدور الجريدة بالعاصمة ثم انتقلت إلى قسنطينة بالمطبعة الإسلامية ثم عادت إلى العاصمة في 25–11–1937 تحت إشراف المطبعة العربية التابعة للشيخ أبو اليقظان(1888–1973) ، ينظر: عادل،نويهض، معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، ط1980،2، ص356 .

(3) سورة الأنعام: أية:104.

(4) كان مجموع إصدارات جريدة البصائر في سلسلتين بـ 541 عدد لمدة 13 سنة. عالجت خلالها قضايا الدين و الأخلاق و الوطن و الإصلاح و السياسة و التربية و التعليم، محمد، ناصر، المرجع السابق، ص 221.

(5) البصائر، ع 1،الجزائر : 37ديسمبر1935.

(6) البصائر ،ع 9،الجزائر: 28 فيفري 1936.

(7) ينظر الدراسة القيمة: جمال ،غنية، جريدة البصائر و دورها الإصلاحي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003–2004.

(8) البصائر، ع 91، الجزائر:26 سبتمبر 1949.

(9) عثمان الشريف،ابن الحاج، أضواء في تاريخ تونس الحديث، 1881–1824،تونس،1982،ص 143.

(10)أبو القاسم ،سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ،طبعة خاصة، الجزائر: عالم المعرفة،2011،ج3، ص ص 111–106.

(11)كانت زيارة الشيخ الإبراهيمي لتونس في حدود سنة 1932، للمزيد يراجع: محمد الصالح، الجابري، النشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900–1962،الدار العربية للكتاب ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1983،ص 104. و أيضا: أحمد، بن جابو، المهاجرون الجزائريون و نشاطهم في تونس(1830–1954)، دكتوراه في التاريخ غير منشورة، جامعة تلمسان 2010–2011،ص ص 102–105.

(12)الجابري، المرجع السابق، ص 101.

(13)البصائر، ع44، الجزائر: 20 نوفمبر 1936.

(14)محمد علي، دبوز، نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة،ط1، الجزائر: المطبعة العربية 1969، ج3، ص 260.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(15)الجابري، المرجع السابق، ص 124.

(16)نفسه، ص 129.

(17)جابو، المرجع السابق ،ص ص 147–178.

(18)انخرطت كل شرائح المجتمع من عمال وفلاحين و طلبة المعاهد و المدارس التابعة لأحزاب الحركة الوطنية في صفوف الثورة التحريرية منذ اندلاعها، و لم يتخلف الطلبة عن نداء الواجب منذ اللحظة الأولى لبداية العمل المسلح، و تزايد هذا الدور بتأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. بتاريخ 27 فيفري 1955، و بمبادرة من جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا، تم توجيه نداء لكل الطلبة يحثهم على الانضمام و المشاركة في تشكيل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين .(U.G.E.M.A) انعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في باريس في الفترة الممتدة ما بين 8 و 14 جويلية 1955، بحضور شخصيات ثقافية و سياسة و ممثلين عن المنظمات الطلابية بما فيها الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين، تناول المؤتمر ثلاثة محاور رئيسية هي :

- جمع شمل الطلبة الجزائريين وتوحيد مطالبهم و حقوقهم .
- العمل على إعطاء اللغة العربية مكانتها باعتبارها المحرك الأساسي للثقافة الجزائرية.
- مشاركة الاتحاد في الحياة السياسية للبلاد.

خرج هذا المؤتمر بانتخاب اللجنة التنفيذية المكونة من:

–أحمد طالب الإبراهيمي: رئيسا، العياشي ياكر نائبا، مولود بلهوان كاتبا عاما، عبد الرحمن شريط كاتبا مساعدا، محمد منصور أمين المال. واختيرت مدينة باريس مقرا مركزيا للاتحاد.يعّد إضراب الطلبة والتحاقهم بجيش التحرير الوطني وبمنظمته السياسية جبهة التحرير الوطني بمثابة الخطوة الأولى التي تلتها خطوات عديدة تدعيما للنضال الثوري. من هنا نلتمس بأن التحاق الطلبة بالثورة ساعد على إعطاء بعد سياسي وإعلامي للقضية الجزائرية التي كانت تحتاج إلى رجال من ذوي الكفاءات العلمية والإدارية والتنظيمية لقيادتها .يراجع:

Dominique Wallon, *Combats étudiants pour l’indépendance de l’Algérie : UNEF-UGEMA 1955-1962*, éd. Casbah, 2015.

(19) أحمد طالب، الإبراهيمي، مذكرات جزائري، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2006،ج1،ص 64.

(20) خير الدين، شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة(1900–1956)، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 2007–2008،مج 2،ص ص 579–582. وقد نشرت الأطروحة بنفس العنوان عن دار كردادة للنشر و التوزيع بالجزائر، طبعة 2 ، 2013، 3 أجزاء.

(21)أبو القاسم، سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق...،ج2، ص ص 149–150. و أيضا: عيساوي، ...ص 21.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(22) محمد البشير ، الإبراهيمي. "إحياء التعليم المسجدي " ، البصائر، ع 7، 1936،ص 1.

(23) البصائر، ع67، ماي 1937.

(24) الزيتونية، مج 6، ج 3، تونس 1945/8/7، ص 435.

(25) عبد الحميد، بن باديس،" في تونس العزيزة" ، الشهاب، ج5،مج13، تونس في 10-07-1937.زار ابن باديس تونس أكثر من مرة ما بين 1936 و 1937، و قد حاضر بتونس و تناول أوضاع الجزائر العلمية و السياسية و الاجتماعية ، كما عبر بإلحاح عن ضرورة إدماج الطلبة في الحياة العامة و تكوينهم مستقبليا.

(26)**جامع الزيتونة** أو **جامع الزيتونة المعمور** أو **الجامع الأعظم**، هو المسجد الجامع الرئيسي في مدينة تونس العتيقة. يعد جامع الزيتونة أحد أقدم وأشهر المساجد في بلاد الإسلام كلّها حيث أسّسه عبيد اللّه بن الحبحاب سنة 116هـ(734م). ولا تعود شهرة جامع الزيتونة هذه إلى الدور الذي قام به كمسجد للصلاة والعيادة فحسب، بقدر ما تعود إلى الدور العلمي والثقافي الذي اضطلع به عبر العصور، منذ أوائل القرن الثاني الهجري، حيث اضطلع بتدريس العلوم الإسلامية بداية من سنة 120هـ -737م. هناك من نسب إلى حسّان بن النعمان (ت86هـ/ 716م) فاتح مدينة تونس في حدود سنة 79هـ/698-699م. وهناك من نسبه إلى عبيد الله بن الحبحاب (توفّي بعد سنة 123هـ/740م) الذي ولاّه هشام بن عبد الملك الأمويّ على إفريقيّة سنة 110هـ/728-729م.

وبذلك يعتبر أقدم جامعة عربيّة إسلاميّة استمرت تؤدي دورها قرابة ثلاثة عشر قرنا متتالية دون انقطاع يذكر. فقد أكد المؤرخ حسن حسني عبد الوهّاب، هذه العراقة بقوله: " إنّ جامع الزيتونة هو أسبق المعاهد التعليميّة للعروبة مولدا وأقدمها في التاريخ عهدا". ظلّ جامع الزيتونة باعتباره مؤسسة علم وعبادة مزدهرا إلى أواخر العهد الحفصي (634هـ/981هـ- 1237م/1573م) حتّى أنّ العلامة عبد الرّحمان بن خلدون- الذي تتلمذ في جامع الزيتونة ودرّس به- اعتبره طليعة المؤسسات التعليميّة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، حيث كان التعليم فيه يشمل التعليم الإسلامي الأدبي والديني والفلسفة وعامة العلوم العقليّة والرياضيّة وخصوصا الطب والفلك والرياضيّات. وعرف نظام التعليم بجامع الزيتونة- منذ أواخر العهد الحفصي- مرحلة طويلة من التراجع جرت خلالها محاولات عديدة لإصلاحه.قام أحمد باي الأوّل بتنظيم التعليم بجامع الزيتونة بمقتضى الأمر المؤرّخ في نوفمبر 1842.أصدر الوزير الأكبر المصلح خير الدين باشا الأمر المؤرخ وفي 27 جانفي 1876 الذي أعطى دفعا جديدا للتعليم الزيتوني، غير أن الأمر بقي حبرا على ورق بالنسبة إلى تدريس العلوم العصريّة التي أراد خير الدين إدخالها في برامج التعليم الزيتوني وذلك بسبب معارضة بعض كبار الشيوخ المحافظين.حرصت السلطات الاستعماريّة - طوال فترة سيطرتها على تونس (1881-1956) - على فرض سياستها التربويّة على الزيتونة لتهميشها وإخماد صوتها، باعتبارها معقلا من معاقل المقاومة الثقافية ضدّ التسرّب الاستعماري والتأثير الفرنسي في البلاد.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

30جوان 1958: الإعلان عن إصلاح التعليم العمومي وتوحيد برامجه، أصبحت بمقتضاه الفروع الزيتونيّة مدارس إعدادية مدمجة في صلب التعليم الثانوي العمومي. وبعد تأسيس الجامعة التونسية في31 مارس1960 ، التي أصبحت تضم معاهد عليا وكليات عديدة، تمّ في 1 مارس 1961 بعث" الكليّة الزيتونيّة للشريعة وأصول الدين" (خلفا للجامعة الزيتونيّة) التي أصبحت إحدى مكونات الجامعة التونسيّة.

في 27أكتوبر 1961: تمّ ضبط برامج الإجازة في الشريعة وأصول الدين. وفي

15فيفري 1980: تمّ ضبط مهام الكلّية الزيتونية للشريعة وأصول الدين وتنظيم الدراسة بها في المراحل الثلاث. كما تعد الزيتونة أول جامعة إسلامية وأول جامعة في العالم .للمزيد راجع:

- محمد الفاضل بن عاشور ، الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس(في القرنين 13-14هـ/19-20م)،راجعة ووضع فهارسه: محمد المختار العبيدي ،ط 3، 2009.

(27) فضلاء، محمد الحسن، أعلام الإصلاح الجزائر ،2000،ج3،ص 140.

(28) البصائر، ع20،الجزائر :1936/05/22.

(29) البصائر، ع60، الجزائر: 1948/12/20.

(30) أبو القاسم، سعد الله، شاعر الشاعر، ص 86.

(31) البصائر، ع ، الجزائر: 1936/11/20.

(32) أحمد الشريف، السنوسي،" الطلبة الجزائريون و الزيتونة"، البصائر، ع 47، الجزائر: 1948/08/30،ص 2.

(33) البصائر، ع11،الجزائر: 1947/10/20.

(34) البصائر، ع20،الجزائر: 1948/01/19.

(35) صالح، الخرفي، " الزيتونة في قلوب أبناء الجزائر"، الحياة الثقافية، ع 82، تونس 1937، ص ص 11-18.

(36) ترجع الرحلات الأولى العلمية الجزائرية إلى تونس إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كان الهدف الرئيس منها التحصيل و الاستزادة في مختلف العلوم. وقد نبغ في رحاب الجامع الأعظم الكثير من الجزائريين، و ساهموا في الحركة العلمية منهم إبراهيم بن يخلف التنسي(ت1272م)،و عبد القادر البجائي(ت1291م)،و عبد الرحمان البجائي الأصولي(1294م)،و أبو العباس الغبريني(ت1315م)، و خليل الصنهاجي(ت1423م)و عزوز بن مصطفى(ت1768م) مؤسس الزاوية الرحمانية بنفطة، و الأفضلي يحيى بن صالح الإباضي(ت1808)و الشيخ محمد البشير(ت1827) الذي تتلمذ عليه المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف. للمزيد يراجع: خير الدين، شترة، المرجع السابق ، مج2، ص ص 609-613.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(37) موريس فيوليت رجل دولة و سياسي فرنسي(1870–1960) صاحب كتاب : هل تعيش الجزائر؟ قدم فيولت مشروعه في عهد الحكومة الشعبية التي كان يترأسها ليون بلوم(1872–1950). يتكون من ثمانية فصول و خمسين مادة تتضمن إصلاحات دستورية. *_L'Algérie vivra-t-elle ?"* par Maurice Viollette. Librairie Félix Alcan. Paris1936

حول الموضوع يراجع : Julien,Fromage, L'Algérie vivra-t-elle ?ou le projet Blum-Viollette au temps du front populaire, Mémoire de fin d'étude ,Lyon II, Juin 2003,186p.

(38) أو القاسم ،سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 25.

(39) فتوى جمعية العلماء في التجنس الكلي و الجزئي ،جريدة البصائر، السنة الثالثة، العدد 95، 13 ذي القعدة 1356هـ/14 جانفي 1938، ص 1–2.

(40) وفي الاحتفال بالذكرى السابعة لوفاة ابن باديس، قال الشيخ ابن عاشور"... إن فضل النهضة الجزائرية على العالم الإسلامي فضل عظيم، وإن أثر الشيخ عبد الحميد بن باديس في تلك النهضة أثر إنساني رئيس... تلقى الإمام عبد الحميد تعاليم الإسلام، وتشرب روح العروبة، فكانت روحه الفلسفية متوجهة نحو تسليط تلك التعاليم وهاتيك الروح على ما بين جنبيه وجنبي عموم الشعب الجزائري من حالة الذهول عن الذات، والانقطاع عن تأثير التعاليم الطاهرة، والروح الإسلامية... وما تكريمنا للشيخ عبد الحميد بن باديس، إلا تكريم للفكرة العبقرية والنزعة الإصلاحية الفلسفية، التي دفعت به فريدًا إلى موقف إحياء التعاليم الإسلامية، في وطن أوشكت شمس الإسلام أن تتقلص في ربوعه، بعد ثمانين عامًا قضاها في أغلال الأسر"(خطاب ألقاه في الاحتفال بالذكرى السابعة لوفاة عبد الحميد بن باديس، نشرته مجلة "العبقرية" في عددها الثالث سنة 1946 م.)

(41) البصائر، ع 9، الجزائر: 1947/10/03.

(42) ينظر : جريدة المنار،ع 18، السنة الثانية، 28 فيفري 1953. وعن نشاط الطلبة في تونس و الصراع القائم بين مصالي و جمعية العلماء ثم مع المركزيين يراجع : يحيى ، بوعزيز، " الطلبة الجزائريون و دورهم في الثورة" ، مجلة الثقافة، ع 83،سبتمبر–أكتوبر1984، ص ص 176–277.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة وفروعه (1876-1962م) التّحديات والرهانات (الجزء الأول)

د. اللولب حبيب حسن
باحث بمركز الدراسات والبحوث الاقتصادية، تونس
البريد الإلكتروني : loulebhabib@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

إن العلاقات التونسية الجزائرية عريقة، تمّ نسجها عبر التاريخ المشترك منذ قرطاج، مرورا بنوميديا ووصولا إلى الفتوحات الإسلامية التي وطدّت أسسّها وأعطتها نفَسًا وبُعدًا جديدين؛ حيث صهرت هذه العلاقات المشتركة في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية، وواصلت الدولة الموحدية والخلافة العثمانية هذه السياسة، لكنّ دخول الاستعمار الفرنسي الأراضي الجزائرية سنة 1830م، ثمّ التونسية سنة 1881م، حاول فصْم عُرى هذه الأخوة التي تجـذّرت كردّ فعل على احتلال القوات الفرنسية لهذه المناطق، محاولا الفصل بين الشعبين، ولكنّه واجه تماسكا وترابطا وتعاونا بين الأشقاء التونسيين والجزائريين. يعتبر موضوع الطلبة الجزائريين بجامع "الزيتونة" المعمور (1876م-1962م) من المواضيع التاريخية والثقافية والتعليمية التي أبرزت دور البلاد التونسية في نصرة الشعب الجزائري خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي، وذلك من خلال تأطير التلامذة والطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة و"الصادقية" ومدارس الزوايا والطرق الصوفية.

الكلمات الدالة:

الطلبة الجزائريون- جامع الزيتونة- العلاقات التونسية الجزائرية- التعليم

العنوان بالإنجليزية:

Algerian students at the University of Zaytouna and its branches (1876-1962)
(Challenges and Bets (Part I)

.Abstract:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

The relations between Tunisia and Algeria have been woven through common history since Carthage, through Nomedia to the Islamic conquests, which established their foundations and gave them new souls and dimensions. These relations forged in the crucible of the Arab-Islamic civilization. The Almohad state and the Ottoman caliphate continued this policy, The Frenchman of the Algerian territories in 1830, and then the Tunisian in 1881, he tried to break the bonds of these brothers, which were rooted in reaction to the occupation of the French forces to these areas, trying to separate the two peoples, but he faced cohesion and interrelationships and cooperation between the brothers Tunisia Yin and Algerians. The subject of Algerian students at the University of El Zaytouna (1876-1962) is one of the historical, cultural and educational topics that highlighted the role of the Tunisian country in supporting the Algerian people during the French colonization period, through the framing of Algerian students and students at Zaytouna, Sadiqia .

Key words:

Algerian students - Zaytouna Mosque - Tunisian-Algerian relations - Education

إن العلاقات التونسية الجزائرية عريقة، تمّ نسجها عبر التاريخ المشترك منذ قرطاج، مرورا بنوميديا ووصولا إلى الفتوحات الإسلامية التي وطدّت أسسّها وأعطتها نفَسًا وبُعدًا جديدين؛ حيث صهرت هذه العلاقات المشتركة في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية، وواصلت الدولة الموحدية والخلافة العثمانية هذه السياسة، لكنّ دخول الاستعمار الفرنسي الأراضي الجزائرية سنة 1830م، ثمّ التونسية سنة 1881م، حاول فصْم عُرى هذه الأخوة التي تجـذّرت كردّ فعل على احتلال القوات الفرنسية لهذه المناطق، محاولا الفصل بين الشعبين، ولكنّه واجه تماسكا وترابطا وتعاونا بين الأشقاء التونسيين والجزائريين. و المعروف أنّ العلاقاتت تتمثل في حياة الأمّم، والشعوب مَعلمًا أساسيا في الحركة البشرية، للدور الهام الذي تلعبه في البناء الحضاري، ومن أهمّ آلياتها التواصل الذي ينعكس على المدن والحواضر، وعلى هذا قامت العلاقات التونسية– الجزائرية على أسّس من الروابط الدينية واللغوية والجغرافية والتاريخية بعمقها التاريخي المتأصل الذي بلغ أوجه خلال القرنين 19م و20م، من خلال الرحلات العلمية الطلابية والثقافية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يعتبر موضوع الطلبة الجزائريين بجامع "**الزيتونة**" المعمور (1876م-1962م) من المواضيع التاريخية والثقافية والتعليمية التي أبرزت دور البلاد التونسية في نصرة الشعب الجزائري خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي، وذلك من خلال تأطير التلامذة والطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة و"**الصادقية**" ومدارس الزوايا والطرق الصوفية، ومن ثمّ فإنّه من الضروري إلقاء الضوء على جانب مهمّ وأساسي من هذا التاريخ المشترك بين الشعبين التونسي والجزائري ودراسته دراسة تاريخية-ثقافية حتى نتمكن من الوقوف على البعض من مظاهر التعاضد والتعاون بين الأشقاء المغاربة عند المحن والشدائد، فقد كان وجود الطلبة الجزائريين بالبلاد التونسية الذي هو جزء من قضية الشعب الجزائري مَحَكًا حقيقيا، أظهر روح التعاضدّ، وشدِّ الأزْر، وبيَّنَ طبيعة هذه العلاقة الثقافية.

و الدّارس للتاريخ الجزائري عموما ولتاريخ الحركة الطلابية الجزائرية في ظلّ الإستعمار الفرنسي على وجه الخصوص، يلاحظ أنّ الإدارة الفرنسية اتّبعت سياسة التجهيل والتفقير منذ إحتلالها للجزائر سنة 1830م، وتمثّلت هذه السياسة في إغلاق المدارس ومصادرة الأراضي (الأوقاف والأحباس) وتحويل بعض المساجد إلى كنائس وثكنات عسكرية ومقاهي، فأدّت هذه السياسة الإستعمارية إلى انتشار الأميّة والجهل والفقر، وقد حاول الجزائريون مقاومة هذه السّياسة، و اندلعت الإنتفاضات والمقاومات المناهضة، تمكنّت القوات الفرنسية من القضاء عليها وإخمادها بالقوة، ممّا دفع ببعض التلامذة والطّلبة الجزائريين لىشدّ الرحال ومغادرة بلادهم والتّوجه نحو البلاد التونسية وبلدان أخرى لطلب العلم، فالتحقوا بجامع الزيتونة وفروعه وبمدارس الزوايا والطرق الصوفية، خاصّة المنتشرة على الحدود بين البلدين.

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في ذاكرة حركة الطلبة الجزائريين الذين زاولوا تعليمهم بالبلاد التونسية خلال الفترة التاريخية التالية :(1876م-1962م) من خلال العديد من المصادر وأبرزها دفاتر التأسيس والدفاتر الإحصائية والدفاتر المدرسية والملّفات الأرشيفية لنحو ألفين وتسعمائة وثلاثة عشرين طالبا، الموجودة (بمؤسسّة الأرشيف الوطني التونسي وأرشيف وحدة تاريخ جامع الزيتونة بالمعهد العالي لأصول الدّين بجامعة الزيتونة وأرشيف متحف وزارة التربية التونسية وأرشيف المعهد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العالي لأصول الدين بجامعة الزيتونة) وسنهتمّ في هذه الدراسة بتفريغ المعلومات والبيانات إلى جداول للتّوصل إلى تقديم مسحٍ شامل للطالب الجزائري الزيتوني في ثلاثة مباحث وهي: مراحلها، ظروفها، نتائجها.

أولا- المرحلة الأولى (1876م-1917م): "المخاض"

يعتبر جامع الزيتونة من أهمّ المؤسّسات العربية الإسلامية مكانة في تونس؛ بل هو أحد أقدم المساجد وأشهرها، و لم يكن يستمد شهرته من طابعه الديني المقدّس فحسب؛ بل من دوره العلمي والثقافي الذي اضطُلِع به؛ إذ كان فضاء جامع الزيتونة للتعليم، تُلْقى فيه الدروس العلمية على اختلاف مواضيعها وأنواعها، وقد تمّ تنظيمه منذ القرن الثالث هجري، وكذلك كان الشأن في عهد الدولة الحفصية التي ازدهر في عهدها التعليم بجامع الزيتونة، فذاع صيته، وأخذ صبغة نظامية[1]، يحظى بمكانة مرموقة على الصعيد الوطني والمغاربي بسبب تعدّد مهامه.

1-الفترة الأولى (1876م-1900م) :

تميزت هذه الفترة بالهجرة الفردية، وتراوحت بين (0- 4)، كان أول تلميذ سجل بـالدّفتر التأسيسي، يدعى "**عمر بن مبارك النموشي**"، من عرش "**النمامشة**" بمنطقة "**تبسة**" خلال السّنة الدّراسية (1876م-1877م)[2]، وبلغ العدد الإجمالي للطلبة الجزائريين المسجلين ثلاثة و ثلاثين طالبا.

أ- الانتماء الجهوي:

يعتبر الانتماء الجهوي مؤشرا هامّا لدراسة التوزيع الجغرافي للطلبة حسب الإقليم والجهات.

الجدول رقم 01: توزيع عدد الطلبة حسب الإنتماء الجهوي (1876م-1900م)[3]

المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة
قسنطينة	9	الميلية	1	بسكرة	1

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تبسه	2	ميلة	1	وهران	1
عنابه	3	سوق أهراس	2	تلمسان	3
جيجل	1	الجزائر	1		
عين البيضاء	1	الأغواط	1		

العدد الإجمالي:

الأقاليم	الشرق	الجنوب	الوسط	الغرب	مناطق غير معروفة	المجموع
عدد الطلبة	20	1	2	4	6	33
النسبة المئوية	%60.60	%3.03	%6.06	%12.12	%18.18	100 %

يلاحظ من خلال هذا الجدول، أنّ أغلب الطّلبة الوافدين مابين (1900م -1876م)، وهُم من الشرق الجزائري، أوّلاً بعشرين طالبا بنسبة 60.60 %، نظرا إلى قرب هذه المناطق من الحدود الغربية للبلاد التونسية، وثانيا من الغرب بأربعة طلبة بنسبة %12.12، وثالثا من الوسط بطالبين بنسبة 6.06 %، ثمّ رابعا من الجنوب بطالب واحد بنسبة %3.03، أمّا المناطق غير المعروفة فينحدر منها ستة طلبة؛ أي بنسبه 18.18 %، والمجموع العام ثلاثة وثلاثون طالبا، وهو ما يبين أيضا شغف تلامذة الجزائريين بطلب العلم والمعرفة بالرغم من ظروفهم الصعبة.

ب – المستوى التعليمي:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يتطلّب التسجيل بالجامع الزيتونة توفُرَ عدّة الشروط، من ضمنها حفظ الرُّبع الأخير من القرآن الكريم وإجراء امتحان لتحديد مستوى الطالب من قِبل لجنة، تعينها مشيخة الزيتونة وعلى ضوئها يُقبل هذا الطالب أو يُرفض.

جدول رقم 02 : توزيع الطلبة حسب المستوي التعليمي (1876م-1900م) (4)

مستوى الحفظ	القرآن الكريم	ثلاثة أرباع القرآن الكريم	نصف القرآن الكريم	ربع القرآن الكريم	المتون	الكتابة و القراءة	النجابة	المجموع
عدد الطلبة	17	0	2	1	1	3	9	33

ما يمكن أن نستنتجه من خلال هذا الجدول هو، تميُز هذه المجموعة (1876م–1900م) الدفعة الأولى؛ إذ نجد سبعة عشر منهم من حفظة القرآن الكريم كلّه ، واثنين يحفظان نصفه، وواحدا يحفظ الربع منه ، وآخر يحفظ متن الأجرومية، وثلاثة منهم يُحسنون القراءة والكتابة وتسعة تلامذة يتميّزون بمخائل النجابة. و يعود هذا المستوى المتميز إلى الدّور الذي تقوم به الكتاتيب القرآنية ومدارس الزوايا والطرق الصوفية، خاصّة الطرق الرحمانية والقادرية والتيجانية المنتشرة على الحدود التونسية الجزائرية، خاصّة بمنطقتي "**نفطه**" و"**الكاف**" اللّتين تقومان بتحفيظ القرآن ونشرِ العلم والدّفاع عن الهوية العربية الإسلامية للجزائريين، وتقوم كذلك بتحضير الطلبة للالتحاق بجامع الزيتونة، وقد مثلّت الكتاتيب والمدارس القرآنية في الجزائر الإرهاصات الأولى للبعثات الطلابية، أمّا أسباب قلّة هذا العدد فيعود أساسا إلى الصعوبات والعراقيل التي تضعها الإدارة الفرنسية في وجه التلاميذ الجزائريين، وعدم منحهم التراخيص لمغادرة بلادهم إلى جانب عامل الفقر والأميّة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ج –الدراسة:

كانت شهادة التطويع لعدّة سنوات خاتمة التكوين الزيتوني، وتدوم الدراسة فيها سبع سنوات، و المواد التي كانت تُدَرس فيها، تنقسم إلى قسمين(جبري واختياري)، والقسم الأوّل الجبري، تُدَرَس فيه العلوم التالية: الفقه، الحديث، أصول الفقه، الآداب، الشريعة، السّيَر، والتوحيد، واللغة، والقراءات.... أمّا قسم الثاني اختياري، يتكون من التفسير، المصطلح، التصوف، الميقات، والكتب التي تُدّرس متنوعة ففي الحديث مثلا، يُدَّرس "**شرح الشبرخيتي على الأربعين النووية**"، وفي السِّيَر "**الهمزية بشرح الجمل**"، وفي التوحيد" **الوسطى للشيخ السنوسي**"، وفي القراءات " **الشاطبية بشرح ابن القاصح** "، وفي المصطلح "**ألفية العراقي بشرح القاضي**"، وفي أصول الفقه "**المرآة على المرقاة**"[5].

جدول رقم 03 : توزيع عدد الطلبة حسب السنة الدراسية (1876-1900) [6]

السّنة/م	1876	1877	1878	1879	1880	1881	1882	1883	1884
عدد الطلبة	1	1	1	0	1	0	0	0	1
السّنة/م	1885	1886	1887	1888	1889	1890	1891	1892	1893
عدد الطلبة	0	1	0	1	2	2	2	2	1
السّنة	1894	1895	1896	1897	1898	1899	1900		
عدد الطلبة	3	2	4	3	1	4	0		
الجملة	**33**								

من خلال هذا الجدول(1876م–1900م)، انتسب ثلاثة وثلاثون طالبا جزائريا لجامع الزيتونة في هذه الفترة، لكن هنالك تفاوت في توزيع عدد الطلبة الجزائريين مابين(1876م–

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

1888م)، عدد الطلبة مابين (0–1)، وارتفع العدد في الفترة (1889م-1900م) مابين(0–4)، ومردّه إلى الظروف الصعبة التي يعيشها الشعب الجزائري و العراقيل التي يضعها الإستعمار الفرنسي في وجه الطلبة الجزائريين بعدم منحهم رخصًا للخروج و السفر إلى تونس، وما نستنتجه أيضا أنّ جامع الزيتونة لعب دورا هامّا في التواصل الثقافي بين البلاد التونسية والجزائرية.

2 – **الفترة الثانية (1901م-1917م)**:

تواصلت هجرة الطلبة الجزائريين إلى جامع الزيتونة والمدعومة من قبل الزوايا والطرق الصوفية، وقد تدعمّت بالبعثة الميزابية (غرداية) سنة 1912م [7]، ممّا ساهم في ارتفاع عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة، وما يميز هذه الفترة انتساب التلميذ "**عبد الحميد بن محمد بن مصطفى بن باديس**" في السنة الدراسية (1908م-1909م) [8]، وقد تخرّج سنة 1911 م بحصوله على شهادة التطويع (التحصيل) و الرتبة الأولى[9].

والمعروف أنّ الدراسة بجامع الزيتونة، تتمّ على المذهبين المالكي والحنفي، وأمّا العدد الإجمالي للتلاميذ فقد شهد خلال هذه الفترة ارتفاعا لافتا للنّظر؛ إذ وصل إلى مائة وثلاثين تلميذًا بدون احتساب عدد تلامذة الجالية الجزائرية المقيمة بتونس، والطلبة الميزابيين كانوا يدرسون على المذهب الحنفي بدون دفاتر مدرسية، وكذلك الشأن لبعض الطلبة الجزائريين .

أ. **الإنتماء الجهوي**:

توزيع عدد الطلبة حسب الإنتماء الجهوي (1901م-1917م) مائة وثلاثين تلميذًا بدون احتساب عدد تلامذة الجالية الجزائرية المقيمة بتونس، والطلبة الميزابيين كانوا يدرسون على المذهب الحنفي بدون دفاتر مدرسية، وكذلك الشأن بعض الطلبة الجزائريين

أ. **الإنتماء الجهوي**:

جدول رقم04: توزيع عدد الطلبة حسب الإنتماء الجهوي (1901م-1917م)[10]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

*العدد الإجمالي:

		إقليم الشرق				إقليم الجنوب		إقليم الوسط	إقليم الغرب
المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة
قسنطينة	33	سوق أهراس	8	بسكرة	4	الجزائر	4	وهران	1
عنابة	5	تبسة	16	وادي سوف	9	بجاية	5	مناطق غير معروفة	2
باتنة	3	عين البيض	5	ورقلة	2	الأغواط	1		
أم البواقي	1	جيجل	1	تقرت	3	تيزي وزو	2		
خنشلة	11	سطيف	9	عين صالح	1	المدية	2		
قالمة	1			طولقة	2				

النّوع والعدد	إقليم الشرق	إقليم الجنوب	إقليم الوسط	إقليم الغرب	مناطق غير معروفة	الجملة
عدد المدن والقرى	11	6	5	1	-	-
عدد الطلبة	93	21	14	1	3	213
النسبة المئوية%	70.45%	15.90%	10.60%	0.75%	2.27%	100%

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد ارتفع عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة والمنتمين لعدد من المناطق الجزائرية خلال هذه الفترة (1901م– 1917م)، إذ وصل إلى مائة واثنين وثلاثين طالبًا، موزعين على أربعة أقاليم، ونجد الأغلبية من المناطق الشرقية من الجزائر، نظرا لقربهم من الحدود الغربية للبلاد التونسي، و بلغ عددهم ثلاثة وتسعين طالبًا من إحدى عشرة مدينة، أي بنسبة 70.45% من مجموع الطلبة، ثمّ في مرتبة ثانية نجد الجنوب بواحد وعشرين طالبًا، من ستة مدن بنسبة 15.90%، والوسط بأربعة عشر طالبًا بخمسة مدن بنسبه 10%، والغرب بطالب واحد من مدينة واحدة بنسبة 0.75%، ومناطق غير معروفة بثلاثة طلبة فقط بنسبة 2.27%، وما يلاحظ حول هذه الفترة، أنّ المناطق الشرقية تأتي في المرتبة الأولى، ثمّ الجنوب والوسط، بسب قربهم من البلاد التونسية والدّعوات التي قام بها المتخرجون الجزائريون المنتسبون إلى جامع الزيتونة والزوايا والطرق الصوفية.

ومن أسباب ضعف عدد الطلبة القادمين من إقليم الغرب : عدم وجود الدعاية الكافية للجامع الزيتونة، و بُعد المسافة وكذلك تفضيل بعض الطلبة التسجيل بجامع القرويين بمدينة فاس بالمغرب الأقصى، ويبين أيضا شغف تلامذة الجزائريين بطلب العلم والمعرفة على الرغم من ظروفهم الصعبة، وما يُستنتج من هذه الدفعة المنتسبة لجامع الزيتونة هو المستوى والمؤهلات العلمية الحسنة والمتميزة مثلما يبينه الجدول التالي:

ب. المستوى التعليمي:

***جدول رقم 05 : توزيع عدد الطلبة حسب المستوى التعليمي(1901م-1917م)[11]**

مستوى الحفظ	القرآن الكريم	ثلاثة أرباع القرآن الكريم	نصف القرآن الكريم	المتون	يحسن القراءة والكتابة	النّجابة	المجموع
عدد الطلبة	53	3	6	17	42	11	132

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزاوية	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة

ويلاحظ من هذا الجدول، ارتفاع المستوى التعليمي للطلبة الجزائريين (1901م-1917م) بعد إجراء امتحان تحديد المستوى التعليمي، وقد تمّ توزيعهم على النّحو التالي: ثلاثة وخمسون من حفظة القرآن الكريم كلّه، وثلاثة يحفظون ثلاثة أرباع، وستة طلبة النصف، وسبعة عشرة يحفظون المتون، و اثنان وأربعون طالبا يُحسنون القراءة والكتابة، وأحد عشر طالبا يتميزون بالنّجابة، ومردّ هذا إلى الدّور المتميز الذي تقوم به الكتاتيب القرآنية ومدارس الزوايا والطرق الصوفية المختلفة، وما يمكن ملاحظته أيضا، أنّ بعض التلاميذ والطلبة شدّوا الرحال إلى مدارس أخرى مثل، جامع الأزهر بمصر، الذي انتسب إليه الطالب "**عبد الرحمان بن محمد جواد السوفي**"، أصيل منطقة بسكرة الذي درس بالأزهر، وانقطع، و أعاد التسجيل بجامع الزيتونة (12)، وكذلك بالنسبة للطالب "**محمد بن أحمد بن أبي عزيز**"، أصيل منطقة الجزائر الذي درس بالزاوية بمنطقة "**نفطه**" بالجنوب الغربي التونسي، وانقطع، وسجل بجامع الزيتونة (13)، وما يلاحظ أنّ الكتاتيب والمدارس القرآنية مثلّت الإرهاصات الأولى للبعثات الطلابية إلى البلاد التونسية.

ج.<u>السكن</u>:

***<u>جدول رقم 06 : توزيع عدد الطلبة حول مراكز السكنية (1901م-1917م)</u>**(14)

<u>المدارس:</u>

المدرسة	العدد	المدرسة	العدد	المدرسة	المدرسة	العدد
الجاسوسية	1	المرادية	2	المرادية	مدرسةالمغربية	1
المدرسة جامع الجديد	2	مدرسة العنيقة	1	مدرسة العنيقة	الجنسفورة	1
النخلة	2	التوفيقية	1	التوفيقية		

<u>الزاوية والوكالات:</u>

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

زاوية سيدي نصر بن غالية	1	وكالة بن محمود	1	وكالة العسل باب منارة	2
زاوية تربة الباي	3	وكالة السكاجين	1	وكالة الخازني	3
زاوية سيدي الباهي	1	وكالة باب الجديد	2	وكالة مجلس البلدي رحبة الغنم	1
زاوية سيدي الفهام	3	وكالة الحاج بريك	1		

العدد الإجمالي:

النّوع	المدرسة	الزاوية	الوكالة	الجملة
عدد المراكز	8	4	7	19
عدد الطلبة	11	8	11	30

توزعت إقامة الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة خلال الفترة (1901م-1917م) بين عدّة أماكن، ونلمس ذلك من خلال الجدول في ثمانية مدارس، وهي عبارة عن مبيتات تابعة لجامع الزيتونة، وهي زهيدة الإيجار، قطنها أحد عشر طالبا، والزاوية في أربعة مبيتات مجانية السكن ، علما بأنّها توفر الإطعام، وقد احتضنت ثمانية طلبة والمدارس و الزوايا ، عرفت إقبالا كبيرا بسبب قلّة تكلفتها ورمزية المعلوم، ونتيجة لحالات الإكتظاظ بالمدارس والزوايا، التجأ الطلبة الجزائريون إلى السكن بالوكالات، وقد وُجدوا في سبع وكالات، وقطنها أحد عشر طالبا، وكراء كذلك مساكن من الأهالي، وما يلاحظ أنّ أغلبية الطلبة الجزائريين من أصول شعبية وأمّا بالنسبة للطلبة الميزابيين فكانت لهم مدارس ومبيتات خاصة بهم.

د–الدراسة:

تنقسم الدراسة بجامع الزيتونة إلى مرحلتين: المرحلة الأولى، تنقسم إلى قسمين، وهي المرتبة الأخيرة، تدوم ثلاث سنوات والمرتبة المتوسطة تدوم أربع سنوات، وتختم بامتحان شهادة التطويع، والمرتبة العالية تدوم ثلاثة سنوات وتُختم بامتحان شهادة العالمية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

جدول رقم 07 : توزيع عدد الطلبة حول السنة الدراسية(1901م-1917م) (15)

	سنوات المرتبة الأخيرة (الإعدادي)			سنوات المرتبة الثانوي (الثانوي)				المرتبة العالية (العالي)	شهادة التطويع	شهادة العالمية	عدد الطلبة
	1	2	3	1	2	3	4				
1901											3
1902											6
1903											4
1904											5
1905											2
1906											3
1907											7
1908											3
1909											14
1910	1			1					1		19
1911	1		1				1	2			10
1912		1	2		1						14
1913	1		3	1							13
1914				1			3				0
1915			4	1	3	5	3		1		8
1916			3	2	3	3	2		2		11
1917			2				4		2		9
الجملة									7	-	131

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يلاحظ من هذه البيانات انتساب مائة وثلاثين طالبا لجامع الزيتونة مابين (1901م-1917م) وتذبذب عدد المسجلين من سنة إلى أخرى مابين (3-7) في السنوات (1901م-1908م) وارتفاع هذا العدد بين (10-19) في السنوات (1909م-1913م)، وتوقف عدد المنتسبين سنة 1914م؛ بسبب الحرب العالمية الأولى، ووصل إلى صفر، وارتفع العدد مابين (8-11) طالبا في السنوات (1915م-1917م)، ونجد مجموع الطلبة في كلّ المستويات سنة 1915م أربعة وعشرين طالبا[16]، وفي سنة 1916م خمسة وعشرين طالبا[17]، وكانت نتائج الحصول سبعة شهائد التطويع[18]، ونلاحظ في هذه الفترة تدريس بعض الطلبة المتفوقين بجامع الزيتونة من حاملي شهادة التطويع (التحصيل) مثل، الشيخ المتطوع "**سعيد بن محمد السطيفي الجزائري**" (1910م-1913م) لمدّة ثلاث سنوات[19]، والشيخ المتطوع "**عبد الحميد بن باديس**" (1911م-1913م)[20]، والشيخ المتطوع "**أحمد الميلي**" (1916م-1917م) [21]، وتعتبر هذه المرحلة هامّة، وهي فاتحة عهد جديد بين الطلبة الجزائريين وجامع الزيتونة، ورغم العراقيل والصعوبات استطاع مائة وثلاثة وسبعون التسجيل وتحقيق نتائج حسنة والحصول على شهائد وجوائز[22]، وهذا في ظلّ غياب إحصاءات الطلبة الميزابيين المنتسبين لجامع الزيتونة.

ثانيا -<u>المرحلة الثانية (1918م-1940م)</u> : "الصحوة "

هذه المرحلة تنقسم إلى فترتين، وتميزت بالهجرة الجماعية المنظمة؛ حيث يأتي الطلبة الجزائريون في بعثات، و تدعمّت بعثة الشيخ عبد الحميد بن باديس وبعثة الزوايا، وتواصلت الهجرة الفردية، وبذلك ارتفع عدد الطلبة المنتسبين لجامع الزيتونة، وعرفت تأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين.

<u>1- الفترة الأولى (1918م-1930م)</u> :

أ - <u>الإنتماء الجهوي</u> :

⁎<u>جدول رقم 08 : توزيع عدد الطلبة حسب الإنتماء الجهوي(1918م-1930م)</u> [23]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

*** إقليم الشرق**

إقليم الشرق				إقليم الجنوب		إقليم الوسط		إقليم الغرب ومناطق غير معروفة	
المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	المدن والقرى	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة
قسنطينة	75	خنشلة	24	وادي سوف	26	الجلفة	1	وهران	11
عنابه	2	قالمة	10	بسكرة	21	المسيلة	2	تلمسان	2
باتنه	12	برج بوعريج	7	تقرت	22	بوسعادة	3	تيارت	1
أم البواقي	9	سطيف	22	طولقة	4	بجاية	3	مستغانم	3
جيجل	2	القالة	1			الأغواط	1	مناطق غير معروفة	9
سوق اهرس	14	ميلة	11			تيزي وزو	4		
تبسه	31					الجزائر	10		
عين البيضاء	8					البليدة	1		
سكيكدة	6					الشلف	2		

***العدد الإجمالي:**

النّوع والعدد	إقليم الشرق	إقليم الجنوب	إقليم الوسط	إقليم الغرب	مناطق غير معروفة	الجملة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عدد المدن والقرى	15	4	9	4	-	-
عدد الطلبة	234	73	27	17	9	360
النسبة المئوية%	%65	%20.27	%7.50	%4.72	%2.50	%100

ارتفع عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة من كافة مناطق القطر الجزائري، وإن كان ذلك بنسب متفاوتة و مختلفة في هذه الفترة(1918م-1930م)، وذلك ما يؤكد مدى شغف الجزائريين بطلب العلم والمعرفة على الرغم من ظروفهم الصعبة، فوصل العدد إلى ثلاث مائة وستين طالبا موزعين على أربعة أقاليم، واحتفظت المناطق الشرقية بالصدارة من خمسة عشرة مدينة بمائتين، وأربعة وثلاثين طالبا بنسبه 65 %، ثمّ المناطق الجنوبية من أربعة مدن بثلاثة، وسبعين طالبا بنسبه 20.27 %، والوسط من تسعة مدن بسبعة وعشرين طالبا بنسبة 7.50 %، والغرب من أربعة مدن بتسعة عشرة طالبا بنسبة 4.72 %، ومناطق غير معروفة بتسعة طلبة بنسبة 2.50 % .

وتُعزى هذه الزيادة إلى الدّور المتميز للشيخ عبد الحميد بن باديس الذي قام بالدعاية لجامع الزيتونة، وأصبحت له بعثة سنوية[24] وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية الذين شكّلوا بعثة سنوية، والمتخرجين والمنتسبين للزيتونة على الرغم من العراقيل التي تضعها إدارة الإحتلال الفرنسي المتمثلة في عدم منح تراخيص الخروج والخدمة العسكرية.

ب–السكن:

أقام الطلبة الجزائريون المسجلون بجامع الزيتونة في ثلاثة مراكز: الأولى هي المدارس التابعة للأوقاف، تشرف عليها مشيخة جامع الزيتونة، و الثانية للزوايا التي كانت تحت إشراف الطرق الصوفية، والثالثة للوكايل وهي تابعة للخواص.

جدول رقم 09: توزيع عدد الطلبة حول المراكز السكنية(1918م-1930م) [25]

المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

النخلة	19	جامع الهواء	6
الطابعية الكبرى	6	مدرسة الحفصية	1
التوفيقية	1	اليوسفية	2
المنتصرية	2	الشماعية	2
الباشية	5	الحبيبية الكبرى	9
المدرسة جامع الجديد	5	مدرسة جامع سوق السلام	5
الحسينية الكبرى	2	مدرسة جامع بلخير	1
المرادية	2	القاسمية	6
مدرسة الخيرية	1	الجنسفورة	1
مدرسة العنيقة	2	الجاسوسية	4
مدرسةالمغربية	4	السليمانية	2
مدرسة جامع المهراس	1		

*<u>الزاوية</u>:

الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة
مدرسة قشلة **الزواوي**	8	زاوية سيدي الباهي	1
زاوية سيدي البكرية	1	زاوية سيدي محمود	8
زاوية السيدة المنوبية	1	الزاوية التيجانية باب منارة	16
زاوية تربة الباي	5	زاوية سيدي بلخير	1
زاوية الديوان	2	زاوية سيدي الفهام	16
المدرسة الشادلية	1	زاوية طرغة	1
زاوية سيدي عمار السراجين	2	مدرسة قشلة باب سعدون	3
زاوية سيدي قاسم عزوز	1		

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

*** *الوكالات والنُّزل:**

الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة والنزل	عدد الطلبة
وكالة مجلس البلدي رحبة الغنم	8	وكالة عبد الرحمان التواتي باب الجديد	2	وكالة مسعودة باب الفلّة	1
وكالة يوسف بوعبيد	1	وكالة الحاج بريك	11	وكالة السكاجين	3
وكالة العسل باب منارة	4	وكالة الخازمي	3	وكالة عبد المولى	1
وكالة بن مرزوق سوق اللفة	28	وكالة سوق السراجين	6	وكالةالحاج حسين نهج سيدي الزوار	2
وكالة الجيزفورة	2	وكالة باب الجديد	1	وتيل الساحل	1

***العدد الإجمالي:**

النّوع	المدرسة	الزاوية	الوكالة	النزل	الجملة
عدد مساكن	23	15	14	1	54
عدد الطلبة	89	67	73	1	230

توزّعت إقامة الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة في هذه الفترة مابين (1918م- 1930م) في عدّة أماكن، وعلى النحو التالي: في ثلاثة وعشرين مدرسة، احتضنت ستة وثمانين طالبا، وخمس عشرة زاوية سكنها سبعة وستون طالبا، ونظرا لقلّة تكلفتها ورمزية المعلوم، ونتيجة لحالات الإكتظاظ بالمدارس والزوايا، التجأ الطلبة الجزائريون إلى السكن بالوكالات في أربع عشرة وكالة وقطنها ثلاثة وسبعون طالبا، والنّزل بطالب واحد، والعدد الإجمالي مائتين وثلاثين طالبا بنسبه

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

62.7 %، وما يلاحظ أنّ أغلبية الطلبة الجزائريين من أصول شعبية، وأصبح جامع الزيتونة أيضا محطّ أنظار الطبقة الميسورة.

ج- **المستوى التعليمي**:

***جدول رقم 10 : توزيع عدد الطلبة حسب المستوى التعليمي (1918م-1930م)** (26)

المستوى	السنةالثانية	السنة الثانية	السنة الرابعة	السنة الأولى ثانوي	السنة الثانية ثانوي	الجملة	النسبة المئوية%
عدد الطلبة	29	31	3	12	1	76	21.22 %

يبين هذا الجدول أنّ الطلبة الجزائريين الجدد المنتسبين لجامع الزيتونة مابين(1918م–1930م) بعد إجراء امتحان تحديد المستوى التعليمي ، يتمّ توزيعهم على النّحو التالي؛ حيث تمّ تسجيل تسعة وعشرين طالبا بالسنة الثانية من المرتبة الأخيرة (الإعدادي) وواحد وثلاثين بالسنة الثالثة وأربعة بالرابعة واثني عشر بالسنة الأولى من المرتبة المتوسطة (ثانوي) وواحد بالسنة الثانية ثانوي والمجموع العام تسعة وسبعون طالبا بنسبه 21.22 %، والبقية بالسنة الأولى، و لا حظت لجنة تقييم المستوى التعليمي ضعف بعض الطلبة الجزائريين في مادتي الرياضيات والعلوم الطبيعية، و رغم من ذالك نلاحظ أنّ هذا المستوى المتميز مردّه إلى الدّور الذي تقوم به الكتاتيب القرآنية ومدارس الزوايا والطرق الصوفية المختلفة، ومثّلت الكتاتيب القرآنية والمدارس الحرّة الإرهاصات الأولى للبعثات الطلابية.

د-**الدراسة**:

***جدول رقم 11 : توزيع عدد الطلبة حول السنوات الدراسية(1918م-1919م)** (27)

س/ميلادي	سنوات المرتبة الأخيرة (الإعدادي)	سنوات المرتبة المتوسطة (الثانوي)	المرتبة العالية (العالي)	شهادة التطويع	الطلبة الجدد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

												(التحصيل)	
	1	2	3		1	2	3	4	1	2	3		
1918	5	3			11	–	2	1	1			3	9
1919	20	7		–	7	2	1	3	–	–	–		35
1920		2			4			6				6	24
1921	10	7		–	8	2	1	1				1	21
1922	11	3	3	–	3	4	6	3	2			2	14
1923												1	10
1924												8	23
1925	13	19	12	–	6	4	2	5	2			10	44
1926												5	45
1927												5	32
1928												1	34
1929	15	12	7	–	3	7	5	9	–	–	–	1	26
1930												12	41
	الجملة											**55**	**360**

نستنتج من هذه البيانات زيادة عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة (1918م-1930م)، وقد بلغ ثلاث مائة وستين طالبا، ونجدما بين (9-24) في السنوات (1918م-

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

1924م)، وارتفع العدد مابين (24-44) في السنوات (1925م-1930م) ومجموع الطلبة في كافة المستويات في سنة 1918م، بلغ ستة عشر طالبا [28]، أمّا في سنة 1919م فقد ارتفع إلى ستة وأربعين طالبا[29]، وفي سنة 1921م انخفض العدد إلى اثنين وثلاثين، وفي سنة 1922م وصل إلى خمسة وثلاثين طالبا [30]، وفي سنة 1925م، ارتفع إلى ثلاثة وستين طالبا[31]، وفي سنة 1925م سبعة وخمسين طالبا[32]،و بالرغم من الظروف الصعبة التي يعيشها الطالب الجزائري بجامع الزيتونة المتمثلة في السكن والدراسة، تمّ تحقيق نتائج حسنة، تمثّلت في الحصول على خمس وخمسين شهادة تطويع، وهذا بدون احتساب الطلبة الميزابيين، كما نلاحظ في هذه الفترة تدريس المتفوقين من حاملي شهادة التطويع (التحصيل) بجامع الزيتونة مثل، الشيخ المتطوع "**مبارك الميلي**" (1924م-1925م) [33]، والشيخ المتطوع "**منور بن إبراهيم البسكري**" (1925م-1926م) [34]، و الشيخ المتطوع "**يوسف الأخضري الزقمي**" (1925م-1926م) [35].

2 –<u>الفترة الثانية (1931م-1940م)</u>:

أ– <u>الإنتماء الجهوي</u> :

<u>*جدول رقم12 : توزيع عدد الطلبة حسب الإنتماء الجهوي (1931م-1940م)</u> [36]

إقليم الشرق				إقليم الجنوب		إقليم الوسط		إقليم الغرب ومناطق غير معروفة	
المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة
قسنطينة	75	سطيف	28	بسكرة	7	الجزائر	18	وهران	6
عنابه	1	جيجل	7	وادي سوف	29	تيزي وزو	5	تلمسان	2
باتنه	20	سوق اهرس	34	طولقة	1	بجاية	7	عين تموشنت	1
أم البواقي	15			ورقلة	4	تنس	2	تيارت	1

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

خنشلة	40			تقرت	11	البليدة	1	معسكر	3
قالمة	4			تماسين	2	الشلف	1	مناطق غير معروفة	9
سكيكدة	3			تماراست	3	البويرة	2		
ميلة	10					دلس	4		
الميلية	4					الأغواط	2		
عين البيضاء	6					الجلفة	4		
تبسه	25					بوسعادة	2		
القل	3					برج منايل	1		

***العدد الإجمالي:**

النوع والعدد	إقليم الشرق	إقليم الجنوب	إقليم الوسط	إقليم الغرب	مناطق غير معروفة	الجملة
المدن والقرى	15	6	12	5	-	-
عدد الطلبة	275	58	49	13	9	404
النسبة المئوية%	68.06%	% 14.35	12.12%	3.21%	2.22%	100 %

تواصل ارتفاع عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة من كافة مناطق القطر الجزائري، وإن كان ذلك بنسب مختلفة ومتفاوتة، وهو ما يؤكد مدى شغف الجزائريين بطلب العلم والمعرفة على الرّغم من ظروفهم الصعبة، وفي هذه الفترة(1931م-1940م)، ووصل إلى أربع مائة وأربعة طلبة موزعين على أربعة أقاليم، وحافظت المناطق الشرقية على المرتبة الأولى بخمس عشرة مدينة بمائتين وخمسة وسبعين طالبا بنسبة 68.06 %، ثمّ المناطق الجنوبية بست مدن وبثمانية وخمسين طالبا بنسبة 14.35 %، ثمّ مناطق الوسط بإثنتي عشرة مدينة بتسعة وأربعين طالبا بنسبة 12.12 %، والغرب بخمس مدن وبثلاثة عشر طالبا بنسبة 3.21% ومناطق غير معروفة بثمانية طلبة بنسبة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

2.22%، ومردّ هذه الزيادة إلى دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي قامت بالدّعاية لجامعة الزيتونة، وأصبحت هناك أربع بعثات سنوية، وهي جمعية العلماء وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية وحزب الشعب الجزائري والميزابيين، وكذلك دور المتخرجين والمنتسبين لجامع الزيتونة.

ب–السكن:

***جدول رقم 13 : توزيع عدد الطلبة حول مراكز السكنية(1931م-1940م)** (37)

***المدارس**:

المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد لبة
النّخلة	5	جامع الهواء	8	الحسينية الكبرى	2	الأندلسية	1
الطابعية الكبرى	2	العاشورية	6	المدرسة الدغرية	1	المدرسة جامع الجديد	1
التوفيقية	3	الحفصية	4	مدرسة العنيقة	2	مدرسة العمال	1
القاسمية	7	اليوسفية	7	مدرسة المغربية	2	السليمانية	2
الباشية	12	مدرسة جامع سوق السلام	2	الشماعية	5	الحبيبية الكبرى	4
المرادية	1	مدرسة جامع محمد باي	4	مدرسة الهداية	3		
الجاسوسية	1	مدرسة جامع باب البحر	1	المدرسة المتشية	3		
المدرسة البادسية	3	مدرسة جامع الزراعية	1	مدرسة الخلدونية	1		

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزاوية:

الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة
زاوية سيدي زياد	6	زاوية سيدي الباهي	3	زاوية سيدي الجليزي	5	زاوية سيدي منصور	2
زاوية سيدي البكرية	1	زاوية سيدي محمود	29	المدرسة الشادلية	15	زاوية سيدي احمد	2
زاوية السيدة المنوبية	2	زاوية سيدي قاسم عزوز	7	مدرسة قشلة الزواوي	8	زاوية سيدي محرز	2
مدرسة قشلة باب سعدون	9	زاوية سيدي بلخير نهج الحجامين	8	الزاوية التيجانية باب منارة	9	زاوية سيدي عبدالحفيظ	1

الوكالة:

الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة
وكالة سيدي قاسم	5	وكالة بن مرزوق	2	وكالة العسل باب منارة	1	وكالة التمارين	3
وكالة الحاج حسين نهج سيدي	1	وكالة الخازني يسوق اللفة	5	وكالة مجلس البلدي رحبة الغنم	8	وكالة الحاج محمد باب سعدون	1

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزوار							
وكالة سوق العطارين	4	وكالة السعيدي	1	وكالة الحجامين	1		
وكالة سوق اللفة	7	وكالة باب بنات	3	وكالة الحلفاوين	4		

النّزل:

النّزل	عدد الطلبة	النزل	عدد الطلبة	النزل	عدد الطلبة
وتيل العياشي باب الجديد	5	وتيل زغوان سوق النحاس	1	وتيل الإسلامي سوق النحاس	2
وتيل صفاقس	2	وتيل السلام	3	وتيل الساحل	5

العدد الإجمالي:

النّوع	المدرسة	الزاوية	الوكالة	النزل	الجملة
عدد مراكز	29	16	16	6	67
عدد الطلبة	92	910	52	18	271

توزّع الطلبة الجزائريون المنتسبون لجامع الزيتونة في هذه الفترة(1931م–1940م) بين عدّة أماكن، ونلمس ذلك من خلال هذه البيانات في تسع وعشرين مدرسة، احتضنت اثنين وتسعين طالبا، وستّ عشرة زاوية، سكنها مائة وثلاث طلبة؛ نظرا لقلّة تكلفتها ورمزية المعلوم، ونتيجة لحالات الإكتظاظ بالمدارس والزوايا، لجأ الطلبة الجزائريون إلى السكن بالوكالات في ستة عشرة وكالة، قطنها اثنان وخمسون طالبا، وازداد عدد الطلبة الميسورين بثمانية عشر طالبا والقاطنين بستة نزل، والعدد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإجمالي مائتين وخمسة ستين طالبا بنسبة 67.25 ، %والبقية في مناطق متفرقة، وما يُستنج أنّ أغلبية الطلبة الجزائريين من أصول شعبية وازدياد اهتمام الطبقة الميسورة بجامع الزيتونة، كما لعبت الزوايا والمدارس دورا مميزا، و تكفلّت بإيواء نسبة 88 % من الطلبة .

ج- المستوى التعليمي:

***جدول رقم 14 : توزيع عدد الطلبة حسب المستوى التعليمي (1931م-1940م)[38]**

مستوى الحفظ والسنة	ربع القرآن	نصف القرآن الكريم	ثلاثة أرباع القرآن الكريم	القرآن الكريم	المتون	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الأولى	مدرسة سدراتة
عدد الطلبة	3	7	1	40	50	46	40	20	2	1
المجموع	228									
النسبة المئوية%	%56.57									

صدر قانون جديد لتنظيم التعليم الزيتوني سنة 1933م، وحددّ عدة شروط لقبول الطالب بجامع الزيتونة، وفروعه أن يكون حافظا للرّبع الأخير من القرآن الكريم على الأقل، ولمتون ما يُدرس بالسنة الأولى، وعلى تلامذة علوم القراءات حفظ القرآن الكريم، لكن بصفة استثنائية القول بمن كان يحفظ نصف القرآن، ويُوزّع الباقي على السنوات الدراسية، وأن يكون سنه بين اثنتي عشرة سنة على الأقلّ، وست عشرة سنة على الأكثر، ويزداد عام لمن يحفظ القرآن الكريم، وهذا الشرط لم يُطبّق على الجزائريين، ويجتاز الطالب الإمتحان، ويطالب بالإستظهار بستة أحزاب من القرآن الكريم، وبالحصول على عشرة نقاط لاجتياز الإمتحان الكتابي و الشفهي، ويشمل امتحان الكتابي الإنشاء والإملاء والأسئلة والشّكل والحساب، أمّا الإمتحان الشفهي فينقسم إلى جزأين سؤال في الفقه وقراءة نص غير مشكول والإجابة عن الأسئلة[39].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ومن أراد التسجيل ما فوق السنة الأولى حِفظ زيادة ثلاثة أحزاب عن كلّ سنة، أمّا الطلبة الذين لم يدرسوا الأهلية فهم مطالبون باجتياز امتحان[40]، ما يمكن أن نستنتجه من خلال هذا الجدول، هو تميز هذه المجموعة(1931م-1940م)؛ إذ نجد أربعين طالبا من حفظة القرآن الكريم كلّه، وواحد يحفظ ثلاثة أرباع، وسبعة يحفظون نصفه، وثلاثة يحفظون الرّبع منه، وخمسين يحفظون المتون، ويبيّن كذلك أنّ الطلبة الجزائريين الجدد المنتسبين لجامعة الزيتونة بعد إجراء امتحان تقييم المستوى التعليمي والثقافي، تمّ توزيعهم على النّحو التالي : تسجيل أربعة وستين طالبا بالسنة الثانية من المرتبة الأخيرة (الإعدادي) وأربعين بالسنة الثالثة وعشرين بالسنة بالرابعة وإثنين بالسنة الأولى من المرتبة المتوسطة (ثانوي)، وطالب درس برنامج السنة الأولى بمدرسة سدراتة[41]، والمجموع العام للطلبة مائتين وثمانية وعشرين طالبا بنسبة 56.57% والبقية بالسنة الأولى.

تبين كذلك أنّ بعض الطلبة الجزائريين يشكون ضعفا في مادتي الرياضيات والعلوم الطبيعية، والتّقدم في السّن، وعلى الرّغم من ذلك نلاحظ أنّ مستوى الطلبة متميز، و مردّه إلى الدّور الذي تقوم به الكتاتيب القرآنية ومدارس كلّ من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والزوايا والطرق الصوفية المختلفة وخاصّة الطرق الرحمانية والقادرية والتيجانية المنتشرة على الحدود التونسية الجزائرية ، خاصّة بمنطقتي نفطه والكاف التي تقوم بتحفيظ القرآن ونشْر العلم والدّفاع عن الهوية العربية الإسلامية للجزائريين، وما يلاحظ أيضا أنّ الكتاتيب القرآنية والمدارس الحرّة، مثلّت الإرهاصات الأولى للبعثات الطلابية، أمّا أسباب قلّة هذا العدد فيعود أساسا إلى الصعوبات والعراقيل التي تضعها الإدارة الفرنسية في وجه التلاميذ الجزائريين وعدم منحهم التراخيص لمغادرة بلادهم والخدمة العسكرية وإلى جانب عامل الفقر والأميّة.

د-<u>الدراسة</u>:

تنقسم الدراسة بجامع الزيتونة إلى ثلاث مراحل بموجب مرسوم، صدر في 30مارس1933م: المرحلة الأولى المرتبة الأخيرة (الإعدادية)، وتدوم الدراسة فيها أربع سنوات،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وتنتهي بامتحان شهادة الأهلية، والمرحلة الثانية المرتبة المتوسطة(الثانوي) وتدوم الدّراسة فيها ثلاث سنوات، وتنتهي بامتحان شهادة التحصيل (التطويع)، أمّا المرحلة الثالثة فهي تدوم ثلاث سنوات، وتنتهي بامتحان شهادة العالمية[42]، والدراسة بجامع الزيتونة على المذهبين المالكي والحنفي، وبالنسبة للطلبة الميزابيين يدرسون على المذهب الحنفي.

***جدول رقم 15 : توزيع عدد الطلبة حول السنوات الدراسية(1931م-1940م)** [43]

	سنوات المرتبة الأخيرة (الإعدادي)				سنوات المرتبة المتوسطة (الثانوي)			المرتبة العالية (العالي)			شهادة الأهلية		شهادة التحصيل التطويع	شهادة العالمية	الطلبة الجدد
	1	2	3	4	1	2	3	4	1	2	3				
1931	7	13	6	-	12	8	2	8				-	6		23
1932	46	32	21	-	8	22	11	3				-	8		38
1933	25	15	14	-	6	15	1	12	2			-	2		37
1934	32	13	33	20	1	8	20	-	5	1		7	11		94
1935	36	11	21	35	15	2	9	-				15	8		63
1936	29	27	27	29	22	12	5	-	4	1	1	20	81	1	15
1937	38	35	22	23	21	12	1	-	4	1		11	41		62
193	33	30	25	37	18	15	8	-	3	3	1	25	3	2	70

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

															8
15	2	10	29	1	–	2	–	6	6	11	13	20	28	10	1939
72	1	6	28	1	–	5	–	5	7	11	18	20	20	–	1940
404	6	86	137		الجملة										

نستنتج من هذا الجدول زيادة عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة(1931م–1940م)، وبلغ العدد الإجمالي أربع مائة وأربعة طلبة، ونجد في (1931م–1938م) ما بين (23–70)، وانخفض العدد ما بين (15–27) في سنوات (1939م– 1940م)؛ بسب الحرب العالمية الثانية، أمّا مجموع الطلبة في كافة المستويات فقد بلغ سنة 1931 م، ستة وخمسين طالبا، وأمّا في سنة 1932 م، فقد ارتفع إلى مائة وثلاثة وأربعين طالبا، وفي سنة 1933م، انخفض العدد إلى تسعين طالبا ، وفي سنة 1934م وصل إلى مائة وثلاثة وعشرين طالبا، وفي سنة 1935م، ارتفع إلى مائة وتسعة وعشرين طالبا، وفي سنة 1936م و1937م، مائة وسبعة وخمسين طالبا، وفي سنة 1938م، ارتفع إلى مائة وثلاثة وسبعين طالبا، وفي سنة 1939م، انخفض العدد إلى سبعة وتسعين، وتواصل الانخفاض سنة 1940 م بسبعة وثمانين طالبا.

وإلى جانب هؤلاء هنالك طلبة أحرار في شهادتي الأهلية والتحصيل، أمّا النتائج التي تحققّت فتمثلّت في مائة وسبع وثلاثين شهادة أهلية وستّ وثمانين شهادة التحصيل، وستّ شهادات العالمية(44)، وعلى الرغم من الظروف الصعبة على مستوى الإقامة والدراسة، ازداد عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة في هذه المرحلة، ووصل إلى سبعمائة وواحد وستين، مع تحقيق نتائج مميّزة، تمثلّت في الحصول على العديد من شهادات، ونتائج مائتين وستّ وستين شهادة أهلية، ومائة وواحد وأربعين شهادة التحصيل، وستة شهادات العالمية، وتأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، وهي أداة وصل بين الطلبة ومشيخة الزيتونة ساهمت في تأطير الطلبة وتحقيق نتائج حسنة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ه – التعليم العالي(1917م–1940م):

جدول رقم 16 : تطورعدد الطلبة في التعليم العالي(1917م-1940م) [45]

	الشريعة			الآداب			الجملة
	1	**2**	**3**	**1**	**2**	**3**	
1917	2						2
1922	1						1
1933				1			1
1934	2				1		3
1935						1	1
1936	4			1			5
1937	3	1		1	1		5
1938	2	1	1		1	1	6
1939	2	1	1		1	1	7
1940		3	1	1			5
الجملة	**19**	**6**	**3**	**4**	**3**	**3**	**36**

تدوم مرحلة التعليم العالي بجامع الزيتونة ثلاثة سنوات ويوجد فيها اختصاصان (اختصاص العلوم الشرعية واختصاص الآداب)، وتنقسم إلى فترتين، الفترة الأولى(1917م–1935م)، تميزّت بضعف الإقبال على التعليم العالي مابين (1–2)، وتسجيل الطلبة في السنة الأولى من التعليم العالي وعدم المواصلة والانقطاع، ونجد في سنة 1934 م تسجيلا بالسنة الثانية، وفي سنة 1935م، حصل أوّل طالب على شهادة العالمية في الآداب ويدعى "**الدريري بوزيان بن نصر الميلي**"[46]، والفترة الثانية (1936م– 1940م)، تحسّن الإقبال على مواصلة الدراسة بالتعليم العالي ما بين (1–4)، وبلغ

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عدد الطلبة المسجلين ستة وثلاثين طالبا، وفي اختصاص العلوم الشرعية ثمانية وعشرون طالبا، موزعون إلى تسعة عشرة في السنة الأولى وستة في السنة الثانية وثلاثة في السنة الثالثة و في اختصاص الآداب، وصل عددهم إلى عشرة طلبة، موزعون إلى أربعة في السنة الأولى وثلاثة في السنة الثانية وثلاثة في السنة الثالثة، والنتائج الحصول على ستّ شهادات العالمية، ثلاثة بالعلوم الشرعية وثلاثة بالآداب (47)، ومردّ عدم إقبال الجزائريين على التعليم العالي حاجة المدارس الجزائرية إلى المتخرجين من حملة شهادة التحصيل والتّقدم في السّن الذي يتطلّب بناء أسرة وعدم تحمل المصاريف الدراسة بحكم أنّ أغلبية الطلبة من الطبقة الشعبية والبعد.

ثالثا–المرحلة الثالثة(1941-1953): "الأوج"

تعتبر هذه المرحلة الذروة؛ حيث ازداد إقبال الطلبة الجزائريون على التسجيل بجامع الزيتونة وفروعه من كافة المدن الجزائرية وتأسسّ فيها معهدين بقسنطينة هما: معهد عبد الحميد بن باديس (تحت إشراف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، والكلية الكتّانية (تحت إشراف الزاوية الرحمانية)، وإلحاقهم بجامع الزيتونة وفروعه، واعتبارهما فرعين تابعين له، وتنقسم هذه المرحلة: إلى فترتين

1. الفترة الأولى(1941م-1946م):

أ– الإنتماء الجهوي:

⁎جدول رقم 17: توزيع الطلبة حسب الإنتماء الجهوي (1941م-1946م) (48)

إقليم الشرق				إقليم الجنوب		إقليم الوسط		إقليم الغرب ومناطق غير معروفة	
المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة	المدن والقرى	عدد الطلبة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قسنطينة	63	جيجل	12	بسكرة	19	الجزائر	21	وهران	4
عنابه	1	سوق أهرس	8	وادي سوف	44	تيزي وزو	4	تلمسان	3
باتنه	15	تبسه	9	طولقة	4	بجاية	10	مستغانم	1
أم البواقي	5	القل	4	ورقلة	2	المسيلة	3	المشرية	1
خنشلة	18			تقرت	15	خميس مليانة	2	معسكر	1
البيضاء	7			تماسين	1	الاغواط	1	سيدي بالعباس	1
قالمة	9					المدية	5	مناطق غيرمعروفة	38
برج بوعريرج	3					دلس	1		
سكيكدة	2					القليعة	2		
ميلة	13					بوسعادة	2		
الميلية	12					تنس	1		
سطيف	11					الشلف	13		

النّوع والعدد	إقليم الشرق	إقليم الجنوب	إقليم الوسط	إقليم الغرب	مناطق غير معروفة	الجملة
المدن والقرى	15	6	12	6	–	–
عدد الطلبة	192	85	65	11	38	391
النسبة المئوية%	%49.10	%21.7	%16.62	%2.81	%9.71	%100

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

⁕⁕العدد الإجمالي:

تواصل ارتفاع عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة القادمين من كافة مناطق القطر الجزائري، وإن كان ذلك بنسب مختلفة ومتفاوتة من جهة إلى أخرى، وذلك ما يؤكد مدى شغف الجزائريين بطلب العلم والمعرفة، وعلى الرغم من الظروف الصعبة و في هذه الفترة(1941م-1946م) وصل العدد الإجمالي إلى ثلاث مائة وواحد وتسعين، موزعين على أربعة أقاليم، وحافظت المناطق الشرقية على المرتبة الأولى بخمسة عشرة مدينة وبمائة وواحد وتسعين طالبا بنسبهة49.10%، ثمّ المناطق الجنوبية بستّ مدن وبخمسة وثمانين طالبا بنسبة 21.73%، ثمّ مناطق الوسط باثنتي عشرة مدينة وخمسة وستين طالبا بنسبهة16.62 %، والغرب بستّ مدن وأحد عشر طالبا بنسبة 2.81%، مناطق غير معروفة بثمانية وثلاثين طالبا بنسبة 9.71 % ، ومردّ هذه الزيادة إلى دور كلّ من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والعلماء وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية وحزب الشعب الجزائري والمتخرجين والمنتسبين لجامع الزيتونة .

ب – السكن:

⁕المدارس:

⁕جدول رقم 18 : توزيع عدد الطلبة حول مراكز السكنية(1941-1946) (49)

المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة
النخلة	2	المدرسة جامع الجديد	3	الحسينية الصغرى	1	المدرسة البادسية	60
الطابعية الكبرى	3	الحفصية	1	المدرسة الدغرية	4	مدرسة العنيقة	2

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

السليمانية	10	اليوسفية	2	المدرسة الهلالية	3	مدرسة جامع سوق السلام	6
التوفيقية	7	الحبيبية الكبرى	18	المدرسة العجمية	4	المدرسة المتشية	1
الباشية	10	الأندلسية	32	مدرسة الهداية	4		
المرادية	3	العاشورية	1	مدرسة الصالحية	1		
الجاسوسية	4	الحسينية الكبرى	6	القاسمية	1		

** **الزاوية**:

الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة
الزاوية التيجانية	12	زاوية سيدي الباهي	2	المدرسة الشادلية	2	مدرسة قشلة باب سعدون	3
زاوية سيدي البكرية	3	زاوية سيدي محمود	2	مدرسة قشلة الزواوي	4	زاوية سيدي الفهام	3
زاوية سيدي زياد	3	زاوية سيدي بلخير	1	زاوية سيدي قاسم عزوز	9		

** **الوكالات والنّزل**:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة	النزل	عدد الطلبة
وكالة سيدي قاسم	5	وكالة صاحب الطابع	1	وكالة سوق اللفة	7	وتيل السلامة نهج المر	5
وكالة باب بنات	2	وكالة مسعودة باب الفلة	2	وكالة سوق العطارين	1	وتيل الساحل	1
وكالة العسل باب منارة	3	وكالة التمارين	6	وكالة مجلس البلدي	1		

***العدد الإجمالي**:

النّوع	المدرسة	الزاوية	الوكالة	النزل	الجملة	النسبة المئوية
عدد المراكز	25	11	9	2	47	-
عدد الطلبة	189	44	28	6	267	%68.28

توزّع الطلبة الجزائريون المنتسبون لجامع الزيتونة في هذه الفترة(1941م–1946م) بين عدّة أماكن، ونلمس ذلك من خلال الجدول في خمس وعشرين مدرسة، احتضنت مائة وتسعة وثمانون طالبا وستّ عشرة زاوية، سكنها أربعة وأربعون طالبا، ونظرا لقلّة تكلفتها ورمزية المعلوم ونتيجة لحالات الإكتظاظ بالمدارس والزوايا، لجأ الطلبة الجزائريون إلى السكن بالوكالات في تسع وكالات، قطنها ثمانية وعشرون طالبا، وأمّا عدد الطلبة الميسورين ستّة والقاطنين بنزلين والعدد الإجمالي بلغ مائتين وسبعة و ستين

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

طالبا بنسبة 68.28 بالمائة والبقية في مناطق متفرقة، وما يستنتج أيضا أنّ أغلبية الطلبة الجزائريين من الطبقة الشعبية وزيادة على عدد قليل من الطلبة الميسورين وقد لعبت الزوايا والمدارس دورا اجتماعيا وإنسانيا، وساندتهم جمعية الأوقاف خاصّة خلال الحرب العالمية الثانية.

ج- المستوى التعليمي:

※جدول رقم 19 : توزيع عدد الطلبة حسب المستوى التعليمي (1941م-1946م) (50)

مستوى الحفظ والسنة	القرآن الكريم	القرآن الكريم ثلاثة أرباع	نصف القرآن الكريم	ربع القرآن	المتون	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الأولى	شهادة ابتدائية بالفرنسية
عدد الطلبة	93	4	8	5	88	140	46	26	1	1
الجملة										**421**

ما يمكن ملاحظته من خلال هذه البيانات هو، تميُز هذه الدفعة في هذه الفترة (1941م-1946م)، ونلمس ذلك من خلال المستوى الثقافي والتعليمي؛ حيث نجد ثلاثة وتسعين طالبا من حفظة القرآن الكريم كلّه، وأربعة يحفظون ثلاثة أرباع، وثمانية يحفظون نصفه، وخمسة يحفظون الربع، وثمانية وثمانين يحفظون المتون، كما أنّ الطلبة الجزائريين الجدد المنتسبين لجامع الزيتونة بعد إجراء امتحان تحديد المستوى الثقافي، تمّ توزيعهم على النّحو التالي :

تسجيل مائة وأربعين طالبا بالسنة الثانية من المرتبة الأخيرة (الإعدادي)، وستّة وأربعون بالسنة الثالثة وستّة وعشرون بالسنة الرابعة، وواحد بالسنة الأولى من المرتبة المتوسطة (ثانوي)، وطالب متحصل على شهادة إبتدائية بالفرنسية، والبقية بالسنة الأولى من المرتبة الأخيرة(الإعدادي)، ونستنتج أيضا أنّ لجنة الإمتحانات وتقييم المستوى، لاحظت أنّ البعض من الطلبة الجزائريين يشكون ضعفا في مادة الحساب والعلوم الطبيعية والتّقدم في السّن، وعلى الرغم من ذلك نجد أغلبية الطلبة ذوي مستوى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تعليمي ثقافي متميز ومردّه إلى الدّور الذي تقوم به الكتاتيب القرآنية والمدارس الحرّة لخريجي جامع الزيتونة والزوايا والطرق الصوفية المختلفة بتحفيظ القرآن ونشر العلم والمعرفة والدّفاع عن الهوية العربية الإسلامية للجزائريين. كما أنّ الكتاتيب القرآنية والمدارس الحرّة مثلّت الإرهاصات الأولى للبعثات الطلابية إلى جامعة الزيتونة، أمّا أسباب قلّة هذا العدد فتعود أساسًا إلى الصعوبات والعراقيل التي تضعها الإدارة الفرنسية في وجه التلاميذ الجزائريين وعدم منحهم التراخيص لمغادرة بلادهم والخدمة العسكرية إلى جانب عامل الفقر والأميّة.

د-المدارس التعليمية:

***جدول رقم20 : توزيع عدد المدرس الجزائرية والتونسية (1941م-1946م)** (51)

المدارس الجزائري						المدارس التونسية	
المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة
مدرسة سيدي خالد تبسه	1	مدرسة القرآنية طولقة	1	مدرسة جمعية الإحسان القليعة	1	فرع الزيتوني بنفطه	1

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مدرسة التربية والتعليم بالقليعة قسنطينة	1	مدرسة سيدي عيسى	1	مدرسة الفرنسية بوهران	1	فرع الزيتوني بتوزر	1
مدرسة الفرنسية بباتنه	1	مدرسة الابتدائية المدية	1				
مدرسة وادي سوف	1	معهد عبد الرحمان البلبولي بعزازقة	1				

العدد الإجمالي:

النوع والعدد	إقليم الشرق	إقليم الجنوب	إقليم الوسط	إقليم الغرب	المدرسة التونسية	الجملة
عدد المدارس	3	2	4	1	2	12
عدد الطلبة	3	2	4	1	2	12

تبين هذه البيانات المدارس والمراكز التعليمية التي تمّ تأطير فيها طلبة الجزائريين في فترة (1941م-1946م)، وهي موزّعة على النّحو التالي :الشرق بثلاث مدارس وثلاثة طلبة، والجنوب بمدرستين وطالبين، والوسط بأربع مدارس وأربعة طلبة، والغرب بمدرسة وطالب، و الجنوب الغربي التونسي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بمدرستين وطالبين، وعددها الإجمالي اثنتى عشرة مدرسة واثنا عشر طالبا، وهي تابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري والزوايا، ويشرف عليها خريجي جامع الزيتونة، ونلاحظ أنّ المدارس الحرّة مثلّت الإرهاصات الأولى للبعثات الطلابية إلى جامعة الزيتونة وفروعها، وقامت بدور متميز في نشر المعرفة ونشر الوعي والمحافظة على الهوية العربية الإسلامية.

ه-الدراسة:

جدول رقم 21: توزيع عدد الطلبة حول السنوات الدراسية(1941م-1946م) [52]

	سنوات الرتبة الأخيرة (الإعدادي)				سنوات الرتبة المتوسطة (الثانوي)				الرتبة العالية (العالي)			شهادة الأهلية	شهادة التحصيل (التطويع)	شهادة العالمية	الطلبة الجدد
	1	2	3	4	1	2	3	4	1	2	3				
1941								7				29	14	2	14
1942												71	3	1	33
1943	10	13	14	9	10	7	4	–	3	4	2	9	4		20
1944												17	10		39
1945												20	5		105
1946				11								41	6		180
الجملة												**106**	**42**	**3**	**391**

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

نستنج من هذه البيانات زيادة عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة خلال هذه الفترة (1941م-1946م) ،وبلغ عددهم ثلاثمائة وواحد وتسعين طالبا، ونجد سنوات(1941م-1944م) مابين(14-39)، وانخفض العدد بسب الحرب العالمية الثانية أمّا مجموع الطلبة في كافة المستويات سنة 1943م، بلغ ستة وسبعين طالبا[□ين]، أمّا في السنة الدراسية (1945م-1946م) فقد ارتفع العدد مابين(105-180)، وإلى جانب هؤلاء نجد طلبة أحرارا في شهادتي الأهلية والتحصيل والطلبة الميزابيين، أمّا النتائج التي تحققّت فتمثّلت بمائة وستة شهادة أهلية[□ين]، واثنتين وأربعين شهادة التحصيل[ين ين]، وثلاث شهادات العالمية، وعلى الرّغم من الظروف الصعبة، تمّ تحقيق هذه النتائج، كما لعبت جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين دورا مميزا في تأطير وتحفيز الطلبة لتحقيق نتائج حسنة.

2 – الفترة الثانية (1947م-1953م) :

أ– الإنتماء الجهوي :

***جدول رقم 22: توزيع الطلبة حسب الإنتماء الجهوي (1947م-1953م)** [56]

إقليم الشرق	إقليم الجنوب		إقليم الوسط		إقليم الغرب ومناطق غير معروفة				
المدن	عدد الطلبة	المدن	عدد الطلبة	المدن	عدد الطلبة	المدن	عدد الطلبة	المدن	عدد الطلبة
قسنطينة	241	جيجل	40	بسكرة	15	الجزائر	140	وهران	28
عنابه	2	سوق اهرس	41	وادي سوف	49	تيزي وزو	9	تلمسان	8

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

باتنه	45	تبسه	42	غرداية	3	أقبو بجاية	21	مستغانم	4
أم البواقي	8	القل	18	طولقة	5	المسيلة	11	عين تموشنت	1
خنشلة	34	برج بوعراريج	8	ورقلة	12	الشلف	4	تيارت	5
البيضاء	6			تقرت	47	تنس	2	معسكر	3
قالمة	15			تماسين	3	البليدة	5	سيدي بالعباس	3
سطيف	16			بشار	1	المدية	7	النعامة	3
سكيكدة	14					البويرة	1	المدن غير معروفة	98
ميلة	56					دلس	1		
الميلية	24					برج منايل	3		

***العدد الإجمالي:**

النّوع والعدد	إقليم الشرق	إقليم الجنوب	إقليم الوسط	الغرب إقليم	مناطق غير معروفة	الجملة
المدن	16	8	11	7	–	–
عدد الطلبة	610	133	204	54	98	1099
النسبة المئوية%	%55,50	%12.01	%18.56	%5	%8.91	%100

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تواصل ارتفاع عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين لجامع الزيتونة من كافة مناطق القطر الجزائري، وإن كان ذلك بنسب مختلفة ومتفاوتة، وذلك ما يؤكد مدى شغف الجزائريين بطلب العلم والمعرفة رغم الظروف الصعبة ، وفي هذه الفترة (1947م-1953م) وصل العدد الإجمالي للطلبة إلى ألف وتسع عشر طالبا، وتعتبر مرحلة الذروة، موزعين على أربعة أقاليم، كما حافظت المناطق الشرقية على المرتبة الأولى بست عشرة مدينة وستة مائة وعشر طلاب بنسبة 55.50%، ثم ّالمناطق الجنوبية بثمانية مدن وبمائة وثلاث وثلاثين طالبا بنسبة 12.01% ، وبازدياد عدد طلبة مناطق الوسط من إحدى عشرة مدينة وبمائتين وأربعة طلاب بنسبة 18.56%، والغرب بسبع مدن وخمسة وخمسين طالبا بنسبة 2.81 % ، ومناطق غير معروفة بثمانية وتسعين طالبا بنسبة 8.91 % ومردّ هذه الزيادة إلى الدّعاية التي قام بها كلّ من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري (حركة انتصار الحريات الديمقراطية) والزوايا والمتخرجين والمنتسبين لجامع الزيتونة، وأصبحت هناك أربعة بعثات سنوية والأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثانية لحزب الشعب الجزائري والثالثة لشيوخ زوايا الطرق الصوفية والرابعة الميزابيين.

ب –السكن:

جدول رقم 23: توزيع عدد الطلبة حول المراكز السكنية(1947م-1953م) (57)

المدارس:

المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة	المدرسة	عدد الطلبة
النخلة	1	جامع الهواء	2	المنتصرية	19
العاشورية	1	اليوسفية	7	الهداية	2
الحسينية الكبرى	2	الحبيبية الكبرى	48	المدرسةالبادسية	3
المدرسة الشماعية	4	جامع السلام	1		

الزاوية والوكالات:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزاوية	عدد الطلبة	الزاوية	عدد الطلبة	الوكالة	عدد الطلبة
زاوية سيدي محمود	6	مدرسة قشلة الزواوي	1	وكالة سوق العطارين	1
الزاوية التيجانية	3	زاوية سيدي قاسم عزوز	3	وكالة سوق اللفة	1
زاوية سيدي بلخير	1	زاوية البكرية	1		

العدد الإجمالي:

النّوع	المدرسة	الزاوية	الوكالة	النّزل	الجملة
عدد المراكز	11	6	2	2	19
عدد الطلبة	90	15	2	2	109

توزّع الطلبة الجزائريون المنتسبون لجامع الزيتونة في هذه الفترة(1947م–1953م) بين عدّة أماكن، ونلمس ذلك من خلال هذه البيانات في إحدى عشرة مدرسة، احتضنت تسعين طالبا، وستّ زاويا سكنها خمسة عشر طالبا، ونظرا لقلّة ونتيجة لحالات الاكتظاظ بالمدارس والزوايا لجأ الطلبة الجزائريون إلى السكن بوكالتين، قطنهما طالبان، وأقام طالبان بنزلين والعدد الإجمالي مائة وتسعة طلبة والبقية عناوينهم غير مذكورة ، ونلاحظ أنّ عدد الطلبة القاطنين بمراكز السكن أكثر من العدد المذكور، والبعض الأخر أجر مساكن من الأهالي، وأيضا فأغلبية الطلبة من الطبقة الشعبية، وقد لعبت الزوايا والمدارس دورا اجتماعيا وإنسانيا متميزا.

الهوامش :

[1]– الطاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في الزيتونة، تقديم وتحقيق أنور بوسنينة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1981، ص 19.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[2]– أرشيف وحدة تاريخ الزيتونة، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 1، السنوات (1875م–1897م).

[3]– نفس المصدر، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 1، السنوات (1875م–1897م) .

[44]– نفس المصدر، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 4 ، السنوات (1892م–1903م).

[5]– خالد (أحمد) ، أضواء من البيئة التونسية على طاهر الحداد ونضال جيل، الطبعة الثانية، الدار لتونسية للنشر، تونس، 1985م، ص ص30، 31.

[6]– نفس المصدر، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد1، السنوات(1875م–1897م) ؛ أنظر كذلك دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد4 ، السنوات (1892م–1903م).

[7]– بابا عمّي (محمد موسى)، أبو اليقظان (حياته ومصادره ترجمته)، مجلّة الموافقات ،عدد 5، المعهد الوطني لأصول الدين، جوان1996م، الجزائر.

[8]– الأرشيف الوطني التونسي، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630 ، السنة (1894م–1919م) ، ص 70.

[9]– جريدة المشير ، 9 أوت 1911 م، قائمة المتحصلين على شهادة التطويع ، ص2.

[10]– أرشيف وحدة تاريخ الزيتونة ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد4، السنوات (1892م–1903م) ؛ أنظر كذلك أ و ت، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630، السنة (1894م–1919م).

[11]– نفسه.

[12]– أ و ت، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630 ، السنة (1894م–1919م).

[13]– نفسه.

[14]– أ و ت ز ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 4 ، السنوات (1892م–1903م) ؛ أنظر كذلك دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630 ، السنة (1894م–1919م).

[15]– نفسه.

[16]– أو ت ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5660 ، السنة (1915م–1916م).

[17]– نفس المصدر، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5634 ، السنة (1916م– 1917م).

[18]– نفس المصدر، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 4 ، السنوات (1892م–1903م) ؛ أنظر كذلك دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630 ، السنة (1894م–1919م) ؛ أنظر كذلك دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5660 ، السنة (1915م–1916م) ؛ أنظر كذلك دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5634 ، السنة (1916م – 1917م) .

[19]– نفس المصدر، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630 ، السنة (1894م–1919م).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[20]– نفسه.

[21]– نفسه.

[22]– نفس المصدر، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630 ، السنة (1894م–1919م) ؛ أنظر كذلك أ و ت ز ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 5 ، السنوات (1919م–1932م).

[23]– فضيل (عبد القادر) ، رمضان محمد(الصالح) ، إمّام الجزائر عبد الحميد بن باديس، الجزائر، دار الأمّة ، 1998م، ص27 ؛ أنظر كذلك هلال (عمّار) ، نشاط الطلبة الجزائريين إبّان ثورة نوفمبر 1954م ، الجزائر ، دار هومة ، 2004م، ص 89.

[24]– أ و ت ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة الجدد، عدد 5630 ، السنة (1894م–1919م)؛ أنظر كذلك أ و ت ز دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 5 ، السنوات (1919م–1932م).

[25]– نفسه.

[26]– نفسه.

[27]– نفس المصدر ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5635 ، السنة(1918م–1919م).

[28]– نفس المصدر ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5636 ، السنة(1919م– 1920م).

[29]– نفس المصدر ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5637 ، السنة(1921م–1922م)؛ أنظر كذلك دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5658 ، السنة(1922م–1923م).

[30]– نفس المصدر ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5638 ، السنة(1925م–1926م).

[31]–نفسه.

[32]– أ وت ز ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 5 ، السنوات (1919م–1932م).

[33]– نفسه.

[34]– نفسه.

[35]– نفس المصدر ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 5 ،السنوات (1919م–1932م) ؛ أنظر كذلك دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة ،عدد 6 ، السنوات (1933م–1940م).

[36]– نفسه.

[37]– نفسه.

[38]– النيفر (علي)، شروط الإنخراط بالجامع الأعظم فروعه ؛ أنظر كذلك الصباح ،عدد 828 ، 11 سبتمبر 1954م، ص 4.

[39]– نفسه.

[40]– نفس المصدر ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 6 ، السنوات (1933م–1940م).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

41– نفس المصدر ، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 5 ، السنوات (1919م–1932م) ؛ أنظر كذلك دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة ، عدد 6 ، السنوات (1933م–1940م).

42– أ و ت ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5635 ، السنة (1918م–1919م) ؛ أنظر كذلك دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5636 ، السنة (1919م – 1920م)؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5637 ، السنة(1921م–1922م)؛ أنظر كذلك دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5658 ، السنة (1922م–1923م)؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5638، السنة (1925م–1926م)؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5639 ، السنة (1929م–1930م) ، عدد الصفحات 309 ، عدد تلاميذ؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5641 ، السنة (1931م–1932م)؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5640 ، السنة (1932م–1933م)؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5640 ، السنة (1932م–1933م)؛ دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5642 ، السنة (1932م–1933م)؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5643 ، السنة (1935م–1936م)؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5645 ، السنة (1934م–1935م) ، المرحلة المتوسطة؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5644 ، السنة (1935م–1936م) المرحلة الإبتدائية ؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5646 ، السنة (1936م–1937م)؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5647 ، السنة (1937م–1938م)؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5648، السنة (1938م–1939م)؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5649 ، السنة (1939م –1940م)؛ و دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5650 ، السنة (1940م–1941م).

43–العياشي (مختار) ،" الزيتونة والزيتونيون في التاريخ المعاصر" (1883م–1958م)، مركز النشر الجامعي ، تونس، مطبعة المغرب ، 2003 م ، ص77.

44– نفس المصدر ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد (5635، 5636 ، 5637 ، 5638 ،5639، 5640، 5641، 5642، 5643، 5646، 5647 عدد 5648 ،5649، 5650، 5658) ، وحافظه 9 ، ملف 4 ، ملف الفرعي عدد 7 ، أسماء تلاميذ السنة الثانية إبتدائي، (1936م–1937م)، وحافظه 9 ، ملف 4 ، ملف الفرعي 14 ، أسماء تلاميذ السنة الثالثة إبتدائي، (1936م–1937م)، وحافظه 9 ، ملف 4 ، ملف الفرعي 16 ، أسماء تلاميذ أقسام السنة الثالثة ثانوي ، (1938م–1939م)، وحافظه 9 ، ملف 4 ، ملف الفرعي ، أسماء تلاميذ القسم السنة الثالثة ثانوي المترشحين لشهادة التحصيل،(1938م–1939م)، و حافظه 9، ملف 4، ملف الفرعي 17 ، أسماء تلاميذ السنة الثالثة إبتدائي (1939م–1940م)، وحافظه 9، ملف 4 ، ملف الفرعي 18، أسماء تلاميذ أقسام السنة الثالثة ثانوي.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

45– نفس المصدر، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5645 ، السنة (1934م–1935م) ، المرحلة المتوسطة، وحافظه8 ملف 2، ملف الفرعي 16، أسماء تلاميذ الناجحين في شهادة التحصيل والعالمية 1936م.

46– نفس المصدر ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد دفتر (5635 و 5636 و 5637 و 5658 و 5638 و 5639 و 5640 و 5641 و 5642 و 5643 و 5646 و 5647 عدد 5648 و 5649 و 5650) .

47– نفس المصدر، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5650 ، السنة (1940م–1941م)؛ ودفتر عدد 5651، السنة (1943م–1944م)؛ أنظر كذلك أ و ت ز ، حافظه رقم 1 و 2 و 3 ، وملفات دفادر مدرسية الأرشيف الوطني التونسي ، وحدة تاريخ الزيتونة بجامعة الزيتونة.

48– نفسه.

49– نفسه.

50– نفسه.

51– نفسه.

52– نفس المصدر ، دفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5651 ، السنة (1943م–1944م) ،عدد الصفحات 191 ، عدد تلاميذ 2396، وحافظه 9، ملف 4 ، ملف الفرعي 19 ، أسماء تلاميذ السنة الثالثة إبتدائي،(1941م–1942م)؛ وحافظه 9 ، ملف 4، ملف الفرعي 30 ، أسماء تلاميذ السنة الثالثة إبتدائي؛ وحافظه 9 ، ملف 4 ، ملف الفرعي 30 ، أسماء تلاميذ السنة الثالثة إبتدائي (1944م–1945م)؛ وحافظه 9 ، ملف 4 ، ملف الفرعي 19 ، أسماء تلاميذ السنة الثالثة إبتدائي ، (1941م–1942م)؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5651 ، السنة (1943م–1944م) ؛ودفتر إحصائية تلاميذ المعهد المرادي، عدد 5661 ، الجزء الأول ، السنة (1950م–1951م)؛ والجزء الثاني، (1951م–1952م)؛ ودفتر إحصائية تلاميذ جامع الزيتونة وفروعه، عدد 5664 ، السنة (1949م–1951م)، عدد الصفحات 187 ، أسماء تلاميذ المترشحين لشهادة الأهلية ؛ وأنظر أ و ت ز ، حافظه رقم 1 و 2 و 3؛ وملّفات، ودفادر مدرسية الأرشيف الوطني التونسي، وحدة تاريخ الزيتونة بجامعة الزيتونة.

53 – أ و ت ز ، صندوق س 1 –12، (1946م–1956م) ، أسماء تلاميذ الناجحين في شهادة التحصيل.

54– نفس المصدر ، حافظه رقم 1 و 2 و 3، وملّفات دفادر مدرسية الأرشيف الوطني التونسي، وحدة تاريخ الزيتونة بجامعة الزيتونة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[55]– أ و ت، دفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 7 ، السنوات (1947م–1950م)؛ ودفتر تأسيس تلاميذ جامع الزيتونة، عدد 8 ، السنوات (1953م–1955م) ؛ وملّفات دفاتر مدرسية الأرشيف الوطني التونسي، وحدة تاريخ الزيتونة بجامعة الزيتونة.

[56]– نفسه.

[57]– نفسه.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تجديد مقاصد الشريعة عند الشيخ الطاهر ابن عاشور

د. بوعجاجة جمال
جامعة الزيتونة تونس

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

إنّ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور من أشهر اعلام الزيتونة وأبرز شيوخها في القرن العشرين، وقد كان له فضل تطوير فقه مقاصد الشريعة الإسلامية ، إذ ساهم في تجديد فقه اصول الدين عبر اضافة مقصد الحرية ومقصد المساواة وحفظ مصالح الامة.

لقد نادى الشيخ ابن عاشور بضرورة تنزيل أصول الفقه تنزيلا عقليا ، بما يجعل دراسة المقاصد ضرورة لصدّ القراءة الحرفية الظاهرية للنصوص .فالشيخ محمد الطاهر ابن عاشور يتطلع لرؤية المسلمين وهم يجتهدون بقوة من أجل الجماعة ، فقد تأكد لديه أن غياب الاجتهاد قد عاد بالوبال على الأمة ، لذا فإنه بادر بمراجعة مناهج القدامى من مؤسسي فقه المقاصد.

الكلمات الدالة:

تجديد– مقاصد الشريعة – الطاهر بن عاشور– تونس– الزيتونة

العنوان بالإنجليزية:

Renewing the purposes of the Maqassid al-chariah in cheikh Taher Ibn Achour.

Abstract:

Sheikh Muhammad Al-Tahir ibn Achour is the most renowned Zaytuna Imam and one of the great Islamis scholars of the 20th century. Sheikh Ibn Achour developed the teory of Maqasid Al Shari'a ; the methodologie for the renewal of the theory of Islamic law , he added freedom ,equality,and rights of nation,He claimed that the basis of chari'ah must be rational. Therefore, the maqassid of the chari'a must be engaged ,and he called against the literal occasions that the Zahiri hold.

Sheikh Ibn Achour wanted to see Muslims coming forth to practice ijtihad for the global community. It was clear to him that the lack of ijtihad had grave

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

consequences so he review all the methods of the classics book's in Maqassid Al chari'a.

Key words:
Renewal - Maqassid Al chari'a - Taher Ben Achour - Tunisia – Zaytouna

لاتزال قراءة المنظومة الأصولية على ضوء متغيّرات الواقع هاجسا يشغل الدارسين، فلا مناص من قراءة تتجاوز الوصف والتقعيد إلى استشراف رؤية تحليلية نقدية تستطلع مقومات التأويلية العربية المعاصرة ، من خلال التأويلية الأصولية التي مثلت عنوانا للمراجعة وإعادة اكتشاف المخزون الفقهي على نحو يستثمر منطق محاورة للنصوص .ولعل قراءة المنظومة الأصولية واستقصاء مكونات العقل الفقهي التأويلي الذي انتظمها سبيل لتفكيك الروابط الموضوعية التي نسجت خيوطها بين الفكر والواقع والشروط التي أنتجتها. ويمثل الفكر المقاصدي لحظة مهمة إذ يشتغل داخل العقل الاصولي بمنطق المراجعة والإضافة والتجاوز ، فمن المهم تفحص مناهجه ومساءلة رواده عن مسالكهم في البحث ومنطقهم في المراجعة والمحاورة ، سبيلا الى رصد ملامح الرؤية الاجتهادية المتجدّدة التي تمتلك مشروعية التفاعل مع المستجدّات الحضارية وترسّخ منطق البناء و الإضافة بوضع لبنة تساهم في اكتمال صرح العمران واستواء الوجود الحضاري الفاعل .

إن إعادة النظر في هذه المنظومة الأصولية انخراط في جهد الإحياء الديني الذي ظلمتحركا في سياج مفهومي وإجرائي يطوّقه النصّ و يحرّكه الواقع، من أجل الكشف عن تلك اللحظة التنويرية المعاصرة التي تحتاج إلى الاستمرار والتجديد والتجاوز.ولقد مثلت لحظة إنتاج الفكر المقاصدي باعتباره فنا وعلما يروم الاستقلالية والتمايز عن إطار أصول الفقه ، لحظة حضارية متميزة صاغها الشاطبي (ت790 هـ) ووسّعها محمد الطاهر ابن عاشور (ت 1973م) وعلال الفاسي (ت1974م) بما يمكن أن يحقق فتحا لأفق جديد في البحث يحتاجه الفضاء الحضاري الذي أنتج شروط وجوده.

لقد مثل الشيخ الطاهر ابن عاشور في هذا السياق عِلما مهما يُحتاج إليه في استقصاء مواطن الطرافة والإضافة في مراجعة الارث الأصولي الذي جمد عند قواعد ثابتة ومسائل متواترة دون اعتبار لضرورة تجاوز الجزئيات إلى الكليات والخروج من محبس المتشابهات والخلافيات إلى سعة القطعيات واليقينيات التي تحكمها القواعد الكلية والمبادئ العامة المشتركة.لذلك فمن المهم أن نبحث في مراحل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تطوّر الفكر الأصولي من سياق الخطاب البياني والعرفانيإلى فضاء البرهان حيث استعاد العقل عافيته ليحاور فيتساءل ويسائل القدامى لتحقيق الاستمرارية و حيوية الفكر والواقع.فما هي جهود الشيخ الطاهر ابن عاشور في تجديد هذهالمنظومة الأصولية؟ وما هي مساهمته في معالجة الفكر المقاصديوتدقيقة بما يناسب تحديات عصره وحاجاته؟

1-إطار انتاج الفكر المقاصدي:

1- 1 -في نشأة المدرسة الظاهرية:

تشكل دراسة العقل الأصولي وأبرز إنجازاته رحلة خلال الرؤية التأويلية وحركة الاجتهاد التي تتحرّك ضمن علوم البرهان التي نضجت في مرحلة حضارية انقدحت فيها شرارة المنطق والعقل بعد أن انفلت من سلطة العرفان وسطوة البيان، وحاورهما محاورة نقدية.ولقد كان الفضاء الأندلسي حاضنا لحركة فكرية عاتية، إذ برز المذهب الظاهري الذي يقول "بأنّ الشريعة نصوص فقط وأنّ الأحكام يجب أن تؤخذ من ظاهرها دونما تأويل أو قياس ، فالقرآن عندهم مبين بنفسه يدلّ ظاهر لفظه على المعنى المقصود، وبالتالي فلا مجاز فيه ولا مجال للقياس" ([1])

فالاستناد إلى ظاهر النصوص أو الدليل ودلالة اللفظ ، هو السبيل إلى استخلاص الحكم الشرعي حيث ابطل القياس، بما مثل رد فعل على إنجاز الشافعي (ت204 هـ) الذي قننه، إذ أسّس علم أصول الفقه، وكانت ظاهرية ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) رفضا للتأويل الباطني وفق رؤية تأسيسية لمنهج جديد في قراءة النص القرآني. ووجه طرافة هذه القراءة أنّها ترفض "تقليد" إمام أو مذهب ، إلى حد تكريم "تقليد" الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية والكلامية"([2])وفي ذلك إقرار بضرورة الاحتكام إلى العقل في إنتاج المعرفة، فالعقل دليل إلى الله وتوحيده، واللغة سبيل إلى فهم النصوص واستنباط أحكامها على نحو يحقق استجابة لمقتضيات البرهة الحضارية، إذ تؤسس لوجود مغاير للنموذج الفكري والسياسي القائم فالرجل يشيد "مشروعا فكريا فلسفي الأبعاد يطمح إلى إعادة تأسيس "البيان" وإعادة ترتيب العلاقات بينه وبين "البرهان" مع إقصاء "العرفان" إقصاء تاما." ([3])

وفي هذا التأسيس اعتبار لمنطق تطور المعرفة، ومراعاة لمجال اللغة التداولي إذ تتفاعل مع وقائعها لحظة إنتاج النص ولحظة قراءته، وهما لحظتان جنح عنهما الفكر التقليدي إذ رسب في لحظة مفارقة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

هي لحظة الشروح والتأويل فحسب . فالنص باعتباره وحدة داخلية مستقلة يقوم بناء متكاملا تؤسسه بنيته وأصوله ومبادئه يحتاج إلى دراسته من الداخل واستخلاص منطوقه ومفهومه دون إقحام مكونات خارجة عنه لاستنباط المعنى وتأويله.فنحن حينئذ إزاء "زمن ثقافي مستقل ومتميز"[4] بعبارة محمد عابد الجابري يحاول أن يرسّخ وجوده في فضاء التجربة الأندلسية المغربية للتحرر من تلك القراءة الأصولية الفقهية التي حولت استنباط الأحكام الشرعية إلى عملية رياضية يحكمها مبدأ القياس أي إلى تمارين تنجز فرضيات لوضعيات طارئة على ضوء أحكام سابقة جاهزة، حيث يعاد إنتاج الأصل تحليلا ومقارنة، للجمع بين المتماثلات وتفريق المتنافرات، فالمطلوب هو الإلحاق أو الفصل بحسب الحاجة إلى ذلك.

فهذا العقل التركيبي الذي غاب عنه إنتاج المعرفة ومراجعة المعرفة السابقة قد جمد آليات الفهم والاستنباط بما أكّد ضرورة التأسيس العقلي والاجتهاد لا التلفيق وإعادة التفكيك والترتيب.لقد مثلت هذه القطيعة مع القياس صلب التفكير الفقهي تحريكا للماء الآسن بفعل الركود الحضاري في بركة التقليد والأشباه والنظائر، وقد قيل "ليس في الإمكان أبدع مما كان" ، فكان لا بد للعقل أن يتجلى لينتج المعرفة فيدفع حركة التطور إلى الأمام. إن علم أصول الفقه الذي انشأه الشافعي قد شهد لحظة نضجه واكتماله حينئذ مع ابن حزم ، حيث راجع قواعده وأسس لحجج العقول بدلا عن حجج المنقول ، فحجج العقل سبيل إلى العلم والإحاطة بالأشياء ، وينسحب ذلك عنده على إدراك العالم كما إدراك الشريعة، تحكمه في ذلك "نزعة نقدية عقلانية"([5])كانت ضرورية لمراجعة المسلك الفقهي الأصولي السائد الذي رسب عند مراتب القياس والإجماع ، فكان الإقرار بظاهر ألفاظ الشرع مفهوما مركزيا في المشروع الظاهري، وبه توسعت دائرة الإباحة ،فلا تحريم خارج دائرة النص، ولا بعيدا عن دائرة الفطرة والدليل. فلا بد أن يقوم الاجتهاد على ظاهر النص استنتاجا واستقراء، تحررا من تأويل القراءة الباطنية التي أغرقت النص في شطحات خرجت به عن المفهوم والمقصود والمنطوق.

1-2-فينشأة مشروع الشاطبي:

لقد كان لهذا المنهج البرهاني أثره في الساحة الأندلسية إذ نجمت منه الفلسفة الرشدية وانبثقت عنه رؤية خلدونية في قراءة التاريخ واستخلاص علم العمران البشري، وانبجس المشروع الشاطبي (ت

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

790 هـ)القائم على ضرورة اعتبار مقاصد الشرع قاطعا مع منهج الشافعي في استنباط الأحكام الشرعية وتقعيدها، تأصيل الأصول علم الشريعة ، ليتحوّل من الظنيات والجزئيات إلى القطعيات واليقينيات.

وفي ذلك انعتاق من محبس الألفاظ ، وتجاوز لمضيق الجزئيات، بما حقق نقلة معرفية هائلة في العقل الأصولي، تخرج به من سياق أحكام القياس إلى استقصاء العلل والمقاصد في الأحكام.فقد كان الفضاء الأندلسي حينئذ منفتحا على منطلقات منهجية جديدة تحتكم إلى "الكليات الاستقرائية والعموم والاطراد والسببية والمقاصد " (6) بما أفسح المجال لوعي نقدي تخلص من قداسة الماضي وسلطان القديم وسطوة النموذج الذي اسس على الفقه التجزيئي والفهم الباطني والنقل .

وتأتي رؤية الشاطبي إلى الاصول على غير المنوال الظاهري لتحقيق منوال جديد يحتكم إلى المصلحة والمقاصد والعلل ، وهو منوال يخرج من دائرة الالفاظ السكونيّة والثابتة عند القدامى إلى مجال تداولي جديد يهدف إلى إحداث ديناميةٍ في استخلاص الأحكام إذ تدور مع عللها ومقاصدها وجودا وعدما بعبارة الاصوليين. وفي ذلك تحريك الماء الاسن وفتح لدائرة الاجتهاد التي أغلقت في سياج الألفاظ دون اعتبار للأسباب والعلل ومتغيرات الأزمان والأمصار ، بما أدى إلى تجاوز" سلطة اللفظ وسلطة السلف وسلطة القياس" (7).

3-1- في نشأة المقاصد عند ابن عاشور:

لم يرسب الدرس المقاصدي في حدود المحبس الأندلسي بل فاضت مباحثة إلى حدود الدائرة التونسية حيث كان المشترك المغاربي جاذبا لأحد أعلام تونس في سياق التفاعل مع العقل البرهاني الذي اخترق أصول الفقه ليرسم ملامح جديدة بدا فيها الفعل الاجتهادي والتقعيدي واضحا، ومن أبرز أعلام هذا القطر نذكر رائد الفكر المقاصدي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت1973) حيث هضم جهد الشاطبي ومن قبله جهود الأصوليين ليستقر عند رؤية نقدية توسعت في مراجعة الموروث المقاصدي وتفصيله وفق رؤية استقرائية نزعت إلى الإضافة اكثر من توقفها عند الشرح والتبسيط والتفصيل والتمجيد. فما جهود الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في نقل الدرس المقاصدي الى السياق التونسي وترسيخه في الفضاء المغاربي؟ وما إضافته وحدود تجديده بالقياس إلى جهد الشاطبي ؟ وإلى أي مدى كان الفكر الزيتوني علامة تنوير عقلاني في سياق العقل الأصولي ؟

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

2-ابن عاشور مجتهدا مقاصديا :

2-1- دواعي التأليف المقاصدي:

تتنزل جهود الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور المقاصدية ضمن حركة الإصلاح الفكري والنهوض الحضاري بالأمة التي تسربت ملامحها وأهدافها من دائرة شرقية تصدى لها الشيخ محمد عبده (1849-1905م) وجمال الدين الافغاني (1838-1897م) وترسخت جهودها في الدائرة التونسية بين أيدي الشاعر محمود قبادو (1307هـ/ 1890م) الذي دعا إلى الإصلاح وإحياء الحركة الثقافية والعلمية والأدبية بتونس والمصلح السّياسي خير الدين التونسي (1810م-1897م) الذي خط بكتابه "أقوم المسالك" أسطر الحكم السياسي الرشيد ، وكذا كان الشيخ سالم بوحاجب (1342هـ-1924م) رائدا في تجديد الفكر الديني والإصلاح الفكري داخل دائرة الزيتونة.([8]) وكانت زيارة محمد عبده إلى تونس سنة 1300هـ -1322هـ / 1903م قادحا في تشكيل الوعي الإصلاحي وتسريع خطوات النهوض بمؤسسة الزيتونة من مخلفات الجمود والتقليد والتبعية ، عبر مؤلفات علمية مثيرة ككتاب "روح التحرر في القرآن" للشيخ عبد العزيز الثعالبي (ت1944م) وقد ألفه صاحبه سنة 1904 في مواجهة صادمة مع التيار الزيتوني المحافظ. وبظهور مؤسسات علمية حاضنة للجهد الإصلاحي كالصّادقية (1292ه- 1876م)والخلدونية (1313هـ- 1895م) وازدهار حركة الصحافة من خلال مجلات علميّة وصحف مختلفة كالسّعادة العظمى (1322 ه -1904م) التي يشرف عليه الشيخ الخضر حسين ((ت1958م) وسبيل الرشاد للشيخ عبد العزيز الثعالبي رغم قصر عمرها، توفرت فرص انتشار الفكر الاصلاحي وإثارة قضايا حضارية حارقة تتعلق بإعادة تشكيل الوعي السياسي والاجتماعي بما يناسب لحظة الاستعمار والتخلف والجمود.

2-2-مقاصد تأليف كتاب المقاصد :

لقد وصل العقل الأصولي إلى مرحلة من الجمود واجترار الأشباه والنظائر والغوص في الروح والتفاصيل وتقديس النموذج الفقهي السائد حتى تكررت مقولات تفضح منطق الاجترار والتكرار وإخضاع النص إلى منطق الفقهاء وطاعتهم أحياء وأمواتا، بما غيب القواعد الكلية التي يهتدي بها اللاحقون و كشف ضعفا في تجميع النصوص القطعية التي يمكن أن توحد اجتهاد الفقهاء دون أن يؤول بهم اجتهادهم إلى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الخلاف والصدام والقطيعة. وفي ظل هيمنة المدرسة الأصولية على المشهد الفقهي والحياة الفكرية عامة، لم يعد بالإمكان الاطمئنان الى ذلك الموروث الأصولي الذي بدا عاجزا عن مواكبة المتغيرات الحضارية واستيعاب لحظة الاصطدام بالآخر الغربي حيث انكشفت حقيقة الاختلاف بين الحضارة المدنية والحضارة الغارقة في بدويتها وفوضاها وتخلفها.

وإذ تشرب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قواعد المدرسة الأصولية حتى ارتوى من معينها ووقف على نقائصها وعيوبها، فقد سعى إلى تجديد المنهج الفقهي على ضوء ما أسسه الإمام الشافعي (ت240هـ) وطوّره الإمام الجويني (ت478هـ) وصولا إلى الغزالي (ت505 هـ) والعز بن عبد السلام (ت 660 هـ) والقرافي (ت684 هـ) وأخيرا الشاطبي . ولقد كان اهتمامه منذ بداية القرن متجها صوب استخلاص مسالك التقدم الحضاري وركوب قطار المدنية من خلال النموذج الإسلامي ، فكانت أولى محاضراته أمام قدماء الصادقية تحت عنوان "**أصول التقدم والمدنية في الإسلام** " سنة 1342 هـ -1906م ، بما يعكس انشغاله بالعمق الحضاري للأمة وقد تمزقت أوصالها وجمد فقهاؤها عن الاستنباط و عجزوا عن الاصلاح ورسبوا في الإعادة والتكرار والمحاكاة.

وقد صرح ابن عاشور كاشفا مقاصد كتابه في المقاصد "هذا كتاب قصدت منه إملاء مباحث جليلة من مقاصد الشريعة والتمثيل لها والاحتجاج لإثباتها لتكون نبراسا للمتفقهين في الدين ومرجعا بينهم عند اختلاف الأنظار، وتبدّل الأعصار، وتوسّلا إلى إقلال الاختلاف بين فقهاء الأمصار، ودربة لأتباعهم على الإنصاف في ترجيح بعض الأقوال على بعض عند تطاير شرر الاختلاف" ([9]) فمقصد الشيخ حينئذ هو إصلاح المنظومة الفقهية ومراجعة المنهج الأصولي الذي جعل مجال النظر الفقهي مسلكا للخلاف وساحة للاختلاف حيث تتقلص نقاط التوافق ومستويات التشارك في مقابل توسع دائرة التشظي ، بما يقتضي حلولا ترتقي إلى مستوى القاعدة الجامعة تراعي المتغيرات وتتحول بمقتضي حاجات اللحظة التاريخية التي يصدر فيها الحكم.

وتتولد أسباب الخلاف من طبيعة الأدلة المعتمدة إذ لا تتوفر على أرضية مشتركة يمكن أن تقرب مسافة التواصل بين الفقهاء بقدر ما تمثل مجموعة من الأحكام المتناثرة التي تتشظى بحسب فهم كل واحد، وهي لا تعتبر مسافة الزمان والمكان ، فكان لابد من تخليص مسائل الأحكام من مشاق الاستدلال

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

دون كليات و قواعد عامة، فيقول :"دعاني إلى صرف الهمة إليه ما رأيت من عسر الاحتجاج بين المختلفين في مسائل الشريعة إذ كانوا لا ينتبهون في حجاجهم إلى أدلة ضرورية أو قريبة منها يذعن إليها المكابر" ([10]). وتعبّر هذه الرؤية عن وعي نقدي تجاه واقع الفقه والفقهاء وانحباس المنظومة الأصولية في دائرة مغلقة عاجزة عن توفير الحد الأدنى من التوافق والتواضع في بناء الأحكام ، فكان جهد ابن عاشور ضروريا حينئذ ، تفاعلا مع رؤيته الإصلاحية و جهده التنظيري في مراجعة المنظومة التقليدية، وقد اقتضى ذلك قولا جريئا يراجع جهود القدامى ويستقصي مرجعا في الحكم يؤول إلى القواعد والقطعيات واليقينيات دون الخلافيات والأمور المشتبهات المتناثرة في كتب الفقه. ([11])

3- مظاهر التجديد المقاصدي عند الشيخ ابن عاشور:

3-1مؤاخذات وتعليق على جهود السابقين:

من تجليات العقل الإصلاحي التجديدي عند الشيخ ابن عاشور نزوعه نحو مراجعة القدامى ونزع حجاب القداسة عن أفكارهم واجتهادهم باعتباره وليد تفاعل مع لحظة حضارية لها شروطها العلمية ووسائلها التحليلية التي لا يجوز أن تظل فوق التشريح والنقد والمساءلة عن مدى وجاهتها واستمراريتها في ظل متغيرات علمية ومعرفية يقتضيها منطق التراكم والتعاقب. ولقد وقفنا عند مراجعات طالت مؤسسي المنهج المقاصدي صلب المدرسة الأصولية، ولا يمكن أن تصدر إلا عن وعي ثاقب بضرورة التجاوز والتأسيس على غير النتائج السابقة ، التي تظل نسبية و محدودة، غير أنّ ذلك لا يمسّ من عمق الرؤية الاجتهادية التي انطلق منها المؤسسون، إذ يحتفظون في كل الأحوال بشرف البناء والمراكمة المعرفية.

ومن أبرز المراجعات العلمية واستدراكات الشيخ ابن عاشور على شيوخه وأساتذته من أساطين علم المقاصد في تراث أصول الفقه، رد اعتذار الإمام الجويني: "وقد وقع لإمام الحرمين رحمه الله في أول كتاب البرهان اعتذار عن إدخال ما ليس بقطعي في مسائل الأصول (...) **وهو اعتذاره** لأنا لم نرهم دونوا في أول الفقه أصولا قواطع يمكن توقيف المخالف عند جريه على خلاف مقتضاها، كما فعلوا في أصول الدين"[12]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و في عبارة الشيخ ابن عاشور المغلظة ما يؤكد استقراء للمشهد الأصولي ومراجعة للنصوص مراجعة عقلية نقدية، كشفت عن طبيعة العقل الأصولي أسير المتشابهات والجزئيات والظنيات فغاب عنه المحكم والقطعي غيابا أكد الحاجة إلى الوقوف عند هذه الثغرة ، بما يدفع إلى انتاج معرفي يرصد القواعد الكلية لتجميع المختلفين وامتصاص مساحة التفرق المذهبي وتشتت الأحكام في المسألة الواحدة إذا تغير وجه النظر إليها.فإدانة الفقهاء و اتهام المنظومة الأصولية لا يخلو من جرأة علمية، تصدر عن ثقة بالنفس ويقين في القراءة النقدية الحاصلة من مراجعة هذا الارث الفقهي، فقد تشكل في لحظة صراع مذهبي ذهلت عن تجميع القواعد والقطعيات والوقوف عند المشترك، وآثرت النظر في الظنيات والمتشابهات.

ويميز الشيخ ابن عاشور العلم من العلماء فتراه يفصل بين المعرفة باعتبارها شأنا مشاعا قابلا للطعن والمراجعة والنقد وبين العلماء باعتبارهم ذوات معرفية وكيانات علمية يشهد لها بالاجتهاد والخطأ والصواب، فإذ يردّ على الإمام القرافي في شرح المحصول، يفصل بين المسائل فصلا منهجيا يترجم تشابه الأمور والتباسها لدى بعض الأصوليين، بما يستوجب المصارحة والتعديل لا الصمت بحجة التقدير والتبجيل، ولعل في هذه العبارة ما يدعم ذلك "**وهذا جواب باطل** لأننا بصدد الحكم على مسائل علم أصول الفقه لا على ما يحصل لبعض علماء الشريعة" (13). ويتواصل نسق الاستدراك والمراجعة مع مختلف الأعلام من مؤسسيمنظومة المقاصد ، في السياق نفسه استقراء لنصوص أصول الفقه بين القطعي والظني، ويفهم ذلك ضمن مراجعات الشيخ ليكسب مشروعية الإضافة والتجديد و التجاوز لإرث سابقيه الذين توهموا الاشتغال على قواعد مضبوطة وصارمة فإذا هم على غير ذلك، فيرد ابن عاشور على استاذه الشاطبي قائلا :"وقد حاول ابو إسحاق الشاطبي في المقدمة الأولى من كتاب الموافقات الاستدلال على كون أصول الفقه قطعية **فلم يأت بطائل**" (14).ولم تكن هذه المراجعة على سبيل التعالي بقدر ما هي إشارة إلى ثغرات في منهج عمل الشاطبيالذي فقد التوازن في بعض جوانبه، بما يدعو اللاحق إلى مزيد الاستقراء وفق ضوابط تنحو إلى الاختصار وترسيخ منهج علمي دقيق يكون أقرب إلى التركيز والتكثيف العلمي لدفع علم المقاصد نحو تشكيل معالمه بوضوح و تمايز عن أصول الفقه .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وإذ نشير إلى طبيعة الافعال التي اعتمدها ابن عاشور في مراجعة أستاذه نؤكد طبيعة الثغرات التي اكتشفها وعمل على تجاوزها وإصلاحها، وتدور في فلك المنهج والأدوات والأسلوب، ففي مستوى المنهج ينقد الإطالة و الخلط "وعنون ذلك القسم بكتاب المقاصد ولكنه **طوح** في مسائله إلى تطويلات وخلط ، **وغفل** عن مهمات من المقاصد، بحيث **لم يحصل منه الغرض** المقصود على أنه أفاد جد الإفادة فانا اقتفي آثاره ولا أهمل مهماته ولكن لا أقصد نقله ولا اختصاره" ([15]

وإذ يراجع الشيخ مقدمات "الموافقات" للشاطبي فإنه يروم الوصول إلى نتائج مغايرة ، فإذا كانت المقدمات متداعية كانت نتائجها اوهن، إذ يحتاج العالِم إلى التدقيق والتفكيك لتنقاد له أصول العلم وقواعده بعيدا عن الشروح العامة والغارقة في التفاصيل ، إذ يقول: "ثم ذهب (الشاطبي في المقدمة 1) يستدل على ذلك (قطعية كليات الشريعة) **بمقدمات خطابية وسفسطائية** اكثرها مدخول ومخلوط غير منخول" [16]وعلة الخلط الذي انتهى إليه الأستاذ في نظر الشيخ هو ما وقع فيه الأصوليون من حيرة واضطراب، ذلك أن منهجهم غير متماسك من جهة توهم الوصول إلى القطعيات وضبط قواعد كلية تساعدهم في ضبط الأحكام بشكل علمي وحقيقة الوقوف عند لحظة الأحكام الجزئية والظنية.[17]"وأنا أرى سبب اختلاف الأصوليين في تقييد الأدلة بالقواطع هو **الحيرة** بينما ألفوه من أدلة الأحكام وبين ما رامو أن يصلوا إليه من جعل أصول الفقه قطعية كأصول الدين السمعية" ([18]).

فنحن حينئذ إزاء تداخل بين الموجود والمنشود والحقيقة والوهم صلب العقل الأصولي، يحيلنا على وعي ابن عاشور بقصور منهج السابقين في استخلاص مبادئ علم مستقل بذاته يكون بديلا عن أصول الفقه ومجاورا له لا فرعا من فروعه أو تابعا له، ذلك أنّ ضرورات المنهج تقتضي ذلك وحاجة الأمة كذلك إلى علم يرفع عنها الحرج الذي تناسل من اجترار الظنيات والاحتكام إلى القراءة الظاهرية الحرفية قد جعلها تقفز على الواقع ولا تكاد تراعي ضوابط الزمان والمكان الرد على الظاهرية "على أن اهل الظاهر يقعون بذلك في ورطة التوقف عن إثبات الأحكام فيما لم يرو فيه الشارع حكم من حوادث الزمان ، وهو موقف خطير يخشى على المتردد فيه ان يكون نافيا عن شريعة الاسلام صلاحها لجميع العصور والأقطار" [19]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لذلك نزع الشيخ ابن عاشور إلى المراجعة فالمفاصلة والتمايز عن الخطاب الأصولي بقوله" ثم نعيد صوغ ذلك العلم ونسميه علم مقاصد الشريعة" [20] وقد تجلى هدفه من تأليفه ضمن جهده الاصلاحي ونزعته التجديدية للموروث الأصولي الذي رسب في الخلافيات وتداعيات الاحتكام إلى المتشابه والظني، ذلك أن أي محاولة لإصلاح الأمة وهي غارقة في صراعاتها المذهبية وخلافاتها التقليدية يجعلها عرضة للفرقة والتناحر في كل الأحوال ، لذلك تمحورت رغبة الشيخ في قوله: "وإنما أردت أن تكون ثلة من القواعد القطعية ملجأ نلجأ إليه عند الاختلاف والمكابرة وأن ما يحصل من تلك القواعد هو ما نسميه علم مقاصد الشريعة وليس ذلك بعلم اصو ل الفقه" [21]

3-2 إضافات ابن عاشور :

يحتل مفهوم التجديد في التداولية العربية حيزا خطيرا ، يتراوح بين التمجيد الذي نص عليه الحديث النبوي اذ يأتي على رأس كل مائة عام من يجدّد لهذه الامة دينها، وبين التخوّف من هدم أركان الدين والتنكر للأصول والإرث الثقافي العريق وفق منطق "﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الزخرف آية 21] [22] ويحيل المفهوم اللغوي على إعادة ترميم الشيء البالي وليس خلق الشيء من عدم ، بما يفتح أفقا في الفكر يروم فيه المجدد إعادة الحياة إلى الأفكار القديمة وترميمها بنفض الغبار عنها وحسن تشذيبها و عرضها بما يناسب لحظة جديدة مغايرة وفضاء غير الفضاء الأول الذي نبتت فيه لاستعادة القها وعنفوانها. وإذ لا ندعي أن الشيخ ابن عاشور قد نحت علم المقاصد من فراغ، ولا ننفي فضله في ترسيخ قواعده ومنهجه باعتباره علما مستقلا بذاته، فإننا نقر له بفضل المراجعة والاضافة في مستويات مختلفة، سواء بإضافة مقاصد جديدة ، أو تخليص هذا العلم من هيمنة أول الفقه عليه، أو تسطير منهج يساعد على تنزيل قواعده على ارض الواقع تنزيلا تستسيغه تحديات الزمان والمكان.وإذا كانت المنظومة المقاصدية قد توقفت عند المقاصد الخمسة التي تعتبر من الكليات وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، فقد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

انتهى المنهج الاستقرائي بالشيخ ابن عاشور الى استنباط مقاصد جديدة تتوفر على أبعاد تراحمية وإصلاحية وتعاقدية خلال تنزيل الأحكام الشرعية العامة.

ويمكن أن نلخص أبرز المحاور والأفكار التي اثرت المشروع المقاصدي من جهة المنهج والمعرفة والأدوات في جملة من النقاط انتبه إليها الدارسون ونقف عندها فيما يلي: أ–**السماحة**: يعتبر الشيخ ابن عاشور أن السماحة "أوّل أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها" [23] فقد جاء الاسلام ليحقق الوسطية والاعتدال "فالتوسط بين طرفي الافراط والتفريط هو منبع الكمالات " [24] حتى جعل السماحة مرادفا للإسلام.فمن خلال استقراء النصوص ومعاينة نظام الشعائر ورخص العبادات والمعاملات يبدو جليا أن الاصل هو التيسير والسماحة لا التشديد والعسر "واستقراء الشريعة دلّ على أنّ السماحة واليسر من مقاصد الدين" [25]وتتجلى قيمة هذه الإضافة في رفع الحرج عن الأمة، وبالارتقاء بهذا المقصد إلى مستوى المقاصد العليا التي لا يجوز التغافل عنها، يعيد الشيخ ابن عاشور ترتيب الاولويات في بناء الأحكام وصياغتها، وليس هذا الامر موضوع شك أو تساؤل بل ارتقى عنده إلى مرتبة القطعيات فقد نص الشاطبي على "أنّ الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع"[26]

وليس هذا المقصد بدخيل على الشريعة ، ولا هو بغريب عن حاجة الانسان ورغبته في بذل الجهد الأدنى وتجنب المشقة والتعسير ، ذلك أن النفس أقرب إلى طلب التخفيف ومجانبة الجهد الأقصى والبحث عن الترخيص والتيسير ، لذلك استنتج الشيخ ابن عاشور أهمية هذا المقصد فقال :" إنّ حكمة السماحة في الشريعة أنّ الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة" [27] .وإذ تقترن السماحة مقصدا بفطرة الانسان فإنها تجعل من الإسلام دينا عالميا والشريعة قانونا قابلا للتنزيل في كل زمان ومكان ، وتنزع كل ملامح التشديد و الحرج و العنف والقوة ، التي تأباها النفس البشرية إن ألفت حياة الراحة والسكينة والطمأنينة وروح المدنية والحضارة والرفاهية، "وقد أراد الله تعالى أن تكون شريعة الإسلام شريعة عامة ودائمة فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلا" [28].يؤسس هذا المقصد لرؤية وسطية تحقق معنى الاعتدال واليسر بما يناسب فقه الاستطاعة ورفع الحرج والتيسير، وهو مطلب تحتاج إليه الأمة وقد أثقل بعض الفقهاء في الأحكام حتى ضيقوا على الناس دينهم ودفعوا بهم إلى اضيق

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الطريق، حينما قفزوا على الزمان والمكان وبالغوا في استخلاص الأحكام من نصوص جامدة ، تمعن في التحريم والأخذ بالعزائم دون مراعاة الرخص والمصالح العامة والمفاسد التي يجرّها فقه وسيط ورث الغلو في الأحكام من باب سد الذرائع والقياس الفاسد والقراءة الظاهرية.فعرَّف السماحة حينئذ بانها: "سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط" [(29)]. وقد اعتبر عبد المجيد النجار هذا المقصد مسلكا إلى تحقيق مقصد أعلى وهو حفظ الدين، إذ يكون التيسير جالبا ومبشرا فيقبل الناس على شعائرهم وعباداتهم ويقبل غير المسلمين على الدين لرحابته وسعة إحكامه وفضائه الجامع لمختلف الفئات البشرية. [(30)]فمزية هذا المقصد أنه يفتح أبوابا مشرعة لتخليص الدين من شوائب التشدد في عصور الانحطاط، ومحاصرة خلاصات القراءة الظاهرية الحرفية التي نزعت منزعا في التدين غريبا، لعله أقرب إلى محاكاة النموذج واستدعاء النص دون مراعاة لحظة التنزيل وحدود القدرة والاستطاعة وضوابط الموازنات والمألات.[31]

ب-**المساواة:** تعتبر المساواة مقصدا عاما من مقاصد التشريع ، وهي السبيل إلى تحقيق العدل بين جميع المتقاضين عند تنزيل الاحكام وتطبيقها، بقدر ما تحقق التوازن الاجتماعي والنوعي بين الافراد والجماعات، فقد نزل التكليف مساويا بين الجنسين ، وتكون الحقوق كذلك بين المسلمين وغيرهم، وجماع ذلك ما يقوم عليه اليوم مفهوم المواطنة، من مراعاة للتساوي بين الافراد امام القانون.

وفي تاريخنا الإسلامي نماذج من مشاهد المساواة في مجالس القضاء بين فئات مختلفة ، وفي الحديث النبوي ما يجلو ذلك "لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها" ، إذ لا سبيل لحفظ الدّين دون مساواة بين الأفراد والجماعات والجهات تنزيلا لأحكامه في المجتمع ، ومساواة تنزع الطبقية والمحاباة في المعاملات، والأمر ملحّ بين الأبناء و أفراد العائلة و مع غير المسلمين .

إنّ في ترسيخ مقصد المساواة في المجتمع نزع لفتيل الحقد والتباغض بين الأفراد ، وامتصاص لأسباب الفتنة بين الناس ، بما يحقق الاستقرار والأمن ، ومن هنا يتأكد إصلاح المجتمع مكوّنا أساسيا من مكونات الرؤية الحضارية في الدرس المقاصدي لدى الشيخ ابن عاشور، وفي غياب هذا المقصد بقاء للظلم والبغضاء والحقد في النفوس وإهدار لمعنى من المعاني السامية التي جاءت بها الشريعة الى الناس.

ج-**الحرية:**

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد اعتبر الشيخ ابن عاشور الحرية بما هي نقيض العبودية ومرادف للمسؤولية والخلاص، مقصدا مكينا من مقاصد الشريعة التي توفر فرصة للإنسان لمارسة شعائره دون ضغوط أو إكراه، بعيدا عن الوصاية أو التهديد. ورغم غفلة الفقهاء عن هذا المقصد وعدم ترشيحهم إياه في صدارة المقاصد السامية المنشودة ، فقد أقرّ الشيخ ابن عاشور أنّ "الشارع متشوف إلى الحرية ، فذلك استقراؤه من تصرّفات الشريعة التي دلت أنّ من أهمّ مقاصدها إبطال العبودية و تعميم الحرية" (32) ويتسع مقصد الحرية ليشمل حرية الذات المناقضة للعبودية على النحو الذي استقر عنده المفهوم لغويا و اصطلاحا عند الفقهاء مقابلا للرق والاستعباد ، وتفيض عنهاحريات أخرى إذ"يحدد الطاهر بن عاشور للحرية مجالات ثلاثة، هي مجال الاعتقاد، ومجال القول، ومجال العمل." فالشيخ يعالج قضية الحرية من جهة حرية الاعتقاد ، بناء على منطوق القرآن في عدم الاكراه و دعوة الناس برفق دون إلزام وتضييق على معتقداتهم الدينية السابقة، ورغم وجاهة هذا المبدأ فإنه يصطدم ببعض النصوص التي تقف موقفا صارما من حكم الردة و دعوة الناس الى كلمة التوحيد بقوة "أمرت ان أقاتل الناس حتى يقوقا لا الاه الا الله "، ولا يزال الموقف التقليدي حائرا إزاء التعامل مع أهل الذمة من جهة فرض الجزية وإفرادهم بالتسمية وشكل من اللباس وتعريض نسائهم للسبي، دون جرأة في مراجعة النصوص المحيطة بهذه الرؤية، ويزداد الحرج تجاه النصوص القانونية المنبثقة من المواثيق الأممية والمعاهدات الدولية، حيث يحتل مفهوم المواطنة والحرية المطلقة والمساواة التامة مركز الريادة ويمثل مرجعية متعالية عن كل النصوص و المرجعيات السابقة. (33)

وتمثل حرية التفكير والتعبير مجالا يقره الشيخ ابن عاشور لنشر المعرفة والتحرك من أجل التعليم والتعلم والصداع بالحقيقة كاملة وإنتاج المعرفة دون قيود ، خلافا لما نسجته الكنيسة من مصادرات ومحاكم تفتيش إزاء العلماء حين حاصرت بحوثهم في مجال الفلك والعلوم ، وفي إقرار هذا المقصد ما يفتح أبواب الاجتهاد طالما أن الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ونشر الخير ،و الإبداع في مختلف مجالات الفنون.فالحرية حينئذ مجال لاستعادة إنسانية الانسان بما يوافق فطرته التائقة أبدا إلى الانطلاق دون قيود في مستوى الحركة الحسية والمعنوية ، ولقد كانت اللحظة الحضارية التي نشأت فيها أفكار ابن عاشور الإصلاحية متأثرة بأفكار فلاسفة التنوير الذين دفعوا الثورة الفرنسية إلى أقصاها فكانت قيم المدنية والتقدم قادحا لتأسيس أمّة الغلبة والقهر وحضارة التنوير.وللحظة الاستعمار التي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

رسخت في أغلالها الدول العربية والإسلامية في القرن الفارط أثر عظيم في ترشيح فكرة الحرّية ضمن المقاصد العليا التي تتشوّف إليها الشريعة في أحكامها وقواعدها، فقد هيمن الفكر القدري الجبري الذي استساغ حياة الذل والقيد، فجعل الاستعمار قدرا مقدورا وابتلاء ربانيا يقتضي الاستسلام والقبول والخضوع، وتراجع اعتبار كرامة النفس وعزتها وعبوديتها لربها دون غيره ، فكان التخاذل والتواطؤ مع قوى الاستعمار واستساغة الذل والهوان.(34) فرفع شأن الحرية مقصدا من مقاصد الشريعة حينئذ ضرورة معرفية وضرورة حضارية، لتحقيق التوازن بين منطق الشريعة ومنطق الواقع، فقد كان الشيخ متأثرا بمحيطه المعرفي والسياسي، فلا إصلاح في ظلّ الخوف والقيد والاستعباد، ولعلّ هذه المسألة من مفردات الإجابة عن أسئلة التقدم والمدنية في السياق الأوروبي.

د–حفظ الأمّة :

حينما غفل الفقهاء القدامى عن فقه الجماعة ومصلحة الأمة وانشغلوا بفقه الفرد ومصلحة الذات، وأرادوا إصلاح الأفراد دون اتجاه نحو إصلاح الأمة و النهوض بها من جهلها وتخلفها وتبعيتها، فقد انشغل الشيخ ابن عاشور في سياقه جهده الإصلاحي ومراجعة المنظومة الأصولية الفقهية في تحرير الاولويات وإعادة ترتيبها، بما يجيب عن سؤال حضاري حارق الأول أكده شكيب ارسلان وهو : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ و الآخر بسطه أبو الحسن الندوي وهو ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟.

إنّ الإجابة المقاصدية عندئذ ركن ركين من مشروع الإصلاح الحضاري الذي وضع اركانه محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وأساطين الإصلاح بتونس، فقد اعتبر الشيخ ابن عاشور عند ضبط مقاصد القرآن الكريم في تفسيره "أنّ الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها، فإصلاح الكفار بدعوتهم إلى الإيمان ونبذ العبادة الضالة واتباع الإيمان والإسلام ، وإصلاح المؤمنين بتقويم اخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طرق النجاح".(35) فلا شك أنّ صلاح الأمّة من صلاح أفرادها وتزكيتهم،وحسن اعتقادهم وصواب عملهم وتفكيرهم ، وأنّ صلاح الكلّ لا يتحقق إلاّ بصلاح الأجزاء، غير أنّ المورث الفقهي قد رسب في أحكام العبادات، وأغرق في تفصيل أحوال الطهارة ، لتحقيق سبل صلاح الصلاة والصيام والزكاة والحج، دون اعتبار يوازي ذلك بفقه المعاملات ، وفقه الجماعة والمجتمع والأمة،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بمعنى ضبط أحوال صلاح العمران ، وسبل صلاح الاجتماع البشري الذي يحقق للأمة نهضتها واستقامتها وكرامتها بين الأمم الأخرى. [36]

ويتجلى وعي الشيخ ابن عاشور بهذه المفارقة في قوله " وقد استشعر الفقهاء في الدين كلهم هذا المعنى في خصوص صلاح الأفراد، ولم يتطرقوا إلى بيانه، وإثباته في صلاح المجموع العام " [37]ولم يكن هذا الموقف تعديا على القدامى و لا إجحافا في حقهم بقدر ما كان ذلك نتيجة استقراء جهودهم التي حوصرت في دفة كتب الفقه المعلومة ، باستقراء مجموع الأبواب والأحكام والاجتهادات.ويحتاج هذا المقصد إلى التفصيل والتفريع ضمن أولويات الإصلاح الحضاري والنهوض بالعمران وبناء الأمة بناء يحقق وحدتها واستقلاليتها واستثمار خيراتها والمحافظة عليها، ويمكن أن يتفرع من هذا المقصد ما يضمن تحقيق المصالح البيئية للتصدي للتلوث وتسرب الغازات وتدنيس الغابات ودفن النفايات في بلدان العالم الثالث و المصالح الصحية لمواجهة الكوارث العالمية والأوبئة و المصالح السياسية حفاظا على الاستقلال والسيادة والكرامة، والحفاظ على المقدسات والمعالم الدينية والتراثية التي تمثل عنوان وجود الأمة المشرف وتاريخها المجيد.[38] إن ركون الفقهاء إلى السلاطين و البلاطات قد جعلهم أقرب إلى مهادنة الوضع وتزكية واقع الخلافة دون حرج التورط في الأحكام السلطانية العامة التي لا يقدر على الخوض فيها إلا العلماء من اهل العزم والحزم وأصحاب المشاريع الإصلاحية القوية والعميقة.

فثمة تحديات حضارية يجيب عنها الشيخ ابن عاشور باقتراح تشريع ما يسمى **بتشريعات الضرورة** التي تكون عند الأزمات وخلال تغير الظروف السياسية والمناخية والاجتماعية حيث تحتاج الأمة إلى أحكام بديلة عند التحرك في مناخات عنصرية وتطهير عرقي يستهدف المسلمين في دينهم ووجودهم، خلال إقامته بديار الهجرة حيث يعاملون معاملة مخصوصة تستهدف عملهم وإقامتهم، حيث يقيمون في مناطق لا تنقضي عنها الشمس إلا قليلا، أو في مناطق متجمدة، أو في بؤر متوترة، أو في مخيمات اللاجئين.كما اقترح الشيخ مصطلح **التشريعات المؤقتة** التي تزول بزوال الحاجة إليها إذ لابد من مراعاة المصالح العابرة ، ودفع المفاسد القاهرة التي تجتاح بعض الأقوام بما يجعل حياتهم عسرا فتستعصي عليهم مسايرة الأحكام العادية التي شرعت أوان الرخاء واليسر . [39]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

فالتشريع حينئذ متغير بتغير النوازل والعوارض التي تواجه الامة في مسيرتها ، لتكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، ويحققّ مقصد حفظ الدّين و بقائه حافظا للإنسان من الحيوانية و انعدام الهدف وغياب المعنى .

ومن أبرز ما يدعم الجهد التجديدي لدى الشيخ ابن عاشور اعتباره للفطرة مرجعا في ضبط المقاصد إذ تميل النفوس إلى جلب المصالح لتحقيق المنافع الدنيوية والأخروية بقدر ما تجنح إلى دفع المفاسد ودرئها عن الذات، وهذا التصور قد دفع البحث لدى الشيخ الى عدم مصادمة الطبيعة البشرية في ميولاتها ورغباتها. وفي الوقت نفسه استجاب لحاجات المجتمع والامة في تقويم أحسن المسالك إلى الأمن والاستقرار والرخاء.

إن الجهد التأصيلي الذي بذله الشيخ ابن عاشور في مدونته، جهد تتجاوز قيمته لحظة الكتابة والتدوين إلى لحظة القراءة حيث تتجدد سبل الانفتاح على أوساع جديدة في البحث ، تفصّل حدود الكليات الخمس إلى مقاصد مبتكرة بحسب متغيرات المجتمع ، وحاجات الأمة وقد اضحت نهبا لمؤامرات داخلية وخارجية سواء على المستوى السياسي او الاقتصادي او الثقافي .فلا يجوز حينئذ الوقوف عند المنجزات المعرفية السابقة ولا الركون الى المعارف المجردة اذ ليس من اليسير تنزيل هذه المقاصد على ارض الواقع، فمقصد الحرية في حاجة الى ارادة سياسية توفر مساحاتها وكذا مقصد الحفاظ على الامة مفتقر الى سلطة العلماء الذين يلتزمون بدورهم العلمي في مواجهة سلطة القرار السياسي الزاحف نحو الارتهان للمؤسسات النقدية الدولية والقرارات الامية والمواثيق الدولية دون اعتبار للخصوصيات الثقافية والتنوع الثقافي بين الحضارات.

إن ما يؤسس له الدرس المقاصدي من منطق اجتهادي ومراجعة لجمود العقل الاصولي، في حاجة الى تحقيق التراكم المعرفي وبلوغ درجات اكثر جرأة في مراجعة التراث الفقهي الذي تواجهه نوازل علمية واجتماعية ، لا يجوز التغاضي عنها في ظل تصاعد وتيرة الانتاج العلمي والتقدم التكنولوجي واستراتيجيات الهيمنة على مصادر الطاقة وموارد الماء وتلويث البيئة بمختلف المواد السامة والجرثومية.

إنّ جهد المدرسة الزيتونية التونسية حينئذ جهد لا يمكن ان نبخسه حقه في الريادة والتأسيس المعرفي لرؤية اجتهادية عقلانية تعامل التراث المشرقي بمنطق الند والتمايز لا الانبهار والتبعية، ذلك أن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الخلفية النقدية المغاربية في الفلسفة والفكر قد وسمت مؤلفات العلماء والفلاسفة والمفكرين ببعد عقلاني واضح.

فهل يدرك تلاميذ الشيخ ابن عاشور طبيعة الرؤية المقاصدية المفتوحة التي تحتاج الى الاضافة والمراجعة لنتحول وفق رؤية اجتهادية جريئة من مقاصد الشريعة الى مقاصد الانسان فردا وجماعة ومجتمعا وأمة؟

المصادر والمراجع:

–الجابري (محمد عابد) : بنية العقل العربي . مركز دراسات الوحدة العربية . ط2 . 1987.

– تكوين العقل العربي المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع . ط 3. 1987

-ابن عاشور (محمد الطاهر) :–تفسير التحرير والتنوير . الدار التونسية للنشر .1984.ج1.

– مقاصد الشريعة الإسلامية . الشركة التونسية للتوزيع . تونس. المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر. 1985.

–عودة (جاسر) : فقه المقاصد. المعهد العالي للفكر الإسلامي . بيروت . ط 3. 2008.

–الشاطبي (أبو إسحاق) :الموافقات .دار ابن عفان . المملكة العربية السعودية . ط1. 1997.م1.

–شمام (بشير): مقاصد الشريعة وعلاقاتها بالمباحث اللغوية. ط 1. 2013. الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم.

–النجارعبد (المجيد): مقاصد الشريعة أبعاد جديدة . دار الغرب الاسلامي . ط2 . 2008

الفصول:

–العضراوي (عبد الرحمان): أسئلة الإصلاح وأجوبة المقاصد في سلفية الطاهر ابن عاشور ضمن بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح و التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر. رؤية معرفية ومنهجية. المعهد العالي للفكر الإسلامي. الولايات المتحدة الأمريكية. ط1. 2011.

الطالبي (عمار): التجديد عند الإمام ابن عاشور – بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الاصلاح و التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر. رؤية معرفية ومنهجية. المعهد العالي للفكر الإسلامي.الولايات المتحدة الامريكية. ط1. 2011

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

النفاتي (برهان): مقاصد الشريعة إطار عام للعمل السياسي .مجلة الامة الوسط. عدد 4-الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين . تونس 2013.

المواقع الالكترونية:

- التجديد عند الإمام ابن عاشور : مجلة البصائر -بتاريخ 1-4-1429 هـ
http://www.albassair.org/www1/modules.php?name=News&file=article&sid=488

-همام :نقد مقصد الحرية في فكر محمد الطاهر بن عاشور
http://www.almultaka.org/site.php?id=777

-الروازق(صادق جعفر) : مسألة الحرية في مدوّنة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور-
الحوار المتمدن-العدد: 2994 - 2010 / 5 / 3 - 12:58
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=213922

- بوزيان (عليان) :قصد حفظ نظام الأمة ، مقاربة مقاصدية مجلة المسلم المعاصر -عدد 140-الأحد, 18 كانون1/ديسمبر 2011 – لبنان.
http://almuslimalmuaser.org/index.php?option=com_k2&view=item&id=129:maksad-hefz-el-2oma

الهوامش :

[1]. محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي . مركز دراسات الوحدة العربية . ط2 . 1987.ص 302

[2].م.ن . ص309

[3]. م ن ص ن

[4]. م ن ص 323

[5]. محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع . ط 3. 1987.ص 528

[6]. الجابري : تكوين العقل العربي ص 552

[7]. م ن, ص 569

[8].عبد الرحمان العضراوي : أسئلة الإصلاح وأجوبة المقاصد في سلفية الطاهر ابن عاشور ضمن بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطهر ابن عاشور –ص 118

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[9]. محمد الطاهر ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية . الدار التونسية للتوزيع .تونس . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . 1985. ص 5 .

[10]. م.ن : ص. ن.

[11]. التجديد عند الإمام ابن عاشور : مجلة البصائر –بتاريخ 1-4-1429 هـ
http://www.albassair.org/www1/modules.php?name=News&file=article&sid=488

[12].محمد الطاهر ابن عاشور : مقاصد الشريعة :ص.ص 6-7.

[13].م.ن : ص 7.

[14].م.ن: ص7

[15].م.ن . ص 8

[16]. م. ن : ص 41

[17].يقول الشاطبي في المقدمة الاولى من الموافقات : إنّ اصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية والدليل على ذلك انها راجعة لى كليات الشريعة وما كان كذلك فهو قطعي ."أبو إسحاق الشاطبي : الموافقات . دار ابن عفان. المملكة العربية السعودية . ط1. 1997. ص ص 17.18

[18].م.ن :ص 8

[19]م.ن : ص 46

[20].م.ن: ص8 .

[21].م.ن: ص 42

[22]. سورة الزخرف 22

[23].م.ن: ص 60

[24].م.ن:ص.ن.

[25]..م.ن: ص ن.

[26].م.ن : ص 61

[27].م.ن:ص.ن.

[28].م.ن : ص .ن

[29].م.ن : ص 61.

[30].عبد المجيد النجار : مقاصد الشريعة أبعاد جديدة . دار الغرب الاسلامي . ط2 . 2008 ص 68.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[31] .برهان النفاتي : مقاصد الشريعة اطار عام للعمل السياسي . مجلة الامة الوسط. عدد 4 – 2013 . الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين. تونس. ص 13.

[32] . محمد الطاهر ابن عاشور : مقاصد الشريعة ص 131.

[33] .محمد همام :نقد مقصد الحرية في فكر محمد الطاهر بن عاشور:

http://www.almultaka.org/site.php?id=777(

[34] .صادق جعفر الروازق:مسألة الحرية في مدوّنة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الحوار المتمدن-العدد: 2994 - 2010 / 5 / 3 - 12:58

(http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=213922

[35] .محمد الطاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير .الدار التونسية للنشر. 1984.ج1. ص 81.

[36] .عليان بوزيان :قصد حفظ نظام الأمة ، مقاربة مقاصدية—ص,ص 77-126-مجلة المسلم المعاصر -عدد 140- الأحد, 18 كانون1/ديسمبر 2011 – لبنان.

http://almuslimalmuaser.org/index.php?option=com_k2&view=item&id=129:maksad-hefz-el-2oma

[37] .محمد الطاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج1. ص 139

[38] .جاسر عودة: فقه المقاصد اناطة الاحكام الشرعية بمقاصدها. المعهد العالمي للفكر الاسلامي . بيروت.ط 3. 2008, ص 170

[39] .عمار الطالبي : التجديد عند الامام ابن عاشور – بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الاصلاح و التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر. رؤية معرفية ومنهجية. المعهد العالي للفكر الاسلامي.الولايات المتحدة الامريكية. ط1. 2011. - ص 44

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إشكالية إصلاح التعليم من خلال "أليس الصبح بقريب" لمحمد الطاهر ابن عاشور

د. بشير المكي عبداللاوي
مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

اكتسى التعليم في المجتمع التونسي أهمّية بالغة، فظهرت عدة مؤلّفات انشغل مؤلّفوها بهذا الموضوع، ونذكر منها في هذا الإطار "أليس الصبح بقريب" لمحمد الطاهر ابن عاشور الذي شخّص في كتابه هذا واقع التعليم في تونس أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وانتهى إلى أن المشكل يكمن في فساد المعلّم وفساد النظام وفساد التآليف. ثم قدّم تصورا متكاملا لكيفية إصلاح هذا الوضع بما يفضي إلى تطوير المعرفة والارتقاء بالإنسان.

الكلمات الدالة:

الزيتونة، التعليم، الطاهر بن عاشور، تونس.

العنوان بالإنجليزية:

The problem of reforming education through "Is not the morning near" to Mohamed al-Taher Ibn Achour

Abstract:

Education used to occupy key importance in Tunisian society. Thus several books were written about that issue, for instance, “The aurora is forthcoming”: »Alaisa al-subhu biqarîb« to Mohamed Tahar Ben Achour in which he showed the reality of Education in Tunisia in the late nineteenth century early twentieth century. He came up with the conclusion that the real problem was due to corruption of the teacher, the corruption of the system as well as the corruption of the authorship. Then, he presented a harmonic vision to solve this situation, which could lead to the development of knowledge and the improvement of human-being conditions.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Key words:

Al-Zaytouna, Education, Taher Ben Achour, Tunisia.

يعد اهتمامنا بالإصلاح التربوي عند محمد الطاهر ابن عاشور من صميم وعينا بواقع التعليم في تونس اليوم وحاجته المتأكدة للإصلاح، أي أن هذه الدراسة لا تستهدف فقط الاطلاع على تصور ابن عاشور لإصلاح التعليم، بل تحصيل وعي تاريخي بمحاولات الإصلاح التربوي أولا، وثانيا إلى التفكير في سبل النهوض بالتعليم اليوم مستفيدين من هذا التصور وغيره. ومما يدفعنا إلى ذلك التشابه بين واقع التدريس زمن تأليف كتاب "أليس الصبح بقريب" سنة 1902م، وواقعه في زمننا، مما يفيد أن مشاكل التعليم عندنا مزمنة، وهو ما يعقد مهمة كل من يتصدى لمحاولة حلّها. فما السبيل لإصلاح التعليم في نظر ابن عاشور؟ إن الإجابة عن هذا الإشكال تستوجب التعرف على موقع التربية في فكره. وعن واقع التعليم زمن تأليف كتابه. وعن ملامح مشروعه الإصلاحي.

I. الفكر التربوي عند ابن عاشور

1. أهمية التربية والتعليم

إن عناية ابن عاشور بالتعليم نابعة من إدراكه لأهميته باعتباره "من أصول المدنية البشرية"، ولذلك كان مطّردا في سائر الأمم، وكان "التنافس على سلطة التعليم خلقا قديما للدول والأحزاب". لأنه يفيد في ترقية المدارك البشرية. وإنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها.

لهذا ارتبط اهتمام الإسلام بالتعليم بنزول الآيات الأولى من القرآن في قوله تعالى (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). وعظّم النبي ﷺ التعليم وجعله سبب السعادة في الدنيا والآخرة، ورتّب أجرة لمن يعلّم الناس القراءة والكتابة. وأصبحت الأمم تنفق كثيرا من مقدراتها من أجل التعليم، وتلزم به، وتهتم بتحسين أساليبه.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولكن الغفلة عن العناية بالتعليم، أو غفلة المدرّس عن سلك أفضل طرق التعليم، تورث خللا في تكوين الناشئة. ولذلك يرى ابن عاشور أنه لو أتيحت له في صغره فرصة التوجيه والتنظيم، لاقتصد كثيرا في جهده ووقته، وسلِم من التطويح في طرائق تبيّن بعد ذلك خللها[9]. ومن هنا فإن الوعي بأهمية التعليم لا يؤدي بالضرورة إلى تحقيق أغراضه، ما لم يرتبط هذا الوعي بوضع تصور متكامل لعناصر العملية التربوية، وما لم يقترن بتحديد أهداف واضحة قابلة للإنجاز وخاضعة للتقييم المستمر.

ويندرج كتاب "أليس الصبح بقريب" في إطار اهتمام ابن عاشور بإصلاح التعليم إدراكا منه لأهميته في حياة الأفراد والأمم، ووعيا منه بالمآل الذي انتهى إليه التعليم في المجتمع الإسلامي عموما وفي تونس خصوصا.

العوامل المؤثرة في الفكر التربوي لابن عاشور

تصدى ابن عاشور لإصلاح التعليم، رغم أن الطريق لم يكن ممهّدا، ويعبّر ذلك عن عمق وعيه بأهمية الإصلاح، وبخطورة استمرار الوضع على ما هو عليه. فما هي العوامل المؤثرة في الفكر التربوي لابن عاشور؟ يمكن تصنيف هذه العوامل إلى ثلاثة:

البعد الذاتي:

مارس ابن عاشور التعليم متعلّما ومعلّما، فأدرك من قرب مشاكله وأسباب ضعفه، وأملى عليه ضميره التفكير في طرق الإصلاح، فضمّن أفكاره هذا الكتاب، ثم أتاحت له فرصة تولي بعض المسؤوليات العلمية والإدارية السعي في الإصلاح بما يتلاءم مع تلك الأفكار التي انتهى إليها. ويعبّر ذلك عن يقين عنده وهو أن إصلاح التعليم هو الأساس الذي تتوقف عليه كل الإصلاحات التي تحتاجها الأمة، ولذلك كان يقنع نفسه بترك التردد والاستجابة لداعي الحق كما تقتضيه مسؤولية الخلافة في الأرض[10].

البعد المحلي:

وجد استعداد ابن عاشور للإصلاح بيئة محلية ملائمة، تمثلت في الإحاطة التي وجدها من قبل بعض أساتذته المتشبعين بروح الإصلاح مثل سالم بوحاجب الذي يدعو إلى التخلّص من الجمود، والملاءمة بين مقتضيات العصر ومقاصد الشريعة، وتمثلت أيضا في بعض المبادرات الإصلاحية التي قام

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بها ساسة مصلحون، كتأسيس أحمد باي للمدرسة العسكرية سنة 1840م، التي اشتملت على كل العلوم العصرية، مما جعلها تسهم في لفت انتباه التونسيين لما يحدث في العالم الخارجي. كما قام أحمد باي بجملة من الإصلاحات طالت التعليم الزيتوني كتحديد عدد الدروس والمدرسين وجراياتهم[11]. ثم تأسست المدرسة الصادقية سنة 1875م، وتأسست الجمعية الخلدونية سنة 1896م لتكميل التعليم الزيتوني. فمثلت تلك الأعمال دوافع للإصلاح وحاضنة له.

البعد الخارجي:

وافقت البيئة المحلية بيئة خارجية ملائمة، حيث اطلع ابن عاشور على التطورات العلمية التي تشهدها أوروبا فاستأنس بها، واستفاد منها[12]، رغم أن بعض المحافظين يرون فيها خروجا عن الدين ومزاحمة للعلوم الإسلامية، وهذا الفارق الكبير في زاوية النظر هو الذي حدد موقف الطرفين من إشكالية إصلاح التعليم.

كما اطلع ابن عاشور على التغييرات التي يعيشها التعليم في مصر من خلال الجرائد، ثم اطلع مباشرة على أفكار محمد عبده عند زيارته لتونس سنة 1320هـ- 1902م، حيث شخّص واقع التعليم، وانتقد طريقة التدريس، مما أغضب الجامدين من المدرسين، ولكنه نبّههم لما انغلقت عنه أبصارهم فاعترفوا ببعض الخلل بما بيّنه من نتائج الإصلاح في مصر حيث صار التلميذ المدرسي أفصح لسانا وأبهر علما من التلميذ الأزهري الذي لم يزل أهله يجافون كل إصلاح[13].

II. واقع التعليم زمن تأليف الكتاب

عرف التعليم في تونس زمن تأليف كتاب "أليس الصبح بقريب" تدهورا شاملا. وليقف القارئ على خصائص هذا الواقع وأسبابه، لابد أن يتتبع مختلف المباحث الواردة في الكتاب، لأن ابن عاشور تحدّث عن هذه المسألة في أكثر من موضع. وصنّفها أكثر من تصنيف لعل أوضحها قوله "وفساد التعليم إما من فساد المعلّم، أو من فساد التآليف، أو من جهة النظام العام"[14]. غير أن هذا التصنيف لا يستوعب مسائل كثيرة نقدها في هذا الكتاب، مما يستدعي تعديله على النحو التالي: ما يتعلق بالموارد البشرية التي أشار إليها بالمعلم ليشمل التلاميذ والإداريين، وما يتعلق بالجانب المعرفي الذي يشترك في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإشارة إليه المعلّم والتآليف، وما يتعلق بالنظام العام، وما يتعلق بالجانب البيداغوجي والذي أشار إليه بالتآليف كما يشمل مواضع التعليم وطرق التعلّم ونحوها. ويمكن بيان ذلك على النحو التالي:

1. **المستوى البشري:** يضم التعليم صنفين من الناس وهما: المدرسون والطلبة.

الصنف الأول: المدرسون: لا يخفى أن بداية ابن عاشور بالمعلم له دلالته، لأنه يعتبر أن السبب الرئيس في فساد التعليم هو المعلمون، ثم إن الإصلاح كما سنرى يتوقف عليه. والمعلمون نوعان: مترسّمون ومتطوعون. ويشترك النوعان في أحوال مختلفة دالة على ضعف الأداء وتتمثل في:

أ– عدم المواظبة: فالمترسمون هم المنتدبون للتدريس، ويقدم هؤلاء درسين في اليوم، ثم يقدمون دروسا إضافية يتم الاتفاق على عددها مع النظارة. ويترتب على ذلك توسيع أوقات الحضور على هؤلاء مما يجلهم لا يوفون بها جميعا، ويضيع الحد الفاصل بين الرسمي والتطوع فيغيب ضبط الدروس، كما لا يقع الالتزام بالتوقيت القانوني للحصة وهو 45 دقيقة، فتطول مدة دراسة الكتاب، أو يتم إغفال بعض مضامينه.

أما المتطوعون فهم الذي لا عمل لهم أو لهم عمل موسمي مع الحكومة. ويأتي الفساد من هؤلاء من جهتين: الأولى عدم مواظبتهم على تقديم الدروس التي تعهّدوا بها، ولا يخفى أن "إبطال الدرس يوما للتلميذ المبتدئ تنشأ عنه مفاسد عظيمة في التعليم والأخلاق"[15]. الجهة الثانية: أن مستوى بعض المتطوعين لا يؤهّلهم لتقديم الدروس بالكفاءة المطلوبة "فنشأت عنهم طبقات قاصرة من التلاميذ"[16]. وهو نفس ما يحدث اليوم في مؤسساتنا التعليمية بجميع مستوياتها.

ب– ضعف المستوى: تدعّم إخفاق المدرّسين بالترتيب المثير الذي أصدره أحمد باي ويقضي بانتداب عدد متساو من المدرّسين المالكية والحنفية. ولما كان عدد الأحناف أقلّ، فحظهم في الانتداب أوفر، بل يقع الاضطرار عملا بهذه التسوية الظالمة إلى انتداب القاصرين منهم، بينما ينتظر المتخرجون من المالكية دورهم وتنتهي أعمارهم ولا يحصلون على حقهم. بل أدى هذا الإجراء إلى تكاسل الطلبة الأحناف عن الدراسة "لأنهم واثقون من حصول الغاية بقرب لضرورة قلة المزاحمة"[17]. ولئن كان قصد أحمد باي إيجابيا لأنه أحس أن المالكية مظلومون، فأراد إنصافهم بتسويتهم بالأحناف. ولكن ما فعله غير كاف، بل واصل تكريس الميز ببقاء أفضلية للأحناف من جهة قلة عددهم. وكان المفروض إعطاء كل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مستحق حقه بصرف النظر عن مذهبه، فتصبح الكفاءة العلمية والعملية هي المحددة لاختيار المدرسين[18].

كما أن ابن عاشور أغفل أسبابا أخرى كان لها أثرها في واقع التعليم الزيتوني منها الصراع البلدي الآفاقي، ومنها الصراع بين العائلات الأرستقراطية التي توارثت النفوذ والوظائف داخل الزيتونة، ومثل تسريب الامتحانات لأبناء العائلات النافذة للظفر بخطة التدريس، وربما إلغاء الامتحان جملة إذا لم يترشح لها أحد أبناء تلك العائلات[19].

ج- سوء العلاقة: كانت العلاقة بين المدرسين سيئة، مما عاقهم عن التواصل، ومنعهم من التعاون، بل أشاع بينهم التشنج والسباب، فنشأت الشيع القائمة على مصالح شخصية واستحكم التصميم على الباطل[20].

د- معاداة القوانين: ظل كثير من شيوخ الزيتونة يناهضون كل نفس تجديدي ولو كان ذلك من خلال وضع قانون ينظم العمل التربوي، فهم "لا يحفلون بالقوانين، ويرون أن من عزّة العلم نبذ الضبط وعدم الالتزام بأوقات معينة". تصرفات كثير من المدرسين عن معاداة القوانين وكراهية النظام، وعدم إدراك وجوب العناية بالتعليم، وفساد طريقة في التدريس، ومعاداة الإصلاح، والتألب على المصلحين. وبهذا يتبيّن أن الإطار البشري الموجود لا يساعد على الإصلاح بل هو عائق في طريقه[21].

إن أثر فساد المعلّمين هو بقاء الأمة على حالتها من الجمود والتخلّف، فعوض أن يكون العلماء قادة في الإصلاح، فإنهم كانوا سببا في الارتكاس. وعوض أن يكونوا منارات تهدي السبيل إلى الساسة، فإنهم أصبحوا حجر عثر أمام ما يقدّمه الساسة من مشاريع إصلاح[22].

الصنف الثاني: التلاميذ: ويفيد تصفّح حالهم وجود مشكلتين:

أ- تفاوت المستوى: يرد التلاميذ من جهات شتى، وحالة التعليم فيها متفاوتة، وينعكس ذلك على مستواهم، فبعضهم حافظ للقرآن والمتون، عالم بالقراءة والكتابة، وبعضهم دون ذلك بدرجات، حتى أن بعضهم لا يحسن القراءة والكتابة[23]. ثم إذا بدأ التلاميذ الدراسة بجامع الزيتونة لا تقدم لهم معارف مناسبة لسنّهم ونموهم العقلي. ثم يقع إهمال التمرين وترك مراجعة ما يقرؤونه قبل الدرس

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وبعده، وترك مطالبتهم باستذكار ما تعلموه، وترك تعويدهم على فهم المتون التي يحفظونها. وقد أثر ذلك على نسبة النباهة والتحصيل في التلاميذ.

ب- **تفاوت العدد:** يختلف عدد التلاميذ من درس إلى آخر، فرب درس يحضره المائة والمائتان، ورب درس لا يحضره إلا تلميذ واحد. فيكثر الزحام في الحالة الأولى مما يؤدي إلى تقليص زمن الحصة، وإلى قلة الهدوء، وعدم حضور الذهن. كما لا يمكن للمدرّس معرفة كل التلاميذ مما يعجزه عن متابعتهم فردا فردا على مستوى معارفهم أو سيرتهم.

ولكن ما ينبغي تثمينه أن التلاميذ يعاملون شيوخهم بغاية المبرّة والإجلال، وإذا ظهرت منهم مخالفات فعن سوء فهم وجهل بالقوانين لا عن سوء سيرة، وهو ما تفتقده مدارسنا اليوم.

2. المستوى المعرفي

تأخر العلوم:

توقّفت العلوم في المجتمع الإسلامي بصورة فجئية عند انطفاء مدنية الدولة، فاقتصرت العلوم المدروسة في جامع الزيتونة على نقل كلام السلف، وانحصر التأليف في نقل ما مضى من غير بحث، فأصبح المبتكر، والمعترض على بعض المتقدمين عرضة للاضطهاد. ويعود هذا الموقف إلى طبيعة نظرتهم إلى العلوم، حيث يعتقد بعضهم أن العلوم المحدثة بدعة، ويعتقد البعض الآخر أن التقدم في العلوم الدنيوية ينشأ عنه تأخر في الدين[24]، وهذا من مظاهر "البؤس العظيم للأمة إذ تداخلت العوائد والعلوم، ومُوِّهت بعض العوائد الضالة بطلاء الدين والأصول"[25]. ولذلك تراهم لا يهتمون بالعلوم البرهانية النظرية كالهندسة والبلاغة والتاريخ والمنطق وحتى بعض العلوم الشرعية النظرية كأصول الفقه[26]، فكيف يعد العلم سبب التأخر، والحال أن المسلمين إنما تأخروا عندما تقهقروا في تلك العلوم؟. ويعود هذا الخلل إلى عدة أسباب منها:

غياب النزعة النقدية:

قام التعليم في هذه المرحلة على سلب حرية النقد والاعتماد على النقل والتسليم، حتى أصبح من الهنات عدم الرضا بما يقول المؤلفون. واستفحل الأمر بتقنين منع النقد بمقتضى ترتيب 1292ه – 1875م الذي نهى عن البحث في الأصول التي تلقاها العلماء جيلا بعد آخر بالقبول، وعن تغليط

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المصنّفين، وطالب ببذل الوسع في فهم مرادهم. ولئن كان تجنب نقد الأصول مفهوما في التعليم الابتدائي، فكيف يكون مقبولا في التعليم العالي؟ ثم كيف تتم متابعة بعض المؤلفات في ما يرد فيها من أخطاء خاصة إذا خالف صاحبها القواعد؟[27] ولا يخفى أن هذا مخل بالمقصد من التعليم، وهو إيصال العقول إلى درجة الابتكار. ثم إن الأخذ بما في مؤلفات السلف لا يعني متابعتهم وأخذ ما توصلوا إليه بالتسليم، بل كان لابد من التقدم خطوة أخرى إلى الأمام، بإعمال النظر كما عملوا، والاستنتاج كما استنتجوا[28].ويرى ابن عاشور أن من أسباب غياب النقد انتشار الطرق الصوفية التي بثت في نفوس الناس الرضا بالموجود واحتقار العلوم، بل تعويدهم على قبول ما لا يفهم، لأن في كتب التصوف رموز ومغلقات ودعاوى لا دليل عليها[29].

الضعف اللغوي:

إذا كانت المعرفة هي المقصد فإن اللغة هي وسيلة تحصيلها، ولذلك يعد القصور اللغوي من أهم أسباب ضعف العلوم. وقد أصبح هذا القصور ظاهرة للعيان عند المدرّسين إذ تجد الواحد منهم يقضي عمره في تدريس العلوم الإسلامية مقاصدها ووسائلها وهو لا يحسن التعبير بكلام عربي فصيح. "الزيتوني متضلع في العلوم التي يدرسها، لكنه نحوي لا يقدر على الإعراب، بليغ لا يجيد تحرير مكتوب، صرفي لا يظفر بالمصدر القياسي للفعل الذي يتكلم به، مع قصوره في العلوم الرياضية وضعف معارفه الأدبية، حاشا أفرادا كانوا نوابغ ذلك العصر"[30]. ويعود ذلك إلى عدة أسباب منها: طريقة التدريس القائمة على نقل عبارات المؤلفين، دون محاولة التدريب على صياغة ذاتية، يتم تعهدها بالإصلاح حتى يصل التلميذ إلى درجة الإبداع، كما يعود إلى أن المحادثة بين التلاميذ وأستاذهم لا تتم باعتماد العربية، فلا تتاح لهم فرصة التخاطب بها[31].

العبث بالمصطلحات:

عبث بعض المؤلفين بمصطلحات العلوم بناء على أنه لا مشاحة في الاصطلاح، والحال أن الضرر إنما جاء من اختلاف الاصطلاح، لذلك لابد من احترامه ما لم يكن قاصرا في ذاته أو مخلا بالعلم، وإلا أدى تبديله إلى التشويش وتعطيل التواصل بين الباحثين، أما العدول إلى ما هو أوضح وأنسب فهو مطلوب، وهو الإصلاح الذي ينبغي أن يشاع بين أهل العلم حتى يعرفوه[32].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

غلبة البعد الجزائي والإشهادي:

يغلب على تفكير التلاميذ استعجال نيل الشهادة دون الحرص على ما هو أهم منها وهو التحصيل العلمي، ويعود ذلك إلى تأثير القاصرين من أولياء التلاميذ الذي يرغبونهم في تحصيل الشهادة من أجل الوظيفة الحكومية. كما يعود إلى عروّ التعليم عن التنويه بقيمة الكمال الذاتي. وأدى هذا الخلل إلى السعي في تحقيق الهدف بأي طريق، فيكون التعلم سطحيا، ويقل العلماء، ويكثر الغش، ويستحيل الذكاء والفطنة إلى خبث وغباوة. والواجب لرأب هذا الصدع أن يرتب "التعليم على سنوات، ويصان الامتحان عن التساهل، ويقنع التلميذ بأن المراد أن يكون كاملا بذاته"[33].

الكمال الموهوم:

يعتقد المعلمون والمتعلمون أن ما تلقّوه مما برمج لهم يحقّق لهم غاية الكمال الذي لا يدانيهم فيه أحد، والحال أنه يعيشون في وهم، ويعود ذلك إلى عدم الاطلاع على أحوال الأمم الماضية، والتاريخ الإسلامي، وتراجم الرجال، وتاريخ الأمم المعاصرة، نتيجة الإعراض عن تدريس هذه العلوم. فيتخرّجون بعيدين عن فكرة الإصلاح، وليس لديهم الهمة للنهوض بأنفسهم وأمتهم[34]. ولئن حدّد القانون الصادقي المواد التعليمية، فإنّه قلّما يتم الالتزام بجميعها، فيقدم البعض ويترك البعض الآخر جملة أو لمدة معينة، دون ضابط يلتزم به ولا حد يوقف عنده. وإذا أضفنا إلى ذلك كيفية مباحثة المعلّمين للعلوم كإدخال التفريعات الكثيرة الذي يعرّض العلم للاختلاط، ويؤدي إلى تشتيت المقاصد، ونقصان الفوائد، علمنا مقدار الخلل في التكوين المعرفي للمتعلمين[35].

عرو التعليم عن الآداب والأخلاق وحفظ الصحة:

لم يلتفت المسؤولون عن التعليم إلى الأخلاق والآداب والمواعظ. وكان من نتائج ذلك وجود مدرّسين تعجبك أجسامهم وتكشف معاشرتهم أن تلك الهياكل العظيمة فارغة من الفضيلة ومكارم الأخلاق والمروءة[36]. ورغم أن النصوص الشرعية تحث على العناية بالصحة، فإن النظام التعليمي خال من الاهتمام بحفظ الصحة في مضامينه المعرفية، وفي نظامه اليومي وفي أماكن إقامة التلاميذ، وفي نظام غذائهم، وكل ذلك قاض بإنهاك قواهم[37]. وقد كان أثر الراحة الصيفية مغفولا عنه من جملة ما يغفل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من المصالح الصحية، رغم تمتّع التلاميذ بها منذ عهد سحنون والقابسي[38]. ولم ينتبه إلى ذلك المشرفون على الشأن التربوي في تونس إلا عندما صدر أمر من الباي سنة 1312هـ – 1894مـ[39].

ويعبّر هذا الخلل عن سوء تصور وظيفة المدرسة، فليست وظيفة المدرسة مقصورة على التعليم فقط، بل إن بث الفضيلة والإقدام وآداب التعامل مع الآخرين من أهم وظائفها، وإذا تم ذلك فإن المتعلّم لا يخرج من المجتمع الصغير وهو المدرسة إلا وقد تعلّم أصول النظام الاجتماعي وقواعده، فيتيسّر اندماجه، ويكون عنصرا صالحا فيه[40]. وإذا ذهب وقت التعليم عن الطلبة ولم يتلقوا فيه فضائل الأخلاق فمن العسير تلقينها لهم من بعد. وقال أحد الأمراء لمؤدب ابنه "ليكن أوّل ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، وروّهم سير الحكماء وزد في تأديبهم أزدك في برّي"[41].

3. **المستوى التنظيمي** يبدو سوء النظام في مظاهر كثيرة منها:

غياب الوعي التاريخي: عرف نظام المجتمع الإسلامي تغيّرا استدعى تبدل الأفكار والقيم العقلية، مما أثر على أساليب التعليم ومقادير العلوم وكفاءة المعلّمين، وظل المسلمون في سبات حال دون محاولات الإصلاح، وإذا استيقظ منهم واحد وأراد إيقاظهم نسبوه إلى سوء المقصد، واعتذروا بأن ما هم عليه كان سبب رقي أسلافهم، غافلين عن اختلاف العصور وتغير الأحوال.

غياب المراقبة على التعليم: يسير التعليم دون وجهة ولا رقابة على شيء منه. ومن العجب ألا ينتبه رجال الدولة عبر التاريخ الإسلامي إلى هذه الآلية المهمة. وقد أدى غيابها إلى أن يفعل كل ما يشاء، فعمت الفوضى واستحال تحقيق الأهداف المرجوة من التعليم[42].

غياب الضبط: إذا تتبعنا حال التعليم وجدناه خال من الضبط، فالمتعلم يتعلم باختياره، والمدرس يهتم بما يروق له من الكتب، ويقرّر ما يختار من المسائل، ولا يلتزم الوقت المقرر ولا الأماكن المعينة للتدريس، فالدروس لا تعرف بداياتها ولا نهاياتها، وليس لابتداء التعليم في اليوم وقت محدد. والمؤلف يصطلح على ما يشاء في العلم، ويشيع كل ذلك ضروبا من الفوضى يمارسها الجامدون دون وعي، ويمارسها المتحذلقون باسم الحرية. ويترتب على ذلك نقص في العلوم، وتفاوت تلاميذ المرتبة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الواحدة. ولئن كان الاختيار مطلوبا للنفوس، فإنه ينتهي غالبا إلى ما يشبه الفوضى فتنقطع الوسائل ولا تتحقق المقاصد[43].

4. المستوى البيداغوجي

طرق التعليم:

تختلف طرق التعليم باختلاف العصور والأقاليم، وبمقدار ما يتزايد من العلوم. ويقتضي ناموس التقدم والارتقاء تغيير طرق التعليم في اتجاه مزيد من اللياقة المناسبة لطموح الناس ولروح العصر[44]، ولكن واقع التعليم في تونس شذّ عن هذه القاعدة فجمد المدرّسون على الطرائق التي كانت معتمدة منذ القديم دون وعي بطبيعتها، مما جعلهم لا يحسنون استعمالها. أي أنهم لم يجيدوا تقليد من سبقهم ولم يبتكروا طريقة خاصة بهم. فالمتقدمون يملون المعارف المتعلقة بعلم من العلوم دون مراجعة ولا مطالعة، أي أنهم استفادوا من تصورات مختلفة وابتكروا لأنفسهم تصورا خاصا فيه وجاهة قابلة للدفاع عن نفسه، أما المعاصرون فيقدمون كتبا ألفها أصحابها في سياق اجتماعي وحضاري مختلف، قد تكون مفيدة في ذاتها وزمانها، ولكن لا يمكن أن تكون مستجيبة لتلاميذ هذا الزمان نظرا لاختلاف الحاجات وتغير الأحوال. ثم إن المدرسين لا يستحضرون حاجات التلاميذ وحاجات الزمان، ولا يهتمون بمراتب الأفكار ولا بمدى استعداد التلاميذ لقبولها، لأنهم منخرطون في الزمن الماضي، فيتحاشون أسئلة التلاميذ كي لا تتشتت عليهم الأمور، ولا يتصدع تصورهم للمسائل. ولذلك فإن من يقف على دروس جامع الزيتونة "يرى من تخالف المبادئ وفراغات الغايات ما يئن له"[45].

العلاقة بين مراحل التعليم:

إن الصلة بين التعليم الابتدائي الذي يجري في الكتاب والتعليم الثانوي الذي يجري في الجامع الأعظم وفي بعض الجوامع بالبلاد صلة غير محكمة. ورغم أن إدارة المعارف شعرت بهذا الخلل فتداركته بإدخال نظام على الكتاتيب يقتضي أن يكون المؤدب متخرّجا من مدرسة خاصة وهي المدرسة التأديبية (أنشأت سنة 1312ه – 1894م)، كما يقتضي هذا النظام توحيد أساليب التدريس ومضامينه بما يهيئ التلاميذ للانتقال اليسير من التعليم الابتدائي إلى الثانوي[46]، فإن نتائجه ظلت محدودة بالنظر إلى الإطار العام الذي يعيشه التعليم خاصة وتعيشه البلاد عامة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مواضع التعلم:

جرت عادة المسلمين اتخاذ المساجد والجوامع أماكن للتعلّم، رغم إيمانهم بأنها في الأصل محبّسة للعبادة، ولكن لما كانت المساجد بصفتها التعليمية بعيدة عن الضبط بسبب إباحة الدخول إليها للصلاة ولوازمها في كل الأوقات، فإن ذلك مما يشوش على التلاميذ ومدرسيهم. ويتعذّر منع الناس من ارتياد المسجد في ذلك الوقت، وكلما حاول أحدهم منعهم جوبه بتأويل فاسد لقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[47]. وإذا كان الحال كذلك فإنه لا يمكن تحقيق الوظيفة التعليمية في المساجد، ويرجع ابن عاشور ذلك إلى عدم فصل النفوس بين وظيفة العبادة ووظيفة التدريس في الجامع، إذ مهما بلغ الحزم والضبط غلبت وظيفة العبادة. ولا يمكن التعلّل بما جرى عليه العمل لأن التدريس فيها "قضت به ضرورة خصاصة الأمة في عصور البساطة أو السقوط"[48].

وإذا سوغت تلك الأسباب جعل المسجد مكانا كاف للتعليم في الماضي، فإنه لا يمكن الاستمرار في هذا الوضع الاستثنائي إلى ما لا نهاية[49]. ولهذا إذا كان ولابد من الاستعانة بالمسجد فإنه ينبغي في نظر ابن عاشور "أن يكون الجامع وقت التعليم مدرسة لا جامعا"[50]. ولذلك فإن محاولات إرجاع التعليم إلى المساجد تدل على عدم الوعي بوظيفة المسجد الأساسية، وعدم الوعي بخصوصية التعليم، والجمود على أوضاع استثنائية دعت إليها الضرورة ولكنها استمرت حتى أصبحت أصلا وتلبست بالمقدس حتى بات الخروج عنها في نظر هؤلاء خروجا عن الدين نفسه.

التآليف المدرسية:

يعتمد التعليم الزيتوني على كتب يتم اختيارها في كل فن من الفنون المقررة، وبالنسبة إلى كل مستوى تعليمي. غير أن تلك الكتب تمثل تعبيرا عن المرحلة المعرفية الأخيرة من مراحل التطور العلمي للأمة وهي فترة الركود والتقليد، ثم إن مؤلّفيها لم يضعوها لتلاميذ هذا العصر، ولم يبنوها على تقدير معارفهم، ولا مقدار مداركهم، ولا حسبان حاجتهم، فكيف لتلميذ مبتدئ مثلا أن يتعلم "إيساغوجي" في المنطق ويعرف الحوادث والأعراض؟ ثم إن دائرة التآليف انـحصرت في نقل ما قال المتقدمون، فترى تأليفا يظهر بعد آخر، ولا تجد رأيا جديدا. إذ غلب الميل إلى الاختصار مما أحوج الناس إلى الشروح

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

والحواشي، وجعل المؤلفين والدارسين حبيسي خصومات لفظية لا طائل من ورائها. ويعود ذلك إلى "علة التقديس للتآليف والمعلومات القديمة، فارتسم في عقولهم أنها قصارى ما تبلغه عقول البشر، وأن نهاية همة من بعدهم أن يفهم كلامهم. وبذلك يظنون أنهم كفوا مؤونة سائر العلوم فيعسر ارعواؤهم عن التقهقر، ويكثر ضعفهم في النقد والبحث، وكذلك تنشأ تلامذتهم ثم تشيع هذه النحلة في الفرقة كلها"[51].

وإذا أضفنا إلى ذلك طريقة تعامل المدرسين مع تلك الكتب، والطريقة المعتمدة في التدريس أدركنا حجم الضرر الحاصل من اعتمادها، وهو قعود الطلبة عن الارتقاء في العلوم، بل تأخّر العلوم نفسها، وعدم تحقيق أهداف التعليم أصلا[52]. لقد تقدّمت العلوم وطارت الأمم، والمسلمون قعيدو كتب أُلِّفت لغير زمانهم، وكلما ظهرت الرغبة في التجديد تمسك المحافظون بالقديم وصفدوا الأبواب دون كل تجديد، فتم إيقاف الناس عند ما بلغه المتقدمون، وحجروا عليهم النظر، وخوفوهم من استعمال الرأي، واستعانوا على ذلك بالسلطة الدينية من خلال أحاديث أساؤوا تأويلها، كما استعانوا بالسلطة السياسية فألقوا في نفوس الحكام أن الخروج عن ذلك كالإلحاد في الدين. حتى إنك لترى الرجل وهو ابن هذه القرون فتحسبه في معارفه وتفكيره ومناهج حياته ابن القرون الغابرة بسبب وقوفه عند الحد الذي بلغه أولئك المؤلفون، وبسبب اعتيادهم التقليد واستكانتهم لترديد كلام الغير واعتقادهم أن ما انتهى إليه المتقدمون هو منتهى ما يمكن الوصول إليه، ولا يخفى أن ذلك ناتج عن ضعف التفكير والتأخّر في مراتب العلم، لأن ارتقاء التآليف وتدلّيها محكوم بحال الأمة.

صفة الدروس:

كانت الدروس تتم في شكل حلقة أو هلال يكون المدرس أحد أفراده، ويمكن أن تتعدد الحلق حسب عدد التلاميذ، فيقرأ عليهم أو يكلّف أحد التلاميذ بالقراءة وهو يستمع ثم يعلّق ويشرح. والطلبة يكتبون ما يرون في أنفسهم حاجة إلى تقييده. ولئن كانت حالة الحلق مساعدة على تحقيق التواصل التام بين المعلم والمتعلم، وكان تكليف التلاميذ بالقراءة مطلوبا لتشريكهم وجلب انتباههم، فإن:

– حرص المدرسين على ترك مسافة بينهم وبين التلاميذ واعتبارهم القرب سوء تربية، يعد أحد معيقات التواصل.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– ترك الاختيار للمتعلم حتى يدون ما يشاء، يؤدي عادة إلى سوء تقدير ما تتم كتابته،فيدون أمورا ثانوية لا تغني في تكوينه، أو لا يدون أصلا، مما يخل بتكوينه الأساسي، ويجعله دون الحد المتفق عليه من المعارف أو المهارات[53].

التقييم:

كان التقييم يجرى بأشكال مختلفة خاضعة لاجتهاد المشرفين على الشأن التربوي، إلى أن صدر أمر سنة 1316هـ – 1898م فحدد مكونات الاختبار كما يلي: أولا، امتحان كتابي في شكل مقالة تتعلق بأحد أبواب الفقه. الثاني، تقديم درس في أحد العلوم الستة: الكلام والفقه وأصول الفقه والنحو والبلاغة والمنطق. ويكون منطلقه أحد الكتب المقررة، ويتم تعيين الكتاب الذي تحدده لجنة الامتحان. الثالث، الإجابة عن تسعة أسئلة في علوم الفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والجغرافيا والتاريخ والمساحة والحساب.

وقد رافق تطبيق هذا النظام التقييمي مجموعة من الممارسات التي حالت دون تحقيق مقاصده. فدأب المدرسون مثلا على إجراء امتحان المقالة في أحدى مسائل فقه العبادات، فأهمل التلاميذ المعاملات التي هم في أشد الحاجة إليها عند الخروج إلى العمل. ولم يقتنع المدرسون بمراجعة خيارهم إلا بعد ضياع أجيال. ومثال ذلك أيضا أن بعض الأساتذة يعينون تلاميذهم في إعداد الدرس مما يجعل التلميذ وهو يقدّم درسه يتهجّى حروفه وكلماته ولا يعرف معناها. ومثاله كذلك أن بعض المدرسين يشهد أن التلميذ أتمّ قراءة الكتاب الفلاني، والحال أنّه لم يحضر الدرس مطلقا، ويرون صنيعهم هذا إعانة للتلاميذ... كما يعتقد بعضهم مثلا أن الامتحان رموز وألغاز وحيل، والتعليم تحفّظ وانقباض وتكلّف، فتراهم يطالبون التلميذ بغرائب المسائل أو استحضار أمور لا حاجة له بها، أو هي من المكمّلات التي لا يعتبر محصّلها عالما مهيّأ للتدريس. في حين أنهم لا يهتمون بأسرار العبادات وفقه المعاملات رغم أهميته في التصدّي لبيان أسرار الشريعة، وتولّي خطط القضاء والعدول والوكالة. ولذلك أصبح الغش في الامتحانات ظاهرة لافتة بسبب سوء يقظة المراقبين، ونقص خبرتهم وقلة عددهم، وقلة شعور بعضهم بالمسؤولية المناطة بهم[54]. وهكذا فقد التقييم قدرته على التمييز بين مراتب التلاميذ وتحديد مستواهم، فضاعت قيمة العمل والاجتهاد، وحضر الحظ والتداخل من قبل المدرسين والأقران، حتى أن الذي يحضر مجلس

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الامتحان لا يتمالك أن يملأ الفضاء بزفرات يجيش بها صدره، لما يعلمه من عواقب الانـحطاط الذي وصل إليه نظام الامتحانات[52].

إن المقصد من التربية والتعليم هو تنوير العقل، وحمله على الاعتدال، وتوجيهه لاستعمال الأشياء في ما يحتاج إليه منها[53]. وإذا كان الوعي بهذه المقاصد يحدد المواد والمعارف والطرق المعتمدة في تدريسها وتقييمها، فإن فعل ذلك عن ذهول يعدّ إضاعة للجهد والوقت، وعبثا بمستقبل الأمة.

III. ملامح مشروع الإصلاح التربوي لابن عاشور

1. ضرورة الإصلاح

إن المتأمّل في واقع الأمة الإسلامية ينتبه إلى أن مظاهر التخلف تشمل كافة ميادين الحياة. وإذا كان البعض قد استمرأ ذلك الحال فأصبح يراه عاديا، فإن أصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة لا يزالون على قدر من وضوح الرؤية يسمح لهم بأن يدركوا أن الحال يحتاج تغييرا جذريا[54].

ويرى ابن عاشور أن إصلاح التعليم هو الأساس الذي يتوقف عليه إنشاء أمة مستقلّة ومتمدّنة، وتحصيل السعادة للفرد والمجتمع، فمن شأن العلم أن يرفع عن الإسلام والمسلمين وصمة البعد عن مناهج التمدن وتهمة عدم اللياقة بالأزمان الأخيرة[55]. لذلك إذا صلح التعليم عمّ الصلاح كافة مناحي الحياة، وإذا فسد شقيت به الأمة كلُّها[56].ورغم كثرة التحديات وشدة الصعوبات وتشعبها كان ابن عاشور يقنع نفسه بترك التردد والاستجابة لداعي الحق كما تقتضيه مسؤولية الخلافة في الأرض[57]. فعزم على صرف غاية جهده إلى وضع برنامج تعليمي يحقق مقاصد الأمة من خريجي هذا التعليم، وذلك بإنشاء أجيال قادرة على التجديد، والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية بكفاءة لائقة بتعاليم الإسلام وقيمه[58]. وإذا كان الإصلاح ضروريا فهل هو ممكن ؟

2. محاولات الإصلاح:

تبيّن في المحور الأول أن البيئة الداخلية والخارجية كانت حاضنة لأفكار ابن عاشور الإصلاحية، وإذا تتبعنا محاولات الإصلاح لاحظنا أنها جاءت من أطراف مختلفة، منها الوزير المقيم بتونس (ريني مللي) فبعد تأسيسه الجمعية الخلدونية التي تعتبر تتميما للتعليم الزيتوني، اتجهت عنايته إلى التعليم الزيتوني نفسه. فقدّم إلى الحكومة التونسية تقريرا، ضمّنه اقتراحاته المتعلقة بمحتوى التعليم، وأساليب

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تقديمه، وطرق تقييم التلاميذ فيه. ولئن رأى ابن عاشور أن هذه الاقتراحات "صالحة لسير التعليم"[59]، فقد تلقاها شيوخ الزيتونة بسوء الظن، وتخيَّلوا أنّها شَرَكٌ نصبه المحتل لإبطال تعليم العلوم الإسلامية، فصمّموا على المعارضة، وتلك عادة عرفوا بها، حيث أنهم لا يفتحون باب المباحثة ليعرفوا التفاصيل والكيفيات فتنكشف المقاصد، بل يوصدون الباب، ويقاومون الإصلاح ولو كان صوابا.

وكان للمحافظين من علماء الزيتونة ما أرادوا رغم ضعف خطابهم القائم على الإنشاء والحشو والمغالطة. ورغم صدور أمر عليّ لأعيان المشائخ المدرّسين يؤمل منهم التروّي، ويحفزهم إلى اتباع طريقة تجمع بين احترام العلوم الشرعية والعلوم الرياضية على وجه يؤول بالنفع على الطلبة وعلى الصالح العام، ولكنهم صمّوا أذانهم واكتفوا بكلمات سبابة ورفع السبابة[60]. فظلت مواد التدريس وأساليبها على حالها[61].

ولعله من أغرب الأمور أن الالتفات للإصلاح لا يظهر عادة من قبل أهل العلم، بل لا يأت إصلاح من قبل رجال الدولة إلا قابله أهل العلم بالضجر والتندر. كما حصل مع خير الدين لما أراد حملهم على الترتيب اعتقادا منهم أن هذا تضييق عليهم فأوهموا العامة بتداخله في الدين. والحقيقة أنه مخالف لأهوائهم، قاطع للفوضى في عملهم، ومانع من استجلاب مصالحهم الشخصية الضيقة. كنا نأمل أن نرى العلماء يدعون الحكومة إلى الاستعداد العلمي كاستعدادها للشأن السياسي كما هو حال الأمم المتقدمة. ولكنهم كانوا دون المأمول، بل على النقيض منه، إذ كلما ظهرت محاولة للإصلاح إلا وضع صانعو المنكر ومانعو المعروف دونها عقبات[62].

ورغم ذلك صمّم ابن عاشور على الإصلاح مهما لاقى من الأذى، إيمانا بنبل المقصد، وثقة في صحة الوجهة، وشعورا بما تقتضيه المسؤولية، لأن "الذي يناديه ضميره بوجوب الإصلاح لا يفشله ذلك، ولنا أسوة في الذين لقوا من الأذى ما بيّنه الكتاب المجيد والتاريخ"[63]. وإذا تبيّن أن الإصلاح ضروري، وهو ممكن، فكيف يمكن تحقيقه في نظر ابن عاشور؟

3. ملامح الإصلاح المنشود

توجه ابن عاشور إلى مظاهر الخلل التي رصدها خلال عملية التشخيص، وخصها بالاهتمام والمعالجة، ويكشف الوقوف عندها إدراك ملامح مشروعه الإصلاحي الذي يقوم على الأسس التالية:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أ- **الاهتمام بالمدرسين وبالتلاميذ:**

المدرسون: لما كان المدرسون هم السبب الرئيس في فساد التعليم، فينبغي العناية بطريقة اختيارهم، والتدقيق في مدى اتصافهم بما يؤهلهم للقيام بدورهم، بالنظر إلى خطورة المهمة الموكولة إليهم. ولهذا حرص الناس منذ القديم على التدقيق في اختيار المعلمين، ويندرج في هذا الإطار قول مالك بن أنس رضي الله عنه: ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتوى جلس حتى يتشاور فيه أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه لذلك أهلا جلس[64]. ويندرج في الإطار نفسه القانون الذي أصدره خير الدين سنة 1292هـ - 1875م ومما جاء فيه اعتبار المناظرة سبيلا لتعيين المدرسين، لأنها الطريقة الأمثل لتمكين كل واحد من حقه، ولتحقيق تقدم التعليم. ويعد إصلاح المدرسين في نظر ابن عاشور أهم ركن في إصلاح التعليم، وهو كذلك أصعب هذه الأركان نظرا لطول ما اعتادوه من طرائق في التعليم تقوم على التلقين حتى أصبحت طبعا بالنسبة إلى البعض يصعب التحول عنه إلا بمرور سنين طويلة، وأصبحت بالنسبة إلى البعض الآخر دِينًا يعتبر التحوّل عنه إلحادا. ويمكن أن يتم هذا الإصلاح عبر الخطوات التالية:

أولها: تخريج معلّمين جدد يستجيبون للتطور ويقدرون على مسايرة تبدل الأحوال، ولا يتحقق ذلك إلا "أن تدرّس صناعة التعليم قبل انتخاب المدرس للتدريس"[65]. وهذا ما كان معمولا به عندما تم تأسيس المدرسة التأديبية 1312هـ - 1894م لتكوين المؤدبين ويبدو أن اقتراح ابن عاشور يتطابق مع وجهات المختصين في أيامنا هذه وهو وجوب انتداب من يتوفر لديه حد أدنى من المؤهلات، ولئن تم بعث مدارس شبيهة في العقود اللاحقة وهي دور المعلمين الترشيحية والعليا، ولكن وقع التخلي عنها في إطار التجهيل المنهج الذي سلكته بعض الحكومات بعد الاستقلال ولازالت.

ثانيا: تحريك سواكن المعلمين القدماء، وإشعارهم بأن المحيط من حولهم سيتبدل كله ولا خيار لهم إلا المسايرة أو البقاء على الهامش. ولكن لا يعني ذلك بقاء القدماء وشأنهم خلال المرحلة الانتقالية، لأن ذلك الزمن ربما يطول ويصبح بعضهم معول هدم وفساد، لذلك ينبغي الاستعانة بعقول النبهاء منهم حتى ينخرطوا في الإصلاح، كما ينبغي تعريف الذاهلين منهم بشيء من أحوالهم الموقعة في ضعف التعليم، عساهم أن ينبذوها فلا يكونوا في موقع الشاذ، وحتى يحافظوا على احترام تلاميذهم[66].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ثالثا: يرى ابن عاشور أنّ من أهم وسائل إصلاح المعلّمين هو إصلاح التآليف، لأن المدرّس مهما بلغ به الجمود لا يمكنه أن يحول بين الأفهام وبين ما في التآليف، وإن فرضنا أن هؤلاء المدرسين سينقدون هذه التآليف، فإن الفائدة حاصلة لا محالة، وهي غرس المنزع النقدي لدى المتعلّمين، لذلك لابد من إصلاح التآليف غير ملتفتين إلى إصلاح المعلمين في هذه المرحلة[67].

رابعا: الحرص على أن يكون الأساتذة قدوة لتلاميذهم، فيعرفوهم حب العلم والسعي لإصلاح أنفسهم وأمتهم وأن ينشئوهم على العفاف وكرم الأخلاق واحترام الحق والعدالة[68]. وأن يوضحوا لهم الغايات التي يحققونها بمزاولة ذلك التعليم[69].

التلاميذ: يعد التلاميذ الغاية من التعليم، ولذلك كان الأجدر وضعهم في أعلى سلّم الأولويات. ولكن حالهم كما تقدم لا يختلف عن حال مختلف عناصر العملية التربوية. ولهذا اهتم ابن عاشور بهم من خلال مظاهر كثيرة منها:

- إعطاء مكانة للتلميذ بتكثيف التمرين كأن يمكّن من الحكم "على ما يراه في المعاني من حسن أو قبح، ثم يصوب أستاذه له ما يراه حسنا ويغلطه في غيره"[70].
- استخدام أفكار التلاميذ في غير فهم العبارات. لأن الغلو في الطريقة الاستحضارية يتعسر معه اشتراك الطريقة النظرية، لأن الأولى تقتضي الاطلاع على الكتب والإكثار من تكريرها، والثانية تقتضي البحث والتأمل، والواجب أن يكون التعليم نظريا وأن يمزج بالاستحضار[71].
- تقسيم التلاميذ إلى مجموعات حتى يتمكن الأستاذ من إحصائهم، ومراقبة أحوالهم العلمية والنظامية من مواظبة وعناية وتقدم وحسن سيرة. ويدوّن ذلك في أوراق يومية، ثم تدون المعطيات في أوراق شهرية. "ومن الغفلة عن هذا نشأ الضر الكبير للتعليم"[72].
- تقسيم برنامج التعليم إلى سنوات، وأن لا ينتقل تلميذ من الدرجة التي هو فيها إلى ما فوقها إلا بعد إجراء امتحان عليه.
- التقريب بين مستوى التلاميذ الوافدين على جامع الزيتونة وذلك بإصلاح التعليم الابتدائي من حيث المواد المدرسة وطرق التدريس ونظام الامتحانات وسنوات الدراسة[73].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- الحرص على تقديم المعارف المناسبة لسن التلاميذ ونموّهم العقلي، فكيف يقدّم لتلاميذ الأولى من المبتدئين درسا في المنطق ويقدّم لتلاميذ السنة الثانية قطر الندى لابن هشام؟

ب- تطوير المعرفة :

انتهى حال المعرفة إلى التدهور كما تقدم بيانه، وقد أحسن ابن عاشور تصوير ذلك الواقع في صورة نثرية بديعة فاتحا المجال لضرورة الإصلاح بقوله "أمّلت العلوم منا إصلاحا، فنظرت إلينا نظر الأسير لفاديه، والمظلوم لناصره"[74]. فكيف يمكن نجدتها ؟

إعادة النظر إلى العلوم:

يعود توقف العلوم في المجتمع الإسلامي عموما، وفي جامع الزيتونة خصوصا إلى التقليد الزائف الذي يقف عند الظاهر، ولا يقلد في منهج النظر القائم على الثقة بالنفس والقدرة على الإبداع. فينبغي الاعتقاد بأن العلوم ليست بِدَعًا، بل استجابة للأمر الإلهي بالقراءة، وأن الإسلام لا يتخلف بالعلم بل بتركه وأن الدين لا يتقدم بتأخر الدنيا بل بتطورها. إن المسألة تتعلق بإعادة برمجة للذهن تزول معها تصورات فاسدة واعتقادات خاطئة. إذا تمت ستجد سائر العلوم طريقها إلى الدرس وفق منهج متطوّر مستفيد مما أنتجته العقول البشرية.

دعم النزعة النقدية:

إذا قام التعليم في جامع الزيتونة على سلب حرية النقد والاعتماد على النقل والتسليم، فإن الواجب غرس هذا المنزع لأنّه الكفيل بنقد ما توصل إليه السلف، والاستفادة منه، ومواصلة المسير في طريقهم، حتى ننصح من يأتي بعدنا كما نصحنا أسلافنا. وبذلك فقط نكون أوفياء لهم، لأن الوفاء لا يكون بالوقوف حيث وقفوا ولكن بالبناء على ما بنوا[75].

الاهتمام باللغة:

يتم ذلك في نظر ابن عاشور بمراجعة طريقة التدريس والاعتماد على الارتجال بألفاظ الأستاذ دون التمسك بعبارات الكتاب، وأن يعوّد التلاميذ النطق بالعربية، ولا يقبل منهم التكلم مع أساتذتهم بغيرها، وتجعل لهم تمرينات أسبوعية بمراقبة أستاذة أكفاء ينبّهونهم إلى ما يخلّون بمراعاته، ويُكلَّفون

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بإنشاء مقالات فصيحة، وتسند لهم أعدادا متفاوتة، لتقدير جهودهم، ولتشجيعهم على الاستمرار في تحسين مكتسباتهم العلمية واللغوية[76].

ج- الاهتمام بالمسألة البيداغوجية

مواضع التعليم:

نقد ابن عاشور ظاهرة التعليم في المساجد وبيّن ما فيها من محاذير شرعية وعلمية، ورغم موضوعية نقده وسلامة رأيه فقد واجه معارضة شديدة في زمنه وفي زمننا هذا. ويدعو هذا الواقع إلى تناول هذه الظاهرة بالتحليل لكشف ملابساتها. لم يكن للتعليم منذ ظهوره في التاريخ الإسلامي محلا معيّنا، فيتم في المنازل والجوامع. ولئن كان الجامع مخصّصا للعبادة، فإنه يجمع الناس ولذلك كان موضعا مناسبا للتعليم لمن لم يجد موضعا. ولكنه لم يلبث أن خرج منه، وتم تخصيص أماكن للتعلّم، وقيل إن عمر بن الخطاب هو أول من خصّص مكانا لتعليم الصبيان. وسماه المكتب، وجعل رزقا للمعلم، ووزع التعليم على حصتين: من الصبح إلى الضحى ومن الظهر إلى العصر، وخصص يومين للراحة في الأسبوع وهما الخميس والجمعة[77].

ثم تطورت المكاتب والمدارس في عمرانها ونظامها بتطور الحضارة الإسلامية. فانتشرت المكاتب في القيروان منذ زمن مبكّر، فيذكر أن الصحابي سفيان بن وهب ت 82هـ- 701م يمرّ بالتلاميذ وهم في الكتاب فيسلم عليهم[78]. وبنى الحكم المستنصر بالله سبعة وعشرين مكتبا حول المسجد الجامع لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين وأجرى عليهم المرتبات[79]. وأنشأ ابن الأحمر يوسف بن إسماعيل المعروف بان نصر الأنصاري الخزرجي ت 755هـ – 1354م مدرسة غرناطة التي كانت مدرسة عجيبة بكر المدارس في حضرته[80]. وشاد الموحّدون المدارس لطلب العلم[81]. أما في تونس فبعد أن كان الناس يؤمون المساجد للتعليم وأكثرها قصدا جامع الزيتونة، اتجهوا إلى المدارس التي أنشأتها الدولة الحفصية وفرضت الجرايات الكافية للمدرسين والتلاميذ، مثل المدرسة العنقية والمنتصرية والحفصية والمرجانية والشماعية والتوفيقية التي كان يدرس بها ابن عرفة... وانتشرت المدارس في الجريد وباجة والكاف والمنستير والقيروان وصفاقس وسوسة... وبذلك لم يبق من يقرأ في غير المدارس إلا من لم تكن له مدرسة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ثم عرفت أماكن التعلم تطورا لافتا عندما أخذت شكل محال لاجتماع المختصين في العلوم لتدارس مباحث علمهم وتعهّد معارفهم وتجاربهم، مما جعلها أشبه ما يكون بمجامع علمية أو مراكز بحث متخصصة. فوضع أبو جعفر المنصور مجمعا لعلماء الطب، وبعث المأمون دارا للترجمة وهي بيت الحكمة. ثم أحدثت المدرسة النظامية ببغداد وقبلها المدرسة النظامية بنيسابور...[82]. وبنى صلاح الدين مدرستين في مصر الأولى للمالكية والثانية للشافعية، وبنى الملك الكامل "الكاملية" سنة 622هـ – 1225م وجعلها للمذاهب الأربعة.

ولئن ظلّ المسجد حاضرا في المشهد التعليمي الأندلسي والإفريقي والمغربي باستمرار فبحكم العادة وبمقتضى الضرورة، لا بحكم الوظيفة الأساسية له[83]، لأنّ الأصل في التعليم تخصيص أماكن معيّنة له، ذاك ما جرى عليه العمل في التاريخ الإسلامي، بل هو ما رآه الفقهاء مثل الإمام مالك وسحنون والقابسي الذين قالوا بعدم جواز تعليم الصبيان في المسجد ولو للضرورة كانهدام المكتب، لأن بعضهم لا يتحفّظ من النجاسة، ثم إن المسجد لم ينصب للتعليم، ولا للتكسب لأنّ المعلّم يتقاضى أجرة[84]. وحتى بالنسبة إلى جامع الزيتونة، بيّن ابن عاشور أنّه لم يقف على ما يفيد أنّه كان دائما موضع تدريس العلوم[85]. ولم ينسب العبدري في رحلته لجامع الزيتونة أي نشاط علمي رغم أنه اعتبره أعظم الجوامع وأحسنها وأكثرها إشراقا[86]. ولئن أثار ذلك استغراب بعض الباحثين المعاصرين[87]، فإنه ليس هناك ما يدعو إلى الغرابة، وينبغي قبول تلك الحقيقة وهي أن التعليم له أماكن خاصة به، على خلاف ما هو حاصل في المخيال الشعبي، وأن ما ينقل من التعليم في المساجد إنما هو لعدم وجود غيرها، أو هو فقط جواز لمجالس الإفتاء والمذاكرة لا للتعليم، وحتى مجالس الإفتاء ينبغي أن تكون في غير أوقات الصلاة[88].

وكان للفتيات حظهن من التعليم في الأندلس وإفريقية على منوال واحد، ففي تونس كن يتعلمن على يد معلمات في "دار المعلمة" الكتابة والقراءة والخياطة والتطريز ثم ينصرفن لتدبير المنزل. ولم يكن هذا التعليم شاملا ولا جديا إلى أن ظهرت مدرسة للبنات سنة 1320هـ – 1902م[89]. وكان لأفكار المصلحين دورها في تطور تعليم البنات في الفترة اللاحقة. فإذا كان التاريخ والفقه والعقل يشهد بتخصيص أماكن للتعليم غير المساجد، فإلام استند المحافظون في تمسكهم بالتعليم فيها ؟ لا شك أن ما

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

استقر في المخيال الشعبي وفي عقول المنتسبين للعلم الشرعي إنما هو تعبير عن تركة عصور الانحطاط واستحضار لآخر ما استقر عليه الأمر في هذه المرحلة حتى أصبح هو الأصل في نظرهم.

ويؤكد هذا التحليل أن تخصيص مواضع للتعلّم يحفظ أخلاق التلاميذ وآدابهم، ويستبقي على توجّه أفكارهم، وحضور أذهانهم لطلب العلم دون غيره هو أمر في غاية الأهمية. أما إيقاع الدروس في المساجد فإنّه يعوق هذا الغرض. فلا يمكن الاستمرار على ما دعت إليه الضرورة إلى ما لا نهاية.

من التعليم إلى التعلّم: أحدث ابن عاشور في هذا الجانب نقلة نوعية أساسها استبدال التعليم بالتعلم، ثم استعرض طرق التعليم التي عرفها عالم التربية في التاريخ الإسلامي وهي أربع طرق:

1- إملاء المعارف دون مراجعة ولا مطالعة كتاب ولذلك يقولون أخذ النحو عن فلان والحديث عن فلان...

2- التزام كتاب معين.

3- السؤال والجواب مثل طريقة سحنون في التلقي عن ابن القاسم[90].

4- النظر والتفكير والنقد والتصحيح، ويشير إلى أن هذه الطريقة ظهرت في القرن الرابع فانتفع العلماء بها فهذّبوا العلوم وأجادوا التآليف[91]. غير أنه تم التراجع عنها فغلب التلقين والإملاء الجاف لعبارات أصحاب التآليف التي تمت في عصور الانـحطاط.

وبناء على هذا التشخيص يدعو ابن عاشور المسلمين أولا إلى ضرورة الوعي بالتطورات الحاصلة في الحياة، واستيعاب العلوم الحديثة، وتوظيفها في تحقيق التواصل في مجال التعليم الذي هو مخبر صناعة الأجيال، وأداة تحقيق التقدم على جميع المستويات. ويدعوهم ثانيا إلى الاهتمام بالتطبيق والتمرين حتى لا يكتفي المعلم بالدروس النظرية البحتة التي أنتجت تلاميذ لا يستطيع الواحد إعراب كلمة من غير ما هو موجود في الكتاب[92]. ولا ترى فيهم فصيح اللسان أو بليغ البيان، بل لا يقدر الواحد منهم على تجنب اللحن في قوله أو درسه، ولا من يشعر بالمقاصد البلاغية فينطق بها أو يفهمها، ولا من يرجح في مسائل الخلاف.

ثالثا إعطاء مكانة للتلميذ بتكثيف التمرين كأن يمكّن من الحكم "على ما يراه في المعاني من حسن أو قبح، ثم يصوب أستاذه له ما يراه حسنا ويغلطه في غيره"[93].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التآليف: لما كانت التآليف هي طرق العلوم، فأي طريق نجده موصلا إلى الغاية في أمد أقصر وجب علينا سلوكه[94]. وإذا علمنا في ما تقدم أن التآليف المعتمدة تضمنت بعض وجوه الفساد مما جعل طلبة العلم قاعدين عن الارتقاء في العلم، فإنه من الواجب:

- تكوين لجنة من العلماء لتنظر في الكتب وتحدد مظاهر الخلل فيها وتقترح سبل إصلاحها.
- ترجمة الكتب المتعلّقة بالعلوم التي تقدّمت عند غيرنا ونحن في حاجة إليها.
- ترك التطويلات في التآليف بزيادات خارجة عن الموضوع، لأن بعض المدرسين يستطرد في الكلام فيتحول من فن إلى آخر، أو يتحدث في نوادر العلم دون أصوله. ولكن ينبغي أن لا يتحوّل الاختصار المطلوب إلى تعقيد، وإنما يكون إيجازا في اللفظ مع وضوح وبيان.
- غرس النزعة النقدية، وتجنب التأويل للتراكيب الفاسدة بدعوى المجاز أو حذف مضاف.
- عدم ترك الأساتذة وشأنهم في اختيار التآليف.
- عدم الوقوف عند التآليف المعتمدة، بل لا بد من اختيار تآليف أخرى أكثر فائدة.
- إنشاء تآليف جديدة ملائمة لحاجاتنا ووفق أسلوبنا[95].

التقييم: من المهم وضع الأطر القانونية المحددة لمكونات الاختبار، ولكن ذلك لا يكفي إذا لم توضع إجراءات تنظيمية توضّح كيفية تطبيقها وتعقبها بالتوجيه والمراقبة لضمان حسن تنفيذها. كما ينبغي أن يكون لدى القائمين على الاختبار الشعور بالمسؤولية والغيرة على الرتب العلمية من أن تسند لغير مستحقها، لأن التساهل والتقصير في إعطاء الشهادات تغرير بالناس في حال صاحبها، وتغرير بصاحبها في نفسه، وإساءة للعلم وللمؤسسة.

ويقترح ابن عاشور أن:

* يعطى للتلميذ الوقت الكافي لإنجاز درسه.

* يعدّ التلميذ درسه بمفرده حتى يتمَّ تحديد مستواه ومدى أهليته للشهادة المترشّح لها، وأن لا يعان من قبل أساتذته وأقرانه كما هو واقع الحال.

* ضرورة التركيز على التطبيق والتمرين منطلقا للإصلاح، لأن التقييم كشف عن ضعف قدرة التلاميذ على التطبيق، فعندما تطرح عليهم مسألة لا يستطيعون حلها، والحال أنه عندما يُسْأَلُونَ عن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القاعدة النظرية يستحضرونها. لذلك لابد من **اعتماد وضعيات** أثناء التعلم حتى يستطيع التلاميذ حل ما يعترضهم من وضعيات في الاختبار وفي الحياة، لأنه سيصبح بهذه الطريقة قادرا على توظيف معارفه لا استحضارها فقط[96].

د- إحكام النظام: إن تنظيم العمل أساس نجاحه، ولذلك فإن تحقيق التعليم لأهدافه متوقف في نظر ابن عاشور على الالتزام بمقتضيات النظام التي تتمثل في:

الضبط: لا سبيل إلى تحقيق النظام إلا بوضع القوانين، ولئن وضعت الدولة التونسية القوانين المنظمة للتعليم في مختلف جوانبه، إما في إطار تصور متكامل للتعليم، وإما في إطار تتبع مشاكل حادثة، فإن الحال انتهى إلى ما يشبه الفوضى. حيث يتحمس الناس في البداية، ثم سرعان ما يسري الإهمال في كل إطار تنظيمي يقع إحداثه. مما يبيّن أن المشكل ليس في غياب الأطر التنظيمية، ولكن في الالتزام بمقتضياتها، ولعل ذلك يعبّر عن الحالة الحضارية التي تمر بها الأمة وهي مرحلة الأفول والسير في المنحدر السريع الذي تهوي فيه.

ولذلك يحاول ابن عاشور تنبيه المدرسين – الذين يعتبرهم السبب الرئيس في تردي التعليم – إلى أن ضبط أوقات التعليم هو المبدأ العظيم لكل نظام يراد إجراؤه في توزيع التلاميذ، ومراقبة حضور المدرسين، وتوقيت مقادير الدروس، لما في كل ذلك من تدريب على تقدير الوقت وإعطائه قيمة في الحياة. كما يحذر ابن عاشور الأساتذة الذين لا يحفلون بالنظام ولا يلتزمون بالوقت، ويمارسون ضروبا من الفوضى، بأنهم –بتلك الممارسات– يحطّون من قدرهم، ويقلّلون من قيمة المعرفة، ومن عدد طالبي العلم، ومن تنمية الشعور بالمسؤولية[97]. لذلك لابد من وضع إطار تنظيمي قابل للإنجاز، وتكليف ذوي الهمة والعزم بحمل الناس عليه حتى إذا اعتادوه أصبح لهم سجية وطبعا.

مراقبة التعليم: لما كان "التعليم عند علماء العمران عبارة عن البحث في مستقبل الأمة وتكوينها"[98]، فإنه من الواجب تكليف عقلاء القوم وحكمائهم بترتيب كل ما يبلغ بالعلم والمتعلمين إلى الغاية المطلوبة. وينبغي أن يكون هؤلاء عارفين بحاجات الزمان وغايات العلوم، بعيدين عن متابعة السفاسف، مدركين لما أصاب مزاج التعليم من العلل وبأنواع أدويتها[99].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

والغريب أن رجال الدولة عبر التاريخ الإسلامي لم ينتبهوا إلى هذه الآلية المهمة، رغم وجود بوادر من بعضهم، مثل ما فعله المأمون مع كتاب الجاحظ في الإمامة وإعلان إعجابه بما ورد فيه. وما فعله علي ابن أبي طالب عندما حرص على تكليف المدرسين المؤهّلين ومنعه من لم يره أهلا من التكلم في العلم[100]. ومثل سحنون الذي عزل شيوخ الصفرية والأباضية عن تعليم الصبيان لأنهم يعلمونهم عقائد تخالف السنة وتحط من قيمة الفكر[101].

ويرجع تاريخ ظهور المراقبة بالمعنى التام للكلمة إلى أوروبا أثناء نهضتها، لأن المحاولات التي رأيناها في تاريخ الفكر التربوي الإسلامي كانت جزئية. ولم تشذ تونس عن ذلك، فقد بدأت الفكرة فيها جزئية مع الترتيب الذي سنّه أحمد باشا سنة 1258هـ – 1842م وبمقتضاه يقوم شيخا الإسلام المالكي والحنفي والقاضيين المالكي والحنفي بمراقبة حضور المدرسين، وحفظ المكتبة، والمحاسبة على مالية التعليم، وانتداب المدرسين. وقد أظهر ذلك الترتيب أثرا محمودا على انتظام الدروس وكفاءة المتخرجين، غير أن التقاعس والإهمال في العمل بمقتضياته حمل محمد الصادق باي على إصدار منشور سنة 1287هـ – 1870م يقتضي تعيين متفقدين يراقبون أحوال التدريس ويعدون في ذلك تقريرا شهريا. ثم أصدر محمد الصادق باي سنة 1292هـ – 1875م منشورا آخر فيه مزيد ضبط وإحكام للمراقبة من خلال وثائق رسمية ودفاتر تحفظ كل المعطيات المتعلّقة بسير العملية التربوية، والمصادقة على التآليف التي يسوغ طبعها أو تدريسها. وقد باشر محمد العزيز بوعتور استماع الدروس ومراقبة مقدار العلوم وإجراء الترتيب، ثم عاد التهاون من جديد فاقتصرت المراقبة على تسجيل الحضور والغياب.

وبناء على ما تقدم فإن وضع إطار يشرف على مراقبة التعليم، ويحدد وجهته، ويقيّم مدى سيره في الاتجاه المرسوم مسألة في غاية الأهمية، وهو ما انتبهت إليه الحكومة بعد الاستقلال، ولكنها حصرته في التعليم الابتدائي والثانوي، وظل التعليم العالي بعيدا عن هذه الآلية المهمة، وآثار ذلك بادية للعيان ولكن يبدو أنها لم تصل الدرجة التي تحرك الرأي العام، وإن كانت آتية لا محالة.

تعميم التعليم وإلزاميته: لما كانت المشكلة كامنة في المدرس، وكان المدرس ابن المجتمع، فإن المشكل الحقيقي يكمن في الإنسان الذي يمر بمرحلة الأفول الحضاري. ولعل المدخل المناسب للنهوض

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

به هو التعليم. لذلك يرى ابن عاشور أن من حق الدولة أن تلزم الناس بالتعليم ماداموا في طور الطفولة، لأن الطفولة كما تكون في الأفراد تكون في الأمم. ولئن كان إسقاط المجبى والإعفاء من الخدمة العسكرية على المتعلمين اقتضى المبادرة إلى التعليم، فإن ذلك لم يكن كافيا، لأن التعليم أصبح صوريا هدفه فقط التهرب من الواجبين السابقين. لذلك لابد من تعميم التعليم وجعله إلزاميا في الابتدائي ومرحلة من الثانوي[102]. حتى يكون هو الحد الذي يستوي فيه الكل لأنه الرافع للأمية والمحقق للنمو الاجتماعي، ولأن إصلاح الأمة لا يحصل ما لم يشمل كافة الناس بما يسوّي بينهم في الأخلاق والعادات[103].

ولم يكتف ابن عاشور بمن هم في سن التعليم، فاهتم أيضا بمن فاتهم التعلّم باعتبار ذلك من مقتضيات التعميم والإلزامية. فرأى أن يمكّنوا من تعلّم القراءة والكتابة ونحوها مما يحتاجون إليه في الحياة الاجتماعية، ولئن كان هذا غير إجباري، فإنه ينتهي بتمكينهم من شهادة تميّز المقبلين على التعليم عمن سواهم.

أدرك ابن عاشور أن الحالة التي انتهت إليها الأمة لا خلاص منها إلا بالتعليم، لذلك وضع مشروعه الإصلاحي الذي يتميّز بـ

* الانفتاح والتواصل مع الآخر بعيدا عن وهم الاستعلاء والاستئثار بالحقائق واحتكار الفضائل بناء على أنّ الحضارة العربية الإسلامية نفسها تشكّلت وازدهرت على أساس الانفتاح. لذلك لا سبيل لبناء المشروع الوطني بمعزل عما انتهت إليه الحضارة الإنسانية في مختلف مجالات الحياة وخاصة التعليم الذي تطور في نظامه ومضامينه، وطرائقه ووسائله. ولا سبيل إلى التقوقع على الذات والرضا بما هو كائن والجمود على ما انتهى إليه المتقدمون. وينبغي أن يكون الموجه في التعامل معهم هو قوله تعالى (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[104].

* إعادة الاعتبار للقيم الإسلامية وذلك لاقتناعه بأنّ أزمة المسلمين ذات أصل قيمي، فلا أمل في التقدم من دون غرس قيم العدل والمساواة والأخوة والشجاعة والإقدام والبذل والعطاء. ويكون بذلك قد أسهم في تأصيل القيم الإنسانية الكبرى، على أساس نموذج معرفي غير تقليدي، يسهم في تحقيق التقدم الشامل في إطار مشروع وطني يمس مختلف مجالات الحياة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

* الجرأة في تقديم أفكاره مما أثار بعض معاصريه من المحافظين، ولئن اضطره ذلك إلى الاستقالة، فإنه ما لبث أن استأنف نشاطه، وأدخل إصلاحات كثيرة في نظام التعليم الزيتوني، فارتفع عدد الطلاب، وزاد عدد المعاهد التعليمية. أصبحت أفكاره نبراسا لمن جاء بعده من العلماء والساسة، فله السبق في تأسيس مجموعة من المفاهيم كالإلزام بالتعليم، وتطويره، وتوسيع دائرته ليشمل المرأة والكبار ممن فاتهم سن التعلّم.

ولكن إلى أي مدى استوعب مشروع ابن عاشور كل مكونات العملية التربوية؟ وهل أن ما قدّمه كان كفيلا بتحقيق نقلة في المنظومة التربوية في ذلك الزمان؟ وهل حقق هذا المشروع ما كان يصبو إليه صاحبه؟ بم نفسّر انبعاث الفكر التقليدي بعد أحداث 14 جانفي 2011 وعودة أصحابه إلى اعتماد طرق فاقدة الصلاحية لبث معارف غير صالحة لهذا الزمن؟ لم يستند مجهود ابن عاشور إلى رؤية إصلاحية عميقة تبحث في الوظائف التي يمكن أن يضطلع بها التعليم الزيتوني زمن الحداثة، كما لم يستند إلى سياسة تربوية وطنية تسندها إرادة حقيقية من الدولة، كل ذلك حكم على جهوده بالفشل.

المصادر والمراجع:

- ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله 713- 776هـ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية. تحقيق محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية، القاهرة. 1347هـ
- ابن العربي، العواصم من القواسم. تحقيق عمار الطالبي. مكتبة دار التراث، القاهرة، 1997م.
- ابن عاشور، أليس الصبح بقريب. دار سحنون – تونس، ودار السلام – مصر. الطبعة الأولى 1427هـ – 2006م.
- ابن عذاري، البيان المغرب. تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروقنسال. دار الثقافة بيروت، لبنان. الطبعة الثانية 1400هـ – 1980م.
- أبو داود، السنن. تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل بللي. دار الرسالة العالمية، دمشق. 1430هـ – 2009م.
- الدباغ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت 696هـ، معالم الإيمان. تحقيق إبراهيم شبوح. مكتبة الخانجي، مصر 1968م.
- الطرنباطي محمد بن مسعود الفاسي 1214هـ، بلوغ أقصى المرام في شرع العلم وما يتعلّق به من الأحكام. تحقيق عبد الله رمضاني. مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث. الرباط، المغرب. الطبعة الأولى 1429هـ– 2008م.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- العبدري محمد البلنسي ت 720هـ، الرحلة المغربية. منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر 1428هـ – 2007م.
- الغابري عبد الباسط، صوت الطالب الزيتوني. مركز النشر الجامعي 2011.
- الفاضل ابن عاشور، تقرير حول التعليم الزيتوني، نشر في المجلة الصادقية عدد 19، جوان 2000
- القابسي أبو الحسن علي ت 403هـ، الرسالة المفصلة أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين. تحقيق أحمد خالد. الشركة التونسية للتوزيع. الطبعة الأولى 1986م.
- القاضي عياض بن موسى اليحصبي ت 544هـ ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة الأولى 1418هـ – 1998م.
- محمد بن سحنون ت 256هـ، آداب المعلمين. تحقيق حسن حسني عبد الوهاب. الشركة التونسية لفنون الرسم 1392هـ – 1992م.
- المعموري محمد الطاهر، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي. الدار العربية للكتاب 1980م.
- المواق أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدري الغرناطي، المالكي ت 897هـ، التاج والإكليل لمختصر خليل. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى 1416هـ– 1994م.

الهوامش:

[1]– محمد الطاهر ابن عاشور، ولد بتونس سنة 1296هـ/1879م، وتوفي بها سنة 1379هـ/1972م. من العلماء المحققين والباحثين المدققين، له تفسير "التحرير والتنوير" و"مقاصد الشريعة الإسلامية" و"الواضح في مشكلات شعر المتنبي" وغيرها.

[2]– ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 13.

[3]– نفسه، ص 12.

[4]– نفسه، ص 9، 10، 11.

[5]– العلق / 1 إلى 5.

[6]– إشارة إلى قوله ﷺ "ما اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوت اللّه يتلونَ كتابَ اللّه ويتدارسُونه بينهم، إلا نزلت عليهم السَّكِينة وغَشِيَتهُم الرَّحمَةُ، وحفَّتهم الملائكةُ، وذَكَرهُمُ اللّهُ فيمَن عندَه" أبو داود، السنن، أبواب فضائل القرآن، باب في ثواب قراءة القرآن، ج 2 ص 585.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[7]– ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 41.

[8]– ابن العربي، العواصم من القواسم ص 369 وما بعدها. ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 16.

[9]– ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 11.

[10] – نفسه، ص 7.

[11]– ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 83. أصدر الباي مجموعة من المناشير المنضمة للتعليم خلال السنوات التالية: 1842 – 1875 – 1876.

[12]– استدل ابن عاشور بسيمون (حكيم وسياسي فرنسي 1814 – 1896) أليس الصبح بقريب ص 216.

[13] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 157، 216.

[14] – نفسه، ص 101.

[15] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 114، 115، 136.

[16] – نفسه، ص 115.

[17] – نفسه، ص 116.

[18] – نفسه، ص 116، 117، 210، 211.

[19] – الغابري عبد الباسط، صوت الطالب الزيتوني. مركز النشر الجامعي 2011. ص 83.

[20] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 159.

[21] – نفسه، ص 200.

[22] – نفسه، ص 82، 98.

[23] – نفسه، ص 114.

[24] – نفسه، ص 95، 96.

[25] – نفسه، ص 156.

[26] – نفسه، ص 158.

[27] – نفسه، ص 110، 111.

[28] – نفسه، ص 152، 153.

[29] – نفسه، ص 157.

[30] – الفاضل ابن عاشور، تقرير حول التعليم الزيتوني، نشر في المجلة الصادقية عدد 19 ، جوان 2000 ص 14.

[31] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 117.

[32] – نفسه، ص 159.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[33] – نفسه، ص 117.

[34] – نفسه، ص 118.

[35] – نفسه، ص 137، 200.

[36] – نفسه، ص 108.

[37] – نفسه، ص 113.

[38] – محمد بن سحنون، آداب المعلمين ص 97. القابسي، أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين ص 135، 136.

[39] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 113.

[40] – نفسه، ص 108.

[41] – نفسه.

[42] – نفسه، ص 59، 102.

[43] – نفسه، ص 135.

[44] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 43.

[45] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 201.

[46] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 99.

[47] – البقرة / 114.

[48] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 107.

[49] – نفسه، ص 76.

[50] – نفسه، ص 115.

[51] – نفسه، ص 203.

[52] – نفسه، ص 145 وما بعدها.

[53] – نفسه، ص 47، 48.

[9] – نفسه، ص 209.

[10] – نفسه، ص 206.

[11] – نفسه، ص 207، 208.

[54] – نفسه، ص 9.

[55] – نفسه، ص 97.

[56] – نفسه، ص 12.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[57] – نفسه، ص 7.

[58] – نفسه، ص 101.

[59] – نفسه، ص 125.

[60] – نفسه، ص 123.

[61] – نفسه، ص 124 وما بعدها.

[62] – نفسه، ص 7، 89، 90.

[63] – نفسه، ص 199.

[64] – القاضي عياض ت 544هـ ، ترتيب المدارك ج 1 ص 59. ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 47.

[65] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 201.

[66] – نفسه، ص 198.

[67] – نفسه، ص 139.

[68] – نفسه، ص 203.

[69] – نفسه، ص 9.

[70] – نفسه، ص 194.

[71] – نفسه، ص 112.

[72] – نفسه، ص 210.

[73] – نفسه، ص 114.

[74] – نفسه، ص 139.

[75] – نفسه، ص 110، 111، 152، 153.

[76] – نفسه، ص 118.

[77] – نفسه، ص 49.

[78] – الدباغ الأنصاري ت 696 هـ، معالم الإيمان ج 1 ص 151. ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 66.

[79] – ابن عذاري، البيان المغرب ج 2 ص 240، 241. ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 67.

[80] – ابن الخطيب لسان الدين 713– 776هـ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ص 96.

[81] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 67، 68.

[82] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 51.

[83] – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 98.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

84 – محمد بن سحنون ت 256هـ، آداب المعلمين ص 114. المواق الغرناطي، ت 897هـ، التاج والإكليل لمختصر خليل ج 7 ص 619. القابسي ت 403هـ، أحوال المتعلمين ص 145. ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 44.

85 – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 64.

86 – العبدري محمد البلنسي ت 720هـ، الرحلة المغربية ص 70. منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر 1428هـ – 2007م.

87 – المعموري محمد الطاهر، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ص 49. والغريب أنه نقل في موضع آخر عن التنبكتي أن تأسيس المدارس مفسد للتعليم لارتباطه بوسائل مادية من سكنى وطعام ومنح. نفس المصدر ص 23.

88 – الطرنباطي الفاسي 1214هـ، بلوغ أقصى المرام في شرع العلم وما يتعلّق به من الأحكام ص 401.

89 – ابن عاشور، أليس الصبح بقريب ص 88.

90 – نفسه، ص 45، 46.

91 – نفسه، ص 69.

92 – نفسه، ص 136.

93 – نفسه، ص 194.

94 – نفسه، ص 148.

95 – نفسه، ص 149، 150.

96 – نفسه، ص 210.

97 – نفسه، ص 106.

98 – نفسه، ص 101.

99 – نفسه، ص 101.

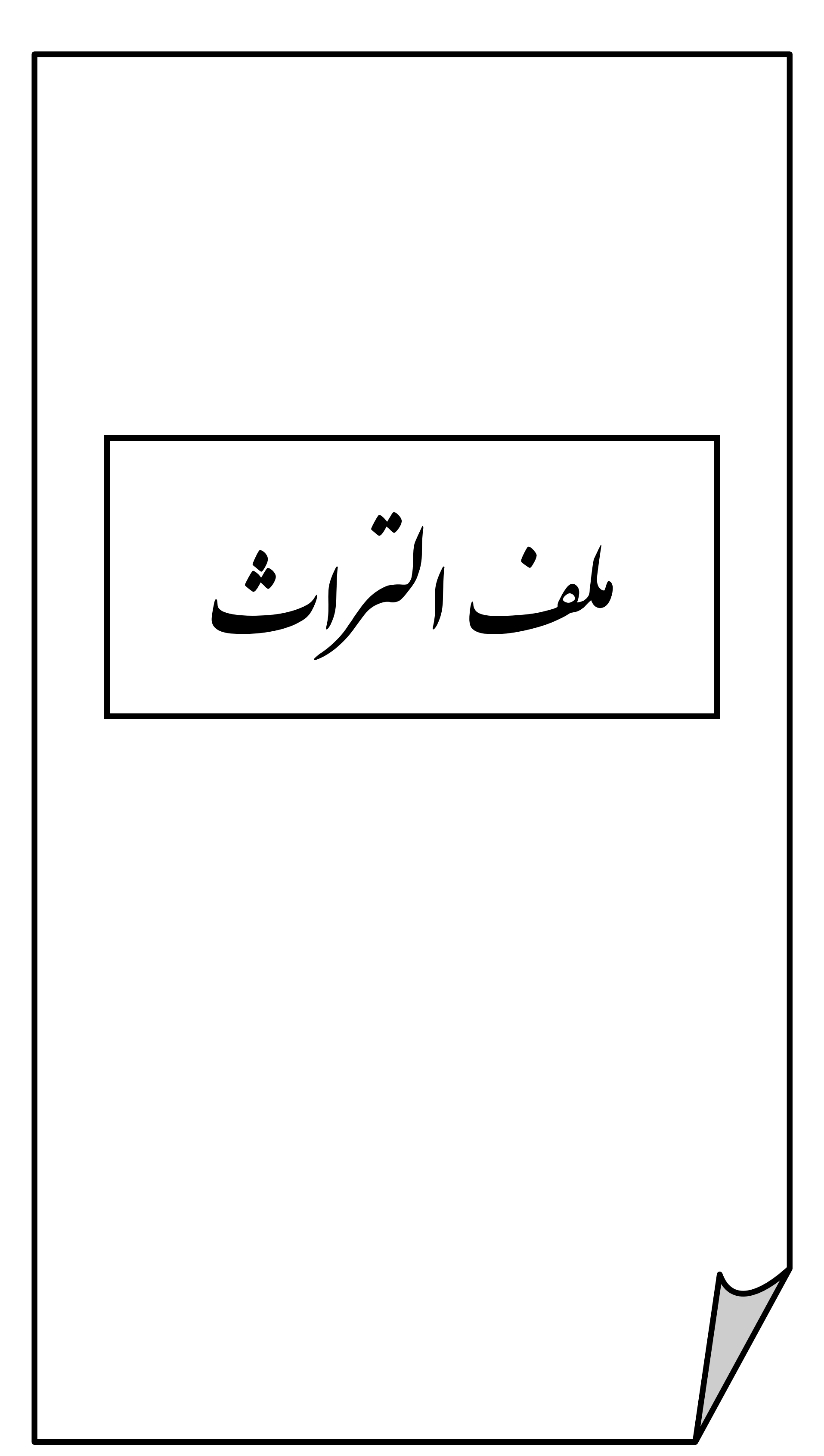
100 – نفسه، ص .102

101 – نفسه، ص 59.

102 – نفسه، ص 11.

103 – نفسه، ص 105.

104 – البقرة / 134.


ملف التراث

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ملاحظات حول تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين

أ.د. حاجيات عبد الحميد
جامعة تلمسان

تاريخ الاستلام: 2016/10/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

يعتبر القرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد، مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب الإسلامي عامة، و تاريخ الجزائر خاصة، سواء في المجال السياسي أو في المجال الحضاري. و قد عرفت بلاد الجزائر تطورا هاما في المجال الفكري خلال هذه الفترة يتجلى بصفة خاصة في الدينية. و من أهم عوامل هذا التطور ، ظهور دعوة المهدي ابن تومرت، و نشأت دولة الموحدين على أسس اعتقادية و سياسية و تشريعية و أخلاقية، مما أدى إلى تحولات عميقة في سائر هذه المجالات. و في المجال السياسي ، يمكن القول بأن المغرب الأوسط أصبح لأول مرة في تاريخه ، أيام المرابطين، منطقة موحدة ، حيث أنه صار يشكل ولاية ، مقر ولايتها تلمسان ، وعلى رأسها أحد أمراء المرابطين ، مما وضع حدا للصراعات التي كانت قائمة بين القبائل المتواجدة فيها ، وأبعد عنها أطماع بني زيري و بني حماد .وبذلك عم الأمن بلاد المغرب الأوسط و انتشرت فيها الرخاء ، وخطت خطوات بعيدة نحو الازدهار العمراني . وفي أوائل القرن السادس الهجري، الثاني عشر للميلاد، ظهرت دعوى المهدي ابن تومرت المناهضة للمرابطين ، والمستمدة أصولها من أراء المعتزلة حول صفات الله تعالى المتمثلة على الخصوص في نظرية التوحيد ، وإنكار كل ما يشعر فكرة التجسيم.

الكلمات الدالة:

الحياة الفكرية ، الجزائر، المغرب الأوسط، الموحدون، تلمسان.

العنوان بالإنجليزية:

Notes on the evolution of intellectual life in Algeria during the Almowahidin

.Abstract:

The sixth century AH 12th century, a crucial stage in the history of the Islamic Maghreb in general, and the history of Algeria in particular, both in the political sphere or in the field of civilization. The country of Algeria has developed a significant development in the intellectual field during this period, which is particularly evident in the religious. One of the most important factors of this

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

development, the emergence of the call of the Mahdi Ibn Tomart, and the state of the Almohads arose on the basis of belief, political, legislative and moral, which led to profound changes in all these areas. In the political sphere, it can be said that for the first time in its history, the Middle Morocco was the time of the Almoravids, a unified region. It became a mandate, the seat of which was Tlemcen, headed by one of the Almoravid princes, which put an end to the conflicts that existed between the tribes, And the ambitions of Beni Ziri and Beni Hammad were removed from it. In the beginning of the sixth century AH, the twelfth century AH, the case of the Mahdi Ibn Tomrat anti-Almrabtin, derived from the origins of the views of the Mu'tazila on the attributes of God, especially in the theory of monotheism, and the denial of everything that feels the idea of embodiment.

Key words:

Intellectual life, Algeria, Middle Morocc, Almowahidoune, Tlemcen.

يعتبر القرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد، مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب الإسلامي عامة، و تاريخ الجزائر خاصة، سواء في المجال السياسي أو في المجال الحضاري. و قد عرفت بلاد الجزائر تطورا هاما في المجال الفكري خلال هذه الفترة يتجلى بصفة خاصة في الدينية. و من أهم عوامل هذا التطور ، ظهور دعوة المهدي ابن تومرت، و نشأت دولة الموحدين على أسس اعتقادية و سياسية و تشريعية و أخلاقية، مما أدى إلى تحولات عميقة في سائر هذه المجالات (1) .

التحولات الفكرية في عهد الموحدين:

و يلاحظ أن بوادر هذه التحولات ظهرت منذ قيام دولة المرابطين، و توسعا في اتجاه سائر أنحاء المغرب الأوسط . و ذلك أن هذه الدولة نشأت على أساس الإصلاح الديني و التمسك بعقيدة أهل السنة و الفقه المالكي، فحاربت البدع، و لا سيما بدع قبيلة برغواطة في ناحية تامسنا ، غربي المغرب الأقصى. و في عهد المرابطين عم المذهب المالكي سائر أنحاء الدولة ، و كثر الاهتمام بالعلوم الدينية ، و بخاصة الفقه ، لحاجة الناس إلى معرفة مختلف المسائل الدينية من عبادات و معاملات ، و لحاجة الحكام إلى إصدار الأحكام الشرعية لمختلف القضايا. و مما ساعد أيضا على تنظيم العلاقات بين مختلف أقطار المغرب الإسلامي آنذاك، ازدهار الحركة التجارية فيها ، و خصوصا التجارة مع بلاد السودان، جنوب

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الصحراء. فكان ذلك ، بالإضافة الى انتصار المذهب المالكي على غيره من المذاهب ، اثر فعال في تغلغل الإسلام في مختلف أنحاء الدولة ، و انتشار اللغة العربية في المدن و المراكز التجارية.

و في المجال السياسي ، يمكن القول بأن المغرب الأوسط أصبح لأول مرة في تاريخه ، أيام المرابطين، منطقة موحدة ، حيث أنه صار يشكل ولاية ، مقر ولايتها تلمسان ، وعلى رأسها أحد أمراء المرابطين ، مما وضع حدا للصراعات التي كانت قائمة بين القبائل المتواجدة فيها ، وأبعد عنها أطماع بني زيري و بني حماد .وبذلك عم الأمن بلاد المغرب الأوسط و انتشرت فيها الرخاء ، وخطت خطوات بعيدة نحو الازدهار العمراني .ويمثل ذلك بصفة خاصة في تأسيس مدينة تلمسان الجديدة (تاجرارت) ، وتشييد مسجدها الأعظم ، ومسجد مدينة الجزائر . غير أن دعوى المرابطين الإصلاحية ، سرعان ما فقدت طابعها التجديدي ، حيث إن علماءها و فقهاءها لم يتفتحو على مختلف النظريات و التيارات الفكرية ، التي ظهرت في المشرق الإسلامي ، ولا سيما أراء الأشاعرة ، بل تقيدوا بآراء أهل الحديث ، الآخذة بالنصوص دون الرأي ، و أبطلو نظريات المعتزلة و الأشاعرة ، و منعوا العامة من الاشتغال بعلم الكلام ، مما أدى إلى اتجاه الدولة نحو الجمود و التقليد في المجال الفكري و الديني [2] .

المهدي إبن تومرت و تأسيس دولة الموحدين :

وفي أوائل القرن السادس الهجري، الثاني عشر للميلاد، ظهرت دعوى المهدي ابن تومرت المناهضة للمرابطين ، والمستمدة أصولها من أراء المعتزلة حول صفات الله تعالى المتمثلة على الخصوص في نظرية التوحيد ، وإنكار كل ما يشعر فكرة التجسيم.[3] واعتمد إبن تومرت في ما يخص الجانب التشريعي، على ظاهر نصوص القرآن الكريم و الحديث ، آخذا في هذا المجال المذهب الظاهري ، متهما فقهاء المذهب المالكي بالانقطاع لدراسة كتب الفروع ، و إهمال النظر في القرآن و الحديث لاستخراج الأحكام الشرعية . [4]

وفي المجال السياسي، أخذ ابن تومرت نظرية المهدوية عن الشيعة الإسماعلية ، وادعى العصمة [5] فحظي بتأييد جماعة من الأتباع ، و من أوائلهم عبد المؤمن بن علي الكومي ، و عبد الواحد الشرقي ، و البشير الونشريسي ، و بعض الأنصار من قبائل المصامدة .فحارب بهم قبائل السوس الأقصى التي امتنعت من الانضمام إلى دعوته ، و انتصر عليها . و بعد وفاة ابن تومرت سنة 524 هـ، واصل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الموحدون حركتهم بقيادة عبد المؤمن بن علي في المغربين الأوسط و الأقصى، إلى أن انتصروا على المرابطين، وتم تأسيس الدولة الموحدية باستيلائهم على مراكش في شوال سنة 541 هـ ، و بعد تنظيم شؤون الدولة، ة تعزيز نفوذها، وجه عبد المؤمن جهوده نحو بلاد إفريقية و تم إلحاقها بدولة الموحدين بالاستيلاء على مدينة المهدية سنة 555 هـ ، و طرد الغزاة النورمان من بلاد إفريقية (6). و بذلك عظمت شهرة عبد المؤمن، و أصبحت الدولة الموحدية تحتل مكانة مرموقة بين الدول الإسلامية. و علي عبد المؤمن و خلفاؤه بالجهاد للدفاع عن أراضي المسلمين بالأندلس، مما شغلهم، إلى حد ما ، عن القيام بالإنجازات الحضارية في الجزائر، و التفرغ لها سواء في المجال المعماري أو الفكري.

أهم التحولات الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين:

و على كل فإن الدعوة الموحدية شكلت منطلقا لتجديد ثقافي هام، يتمثل أساسا في التفتح على نظريات المعتزلة و الأشاعرة في المجال الاعتقادي، و على علوم الحكمة من فلسفة و منطق و غير ذلك، مما أدى إلى انتقال الحياة الثقافية بالجزائر، و غيرها من أقطار المغرب الإسلامي، من مرحلة التقليد و النقل إلى مرحلة التفتح و الاجتهاد و الإبداع.و يلاحظ أن الإتجاه نحو هذا التجديد الفكري كان تدريجيا، حيث إن رجال السلطة لم يصدروا أوامر صارمة لتطبيق نظريات المهدي ابن تومرت في هذا المجال إلا خلال عهد يعقوب المنصور (580- 595 هـ)، لانشغالهم بقمع الثروات و بالجهاد في الأندلس، و اقتصار اهتمامهم بالقضايا الفكرية على اختيار القضاة و الكتاب من بين الفقهاء و الأدباء المؤيدين لدعوتهم، و مكافأة الشعراء الذين منحوهم، و استدعاء مشاهير العلماء إلى بلاطهم، و تشجيع الإقبال على دراسة تأليف الأشاعرة. و يمكن اعتبار ذيوع تأليف أبي حامد الغزالي و غيره من الأشاعرة و كتب الحكمة، في أقطار المغرب الإسلامي، خلال القرن السادس الهجري، من أهم عوامل التحول الفكري، الذي لم يفتأ يتزايد كثافة، و يتجلى ذلك في مختلف المجالات(7) .

ففيما يخص العلوم الدينية، التي حظيت بناية خاصة، يمكن القول بأن الإنتاج العلمي تأثر، عند بعض العلماء بالاتجاه الجديد، منذ أوائل القرن السادس الهجري، أي في أواخر عهد المرابطين، لاسيما في علم التفسير، الذي هو أقرب العلوم الدينية إلى نظريات المعتزلة و الأشاعرة الاعتقادية. وقد اشتهر في هذا المجال العالم المفسر أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي(ت.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

سنة 542هـ)، مؤلف كتاب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، و اعتمد فيه على المنهجية السنية الكلامية، التي تزعمها الأشاعرة في مجال تأويل متشابه القرآن، و تفهمه استنادا إلى الطريقة التفسيرية البلاغية، التي وضعها عبد القاهر الجرجاني. و يمتاز تفسير ابن عطية بطابعه النقدي، الرامي إلى دفه الشبه، و تخليص الحقائق، و تحرير ما هو محتاج إلى تحري[8]، مما يفسر شهرته و ذيوعه في بلاد المغرب الإسلامي أيام الموحدين.

أما علم الحديث، فإنه حظي بإقبال كبير من علماء هذه البلاد في عهد الموحدين، نظرا للاهتمام بالقرآن و الحديث، في استنباط الأحكام الشرعية، الذي دعا إليه ابن تومرت و خلفاؤه، كما عني أيضا كثير من العلماء بأصول الفقه، و اعتمدوا كثيرا على كتاب المستصفى لأبي حامد الغزالي، و بعلم الكلام، و اقتفوا فيه أثر كبار الأشاعرة، و بخاصة الجويني و أبي حامد الغزالي.

مشاهير أعلام الجزائر في عهد الموحدين :

و من مشاهير العلماء و رجال الدين، الذين ساهموا في تطور العلوم الدينية بالجزائر في عهد الموحدين:

1- أبو الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرحمان بن أبي قنون التلمساني (ت سنة 557هـ). كان فقيها و أصوليا، رحل إلى الأندلس، و أخذ عن أبي علي الصدفي و غيره، و جال في أقطار المغرب، وولى القضاء بمراكش ثم تلمسان. و من تأليفه كتاب المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى[9].

2- أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي الورجلاني (ت سنة 570هـ) هو من أشهر فقهاء الإباضية و علماءها. أصله من ورقلة ، نشأ بها ثم رحل إلى الأندلس، فأخذ عن أشهر علماءها، ثم تآليف عديدة، منها: تسير القرآن في سبعين جزء، وكتاب العدل و الإنصاف في أصول الفقه، و كتاب ترتيب مسند الربيع بن حبيب، في الحديث، و كتب أخرى في المنطق و الرياضيات و التاريخ[10]

3- أبو عبد الله محمد بن علي ابن الرمامة (ت . سنة 567هـ). نشأ في قلعة بني حماد، و أخذ بها الفقه و الحديث عن ابن النحوي. ثم رحل إلى بجاية و إلى الأندلس. ثم انتقل إلى فاس، حيث ولي القضاء سنة 536هـ و كان عاطفا على كتاب البسيط لأبي حامد الغزالي و من تأليفه تسهيل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المطلب في تحصيل المذهب، و كتاب التقصي من فوائد التقصي و كتاب التبيين في شرح التلقين، في الفقه[11]

4- أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (ت.بعد سنة 581 هـ). أصله من المسيلة و نشأ ببجاية، و صحب الشيخ أبا مدين شعيب الإشبيلي، و كان معجبا بكتب أبي حامد الغزالي. ولي القضاء ببجاية ثم تخلى عنه عندما استولى بنو غانية على بجاية: و بها توفي. و من تأليفه: التفكر قيما تشمل عليه و الآيات من مبادئ و الغايات، سلك فيه مسلك الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين، فسمي أبا حامد الصغير. و له كتاب التذكرة، في أصول الدين، و كتاب النبراس في الرد على مذكرة القياس[12].

5- عبد الحق الإشبيلي البجائي.(ت. سنة 582هـ).قدم من الأندلس إلى بجاية و استقر بها.و نبغ في الحديث و الفقه و الوعظ. و من تأليفه: الأحكام الكبرى، و الأحكام الصغرى، في الحديث، و هما أشهر كتبه. و كان عاكفا على اشتغال بالتعليم فتخرج على يده كثير من العلماء. و ذكر أبو العباس الغبريني أنه قد آخى الشيخ أبا مدين في بجاية "أقر له بالسبق في طريق الحق"[13].

6- الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الإشبيلي (ت. سنة 594هـ)، الولي الصالح المشهور ولد في قرية تدعى قطنيانة، قرب إشبيلية، و رحل إلى بلاد المغرب، فأخذ بفاس عن بعض العلماء و الصلحاء، مثل ابن حرزهم و أبي يعزى و غيرهما. ثم رحل إلى بلاد أفريقية، و استقر ببجاية مدة طويلة فدرس الحديث و التصوف و تخرج عليه كثير من الطلبة و المريدين. و من الكتب التي كان يدرّسها ببجاية: الرسالة القشيرية، فكان يتحدث أيضا عما جاء في بدايتها حول مشاهير رجال التصوف و منها أيضا كتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي و كتاب إحياء علوم الدين، للغزالي أيضا ، و يستفاد من هذا الخبر، و من خبر الصلة الوثيقة التي كانت تربطه بالعالمين الشهيرين عبد الحق الإشبيلي و أبي علي المسيلي، أن فكر الشيخ أبي مدين كان يتسم بالاعتدال و نبذ التطرف في الاعتقاد و الممارسات الدينية. و في سنة 594 هـ، استدعاه الخليفة الموحدي يعقوب منصور إلى مراكش فتوجه إليها، و لكنه مرض في طريقه، و توفي قرب تلمسان فدفن بقرية العُبّاد خارج المدينة. و لأبي مدين مكانة سامية في التصوف المغربي، يشهد على ذلك العديد من

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الطرق الصوفية التي تنتسب إليه. و له رسالة أنس الفريدة و نزهة المريد في الحكم، و ديوان شعر الزهد. (14)

7- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان التجيبي (ت. سنة 610هـ). أصله من أشبيلية محدث و واعظ، روى عن ابن بشكوال و أبي طاهر السّلفي و غيرهما، و قدم إلى بلاد المغرب، فحدّث بفاس، سنة 514 هـ، ثم بسبتة و تلمسان فاستقربها و بها توفي. ألف معجم شيوخه، و معجم شيوخ أبي طاهر السّلفي. و له أيضا كتاب المواعظ و الرقائق (15).

8- أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البجائي الأصولي(ت. سنة 612هـ). أصله من إشبيلية، و نشأ ببجاية. رحل إلى المشرق لطلب العلم، فأخذ عن كثير من مشاهير العلماء و نبغ في الفقه و في أصول الفقه، فاشتهر بالأصولي. ولي قضاء بجاية و مرسية و مراكش و توفي ببجاية. و له تقييد على كتاب المستصفى لأبي حامد الغرالي (16)

دور الموحدين في التطور الفكري بالجزائر:

و يستنتج مما سبق ذكره أن هذا التطور الفكري نحو التفتح غلى آراء الأشاعرة و مناهجهم في التحليل و التأويل قد بدأ قبيل تأسيس دولة الموحدين، و بخاصة في بجاية و غيرها من مدن أفريقية، و أنه استمر بمزيد من القوة في سائر انحاء المغرب الاسلامي، خلال عهد الموحدين، لما لقي عند هؤلاء من التأييد و التشجيع ، و لما اسفر عنه توحيد اقطار المغرب الاسلامي آنذاك من توثيق العلاقات الثقافية بين اهالي هذه الاقطار، و تزايد حركة هجرة الاندلسيين الى بلاد شمال افريقيا. و الجدير بالملاحظة ان ما قيل حول اضطهاد الموحدين لفقهاء المنهب المالكي، و الزامهم نبذ الاشتغال

بالفروع، لا يخلو من المبالغة. و قد تحدث عبد الواحد المراكشي، في هذا الشأن، فذكر أن يعقوب المنصور الموحدي هو الذي دعا الى الاخذ بالكتاب و السنة في الاحكام الشرعية، " و امر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلعم و القرآن الكريم، ففعل ذلك، فاحرق جملة منها من سائر البلاد، كمدونة سحنون و كتاب ابن يونس، و نوادر ابن ابي زيد و مختصره، و كتاب التهذيب للبرادعي، و واضحة ابن حبيب، و ما جانس هذه الكتب و نحا نحوها ". ثم يضيف قائلا: " لقد شهدت منها، و انا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال، فتوضع و يطلق فيها النار". و يقول

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ايضا : " و كان قصده في الجملة محو مذهب مالك و ازالته من المغرب مرة واحدة، و حمل الناس على الظاهر من القران و الحديث. و هذا المقصد بعينه كان مقصد ابيه و جده، الا انهما لم يظهراه و اظهره يعقوب هذا."[17]

و الظاهر أن يعقوب المنصور لم يوفق في تحقيق هذا الهدف، الذي كان يتطلب مثابرة في تطبيق الامر بإحراق كتب المذهب المالكي، و حمل الفقهاء على ابطاله، و مراقبة صارمة للعمل بمقتضاه، نظرا لرسوخ المنهب المالكي في اقطار المذهب الاسلامي و تمسك الناس به. و كان العبيديون و بنو زيري قد فشلوا قبل ذلك في تطبيق عملية محو المذهب المالكي، خلال القرن الرابع الهجري. ثم أن الخلفاء الموحدين لم يتفرغوا كليا لاضطهاد فقهاء المذهب المالكي، لا نشاغلهم بالجهاد و قمع الثورات، و كان اكبر انتصار للموحدين على النصارى بالأندلس في معركة الارك في عهد يعقوب المنصور. و لا شك ان هذا النصر لم يتحقق الا بفضل جهود كبرى و عمل دؤوب، مما يسمح بمواصلة عملية فرض المذهب الظاهري في كل انحاء المغرب الاسلامي. اضف الى ذلك ان مدة خلافة يعقوب المنصور لم تتجاوز ستة عشر عاما قضى معظمها في الجهاد[18]، و مواجهة ثورة بني غانية[19]. اما خلفاء يعقوب المنصور، فلم يتمكنوا من المضي في هذا الاتجاه لما لحقهم من هزائم و نكسات بالأندلس و إفريقية[20].

موقف الموحدين في التيار الصوفي :

و فيما يخص موقف الموحدين في التصوف و الصوفية، فيستبعد أن يكون موقفا عدائيا لما كان يمتاز به عبد المؤمن و خلفاؤه، إلى آخر القرن السادس الهجري، من علم و عدل و تقوى، و عطف على الفقراء و اعتناء بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، مما يتفق إلى حد ما مع اتجاه التيار الصوفي، و لما كان يتصف به كثيرا من الزهاد و الصلحاء من اعتدال في معتقداتهم. و الظاهر أن ما عرفه التيار الصوفي من ذيوع في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي، في عهد الموحدين، لم يكن ليقلق عبد المؤمن و خلفاؤه و لم يشكل قط خطرا على عرشهم، بل كان يمثل عنصرا هاما من العناصر الداعية إلى توحيد الجهود للدفاع عن أراضي المسلمين في سائر أقطار المغرب الإسلامي . و ذلك أن الحروب الصليبية التي اندلعت في آخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد، لم تفتأ تهدد كثيرا من البلاد الإسلامية شرقا و غرباء، خلال عهد الموحدين. فكان لخطر الغزو الصليبي، و ما مني به أهالي بلاد الشام و غيرها من الأضرار

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الجسيمة من جراء ذلك [21]، أثر قوي في حث المسلمين على توحيد صفوفهم و التصدي لمواجهة عدوان الغزاة. وكان من الضروري وضع حد للصراعات المذهبية، والفتن التي كانت تشغلهم عن مقاومة الأعداء، وتحول دون مواجهة هؤلاء بقوة و نجاعة .

ومن العلماء الذين عاصروا هذه الأحداث، وتفطنوا لضرورة التصدي للغزو الصليبي، أبو حامد الغزالي، الذي سخر السنوات الأخيرة من حياته لخدمة الاسلام و إنماء الشعور الديني، و ألف كتبا عديدة، مثل المنقذ من الضلال، و إحياء علوم الدين، و الاقتصاد في الاعتقاد، من أجل المساهمة في تحقيق هذا الهدف .ويمتاز فكر أبي حامد الغزالي بالدعوة إلى التزام الاعتدال ، ونبذ الغلو و التطرف في مجال الاعتقاد، و الحث على التآزر و التعاون و التعاطف ، وتعميق الشعور الديني في أداء الطاعات ، و التحلي بالتواضع و الإخلاص و العفاف و غير ذلك من القيم السامية ، و الجهاد في سبيل الدفاع عن الوطن .

و يبدو أن أبا حامد الغزالي كان يدرك جيدا ما كان التصوف يحمل في طياته من عناصر إيجابية في مجال الإصلاح و التجديد ، وما كان الإسلام بحاجة إليه لاسترجاع حيويته وقوته المادية و المعنوية . وقد أعلن في كتاب المنقذ من الضلال أن الصوفية يمثلون أقرب تيار فكري للوصول إلى الحقيقة ، وأنجع سبيل للفوز بسعادة الدنيا و الآخرة [22] .فكان لهذا الاتجاه ، الذي حظي بقبول واسع النطاق ،أثر ملحوظ في زرع بدور توحيد جهود المسلمين ،وتوجيهها نحو دفع خطر الغزاة الصليبيين، و التصدي لهجماتهم المتكررة ، بإرادة قوية وعزيمة وتصميم ، واعتبار ذلك من أبرز مظاهر الجهاد في سبيل الله ، ومن أنبل الأعمال و الطاعات .وفي هذا الصدد ، تجدر الإشارة إلى أهمية مساهمة المجاهدين من أتباع التيار الصوفي في الحروب التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين في بلاد الشام ومصر ، وضد النصارى في الأندلس على الخصوص .

موقف يعقوب المنصور من الشيخ أبي مدين:

غير أن ما ورد في كتاب التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلي، حول وفاة الشيخ أبي مدين قد يوهم بنوع من اضطهاد الموحدين للصوفية أيام يعقوب المنصور . وقد حكى ابن قنفذ القسنطيني قصة وفاة الشيخ أبي مدين الإشبيلي ،اعتمادا على كتاب التشوف ، فقال " ولما أشهر أمره، وشاع في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الآفاق ذكره، سعي به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، فأمر السلطان بطلوعه من بجاية إلى حضرته، وكتب إلى والي بجاية بالوصية عليه أن يحمل خير محمل. فأخذ الشيخ أبو مدين في السفر، وشق ذلك على كثير من أصحابه، و خافوا أن يكون وراء ذلك ما يغير النفوس، فقال لهم : شعيب رجل كبير ، لا قوة له للمشي ، ومنيته قدرت بغير هذا المكان ، و لا بد للوصول إلى موضع المنية ، فقيض الله لي من يحملني إلى مكان الدفن برفق ، و يستوقفني إلى مرام المقادير أحسن سوق ، و القوم لا أراهم و لا يروني .فطابت نفوسهم ...و ارتحل إلى أن وصل إلى تلمسان ، فلما رأى العباد، قال رفقائه : ما يقال لهذا المكان ؟فقيل له : مليح الرقاد ...وقال بعضهم أنه توفي بيسر ...وحمل إلى العباد فإتفقت هناك منيته ، وشرفت تلك البقعة بتربته " (23) .

ويلاحظ أن قصة وفاة الشيخ أبي مدين،كما رواها ابن الزيات التادلي، ونقلها عنه ابن قنفد القسنطيني، تحتاج إلى نقد وتحليل وتحقيق وتعليق .فبينما لا نرى مجالا للشك فيما يخص الأمر الذي وجهه يعقوب المنصور لوالي بجاية بحمل الشيخ أبي مدين "خير محمل " من بجاية إلى مراكش، لأن هذا الأمر قد تم تنفيذه فعلا، يبدو أن ما قيل حول تشكك أصحاب الشيخ في نية السلطان الموحدي، وتخوفهم عليه أن يصيبه شر، لم يكن إلا مجرد شك أبداه أصحاب الشيخ، الغالب على الظن أنه لم يكن له أساس من الصحة، وكذلك الشأن بالنسبة لوشاية بعض الناس حول ما لقيته دعوته من شهرة ببجاية، و خطرها على الدولة الموحدية .

فمما يدعو إلى التحفظ حول سبب الأمر بحمل الشيخ أبي مدين إلى مراكش، أن الخليفة الموحدي يعقوب منصور كان من أهل الورع و التقوى و العدل، و أنه كان ذا رأي وحزم ودين وسياسة، ويستبعد أن يظلم أهل الصلاح والزهد. فابن خلكان، مثلا، يصفه قائلا: " كان يعقوب المنصور ...مجربا للأمور ...قام بالأمر أحسن قيام ،ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين و الورع، و أقام الحدود حتى في أهله و عشيرته الأقربين (24). ويتفق ابن عذاري مع هذا الوصف ليعقوب المنصور ، فيقول عنه :" وكان شجاعا مقداما ، عظيم الصريمة على أعدائه ، لا تضيع عنده فضيلة أحد من رجاله، ولا يغيب عنه شيء من أحوال رعيته، ولا يجترئ أحد على مخادعته. وكان يحب الصالحين، ويدني مجالستهم ، ويستدنيهم من أقاصي طاعته "(25).ويفهم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من هذه الجملة الأخيرة أن يعقوب المنصور كان يولي الصالحين عناية خاصة، ويعقد المجالس لسماع وعظهم و إرشادهم، ودعائهم له بالمغفرة والرضوان و التأييد أنه كان يبعث للولاة بإرسالهم من أقاصي البلاد التي تحت طاعته، تبركا بهم ورغبة في دعائهم له بالتوفيق و النصر .

و يذكر عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب، و كان معاصرا ليعقوب المنصور، أن هذا الأخير تعرض في بداية عهده، إلى مناقشة بعض الأمراء من أقاربه على العرش، فأمر بقتل عميه عمر و أبي الربيع سليمان، ثم أظهر بعد ذلك زهدا و تقشفا و خشونة ملبس و مأكل، و انتشر في أيامه للصالحين و المتبتلين و أهل العلم الحديث صيت، و قامت لهم سوق و عظمت مكانتكم منه و من الناس. و لم يزل(يعقوب المنصور) يستدعي الصالحين من البلاد، و يكتب إليهم يسألهم الدعاء، و يصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة .... و لما خرج إلى الغزوة الثانية سنة اثنين و تسعين (و خمس مئة) .... كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين و المنتمين إلى الخير و حملهم إليه. فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار ، بين يديه فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء ، و يشير على العسكر." ثم يضيف عبد الواحد المراكشي قائلا: "و لما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف(يعقوب المنصور)من وجهه هذا، أمر لهؤلاء القوم (أي الصالحين) بأموال عظيمة، فقبل منهم من رأى القبول، ة لا نقص أولئك قبولهم"[(26)] فإذا اعتبرنا ما اتصف به يعقوب المنصور من تقى و ورع و زهد و تقشف و تقدير للصالحين و طلب لدعائهم بالنصر في جهاده و حروبه، اتضح جليا أن الغرض من حمل شيخ أبي مدين معززا و مكرما إلى مراكش، يرجع إلى رغبة الخليفة الموحدي في التبرك بالولي الصالح و نيل ر عاية الله و رضاه، و توفيقه في جهاده، و نصره عل العدو و يمكن القول بأن التيار الصوفي لم يضطهد في عهد الموحدين، بل حضي بعنايتهم، و انتشر خلال عهدهم في مختلف أقطار المغرب الإسلامي.

و خلاصة القول أننا نستنتج من هذا العرض الموجز للتطور الفكري بالجزائر، خلال القرن السادس الهجري ، الثاني عشر للميلاد، أن ميزه الأساسية هي الاتجاه نحو التوازن بين الشريعة الحقيقية بين الأدلة العقلية و النصوص الشرعية، بين الظاهر و الباطن، و ذلك يتجنب التطرف، و بالاعتدال في النظريات و لاسيما في المجال الاعتقادي و ان لابن تومرت و الخلفاء الموحدين دور ملحوظ في هذه

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التحولات الفكرية، مما ادى إلى نمو الثقافة العربية الإسلامية، التي تواصل نموها بعد ذلك، و عرفت أوج ازدهار خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر للميلاد، عصر أبي عبد الله الآبلي و تلميذه عبد الرحمن ابن خلدون.

الهوامش :

[1]– حول تاريخ الموحدين السياسي و الحضاري، انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة 1949 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، قسم الموحدين ، بيروت دار المغرب الإسلامي 1985، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين و الموحدين، في المغرب و الأندلس ، القسم2 القاهرة 1964 عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، القاهرة 1964 أحمد عزاوي ، رسائل موحدية 2 ج، 1995– 2001.

[2]–حول تاريخ المرابطين، أنظر: ابن عذاري ، المصدر السابق ج 4 بيروت ، 1967 أسباخ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين الموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، بيروت 1964 عبد الرحمان ابن خلدون ،كتاب العبر، ج 6 بيروت 1957.

[3]–أنظر: عبد الله علي علام ، المرجع السابق ، ص 143– 161.

[4]–يلاحظ أن هذا الرأي لم يدخل في حيز التطبيق إلا في عهد يعقوب المنصور الذي حاول فرض المذهب الظاهري في المغرب الإسلامي. أنظر محمد عبد الله عنان، المرجع السابق ، ص 239–241.

[5]–نفسه ص 215–196.

[6]–البيذق ، أخبار المهدي إبن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص 52–116، إبن عذاري، المصدر السابق ص 15–67.

[7]–عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج5، الأدب في المغرب ة الأندلس، عصر المرابطين و الموحدين ،ص 359–386 ؛ محمد المنوني، العلوم و الأدب و الفنون في عهد الموحدين تطوان 1950.

[8]–الشيخ محمد الفاضل ، بن عاشور، التفسير و رجاله ، ص 64–66.

[9]–عن أبي الحسن بن أبي قنون، أنظر: ابن الأبار ،التكملة ،ج2،ص 685–686؛ نفس المؤلف المعجم أصحاب القاضي أبي على الصدفي ، ص 288– 290؛ الحفناوي تعريف الخلف ج2 ص 258؛ يحي ابن خلدون بغية الرواد ،ج1 ص 100–101؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر ،ص270.

10–عن أبي يعقوب الورجلاني ، أنظر: عمر رضي كحالة، معجم المؤلفين ،ج13 ص 67 خير الدين الزركلي ، الأعلام ج9 ص 281 عادل نويهض المرجع السابق ص 341–342؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الملحق 1 ص 692.

[11]–أنظر: ابن الأبار، المرجع السابق رقم 1710.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[12]–الغبريني، عنوان الدراية ، تحقيق رابح بونار ، ص 66–72، أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج، على هامش الديباج لابن فرحون، ص 104.

[13]–الغبريني ، المصدر السابق ، ص 73 .ابن فرحون ،الديباج المذهب ، ص 75 ابن قنفذ ،أنس الفقير، ص 34–35.

[14]–إبن الزيات ، التشوف ، رقم 162، ص 316–325؛ إبن الأبار المصدر السابق ج2، رقم 2015 ص 715 ؛ المقري المصدر السابق ج2 ص 342–351؛ الغبريني، المصدر السابق ص 5–13؛ ابن قنفذ ،المصدر السابق ،ص 11–20 ؛ابن عبد الملك المراكشي ،الذيل و التكملة ج4 رقم 245 ص 127–130 ؛ أحمد بابا التنبكتي ، المصدر السابق ، ص 127–129؛ ابن مريم المصدر السابق ص 108–114؛ ابن القاضي، جدوة الاقتباس ص 332.

[15]–المقري ،المصدر السابق ، ج2 ص 360؛ الكتاني فهرس الفهارس ، ج1 ص 191 ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ، ج 5 ص 75 ؛ ابن القاضي ، المصدر السابق ص 171–172.

[16]–الغبريني ، المصدر السابق ص 184–187.

[17]–عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص 278–279.

[18]–محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ص 169–220.

[19]–نفسه، ص 140–168.

[20]–أنظر: نفس المرجع ص 249–368–496–580..

[21]–الحروب الصليبية في عهد الموحدين ، أنظر: عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق و الغرب في العصةر الوسطى ، بيروت ، 1966 ص31–200.

[22]–أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، تحقيق جميل صليبا و كامل عياد، بيروت ، دار الأندلس ، 1967 ص 32–37، 100–123.

[23]–ابن قنفذ القسنطيني ، المصدر السابق ص104.

[24]–الناصري السلاوي ، الاستقصاء ، ج2 ص 192–199.

[25]–ابن عذاري المراكشي المصدر السابق ص 170.

[26]–عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص 276–286 .حول عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ،ص 276–286. حول يعقوب المنصور الموحدي ،أنظر: رشيد مولين ، عصر المنصور الموحدي، الرباط، مطبعة المطبعة الشمال الإفريقي ،1946.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

شخصية سيدي محمد الهوراي في الكتابات الإستشراقية الفرنسية خلال الفترة الاستعمارية :رصد بيبليوغرافي *

أ.د. هلايلي حنيفي
جامعة سيدي بلعباس
البريد الإلكتروني:hanifi_andalous@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2017/02/15   **تاريخ القبول:** 2017/03/10

الملخص:

اهتمت المدونات الفرنسية منذ احتلال الجزائر سنة 1830 بالتراث العربي الإسلامي، فظهرت كتابات مبكرة في حقل التحقيق و التحقيب و الترجمة، أطرها مستعربون ومترجمون و خريجي مدرسة الآداب بالجزائر. من بين هذه الاهتمامات التأريخ للفكر الديني الصوفي الجزائري الذي ظهر على شكل أبحاث ميدانية و كتابات مونوغرافية .ترتكز هذه المداخلة على شخصية الصوفي العالم محمد الهواري الذي خصصت له الكتابات الفرنسية حيزا كبيرا من الاهتمام كرجل صوفي لعب أدوار بارزة في حاضرة المغرب الأوسط و هذا من خلال التعريف بشخصيته العرفانية الربانية و مناقبه و تآليفه الصوفية . نشرت معظم أعمال المستعربين حول سيدي محمد الهواري في المدونات الفرنسية كالمجلة الإفريقية و المجلة الأسيوية أو كتابات مستقلة .

تعتمد هذه الدراسة على المنهج البيبليوغرافي المونوغرافي لأهم الدراسات الفرنسية المنجزة حول شخصية سيدي محمد الهواري.

الكلمات الدالة:

المدونات الفرنسية – الجزائر– سيدي محمد الهواري– المستشرقون – الفرمانات العثمانية.

العنوان بالإنجليزية:

The character of the mystic Sidi Muhammad al - Houari in the French Orientalist writings During the colonial period bibliographic monitoring

Abstract:

Since the occupation of Algeria in 1830, the French blogosphere has been interested in the Arab-Islamic heritage. Early writings in the field of investigation,

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

investigation and translation have appeared in the framework of interrogators, translators and graduates of the School of Arts in Algeria. Among these concerns is the history of Algerian mystical religious thought, which appeared in the form of field research and monographic writings.

This intervention is based on the character of the mystic world Mohammed Al-Houari, to whom the French literature devoted a great deal of attention as a mystic man who played prominent roles in the central city of Morocco by introducing him to his character, mysticism, and Sufism. Most of the abusers' work has been published around Sidi Mohamed al-Hawari in French blogs such as the African and Asian magazines or independent writings. This study is based on the bibliographical bibliography of the most important French studies on the personality of Sidi Mohamed El Houari.

Key words:

French Blogs - Algeria - Sidi Mohamed El Houari – Orientalists.

اهتمت المدونات الفرنسية منذ احتلال الجزائر سنة 1830 بالتراث العربي الإسلامي، فظهرت كتابات مبكرة في حقل التحقيق و التحقيب و الترجمة، أطرها مستعربون ومترجمون و خريجي مدرسة الآداب بالجزائر. ومن بين هذه الاهتمامات التأريخ للفكر الديني الصوفي الجزائري الذي ظهر على شكل أبحاث ميدانية و كتابات مونوغرافية. [1]

لذلك تطمح هذه الدراسة إلى إثارة الموضوع من جديد و بمنهجية تتوخى فهم ظاهرة الأدعية الساخطة ، و تحاول تلمس مرجعيتها الفكرية و التاريخية بالعلاقة مع السياق التاريخي الذي أنتجها و هي فترة العصر الوسيط بالجزائر ثم تتبع صداها في المدونات الفرنسية مقارنة بالمصادر المحلية. و تجدر الإشارة هنا أن غياب نصوص و مصادر داعمة لمثل هذه القضايا الشائكة تجعلنا نبحث عن نواة بيبليوغرافية حول شخصية الصوفي العالم محمد الهواري الذي خصصت له الكتابات الإستشراقية الفرنسية حيزا كبيرا من الاهتمام كرجل صوفي لعب أدوار بارزة في حاضرة المغرب الأوسط و هذا من خلال التعريف بشخصيته العرفانية الربانية و مناقبه و تآليفه الصوفية . لقد نشرت معظم أعمال المستعربين حول سيدي محمد الهواري في المدونات الفرنسية كالمجلة الإفريقية و المجلة الأسيوية أو كتابات مستقلة. وعليه فإن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الدراسة تعتمد على المنهج البيبليوغرافي المونوغرافي لأهم الدراسات الفرنسية المنجزة حول شخصية الفقيه محمد الهواري.

أولا: ارتباط حادثة مقولة السخط و الوعد و الوعيد على حاضرة وهران بالشيخ محمد الهواري.

تنطلق هذه الدراسة أساسا على حادثة دعوة الهواري الساخطة على وهران، مما أدى حسب الاعتقاد السائد وقتذاك، إلى استيلاء النصارى الإسبان على المرسى الكبير(1505) ، و وهران(1509)[2]. فمن خلال ما ورد في الأدبيات التاريخية الجزائرية خلال الفترة العثمانية ظاهرة الدعاء على وهران و تسلط الاحتلال الإسباني عليها زهاء ثلاثة قرون. وبينت بعض المصادر هذه الحادثة كالرحلة القمرية لابن زرفة[3] و طلوع سعد السعود للمازاري بن عودة [4]و الثغر الجماني لابن سحنون الراشدي[5]، و دليل الحيران لمحمد بن يوسف الزياني[6].

لقد ذكر الزياني في دليل الحيران حول هذه الحادثة ما نصه: "و اعلم أن سبب تملك النصارى لوهران هو دعاء الشيخ الهواري عليها، و ذلك أن أهل وهران بغوا على ولده سيدي أحمد الهائج و قتلوه ظلما و عدوانا بالمحل المسمى به الآن، و هو الهائج، وواديه يقال له وادي الهائج، و ادعوا عليه أنه هائج عليهم بغير حق... فعند ذلك قال لهم الشيخ... لأي شيء قتلتم ولدي يا أهل وهران، لأنه ثمرة فؤادي و قرة عيني و بضعة مني، فقالوا له: لأنه ارتكب ذنبا و ثبت عليه و قتلته الشريعة. فقال لهم: من حكم بقتله من ساداتنا العلماء؟ فقالوا له : لا نحتاج في ذلك إلى حكم حاكم، و إنما رأينا الشريعة قتلته فقتلناه. فقال لهم : أنتم قتلتم بزعمكم أن الشريعة قتلت ولد الهواري، و أن الهواري لا يجوز ولده لعدم تحقيق دعواكم، و أن قولكم في الظاهر مقبول، ففي الباطن ولدي ناج و كلامكم محلول، فسلمها رضي الله عنه للنصارى، لأنه سلطان مصرها و متولي أمرها، و كان ممن الذين لو أقسموا على الله لبر الله قسمهم و نص دعائه:

روحي يا وهران الفاسقة.

يا كثرة الجور و البغي و الطارقة.

ياذات الأهل الباغية السارقة.

إني بعتك بيعة موافقة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لنصارى مالقة و جالقة

إلى يوم البعث و التالقة

مهما ترجعي فأنت طالقة.

فلما قال الشيخ ذلك، قال له بعض تلاميذته الحاضرين لدعوته: يا سيدي ، و الفرج لاحقه، فقال الشيخ: و الفرج لاحقه... ثم اعلم أن النصارى (الإسبان) لم يدخلوها بفور دعائه، و أنما دخلوها بعد وفاته باثنين و سبعين عاما لأنه توفي صبيحة السبت ثاني عشر ربيع الثاني سنة ثلاث و أربعين من القرن التاسع، في وقت الملك أحمد ابن أبي حمو موسى بن يوسف الزياني ووقت أخيه القائم عليه أبي يحيى بن أبي حمو موسى بن يوسف الزياني الذي اتخذ(وهران) دار ملكه و سكناه. (7)".

و الظاهر أن مثل هذه الأخبار ، التي يصعب تصديقها لما يرتب عنها من البدع الضالة و إلصاقها بالعلماء الصالحين، انتشرت بشكل رهيب في المجتمع المغاربي خلال الفترة العثمانية. و إذا تصفحنا كتاب المحن لوجدنا صور كثيرة عن امتحان العلماء في دينهم و أنفسهم و أهلهم و مالهم(8). وقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم: " أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة، إنما عذابها في الدنيا الفتن و البلايا فإذا صاروا إلى قبورهم تمحيصا لذنوبهم".(9)

لعل تعلق الناس بالشيخ الهواري و غيره من الأولياء الصالحين ، حيث أصبح التصوف ظاهرة وجدت طريقها نحو بلاد المغارب عن المثقفين في بداية الأمر، ثم انتقلت مع مطلع القرن 7هـ/13م إلى مختلف شرائح المجتمع ،فظهرت الجماعات الصوفية، و انتشرت عديد الزوايا ، فأصبح لكل زاوية شيخها و طريقتها و مريديها. ومن خلال العودة إلى كتاب " البستان" نجده يترجم لـ 7متصوفة خلال القرن 7هـ/12م، ثم لـ 18 متصوف إبان القرن 8هـ/14م، ليصل إلى عدد 44 متصوف مع مطلع القرن 9هـ/15م.(10). أولى الإشارات التي تحيلنا إلى الانتشار الواسع لظاهرة التصوف هي كثرة الاعتقادات و الكرامات عند الأولياء حيث جعلت الناس يبالغون في ظاهرة تقديس دور الأولياء فيما يقع في البلاد من الأحداث و إلصاق أدعيتهم بما جرى من العواقب و الزواجر.

ما يسترعي اهتمام الدارس لظاهرة الزوايا هو ارتباط ظهورها و ازدياد نشاطها بواقع حالة التوتر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و الحروب التي سادت علاقات الإسلام بالمسيحية سواء في المشرق أو المغرب. فالصلاح و الولاية سلوك إنساني لا يختص به مجتمع دون غيره أو ثقافة دون أخرى، و لكنه تصرف إنساني وجد في كل الديانات و الثقافات. شكلت الولاية و الصلاح للإنسان الشعبي الدرع الواقي و الحصانة السيكولوجية التي كان يستعين بها في مجابهته لقساوة الحياة اليومية. فالقصص و الخرافات و الحكايات الشعبية العجيبة التي كانت ترافق كرامات الأولياء و معجزاتهم اعتقاد سائد في عالم الرجل العامي.[(11)]

رفعت البابوية شعار" حاربوا الإسلام أينما كان" . و كان طرد المسلمين من الأندلس(1492) و ملاحقة المسيحيين لهم في المغرب من الأسباب المباشرة التي ساهمت في ظهور الزوايا بصفتها قوى سياسية و اجتماعية خلال القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر. و أطرت هذه المؤسسات المغاربة، ودافعت عن البلاد و أنقذت الجزائر من فقدان هويته. و على هذا أساس هذه الأدوار التي أدتها هذه المؤسسات قد نتساءل: ما الخصائص التي ميزت هذه الزوايا؟ و كيف تم لها ذلك، و في أية ظروف؟ لاشك أن هذا موضوع آخر، لكن ما يمكن أن نلاحظه على امتداد المرحلة الاستعمارية الفرنسية ، أن المستشرقين أحسنوا توظيف مثل هذه الشائعات و البرهنة عليها و إلصاقها بعلماء و فقهاء الجزائر في الفترة التي سبقت الاحتلال الأوروبي للثغور الجزائرية.

يستدعي الكلام عن الزوايا الوقوف عند المصطلحات المرتبطة بها: الرباط و الولاية و الكرامة.[(12)] و نلاحظ أن هذه المصطلحات تندرج ضمن حقلين في دلالة المقدس: فبعضها يحيل على المجال كالزاوية و الرباط، و المصطلحات الأخرى تحيل على التعبد و العبادة و تشترك المصطلحات كلها في كونها ترتبط بالإنسان. و الملاحظ أن الأزمات التي عرفتها الجزائر خلال القرن الخامس عشر و مطلع القرن السادس عشر كانت من العوامل الأساسية التي أدت إلى ارتباط الجزائريين و تشبثهم بمؤسسات المقدس: الزاوية و الرباط و الولاية.

و الغالب على الظن أن الأمية كانت متفشية و الثقافة محصورة في قلة قليلة في المغرب الأوسط. و كان الناس على اتصال مباشر بالطبيعة، مع العلم بأن أسرار كثيرة تغيب عنهم. و كانت الظروف التي يعيشها الجزائريون صعبة من جراء الأوبئة و الجفاف و المجاعات و الهجمات الأجنبية. ورأى الناس في هذه المحن عقابا من الله و تشبثوا بالزوايا و آمنوا بكرامات الأولياء ورأوا فيها بصيص الأمل.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و جاءت كرامات الأولياء معبرة عن مشاغل العصر: فهذا الشيخ الهواري......ولهذه الكرامة، على ماي ظهر، ارتباط .....الذي كان يعاني منه سكان وهران .. من خلال ما سبق، نلاحظ كيف تغيرت الولاية مفهوما و ممارسةً: فمن الولي الصالح التقي النقي المتفاني في عبادة الله استعدادا ليوم الميعاد، إلى الولي الذي أنتجته الأحداث التاريخية. لقد برز هذا الأخير لا كما سعت الكتابة الفقهية إلى تقديمه نظريا، بل برز إنسانا تاريخيا.

لقد وردت حادثة استرجاع وهران الأول(1708) فيما أورده الجامعي ، في شرح الحلفاوية قائلاً:" وقد بلغنا أن الله تعالى اعتنى بتبشيرها ، و جعل بعض أوليائه يريد بشيرها، فرأى بعض الناجين فيها، ليلة الفتح المذكورة. الشيخ سيدي محمد الهواري و هو يقول له: اصنع لي تابوتا يكون على قبري بوهران، و أنا الهواري فقال له: يا سيدي ، إلى أن تفتح، فقال له: قد فتحت هذه الليلة."[13] و لعله في هذه السياق يمكن وضع هذه الكرامات في ما رواه ابن مريم حول معرفة النبأ قبل حدوثه، و حادثة المرأة التي استغاثت به في شأن ولدها،[14] كما أوردت بعض المصادر مكاشفات الهواري، و اطلاعه على الغيب، و هذا ما رواه ابن صعد في روضة النسرين.[15] لقد ساد الاعتقاد في كرامات الهواري و هي من الأباطيل التي ألصقت بالشيخ الصوفي لا علاقة له بها.

ثانيا :حياة الهواري و آثاره العلمية.

يعد الولي الصالح سيدي محمد الهواري أحد أقطاب التصوف المغاربي و أحد الأولياء البارزين في وهران، و قد نوهت المصادر بفضله و علمه و أنه مستجاب الدعاء. كما وردت أخبار عن سيرته في كتاب(الثغر الجماني) و في كتاب (روضة النسرين)، بأنه ينتسب إلى قبيلة مغراوة في منطقة الشلف وأنه انتقل في طفولته إلى هوارة حيث بلاد بني شقران، والتي تدعى بقلعة بني راشد[16]. ولد الشيخ الهواري سنة (751-843هـ/1350-1439م)، تلقى تعاليم الشريعة في الكتاتيب، ثم أخذ طريق الصوفية حسب ما ورد في المصادر[17].و الجدير بالملاحظة أن هذه الأخبار التي وردت في مؤلف الراشدي منقولة، و شاعت في معظم الكتب التي روت عنه سيرة الهواري.

ومعلوم أن الشيخ طاف بالبلاد شرقا و غربا يطلب العلم الشرعي و يلقى المشايخ و الأولياء و يأخذ عنهم المتون و الإجازات، فتوجه إلى بجاية سنة 767هـ، و تتلمذ على عبد الرحمن الوغليسي البجائي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(ت سنة 786هـ) و على أحمد بن ادريس البجائي. ثم ارتحل إلى فاس، فأخذ عن موسى بن محمد بن معطي العبدوسي(ت سنة 796هـ)، وعن أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن القباب(المتوفى سنة 778هـ)، كانت له دراية واسعة في علوم الدين و العقيدة، و برع في التفسير و الحديث و التصوف و علوم القرآن. [18] للشيخ محمد الهواري جملة من التأليف في شكل أنظام بلسان العوام، منها: التنبيه و كتاب السهو و هو منظومة في الطهارة و الصلاة. أما منظوماته في التصوف و الأخلاق فهي: التسهيل و التبيان و تذكرة السائل. [19]

ثالثا : مقولة الهواري حول السخط و الوعيد على وهران و احتلالها في ضوء الكتابات الفرنسية.

من بين أكثر القضايا إثارة و جدلاً في تاريخ وهران و المدن الجزائرية عامة مسألة الأدعية الساخطة المستعملة على ألسنة العوام التي ألصقت بها. لابأس من التذكير بأن الباحثين في تاريخ الجزائر حول هذا الموضوع لطالما اشتكوا من شح المادة المصدرية ووقوفها حائلا دون الوصول إلى نتائج مرضية ،لذلك كان علينا العودة إلى الكتابات الفرنسية الإستشراقية خلال الفترة الاستعمارية، و ترتبط أساسا بموضوع التصوف، و المظان في حقيقة الأمر لا يخرج عن الطبيعة الفقهية– الصوفية.

إذا كانت الدراسات الإستشراقية التي حملتها المجلات خلال فترة الاستعمار، قد قاربت بشكل أو بأخر موضوع الأدعية الساخطة على الساكنة و مدن الجزائر و خاصة الغربية منها ، فإن الهدف من ذلك لم يكن رصد ما تعانيه الساكنة من هواجس الانتقام من الأولياء و المرابطين الصلحاء، بل ظل الهاجس في الغالب تبرير أسطورة الاستعمار بقابلية الاحتلال و التواجد الأجنبي. هكذا و على الرغم من افتقارنا إلى إشارات صريحة حول الموضوع، فإن المعلومات التي توفرت لدينا رسمت لنا صورة عن حالات و مناسبات شبيهة بحالة وهران. تتضح إذا محاولة هؤلاء المستشرقين الفرنسيين، إثبات الحقائق مدعمين بمنهجية سوسيولوجية و أنثروبولوجية.

1– **والسين إسترهازي**.(Walsin-Estherhazy Louis Joseph Ferdinand) [20]

ضابط فرنسي(1807–1857) رافق معظم الحملات الفرنسية في الجزائر منذ دخوله إليها سنة 1832.ارتقى إلى رتبة جنرال في الجيش الفرنسي و مكث بالجزائر مدة ثمانية عشر سنة. اهتم بالتنظيمات العسكرية العثمانية بالجزائر .ترك كتابا قيما عن مخزن وهران تناول فيه المناطق الغربية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

للجزائر و علاقة جيش الاحتلال بمقاومة الأمير و قبائل الدوائر و الزمالة وتعداد القوات الفرنسية بالمنطقة.[21]

يبقى كتاب إسترهازي **"السيطرة التركية على أيالة الجزائر"** هو الإنجاز الأهم في تأريخ تطور الأدعية الساخرة و الساخطة في الجزائر خلال الفترة العثمانية من منظور ديني أنثروبولوجي استعماري، حيث يشدد الضابط الفرنسي، و عبر حشد كبير من التعابير و المقولات الساخرة ، على أن هذه الأدعية الساخطة انبنت تدريجيا على الذاكرة و الاعتقاد السائد زمنئذ في المتصوفة و الأولياء. و هذا يعني ضمن فرضية أن الأدعية الساخرة اعتمدت بدرجة كبيرة على عملية توارث الذاكرة الشعبية في مختلف المدن الجزائرية، و هنا نلاحظ أن الضابط الفرنسي خص هذه الظاهرة في مجال جغرافي يتمثل في الغرب الجزائري كخط يلامس فيه ثقافة الجزائريين و اعتقاداتهم الساذجة في المتصوفة عن طريق السخرية. ومن الأمثلة التي ذكرت في الكتاب:

- مازونة: " يحجو بكبارهم بصغارهم و تأكلهم النار بترابهم بحجارهم".
- تنس: " تنس مبنية على دنس، ماها دم هواها سم و الله بن يوسف مايبات ثم" [22].
- مستغانم: " أهل مستغانم مطلعين البلغا على حس المضغة".
- بنو عامر: " دمر عليهم الله نبوح الوسط بنو دمار" .[23]
- شلف: " خير الأوطان تخلي بعد العمارة و تصير دكان و يعمرك الفرانصيص النصارى".
- المتيجة: " متيجة بقرة سمينة وشحمها للقسيس لولها للترك و أخر للنصارى".[24]
- البليدة: " الناس قالو لك البليدة ،أنا سميتك وريدة".[25]

كثيرة هي المدن التي ذكرها مثل تلمسان و معسكر و المدية. و السؤال الذي يظل قائماً لماذا ركز هؤلاء الضباط على المعتقدات الساخرة للجزائريين على الساكنة و المدن؟.

2- **أوغست قورقوس** (Auguste Gorguos).

رافق المستعرب الفرنسي قورقوس جميع حملات المارشال كلوزيل(Bertrand Clauzel)[26] على حواضر الجزائر منذ 1836. تقلد مناصب سامية في مؤسسات الدولة الفرنسية بالجزائر، انتدب لتدريس اللغة العربية بالجزائر حيث تعلم مبادئها على يد برزيني(Louis Jacques

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(Bresnier)[27]، ثم عمق معرفته باللغة في معهد الدراسات الشرقية بباريس. اختص في تحقيق ودراسة المخطوطات العربية إلى جانب المستعرب شيربونو (Jacques – Auguste Cherbonneau) منذ 1850، كما يعد من المترجمين البارزين و أحد مؤسسي الجمعية التاريخية الجزائرية . نشر عديد المقالات في المجلة الإفريقية ما بين 1856-1861. [28] وقد انتدب قورقوس من طرف إدارة الاستعمار لتولي كرسي اللغة العربية بقسنطينة منذ تأسيسه سنة 1857.[29]

لقد خصصت دراسات قورقوس فقرات مهمة للحديث عن سيدي محمد الهواري. وقد عبر قورقوس في دراسته(**ملاحظات حول باي وهران محمد الكبير**) عن مؤثرات الهواري في ساكنة وهران من خلال الكرامة و الولاية و دعوته حول تسليط المحتل الإسباني على وهران و بقائه فيها مدة طويلة تقارب قرنين و نصف (1505-1708/1732-1792)، و أشار إلى كتاب حزب العارفين ، الذي استند حسب قورقوس على روايات معاصرة تشير بأن الهواري باع وهران للكفار، انتقاما لمقتل ولده، و أنه ترك ابنا أخر اسمه عبد الرحمن بن حامد و ذريته التي لقيت التبجيل و التقديس من لدن ساكنة وهران.[30]

3- هنري فاي (Fey,Henri)

ليس من قبيل الصدفة أن يؤرخ هنري فاي لوهران ويتناول تاريخها مع التركيز على الاحتلال الإسباني للمرسى الكبير و مناطق وهران من دون الحديث عن سيدي محمد الهواري ،و إلصاق تهمة الدعاء عليها و قابلية وهران و ساكنتها للاحتلال. و كأن ذلك قضاء و قدر و نهاية العالم حسب تعبير فاي. [31] يتميز كتاب فاي(وهران قبل، بعد، أثناء الاحتلال الإسباني) ، بأنه كتاب محوري يعتمد على مخطوط إسباني يعود تاريخه إلى سنة 1732، و هو مهندس ومحافظ مدني بوهران، و كان عضو مراسل للجمعية التاريخية الجزائرية.

4- إدمون ديستانغ.(Destaing, Léon Edmond)

عاش إدمون ديستانغ خلال الفترة المتدة ما بين (1872-1940)، و شهد ما أنجزه الاستعمار الفرنسي في الجزائر. و في مضمار هذا التطور في المعرفة العلمية و الحضارية حسب المفهوم الاستعماري. مارس التبحر في التنقيب و التحقيق في تراث الجزائر الديني و الصوفي، و هذا بحكم طبيعة عمله، إذ

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يعد من رواد تدريس اللغتين العربية و الأمازيغية بمعهد الدراسات الشرقية بباريس، و قد تتلمذ على يد الشيخ بلقاسم بن سديرة[32] الذي مكنه من معرفة اللغتين. درس ديستانغ بمدرسة الجزائر الرسمية (1894–1902)، ثم انتقل إلى التدريس بمدرسة تلمسان في عهد إدارة وليام مارسيه(Marçais William) [33] ، ثم ألفرد بيل(Alfred Bel)[34].

اهتم ديستانغ باللهجات المحلية و تراث الجزائر الصوفي فتجول في كامل إقليم الغرب الجزائري بين أحضان قبائله. وقد كتب بحثا مطولاً عن شخصية سيدي محمد الهواري . ينطلق الباحث الفرنسي من موقف الكتاب الفرنسيين حول الأدعية الساخطة و الساخرة على سكان و مدن الجزائر خلال الفترات التي سبقت الاستعمار الفرنسي للجزائر. إذ يضع الباحث ثبتاً شاملاً للدراسات و المصادر التي تناولت بالبحث و الدرس شخصية الصوفي سيدي الهواري. ويبدو أن نظرية ديستانغ في هذا البحث أنها تتأرجح بين الأطروحة الاستعمارية و هي حتمية الاستعمار و بين دور إرادة البشر في تقبل الاحتلال من خلال الاعتقاد في كرامات الأولياء و عملية تدخل في إطار الإنتاج الاجتماعي للأفكار المتوارثة عبر الأجيال عن طريق الروايات التي تصبح تاريخ حدثي موثق . استجمع ديستانغ نصوص الذاكرة التاريخية من طبقات المصادر المغاربية، و بين باحث درب على طرائق الإستشراق الفرنسي ورواده،
و لاسيما مدرسة الجزائر و باريس. قدم ديستانغ نفسه في جهده التوليفي و التوثيقي هذا، مؤرخا لظاهرة التصوف الجزائري من خلال شخصية سيدي محمد الهواري، فعبر من هذا الموقع في بحثه(قديس مسلم في القرن الخامس عشر: سيدي محمد الهواري.[35]

في معرض حديثه عن شخصية الصوفي محمد الهواري وعلاقته بوهران، استوقفنا عند أهم المصادر الخبرية التي تناولت حياته و ألقابه و تربيته و دراسته و رحلاته، لكن ما يمكن أن نلاحظه على امتداد ترجمته للشيخ أنه يعتمد كلية على ابن صعد في روضة النسرين. و كشف لنا بأنه دفين و هران و هو مزار مقدس من الساكنة كولي من أولياء الله الصالحين ، تقام له الزيارة كل يوم سبت لأنه توفي في مثل هذا اليوم، وهو مقصد النساء من الجزائر و المغرب، و عند دخولهن يرددن المقاصد التالي:[36] و في كل سنة من شهر سبتمبر تقام وعدة الولي التي يحضر فيها السكان القادمين من كل حدب و صوب ، فيستقدمون أمتعتهم و يحضرون وجبات الكسكس، و تستعرض الفانتازيا و الفروسية و ينتشر القوالة في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الطحطاحة لسرد قصص عن كرامات الولي و معجزاته. ومن خلال كتاب(بساط الملوك) فإن الولي ترك أربعة أولاد : الجيلالي– أحمد– عبد الرحمن– محمد، الذي أمر بقتله و دفن بوهران.[37]

تكشف لنا الروايات التي سجلت في المصادر عن المكاشفات و الكرامات التي نسبت إلى سيدي محمد الهواري، إلا أن معظمها أخذ عن البستان لابن مريم[38]. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- اطلاعه على نوايا الأفراد.
- يجيب عن الأسئلة ببداهة مطلقة و كأنه يعرف السائل مسبقا." و يجيبه عما في ضميره، حتى العلماء يعضل عليهم فهم النوازل"
- اطلاعه على الأمور الغيبية: " ما تأتي به السفن من الفواكه إلى ميناء وهران يعلمه قبل وصوله".[39]
- رؤية أحد النجارين ليلة فتح وهران" رأى أحد النجارين، الشيخ سيدي محمد الهواري و هو يقول له: اصنع لي تابوتا يكون على قبري بوهران، و أنا الهواري فقال له: ياسيدي ،إلى أن تفتح، فقال له: قد فتحت هذه الليلة."[40]
- إخبار سيدي الهواري بوفاة السلطان أبو فارس الحفصي الذي حاول غزو تلمسان في عهد حاكمها أحمد.[41]
- حادثة المرأة التي استغاثت به في شأن ولدها، الذي كان أسيرا في بلاد النصارى، فأطلقت نصرانية ابنها و افتكته من الأسر، و هذا بفضل مناقب الشيخ الولي سيدي محمد الهواري .[42]
- دعاء الشيخ على وهران و تسليم وهران للكفار النصارى، و هذا بعد 72 سنة أي في سنة 914هـ/1509م. " لم يدفن (الشيخ) بسيدي مسعود بتارقة أو بسيدي سعيد بشافع(المالح)، فإن ذلك من خرافات العامة... و لم يدخل النصارى الإسبانيين في حياته و إنما دخلوا بعد وفاته باثنين و سبعين عاما..."[43].

5- لويس بياس (Louis Piesse)

يعد كتاب بياس(1815–1890) من الكتب البيبليوغرافية التي اهتمت بتاريخ و جغرافية و حضارة الجزائر منذ القديم، [44]و هو عمل تكميلي لما قام به الحاكم العسكري لإقليم وهران الجنرال بروسار(Brossard) سنة (1837–1840) ،حيث جمع المعلومات و المعطيات من خلال الكتب و

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المقالات و الجرائد و الرحلات و تقارير الجيش و الإدارة الاستعمارية ما بين 1840-1882. نشر بياس الكتاب لأول مرة سنة 1860، ثم نقحه و طبع في سنة 1882.

أشار بياس إلى خضوع وهران منذ سقوط الدولة الموحدية سنة 667هـ/1269م ، إلى عدة دول منها المرينيين و بنو عبد الواد و الحفصيين ثم إقامة ملك غرناطة بها مولاي محمد، ثم عودة الحفصيين إليها سنة 841هـ/1437م،[45] و كشف بياس بأن وهران و في مدة نصف قرن خضعت لحكم دول مختلفة ما بين(761هـ-1380-841هـ-1737م). [46] يعد كتاب(مسار الرحلة في الجزائر) ، من الدراسات الفرنسية الأولى التي أشارت إلى الدعاء الساخط على وهران الذي انتسب إلى وليها سيدي محمد الهواري، كان الدعاء سبب وقوعها بين براثن الاحتلال الإسباني ، إذ وقع المرسى الكبير عام 1505، ووهران عام 1509. ثم الاحتلال الثاني لوهران في 30 جوان 1732(1206هـ)،في عهد الملك الإسباني فليب الخامس(1683-1746).[47]

6- **رونيه باصي** (René Basset)

كبير المستشرقين الفرنسيين (1855-1924)ومدير مدرسة الآداب في الجزائر حوالي أربعين سنة وهذا منذ 1880. [48]كان في خدمة الإستشراق الفرنسي في الجزائر طوال هذه الفترة، حيث سخر لخدمة الإدارة الاستعمارية بكل حرص وجهد. وجند الفرنسيين والجزائريين معاً ووظفهم للتدريس والبحث و التأليف و النشر، أستاذ اللغتين العربية و الأمازيغية بامتياز.

كانت الحكومة العامة تسانده بالمال للقيام بأبحاثه وأبحاث تلاميذه وبعثاتهم ورحلاتهم. توجته الإدارة سنة 1905 برئاسة مؤتمر المستشرقين الدولي 14 في الجزائر. كان باصيه يتقن عدة لغات فعمل أستاذا بمدرسة الآداب بالجزائر سنة 1885 ثم عين مديراً لها سنة 1894، ليصبح عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1911. ترك إنتاجاً غزيراً لاسيما في الدراسات العربية و البربرية وقد ترجمت أعماله تكريما له من طرف تلاميذه و أصدقائه[49].كان باصي يتجول في الجزائر بحثاً عن المكتبات و المخطوطات. وهي عدة المستشرقين، وقد ترك وصفا لفهارس المكتبات في بعض الزوايا و المناطق و منها بعض المناطق في الصحراء الجزائرية[50].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ركزت أعمال باصي حول المخطوطات العربية بشكل خاص، وهو ما لاحظناه في معظم دراساته. كما اهتم باصيه بالمخطوطات العربية لزاوية الهامل ببوسعادة، ومخطوطات مكتبات الزاوية التجانية في عين ماضي وتماسين وورقلة، ومخطوطات الباش أغا الجلفة، ومكتبات وادي ميزاب. ترك باصي وصفا لمكتبة الهامل التي اعتمد عليها جل الدارسين للمخطوطات، وساعده في ذلك تمتعه بالنفوذ لدى الإدارة الاستعمارية، وقد طلب باصيه من شيخ الزاوية عندئذ، محمد بلقاسم، قائمة المخطوطات التي بالزاوية، عن طريق وساطة الجنرال كولي ميقريه (Collet - Meygret) قائد وسط الجزائر. [51]قد أشار المستعرب الفرنسي باصي بأن بحثه حول الأقوال و الأدعية الساخرة ،الساخطة على المدن و القبائل الجزائرية في الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي، ماهي سوى تقليد يندرج ضمن الأدب الشعبي المعروف عند الشعوب السامية، فهو عبارة عن أدعية توبيخية، ربطها المستعرب بتراث التوراة. لقد وردت هذه المقولات لأول مرة عند الضابط الفرنسي إسترهازي الذي جمع 59 مثل،[52]ثم أكملها باصي في 115 مثلا.[53]

ومما ورد في هذه الدراسة أنه قدم عرضا شاملا للتصوف في بلاد المغرب و ركز على الجزائر عبر سلسلة الشيوخ. إن الخلاصة التي تسجل لنا من خلال تتبع ماكتبه المستعرب باصي في هذه الدراسة أنه ربط الويل و الدعاء الساخط على وهران و ما جاورها من خلال حادثين للوليين صالحين هما أحمد بن يوسف دفين مليانة و سيدي محمد الهواري ، فالهواري دعا بسبب مقتل ابنه، و أحمد بن يوسف بسبب سجنه من طرف أبو حمو الثالث الذي هادن الإسبان، و تعرض لسخط سكان تلمسان، فهرب و احتمى بالإسبان.[54]من الأدعية الساخطة الذي ساقها باصي حول إقليم وهران:[55]

رقم1: بني وراغ، رغت منهم الأنبياء و الأولياء.

رقم2: بني عامر دايرتكم يهود، ودراهمكم دية موجود(بسبب تحالفهم مع الإسبان).

رقم7: أهل غمرة، القوم مرة، صرهم في صرة، و اقطعهم في مرة، تريح من ذيك الجرة.

رقم25: مستغانم، مسك الغنايم، إلى دخلها شهيد، و ظالمها ما يموت كيف يريد؟(الصوفي سيدي عبد الرحمان أبو حميد سنة 1559)

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

رقم27 : وهران الفاسقة، بعتك بيع الموافقة، النصارى ثم لقا إلى يوم البعث و اللقاء (سيدي محمد الهواري).[56].

من الواضح أن الدعاء الساخط لسيدي الهواري شمل سلاطين بني زيان بسبب مقتل ابنه ظلما و عدوانا، و قد نظم أحد مريديه (علي الأصفر التلمساني) شعرا حول وهران ، كما قام المترجم العسكري أنطوان أرنو(Antoine Arnaud) (1835-1910) بنشر القصيدة في المجلة الإفريقية تباعا: العدد25(1881)، العدد26 (1882)، العدد27(1883)،العدد 28(1884). [57]

رقم 28 : وهران الفاسقة، يدخلوها الدراهم كالحشيش، و يطيرو كالريش.

7- إدمون دوتي.(Edmond Doutté)

انطلاقا من تصرح إدمون دوتيه (1867-1926) في إحدى ورقاته حول العمل العلمي لمدرسة الآداب بالجزائر: "إن الاستشراق هو بالطبع الحقل الرئيسي للدراسات في مدرستنا، ومن داخل الاستشراق تأتي اللغة العربية و المسائل الإسلامية" .[58]وإذا بحثا في المهدات التاريخية للاستشراق ومحور مدرسة الآداب بالجزائر فإنها أثرت بشكل كبير على الدراسات الاستشراقية الفرنسية.

يعد دوتي من كبار الإثنوغرافيين الفرنسيين في المغرب العربي، فقد شغل منصب إداري بالبلديات المختلطة بإقليم قسنطينة منذ دخوله الجزائر عام 1887، غير أنه مارس مهنة التعليم في المدرسة الشرعية بتلمسان سنة 1898، وقام بمهمات علمية استكشافية إلى المغرب بأمر من السلطات الاستعمارية ما بين 1899-1906.وقد اهتم بالدعاية الإسلامية لصالح فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، و حارب أفكار الجامعة الإسلامية بفرنسا مع مراقبة نشاط المهاجرين المغاربة منذ 1924. على أن الواصل بين مهنته في البحث جعلته يوظف معرفته العلمية لصالح الإدارة الفرنسية بكل تفاني. نشر دوتي جل أعمال حول التصوف و المذاهب في الجزائر، وتناول تاريخ الحركات المذهبية و الطرق الصوفية جغرافيا و رصد تحركاتها و مواردها المالية انطلاقا من أبحاثه التنقيبية و الميدانية، كما ركز على الإيديولوجية الدينية.[59]

اهتم المستعرب الفرنسي دوتي بالدين الإسلامي و بالعقيدة و خصائص الإسلام بالجزائر من خلال المرابطين و الطرق الصوفية و أعيادهم و مواسمهم الدينية، كما ركز على تأطير الإدارة الاستعمارية للدين

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإسلامي طول فترة الاحتلال.[60] تناول كتابه : (ملاحظات عن الإسلام المغاربي و المرابطون)[61]، الدعوة الساخطة لسيدي محمد الهواري على وهران و تسلط الاحتلال الإسباني عليها بعد وفاته.

يخلص الباحث الطاهر بونابي في كتابه حول التصوف في الجزائر أن المهتمين بدراسة تاريخ التصوف في المغرب الأوسط خلال القرنيين 6-7هـ/12-13م، لم يعيروا الكرامات الصوفية أدني قيمة، و اعتبروها ظاهرة سلوكية مرتبطة بقوى غيبية، و مشاهدات و مكاشفات سحرية و خرافية، بينما هي في حقيقة الأمر واقع أفرزته الظروف التاريخية على مناحي الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية. و استدل بقول ابن القنفذ القسنطيني(ت 810هـ-1407م)، في قوله: " لا ينكر الكرامة إلا معاند محروم سيئ الاعتقاد و كثير الانتقاض".[62] أما الونشريسي(ت 914هـ-1508م)،فقال في شأنها:" بأنها فعل خارق للعادة تظهر على يد عبد صالح في دينه متمسك بسنة الله في جميع أحواله من غير ذي التنبؤ".[63]

كان المستشرقون الرائد الناصح و المستشار المعين للإستعمار في كل المجالات، و لم تكن بحوث هؤلاء في الإسلام و تاريخ الشعوب و حضاراتهم إلا التحريف و التزييف و التلاعب بعقيدة الإسلام و تشويه صورة الدين و الأمة، و إحداث الثغرات في الصفوف بعد التوحيد، وكان همهم الوحيد من وراء البحث و تقصي الحقائق هو الخداع و الاحتيال باسم الحضارة و الإنسانية.

و الحصيلة، مثلت مسألة الأدعية الساخرة و الساخطة الناقمة على مدن الجزائر و سكانها أساس الجدل في الكتابات الإستشراقية الفرنسية، التي حاولت التأكيد على صحة المقولات و نسبتها إلى شيوخ و علماء أجلاء في التصوف. فمن خلال ما سبق يبدو أن هؤلاء حاولوا إلصاق مثل هذه الاعتقادات في ذاكرة العلماء، الذي كانوا يحثون على ترك البدع ما ظهر منها و بطن، و الاستنارة بالعلم الصحيح و التحلي بالعمل الصالح. تعامل المستشرقون مع التراث الجزائري بعد الاطلاع على فهارسه ، في شكل أبحاث و ملاحظات و انطباعات، بالنقل و النسخ و الترجمة و المقارنة و المقابلة بين نصوصه، و باقتطاع الوثائق و المقتطفات التاريخية، و التعرض لها بالشرح و التعليق و التعييب. لعل أو ما يعاب على الفعل الإستشراقي في مجال التاريخ، استمرار وفائه لقاعدة تعامل الإستشراق من حيث تغيير المصطلحات و تكييفها مع الثقافة الغربية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد أكبر القرآن الكريم العقل، و اعتبره أساسا للتفكير بخلق الإنسان، و السموات و الأرض، و دليلاً للإيمان، وفي الوقت نفسه ذكر الأنبياء معجزات خارقة للعادة، و ذكر القرآن كرامات الأنبياء، لذلك فرق علماء الكلام بين المعجزة و الكرامة، بأن يشترط فيها التحدي. و خير ختاما لورقتنا هذه ، قوله تعالى:[64] ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ [سورة الأنفال آية 32-33]﴾

الهوامش:

---

* ورقة قدمت في أعمال الملتقى الوطني حول الولي الصالح محمد بن عمر الهواري: حياته و آثاره، من تنظيم مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران 27،1–28 فبراير 2017.

(1) المدونة الفرنسية التي اهتمت بشخصية العالم محمد الهواري تمثلت فيما يلي:

- M.walsin ,Esterhazy, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, libraire de Charles Gosselin,1840.
- Gorguos, Auguste, « Notice sur le bey d'Oran, Mohammed el-Kebir »,In, RA,n°1,1856,pp.454-463.
- pendant et après la domination Espagnole, avant, Fey,Henri Léon, Histoire d'Oran, Adolphe Perrier,1858. oran,
- Piesse, Louis, Itinéraire de l'Algérie, de Tunisie de Tanger, Description matérielle, Paris, Hachette, 1882, pp.182-329.
- Destaing, Léon Edmond, « Un saint musulman au XVe siècle : Sidi Mhammed El-Haouwari »,In, Journal asiatique,n°,Sept-Oct,1906,pp.295-342/395-438.
- Doutté, Edmond, Notes sur l'Islam Maghribin : Marabouts, Paris, Ernest leroux,1900,p.60.
- René, « Les dictons satiriques attribués à Sidi Ahmed ben Yousof »,In Basset, ,journal asiatique,t.XVI,Sep-Otobre,1890,pp.203

(2) إن سقوط غرناطة سنة 1492م، قد عجل بانطلاق الطاقات الإسبانية نحو مغامرات ما وراء البحار. و قد كانت إفريقيا على قربها الشديد الاختيار المنطقي الأول في هذه الاستراتيجية. و في الوقت نفسه فإن هجرة الموريسكيين قد خلقت التأزم و وفرت سببا لتعليل التدخل الإسباني. تتمثل أهداف هذا الاحتلال في قطع الطريق أمام الأندلسيين الفارين و عزلهم داخل إسبانيا. كما يتضمن برنامج الإسبان بعد هذا الاحتلال في تعمير هذه المدن بالإسبان و جعلها مدنا مسيحية. للمراجعة ينظر:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Fernand, Braudel, « les Espagnols en Afrique du Nord de 1492 à 1577 », in R.A, n°49, 1928, pp. 184-233 / 351-428.
Elie, de la primaudi, « Documents inédits sur l'histoire de l'histoire de l'occupation , PP. 136-150. Espagnols en Afrique (1516-1574) », in, R.A , n°20, 1876
و أيضا: محمد، دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر و دور الإخوة بربروس (1512-1543)،ط2، الجزائر: شركة الأصالة للنشر و التوزيع، 1434هـ/2011م.

(3) ابن زرفة، مصطفى بن عبد الله الدحاوي، الرحلة القمرية،(تحقيق : مختار حساني)، منشورات مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر ،2003.

(4) المزاري ،الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و اسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، (تحقيق و دراسة: يحيى بوعزيز)، طبعة خاصة، الجزائر، عالم المعرفة، 2009، جزآن.

(5) الراشدي، أحمد بن محمد بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني،(تحقيق و تقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي– اعتناء: عبد الرحمن دويب)، طبعة خاصة،2013، الجزائر، دار المعرفة العالمية.

(6) الزياني، محمد بن يوسف، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة و هران،(تحقيق و تقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي– اعتناء : عبد الرحمن دويب)، طبعة خاصة، الجزائر: دار المعرفة الدولية، 2013

(7) دليل الحيران ، ص ص 60-61.

(8) أبو العرب محمد أحمد ،التميمي، كتاب المحن(تحقيق: يحيى وهيب الجبوري)،ط3، بيروت: دار الغر بالإسلامي، 1427هـ/2006م.

(9) مسند أحمد 4/ص ص 408-410./ فيض القدير 185/2.

(10) ابن مريم، محمد بن أحمد المديوني، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان،(اعتناء و مراجعة: محمد ابن أبي شنب)، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1326هـ/1908م.

(11) رندال، جون هرمان، تكوين العقل الحديث،(ترجمة: جورج طعمة)، ط2، بيروت: دار الثقافة، 1965، ج1،ص ص 69-77.

(12) قدم الشيخ عبد الكريم الفكون المتوفى عام 1073هـ/1662م، جملة من النصائح العامة في كتابه منشور الهداية، و أكد على ضرورة التخلص من الشعوذة و الخرافة و الاعتقاد في المتصوفة الخارجين عن شريعة الإسلام، و كانت هذه الظاهرة متفشية في أوساط المجتمع الجزائري طوال الفترة العثمانية، و التي استغلها الفرنسيون فيما بعد. و قد ترجم الشيخ لـ 73 شخصية صوفية .حول هذا الموضوع يراجع: عبد الكريم، الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية،(تقديم و تحقيق و تعليق: أبو القاسم سعد الله)،ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408هـ/1987م.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[13] Destaing, Léon Edmond, op.cit,p.425. و أيضا : أغصاي، علي، شرح أرجوزة الحلفاوي في فتح مدينة وهران للشيخ أبي زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي(1087-1144هـ/ 1677-1734م)، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، تطوان 2012.

[14] ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 231-232.

[15] ابن صعد، محمد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين،(مراجعة و تحقيق: يحيى بوعزين)، طبعة خاصة، 2009، ص ص35-47.

[16] ينظر: ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص 461-463. / أيضا: بنو شقران في دائرة المعرف الإسلامية ، ط2، بريل، ج4، ص 510. حول حياة الشيخ سيدي محمد الهواري ينظر: ابن صعد، ص ص35-47. ابن مريم، المصدر السابق ، ص ص 228-236 – الثغر الجماني، ص ص 461-472– دليل الحيران، ص ص60-61. – المازاري، ج1،ص ص 70-76.

[17] الثغر الجماني، ص 462.

[18] لاشك أن مكونات شخصية الهواري العقدية تبدو من خلال رسالة : عقيدة الإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الهواري نشرها: نزار حمادي ، بدون تاريخ، 28ص.

[19] عبد الحميد ،حاجيات،" سيدي محمد الهواري، شخصيته و تصوفه"، مجلة الثقافة، الجزائر: وزارة الثقافة و السياحة، العدد 88، جويلية- أوت 1985.،ص ص 77-88.

[20] Walsin ,Esterhazy, op.cit,pp.164-229.

[21] Walsin, Esterhazy, Notice historique sur le Maghzen d’Oran, Oran 1849.

[22] وُلد الشّيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني سنة 840هـ – 1437م، وقيل سنة 836هـ، في دامود أحد قصور توات ،أخذ عن علماء تلمسان ووهران، ثمّ انتقل إلى بجاية حيث تتلمذ على الشّيخ أحمد زروق، وأخذ عنه عهد الطّريقة الشاذلية، وسلك على يديه. تذكر بعض المصادر أنّه ساح في الأرض لمدّة تزيد عن 15 سنة بفاس وتلمسان وتاهرت وفجيج، ثمّ انتقل إلى الزاب وبلاد الجريد والقيروان وطرابلس والإسكندرية والقاهرة وجدّة، وحجّ وأقام بمكّة، ومنها انتقل إلى المدينة المنورة حيث أقام هناك سنة كاملة.وبعد هذه الرحلة العلمية والرّوحية عاد إلى بلاده ينشر العلم والطريقة معًا، فأسّس زاويته بـ«رأس الماء" بوادي الشلف، درّس بها مختلف العلوم الشّرعية، وكوّن فيها المريدين، وسرعان ما عرف شهرة واسعة في المنطقة والمناطق المجاورة، وعرفت طريقته "اليوسفية" شهرة وسمعة كبيرتين، في مختلف أرجاء المغرب الإسلامي، وعمّ نفوذه الصّحراء الجزائرية والمغرب الأقصى، وكوّن عدد من أتباعه جماعة تسمّى بـ"الشرّاقة" أو "اليوسفية توفي الشّيخ بالقرب من مدينة مليانة في سنة 931هـ–1524م، ودفنه ابنه محمد بن مرزوق في مدينة مليانة. يعتبر أحمد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بن يوسف الملياني من الشخصيات الصوفية البارزة في القرن السادس عشر الميلادي في الجزائر، واشتهر بمواقفه السياسية الجريئة التي جعلته يعارض تحالف بقايا الزيانيين مع الإسبان، مفضلا الوقوف إلى جنب الأتراك العثمانيين .للمزيد يراجع: بو القاسم محمد ،الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف،ط1،دمشق: مؤسسة الرسالة،1982،ص 103.

(23) حول بعض البطون المتعاونة مع الإسبان أثناء تواجدهم بوهران و المرسى الكبير يراجع: حنيفي ،هلايلي،" عملاء و جواسيس الإسبان في بايليك الغرب على ضوء بهجة الناظر"، مجلة الحوار الفكري، العدد7، ذو القعدة 1426هـ/ديسمبر 2005م، جامعة منتوري قسنطينة، ص ص 143-146.

(24) الجزائر كان قدرها أن تصبح خاضعة للوجود العثماني التركي ثم الاستعمار الفرنسي حسب التحليل الأنثروبولوجي الاستعماري.

(25) الولي سيدي أحمد الكبير الأندلسي أيد خير الدين بربروسة، و أصبح محل تقدير من قبل سكان البليدة. كان لقائه بخير الدين سنة 1535، وطالب ببناء المدينة و إسكان اللاجئين الموريسكيين بها. وبذلك أصبحت البليدة عاصمة المتيجة. وظلت المدينة قاعدة عسكرية مهمة للعثمانيين أثناء وجودهم بالجزائر ، و دعا بهذا الدعاء سيدي أحمد الراشدي الملياني (1437-1524) ، وقد بنى له محمد الكبير باي وهران ضريح وزاوية، ينظر:

Le colonel.C,Trumelet,Blida récit selon légende, la tradition et l'histoire, Alger, Adolphe Jourdan,1887.pp.521-547.

(26) تقلد كلوزيل مهام القائد العام للقوات الفرنسية بالجزائر مرتين الأولى ما بين 1830-1831، و الثانية ما بين 1834-1837.

(27) يعتبر بريزيني(1814-1869) أحد الشخصيات التي حررت بيان الجيش الفرنسي عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

(28) نشر قورقوس 26 دراسة في المجلة الإفريقية (Revue Africaine)، في 6 مجالات أهمها التاريخ و المنوغرافيات.

(29) Berbrugger (A.), « M. A. Gorguos», In, RA n°11, 1867, pp.90-92.

(30) Gorguos, Auguste,op.cit,pp.460-463.

(31) Fey,Henri Léon,op.cit,pp.51-52.

(32) بلقاسم بن سديرة (1845-1901) تجنس سنة 1866 ،عمل أستاذ اللغة العربية و القانون بمدرسة الجزائر الرسمية ما بين (1869-1880 . ساهم في إنجاز معاجم اللغتين العربية و الفرنسية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

(33) مستشرق فرنسي (1872-1956)، مختص في اللغتين العربية و الأمازيغية اهتم بالتاريخ و الفن الإسلامي درس بمدرسة تلمسان الرسمية.

(34) دخل ألفريد بيل(1873-1945) الجزائر سنة 1891 ، مستعرب من الطراز الأول اهتم بالتاريخ الديني و الأنثروبولوجيا

و المنوغرافيات. درس بمدرسة تلمسان الرسمية ثم أصبح مديرا لها منذ 1905. تقلد مهام مدير مدرسة تلمسانمدة 30 سنة. ينظر:

Émile, Janier, « Alfred Bel (1873-1945) »,In, Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran, vol. 65, 1944, p. 66-76.

(35) Destaing, Léon Edmond, op.cit, p.295.

(36) ياسيدي الهواري قصدتك و قصدت بلادك ترزقني من الكرامات المسلمة باش نفوز على إلا يبغضنا و يبغض أولادنا ترزقهم الهم. ياسيدي الهواري أنت ولي ، أنا عبد الله أكرمني بهذه الحاجة بجاه النبي الشفيع.

ياسيدي الهواري أنا جيت لعندك باش تفتح علينا و تفرح أحبابنا ، ياسيدي الهواري أنت معجزة عليك أوراقك غالية جيتك باش تفرحني و تهنيني من عذاب الدنيا و ترحمني بها في الآخرة. ينظر:

Destaing, Léon Edmond,op.cit, p.336

(37) Destaing, Léon Edmond, op.cit, p.338.

(38) ابن مريم، البستان، ص ص 229-230.

(39) الثغر الجماني،ص 463.

(40) Destaing , op.cit., p.426.

(41) أبو فارس عبد العزيز المتوكل من مواليد قسنطينة (1361-1434)، حكم الدولة الحفصية فيما بين عامي (1394-1434)، تمكن من احتلال تلمسان عاصة الزيانيين سنة 1424، ونصب عليها حاكما مواليا للحفصيين. وكان هذا في عهد السلطان الزياني أبو العباس أحمد بن أبي حمو.

(42) Destaing , op.cit., p.412.

(43) Ibid,p.437.

(44) Piesse, Louis, Itinéraire de l'Algérie, de Tunisie de Tanger, Description matérielle, Paris, Hachette, 1882

(45) قدم الكتاب معلومات غزيرة عن تاريخ وهران منذ القديم، وركز على الاحتلال الإسباني لها و علاقة سيدي محمد الهواري بذلك. أعطى صورة لنظام الحكم العثماني للمنطقة بـ 33 باي إلى غاية الاحتلال الفرنسي ،الذي دخل وهران

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يوم 4 جانفي 1831 و نصب الجنرال فودوس(Faudoas) لإدارة وهران في 17 أوت 1831. كما أشار إلى أهم الحكام العسكريين لإقليم و هران ما بين (1831–1861): Boyer- Esterhazy- Desmichels- Trézel- De Lamoricière- Cavaignac-Pélissier- Deligny. Piesse, Louis, op.cit., pp.182-329

(46) احتل بنو مرين تلمسان الزيانية مدة 12 سنة(1337–1348) ثم حررت في عهد عثمان الثاني (1348–1352)،ثم أعاد المرينيون احتلالها (1352–1358) ،فأعاد أبو حمو موسى الثاني ملك بني زيان(1359–1389)، ثم عاد المرينيون من جديد(1388–1392).أما الحفصيون فقد احتلوا تلمسان و أجلسوا سلاطين تابعين لهم ، في عهدي أبو فارس(1394–1434)، و عثمان(1435–1488).و ما تجدر الإشارة إليه ،أن مؤسس الدولة يغمراسن خاض 72 غزوة ضد جيرانه لتقوية أركان دولته: يراجع: عبد الفتاح مقلد ، الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، القاهرة،1994، ج3،ص 116.

لقد لخص الوزان وضع الدولة الزيانية بقوله:" ... وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أن جيرانهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس الذين دخلوا تلمسان عشر مرات، وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل ،أو الأسر،أو الفرار عند جيرانهم الأعراب،و تعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس الحفصيين ، و استطاعوا أن يستمتعوا بها مدة 130 سنة.. " ينظر: الوزان، الحسن بن محمد، وصف إفريقيا (ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر)، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983م.ج1،ص 380.

(47) خصص بياس لإقليم وهران في كتابه مسار الرحلة أكثر من مائتين صفحة تناول تاريخ و حضارة مدنه ومناطقه: Ibid,pp.182-329.

(48) Basset, René, « Œuvre scientifique de la France en Algérie et nord Afrique », In, Journal asiatique, T 20,1920.pp.89-96.

(49) Bel ,Alfred, « René Basset », In,R.A,n°65,1924,pp.12-19

(50) قام باصيه بفهرسة مخطوطات زاوية الهامل ببوسعادة بعد ما كلفه الجنرال كولي (Collet - Meygret) سنة 1896،و أنجز العمل في فهرسة أحصى فيها مخطوطاتها بـ53 في 99 مجلد ،تهتم بميادين المعرفة التالية: (الفقه– تفسير القرآن– التاريخ– التصوف– وعلوم اللغة.)

(51) أنجب باصيه ولدين هما من رواد الإستشراق الفرنسي في الجزائر: هنري(1892–1926) و أندري(1895–1956)، أما ابنته فتزوجت من رائد الدراسات التركية العثمانية المستعرب الفرنسي جون ديني(Jean Deny)(1879–1963) ، ومدير معهد الرسات الشرقية الحية بباريس ما بين 1937–1948.

(52) Walsin ,Esterhazy, op.cit,pp.164-229.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

(53) René, Basset, « Les dictons satiriques attribués à Sidi Ahmed Ben yousef »,In ,Journal asiatique, septembre-octobre,T.XVI,pp.203-297.

(54) أصدر أبو حمو الثالث(923-934هـ/1516-1528م) مرسوم يقضي بإعدام الولي أحمد بن يوسف فأدخل بموجبها السجن ، و لكن حسب الأسطورة اختفى فجأة. لقب بالسجين المختفي،فذهب إليه السلطان، و قال له: " اذهب لقد سرحتك".و كانت دعوته أن هرب و استنجد سكان تلمسان بعروج بربروسة، وبعد استشهاد عروج لجأ إلى مزغران وربط علاقات حسنة مع أخيه خير الدين مؤسس أيالة الجزائر.

للمزيد حول الموضوع راجع: محمد، دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر و دور الإخوة بربروسة01512-1543، ط2،الجزائر: شركة الأصالة، 1434هـ/2013م، ص 95.. Basset, op.cit., pp220.-223.

(55) Basset, op.cit., pp228.-297.

(56) في كتاب دوما ، جاء التعبير على النحو التالي :"وهران الفاسدة، بعنا لقوم الكافرة، حتى يوم القيامة "، و أيضا: وهران للبيع و الشرا.. لا تقارنها ببلاد أخر. ليدخلها فقير يصبع غني... وهران للبيع و الشرا.. لا تقيسها ببلاد... من دخولها فقير.. يولي غني. ينظر:

Le Général Eugène, Dumas, la vie arabe et la société musulmane, Paris, la librairie nouvelle, 1869, pp.227-228.

(57) ARNAUD, « Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed Abou Bas ben Ahmed ben Abd el-Kader en-Nasri. Histoire de l'Afrique septentrionale », *In, RA, n°24,* 1880, pp.133-139.

(58) Doutté, Edmond, « L'œuvre scientifique de l'école des Lettres d'Alger», In, R.A, n°49, 1905, p.440.

(59) Doutté,E, Note sur l'Islam Maghribin –marabouts ,Paris ,Ernest leroux,1900

كما نشر أعماله في مجلة تاريخ الأديان ما بين 1899-1900، و كان يعاضده في أبحاثة جزائريان هما: علال عبدي(ت 1908)، و بومدين بن زيان. ينظر:

Messaoudi, Alain, les arabisants et la France coloniale, collections : Espace, Temps,Lyon,2015,pp.154-155.

(60) قدم دوتي إحصائيات موثقة عن الوظيف الديني في الجزائر لسنة 1899، و الذي شمل 174 مؤسسة دينية، توظف 573 في العمالات الجزائرية الثلاث, للمزيد يراجع:

Doutté, dE, L'Islam Algérien en l'an 1900,Alger-Mustapha,1900,pp.120-128.

(61) Doutté ,E, Notes sur l'Islam Maghribin -marabouts ,Paris, Ernest leroux,1900,p.60.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(62) ابن القنفذ، أبو العباس القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير(نشره و صححه : محمد الفاسي و أدولف فور)، الرباط: منشورات كلية الآداب ،المركز الجامعي للبحث، 1965، ص 4.

(63) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المغرب و الجامع المعرب عن فتاوى علماء افريقية و الأندلس و المغرب(أخرجه جماعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 19‪81،ج2،ص 395.

(64) الأثر : 15981: حدثني يعقوب قال، حدثنا هشيم قال، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، في قوله " :وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء" ، قال: نزلت في النضر بن الحارث.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حجابة الحُكام الأمويين بالأندلس
في الاحتفالات الرسمية والمناسبات والأعياد
(138-422هـ)/(756-1031م)

د. وهراني قدور
جامعة تلمسان
البريد الإلكتروني : histoire_maghreb@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2016/11/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

نظرا لما وصلت إليه الدولة الأموية في الأندلس من أبهة وفخامة فقد أعطي لحجابة الحاكم أهمية كبيرة، في الاحتفالات الرسمية والمناسبات الدينية والأعياد وأثناء استقبال وتوديع الجيوش، وكذا تقديم البيعة للحاكم الجديد، دعت إلى تكليف أهم رجال الدولة مؤقتاً واستثناء بمهمة حجب الخليفة أثناء دخول الزوار والمُهنئين. وقد كانت هذه المجالسُ تتطلّب ترتيباً خاصاً، حسب مكانة ومرتبة كل شخص.

الكلمات الدالة:

الدولة الأموية، الأندلس، الحجابة، مراسيم، احتفالات الوزراء.

العنوان بالإنجليزية:

The Hijaba of the Umayyad rulers in Andalusia The Umayyad state, Andalusia, .the ministers

.Abstract:

Due to the splendor and luxury attained by the Umayyad state in al-Andalus, the practice of concealing the ruler behind screens was considered to be of great importance in official celebrations, religious ceremonies, and during the reception and sending-off of armies. When the oath of allegiance was given to a new ruler, the most important men of state were temporarily given the task of shielding the caliph

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

behind curtains during the entry of visitors and well-wishers. These sessions required a special arrangement as each person had his assigned place.

Key words:

Umayyad State, Andalus, al-Hijaba, Ceremonies, Celebrations, Ministers

وصلت الدولة الأموية في عهد الخلافة إلى مستوى من القوة والعظمة فاق ما كانت عليه باقي الدُول المعاصرة لها، ونتيجة لذلك سعى حُكام هذه الدول لكسب ودِّها وصداقتها، «وبعثوا الوفود إلى قرطبة طالبين العون ومُلتمسين الصداقة ومقدمين الطاعة والولاء» [1]. حيث يقول المقري: «كان مُلك الناصر بالأندلس في غاية الضَّخامة ورفعة الشأن، وهادنته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية» [2].

وقد دعت ضرورة ازدحام قصر الخليفة بالوفود، إلى تكليف أهم رجال الدولة مؤقتا واستثناء بمهمة حجب الخليفة أثناء دخول الزوار والمُهنئين. خاصة إذا كان الخليفة قد جمَّد منصب الحاجب خلال هذه الفترة .كانت هذه المجالسُ تتطلّب ترتيباً خاصاً، فقد وصفه "ابن خلدون" حين يتحدث عن استقبال وفد القسطنطينية قائلاً: «وزُيِّـن القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف السُتور، وجُمِلَ السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة، ورتَب الوزراء و أهل الخدمة في مواقفهم، ودخل الرُّسل فهالهم ما رأوا وقربوا حتى أدَّوا رسالتهم .» [3].

تختلف الأمور عندما تتعلّق بحجابة الخليفة "عبد الرحمن الناصر" أثناء استقبال الوفود بعد سنة (320هـ/932م) أي بعد وفاة الحاجب "موسى بن حديـر" [4]، وكذلك بعد وفاة "جعفر بن عبد الرحمن" [5] الحاجب في عهد "الحَكم المستنصر"، فقد عرف موكب الاستقبال ترتيبا جديداً.

ويتحدث "المقري" عن إحدى صور هذا الاستقبال قائلاً: «ورحل الناصر لدين الله من قصر "الزهراء" إلى قصر "قرطبة" لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشر ليلة خلت من ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه "الحَكم" ثم "عبيد الله" ثم "عبد العزيز أبو الأصبغ" ثم "مروان"، وقعد عن يُسْراه "المنذر" ثم "عبد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الجبار"، ثم "سليمان"، وحضر الوُزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ووقف الحُجَّاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم، فوصل رُسل ملك الروم حائرين ممَا رأوه من بهجة المُلك، وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية»[6]. ويبدو أن الناصر كان يفضل استقبال وفود الدول الأجنبية بقصر "قرطبة" بدل "الزهراء"، وكان يُقدِّم لحجابته ولي عهده "الحَكم"، ثم باقي أبنائه، رغم أنه كان قد أمرهم في وقت سابق بالخروج من قصر الخلافة، والإقامة وسط مدينة "قرطبة"[7]، وكان موقع الوزراء وأهل الخدمة موزعاً على جانبي المجلس على التوازي يميناً وشمالاً .

أما في خلافة "الحَكم المُستنصر" فقد اختلف موكب الاستقبال عمَـا كان عليه زمن أبيه، ويصف "ابن حيان" هيئة جلوس هذا الخليفة وحجابته قائلاً: «فلمَا كان شهر رمضان من سنة (360هـ/971م) قعد الخليفة الحكم على السرير قعوداً فخماً كامل الترتيب كأفخم ما جرت به العادة، وقعد الوزراء على مراتبهم، وحجبه منهم عن ذات اليمين الوزير القائد "غالب بن عبد الرحمن"، وتحته الوزير صاحب الحشم "قاسم بن محمد بن طملس"، ومن ذات اليسار الوزير صاحب المدينة بقرطبة "جعفر بن عثمان" وتحته صاحب المدينة بالزهراء "محمد بن أفلح"، فتقدم الرُسل وبين أيديهم هدية "بريل بن شنير"[8] حاكم برشلونة[9] إلى "الحكم المستنصر"» .[10]

ويتَضح جلياً الاختلاف الموجود بين حجابة الخليفة "الناصـر" وحجابة "الحَكَم" أثناء استقبال الوفود الأجنبية، فقد أعطى الأول الأولوية لأبنائه في الحجابة، ووزَع الوزراء على جانبيه، أما الثاني فقد قدَم الوزراء على غيرهم، فقد حجبه الوزير "غالب بن عبد الرحمن" قائد الجيش على يمينه، وحجبه الوزير "جعفر بن عثمان المُصحفي" أهم رجل في الدولة على يساره.

أما إذا تعدّد وصول الوفود الأجنبية إلى قرطبة فيُقَدَمُ سفراء الدول الإسلامية على غيرهم، ويُقَدَمُ كذلك سُفراء الدول التي كان للأمويين مصلحة معهم قبل الدول التي تبتغي فقط المودة» .وفي يوم الثلاثاء لثمان بقين من ذي الحجة من سنة (362هـ/973م) قعد أمير المؤمنين على السرير بقصر "الزهراء" قعوداً فخماً حافلاً تام الترتيب حسن التهذيب لرسل وفود اكتملوا ببابه شهده الوزراء وحجبه الحُجَّاب، وقُدِم المسلمون في الإذن على غيرهم من رسل النصارى فكان أول من توصل منهم رسل "أبي العافية"[11]، ثم باقي رسل العدوة، ثم أُذن بعدهم لرسل ملوك العجم فتوصل رسل بنبلونة، ثم باقي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

رسل النصارى» .[12] أما في الاحتفالات الرسمية بعيدي الفطر والأضحى فقد اختلف الأمر، «ففي سنة (360هـ/971م) قعد الخليفة الحكم "المستنصر بالله"، بعد انقضاء صلاة عيد الفطر، لتسليم الجند عليه، في محراب المجلس الشرقي، في مدينة "الزهراء"، قعوداً فخماً شهده طبقات الناس فكان صدر المجلس الإخوة وجنباته الوزراء، وتوسطته أهل المراتب من طبقات أهل الخدمة، وسائره لوجود الموالي وبياض رجال "قرطبة"؛ فقعد الإخوة عن ذات اليمين على الترتيب التالي: الشقيق "أبو الأصبغ عبد العزيز" وتحته "أبو المطرف" وعن ذات اليسار الأصبغ "أبو القاسم"، وقعد الوزراء بعدهم في الجهتين بعد فرجتين على حد جري العادة؛ وحجب الخليفة يومه عن يمينه الوزير صاحب المدينة بـقرطبة "جعفر بن عثمان" وتحته صاحب المدينة بالزهراء "محمد بن الأفلج" مولاه، وعن يساره الوزير صاحب الحشم "محمد بن قاسم بن طملس"، وتحته صاحب الخيل "زياد بن أفلح"، وتلاهم أصحاب الشرطة العليا والوسطى، وسائر طبقات أهل الخدمة على منازلهم» .[13]

وفي سنة (361هـ/972م) «قعد الخليفة المستن صر للتهنئة بمناسبة عيد الفطر على العادة فوق السرير في المجلس الشرقي في السطح العلي، وقامت المراتب والتهيئات والتعبئات في نهاية التمام وجودة النظام، وشهد الإخوة المجلس، وقعد منهم عن ذات اليمين كبيرهم أبو الأصبغ، وقعد عن اليسار "أبو القاسم الأصبغ"، وقعد الوزراء بأثرهم بعد فرجة، وحجب الخليفة عن يمينه صاحب المدينة بقرطبة "جعفر بن عثمان المُصحفي" وتحته الوزير صاحب الشرطة العليا "محمد بن سعد" وتحته صاحب الشرطة الوسطى "محمد بن أبي عامر"، فانتظم الصفّـان بعدهم من طبقات أهل الخدمة على مراتبهم» .[14]

وكان الفاصل بين الإخوة والوزراء فرجة تميز بين مرتبة الإخوة ومرتبة الوزراء، ويُلاحظ الاختلاف الموجود بين مراسيم استقبال الوفود والسفارات الأجنبية ومراسيم الاحتفال بالأعياد في عهد "الحَكم المستنصر"، فقد كان الإخوة في مرتبة أعلى من مرتبة الوزراء؛ وحجب الخليفة كالعادة عن يمينه "جعفر بن عثمان المصحفي" أهم رجل في الدولة أنذاك .

وفي عيد الأضحى من نفس السنة قعد الخليفة "المستنصر بالله" على سرير للتهنئة على العادة، وقعد على مراتبهم المهنئون على مراتبهم، فبعد قعود الإخوة ذات اليمين وذات اليسار، قعد الوزراء

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

على مراتبهم، وحجبه عن ذات اليمين صاحب المدينة بقرطبة "جعفر بن عثمان"، وتحته صاحب الشرطة العليا "محمد بن سعد"، وحجبه عن ذات اليسار صاحب مدينة بالزهراء "محمد بن أفلح" وتحته صاحب الخيل "زياد بن أفلح"، وتقدَمت طبقات أهل الخدمة على مراتبهم بحسب منازلهم للتهنئة، ووصل صفيهم المرسومين بمدهما، من أكابر الفتيان الصقالبة ومن دونهم من طبقاتهم من الجند ما بين ممرات القصر وأفنيته إلى باب السدة، ثم اطَّرد الإذن بالوصول إلى من حضر من أفناء الناس، فتقدمت في أوائلهم رجالات قريش ثم الموالي ثم الحكام وقضاة الكور، ثم الفقهاء وأهل الشورى، وغيرهم والعدول ثم صنوف الحشود والوفود، وظل الخطباء والشعراء خلال ذلك يرتجلون وينشدون» .(15)

وفي عيد الفطر من سنة (362هـ/973م) قعد أمير المؤمنين على سرير الملك وأذن للناس فتوصل أولهم الإخوة وقضوا حقَّ التسليم والتهنئة، ثم قعدوا عن ذات اليمين وعن ذات اليسار ثم قعد الوزراء بعد التسليم على مراتبهم بأثر الإخوة، ووقف على جانبي السرير من اليمين وعن ذات اليسار الفتيان الصقالبة، وكان الحاجب عن ذات اليمين الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة "جعفر بن عثمان"، وتحته صاحب الشرطة العليا والحشم، ثم صاحب الشرطة الوسطى والمواريث قاضي "إشبيلية"، والحجاب عن ذات اليسار صاحب الخيل والحشم "زياد بن الأفلح"، وحجبه بعد فرجة طبقات أهل الخدمة على مراتبهم، فلما استقرت هذه المراتب بالقوم، وانتهت حدود كمالها أُذن لطبقات قريش الأقرب فالأقرب، فتقدموا للسلام ثم توصل الموالي، ثم حكام وقضاة الكور، وأهل الشورى وطبقات العلماء والعدول وبياض أهل قرطبة، ثم قبائل البربر من أهل العدوة، ثم طبقات أهل الجند على مراتبهم من الأحرار، والعبيد، فكان يوماً حافل الجمع رفيع القدر جداً».(16)

ويتّضح من خلال النص الأخير ترتيب الدخول على الخليفة للتهنئة فقد كان الإذن أولا للإخوة ثم الوزراء فسائر طبقات أهل الخدمة، فيجلسون إلى جانب الخليفة في تقليد معروف، ثم تدخل قريش على طبقاتها، فالموالي وولاة وقضاة الكور، فالعلماء « ويجلسون في مكان مخصص لهم خارج المجلس الخليفي»(17)، ثم بياض أهل قرطبة، ثم أهل العدوة من البربر، وأخيراً يدخل الجند للتسليم على الخليفة على مراتبهم .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ويبدو أن حجابة الخليفة "الحكم المستنصر" عن يمينه يعتبر شرفاً، فقد كان يتولاه دائماً أهم رجل في الدولة، وهو القائد "غالب بن عبد الرحمن"، وينوب عنه إذا غاب الوزير صاحب المدينة "جعفر بن عثمان المصحفي"، أما حجابته عن ذات اليسار فيتولاها ثاني رجل في الدولة، فقد جلس الخليفة لاستقبال وفود زعماء العدوة الخاضعين، فحجبه عن ذات اليمين الوزير القائد "غالب بن عبد الرحمن" وتحته "زياد بن أفلح" صاحب الحشم، وعن ذات اليسار الوزير الكاتب صاحب المدينة "جعفر بن عثمان المصحفي" وتحته صاحب المدينة بالزهراء "محمد بن أفلح" .[18]

وبذلك نستنتج أن ضرورة ازدحام القصر الخليفي بالوفود دعت إلى تكليف أهم رجال الدولة مؤقتاً واستثناءاً بمهمة حجب الخليفة أثناء دخول الزوار والمُهنئين. وقد كانت هذه المجالسُ تتطلّب ترتيباً خاصاً، حسب مكانة ومرتبة كل شخص، والأمر نفسه كان يتكرر في الاحتفالات واستقبال السفراء والضيوف الأجانب والجيوش المنتصرة.

قائمة المصادر:

✓ ابن الأبار، أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ، الحلة السيراء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف. ط2، 1985. ج2، ص233 .

✓ ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ، المقتبس. تحقيق: بيدرو شلميتا وآخرون. مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط. 1979. القطعة 04.

✓ ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس. تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي. بيروت: دار الثقافة. 1965. القطعة 05.

✓ الحميري، محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: مكتبة لبنان. ط2، 1984.

✓ الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد ، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب. ط1، 1997. ج1.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- ✓ ابن أبي الزرع، أبو الحسن علي الفاسي ، الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية، ط2، 1420هـ/1999م.
- ✓ ابن كردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري، تاريخ الأندلس (الإكتفاء في تاريخ الخلفاء) مدريد: المعهد المصري للدراسات الإسلامية. سنة 56-1966. مج13.
- ✓ ابن سعيد، المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف. ط02، القاهرة: دار المعارف، 1963. جـ1.
- ✓ ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبـار المغرب. بيروت: مكتبة صادر، د.ت، ج2، ص313.
- ✓ ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ، المقتبس. تحقيق: بيدرو شلميتا وآخرون. مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط. 1979. القطعة 04.
- ✓ المقري، أحمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرهـا لسان الدين ابن الخطيب. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، (1408هـ/1988م). ج01.
- ✓ ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1 ،بيروت: دار الكتب العلمية،1992، ج4، ص171.

المراجع:

- ✓ عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة)، دمشق، بيروت: دار القلم، المنارة. ط3، 1407هـ/ 1987م.

الهوامش:

---

(1) عبد الرحمن علي، الحجي، التاريخ الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة)، دمشق، بيروت: دار القلم، المنارة. ط3، 1407هـ/ 1987م، ص302.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

(2) أحمد بن محمد التلمساني، المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، (1408هـ/1988م). ج01، ص366.

(3) عبد الرحمن أبو زيد ،بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1،بيروت: دار الكتب العلمية،1992، ج4، ص171.

(4) أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ابن الأبار ، الحلة السيراء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف. ط2، 1985. ج2، ص233. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبـار المغرب. بيروت: مكتبة صادر، د.ت، ج2، ص313.

(5) يُجهل تاريخ وفاة الحاجب"جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي" لأن المصادر التاريخية تخلو من ذكر تاريخ محدد لذلك.

(6) المقري، المصدر السابق، ج1، ص367.

(7) كل ما يخص أسماء وأخبار أبناء الناصر، ثم خروجهم من قصر الخلافة، أُنظر: أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ابن حيان، المقتبس. تحقيق: بيدرو شلميتا وآخرون. مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط. 1979. القطعة 04، ص ص14–20.

(8) بريلBorrel بن شنيرSunier حاكم إمارة برشلونة بين عامي (343هـ/954م) و(382هـ/992م). ابن حيان، المقتبس، ق05، ص20، هامش1. ابن كردبوس أبو مروان عبد الملك التوزري، تاريخ الأندلس (الإكتفاء في تاريخ الخلفاء) مدريد: المعهد المصري للدراسات الإسلامية. سنة 56-1966. مج13. ص64

(9) برشلونة Barcelona مدينة على البحر، بينها وبين طركونة خمسون ميلاً، لها ربض وعليها سور منيع. ، محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: مكتبة لبنان. ط2، 1984. ص86، 87.

(10) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق:د. شوقي ضيف. ط02، القاهرة: دار المعارف، 1963. جـ1، ص46

(11) كان موسى بن أبي العافية صاحب بلاد تازا، وكبير مكناسة بالمغرب الأقصى على الإطلاق وكان قد خدم مصالة بن حبوس حين قدم المغرب وتعرف إليه وهاداه وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب فحسنت منزلته لديه وولاه بلاد المغرب كلها عدى فاس. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب. ط1، 1997. ج1، ص238. أبو الحسن علي الفاسي ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية، ط2، 1420هـ/1999م، ص ص100–105.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(12) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس. تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي. بيروت: دار الثقافة. 1965. القطعة 05، ص138.

(13) ابن حيان، المقتبس، ق05. ص ص28–30.

(14) نفسه، ص81.

(15) ابن حيان، المقتبس، ق05. ص93، 94.

(16) نفسه ، ص119.

(17) ابن حيان، المقتبس، ق05، ص120.

(18) نفسه. ص198.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الاتصال الوثائقي في الأندلس من خلال تراجم ابن الأبار.

د. متاجر صورية
جامعة سيدي بلعباس
البريد الإلكترونيsorayabiblio@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2016/12/20 تاريخ القبول: 2017/02/12

لقد حاولت التكملة تحديد الاتجاهات العلمية وفق اللامركزية التي شهدتها الأندلس منذ عهد ملوك الطوائف. ويبدو من خلال التكملة أنها تعطينا صورة واضحة لازدهار العلوم والفلسفة في سرقسطة وطرطوسة في عهد ملوك الطوائف. كما نستشف من كتاب الصلة عند تناولها لتراجم علماء شرق الأندلس وأحوازها أنها تعطينا بيانات غير كاملة، أما التكملة لابن أبار فهي تقدم لنا معلومات أكثر شمولية. هذه أهم القراءات التي تم إستنتاجها عند جمعنا لببليوغرافيا البيانات المصدرية عند ابن بشكوال و ابن الأبار.

أمكننا البحث في تراجم التكملة من معرفة خصائص الاتجاهات العلمية وتجمعاتهم الجغرافية، وهذا في إطار الاتصال الوثائقي للإنتاج الفكري لعلماء الأندلس، وتعرفنا من خلالها سيطرت بعض المناطق الأندلسية على تخصصات علمية دقيقة كقرطبة وطليطلة في المراحل الأولى، ثم إشبيلية والثغر الأعلى وشرق الأندلس في مراحل تالية، وهو الأمر الذي يفسر لنا على أن قرطبة كانت دائما المركز الأساس للتوجهات العلمية في هذا الاتصال الوثائقي.

الكلمات الدالة:
تكملة الصلة– الأندلس– ملوك الطوائف– ابن الأبار– الاتصال الوثائقي

العنوان بالإنجليزية:

Documentary communication in Andalusia through the translations of Ibn al-Abar..

Abstract:

I have tried to supplement the identification of scientific trends in accordance with the decentralization witnessed in Andalusia since the reign of the kings of the sects. It seems through the sequel that it gives us a clear picture of the

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

flourishing of science and philosophy in Zaragoza and Tartous under the kings of the sects. As we learn from the book of relevance when dealing with the scholars of East Andalusia and its spaces that they give us incomplete data, and the supplement to Ibn Abbar, it provides us with more comprehensive information. These are the most important readings that were concluded when we collected the source data bibliography at Ibn Bishkwal and Ibn al-Abar.

In the context of the documentary communication of the intellectual production of the Andalusian scientists, we have identified the control of some Andalusian regions on precise scientific disciplines such as Cordoba and Toledo in the early stages, then Sevilla and the Upper and Upper Andalusia in later stages, Which explains to us that Cordoba has always been the center of the scientific orientations in this documentary communication

Key words:

, **Andalusia,** identification **of scientific, Ibn Abbar, documentary communication, scientific orientations**

.\

أهملت صلة ابن بشكوال العلوم بشكل كبير بالرغم من محاولة ابن الأبار في التكملة(*) الذي حاول ملأ هذا الفراغ في تراجمه عن الحديث على علم الكلام والفلسفة من ناحية التوزيع الجغرافي للاتصال الوثائقي بالأندلس. لقد حاولت التكملة تحديد الاتجاهات العلمية وفق اللامركزية التي شهدتها الأندلس منذ عهد ملوك الطوائف. ويبدو من خلال التكملة أنها تعطينا صورة واضحة لازدهار العلوم والفلسفة في سرقسطة وطرطوسة في عهد ملوك الطوائف. كما نستشف من كتاب الصلة عند تناولها لتراجم علماء شرق الأندلس وأحوازها أنها تعطينا بيانات غير كاملة، أما التكملة لابن أبار فهي تقدم لنا معلومات أكثر شمولية. هذه أهم القراءات التي تم إستنتاجها عند جمعنا لببليوغرافيا البيانات المصدرية عند ابن بشكوال و ابن الأبار.

أمكننا البحث في تراجم التكملة من معرفة خصائص الاتجاهات العلمية وتجمعاتهم الجغرافية، وهذا في إطار الاتصال الوثائقي للإنتاج الفكري لعلماء الأندلس، وتعرفنا من خلالها سيطرت بعض المناطق الأندلسية على تخصصات علمية دقيقة كقرطبة وطليطلة في المراحل الأولى، ثم إشبيلية والثغر الأعلى وشرق الأندلس في مراحل تالية، وهو الأمر الذي يفسر لنا على أن قرطبة كانت دائما المركز الأساس

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

للتوجهات العلمية في هذا الاتصال الوثائقي ثم جاءت بعدها غرناطة ومالقة. ولتأكيد صحة هذه الاستنتاجات، فإن الرياضيات اتصلت في دورتها الوثائقية بين عالمين من أعلام الأندلس وهما ابن برغوت ومسلمة المجريطي.

1- حياته:

هو الحافظ المؤرخ، المؤلف أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أحمد القضاعي البلنسي، ويقال له ابن الأبار[1]، ولد ببلنسية وهي من حواضر الأندلس في سنة 595هـ/1199م، كان المؤرخ أكبر مصنف لمعاجم الرجال أطلعه الأندلس وكان كاتبا لأمراء الموحدين في الأندلس، وصل إلى الوظائف الكبرى في عنفوان شبابه، وظل بعد ذلك صدرا في بلنسبة، أرسله سلطانها زيان بن مردانيش إلى تونس ليستصرخ أبا زكريا بن حفصون لإنقاذ بلنسبة "فحضر مجلس السلطان، وأنشأ قصيدته على روى السنين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال والأقوات والكسى، فوجدوهم في عسرة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية (جاقمة الفاتح Jaime el con quistador) ملك برشلونة) [2].

بعد أن استولى القطلانيون على بلنسية سنة 633هـ- 1235م. هاجر ابن الأبار من الأندلس إلى بجاية وأقام بها أربعة أشهر ثم انتقل إلى تونس واستقر بها، وحظي عند أبي زكريا، ثم استدعاه المستنصر ورفع من شأنه واتخذه وزيرا، وأضرت به سعايات خصومه، فكان في ذلك حتفه، إذ اتهم بالاشتراك في التدبير على الأمير، ووجد في أوراقه بيت من شعره يقول فيه:

طغا بتونس خلف سموه ظلما خليفة

فأمر المستنصر بامتحانه ثم قتله سنة 658هـ- 1260م، ثم أحرقت أشلاؤه وأحرقت معه كتبه ودواوينه[3].

2- آثاره:

رأفت الأجيال التالية لعصر ابن الأبار به، فتعاقب الناس على إنصافه وتكريمه والإشارة بذكره ، فترجم له أبو العباس الغبريني (ت: 714هـ) في عنوان الدراية[4]، والمقري في نفح الطيب[5] ، هؤلاء

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أثنوا على ابن الأبار وقدروه كواحد من أكبر من أنجبهم الأندلس في ميادين التاريخ والأدب وعلوم الإسلام، وأنصفوه من قاتله وأجمعوا على أنه قتل مظلوما، بل وصفه بعضهم بالشهيد، وأنه مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة، وأنه حافظ جمع فأوعى، وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وبتاريخ الإسلام عامة، ما لم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجري[6].

ألف ابن الأبار كتبا كثيرة، أحصى معظمها بروكلمان[7]، وإبراهيم الأبياري في مقدمة تحقيقه للتكملة، وصالح الأشتر في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن الأبار أعتاب الكتاب[8] والناظر في أسماء كتبه التي ضاعت –وعددها 39– وكتبه التي وصلت إلينا –وعددها ستة– يلاحظ أنها في ثلاثة فنون: الحديث والأدب والتاريخ، أما ميدان ابن الأبار الحقيقي فكان التاريخ والتراجم بصورة خاصة، خلف ابن الأبار تراث عظيما وأتحفه المدونة الشعرية العربية، والخزانة النثرية بما يدل على رسوخ قدمه في العلم[9].

وقد ذكر عبد السلام الهراس في إحدى دراسته أن عدد كتب ابن الأبار بلغ 45 كتابا[10]، منها:

- المورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل.
- التكملة لكتاب الصلة.
- الإيماء إلى المنجبين من العلماء.
- هداية المعتسف في المؤتلف والمختلف.
- معجم أصحاب أبي علي الصدفي.
- معجم شيوخ ابن الأبار.
- برنامج رواياته.
- إعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب.
- الحلة السيراء في أشعار الأمراء.
- خضراء السندس في شعر الأندلس.
- تحفة القادم.
- شرح صحيح البخاري.

أصاب الإتلاف أكثر مؤلفات ابن الأبار ولم يوجد منها لحد الآن سوى الثمانية الآتية أسماؤها:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

1- أعتاب الكتاب.

2- المقتضب من كتاب تحفة القادم.

3- التكملة لكتاب الصلة.

4- الحلة السيراء في أشعار الأمراء.

5- مظاهرة المسعى الجميل.

6- معجم أصحاب أبي علي الصدفي.

7- درر السمط في خير السبط.

8- ديوان شعره[11].

3- منهج الترتيب عند ابن الأبار:

إن كتاب " التكملة " كتب على فترات زمنية مختلفة، ففيه مواد يبدو بوضوح أنها كتبت قبل سنة 630هـ- 1232م، وأخرى كتبت قبل هجرة ابن الأبار إلى المغرب وثالثة كتبت وهو في بجاية، وصحيح أنه يفهم من فاتحة الكتاب كما نشرها محمد بن شنب في " المجلة الإفريقية " سنة 1918م[12]، أن الفراغ من كتاب "التكملة" كان في أول محرم سنة 631هـ/1233م، ولكن في الكتاب مواد كتبت وابن الأبار في تونس وبجاية. وعلى هذا الاعتبار فإنّ ابن الأبار يعد من أعلام مؤرخي العلم في الأندلس ومرجع لا يستغنى عنها مؤرخ له خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بصفة خاصة.يعد كتاب " التكملة " استتمام لما بدأ به ابن الفرضي (351-403هـ/962-1012م)، من الترجمة لعلماء الأندلس ، وواصل ابن بشكوال في الصلة، ثم استمر ما فاته ابن الأبار. وقد اشتمل كتاب التكملة على تراجم 3595 منها 11 امرأة من أعلام الأندلس، على اختلاف مستوياتهم واختصاصاتهم واتجاهاتهم العلمية والفكرية، ورتب أعلامه وفقا لحروف المعجم، وخصص فصولا في كل من أبواب الحروف للأسماء المفردة، والغرباء والمشهرات من النساء في الأندلس. ومن الملاحظات الأخرى حول منهج الترتيب أن كتابه تضمن خاصة أعلام عرفوا أجدادهم وممن عرفوا بصفاتهم الغالبة عليهم[13].

4-موضوعات الإنتاج الفكري عند التكملة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وهو يترجم لابن بشكوال، أوضح ابن الأبار بأنه يقدم معلومات جديدة وإضافية خالية من الأخطاء وأنه يرمي إلى سد الثغرات التي جاء بها ابن بشكوال في الصلة، بالرغم من أن هذا الأخير كان رائد في الأخبار والسير وخاصة ما يتعلق بتاريخ قرطبة ومن خلال تتبع حجم المعلومات لاحظنا أنه حتى نهاية الحكم المرابطي بالأندلس، قدم ابن الأبار معلومات جديدة ولمنطقة شرق الأندلس.على صعيد و في سياق الحديث عن الحركة الثقافية، فإن المرحلة الموحدية ستكون قصيرة في حجم المعلومات المقدمة بالموازاة مع الأحوال السياسية، إذا أن حرب الاسترداد المسيحي، أطردت علماء الأندلس، مما أوجب تغييرات في التوزيع الجغرافي لهم: فظلت الأندلس تعتمد على بلاد المغرب في هذه المرحلة في مجال الهجرة والاتصال الوثائقي، بحيث ولد علماء بالأندلس وهاجروا إلى المغرب(14).

إن الأزمة السياسية التي شهدتها الأندلس على مستوى التقاطع الجغرافي غرب– شرق، وسيطرت شمال– جنوب، بسبب سقوط العديد من حواضر الأندلس على يد المسيحيين(15) وفي ذات الوقت هروب العديد من العلماء نحو شرق الأندلس خوفا من النفور الموحدي، والإحصائيات التالية توضح لنا، كثرت أسماء العلماء والمناطق المهاجر إليها، والتحركات الجغرافية، وهذا من خلال تراجم التكملة، إذ نلاحظ تزايد الاهتمام بعلوم القرآن على حساب الفقه والحديث، والاهتمام المتزايد باللغة العربية. والمختصر المفيد في هذه البيانات هو التوازن الرقمي لمختلف التخصصات العلمية باستثناء الاهتمام بالرياضيات والعلوم الطبيعية في هذه المنطقة.

لم ترحب المناطق الشرقية للأندلس كثيرا بالتصوف والمتصوفة، إذ من خلال تراجم التكملة يلاحظ أنّ من معظم المتصوفة درسوا بالمشرق، ومكثوا بالأندلس فترة شبابهم فقط. ونستشف من بيانات الأرقام أنّها جاءت متوازنة، كما ازداد الاهتمام بالفلسفة والحساب والتنجيم خلال هذه المرحلة. والجدول التالي يوضح لنا توزيع التخصصات العلمية في منطقة شرق الأندلس:

جدول رقم (1): توزيع التخصصات العلمية في منطقة شرق الأندلس:

التاريخ / التخصصات	545هـ 565هـ	565هـ 585هـ	585هـ 610هـ	610هـ 630هـ	بعد 630هـ

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الحديث	25	22	10	14	9
الفقه	34	34	29	23	16
القرآن	33	41	36	31	22
أصول الفقه	4	3	/	3	1
التفسير	/	3	2	/	1
الأدب	25	17	24	21	14
الشعر	10	13	10	12	10
اللغة	14	18	17	24	16
التاريخ	8	4	3	2	2
العلوم الطبيعية	3	1	2	4	1
الحساب	1	2	2	2	/
علم الكلام	1	1	/	2	/
الزهد	6	5	9	2	3
التصوف	3	2	3	/	4
الفلسفة	/	/	/	2	/

من الضروري في الأعمال الإحصائية والكمية، أن نعمل على جمع التوجهات العلمية وترتيبها على النحو التالي: حديث-فقه-قرآن وتفسير-أدب-شعر-لغة-تاريخ-علوم وفلسفة-علم الكلام-زهد وتصوف. نستقرأ من بيانات الجدول التالي توزع العلماء والتخصصات العلمية في الأندلس في ضوء تكملة الصلة لابن الأبار.

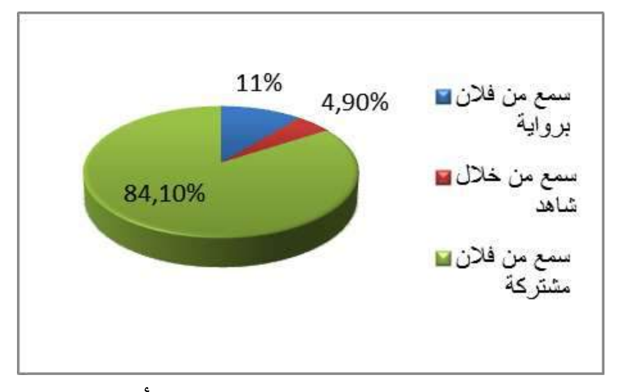
إن انتقال أنماط الثقافة الإسلامية في الأندلس من خلال تكملة ابن الأبار خلال الفترة الموحدية تشمل 1.642 ترجمة وتنحصر في مجال جغرافي مؤقت ومتلاحم للأندلس في عهدي المرابطي والموحدي. تبدأ التراجم مع فترة 540 هـ- 1145م. ومن خلال تتبع تراجم العلماء في إطار الاتصال الوثائقي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

للتكملة، يلاحظ استعمال إحالات سمع من وهذا في دورة انتقال العلوم الإسلامية بين الأجيال، وقد وظف ابن الأبار 2387 مرادف للسماع، وهذا من خلال الإحصائيات التالية:

جدول(2) روايات السماع عند ابن الأبار

سمع من فلان برواية	262 مرة	% 11
سمع من خلال شاهد	117 مرة	% □ تم %
سمع من فلان مشتركة	2008 مرة	%□□ يم
المجموع	2387	% 100



رسم بياني مصطلح السماع عند ابن الأبار:

ويمكن تسجيل ملاحظة في هذا الجدول، هو أنّ مصطلح السماع، استعمل في تدوين الحديث في سلسلة السند المتصل بمتن الحديث النبوي الشريف(16)، وإلى جانب الحديث، فإن علوم القرآن، وخاصة القراءات، والنحو العربي، يستعمل أصحابه مصطلح أخذ عن اعتبارات أخرى جاءت في التكملة مثل مصطلح حدث حيث نلاحظ في الجدول التالي:

جدول(3) أشكال الاتصال عند ابن الأبار(الحديث):

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أشكال الاتصال	العـدد	النسبة
كتب الحديث	133	[illegible] %
المناولة وكتب الفقه	45	[illegible] %
كتب علوم القرآن	10	[illegible] %
كتب اللغة والشعر والأدب	29	[illegible] %
كتب متنوعة	45	[illegible] %
المجمـوع	262	% 100

نستقرأ من الجدول أنّ مصطلح حدثنا في تراجم ابن الأبار قد اهتمت بالدرجة الأولى بعلوم القرآن والأدب والفقه واللغة[17]. عند تصفحنا لتراجم ابن الأبار لاحظناه يستعمل إحالة قرأ على فلان في حدود 90 مرة، وهو شكل من أشكال الاتصال الوثائقي في التكملة سواء أكان رواية أو قراءة. والجدول التالي يوضح لنا مصطلح القراءة:

جدول (4) أشكال الاتصال عند ابن الأبار (القراءة):

روايات	6	[illegible] %
كتب	75	[illegible] %
المحتويات	9	% 10
المجموع	90	%100

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI



رسم بياني مصطلح القراءة عند ابن الأبار

يستشف من بيانات هذا الجدول أنّ ابن الأبار قدم لنا أرقام مرتفعة، تمكننا من التحليل فيما بينها، ولكن باتخاذ احتياطات تتمثل:

1. إن أرقام علم الكلام ضعيفة ومن الصعوبة بمكان ترجمتها وتحليلها.
2. الملاحظ تصاعد الأرقام في القرآن وعلومه باستثناء فترة أمراء الطوائف وانحصار المد الإسلامي في الأندلس بسبب حركة الاسترداد المسيحي.

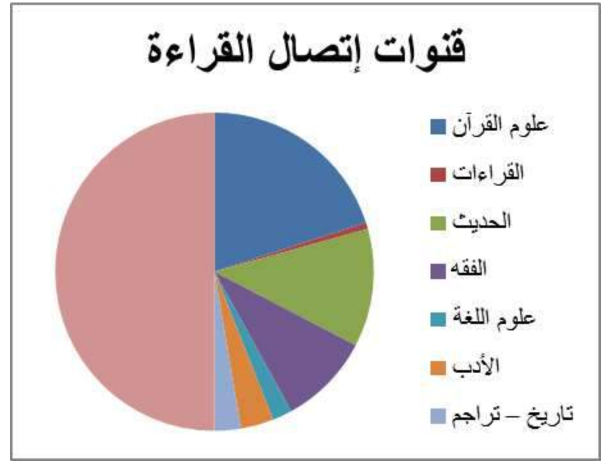
وقد أثارت جدلا كبيرا عند علماء التراث تراجم ابن أبار الذي أعطانا أرقاما حول الفلسفة خلال القرن الثاني عشر[18].حاول ابن الأبار تدوين الكتب في تراجع سواء التي أخذت عن طريق القراءة أو الرواية، وهو غالبا ما يعطينا صفة الانتقال عن طريق السماع والقراءة عند ابن الأبار لأنّهم الشيوخ ولا المتلقي المترجم له. والجدول التالي يوضح لنا أعداد الكتب في مجال قناة الاتصال: القراءة:

جدول(5) قنوات اتصال القراءة عند ابن الأبار:

قنوات الاتّصال	العدد	النسبة
علوم القرآن	30	بم□%

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القراءات	1	% □□يم
الحديث	18	□ مم%
الفقه	14	تن,□ يم%
علوم اللغة	3	% 4
الأدب	5	% تن□□
تاريخ – تراجم	4	% □□ين
المجموع	75	% 100



رسم بياني قنوات اتصال القراءة عند ابن الأبار

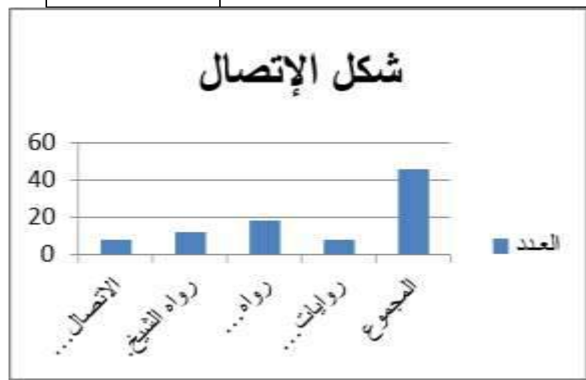
كل أنماط العلوم الإسلامية ممثلة في هذا الرسم البياني، تدل على أنّ علوم القرآن أخذت حيزا كبيرا من الاهتمام، وخاصة في مجال القراءات القرآنية. لقد ازدهرت علوم القرآن كثيرا في الأندلس. وهي ضرورية بالنسبة لدراسات أصول الفقه الإسلامي، كما أن علوم القرآن لها ارتباط وثيق بعلوم اللغة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العربية. إن قناة الاتصال: الإجازة، قد استعملت في التكملة بحدود 1301 مرّة بإشارة: أجاز له.
والجدول التالي يوضح لنا مجالات الإجازة.

جدول(6) أعداد مصطلح الإجازة عند ابن الأبار:

شكل الاتصال	العـدد
الاتصال بالشيخ عن طريق رواياته.	8
رواه الشيخ.	12
رواه وألف له وصنفه.	18
روايات مختلفة.	8
المجموع	46



رسم بياني أشكال الاتصال:

يلاحظ من خلال الجدول و الرسم البياني، أنّ تراجم التكملة استعملت في قناة الاتصال ما بين الشيخ والمتعلم بعبارة. أجاز له ولم يلقاه، وأجاز له ولم يسمع منه، كما أنّ ابن الأبار استعمل أحيانا، أجاز له ولقيه، وأجاز له وسمع منه.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

في مجال مصطلح الكتابة، فتم إحصاء 287 عبارة للمكاتبة بمعنى كتب، وجاء في إطارها 225 كتب إليّ بمعدل [illegible] %، وفي تعاقب هذا المصطلح يلاحظ تسجيل 62 مرة بمعدل [illegible] %، كتب إلى فلان أي الانتقال المعلومة عن طريق الكتابة استعمل ابن الأبار أدوات اتصال معرفية أخرى منها: المناولة، وتفقه بفلان، ودرس الفقه على. وقد ذكر ابن الأبار مصطلح حدث عن فلان 85 مرة وهو بذلك يشير إلى طريقه الاتصال الوثائقي لتراجمه في التكملة.

وفي نطاق آخر، سجل ابن الأبار 989 عبارة: روى عن، ويتضح مما سبق أن وسائل الاتصال الوثائقي المستعملة في التكملة، ترسم لنا بشكل جلي قنوات التواصل العلمي ما بين التراجم الببليوغرافية التي حافظت على ديمومة النشاط الثقافي والعلمي للعلوم الإسلامية السائدة بالأندلس والذي سينتقل بدوره إلى بلاد المغرب وهذا خلال الفترة المرابطية والموحدية.

لقد سارت طرق إجازة الكتب العلمية، جنبا إلى جنب مع رواية الحديث، فقد ارتبطت بالأسانيد، وصار العلماء أيا كان تخصصهم، يثيرون من خلال ما يكتبونه إلى أسانيدهم الموثقة. وكان على أولئك العلماء أن يترجموا لمن يأخذون عنهم، فازدهرت كتابة التراجم، واقترنت بإتقان علوم كثيرة ، وكان على من يتصدى لترجمة العلماء أن يكون على معرفة تامة بأعمار العلماء والوقوف على وفياتهم، وكان العلماء يقصدون من وراء الاهتمام بالتراجم البحث عن الرواة وتتبع أحوالهم. صار من مهام العلماء التوثيقية الإشارة إلى الأسانيد العالية والكتب التي يرويها العلماء أو تلك التي رويت عنهم. وانتشر عند العلماء نزعة تفضيل السند العالي والاعتزاز به، ويلاحظ أنّ مؤلفي هذه التراجم قد اهتموا اهتماما بالغا بتتبع أصول المترجمين والعناية بالأسانيد التي توصل إلى كثير من المعلومات.

اقتضت طبيعة الأمور تمحيص هذه المعلومات ومعرفة الرجال الرواة والثقات الضابطين وتتبع سيرهم العلمية والعملية والشخصية، ومبلغ أعمارهم والوقوف على مسار حياتهم ووفياتهم، وما نقلوه من كتب، وما درسوه وقرأوه وكتبوه وتعلموه على مشايخهم وأساتذتهم.لقد عكف علماء الأندلس وعلى رأسهم ابن الأبار على ترجمة الرواة النقلة، والعلماء من أهل كلّ فنّ، ومعرفة مصنفاتهم وما اشتغلوا به من ألوان المعرفة.من الواضح أنّ الاهتمام بالحديث النبوي والأسانيد، كان يحتم على العلماء الاشتغال بالتراجم، لذلك اعتبرت التراجم مادّة أساسية في كتب البرامج والفهارس والمشيخات والمعاجم.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

اهتم المؤلفون بمختلف طبقات العلماء والرواة وتأليفهم ومصنفاتهم، وأساليب بناء المعلومات في كتبهم وطرق تنظيمها واتجاهات العلماء في التحقق من معلوماتها والروايات الواردة فيها.

ومهما يكن من أمر تصنيف كتب البرامج والفهارس الأندلسية، وإن اختلفت في الأشكال التي صنفت على أساسها، وما دخل في ذلك من تأثيرات أندلسية، ولا سيما ما كان له صلة متينة بالبيئات: العلمية والمذهبية والمكانية والسياسية والعاطفية. فإن هذه الكتب قد أوصلت لنا معلومات ثمينة في إطار الاتصال الوثائقي.

يشير ابن الأبار أن أمة الإسلام قد اختصت بالأسانيد، وحمل الأحاديث والسنة عدلا عدلا، حتى وصلت إلينا عن طريق الإنسان وظهور الراوي ناقل الحديث، والمتن الذي هو موضوع الحديث.كما أن ابن الأبار تصدى إلى ظاهرة تسجيل الرواة، وحصر الموضوع، إذ يرى أن هذه الأمة قد خصت بالإسناد، باعتباره يساعد على تقييد العلم، وعندما أعلن عن توثيق معلوماته وجمعها أشار إلى الأبناء باعتبارهم مصادر مهمة يعتمد عليها، وهي مصادر الأصحاب والتلاميذ والسماع منهم مباشرة، تعني سلوك طريق الإسناد الموثق.

يلاحظ أيضا أن ابن الأبار في التكملة يهتم كثيرا بمصادر المعلومات الأخرى، غير الإسناد ، فيذكر الروايات ويجيز المسموعات والمجموعات ويميل على فهارس الأشياخ ويسميهم ، ولا سيما أولئك الذين أخذه عنهم قراءة وسماعا ومناولة وإجازة، ومن كتب إليهم ممن لم يلقنوه.

وعلى الرغم من التعقيدات التي كانت تحيط بهذه المصادر وتشكل أوعية المعلومات الأساسية للمكتبة الأندلسية، فإنّها أفرزت لنا عددا لا يستهان به من الكتب التي اعتمدت على معلومات كثيرة وكثيفة.

والواقع أن ابن الأبار يقدم لنا إحصائيات مفيدة، يوضح فيها كثيرا من الأمور التي قد تكون مفيدة للباحث والدارس المدقق، ومنع أعمال التحريف والتبديل والإضافات، ويدل أيضا على قناعات علمية ومنهجية سلكها ابن الأبار في توثيق مصادر معلوماته الببليوغرافية.وتكشف لنا حدود التكملة من خلال تراجم، أرقام مرتفعة (فقه، قرآن)، وأرقام هزيلة (علوم، فلسفة). والجدول التالي يوضح لنا من

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الناحية العددية قيمة التخصصات والتوجهات العلمية في الأندلس على حساب النوعية خلال الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى الثاني عشر الميلاديين.

الإحالات :

(*) يعتمد على تراجم التكملة عموما من خلال المصادر التالية:

- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، طبع في اسبانيا 1887م–1889م، مدريد، المستشرق الإسباني F. Codera، ج5-7، ونرمز له بـ أ.
- ابن الأبار التكملة لكتاب الصلة، تعليق ألفريد بل وابن أبي شنب، الجزائر، مطبعة فونتانا، 1919م، ونرمز له بـ ب.

هذه النسخ هي التي تم الاعتماد عليها في الدراسة البيوغرافية للإنتاج الفكري في الأندلس.

مع العلم أننا تحصلنا على نسخة كاملة من التكملة.

ابن الأبار، محمد بن عبد الله البلنسي، (تحقيق: عبد السلام الهراس)، بيروت: دار الفكر للطباعة، 1415هـ/1995م، 4 أجزاء، في مكتبة الشاملة الالكترونية، واستفدنا من التراجم المفقودة.

ابن الأبار، التكملة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989م.

ووفقا لذلك كانت التراجم على الشكل التالي:

- عدد تراجم الأبياري: 2188 ترجمة.

عدد تراجم الهراس: 3596 ترجمة.

(1) حول حياة ابن الأبار يرجى العودة إلى:

الزركلي، الأعلام، المصدر السابق، ج6، ص: 233.

محمد بن شاكر بن أحمد، الكتبي، فوات الوفيات، (نشر: إحسان عباس)، ط1، بيروت: دار صادر، 1974م، ج4، ص ص: 404–406.

عبد الرحمن، بن خلدون، العبر، بيروت: دار الفكر، 1408هـ/1988م، ج1، ص: 422/ج6، ص: 389.

(2) المقري، أزهار الرياض، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1358 هـ – 1939 م ،ج3، ص: 205.

(3) انخل، بالنثيا، المرجع السابق، ص ص: 277–288.

(4) الغبريني، المصدر السابق ص70.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(5) أحمد، المقري، نفح الطيب ... المصدر السابق، ج3، ص ص: 346-347.

(6) أنخل، بالنثيا، المرجع السابق، ص: 278.

(7) كارل بروكلمات، تاريخ الأدب العربي، دون طبعة ودون تاريخ، ج6، ص ص 313-316.

(8) أعتاب الكتاب.

(9) أنخل، بالنثيا، المرجع السابق، ص ص: 278-280.

(10) عبد السلام، الهراس، " إنتاج ابن الأبار البلنسي "، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 22، مدريد 1983م-1984م، ص: 106.

(11) حول المزيد من شرح إنتاج ابن الأبار يرجى العودة إلى عبد السلام الهراس، ص ص: 107-116.

(12) A. BEL et M. BEN CHE NEB, à la préface d'ibn el – Abbar à sa takmila -t- essila », in, R. A, N° 59, 1918, PP : 306-335.

(13) – محمد بن يحي بن خلف الأنصاري النحوي، (ت: 872).

– محمد بن يحي بن محمد الجذامي، يعرف بالنيار (ت: 876).

– عبد الله بن قاسم بن خلف اللخمي، يكنى أبا محمد ويعرف بالحرار، (ت: 1457).

ابن الأبار، ط مدريد، 1886م.

(14) نظرا لتفاقم الأوضاع السياسية في الأندلس ولكن بفعل التوسع الإسباني على حساب المناطق الإسلامية وخلال القرن 15م، بدأت مرحلة جديدة اختار سكان الأندلس بخصوص البناء أو الهجرة من الأندلس، ويتضح ذلك من خلال فتوى الونشريسي:

السؤال: هل تجوز إقامة المسلم في بلد غلب عليه النصارى؟

الجواب: الهجرة إلى أرض الإسلام ؟ إلى يوم القيامة "إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام ؟ إلى يوم القيامة.لا تجوز الإقامة إلا في حالة العجز عن الهجرة بكل وجه الأدلة من القرآن الكريم "ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية لعنه الله تعالى على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز بكل وجه وحال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع".

للمزيد راجع: أحمد بن يحي الونشريسي، " أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر" صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، (تحقيق: حسين مؤنس)، عدد 1-2، المجلد 5، 1957م، ص: 64.

(15) يتساءل أحد المؤرخين على إشكالية حضارية خطيرة تتمثل في قبول إسبانيا للمسيحية وليس شمال إفريقية، وهذا تناقض واضح في مفاهيم هذا الباحث، أنظر:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Charles (E), Du fourcqui, « Pourquoi l'Espagne –est- elle redevenue chrétienne et non l'Afrique du Noud Berbérine et Ibérie médiévales ; un problème de rupture », in R.H, Paris, Oct- Déc, 1968, pp. 293-324.

(16) Vésase G. Vajda : « un opuscule inédit d'assilat », in, Bulletin d'information de l'institut de recherche et d'histoire de textes n°14. Paris, 1966, pp.85-92

(17) العلماء الذين توفوا ما بين (540-595 هـ/1145-1198م) ومعظم المدارس ومراكز التعليم كانت في العهد المرابطي، بينما المرحلة الثانية فإنّ جلّ العلماء توفوا خلال مرحلة (596 هـ/1199م) أي في العهد الموحدي.

(18) Dominique , Urvoy, le monde des Ulémas andalous du V/XI^e au VII/XIII^e siècle, Genève, Librairie Droz, 1978.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مقاربة حول النخب والمثقفين الجزائريين خلال الحقبة الكولونيالية الأولى1850- 1912

أ.د. مهديد ابراهيم
جامعة وهران 1- أحمد بن بلة
البريد الإلكتروني: mehdid31hist@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2017/01/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

كانت الطبقة المثقفة الجزائرية خلال العقود الأولى من القرن العشرين نتاج الثقافة الفرنسية المحضة (والتي مثلت التيار الليبرالي للمطالب لاحقا). فرفقة ذلك هناك صنف مثقف ومتشبع بالثقافة العربية الإسلامية أو مزدوجي اللغة تَمَثل في عناصر وأطر واعية قادت حركة النهضة في الجزائر منذ نهاية القرن الماضي وصولا إلى الاحتفال الاستعماري المئوي لاحتلال الجزائر وعقد الثلاثينيات وذلك على المستوى الثقافي والسياسي. وكان لوجود هذه الفئة الثانية من المثقفين، داخل تلك النهضة نتائج حاسمة، تمثلت في خلق توازن في القوى السياسية داخل الحركة الوطنية الجزائرية، بل وقلب الميزان لصالحها خصوصا بعد نجاح وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة خلايا نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري من بعد، داخل ربوع ونواحي الوطن.

الكلمات الدالة:

الطبقة المثقفة الجزائرية – النخب – الحقبة الكولونيالية – مزدوجي اللغة – جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

العنوان بالإنجليزية:

An Approach on the Algerian Elite and Intellectuals during the First Colonial Period, 1850-1912

Abstract:

The Algerian intelligentsia during the first decades of the twentieth century was the product of pure French culture (which later represented the liberal trend of demands). In addition to this, there is a cultured and saturated cult of Arab-Islamic

culture or bilingualism represented in the elements and frameworks of awareness led by the Renaissance movement in Algeria since the end of the last century to the centenary colonial celebration of the occupation of Algeria and the 1930s, on the cultural and political level. The existence of this second category of intellectuals, within that renaissance, had decisive results, namely, the creation of a balance in the political forces within the Algerian national movement, and even turned the balance in their favor, especially after the success and establishment of the Association of Algerian Muslim Scholars with the cells of the North African Star and the Algerian People's Party Nationalities and aspects of the homeland.

Key words:

Algerian intelligentsia - elites - colonial era - bilingual - Algerian Muslim Scholars Association.

كخطوة أولى وتسهيلا للطرح والنقاش، علينا أن نسجل نقطة جوهرية وحساسة تتعلق بالطبقة المثقفة الجزائرية خلال العقود الأولى من القرن العشرين –بل وقبله بقليل–، إذ لا يجب حصر فئاتها في نظرنا واصطفاء دورها في "نخبة" كانت نتاج الثقافة الفرنسية المحضة (والتي مثلت التيار الليبرالي للمطالب لاحقا). فرفقة ذلك هناك صنف مثقف ومتشبع بالثقافة العربية الإسلامية أو مزدوجي اللغة تَمَثَل في عناصر وأطر واعية قادت حركة النهضة في الجزائر منذ نهاية القرن الماضي وصولا إلى الاحتفال الاستعماري المئوي لاحتلال الجزائر وعقد الثلاثينيات وذلك على المستوى الثقافي والسياسي. وكان لوجود هذه الفئة الثانية من المثقفين، داخل تلك النهضة نتائج حاسمة، تمثلت في خلق توازن في القوى السياسية داخل الحركة الوطنية الجزائرية،بل وقلب الميزان لصالحها خصوصا بعد نجاح وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة خلايا نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري من بعد، داخل ربوع ونواحي الوطن.

– سيرورة حركة المثقفين الجزائريين

فالمثقفون(Intellectuels)والنخبة (L'Elite) والمتطورون (Evolués) كلها أسماء ترافقت في كثير من الكتابات والأدبيات المعاصرة داخل الهيسطوغرافية الحاضرة، فقلما لوحظت مميزات إحدى الفئات وخصوصيات الأخرى داخل التعريفات العديدة بالنسبة لهذه المفاهيم. وإذا كان مصطلح "النخبة"

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قد انتشر في القرن العشرين خاصة ليغطي نشرات الصحف وغيرها « فإن الصحافة الفرنسية بجميع أشكالها وألوانها هي التي أطلقت إسم "النخبة" على جماعة من الناس، تمييزا لهم عن بقية أفراد المجتمع. وذلك تشجيعا لهم لمواصلة السير في طريق الإدماج والمطالبة بالجنسية الفرنسية، لأنهم الوحيدون القادرون على التأثير على زملائهم وإخوانهم كونهم يملكون قوة فكرية وثقافية تجعلهم في الصف الأول من المجتمع بل وفي طليعته، وبهذا يصبحون بحق الوسطاء النشيطين والفعليين بين المجموعتين من المتباعدين ثقافيا ودينيا »[1].

فالمعروف تاريخيا أن دور المدرسة الفرنسية كان أساسيا في تكوين فئة من"المتمدرسين" تربت تربية فرنسية خالصة وفي محيط وبيئة فرنسية بعيدة عن واقعها[2]، لم تنل من ثقافتها العربية الإسلامية إلا النذر القليل، الشيء الذي جعلها لا تميز بين ثقافتها وثقافة المستعمر. هكذا عملت هذه المؤسسة التعليمية لخلق "نخبة" مثقفة وتهيئتها، تكون قادرة على نشر أفكار التقدم الفرنسي وقضائه، «بصفتها برجوازية محافظة ترتبط بفرنسا أكثر فأكثر وتميز الطريق المتبع تحت السيطرة »[3]الفرنسية. فالمدرسة الفرنسية كانت تبحث في هذا الاتجاه على إقناع الجزائريين بكافة الوسائل بعظمة وقوة فرنسا –خوفا من تحول التيار الوطني ضدها– فوضعت الغاية التي هدفت إليها "أن الهدف المنشود ليس تكوين موظفين خاصين ولا تحضير مدرسين للتعليم العمومي، وإنما لتكوين رجال يساعدوننا على تحويل المجتمع العربي وفق متطلبات حضارتنا"[4].

وحتى يؤدي هؤلاء "الوسطاء" دورهم –أو واجبهم– رأى الأوربيون أن تكون « الدراسات قوية بهدف محاربة الأعداء الذين يعترضونها فيما بعد، ويجب أن نركز الجهود كلها لجعل هؤلاء السكان مشابهين إلينا، متحمسين لحضارتنا أو على الأقل لجعلهم يرغبون في التقرب إلينا شعورا وفكرا »[5]. فالإدارة الفرنسية لم تكن تنوي تكوين موظفين صغار فقط وفقا لضرورات الواقع الاستيطاني –الاستعماري ولكنها فكرت كذلك للتأثير على المجتمع المسيطر عليه من خلال هؤلاء المساعدين النخبويين، قصد « تحويل المجتمع الإسلامي، ومع الزمن حمله على تعلم لغتنا وقضائنا وعاداتنا وتقاليدنا، وكذلك على انتقائنا وخيارنا الديني أم الفلسفي »[6]. أمام هذه المعطيات الاجتماعية التاريخية لتهيئة النخبة، علينا أن نقر أنها تكونت في المدارس "العربية الفرنسية" والثانويات التي أنشئت بعد 1850 وغيرها من

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المعاهد الفرنسية التي منحت هذه"النخبة" مدخلا إلى الثقافة الأوربية كمدرسة "تكوين المعلمين" ببوزريعة.

فالطرح يوحي بأننا بصدد تمييز شريحة من المجتمع الجزائري وهي "الشريحة النخبوية" ذات الثقافة الفرنسية والتي انبهرت بالحضارة الفرنسية وراهنت على الفرنسية واقتنعت بضرورتها وإمكانياتها. و"يشمل هذا الصنف العناصر التي تجنست بالجنسية الفرنسية وتخلت عن أحوالها الشخصية –حسب الفقه الإسلامي– أو ما اصطلح على تسميتهم بالإدماجيين"[7]، فهي فئة متميزة لا هي جزائرية بثقافتها وفكرها ولا هي فرنسية بعرقها وجنسها ومن هنا وقعت عرضة لازدراء المجتمع الجزائري، فقد نعتوا" بالمرتدين" وعوملوا بدون احترام. ومن هنا اعتبرت جماعة النخبة أنفسهم "خارجين عن القانون" بالنسبة إلى كلا المجموعتين، الجزائرية والفرنسية[8]. هاته الجماعة هي التي رفعت في نضالها شعار التقارب والتفاهم بين المجموعتين المذكورتين.

وفي خطوة أخرى نود مقاربة الصنف الثاني من المثقفين الجزائريين وهي الطبقة المتشبعة بالثقافة العربية الإسلامية أو هي مزدوجة اللغة والثقافة والوعي بالهوية الوطنية.« وهو صنف المتعلمين الذين استفادوا من فرص التعليم الفرنسي وإن بدرجات متفاوتة. لكنهم ظلوا متشبثين بمظاهر الشخصية الوطنية حريصين على عدم الانفصال عن قاعدتهم الاجتماعية، ويشمل هذا التمسك بالشخصية العربية الإسلامية مظاهر مختلفة اجتماعيا وفكريا وسياسيا أحيانا أخرى، تمثلت الأولى في الحفاظ على طابعهم العربي الإسلامي في لباسهم وسلوكهم داخل المدرسة وخارجها، بينما تمثل تمسكهم الفكري والسياسي في تأييد الحركات الإصلاحية الدينية، أي تأييد حزب سياسي وطني »[9]، قد يظهر في المستقبل.

من بين الملاحظين الموجودين بالجزائر والقريبين من هذه الطبقة المثقفة هناك المستغرب –المستشرق "جورج مارسي"(Géorges Marçais) الذي كان مديرا للمدرسة العليا بتلمسان حيث اعتبر النخبة "أولئك الجزائريين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية والذين يعرفون عن مؤلفي العصر الإسلامي الذهبي وعن كتاب التراث الفرنسي"[10]. أي تلك الجماعة التي درست كلا من الحضارة العربية والفرنسية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وإذا حاولنا الاستناد في الطرح على هذه الازدواجية في الثقافة واللغة عند هؤلاء المثقفين، فإننا نلح من ناحية أخرى على "مفهوم" الوعي (conscience) الاجتماعي والسياسي الذي اتسمت به هذه الطبقة، وبمرور الزمن حيث التعبئة، أو الشعور بدورهم الهام الذي يلعبونه في شؤون بلادهم، وبصفتهم "أنتيليجانسيا" (Intelligencia بالمفهوم الروسي أثناء تلك الفترة) يواجهون مشاكل أمتهم الكبيرة.

وإن تتبعنا تاريخيا حقيقة بروز هذه الطبقة المثقفة، للاحظنا أنها كانت نتاج الأسلوب التعليمي– المفروض فرنسيا– ووسط البيئة الثقافية التي احتضنته منذ منتصف القرن التاسع عشر والذي أدى نتيجة السياقات التكوينية إلى نوعين من المثقفين؛ مثقفي المدرسة الفرنسية ومثقفي المدارس والمعاهد القرآنية والجامعات الإسلامية. وحتى إذا حصل هذا الانقسام حقيقة فلا يجب أن ينظر إليه بصفة تفرع ثنائي، إذ يجب الأخذ في الاعتبار واقع المثقفين المتخرجين من المدارس الإسلامية الجزائرية –تلمسان، قسنطينة والعاصمة– أولئك الذين يشكلون عملية اتصال بين النوعين"[11]السابقين. وحتى مسألة الانقسام اللغوي عند المتفرنسين والمعربين يجب تفادي طرحها داخل علاقة معارضة، بل فهمها في سياق منافسة– تكاملية[12].

فمن المسلم به أن اللغة الفرنسية هي لغة مؤسسات النظام الاستعماري والمهيمنة داخل الأوساط السياسية والاقتصادية مقارنة إلى اللغة العربية؛ إلا أن دور اللغة العربية لم يختف رغم تقلصه في المحيط الرسمي الاستعماري. فمن جهة هناك ثبات واستمرارية هذه اللغة داخل بيئتها الثقافية العربية الإسلامية، ومن جهة أخرى فإنها استطاعت مواكبة التغيرات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي حصلت طوال الفترة الاستعمارية الممتدة خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن الحالي (إن في مجال التكوين التقليدي والترجمة والإدارة)، ومواكبة تيار النهضة والحداثة المسجلة في المغرب العربي (الصحافة والخطابة، العرائض، الأندية والجمعيات) اقتداء بما يحصل في المشرق العربي. وكما أسلفنا ضمن سياقي "التطور الاجتماعي" و"الجذور التاريخية الثقافية" بالنسبة للقطاع الوهراني وبالتوازي مع مناطق البلاد الأخرى هناك استمرارية لدور الزوايا والمدارس القرآنية والمعاهد الإسلامية خلال هذه الفترة كمؤسسات تعليمية؛ إذ أن المتخرجين من هذه المؤسسات سوف يسلكون اختيارات عديدة مثل انكبابهم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

على فتح المدارس القرآنية والتحاقهم بالعدالة والإدارة كأعوان ومترجمين وغيره. إن نموذج المثقفين الذين تقلدوا مناصب "عدول" و"باش-عدول" وأعوان-أهالي و"خوجا" وغيرها من المناصب السياسية والاجتماعية بواسطة هذه اللغة يفيد ببقاء وصمود اللغة العربية كأداة عمل، ونموذج خريجي زوايا منطقة مستغانم –وليس الفريد– جدير بالاهتمام خلال هذه الفترة[13].

في الغالب كان التعليم السائد والمنتشر في ربوع المناطق الجزائرية هو التعليم العربي التقليدي الذي استمر في تأدية وظائفه. فحسب إحصاء 1871 كان عدد الزوايا بمؤسساتها الدينية والثقافية تقترب من الألفي زاوية تشرف على تعليم وتثقيف حوالي 28000 تلميذ من السكان[14]. كما كانت هذه المدارس التقليدية تكون وتحضر الطلاب للالتحاق في المستقبل بالمعاهد المشهورة مثل جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في مدينة فاس، وأحيانا أخرى إلى جوامع المشرق العربي في مصر وسوريا والحجاز.

إن المؤسسات المذكورة استطاعت المحافظة على اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في مستوى محترم متحدية بذلك الإجراءات التعسفية الاستعمارية ضدها. ولا يمكن أن نقلل من الدور الحيوي لهذه المدارس القرآنية والزوايا في نشر الثقافة والعلم في فترات صعبة، تميزت بانعدام وجود تنظيم رسمي خاص بتعليم الجزائريين، صحبة قصور السلطات الفرنسية في القيام بواجبها "الحضاري". ففي 1891 أقرت لجنة مجلس الشيوخ التي زارت الجزائر "أن التعليم المقدم حاليا في الجزائر متروك في أيدي الأهالي. والزاوية التي يدرس فيها القرآن وتفسيره هي المؤسسة التعليمية والتربوية الوحيدة في البلاد".

– دور "المدرسة الإسلامية" بتلمسان (Medersa de Tlemcen)

عندما نحاول ملامسة البيئة الثقافية التي حوت إلى حد ما عملية تكوين الناشئة الجزائرية داخل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حتى تبرز وتتطور في شكل شريحة مثقفة ونخبوية، فمن الضروري التأكيد على الدور الذي لعبته المدرسة الإسلامية العليا بمدينة تلمسان (Medersa de Tlemcen) على غرار مدرستي قسنطينة والعاصمة انطلاقا من تاريخ تأسيسها. فهي المدرسة التي « نشأت في شهر جويلية 1848 "بالعباد" قرب مسجد سيدي بومدين –في البداية– بهدف تعليم الشباب وخصوصا تكوين "الدرارين" بالنسبة للقبائل [العربية]، تفاديا من توجههم إلى زوايا منطقة القبائل حيث التعليم المناوئ لنا »[15]، قبل أن تتأسس نهائيا بقرار رآسي في 30 سبتمبر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

1850 حيث اختصت بالدراسات التعليمية الهادفة إلى تكوين وتخريج موظفين تحتاجهم الإدارة الاستعمارية كالمفتي والعدول والمترجمين ومدرسي اللغة العربية.

كانت هذه المدرسة الإسلامية ذات الطابع الفرنسي تدار تحت أشراف مسؤول فرنسي يتقن اللغة العربية ولا تخفي نوايا السلطات الفرنسية من وراء هذه السياسة إزاء المدارس الإسلامية الثلاث وبجعل هذه الأخيرة تحت رقابتها، وإبعاد السكان الجزائريين عن تأثيرات رجال الدين في الزوايا والمساجد والمدارس الحرة؛ ومن ناحية أخرى حاولت الإدارة الفرنسية بتأسيس هذا التعليم الإسلامي منافسة الزوايا الموجودة في المغرب وتونس، حتى ينتقص من قيمتها ووزنها العلمي بتخفيض عدد طلابها من الجزائريين الوافدين إليها وإبقائهم في الجزائر لمتابعة الدراسات العالية في المدارس الإسلامية الحكومية؛ وكان يشترط للالتحاق بهذه المدارس معرفة اللغة الفرنسية رغم أنها أنشأت للدراسات العربية الإسلامية، إلى جانب أنه لم يسمح لكل الجزائريين التعليم والتكوين بها وإنما فقط لأبناء العائلات الذين أظهروا ميلا لفرنسا واستطاعوا التقارب والتجاوب مع سلوكها ونظمها[16]. وفي إطار تنظيم المدارس الإسلامية صدر مرسوم يدعم قرار 1850 بفرض شهادة الكفاءة الإجبارية للطلاب حتى يلتحقوا بها بعد أن يكون قد تابعوا دراستهم الابتدائية في المدرسة العربية–الفرنسية و(Ecole française-musulmane).

لم تستطع هذه المدارس الإسلامية أن تجلب إليها في المرحلة الأولى الأعداد الكافية من التلاميذ الجزائريين، وخاصة الخارجين عن دائرة مكان وجودها. فكان يراعى فيهم كذلك موقفهم اتجاه السلطات الاستعمارية كتوفر شروط الأمانة والصدق والشعور الحسي إزاءها. ولإدخال التأثير الفرنسي في المدارس الإسلامية، صدر مرسوم 1865 الذي وضع إدارة ومراقبة وتفتيش هذه المدارس بيد أيدي السلطة الفرنسية، كما صدر من بعد ذلك مرسوم 16 فبراير 1876 في حق هذه المدارس ليعكس الطابع "السياسي والفرنسي لها، فحدد هدف المدارس العليا للقانون الإسلامي" في تكوين مرشحين وموظفين للأعمال القضائية والتعليمية والدينية إلى جانب بعض الوظائف التي هي بإمكان المسلمين غير المتجنسين شغلها بفضل مرسوم 21 أفريل 1866.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كما أعفى مرسوم 1876 حاكم المنطقة العسكرية من إدارة التعليم فيها لصالح مدير التربية مبقيا دوره للمراقبة السياسية والإدارية الرسمية. وقد أعتبر المرسوم المذكور والملحق بتنظيم 7 مارس 1877 هذه المدارس رسميا "مدارس عليا للقانون الإسلامي" تحتوي كل مدرسة على ستة أساتذة (ثلاثة مسلمين وثلاثة فرنسيين) يقومون بإعطاء تكوين كامل في هذه المدارس خلال ثلاث سنوات لطلاب داخليين لا تقل أعمارهم عن سبعة عشر سنة. ومن ناحية البرامج التـي شملته هذه المدارس الإسلامية في مرحلتها التأسيسية (1848-1850) هناك "مواد التوحيد والفقه التشريعي والنحو واللغة"(17)؛ قبل أن تصقل ببرنامج أكثر كثافة وفقا للمادة الرابعة من مرسوم 1876 التي حوت تعليم اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا والحساب وبعض مبادئ القانون الفرنسي كالقانون المدني، والجنائي والإداري، بالإضافة إلى تعليم اللغة العربية والأدب العربي وعلم التوحيد والقانون الإسلامي.

وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى مرسوم 21 نوفمبر 1883 الذي أعفى حكام المقاطعات العسكرية من مراقبة المدارس الإسلامية وإرجاعها إلى الحكام المدنيين (Préfets)، رفقة نقل تسيير هذه المدارس والإشراف عليها من طرف مديرية التربية. أما مرسوم 23 مارس 1895 الذي جاء تتويجا للتقرير الذي قدمه عضو من مجلس الشيوخ، "كومب" (Combes) حول "وضعية تعليم الجزائريين" فقد أتى بعدة إصلاحات وحدد مدة الدراسة في هذه المدارس بأربع سنوات (عوض ثلاثة)؛ وتأسس إلى جانب ذلك قسم عالي "La Division Supérieure" تكون مدة الدراسة سنتان وهو ملحق بمدرسة العاصمة، أي ما يساوي في المجموع ست سنوات. وهذا القسم العالي مخصص فقط لعدد قليل من العناصر التي تثق فيها الإدارة الفرنسية، والذين تربطهم معها علاقات حسنة(18)، لأنهم سيتولون مناصب عالية ومهام في القضاء الإسلامي؛ ولا يلتحق بهذا القسم إلا الطلبة الحاصلون على "شهادة الدراسات" المتخرجون من المدارس الإسلامية الثلاث. كما تأسس بحكم هذا المرسوم صف جديد للصحة العامة وشعبة للتجارة لم يكتب لهما النجاح الكبير. ورجوعا إلى المنطقة الوهرانية—بعد هذا العرض التنظيمي للمدارس الإسلامية الثلاث– فإننـا نرى دور المدرسـة التلمسانية مهمـا للغاية سواء من الناحية الزمنية (1848-1912 وما بعد أيضا) في استقباله لوفود الطلبة وتخرجهم، أو فيما يتعلق بالجانب

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التكويني لهم وهو التكوين الذي اقترب بيداغوجيا من التحديث في البرامج على الطريقة العصرية عبر المراحل التاريخية المعروفة.

إن المحلل للأرشيف والوثائق المتعلق بالمدرسة الإسلامية التلمسانية(19) يلمس جوانب عديدة بالنسبة للبيئة الثقافية والعلمية التي كانت تسير عليها المدرسة منذ بداية عهدها وبالنسبة للعلاقة المنسوجة بينها –كمؤسسة علمية وتربوية– وبين الزوايا الدينية التي كانت تزودها بأفواج الطلبة لفترة طويلة، مثل زاوية أولاد سيدي الطيب "بعمي موسى"؛ وفي مرحلة ثالثة هناك علاقة عضوية وتكاملية بين أساتذة الشريعة واللغة والفقه الذين ينتمون إلى هذه المدرسة والمدرسين (Mouderres) في مساجد المدن الكبرى كتلمسان، وهران، معسكر، بلعباس ومستغانم بصفتهم مفتين وأئمة ومعلمين داخلها، يمكن إلحاقهم كأساتذة بالنسبة للمدرسة التلمسانية من الإدارة الحكومية أثناء شغور المناصب؛ وفي حالات عديدة يُعيِّنُونَ في القضاء الرسمي بصورة عادية أو كمستشارين ومساعدين في بعض المهام العليا، مثلما حدث مثلا "لسي بوعلي الغوتي بن محمد"، المدرس بمسجد سيدي بلعباس عندما انتدب إلى مدينة طنجة المغربية ليساهم في تحرير جريدة "السعادة"(20) لستة أشهر ومنذ مايو 1904.

فهي المدرسة التي عرفت كبار العلماء في الشريعة واللغة والنحو والتوحيد في الجهة الغربية من الوطن أمثال سي أحمد بن طالب (من تلمسان) ومولاي الطيب ولد بن عزة (من لحناية) وسي محمد ولد عبد الله (من العباد) وسي الطاهر بن غراس (قاضي ترارة) وسي محمد بن مرابط (من تلمسان) مع نهاية الربعينيات وخلال الخمسينيات؛ وهناك الحاج محمد بن عبد الله الزقاي، صاحب إجازة في البلاغة من جامعة الأزهر وسي محمد بن ويس وسي محمد بن الشيخ وسي الحبيب بن العربي وسي محمد بن أحمد وسي الحاج محمد بن بوطالب وسي ميلود بن نميش وسي أحمد بن البشير (من معسكر) –هذا الذي تتلمذ على يد الشيخ بوراس ولد الشيخ بوطالب بمازونة– وسي أحمد بن حمزة وسي طاهر بن حسان، وكلهم أساتذة امتد نشاطهم خلال عقدي الستينيات والسبعينيات، مع البغدادي بن يوسف والهاشمي بن أحمد –مع الثمانينيات– وصولا إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع أبي بكر عبد السلام بن شعيب.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ونعتقد أن شريحة واسعة ورئيسية من الطلبة المتخرجين من هذه المدرسة استطاعت أن تحتل مكانتها في المجتمع الجزائري كوسيط داخل المؤسسات الاجتماعية والدينية والثقافية كإداريين وقضاة ومفتين ومدرسين وغير ذلك(21). وإذا كانت أفواج الطلبة التي التحقت بالمدرسة حكرا على مدينة تلمسان في بداية عهدها (1848–1860)، فإن فئات أخرى من مختلف مناطق القطاع الوهراني الساحلية والداخلية –من الزوايا وطلبة الأقسام الملحقة بالمساجد الكبرى في العمالة– أصبحت تتنافس على مقاعدها (1860–1880) قبل أن تمنح أولوية القبول داخلها للتلامذة الجزائريين المتحصلين على شهادات المدارس الفرنسية، أي أولئك المتخرجين من المدارس العربية الفرنسية (Ecole Arabe-Française) خصوصا بعد مراسم الإصلاحات التربوية لسنة 1877 وسنة 1895.

(جدول رقم 1)

معدل الطلبة المسجلين بالمدرسة الإسلامية بتلمسان			
الفترات التاريخية	المعدل	الفترات التاريخية	المعدل
1852 – 1848	25	1887 – 1883	44
1857 – 1853	35	1892 – 1888	26
1862 – 1857	51	1897 – 1893	38
1867 – 1863	60	1902 – 1898	33
1872 – 1868	55	1907 – 1903	47
1877 – 1873	53	1912 – 1808	56
1882 – 1878	50		

وفي إطار حركة التنظيمات التي شهدتها المدارس الإسلامية، صدر قرار 18 مارس 1905 لينظم سير هذه المدارس، وهو القرار الذي أصدره الحاكم العام جونار محاولا تشجيع الدراسات العربية الإسلامية، التي تعتبر جزء من سياسته الأهلية و «أن المصلحة تتطلب ذلك للاستفادة من طاقات الجزائريين »(22). فقد حاول الحاكم العام الرفع من مستوى تعليم اللغة العربية وتأسيس بعض المكتبات في المدن الكبرى لتسهيل مهمة تكوين مثقفين جدد، كما أعيد النظر في مستوى الأساتذة. ومنذ 1905 بدأ العمل بالإجراء الجديد المتمثل في أن يكون أساتذة هذه المدارس أنفسهم متخرجين من القسم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العالي بمدرسة العاصمة. أما فيما يتعلق باللغة الفرنسية والمواد المدرسة بجانبها بنفس اللغة، فإن الأساتذة المشرفين على تعليمها عليهم أن يكونوا حاصلين على شهادة البكالوريا ويحملون ديبلوم اللغة العربية وحاملين لشهادة "أهلية التعليم" من مدارس المعلمين. وكان من بين هؤلاء الفرنسيين الذين أشرفوا على التدريس في مدرسة تلمسان كل من المترجمين العسكريين بيلار(Pilard) وريكات (Ricat) وأساتذة اللغة الفرنسية ديسيو (Decieux) وديستانغ (Destaing) وريندامك (Rindemk) وإدمان دوتي (E.Doutté) ووليام مارسي (W.Marçais) والفريد بال (A.Bel) وغيرهم.

كان الفريد بال وهو مدير للمدرسة التلمسانية يرى من خلال تلك الإجراءات التنظيمية الجديدة ذات الطابع الفرنسي إمكانية تكوين « نخبة مثقفة من هؤلاء المتخرجين من المدارس الإسلامية الحكومية، أي شريحة نخبوية وقيادية بعيدة عن كل تفكير أرستقراطي أو أية مسبقات شبه دينية حمقاء »[23]. وأكثر من ذلك، فقد تركز العمل على المواضيع الفرنسية في البرامج التعليمية لهذه المدارس، لأن الهدف الأساسي عند الإدارة الاستعمارية كان يكمن في ترجيح كفة الأفكار الفرنسية وتطبيق الطرق التعليمية الفرنسية لموازنة التعليم العربي الإسلامي أي التعليم الديني بصورة أخص.

ونخلص في النهاية عن المدرسة التلمسانية أن تلمسان كانت إلى ما بعد 1900 تقوم بدور هام "كعاصمة دينية في الجزائر"[24]، والتي استطاعت أن تكون دفعات من الطلبة ابتداء من 1848 متشبعة بالثقافة العربية الإسلامية، وملمة بالعلوم واللغة ومبادئ القانون "المدني" و"الجنائي" و"الإداري" الفرنسي. وبازدواجية ثقافة ولغة هـؤلاء الطلبـة فهم مطلعون بالطبع على الحالة السيئة التي يوجد عليها الجزائريون –نتيجة السياسة الاستيطانية الاستعمارية منذ 1830– اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا. وهم على دراية رفقة زملائهم المتنورين من "صف المعلمين" وبعض "المثقفين التقليديين" كأبي بكر عبد السلام بن شعيب وأمحمد بن رحال الندرومي بما كان يجري رسميا في الجزائر من "تقصي البعثات البرلمانية" في المسائل التي تخص المجتمع الجزائري كما حصل مع "بعثة الثلاثة والعشرين" لجول فيري (Jules Ferry) سنة 1892، وبعثة 1900 وغيرها بدعوى ضرورة القيام بالإصلاحات في الجزائر.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ونتيجة هذا النشاط الثقافي–السياسي كله وبروز هذه النواة من المثقفين الواعين من داخل البرجوازية الإدارية الجزائرية، رفقة بعض المدرسين ممن أفرزتهم البرجوازية الصغيرة مطلع القرن الجديد، هناك تبلور تيار سياسي مبكر، لخوض غمار "التحديث" والإلمام بمشاكل المجتمع و"عجزه" عندما استطاعت جماعة من النخبة تأسيس لسان لها بوهران، متمثلا في البداية في صحيفة "المصباح" (El-Misbah) برئاسة المدرس العربي فخار خلال شهر جوان 1904؛ رفقة بعض المدرسين والإداريين الجزائريين من القطاع الوهراني أمثال "حمدان بوركايب" و"غمري حميدة" و"ابن منصور الصنهاجي" وأمثال الذين كانوا يوقعون مقالاتهم وتدخلاتهم بأسماء مستعارة مثل "الحاج" و"ابن خلدون" و"علاء الدين" (Aladin) و"ميمون".

استطاع هذا الشباب النخبوي الواعي أن يعزز نضاله الوطني ابتداء من 1911 بتأسيس صحيفة ثانية وباللغتين أيضا وهي "الحق الوهراني" (1911–1912). وهو المنبر الذي تحسس أكثر إلى مشاكل ومصير الطبقة الشعبية، وتميز بخطه الوطني ومواقفه "الصادقة" في بعض القضايا المصيرية للمجتمع الجزائري مثل "التجنيد العسكري الإجباري" و"الحقوق السياسية" وغيرها؛ حيث استطاع هذا المنبر أن ينال ثناء وارتياح بعض المفكرين والصحفيين في القطر الجزائري ببروزه في أصعب مقاطعة استيطانية مثلها القطاع الوهراني.

<u>* تنبيه لبعض المختصرات الواردة في النص:</u>

نش (نشرة) "….	Bull (Bulletin) « ……..
(أش.بر) الأشغال البرلمانية	Travaux -Les- parlementaires
(أش.بر.غ.ن) الأشغال البرلمانية، غرفة النواب	Chambre -La- des députés
(أش.بر،غ.ش)الأشغال البرلمانية،غرفة الشيوخ	Sénat -Le-
(أ.ف) إفريقيا الفرنسية	(A.F) Afrique (L') Française
(ن.ج.ا.و) نشرة الجمعية الجغرافية والأثرية لعمالة وهران	(B.S.G.A.O) Bulletin (Le) de la Société Géographique et d'Archéologie de la Province d'Oran
(ن.ت.أ) نشرة التعليم الأهلي	(B.E.I) Bulletin de l'Enseignement Indigène

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(أ.م.ب.بآكس) أرشيف ما وراء البحار بآكس أون بروفانس (فرنسا)	(C.A.O.M) Centre des Archives d'Outre-mer à Aix-en Provence
(م.أ.و.و) مديرية الأرشيف بولاية وهران	(D.A.W.O) Direction -La- des Archives de la Wilaya d'Oran
(م.م) المفوضيات المالية	(D.F) Délégations (Les) Financières
(أ.م) الأرشيف المغربي	(A.M) Archives -Les- Marocaines

الهوامش :

(1) أنظر حلوش (عبد القادر)، السياسة التعليمية في الجزائر 1871–1914، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1975، طالع : « مفهوم النخبة » صص 253–256.

(2) حلوش (عبد القادر)، المرجع السابق، ص263.

(3) COLLONA (F), les instituteurs algériens 1883-1939, ed OPU, Alger, 1975, p82.

(4) TURIN (Yvonne), Affrontement culturels dans l'Algérie coloniale, Ecoles, Médecines , Religions, 1830-1880, Edit. Marpéro, Paris, 1971, p 73.

(5) Idem, p73.

(6)COLLONA (F), op.cit, p80.

(7) الميلي محمد، "المسألة الثقافية"، ضمن المستقبل العربي، عدد 45، ص39.

(8) سعد اله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية 1900–1930، بيروت، مارس، 1969، ط1، ص194.

(9) الميلي(م)، نفس المرجع أعلاه. إننا نشاطر هذا التعريف لما سنطرحه –لاحقا– من قضايا اجتماعية وثقافية وسياسية بالنسبة لدور هذه الشريحة المثقفة.

(10) سعد الله (أ)، المرجع السابق، ص185.

(11) DJEGLOUL (A.E.K), « la formation des lettrés modernes algérien 1880-1930 », in travaux du laboratoire d'histoire et d'anthropologie sociale et culturelle (C.R.A.S.C) Oran, O.P.U, Alger 1988, n°04, pp7-9.

(12) DJEGLOUL (A.E.K), Op.cit.

(13) إننا نشاطر رأي جغلول عبد القادر عندما يثير ومهتما ، "بأن العملية الحثيثة لإعادة بنية الجهاز التربوي القديم، مع أنها غير معروفة ولم تنل حقها [من البحث والاهتمام] كانت تسير بالتوازي مع إنغراس جهاز التعليم الكولونيالي مع نهاية القرن [التاسع عشر] والحرب العالمية الأولى"، المرجع السابق، ص7. وهو ما تفيد به بعض مضامين محورنا "البيئة الثقافية في الغرب الجزائري" من جهة، وتسير مع هذا الانشغال الأكاديمي

(14) LEROY-Beaulieu (F), L'Algérie et la Tunisie, Paris, 2ème édition 1897, p251.

(15) A.N.O.M, cart 1J82 « Rapport sur l'école supérieure de Tlemcen ».

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

([16]) طالع مضامين أ.م.ب.آكس، (A.N.O.M), cart 1S.24

([17]) A.N.O.M, cart 1J82.Idem.

([18]) "نشرة التعليم الأهلي"، رقم 13، ص15 (Bulletin de l'Enseignement Indigène).

([19]) منها مثلا أرشيف ما وراء البحار بآكس أون بروفانس مع محفوظات رصيد "الحكومة العامة" تحت أرقام:
1.S24, 2.S24, 20J60 et 1J83…

([20]) م.أ.و علبة 4471، « عرض عن وضع الأهالي السياسي »، نوفمبر 1904.

([21]) من ذا ضرورة بروز أبحاث جامعية عن هذه "المدرسة–المؤسسة" بالنسبة للتاريخ الجزائري داخل الحقبة الكولونيالية.

([22]) حلوش (ع)، المرجع السابق، ص227.

([23]) MASSE (H), « les études arabes en Algérie (1830-1930) », in Revue Africaine, n°74 1933, p232.

([24]) AGERON (Ch.R), « le mouvement Jeune Algérien de 1900 à 1923 », in Etudes maghrébines, mélange Charles André Julien, Paris P.U.F1964, pp217-243.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مناهج الفكر النقدي الإصلاحي عند أبي علي الحسن اليوسي

صنهاجي الزوهرة
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال ، المغرب

تاريخ الاستلام: 2017/01/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

وقف الحسن اليوسي ناقدا لمواطن الخلل وبؤر الفساد التي كانت وراء ذلك الكائن الذي عمته الفوضى والانحطاط والتدهور في مغرب المرحلة المدروسة، مستشرفا لِمُكِنٍ يعمه النظام والصلاح والرقي والتقدم، لذلك زاوج اليوسي بين النقد والإصلاح فكان هذا الرجل من أهم النماذج التي أغنت رصيد التجارب الإصلاحية في تاريخ الغرب الإسلامي، وقد جاءت دراسة هذا النموذج داخل سياقه التاريخي والواقعي وداخل السقف المعرفي الذي تواجد فيه بمنهج نقدي تفاعلي استكشافي قائم على ربط الأسباب بالمسببات للوقوف على مدى تفاعله مع تلك الأحداث، وكيف استطاع أن ينسج رؤاه الإصلاحية انطلاقا من ذلك كله.

الكلمات الدالة:

مناهج الفكر النقدي الإصلاحي– – أبو علي الحسن اليوسي – الغرب الإسلامي

العنوان بالإنجليزية:

Curricula of critical thought reform when Abu Ali al - Hasan al – Yussi

Abstract:

Al-Hassan Al-Yussi criticized Al-Hassan Al-Yussi as a critic of the imbalances and corruption that were behind the chaos, degeneration and deterioration in the Maghreb of the studied stage, as well as the possibility of the regime, righteousness, progress and advancement. The Islamic West. The study of this model came within the context of the historical and realistic and within the knowledge ceiling, which was found in an interactive method of exploratory critique based on linking reasons

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

to causes to determine how it interacted with these events and how it was able to weave its reformist visions Of all of this.

Key words:

Curricula of Critical Critical Thought - Abu Ali Al - Hasan Al - Yussi - Islamic West

إن البحث في سير المصلحين، والوقوف على كيفية تعاملهم مع مجتمعاتهم فيه فوائد كثيرة، ومنافع جمة. ودراسة تجارب الإصلاح في تاريخ الأمة العربية الإسلامية عموما وتاريخ الغرب الإسلامي خصوصا مشروع شديد الأهمية، كبير الحيوية، لأن دعوة الإصلاح واحدة وإن اختلفت المداخل والمناهج والرؤى ووجهات النظر.. وسنن التاريخ تقتضي أخذ العبرة والدروس من تلك التجارب للوقوف على الفعل الإصلاحي فيها باعتباره قانونا كليا تخضع له الحركة التاريخية في بناء العمران البشري والقيام بمهمة الاستخلاف المنوطة بهم. واستخلاص قوانين علمية شاملة تساعد في صناعة الحاضر واستشراف المستقبل عن طريق التخطيط الاستراتيجي المستقبلي بناءً على تلك القوانين السنن، وتاريخنا الإسلامي في الشرق والغرب تاريخ مفتوح على ما قبله من زمان وعلى ما حوله من مكان يمكن التفاعل مع ما تراكم فيه من نتاج فكري إصلاحي. فالتاريخ مجال للنظر والدراسة متضمن سننا لابد من التفاعل معها واستلهام ما يمكن الاعتماد عليه في بناء مشاريع إصلاحية تدفع بالأمة قدما لاستئناف بنائها الحضاري. إن تجربة الغرب الإسلامي في مجال الفكر النقدي الإصلاحي لها من الأهمية ما يساهم في الدفع بعجلة هذا المشروع إلى الأمام. ولعل ما يميز عطاءها وما تمتاز به من الخصوصية يفرض لا محالة على الباحثين المهتمين دراسة خصائص تجارب ومدارس ومناهج الإصلاح بالغرب الإسلامي برؤية جديدة قائمة على الفحص التاريخي والتحليل العلمي واستخلاص العلل السببية والغائية من تلك التجارب.[1]

كان الحسن اليوسي من بين أهم تلك النماذج التي أغنت رصيد التجارب الإصلاحية ليس في تاريخ الغرب الإسلامي فحسب بل في تاريخ الأمة الإسلامية ككل لثراء إسهامه في بناء الكسب البشري في كثير من الحقول العلمية والمعرفية، ولتميزه بثقافته الموسوعية، وهو الذي كان له إلمام واسع بعلم التفسير والحديث والفقه والأصول والتصوف واللغة والأدب والبلاغة والمنطق والحساب، ألف اليوسي كتبا عديدة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تجاوزت الأربعين مؤلفا، رجل بهذا العلم الواسع، والتجربة الكبيرة حري بالمتخصصين في الفكر الإصلاحي الاشتغال على نتاجه العلمي والمعرفي، والاضطلاع بتجربته النقدية الإصلاحية بهدف تقوية الهمَّة والعزيمة في الإصلاح والتغيير، واستخراج سنن وقواعد وآليات ومناهج الإصلاح من هذه التجربة ـ وغيرها بطبيعة الحال ـ واعتمادها لتحقيق ذلك البعد الإنساني الاستخلافي، والفلسفة الوجودية الكبرى لأجل البناء والتحضر والنهوض. ولما كان النقد البَنَّاءُ هو أساس الهدم وإعادة البناء على أسس صحيحة، ولما كان الدواء لا يعطى إلا بعد تشخيص الداء فذلك كان منهج اليوسي في رؤيته الإصلاحية، شأنه شأن جميع المصلحين الذين كانوا يتخذون النقد خطوتهم الأولى لبناء مشاريعهم الإصلاحية. إن أي مشروع إصلاحي كيفما كان توجهه ومرجعيته، والواقع الذي يشتغل عليه، وسياقه التاريخي والسقف المعرفي الذي يؤطره، لا بد وأن تكون لديه وقفة نقدية، يشخص بها الداء، ويقف على مواطن الخلل وبؤر الفساد التي كانت وراء ذلك الكائن الذي تعمه الفوضى والانحطاط والتدهور... لاستشراف مُمْكِنٍ يعمه النظام والصلاح والرقي والتقدم الذي يكون هو أفق انتظار المصلح الذي يعمل جاهدا على المطالبة به، والعمل من أجله. هنا يزاوج المصلح بين النقد والإصلاح وقد يغلب أحدهما على الآخر في مشروعه الإصلاحي التغييري. انطلاقا من هذا المدخل فإن الإشكال الذي نود مقاربته والاشتغال عليه هو :

ما طبيعة المناهج التي هيمنت على الفكر النقدي الإصلاحي عند اليوسي؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية جملة من الإشكاليات المنهجية والمعرفية والحضارية والتاريخية نجملها فيما يلي :

*ما هي المنطلقات الفكرية والموضوعية المؤطرة للفكر النقدي الإصلاحي عند اليوسي؟

*ما مدى تفاعل رؤاه الإصلاحية مع مقتضيات الوحي وسنن التاريخ، وتحديات الواقع، ورهانات المستقبل؟ ولملامسة هذه الاشكاليات تم تقسيم هذه المقالة إلى المحاور التالية.

المحور الأول : السياق التاريخي المؤطر للفكر النقدي الإصلاحي عند الحسن اليوسي.

المحور الثاني : الشخصية والمصادر المعرفية.

المحور الثالث : المناهج النقدية الإصلاحية المهيمنة على الفكر النقدي الإصلاحي عند اليوسي.

أولا : منهج سلفي نقلي في نقد الحكم والسلطة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ثانيا : منهج تربوي دعوي تصوفي سلفي.

ثالثا : منهج تربوي تعليمي عملي عقلاني.

المحور الأول : السياق التاريخي المؤطر للفكر النقدي الإصلاحي عند الحسن اليوسي.

قبل تناول موضوع النقد الإصلاحي عند الحسن اليوسي لابد أولا من تأطير فكر الرجل في إطاره التاريخي وسقفه المعرفي حتى تتضح الرؤية وتكتمل الصورة، إذ إن قراءة هذا النموذج ليس المراد تقويمه أو إخراجه من سياقه التاريخي، وإنما المراد قراءته بمنهج نقدي تفاعلي استكشافي يقوم على ربط الأسباب بالمسببات، أي دراسة النموذج في سياقه التاريخي، وسياقه الواقعي، وداخل السقف المعرفي الذي ساهم في إنتاجه، والوقوف على مدى تفاعله مع تلك الأحداث، وكيف استطاع أن ينسج رؤاه الإصلاحية انطلاقا من ذلك كله، للإفادة في التحليل وإعادة التركيب لمفهوم الإصلاح عنده، ومدى قدرة الرجل على النقد للأوضاع التي عاشها مغرب المرحلة المدروسة، والوقوف على مدى موافقة فكره الإصلاحي لمقتضيات الوحي وسنن التاريخ.[2]

عاش اليوسي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري، كانت هذه المرحلة مرحلة انتقالية في تاريخ المغرب، حيث ضعفت الدولة السعدية وانقسمت البلاد بسبب انبعاث قوى جديدة تقاسمت السلطة، وتفرقت البلاد ممالك متعددة بعدما كانت مملكة واحدة إلى أن جاءت الدولة العلوية التي حسمت هذا الصراع لصالح توحد البلاد تحت راية واحدة، راية الدولة العلوية، يقول عبد الرحمن بن زيدان واصفا حال مغرب هذه المرحلة "لقد أمسى المغرب في هذه المرحلة سبعة مغارب، إن لم نقل أكثر من ذلك، فهناك مملكة تافيلالت، ومملكة الريف، ومملكة مراكش، ومملكة القصر الكبير، ومملكة فاس، علاوة على جانب مهم من شرقه امتدت إليه يد الأتراك الذين كانوا يحتلون الجزائر. وعلاوة على ذلك سبتة التي كانت احتلتها اسبانيا بالإضافة إلى المعمورة والعرائش وأصيلة... وعلاوة على طنجة التي تحتلها انجلترا، ومدينة الجديدة التي كانت تحتلها البرتغال."[3] أمام غياب السلطة المركزية على كل الأصعدة، وفي محاولة لملأ الفراغ ومواجهة الأجنبي، وكذا في محاولة لاستثبات الأمن قامت بعض الزوايا وخاصة منها الدلائية والعياشية بمحاولة درأ الفتن الداخلية ومواجهة العدوان الخارجي، لكن سرعان ما زحف شيخ الزاوية الدلائية بجيش جرار مستغلا فرصة استنجاد سكان سلا من الأندلسيين به

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ضد العياشي لتنتهي الحرب باستيلاء محمد الحاج على فاس وتامسنا وسلا وسائر بلاد الغرب سنة 1051هـ.[4]

وإذا رجع الباحث إلى "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"[5] سيقف على الأحداث الجسام التي كان يعيشها المغرب وقتئذ من تفرقة وتشردم واقتتال بين الأمراء حول الحكم، وكذا الانتفاضات التي كانت تقوم بين الفينة والأخرى، وما يستدعي ذلك من حرْكات وخسائر جعلت الدولة المغربية غارقة في محاولة إخماد الفتن الداخلية التي غَيَّبَتِ الأمن والاستقرار، لم يكن باستطاعتها بسبب كل تلك الأحداث أن تقف في وجه أطماع القوى الامبريالية التي كانت في أوج انتشارها والتي كانت تهدف إلى الاستيلاء على المغرب والقضاء على وساطته التجارية والمرور منه نحو خيرات القارة الأفريقية التي رأت فيها أوربا مصدرا للثروات الطبيعية، وكذا جعلها سوقا لمنتجاتها. هذا فيما يخص الوضع السياسي المطرب، أما الوضع الاجتماعي والفكري والذهني وكذا الاقتصادي فقد كان صورة طبق الأصل للوضع السياسي المتأزم.

كان لهذا الاضطراب الذي شهدته البلاد تبعات خطيرة على البلاد والعباد زاد من حدته اتساع نشاط الزوايا، وشيوع الطرقية، وانتشار الخرافات والإيمان بالصالحين وكراماتهم... مما ساعد على ظهور طبقة إقطاعية عملت على تمزيق البلاد وإضعافها، واستغلال الطبقة الدنيا، كما عرف المغرب في خضم تلك الحروب نهب الممتلكات، وحرق المزروعات وغير ذلك من ضروب الإتلاف. خلف هذا الوضع الغلاء الفاحش في البلاد، إضافة إلى المجاعات المتتالية، وقد شكا سكان فاس في أواخر هذه الحقبة شدة وطأة الوظائف التي تضرب عليهم للسلطان، وما لبثت الأوبئة أن انتشرت، واجتاح الطاعون سنة 1099هـ شمال البلاد، ثم ظهر بفاس يزحف للداخل، وقطعت السبل ومات خلق كثير.[6]

يتبين مما سبق أن السياق التاريخي الذي عاش فيه اليوسي يدل على أنه نشأ في بيئة قاسية ؛ انعدام الأمن، ثورات تتبعها ثورات، وقمع واستبداد من طرف كل من استطاع تملك رقاب العباد من الأمراء والحكام، إضافة إلى فقر عائلته وأمية والده ووفاة أمه وكثرة حياته وأصله البدوي ورحلاته المستمرة، والمحن التي مرّ بها في حياته خاصة في إطار علاقته بالسلطة الحاكمة وتفاعله مع واقعه ومجتمعه... كل هذه الظروف أثرت في نفسية اليوسي وصقلت شخصيته، وكانت له دافعا للتبحر في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العلوم طلبا وتدريسا وتأليفا، وكذا اندماجه في مجتمعه ناقدا ومصلحا ويظهر ذلك "من حيث أنه كان يكشف عن بعض المخبآت فيه، ويؤشر على جملة من تناقضاته، ويرهص بصيغ جديدة لإعادة تشكيل بعض البنيات المهترئة فيه، وهو لا يفكر في هذا التكوين الجديد نسجا على منوال أو نموذج خياليين، ولكن تحفزا من الواقع ومعاناته فيه."[7]

المحور الثاني : الشخصية والمصادر المعرفية.

ولد الحسن اليوسي[8] عام 1631م. وفي ترجمته لنفسه يعرف اليوسي باسمه ونسبه في المحاضرات، يقول: "أنا الحسن بن مسعود بن محمد بن أحمد بن علي بن عمرو بن يحيى بن يوسف، وهذا هو أبو القبيلة ابن داوود بن يدراسن بن يلتن..."[9] يرجع نسبه إلى آيت يوسي وهي قبيلة تقع في جنوب مدينة فاس، وفي نسبته باليوسي، يقول : "وأما اليوسي فأصله اليوسي كما مرَّ من أن اليوسي هو أبو القبيلة وهم يسقطون الفاء في لغتهم."[10] جاء في "معلمة المغرب" : " ولم ينفرط العقد الثاني من عمره حتى انطلق ـ على عادة معاصريه من أهل الطلب ليخوض غمار الرحلة، ويطوف على أهم المراكز العلمية في كل من سوس ومراكش ودكالة ودرعة وتافيلالت والأطلس المتوسط"[11] واستقر بالزاوية الدلائية ودرس فيها حتى استيلاء السلطان المولى الرشيد بن الشريف على الزاوية، فنقله منها إلى فاس حيث درس بجامع القرويين، ثم تركها واستوطن البادية متصوفا متنسكا، ثم عاد ونزل بمراكش وتصدر فيها لإقراء علم التفسير بجامع الأشراف[12] ثم رحل إلى المشرق في أواخر حياته حيث زار مصر وحج بيت الله الحرام. غربت شمس اليوسي عقب رجوعه من الرحلة الحجازية سنة 1102ه، يقول صاحب نشر المثاني : "توفي رحمه الله ورضي عنه عقب قفوله من الحج يوم الاثنين خامس عشر ذي الحجة عام اثنين ومائة وألف ودفن بموضع يعرف بتمزيزت بقرب قرية صفرو على نصف مرحلة من فاس، ونقل من مدفنه بعد نحو عشرين سنة إلى موضع آخر هنالك فوجد كما دفن رضي الله عنه على ما حكي، ومثل هذا معلوم لغير واحد من أولياء الله."[13]

يكون الحسن اليوسي إذن قد عاش اثنين وستين سنة كرس جهده خلالها لطلب العلم والأدب والقراءة والكتابة والتدريس والإقراء، وانقطع فترة منها إلى التصوف والتنسك. وبذلك يكون اليوسي ممثلا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

للحركة الفكرية والأدبية والعلمية والإصلاحية في معظم النصف الثاني من القرن الحادي عشر إلى نهايته، بل عدّه غير ما واحد أنه من المجددين على رأس القرن الحادي عشر.[14] أما عن المصادر المعرفية التي ارتوى اليوسي من ينابيعها وساهمت في تكوينه العلمي والمعرفي فأولها القرآن الكريم. سار اليوسي على عادة أهل زمانه حيث يُبدأ للناشئة بتحفيظ القرآن الكريم حيث اختلف إلى كُتّاب القرية لحفظه. قرأ اليوسي القرآن ورحل إلى سجلماسة ودرعة وسوس، حيث مكنته هذه الرحلات من تملك كثير من العلوم والمعارف، كما ارتوى من لغة الشعر الجاهلي الذي كان يحفظ الكثير منه عن ظهر قلب، إضافة إلى مااستفاده من أمهات كتب التفسير، والحديث، والتوحيد والفقه والأصول، واللغة وعلومها، والبلاغة والأدب، والمنطق، والحساب، وكتب التصوف التي نهل منها وكان لها بالغ الأثر في تكوينه السلوكي وتعميق ميولاته الروحية، يقول في الفهرست : "فانشقت تلك المآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي فكان ذلك سببا وبذرا لما أنعم به الله تعالى عليَّ من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها."[15]

كانت ثقافة الرجل ثقافة موسوعية وذلك يرجع بطبيعة الحال إلى تكوينه الذي تلقاه بفضل الرحلة، وكذا تكوينه داخل الزوايا التي كانت في هذه المرحلة التي يقول فيها عبد الله كنون "أنها حفظت تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع"[16] تقول فاطمة خليل القبلي في موسوعية الرجل : "ولا يخفى على أحد ما كان عليه اليوسي من تعطش للمعرفة، وحب للتحصيل، فلقد توسع في هذه العلوم وبرز، وتصرف واجتهد، وأصبح أستاذا، وألف كتبا فيها"[17] حتى قال فيه بعض من ترجم له : "وكان صاحب الترجمة آية في المعقول والمنقول، وإليه المرجع فيهما، وآية في النبل والإدراك..."[18] خلف الحسن اليوسي تراثا ضخما من المؤلفات، وقد أحصى الأستاذ محمد حجي في كتابه عن الزاوية الدلائية مؤلفات الحسن اليوسي فبلغت في هذا الإحصاء سبعة وأربعين مؤلفا دل عليها كلها، فذكر أرقام المخطوطات منها في الخزانة الملكية أو الخزانة العامة، وذكر تواريخ وأمكنة طَبْعِ ما طبع منها حتى الآن، ووضع علامات استفهام أمام ما لا يزال منها مجهولا، يعرف بالاسم فقط، ولا يعرف بالعين.[19]

المحور الثالث : المناهج النقدية الإصلاحية المهيمنة على الفكر النقدي الإصلاحي عند اليوسي.

أولا : منهج سلفي نقلي بالأساس.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يعتبر اليوسي رائدا في مجال النقد الإصلاحي، يظهر ذلك جليا من خلال منهجه في رسائله النقدية الإصلاحية، هذه الرسائل التي سيكتبها الرجل في آخر حياته والتي تعبر بحق عن خلاصة التجربة التي مر بها في حياته العلمية والمعرفية والتأليفية، وكذا خلاصة تجربته في الحياة بكل تلاوينها. تميزت هذه الرسائل بالاهتمام بالفكر والنقد والتحليل والتنظير الإصلاحي بكل مداخله. لقد أعطى من خلالها صورة حية عن المجتمع والفكر والسياسة في هذه المرحلة وهو الخبير بواقعه، المتأثر به والفاعل فيه، كيف لا يكون كذلك وهو المعروف برحلاته العديدة الاختيارية والإجبارية بين مدن وبوادي المغرب، تلك الرحلات التي جعلته يقف عن كتب على أوضاع المغرب ومعاناة المغاربة وميولاتهم وتطلعاتهم، مما أكسبه تجربة لم تكن لتتكون لديه لولا تلك التنقلات. "فرحلات الكهل الاختيارية منها والإجبارية، قد أكملت رحلات الشاب الطويلة في طلب العلم أضافت الكثير إلى تلك الثقافة الحية، حيث التجارب والمعلومات العملية تغني التأملات والمعلومات النظرية."[20]

1 – منهجه النقدي السلفي في محاربة البدعة وتشويه تعاليم الدين.

أدرك اليوسي من خلال أسفاره ورحلاته المتكررة بين مختلف المناطق المغربية انحراف الناس عن الدين الصحيح، وعن منهج السلف الصالح، ووقف على مدى انتشار الضلالة، والأمية الدينية، وذيوع البدع التي لا أساس لها من الدين. وبمنهج نقدي تفاعلي استكشافي قائم على ربط الأسباب بالمسببات وقف اليوسي على أن سبب انتشار البدعة والضلالة والفساد هو الجهل الفادح، ولذلك عمل جاهدا على محاربة هذه الأمراض التي تفشت في المجتمع، وفي رسالته الجوابية للسلطان اسماعيل يبين اليوسي مدى خطورة الجهل على عقيدة المسلم، يقول : "ولو تسلط الجهل عياذا بالله لم تبق عقيدة صحيحة، ولا إيمان ولا عمل صالح. وهذا هو الهلاك الأبدي الذي يستمر إلى الآخرة."[21]

إن عقيدة اليوسي السنية التي تبدو واضحة من القضايا العقدية التي تناولها في كتبه ورسائله التوحيدية، وكذا أقواله التي تدعو دائما إلى ضرورة اتباع سنة النبي صلى الله عليه سلم وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده دفعته لا محالة إلى إنكار كل بدعة. لقد حمَّل نفسه مسئولية محاربتها وذلك بالتربية التوعوية التي استهدف بها كل من اجتمع بهم ممن كانوا يعيشون اضطرابا فكريا وعقديا بسبب انتشار الشعوذة والتدجيل والاعتقاد في الأضرحة والأحجار والأشجار... ظهرت حرب اليوسي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

للانحرافات الدينية في أكثر من مناسبة، ولعل أبرزها ما قاله في مناسبة قطع طلبة الأستاذ أبا عبد الرحمن بن يوسف الشجرة الخضراء التي تعلق بها أهل سجلماسة واعتقادهم ببركتها في قضاء حاجاتهم وخاصة النساء منهم، حيث يكثرن من تعليق الخيوط ويطرحون الفلوس أسفلها وربما تغالت النساء في تعظيمها والتنويه بشأنها حتى سموها باسم امرأة صالحة كالسيدة فاطمة ونحو ذلك ...فليعلم الناظر ـ يقول اليوسي ـ أنها إنما هي شجرة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، ومثلها أحق أن تقطع.[22] وكثيرة هي المناسبات التي حارب فيها اليوسي الشعوذة والدجل والبدع والاعتقاد بالمزارات والأضرحة والرباطات ومجامع الصالحين وأمكنة اشتهرت عند الناس وتغالوا في الوفود إليها والتبرك بها مع أنها ليست في أصلها إلا أمكنة للعبادة والجهاد. يقول اليوسي واصفا وناقدا : "وفي بلاد المغرب مواضع اشتهرت بآثار الصالحين ووقع التغالي فيها، منها شالة في رباط سلا، فلا يعرف لها إلا أنها مزارة يزورها الناس ويتبركون بمن فيها."[23]

نبه اليوسي أيضا إلى كثير ممن ادعوا الصلاح[24] حتى انخدع الناس بهم، وآمنوا بما يقولون واعتقدوا أنهم من أولياء الله أو أصحاب الوقت، وقد أورد الشواهد من الواقع على كذب هؤلاء وبهثانهم، وبين أن هذا الذي سرى بالمجتمع انحراف عن الدين وخروج عن السنة وما سار عليه السلف الصالح. ومن باب الإحساس بالواجب كان لابد له من محاربة هذه الخرافات، وتنقية المجتمع من الشوائب، بل وحمَّل المسئولية كاملة للعلماء، حيث قال : "إذا ظهرت البدعة وسكت العالم فعليه لعنة الله."[25] كما أنه علل سبب ذكره لتلك القصص التي وقعت للناس مع أولئك المحتالين في "المحاضرات" بقوله : "وإنما ذكرنا هذا ليُعلم ويُتنبه لمن هذا حاله، فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو موسوس أو ملبس، فيقع به الاغترار للجهلة والأغمار... وقد يتابعه من هو على شاكلته من الحمقى والفجار، وشبه الشيء منجذب إليه... فالحذر مطلوب ولاسيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح، والهوى على الحق، والبدعة على السنة إلا من خصه الله وقليل ما هم."[26] ولذلك جعل اليوسي "اتباع كل ناعق غواية"[27] وفي ذلك أورد أثرا لعلي بن أبي طالب يبين فيه أنواع الناس، يقول فيه : "الناس ثلاثة : عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهَمَجٌ رَعَاعٌ، أتباع كل ناعق، فمن ثبتت

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

استقامته، وصح علمه وورعه وجب اتباعه، ومن اتسم بالخير وجب احترامه على قدره، والتسليم في حاله، ومن ألقى جلباب الحياء عن وجهه وجب لومه."[28]

ولعل رسالتي "طائفة العكاكزة" و "نازلة العرائش" لأكبر دليل على محاربته للبدعة. أعانه على ذلك نزعته الصوفية، وإيمانه القوي، وشجاعته في مواجهة كل من أراد تشويه تعاليم الدين، فقد أدان من خلالهما كل الشبهات التي تمس بروح الدين وتعاليمه والتي نشرها أدعياء التصوف والكرامات ممن عرفوا في مناطق مختلفة من المغرب حتى اختلط على الناس التمييز بين الحق والباطل، وركنوا إلى شيوخ الطرقية ومقولاتهم حتى ألهوهم، وما هذا في نظره إلا من جهل العامة، يقول : "فلما بلغ على العوام من التهاون بأمر الدين، وعدم التسارع إلى إنكار المنكر مع كثرة المناكر في هذه الأزمنة المتأخرة، حتى صار المنكر في نفوس العامة ليس بمنكر لإلفه وكثرة مشاهديه والله المستعان."[29] ولذلك أفتى بمقاتلة العكاكزة حتى يرجعوا عن غيهم واعتبرهم مرتدين عن الدين، وقد أعطى مثالا من تجربة الصديق رضي الله عنه في محاربته للقبائل المرتدة.[30]

لقد انتهض اليوسي ـ تقول فاطمة خليل القبلي ـ لمحاربة هذا الانحراف الخطير، وهو الذي أخذ العلم على أنه رسالة وأمانة، قوامها الجهاد المتصل من أجل الأخذ بالمفاهيم الأصيلة في الكتاب والسنة، ومن تم كان حربا على الشعوذة، والعقلية الخرافية، والاستغلال والارتزاق بالدين تمشيا مع فهمه الحي الواعي لحقيقة الإسلام، ولتبعاته ومسئولياته كعالم مسلم.[31]

2 – منهجه النقدي السلفي في الحكم والسلطة.

إن كتابات اليوسي عموما تعبر عن جرأته في النقد إذا ما ربطنا هذا الإنتاج بسياقه التاريخي حيث سيادة العنف، وسلطة تتميز بالاستبداد، وقمع الحريات، ومع ذلك كان يجاهر السلطان بضرورة العدل ويؤصل لدعوته من المرجعية الإسلامية، كما كان يستدعي الشواهد الحية من تجربة السلف في الحكم بالعدل. لقد كانت غاية هذا العالم السلفي من استحضار واستدعاء النموذج النظري للحكم في الاسلام هو السبيل في نظره لصيانة المجتمع واستمراره على العقيدة الصحيحة في نصاعتها وعمقها من جهة، ومن جهة ثانية ستحافظ على ولاء الرعية للسلطان، ومن جهة أخرى يذكر السلطان بضرورة الالتزام بما كلفه الله لتحقيق العدل والمساواة، وهذا ما جاء في رسائله التي بعث بها إليه.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أبرز اليوسي في رسالته الموسومة بـ"براءة اليوسي" نظريته في الحكم والسلطة والتي تقوم في رأيه على المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وأن السلطان واحد من الناس له حقوق وعليه واجبات، مذكرا إياه بأن المُلك لله وأنه مجرد مستخلف فيما ملَّكه الله إياه ابتلاء وامتحانا، يقول : "فليعلم سيدنا ـ نصره الله ـ أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيد له، وسيدي واحد من العبيد، وقد ملكه الله تعالى رقاب عبيده ابتلاء وامتحانا، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه، وظل الله على عباده، وله الدرجات العالية عند الله تعالى، ويحذر اليوسي السلطان من مغبة الخروج عن روح المبادئ الإسلامية الحقة، حيث يقول : "وإن قام بالجور والعنف، والكبرياء والطغيان والفساد، فهو متجاسر مع مولاه ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة الله تعالى الشديدة وسخطه."[32]

ولعل نظرية اليوسي السلفية في الحكم الذي يبتغيه كما ابتغاه العدل الرباني تتجلى في تحمليه مسئولية العدل للسلطان في جمع الثروة وتفريقها تفريقا عادلا حتى تعم الرفاهية ويتحقق التقدم الاجتماعي الذي لا سبيل إليه إلا بالعدل وحفظ الحقوق. حمَّل اليوسي السلطان مسئولية ما آلت إليه أوضاع المغرب من فتن وانتفاضات مبينا أن السبب في ذلك هو الجور والظلم الممارس عليهم من طرف ولاته، بل أكثر من ذلك يشير اليوسي في رسالته إلى ضرورة التزام السلطان بحدود الله وإلزام العمال بذلك حتى لا يضيع الناس دينهم ودنياهم نتيجة الظلم والقهر. يقول : "فلينظر سيدنا. فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية. فأكلوا اللحم وشربوا الدم، وامتشوا العظم، وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا..."[33]

وفي معرض تحديده لحقوق الرعية على السلطان يتكلم اليوسي عن ضرورة الانتصاف من الظالم للمظلوم، لأن هذا الأمر ـ يقول ـ "قد اختل أيضا لأن المنتصبين للانتصاف بين الناس هم العمال في البلدان وخدامهم، وهم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل الظلم من يفعله، ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه، فلا يقدر أحد على أن يشتكي. فليتق الله سيدنا وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب. وليجتهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا. قال الله تعالى: (إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون)[34]"[35]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إن هذه الرسالة يبين من خلالها اليوسي أن أسباب اختلال أركان الدولة هو اختلال الشروط الثلاث التي ينبغي أن تتوفر في السلطان حتى تثبت أركان دولته وتجعله في الدرجات العالية عند الله تعالى، وهي :

أولا : جمع المال من حق وتفريقه في حق.

ثانيا : إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله.

ثالثا : الانتصاف من الظالم للمظلوم.[36]

كان اليوسي مدركا لمقتضيات الواقع في الإصلاح، وهذا يظهر في معرفته الواسعة بأهمية المال في إصلاح البلاد والعباد، لما للاموال من لصوق بالنفس. ولأن العدل والإنصاف الذي أمر بهما الإسلام هما سبب الأمن والاستقرار إذا ما التزم بها الحاكم، فإن الجور والظلم والتعسف وتسخير الرعية والضغط عليها مُوَلِّدٌ لا محالة للفتن، وهذا الذي وقع فعلا في واقع الناس في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ المغرب. ولذلك تجد اليوسي يؤكد في تحليله على أن العدل والإنصاف هو السبيل القويم لتثبيت دعائم الحكم.

كما نجده في رسالته "نذب الملوك إلى العدل"[37] يقدم النصيحة للسلطان باعتباره عالما من علماء الوقت وجبت في حقه النصيحة للإمام. افتتح اليوسي رسالته بآيات وأحاديث كلها تدل على ضرورة الالتزام في الحكم بما أنزل الله عز وجل، وما سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين في العدل وإقامة الحق وحفظ الحقوق، وهو في هذه الرسالة قد اعتمد في نصحه على مقتضيات الوحي وسنن التاريخ، يظهر ذلك جليا في استدعائه من الشواهد القرآنية والحديثية وسنن التاريخ مايغني رسالته ويؤصل لها.

أراد اليوسي من السلطان أن يزن أعماله بميزان الشرع، وأن يتميز بغيرته الدينية وحميته الإسلامية، من أجل ذلك أعطاه من تجارب الحكم في تاريخ الدولة الإسلامية ما يبين قوانين وسنن التاريخ الفاعلة والمؤثرة في تبدل الوقت بتبدل طبائع الخلفاء والملوك والأمراء في السلطة والحكم. كما بين من خلال الرسالة علاقة السلطة العلمية بالسلطة السياسية التي تتأرجح بتأرجح الغلبة. وبعد تذكيره السلطان بكل ذلك توسم فيه خيرا وأراده شبيها بالخلفاء الراشدين، حيث يقول : "ولم يزل في كل دولة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من الدول من يتطاول إلى نسمات أهل الخير، ويزاحم أهلها، وكل من فعل خصلة حميدة فهو محمود عليها، ومنسوب عند الانتماء إليها، ولو لم يكن إلا الانصاف بسماع الحق."[38]

إنه ومن خلال تحليل هذه الرسائل[39] التي تم اعتمادها في الوقوف على الفكر النقدي الإصلاحي للرجل يمكن القول أنها جاءت نقدا صارخا للواقع الذي عمته الفوضى والفتن، وقد خاطب اليوسي السلطان نفسه ـ وإن حملت هذه الرسائل في طياتها آدابا فرضتها مكانة السلطان[40] ـ مبرزا في هذا السياق الأسباب والعوامل التي كانت وراء الفوضى والفتن التي أضرت بالبلاد والعباد، وقد بينها في رسائله التي جمعت بين قطاعات مختلفة؛ الديني والسياسي والتربوي والأخلاقي والاجتماعي. والواضح في رسائل اليوسي أنه لم يكن مجرد ناقد للأوضاع والمشاكل المزمنة التي عانى منها المغرب طويلا، بل كان يقترح الحلول التي يمكن بها تجاوز ذلك الكائن لتحقيق مُمْكِنٍ يسوده العدل والمساواة والتقدم والازدهار والصلاح.

اعتمد اليوسي في طرح رؤاه الإصلاحية على إيراد الآيات والأحاديث النبوية وسيرة السلف. وبهذا المنهج النقدي السلفي، طرح اليوسي نظريته الإصلاحية التي يمكن تركيزها في دعوته السلطان إلى ضرورة الالتزام بالكتاب والسنة والعودة إلى سيرة السلف الصالح في الحكم، وذلك لإقامة حكم عادل يطبق الشريعة وينهض بالجهاد ويدير الحكم على أساس الشورى خاصة مع العلماء العالمين العاملين من أهل الحل والعقد، وقبول النقد من الجميع لأن الناس في نظره لهم كامل الحرية في التدخل والتوجيه والنقد، وإسناد المسئوليات إلى أهلها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بمراقبة الحاكمين والمحكومين ومحاسبتهم لأن الكل سواسية في الحقوق والواجبات، والاهتمام بسياسة الدفاع والتسلح والرباط في الثغور تحصينا ومنعا لإغارة العدو المتربص بالبلاد. إن اليوسي في نصيحته للسلطان يعتمد المنهج النقلي وبذلك يمكن اعتبار هذه النصيحة نموذجا لخطاب إصلاحي سلفي، أو بمعنى آخر فإن هذه الرسائل يلخص فيها نظرته السلفية للإصلاح، وهذا يتجلى بوضوح في الأبيات التالية[41]

فانصحه كي يقلع عن غيه ... فحسبه المنتهج الواضح
تقوى الإله واعتصام بـــــــــــه ... في سنة، والعمل الصالح
هذا لعمري غنية المغتـــــــــني ... وذا لعمري المتجر الرابح.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ثانيا : منهج تربوي دعوي تصوفي سلفي نقلي.

ج مع اليوسي في غير تكلف بين العقيدة السنية وبين التصوف، بمعنى أنه تمكن بحكم علمه الواسع والتزامه بالكتاب والسنة وتشربه لما قرأه في كتب التصوف[42] من التوفيق بين السنية والتصوف، وإن كان هذا الأمر قد جر عليه انتقادات من طرف الكثيرين وعلى رأسهم السلطان المولى اسماعيل. وما سَبَبُ ذلك في نظر عباس الجراري إلا "في خلط عندهم بين التصوف السني التعبدي القائم على الاقتداء بالرسول عليه السلام والعمل بما يرضي الله ويقرب إليه بعلم ومعرفة، وبين طريقة الجهال المشعوذين، والسبب أن الخيط بينهما رفيع دقيق لا يستطيع إدراكه من لم يقف على حقيقة التصوف."[43] بهذا **المنهج السني السلفي التصوفي النقلي** ينتقد اليوسي ما صار عليه أهل التصوف ممن خرجوا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح، واعتبرهم جهالا مضللين، وعمل على التشهير بهم حتى يعي الناس أحوالهم وكذبهم ودجلهم وشعوذتهم، وفي هؤلاء يقول : "... فما شئت أن تلقي جاهلا مسرفا على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة، فضلا عن أن يخلص إلى الباطن، فضلا عن أن يكون صاحب حال، فضلا عن أن يكون صاحب مقام، إلا وجدته يصول ويقول وينابذ المعقول والمنقول، وأكثر ذلك في أبناء الفقراء يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة، بل لمجرد حطام الدنيا، فيقول : خدام أبي وزريبة أبي، ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان، ولا يقبل أن يحبوا أحدا في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره. وإذا رأى من يخرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله، وقد يقع له عليه شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه إلى نفسه، فيزداد بذلك اتباعه ضلالا. ثم يخترق لهم من الخرافات والأمور المعتادات ما يدعيه سيرة ودينا يستهديهم به، ثم يضمن لهم الجنة على مساوئ أعمالهم، والشفاعة يوم الحشر، ويقبض على لحمة ذراعه فيقول للجاهل مثله : أنت من هذه اللحمة. فيكتفي جهال العوام بذلك، ويبقون في خدمته ولدا عن والد، قائلين : نحن خدام الدار الفلانية، وفي زرريبة فلان لا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا. وهذا هو الضلال المبين، وهؤلاء قطاع العباد عن الله تعالى وعن دينه..."[44] لقد شدد النكير على هؤلاء الضالين المضللين وما تسببوا فيه من الجهل والانحراف عن الدين الصحيح والوقوع في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الشرك، وبصفة عامة حلل وناقش الرذائل التي ارتكبت باسم التصوف، والتصوف الحق منها براء والتي بها علل التأخر والانحطاط الذي عانى منه المغرب.

إن رسائل اليوسي في التصوف غالبها لا تخرج في منهجها ومضمونها عن التربية التوعوية القائمة على "النقد الذاتي" والدعوة إلى الإصلاح، نقد أحوال الخارجين عن النهج السني السلفي في التصوف وما أحدثوه من البدع وما اعتمدوه من الأضاليل التي بها استعبدوا العباد حتى ألهوهم وخافوهم من دون الله ولم يعد باستطاعتهم التفريط في جانبهم، ودعوة لإصلاح ما أفسده هؤلاء من جهة، وكذا دعوته المريدين والسالكين إلى إصلاح أحوالهم وأحوال من حولهم من الناس. كانت رسائله في التصوف وغيرها تتعرض في غالبها إلى تحديد ماهية التصوف ورتب المتصوفة وخصائصهم، وللتربية وآداب المريد وغير ذلك مما يتعلق بالتصوف السني الإسلامي. وتعكس بوضوح نظرية اليوسي الإصلاحية، وتوجه نقدا لاذعا للشعوذة والدجل والادعاء والاتجار بالتصوف الذي كان شائعا في عهده. ويتجلى **منهجه النقلي** في استدعاء ما يدعم نصائحه بما يناسب من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وما أثر عن السلف الصالح، ومن ذلك ما جاء في النصيحة الغياثية، يقول : "أوصيكم وإياي بتقوى الله، فإن الله تعالى جعل التقوى سببا لخيري الدنيا والآخر. قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)[45] وقال تعالى : (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا)[46]"[47]

وفي نصيحته للمبتدئين في الطريق إلى الله، يقول : "إن شأن المبتدئ في طريق الله أن يصحح أولا **عقيدته**، باعتقاد الحق على طريق الشيخ أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري إمام أهل السنة... ولا يلزم أن يتبع تفاريع المتكلمين، ولا ينبغي له إن كان همه الاشتغال بما يعينه في خاصة نفسه... ويشتغل **بالتوبة** فيصححها بأركانها، ومنها : الإقلاع عن المنهيات والاشتغال بالمأمورات، والندم على ما فات، والعزم على عدم العود إلى المخالفة، ورد المظالم. ثم الاجتهاد في **الطاعة** مع التزام التقوى والتبرئ من الحول والقوة، ونصح بالتزام ما يُسمع من كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتاوى أهل الدين ومواعظهم وأن فيها الكفاية في الفعل والترك لمن كانت همته العبادة وطلب الجنة. أما من كانت همته أكبر وهي طلب معرفة الله تعالى، فالوصول إليها حسب اليوسي يحتاج إلى التربية على يد شيخ ويشترط فيه أن يكون صالحا، أو أخا ناصحا...[48] إن التصوف عند اليوسي تربية وسلوك

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وأخلاق وقيام بالتكاليف الشرعية مع جعلها تتسم بالإخلاص والصدق والبعد عن الرياء، وقد ربط بين الفقه والتصوف في ربْطِهِ بين الشريعة والحقيقة، حيث قال في تعريفه للطريق الصوفية : "...العمل لله بما يرضي من حيث يرضى" وجَعَلَ هذه الطريقة ـ أو كما كانوا يسمونها "تفقرت" ـ "هي ثمرة العلم ولبابه، وأحد ركني الدين، فإن الشريعة لها ظاهر وهو للفقهاء، وباطن وهو للصوفية، وإنما يكمل الأمر بهما معا، ولهذا يقال : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق."[49]

وأما في رسالته إلى أهل كارت فباسقرائها نجد أن الرجل لم يترك مجالا إلا قال فيه ما يصلح أحوال الفرد والمجتمع، وذلك ظاهر في وصاياه إليهم بحفظ حق الله تعالى، وحق نبيه صلى الله عليه وسلم، وحق شيخ الطريقة، وحق سائر المسلمين. وأوصاهم بالعلم والتعلم، وحثهم عليه حتى قال "فالله لا يعبد بالجهل". كما أوصى بالمرأة خيرا وأوصاها بالتأدب مع زوجها وأولادها وحفظه في غيبته وعدم تكليفه ما لا يطيق. وأوصى بإكرام الضيف بلا تكلف، وحث على تعظيم أهل البيت والعلماء والصالحين..[50] وغيرها من الوصايا التي هي في عمقها دعوة إلى الإصلاح في شقه الاجتماعي، إذ لا يصلح ما بالأمة إلا بصلاح أهلها أفرادا وجماعات. واليوسي رغم ما جاء في رسائله من نصح وإرشاد وتربية دعوية، حيث يجد فيها كلٌّ على قدْرِهِ وحاجته ما يجيب عن أسئلة قد تحيره في التربية والسلوك، فقد كتب فيها للمبتدئين من المريدين والسالكين، وللمقدمين وغيرهم. إلا أننا نجده يقول في كتابه المحاضرات : "...لم نزل نسعى في نفع الناس بتعليم ما يحتاجون من دينهم وما يحتاجون من أوراد النوافل والأذكار... عاملين في ذلك على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة، لا على وجه المشيخة. وعلى وجه التعليم والإرشاد، لا على وجه التربية."[51] بمعنى أنه لم يدَّع لنفسه المشيخة ولم يأمر الناس باتباعه.

لقد كانت رسائله سببا في توعية أهل البوادي لانتشارها بينهم، ولمكانة اليوسي في قلوبهم، وذيوع صيته في الآفاق نتيجة كثرة تنقلاته وجلوسه للناس في مختلف الأماكن وعلى رأسها حلقات الدروس، وكذا اتصالاته المستمرة بتلامذته وأصحابه في مختلف المناطق المغربية. لقد نبه الخاصة والعامة إلى حقيقة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التصوف وصفاء أهدافه، كما أن تصدر للفتوى لكل من استفتى وخاصة من أهل البادية مساهمة منه في القيام بمهمة توعيتهم بأمور دينهم ودنياهم.

ثالثا– منهج تعليمي عملي عقلاني.

إن موسوعية اليوسي العلمية، والتكاملية المعرفية التي تميز بها في زمانه الذي عرف بالانحطاط والجمود أَهَّلَهُ لاقتراح إصلاحات واسعة في مجال التربية التعليمية، ولا يكاد يخل مؤلف من مؤلفاته من هذه القضية المهمة التي اعتبرها مرتبة من مراتب الجهاد لأنه يدفع خطر الجهل عن الأمة، كما يدفع الجهاد بالسيف خطر العدو المهدد لأمن واستقرار واستقلال البلاد. يقول : "طلب العلم والاشتغال بالتعليم نوع من الجهاد، بل هو الجهاد الثاني، بل أهم الجهادين، وذلك أن جهاد العدو مطلوب للدفاع عن بيضة الإسلام، والعلم مطلوب لدفع الجهل عنهم، ثم إذا نظرنا وجدنا العدو لو تسلط على الأموال والرقاب وهي أمور دنيوية لابد من فراقها إما بذلك أو بغيره والموعد الآخرة، ولو تسلط الجهل عياذا بالله لم تبق عقيدة صحيحة ولا إيمان ولا عمل صالح وهذا هو الهلاك الأبدي الذي لا يستمر إلى الآخرة. فتعلم أن الجهاد في دفع الجهل وتحصيل الدنيا أصلا وفرعا أهم وأوكد من الجهاد في دفع العدو."[52] ولما كان العلم تعلما وتعليما بهذه القيمة فقد ظل حريصا على تذكير السلطان بضرورة الاهتمام بالتعليم وأهله، مبينا دور العلماء في القيام بالتعليم وإصلاحه، وحثه على نشر التعليم وتعميمه وأن لا يظل محصورا في الحواضر والزوايا دون عامة البوادي، وبين أن أهل البادية هم الأشد حاجة إلى العلم، حيث قال : "... لا يختص ذلك بالحاضرة، فإن أهل البادية أحوج ــ فالأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ــ فالإعتناء بهم أهم، وأن منهم من يكون التعليم في حقه كأنه تبليغ الدعوة من أهلها..."[53] كما حدد له وسائل تحريكه وتشجيعه، ومعايير مزاولته حتى يصبح في خدمة الفرد والمجتمع، لا مطية للجاه والسمعة والحظوة والشهرة.

أكد اليوسي في رسائله إلى السلطان على ضرورة الاعتناء المادي والمعنوي بالمعلم والمتعلم، وبين له أهمية ذلك من خلال ذكر السنن التي حكمت العلم والتعليم في تاريخ الأمة، وربط أسباب ازدهاره وتراجعه بمدى اهتمام الموك بالعلم وأهله. يقول في الرسالة الجوابية : "فمن وفقه الله من الملوك... فأنفق الأموال في نشر العلم وأقام المرتبات، وأحسن الجوائز حيي العلم في زمانه، وأزهرت رياضه، وتفجرت

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حياضه، وظهرت الفنون الغريبة، والفهوم العجيبة... ومن لم يفعل ذلك اندثر العلم في زمانه. فخلت رسومه، وهوت نجومه، فأما الطلبة فلعدم وجود الكفاية، ولا وجود المُعَلِّم، وأما العلماء فكذلك، فمنهم من يشتغل بأسباب معاشه ومعاش عياله ويرى أن ذلك أوجب عليه من التعليم الذي هو فرض كفاية، وهو حق. فمن أين يتفرغ للعلم أو يفهمه؟ وفي مثل هذا قال عظيم من الفقهاء[54] لو كلفت شراء بصلة ما حفظت مسألة، وقال عظيم من الصوفية : لو عُلت دجاجة خفت أن أكون جِلوَازًا على الجسر والجلواز الشرطي أو التُّؤْرور وهو التابع له."[55] من خلال هذا النص يتبين أن اليوسي ينتقد الوضع الذي عليه التعليم، ومن أسبابه عدم اهتمام السلطان، ولذلك أورد له شواهد عدة من تاريخ الملوك في تعاطيهم مع هذه القضية المهمة والخطيرة التي إما أن ترفع الأمة أو تحط من شأنها بين الأمم. وهذا ما خافه السلطان نفسه عندما يقول لليوسي في رسالته "والله إلا فجعنا الغرب في مسألة العلم وخفنا عليه أن يندثر"[56] فما كان من اليوسي إلا أن فصَّل القول في ذلك واصفا وناقدا لكل ما كان وراء اندثار العلم في زمانه راجعا إلى قوانين التاريخ وسننه وراء شموخ العلم وأهله أو تراجعه وانحلال دعائمه. وفي ذات الوقت موجها ومقترحا سبل إصلاحه، وعلى رأس الحلول التي اقترحها : تخصيص الدولة للأموال لقيام الجهاد العلمي، مثلما ترصدها للمجاهدين الذين يردون العدو عن الوطن على اختلاف مراتبهم نتيجة اختلاف ما يبطنون من نوايا وما يقدمون من أعمال "... فالمشتغلون بالعلم أيضا تعلما وتعليما محتاجون إلى مئونة وكفاية يتقوَّوْن بها على ما هم بصدده...إن لم يكن المال تعطلت مراسم العلم غالبا إلا أن يكون أيضا إكراه، ولا تنهض معه همة المعلم، ولا يكون لصدره انشراح ولا لقلبه إقبال، فلا يحصل للمتعلم انتفاع، بل يكون ضربا في حديد بارد..."[57]

يظهر المنهج التعليمي العملي العقلاني الذي اعتمده اليوسي في دعوته لإصلاح التعليم في كونه خرج من مجال التنظير إلى العمل في الواقع وذلك بدعوته إلى ضرورة الربط بن الفكر والممارسة، كما أنه عمل على تجاوز الطريقة التقليدية التي عرف بها التعليم في فاس والتي تقوم على الحفظ والاستظهار وعلى النقل والتقليد واعتمد النقد البناء القائم على التفكيك والتحليل والتركيب والاستنتاج والاستخلاص متوسلا بذكائه وقدراته العقلية والحدسية كما يقول : "ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة وفطنة ذكية، فكنت بأذني سماع وأذني أخذ ينفعني الله."[58] إضافة إلى هذه الملكة التي حباه المولى عز وجل فقد كان

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

للزوايا والرباطات التي تلقى فيها تعليمه الدور الكبير في تكوين العقلية التحليلة التعليلية المناقشة للأفكار، وذلك راجع إلى أن هذه المراكز ـ تقول فاطمة القبلي ـ التي كانت تعتمد على دراسة أمهات الكتب في كل فن، يأخذها الدارس بحثا وتحليلا وتعليلا ومناقشة مع الطلبة.[59] كما أن هذا المنهج يبدأ عنده من عبادة الله التي هي مجموعة من علم وعمل، والعلم في نظره علمان: علم بالمعبود، وعلم بما به يعبد... وأقسامه ثلاث، الأول العلم بالمعبود وهو التوحيد، والقسم الثاني هو العلم بما يعبد به الله وهو معرفة أحكام الفقه، وأما القسم الثالث فهو العمل وذلك بالامتثال بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.[60] يرى اليوسي أنه لا علم بدون عمل، ولذلك وجب على أهل العلم العمل بما يعلمون، والعمل أيضا على تبليغ ما يعلمون للناس تعليما وتلقينا.

إن العمل عند اليوسي لا بد أن يضبطه سلوك معين وآداب مضبوطة تشكل عنده حدودا ينبغي أن يلتزم بها، وهو ما عبر عنه بالإخلاص، لأن "الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون قليل، أي فهم قليل من قليل."[61]كما يظهر هذا المنهج من تأكيده وهو يقدم النصيحة[62] لأهل كارت على حملة القرآن وأهل الفقه أن يجتهدوا بالتأدب بتلك الآداب ـ التي ذكرها وأوصى بها في رسالته ـ والاستماع للنصح، وأنهم أولى الناس بها، كما حثهم عل طلب وتبليغ العلم والزهد على حد سواء، وقد استدل على ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : "من ازداد علما ولم يزدد زهدا لم يزدد من الله إلا بعدا" "وأشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفع الناس بعلمه" وما وصيته تلك التي أصَّلَ لها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من أجل حثهم على نشر العلم بين الناس وتأديبهم به، والجمع بين العلم والزهد، بل لقد حث العامة على ضرورة التعلم والسؤال عما لا يعلمون، وأن لا يكتفوا بعقولهم، ولا بد لهم في معرفة الحلال والحرام من تقليد الفقهاء في الأحكام الشرعية، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية.[63]

بالرغم من هذا العلم الذي أوتي الرجل، وبالرغم من تعطشه للمعرفة وحبه الكبير للتحصيل، وتفوقه في المعقول والمنقول إلا أنه لم يتكلم إلا في العلوم الشرعية والمنطق والحساب، ولم يتكلم عن العلوم الكونية والطبيعية التي كانت سببا في ازدهار الأمة في وقت من تاريخا، وهي التي كانت وراء خروج أوربا من

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عصورها المظلمة، ولعل عدم خروج اليوسي إلى هذه البلدان هو السبب في ذلك، إضافة إلى أن المرحلة التي عاش فيها اليوسي كما سبق مرحلة انحطاط وفتن وحروب وأزمات بمختلف ألوانها، فما كان ليلتفت إلى هذه العلوم رغم أهميتها من يُدَرِّسُها أو يَدْرُسُهَا، يقول اليوسي : "... وكيف لا يعذر ذو بال منقسم ووبال متكسِّم، وشخص يبين لمتوسم، مكلوم بفاغر من الخطوب متبسم "[64] فإن كان قال هذا على عدم تمكنه من إتمام كثير من تآليفه التي ألف فكيف له أن يلتفت إلى هذه العلوم الأخرى التي لم يكن لمغرب المرحلة المدروسة كبير اهتمام بها.

رغم وضوح فكر اليوسي وانتظامه وسعته وقوته ومثانته وما امتاز به من قوة توجيهية وتنظيرية وعملية أيضا، ورغم أنه لم يترك مجالا إلا وله فيه رأي أو فعل، أو هما معا في الشؤون العامة وأحوال المجتمع، والتربية الدعوية والتعليمية والصوفية، والعلوم الشرعية ... إلا أنه لم يصل إلى ما كان يطمح إليه في إصلاح الدولة والمجتمع، وإن كان لنقده الإصلاحي دورا لا ينكر في تشكيل بنية العقل المعرفي المغربي، لكنه لم يكن قادرا على التأثير فيه وتغييره بالمقارنة مع قوة فكره التنظيري الذي لو وجد من يُفَعِّله ويخرجه من حيز القوة إلى حيز الفعل لكان له تأثير كبير في الحياة السياسية والاجتماعية والمعرفية في مغرب الفترة المدروسة وما بعدها، لكن واقع الحال وقتئذ لم يكن ليسمح لهذا المفكر الناقد المصلح الذي يحمل فكرا سابقا عن زمانه أن تكون له الكلمة في ميدان الممارسة والتطبيق والمغرب ساعتها يعيش مرحلة انتقالية تميزت بالفتن والحروب وغياب الثقة بين السلطان والرعية، وبينه وبين العلماء، لم تكن الأذن لتسمع إلا ما به يحكم السلطان قبضته بقوة الحديد والنار لا بقوة العلم والمعرفة، بل أكثر من ذلك لم يكن السلطان ليسمع من عالم يهدد كيان سلطته نظرا لما كان يتمتع به من قوة فكرية ومن قبول بين الناس والتفاف الجماعات من الفقهاء والمريدين والطلبة حوله، ولما له من قدرة على التأثير فيهم وتوجيههم، وكذا محبته ووفائه للدلاء الذي عبر عنه بقصائده الرثائية، واختياره الابتعاد عن ساحة السلطان والعيش بالمناطق البربرية، الأمر الذي جعل السلطان يتعجل في الأمر الدائم بترحيله من مكان إلى آخر اتقاء لما يمكن أن يكون من اليوسي ضده. وبالتالي فقد كان لهذه العلاقة المضطربة التي تسودها الحيطة والحدر انعكاسها السلبي على عطاء اليوسي وعلى عدم التفات السلطان إلى فكره الإصلاحي الشامل والمستوعب.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإحالات :

1. ـ ينظر تقديم : خصائص الإصلاح في الغرب الإسلامي مدارس ومناهج، عبد الرحمن العضراوي، أعمال الملتقى العلمي الذي نظمه المجلس العلمي المحلي ببني ملال بتعاون مع : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ومختبر مقاصد الوحي والتواصل الديني والحضاري يومي 07 ـ 08 محرم 1432هـ الموافق 13 ـ 14 دجنبر 2010م، مطبعة وراقة عين اسردون، بني ملال، المغرب، ص : 5.
2. ـ يبين الدكتور عبد الرحمن العضراوي أن المقصود بالسنن مجموع القوانين التي يسير وفقها واقع الوجود كله وتتحرك بمقتضياته مجالات الحياة الإنسانية والكونية، فما من حركة نفسية أو اجتماعية أو تحول حضاري من الضعف إلى القوة أو العكس إلا ولها قانون يكشف العلل والأسباب والشروط المنتجة لها. كما وضح أن هذه السنن تنقسم إلى سنن إجبارية حتمية وأخرى اختيارية متعلقة بالإرادة الإنسانية الفردية والمجتمعية من قبل سنن التغيير والثبات والتداول والتدرج والتوازن والتعارض والتدافع والاطراد والتناسب والتماثل... هذه السنن يؤكد عبد الرحمن العضراوي إذا ما تمكن العقل الإصلاحي من إدراكها ستشكل مدخلا علميا لتفكيك وتحليل إشكالية تغيير الواقع واستنباط الحلول للأزمات التي يراد مواجهتها كالأزمة الحضارية التي يعرفها العقل المسلم خاصة والإنساني عامة. وهذا التمكن العلمي تبرزه الرؤية المعرفية القرآنية في وجوب اتباع العلم واجتناب الجهل والظن وكل المدخلات التي لا تنتج معرفة وعملا صالحا. ينظر : العقل الإصلاحي وإشكالية تغيير الواقع الإسلامي، قسم دراسات الموروث الديني. مؤمنون بلا حدود، موقع : www.mominoun.com ص : 11.
3. ـ المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف، عبد الرحمن بن زيدان، مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم جـ 595.
4. ـ ينظر : نزهة الحادي، ورقة 155 مخطوطة الخزانة العامة بالرباط. ينظر أيضا : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، محمد حجي، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية 1409هـ ـ 1988م.
5. ـ أحمد بن خالد بن حماد الناصري، تحقيق : محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010، المجلد الثالث، ص : 21 وما بعدها
6. ـ ينظر : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، مخطوطة الخزانة العامة الرباط، ورقة 40 وما بعدها.
7. ـ عبقرية اليوسي، عباس الجراري، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1401هـ ـ 1981م، ص : 100.
8. ـ ترجم للحسن اليوسي عدد من المؤرخين والأدباء والكتاب والمحققين والمستعربين، يذكر محمد حجي في تقديمه لكتاب "المحاضرت" أن المستعرب الفرنسي المعاصر جاك بيرك له كتاب عن الحسن اليوسي، كما يذكر أنه كتب

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عنه في مؤلفه "الزاوية الدلائية" وترجم لحياته بتوسع، ارتبط اسم الحسن اليوسي ارتباطا وثيقا بالزاوية الدلائية وهي ذلك المركز العلمي الكبير الذي كان قائما بناحية تادلة، إلى أن استصفاه ـ لأسباب سياسة ـ المولى الرشيد، أخو المولى اسماعيل وسلفه المباشر على العرش. لم يكن الحسن اليوسي من أبناء الزاوية الدلائية ولكنه كان من أشهر وأذكى وأنبغ تلامذتها وعلمائها، وأكثرهم وفاء لها. ينظر: على هامش رسائل الحسن اليوسي إلى مولاي اسماعيل، عبد القادر الصحراوي، دعوة الحق، العدد الرابع، ص : 66. ومن بين الذين ترجموا له الافراني في الصفوة، وعبد الله كنون في النبوغ ـ الجزء الأول.

9. ـ المحاضرات في اللغة والأدب، الحسن اليوسي، تحقيق وشرح محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 2006، بيروت، لبنان، الجزء الأول، ص : 1.

10. ـ نفسه.

11. ـ معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا 2005، الجزء 22،ص : 7692.

12. ـ الأدب المغربي، محمد بن تاويت ومحمد بن الصادق عفيفي، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، ص: 313.

13. ـ نشر المثاني، محمد بن الطيب القادري، طبعة حجرية، الجزء الثاني، ص : 14.

14. ـ ينظر : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، المطبعة الحجرية بفاس سنة 1316هـ، الجزء الثالث، ص : 82. ينظر أيضا : صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الافراني، المطبعة الحجرية بفاس، بدون تاريخ، ص: 208.

15. ـ الفهرست، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 1234، ص: 129.

16. ـ النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ص : 274.

17. ـ الكلام لمحققة رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1401 هـ، 1981م، الجزء الأول، ص : 53.

18. ـ نشر المثاني، ص : 29 وما بعدها.

19. ـ ينظر : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، محمد حجي، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية 1409هـ، 1988م. الأدب المغربيي، محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفى، ص : 316.

20. ـ رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة : فاطمة خليل القبلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، (د،ت)، الجزء الأول، ص : 66.

21. ـ نفسه، ص: 139.

22. ـ المحاضرات، ص : 99.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

23. ـ نفسه، ص : 102 ـ 103.
24. ـ ومنهم الرجل الذي ظهر في سجلماسة، وشاع عنه أنه ولي وأنه صاحب الوقت، وخرج الناس لرؤيته، وكذلك أمير البلد، وتعذرت رؤيته فدخل قبة في المقابر فأخرج كفه من طاق في القبة فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون... ثم بعد أيام سمعنا أنه ذهب إلى ناحية الغرفة وأنه سقط في بئر هنالك ومات. فظهر أنه رجل مصاب، وكان يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك فهلك. ثم ذكر الرجل بهسكورة، وهو يفعل الفاحشة، وكذا الرجل الذي كان يعد الناس بأن يبلغهم إلى مكة ويحج بهم في طرفة، ولكن بعض الأشراف اختبروه وطردوه ثم بعد ذلك تبين أنه يهودي. ينظر : المحاضرات : ص : 105 وما بعدها.
25. ـ المحاضرات، ص : 106 ـ 107.
26. ـ نفسه، ص : 107.
27. ـ نفسه، ص : 108.
28. ـ نفسه، ص : 109.
29. ـ رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، الرسالة في طائفة العكاكزة، تحقيق فاطمة خليل قبلي، ص : 288.
30. ـ نفسه، ص: 288.
31. ـ رسائل أبي الحسن بن مسعود اليوسي، ص : 80.
32. ـ ينظر : رسالة "براءة اليوسي" رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، الجزء الأول، ص : 239
33. ـ نفسه ،ص : 239.
34. ـ سورة النحل، الآية : 90.
35. ـ براءة اليوسي، رسائل اليوسي، الجزء الأول، ص : 239.
36. ـ رسائل أبي علي الحسن اليوسي، الجزء الأول، ص : 238.
37. ـ نفسه، ص : 245.
38. ـ ندب الملوك للعدل، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق فاطمة القبلي، الجزء الأول، ص : 255.
39. ـ المقصود بالرسائل تلك التي أرسلها اليوسي إلى السلطان المولى اسماعيل، "الرسالة الكبرى لإسماعيل" وهي رسالة جوابية على خطاب السلطان المولى اسماعيل لأبي علي اليوسي. وتعرف هذه الرسالة أيضا باسم "جواب الكتاب" وسميت "بالكبرى" مقابلة لها برسالة أخرى أقل طولا، أرسلها الحسن اليوسي لنفس السلطان تسمى "بالرسالة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الصغرى" أو "براءة اليوسي". ينظر : فاطمة خليل القبلي، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، الجزء الأول، ص : 125.

40. ـ إن الكثير من مواقف اليوسي إنما اتخذها تقية كما يؤكد ذلك بقوله "فإن المأمور إن صح اعتقاده أنه إن لم يفعل ذلك توجهت إليه الإذاية ... فإنه يجب أن يفعل ذلك دفعا للظلم عن نفسه ومن معه، ولايجوز له أن يعرض نفسه للهلاك" ينظر: رسائل اليوسي، ص: 225.

41. ـ المحاضرات، ص : 125.

42. ـ استفاد اليوسي في تكوينه الروحي من كتب بواسطة معلم الكتاب القرآني وعلى رأسها : "المورد العذب" للجوزي و "بحر الدموع" حيث طالع فيهما بحسب ما يروي على حكاية من فيه من الصالحين كأويس القرني، وابراهيم بن أدهم، وابراهيم الخواص وغيرهم، يقول : "...فانتقشت تلك المآثر في عقلي، ووقعت حلاوتها في قلبي فكان ذلك سببا وبذرا لما أنعم به الله تعالى علَّي من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم..." الفهرست، ص : 130.

43. ـ عباس الجراري، عبقرية اليوسي، ص : 75.

44. ـ المحاضرات، ص : 106 ـ 107.

45. ـ سورة الطلاق، الآية : 2 ـ 3.

46. ـ سورة الطلاق، الآية : 5.

47. ـ النصيحة الغياثية، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق فاطمة خليل قبلي، الجزء الثاني، ص : 319.

48. ـ نـفسـه، ص : 320 وما بعدها.

49. ـ الرسالة الكبرى للمولى اسماعيل، رسائل أبي علي الحس اليوسي، تحقيق فاطمة خليل القبلي، الجزء الأول، ص : 231.

50. ـ الرسالة إلى أهل بلد كارت، رسائل أبي علي الحسن اليوسي، الجزء الثاني، ص : 400 وما بعدها.

51. ـ المحاضرات، ص : 50.

52. ـ الرسالة الكبرى للمولى اسماعيل، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق فاطمة خليل القبلي، الجزء الأول، ص : 138.

53. ـ نـفسـه، ص : 142

54. ـ ينسب هذا القول إلى الشافعي، ينظر : هامش رسائل اليوسي، الجزء الأول، ص : 143.

55. ـ الرسالة الكبرى، رسائل اليوسي، الجزء الأول، ص : 142 ـ 143.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

56. ـ نفسه، ص : 137.
57. ـ نفسه، ص : 138.
58. ـ الفهرست، ص : 129 – 130.
59. ـ رسائل اليوسي، الجزء الأل، ص : 52.
60. ـ الدلالة الوافية في الرسالة الأسفية، رسائل اليوسي، الجزء الثاني، ص : 420 – 421.
61. ـ الرسالة الجوابية، رسائل اليوسي، الجزء الأول، ص : 186.
62. ـ رسائل اليوسي، الجزء الثاني، ص : 406
63. ـ نفسه.
64. ـ زهرة الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، حققه : محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 1401هـ ـ 1981م، ص : 15.

لائحة المصادر والمراجع.

- القرآن الكريم برواية ورش.
- خصائص الإصلاح في الغرب الإسلامي مدارس ومناهج، عبد الرحمن العضراوي، أعمال الملتقى العلمي الذي نظمه المجلس العلمي المحلي ببني ملال بتعاون مع : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ومختبر مقاصد الوحي والتواصل الديني والحضاري يومي 07 ـ 08 محرم 1432هـ الموافق 13 ـ 14 دجنبر 2010م، مطبعة وراقة عين اسردون، بني ملال، المغرب.
- العقل الإصلاحي وإشكالية تغيير الواقع الإسلامي، عبد الرحمن العضراوي، قسم دراسات الموروث الديني. مؤمنون بلا حدود، موقع : www.mominoun.com
- نزهة الحادي في أخبار القرن الحادي، الايفراني، خزانة البلدية بالدار البيضاء، رقم 323.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد بن حماد الناصري، تحقيق : محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، مخطوطة الخزانة العامة الرباط، رقم ك 225.
- عبقرية اليوسي، عباس الجراري، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1401هـ ـ 1981م.
- المحاضرات في اللغة والأدب، الحسن اليوسي، تحقيق وشرح محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2006.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف، عبد الرحمن بن زيدان، مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم جـ 595.
- معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا 2005.
- نشر المثاني، محمد بن الطيب القادري، طبعة حجرية.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، المطبعة الحجرية بفاس سنة 1316ه.
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الافراني، المطبعة الحجرية بفاس، بدون تاريخ.
- الفهرست، الحسن اليوسي، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم ك 1234.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني(مقاربة تاريخية)

د. سعيود ابراهيم
جامعة الجزائر 2
البريد الإلكتروني:brasayoud60@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2016/12/20 تاريخ القبول: 2017/02/12

طيلة ثلاثة قرون تقريبا – بداية القرن 16 إلى الثلث الأول من القرن 19– عرف البحر المتوسط صراعا ضاريا، وحروبا دموية بين دولة قررت الدفاع عن كيانها وذاتها ووجودها، حيث تمكّنت من توجيه ضربات موجعة لأعدائها، وبين تكتّل مسيحي وظّف كل إمكاناته وطاقاته للقضاء على الجزائر، وعلى نظامها الذي رفض الركوع والتراجع أمام التحرّشات المسيحية المتكررة والمعلنة على السواحل الجزائرية. وقد نتج عن هذا الصراع، وعن هذه الحروب خسائر بشرية قدّرت بعشرات الآلاف، يضاف لهم عدد هائل من الأسرى في الضفّتين الشمالية والجنوبية للمتوسط.

وقضية الأسر والرق قديمة قدم التاريخ، فخلال فترات التاريخ الإنساني التي اتسمت بالصراع بين القبائل أو الدول كانت قضية الأسرى تشكل نواة علاقات التفاوض بين هذه القبائل أو الدول، فإما يصبح هؤلاء الأسرى عبيدا يسخرون لخدمة الأقوياء أو يتم افتداؤهم بدفع مبالغ مالية أو عن طريق التبادل. وقد شكل موضوع الأسرى في ضفتي البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والشمالية منحى واسعا في العلاقات بين المغرب الإسلامي وأوروبا المسيحية المتوسطية، هذا المنحى ينبغي النظر فيه بإمعان لسبر أغواره، وكشف حقائقه، وإعطاء هذه القضية الاجتماعية حقها من البحث، لأن مسألة الأسر والأسرى لم تحظ بالعناية الكافية من طرف الباحثين، وبخاصة في المغارب.

الكلمات الدالة:

البحر الأبيض المتوسط– الدول الأوروبية– الكنيسة البابوية – تحرير الأسرى الأوروبيين– الجزائر خلال العهد العثماني

العنوان بالإنجليزية:

The efforts of the Papal Church in liberating the European prisoners in Algeria during the Ottoman period (historical approach).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

.Abstract:

For almost three centuries - the beginning of the 16th century to the first third of the 19th century - the Mediterranean was a fierce conflict and a bloody war between a state that decided to defend its existence and its existence, where it was able to inflict painful blows on its enemies and between a Christian bloc and used all its potential and energies to eliminate Algeria , And its regime, which refused to kneel and retreat before the repeated Christian harassment and declared on the Algerian coast. This conflict has resulted in tens of thousands of human losses, in addition to a large number of prisoners in the northern and southern shores of the Mediterranean.

The issue of families and slavery is as old as history. During periods of human history, the issue of prisoners was the core of the negotiation relations between these tribes or countries. These prisoners either become slaves to serve the powerful or are redeemed by payment of money or through exchange.

The issue of prisoners on the southern and northern shores of the Mediterranean has been a major aspect of the relations between the Islamic Maghreb and the Mediterranean Christian Europe. This trend should be carefully considered to explore its facts and to give this social issue its right to research because the issue of families and families has not been adequately addressed By researchers, especially in the Maghreb.

Key words:

Mediterranean countries - European countries - the Papal Church - the liberation of European prisoners - Algeria during the Ottoman period

طيلة ثلاثة قرون تقريبا – بداية القرن 16 إلى الثلث الأول من القرن 19– عرف البحر المتوسط صراعا ضاريا، وحروبا دموية بين دولة قررت الدفاع عن كيانها وذاتها ووجودها، حيث تمكّنت من توجيه ضربات موجعة لأعدائها، وبين تكتّل مسيحي وظّف كل إمكاناته وطاقاته للقضاء على الجزائر، وعلى نظامها الذي رفض الركوع والتراجع أمام التحرّشات المسيحية المتكررة والمعلنة على السواحل الجزائرية. وقد نتج عن هذا الصراع، وعن هذه الحروب خسائر بشرية قدّرت بعشرات الآلاف، يضاف لهم عدد هائل من الأسرى في الضفّتين الشمالية والجنوبية للمتوسط. وقضية الأسر والرق قديمة قدم التاريخ، فخلال فترات التاريخ الإنساني التي اتسمت بالصراع بين القبائل أو الدول كانت قضية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الأسرى تشكل نواة علاقات التفاوض بين هذه القبائل أو الدول، فإما يصبح هؤلاء الأسرى عبيدا يسخرون لخدمة الأقوياء

أو يتم افتداؤهم بدفع مبالغ مالية أو عن طريق التبادل.

وقد شكل موضوع الأسرى في ضفتي البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والشمالية منحى واسعا في العلاقات بين المغرب الإسلامي وأوروبا المسيحية المتوسطية، هذا المنحى ينبغي النظر فيه بإمعان لسبر أغواره، وكشف حقائقه، وإعطاء هذه القضية الاجتماعية حقها من البحث، لأن مسألة الأسر والأسرى لم تحظ بالعناية الكافية من طرف الباحثين، وبخاصة في المغارب. ولعل من أسباب التي دفعتني للبحث في موضوع الأسرى ، فذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كون قضية الأسرى والاسترقاق هي في الواقع مأساة بشرية تقلبت فيها أحداث الزمان، واصطخبت صروف الأيام، وداول الدهر فيها بين شطريه، فهو مرة هم وغم، وهو في أخرى خذلان وبلاء مستطير. وأما السبب الثاني فيتعلق بالكم الهائل من الوثائق التي عثرنا عليها في مختلف المراكز الأرشيفية الإيطالية وفي مقدمتها مركز أرشيف " بربقندا فيدي "[1] هذه الوثائق كشفت لنا مدى اهتمام الكنيسة بقضية الأسرى المسيحيين في الجزائر خلال الفترة العثمانية، وعن مدى الجهود المبذولة من طرف الهيئة البابوية في روما، والهيئات الأخرى المرتبطة بها من أجل افتكاك هؤلاء الأسرى، وإعادتهم إلى أوطانهم وذويهم.

الأسرى الأوربيون في مدينة الجزائر خلال الفترة الحديثة:

شكلت التركيبة السكانية لمدينة الجزائر خلال العهد العثمانية، أساسا للبنية الاجتماعية لهذه المدينة حيث ضمت أثناء هذه الفترة مجموعات من العناصر السكانية متباينة فيما بينها، ومن أبرز هذه العناصر، الأتراك العثمانيون، والكراغلة، والحضر، والموريسكيون الأندلسيون، وفئة البرّانية، والزنوج، واليهود، والأوروبيون. تنقسم هذه الفئة الأخيرة، إلى مجموعتين، مجموعة الأوروبيين الأحرار المكونة من القناصل، والمبعوثين الكنسيين، وموظفي القنصليات، والتجار، و وكلاء المؤسسات التجارية، وآباء الافتداء. ومجموعة الأسرى. كان عدد الأسرى الأوربيين في الجزائر خلال الفترة العثمانية يتغيّر بين فترة وأخرى، وذلك لارتباط مسألة الأسر، وقضية الأسرى بالنشاط البحري، ونشاط القرصنة في البحر المتوسط، كما أن فترات السلم والأمن لعبت دورها في تناقص عدد الأسرى في ضفتي المتوسط. وأمّا خلال

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

فترات الصراع، فإن عددهم كان يتزايد ويتضاعف بدون شك. أوردت بعض الدراسات الأوروبية بعض الإحصائيات عن عدد الأسرى الأوربيين في الجزائر، فهايدو (Haedo) ذكر أن عددهم في الجزائر تجاوز مائتا ألف أسير، وفي نفس السياق أورد الراهب دان (Dan) بأن عددهم كان يتراوح بين ألفين وخمسمائة و ثلاثة آلاف أسير منهم ألف ومائتي امرأة، وأما الراهب دو لا فاي (De La Faye) فقد ذكر أنه لم يبق في الجزائر سنة 1725 سوى أسيران مسيحيان اثنان.[2]

على العموم، فإن الوثائق التي اطلعنا عليها خلال رحلاتنا المتكررة إلى إيطاليا، اتسمت بكثير من التناقض فيما يخص عدد الأسرى المسيحيين في الجزائر عامة، فقد أورد أحد المبعوثين الكنسيين من خلال مهمة قام بها في الجزائر تقريرا مؤرخا في 10 ديسمبر 1763 جاء فيه: الجزائر هي المدينة مقر إقامة المبعوث الكنسي، وتنقسم مملكة الجزائر إلى ثلاث مقاطعات يحكمها ثلاث دايات، داي قسنطينة في الشرق، وداي معسكر في الغرب، وهناك داي التيطري[3] وفي ناحية قسنطينة يوجد عدد كبير من الأسرى المسيحيين حوالي 1300، أغلبهم في المنطقة المسماة قالة أين توجد كنيسة أيضا. وفي مدينة بونة التي كانت تسمى قديما هيبونة حيث توجد كنيسة القديس أغسطين، في هذه المدينة يوجد مسيحيون كثيرون[4] كما تجد بهذه المدينة غرفة تجارية جنوية **(Casa Genovese)** ومن هذه المدينة يتمّ شحن سلع عديدة باتجاه مناطق إيطالية مختلفة، وفي مقدمـة هذه السلع الحبوب. وأما قسنطينـة فيوجد بها ثلاثون أسيـرا استقدمهم داي قسنطينة (يعني الباي) من مدينة الجزائر، وتتراوح أعمار هؤلاء الأسرى ما بين 12 و25 سنة.

سجون الأسرى الأوربيين

وأما سجون الداي في مدينة الجزائر فقد وصل عدد الأسرى بها 800 أسير، أغلبهم صقلّيون، وبالقرب من إحدى الكنائس يوجد سجن به حوالي 500 أسير مسيحي، بحسب ما ورد في وثيقة مؤرخة في 10 ديسمبر 1763.[5] مقابل هذه الأعداد فقد أشارت وثيقة كنسية أخرى، مؤرخة في 22 فيفري 1790، أن عددهم في الجزائر خلال هذه الفترة لم يكن يتجاوز تسعة وثلاثون أسيرا.[6] كانت هذه السجون، تسمّى بانيو (**Bagno**) وتعني الحمّام، ذلك أن الأسرى كانوا يودعون في الحمّامات أثناء الليل،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إلا أن الارتفاع المتزايد للأعداد الأسرى، دفع بالحكومة الجزائرية آنذاك إلى تخصيص مباني لهذا الغرض، مع احتفاظها بنفس التسمية[7]

كانت سجون مدينة الجزائر شبيهة إلى حد كبير بالمنازل السكنية، أي أنها كانت تتألف من بهو داخلي يتوسط المبنى، تحيط به أروقة مقسمة إلى غرف متفاوتة المساحة، حيث تأوي الغرفة الواحدة ما بين 15 و20 أسيرا، وهي خالية من الأثاث إلا من حصائر مصنوعة في الغالب من القصب أو الحلفاء يستخدمها الأسرى أثناء نومهم[8]. وتنقسم سجون الأسرى في مدينة الجزائر إلى قسمين:

- **سجون البايلك.**

ويعود تاريخ تأسيس هذه السجون إلى القرن السادس عشر، وكان عددها في البداية اثنان، السجن الكبير الذي كان يقع في شارع السوق الكبير بالقرب من باب عزون[9]، وكان يسمى أيضا سجن الملك لأن خير الدين هو الذي أسسه، ونظرا لسعة مساحته فقد كان ينزل به عددا كبيرا من الأسرى، فقد ذكر هايدو أن هذا السجن كان يضم ما بين خمسمائة وألفي أسير[10]، وهذا أثناء فترة حكم حسن فينيزيانو[11]

ويأتي بعد السجن الكبير، سجن الباستارد[12]، أقل من الأول مساحة، وهو مقسم على غرار السجن الكبير إلى غرف، وهو مخصص للأسرى المكلفين بالعمل في الأشغال العامة، ويعرف هؤلاء الأسرى باسم عبيد المخزن، لأنهم من أملاك الدولة[13]. يضم سجن الباستارد، كنيسة يحي فيها الأسرى المسيحيون صلوات وقداس أيام الأحد، وفي المناسبات والأعياد الدينية المختلفة، ويترد على هذا السجن العديد من المبعوثين الكنسيين، ورجال الدين من القساوسة، وذلك لتقديم ما يعرف عند المسيحيين بالدعم الروحي، ويتراوح عدد الأسرى فيه ما بين أربعمائة وخمسمائة، يتمتع أغلبهم بحرية في الحركة[14]. ومع تزايد عدد الأسرى، أصبح من الضروري، بناء سجون جديدة، فقد أضيف إلى السجنين السابقين سجن ثالث، هو سجن سيدي حمودي[15]، وسجن رابع هو سجن الغاليرات[16]، وتلا بعد ذلك إقامة سجون أخرى مثل سجن علي بتشين الذي كان يتسع خمسمائة أسير، وسجن شلبي، وسجن سانت كاترين، وسجن الديوان، وسجن الأسود الواقع في المكان المسمى "تبرنة البايلك" وسمي كذلك لاحتفاظ الداي في قسم منه ببعض الأسود، التي كان يقدمها كهدايا لبعض ملوك أوروبا[17]. كما كان الأسرى الأوروبيون يقيمون أيضا في الحمامات التي كانت في الغالب شبيهة بالمنازل، بباب رئيسي ضيق وممر طويل، أين

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تتوزع غرف الأسرى[18]، إلى جانب وجود حانة، يقضي فيها الأسرى أوقات فراغهم[19]، كما تتشكل الحمامات من طابق علوي يحتوي على غرف يقيم بها الأسرى، إلى جانب وجود شرفات تطل على الفناء الداخلي، أين يوجد خزان الماء، إضافة إلى غرفة صغيرة توضع فيها سلاسل الأسر[20]

أما الأسيرات الأوروبيات، فكان عددهن قليلا، وقد عرف على العثمانيين احترامهم للأسيرات الأوروبيات على الرغم من كونهن مسيحيات، فلم يكونوا يجبروهن على اعتناق الإسلام[21]. وفي هذا الصدد ذكر الأب دان أن عدد الأسيرات المسيحيات اللواتي اعتنقن الإسلام في سنة 1630، بلغ نحو ألف أو يزيد بقليل (ألف ومائتي) امرأة[22]. كان الأهالي يشترون الأسيرات، للعمل في المنازل، وكثيرا ما ينتهي الأمر بزواج الكثيرات بمالكيهن بعد اعتناقهن الإسلام، كما حدث مع خير الدين بربروس الذي تزوج من الأسيرة ماريا كايتانو[23].

- **بيوت الخواص.**

كان من الأسرى الأوروبيين من يقيم في بيت مالكه تشير أغلب مراسلات المبعوثين الكنسيين الذين توافدوا على الجزائر طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلى قضية الأسرى المسيحيين، واتسمت هذه المراسلات بالمبالغة في وصف حالتهم فهم مساكين بحسب ما ورد في بعض هذه الوثائق (Questi poveriti, O quei meschini)، والهدف من ذلك استعطاف الكنيسة البابوية، والجمعيات الدينية والمدنية للمساهمة في جمع الأموال لافتدائهم، ومما ورد في هذا السياق ما جاء في مراسلة المبعوث الكنسي كروازيل[24](Groiselle) " بعد المقدمة التي تضمنت التحية والإجلال والتعظيم ذكر ... رأيت في مدينة الجزائر عددا هائلا من الأسرى عددا هائلا من الأسرى المسيحيين، لأجل الرب، ولهؤلاء ألتمس عطفكم وحمايتكم المقدسة، فهم مدينون لكم بالرحمة، يوجد من بين هؤلاء الأسرى قساوسة، ورجال دين آخرون من رتب كنسية مختلفة، وكذلك من جمعيات دينية مختلفة، كذلك يوجد من بين هؤلاء ضباط عسكريون ذوي رتب عسكرية عالية، والجنود أيضا، وهناك أشخاص ذوي مهن مختلفة، منهم المهندسون وربابنة السفن، يوجد أسرى مسنّون، وكذلك أسرى من فئة الشباب، توجد النساء أيضا، منهن السيدات والأوانس، كما يوجد الأطفال كذلك، كل هؤلاء الأسرى مكبلون في القيود، تبدو على وجوههم مظاهر الشقاء والغبن، رأيت في هذه المدينة أسرى مسيحيون من كل الأعمار والأقطار منهم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الرومانيون، والجنويز، والنابوليتان، والأسبان، والبرتغاليون، والفرنسيون، والاسلنديون، والبولنديون، وغيرهم من الأمم المسيحية، رايتهم يعاملون كأنهم مجرمون، محتقرون مهانون، ومعذبون، يضربون من طرف البرابرة الهمجيين، ضربا مبرحا من غير شفقة و لا رأفة."[25]

الأسرى المسيحيون في الجزائر سنة 1790 [26] .

اسم الأسير	الموطن	العمر	مدة الأسر
سيباستيان كارتاريللي	بارما	23 سنة	03 سنوات
جون باتيست ريكور	شاتو قرينيتي فرنسا	42 سنة	03 سنوات
فرنسوا شارتران	– فرنسا	40 سنة	04 سنوات
جيو آشينو ديفييرسي	أرنيتو روما	33 سنة	08 سنوات
جوانو تيسياسترا	إسبانيا	48 سنة	08 سنوات
كيتانو إسلينيا	إسبانيا	32 سنة	06 سنوات
جوزيف ريزينا	إسبانيا	50 سنة	25 سنة
فرانشيسكو لاتيس	إسبانيا	45 سنة	04 سنوات
سيلفاستي ريفيلا	إسبانيا	42 سنة	07 سنوات
فرانشيسكو أقولييني	إسبانيا	46 سنة	12 سنة
جونيي روجاس	مدريد إسبانيا	–	–
ميقال فرنندو	إسبانيا	33 سنة	09 سنوات
اندريا قارسيا	إسبانيا	34 سنة	07 سنوات
جوان أليياي	إسبانيا	31 سنة	10 سنوات
ريمون قارندو	إسبانيا	53 سنة	23 سنة
ميقال موريلا	كالابريا	65 سنة	35 سنة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بييترو نافاريا	أفلينو إيطاليا	66 سنة	35 سنة
جياكومو دي سيزاري	إيطاليا	55 سنة	35 سنة
باسكوالي كلزونا	كالابريا	64 سنة	35 سنة
سيمون فيورناري	صقلية	64 سنة	35 سنة
بييترو لانقو	صقلية	73 سنة	35 سنة
نيكول ودي ديو	كابوانو إيطاليا	60 سنة	35 سنة
لورنزو قالاريو	دي بوقليا إيطاليا	70 سنة	35 سنة
باسكوالي صوميللو	نابوليتانو إيطاليا	60 سنة	35 سنة
ماركو كاليتشي	بييني فانتو إيطاليا	60 سنة	35 سنة
أنتونيو نورفيل	أورقون	60 سنة	33 سنة
لورنزو ميتشي	دي سبوليتو إيطاليا	38 سنة	08 سنوات
جيوفاني مارتيناريو	دي فيريرا إيطاليا	40 سنة	17 سنة
جيوباتيستا شيماريللي	أنكونا إيطاليا	50 سنة	09 سنوات
أنجللو روسي	كالابريا	65 سنة	35 سنة
أنطونيو قاسميور	إسبانيا	26 سنة	04 سنوات
بيار كودور	فرنسا	25 سنة	04 سنوات
لورنزو سولفوريتو	إيطاليا	33 سنة	10 سنوات
ستيفان بروك	سافوايادو فرنسا	29 سنة	03 سنوات
أنطونيو يينيتوس	البرتغال	32 سنة	08 سنوات
شيكوتو بويي	سردينيا	28 سنة	02 سنتين
فرانشيسكو آزوو	سردينيا	22 سنة	02 سنتين
فبريزيو ميركادي	سردينيا	70 سنة	33 سنة
أنطونيو لادرينياري	سردينيا	27 سنة	03 سنتين

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

نستنتج من خلال هذا الجدول، أن الأسرى الإيطاليون يحتلون المرتبة الأولى من حيث العدد ب: 18 أسيرا، أي ما يعادل 46.15% يليهم الأسبان ب: 16 أسيرا، ما يعادل 41.02 % ثم الفرنسيون في المرتبة الثالثة ب: 04 أسرى، ما نسبته 10.25 % وأخيرا البرتغال بأسير واحد، ما يعادل 2.56%.

اهتمام الكنيسة البابويـة بالأسرى المسيحيين

أولت الكنيسة البابوية، وكذا الدول الأوروبية، وفي مقدمتها الدول المتوسطية، اهتماما كبيرا لمسألة الأسرى الأوروبيين، وذلك من خلال إصدار وثائق بابوية عرفت برسائل التوصية، وإرسال مبعوثين كنسيين، وممثلين للدول الأوروبية في الجزائر سواء كانوا سفراء أو قناصل، أو عن طريق الجمعيات الدينية والمدنية.

- **إصدار رسائل التوصية**

سميّت هذه الوثائق البابوية رسائل التوصية (Litterae Hortatoriae) [27] ، وهي براءات بابوية (Brevi Pontifici) تحمل ختم السلطة البابوية ممثلة في شخص البابا، وتسلّم لذوي الأسير، ويوصى في هذه الرسائل بتسهيل مهمة حاملها ومساعدته على جمع الأموال قصد افتداء الأسير المسيحي، وتحتوي رسالة التوصية على خمس فقرات رئيسية:

- الفقرة الأولى تتضمن الولاء لقداسة البابا، مع ذكر اسمه.
- الفقرة الثانية تتضمن وصايا المسيح المتعلقة بحماية المسيحية والمسيحيين. وتحتوي على المعلومات المتعلقة بالأسير، منها تاريخ وقوعه في الأسر، وموطنه الأصلي، وكذلك مهنته قبل الوقوع في الأسر.
- الفقرة الثالثة وتحتوي على تذكير بالثواب الذي يناله من ساعد على فك الأسير المسيحي.
- الفقرة الرابعة تتضمن المعلومات الدقيقة المتعلقة بالأسير، مثل الحالة الاجتماعية (أعزب أو متزوج) ولغته الأصلية فإذا كانت اللاتينية يشار إلى ذلك بكلمة لغتنا (Nostram Linguam وتتم الإشارة أيضا إلى العلامات الخصوصية الظاهرة على جسم الأسير مثل الوشم، أو بعض العيوب الجسدية، ومن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العلامات الأخرى المذكورة، يشار إلى اللحية إن وجدت، وذكر قامة الأسير، بالإشارة إلى كونه طويلا، أو متوسط أو قصير القامة.

- الفقرة الخامسة وتحتوي على مكان وتاريخ صدور البراءة وتوقيع الجهة التي أصدرتها.
- إرسال المبعوثين الكنسيين.

أرسل الفاتيكان خلال الفترة الممتدة من سنة 1650 إلى سنة 1801 ثمانية عشرة مبعوثا كنسيا بصفة مبعوث مقيم ومعتمد من طرف السلطة في الجزائر[28]، إضافة إلى عشرات المبعوثين الكنسيين غير الدائمين، حيث تتولى مدرسة إشهار الإيمان (Collegio de Propaganda Fide) إرسالهم في المهمات المستعجلة المتعلقة برعاية شؤون الأسرى المسيحيين[29]. كان للمبعوثين الكنسيين دورا بارزا في مفاداة الأسرى المسيحيين، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على مدى الاهتمام الذي توليه الكنيسة البابوية لهذه الفئة، فإذا أخذنا على سبيل المثال لا الحصر، وجدنا أن المبعوث الكنسي لومبير دوكين (Lambert Duquesne) الذي أقام في الجزائر أكثر من ثلاثين سنة (1705–1736) قد أرسل أكثر من ستين تقريرا إلى مدرسة الإشهار بالإيمان في الفاتيكان بروما حول الأسرى المسيحيين، وكان آخر تقرير أرسله حول هذه المسألة بتاريخ 19 جوان 1736[30]

قائمة بأسماء المبعوثين الكنسيين 1650–1801[31].

اسم المبعوث	Vicario Apostolico	مدة الإقامة في الجزائر
فيليب لوفاشي	Philippe le Vacher	1662–1650
بنيامين هويجي	Benjamin Huiguier	1663–1662
جون لوفاشي	Jean le Vacher	1683–1667
ميشال مونتماسون	Michel Montmasson	1688–1685

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

جيوسيبس جيانولا	Giusseppe Gianola	1692–1689
إيفون لورانس	Yvon Laurence	1705–1693
لومبير دوكين	Lambert Duquesne	1736–1705
بيار فارو	Pierre Faroux	1740–1737
شارل بواريي	Charles Poirier	1743–1741
أرنولت بوسو	Arnault Boussou	1757–1746
تيودور كروازيل	Théodore Groiselle	1763–1757
لويس دو لابي	Louis de Lapie	1765–1763
فيليب لو روا	Philippe le Roy	1773–1765
فرنسوا فيجيي	François Figuier	1778–1773
كلود كوسون	Claude Cosson	1782–1778
ميشال فيران	Michel Ferrand	1784–1782
جون آلازيا	Jean Alasia	1798–1785
كلود فيشيرا	Claude Vicherat	1801–1798

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– **دور جمعية الأرشيكونفراترنيتا ديل قونفالوني.**

تأسست هذه الجمعية بحسب ما ورد في وثائق مكتبة الفاتيكان سنة 1268[32] ، في عهد البابا كليمونت الرابع (1265–1268) وهناك مصادر أخرى حددت فترة نشأتها مابين سنة 1250 و 1270[33]. والأرشيكونفراترنيتا جمعية ذات طابع ديني لكونها نالت مباركة الكنيسة البابوية، فقد صدرت في شأنها عدّة براءات بابويــة، تؤكد شرعية العمل الذي تقوم به[34] وقد تعددت مهام ونشاطات جمعية الأرشيكونفراترنيتا، فمن أداء الصلوات، والتضرّع إلى الله في مختلف الكنائس الرومانية، إلى الترحم على الأموات، وإحياء مراسيم التعميد للمسيحيين أصلا، ولأولئك المعمدين الجدد من الذين تمّ تنصيرهم، ويعرف هؤلاء باسم "**نيوفيتي Neofiti** " **(المنصرون الجدد)**. أو الأسرى العبيد **(Schiavi e Schiave)** . ولهذه الجمعية فروع ومقرّات في مختلف المدن الإيطالية من روما حتى نابولي وسردينيا جنوبا، وحتى توسكانيا وبادوفا شمالا، كما نالت هذه الجمعية شهرة كبيرة على مستوى الدول الأوروبية أيضا.

واتخذت هذه الجمعية من كنيسة القديسة لوشيا في روما مقرا لها (Chiesa di Santa Lucia) وهي ذاتها الكنيسة التي نشأت فيها أول مرة، كما انتشرت مقرّاتها في نواحي عديدة من إيطاليا، ونالت شهرة عظيمة في كامل أرجاء أوروبا المسيحية تقريبا. وارتبط نشاط هذه الجمعية بإحياء مراسيم التعميد للمسيحيين والمنصرين الجدد، وافتداء الأسرى المسيحيين عن طريق جمع الأموال المخصصة للفداء، ومساعدة أهالي الأسرى وذويهم في البحث عن أماكن تواجد أسراهم في البلاد الإسلامية، والتدخل بشأنهم لدى السلطة البابوية لإصدار رسائل التوصية. أطلقت الأرشيكونفراترنيتا على نفسها اسم " الجمعية الأم " أو " أم الجمعيات " وإضافة إلى مهامها الدينية، فقد تحوّل اهتمامها لخدمة المجتمع المدني، كإغاثة المنكوبين، وتقديم الصدقات للفقراء والمساكين، والإشراف على إعداد مراسيم وولائم الزواج الجماعي لفئة الشباب[35].

من قيود الأسر إلى هرم السلطة .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني تدفق أعداد كبيرة من الأسرى الأوربيين، وذلك بسبب علاقات التوتر مع الدول الأوربية المتوسطية، التي كثفت من اعتداءاتها المتكررة دون انقطاع. خلال العقد الأول من القرن السادس عشر اشتركت أغلب الإمارات الإيطالية المتحالفة مع الإمبراطور شارل الخامس[36] في الحملات التي وجهت لاحتلال الجزائر، وهكذا تجابه الجزائريون والإيطاليون، ومن الحملات الإيطالية أو تلك التي قادها إيطاليون، حملة أندري دوريا[37] على شرشال، فقد أبحر دوريا من جنوة في شهر جويلية 1531 على رأس قوة بحرية مشكلة من 20 سفينة على متنها 1500 رجل، ولما أشرف على شرشال حاول مباغتتها، ففوجئ بمقاومة عنيفة من قبل البحرية الجزائرية، فانهزم تاركا وراءه نحو 600 أسير من رجاله[38] وقد كان رد فعل خير الدين آنذاك عنيفا، إذ شنّ هجوما على السواحل الجنوية واكتسحها برجاله، وعندما رجع إلى الجزائر أطلق عليه سكانها اسم ملك الجزائر المنتصرة «Il Re di Algeri la vittoriasa »[39]

ومنذ تحديها لاسبانيا سنة 1541، وانتصارها على شارل الخامس الذي كلفته محاولة الاستيلاء على الجزائر حوالي 10000 رجل و 150 سفينة، أصبحت الجزائر تسمى **"المحروسة"**[40] واعتبر أهل الجزائر أن هذا النصر من الله (سبحانه وتعالى). مثلما سبقت الإشارة إليه، أن الجزائر شهدت تدفقا هائلا للأسرى، وسيقوا إليها، فمنهم من اعتنق الإسلام واندمج في المجتمع الجزائري، وآخرون من الأوروبيين – وهم كثيرون أيضا– غادروا بلادهم الأصلية عن طيب خاطر وقصدوا الجزائر، وأصبحوا مسلمين، ذلك أن مدينة الجزائر القوية والغنية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت تقدم لكل هؤلاء الإمكانات للحصول على الثروة والارتقاء في السلّم الاجتماعي واحتلال أعلى المناصب السياسية والعسكرية هناك.

والجدير بالملاحظة أن النازحين إلى الجزائر من بلاد مثل إيطاليا حيث كان أصل الفرد هو الذي يكيّف الحياة الاجتماعية وحيث كان النبلاء و الأغنياء وذوو السلطان يتمتعون بامتيازات ترفعهم عن باقي طبقات المجتمع التي لم تكن تصلح إلا للطاعة والخضوع لهؤلاء الأسياد، وقد انظم إلى هذا الاضطهاد الاجتماعي السيطرة الأجنبية التي كانت تخنق البلاد، فلا عجب أن يرى هؤلاء الجزائر الأرض التي يسود فيها التسامح والمساواة والحرية[41]. ومن الإيطاليين الذين وجدوا المجال فسيحا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لاستثمار مواهبهم نجد، **حسن آغا** (1533–1544). كان حسن هذا من مسيحيي سردينيا، اعتنق الإسلام وهو ينتمي إلى تلك الفئة من الأوروبيين الذين ارتضوا لهم الإسلام دينا. بعد انتصاره على شارلكان سنة 1541 عفا حسن آغا على عدد من الأسرى المسيحيين[42].

رمضان باشا (1574–1577) وهو من سردينيا أيضا، أسر وهو شاب في سردينية فعني سيده بتعليمه، وقد آنس فيه من الذكاء والموهبة ما يؤهله للارتقاء، ونظرا لخصاله الحميدة تولى عدّة مناصب إدارية واكتسب ثروات طائلة وحصل على الجاه والسمعة الطيبة واشتهر عند الناس بالعدل والاستقامة ودماثة الأخلاق والحلم وكان عهد ولايته على الجزائر عهد سعادة وازدهار[43] . و **حسن فينيزيانو** (1577–1580) وهو من مسيحيي البندقية، لقد كان وهو صغيرا يبحر على ظهر سفينة تدعى إيسكلافون (Esclavon) وفي إحدى المعارك البحرية استولى على تلك السفينة درغوث رايس حاكم طرابلس، وبعد وفاة درغوث أصبح حسن ملكا لقليج علي حاكم الجزائر (1568–1571) فعينه أمينا عاما للخزينة في الجزائر، وفي سنة 1577 تولى حسن حكم الجزائر حتى سنة 1580 [44] حيث تصلّب في محاربة الأسبان وأقلق راحتهم في البحر وفي بلادهم، وأتمّ تحصين الجزائر وأعدها لمواجهة كل هجوم محتمل كما تولى حسن حكم الجزائر ثانية (1583–1587) وكان غازيا في شرق البحر المتوسط، وفي عهده كثرت الغنائم في البحر ونشطت القرصنة نشاطا غريبا[45] .

الشاعر الإيطالي أنطونيو فينيزيانو أسيرا في الجزائر .

هو شاعر صقلّي له شهرة في الأدب الإيطالي، ركب سفينة حربية صحبة دون كارلو الأراغوني (Don Carlo d'Aragona) فاحتجزت في شهر أفريل 1578، وسيق أنطونيو أسيرا إلى الجزائر، وهناك التقى الأسير الأسباني الذائع الصيت ميقيل دي سرفانتيس (Miguel de Servantes) فاتخذه صديقا، وكانا يتبادلان رسائل الشعر، وقد ألّف أنطونيو في الجزائر قصيدة مشهورة عنوانها **شيليا** (La Celia) أهداها لحبيبته الموجودة في صقلية[46]. نورد من هذه القصيدة هذه الأبيات :

Benchi Pri e Vogghia di li Dei
Tu Si'n Sicilia, ed Iu'n terra di Mori
E lu Corpu In Algeri
Fatto di Genti Barbara Suggettu

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قضت إرادة الآلهة

أن تكوني في صقلية، وأنا في أرض العرب

جسدي في الجزائر

مستعبد عند البربر[47]

سلطت هذه الدراسة الضوء على قضية من قضايا التاريخ الاجتماعي، وذلك من خلال معالجة موضوع الأسرى الأوروبيين في الجزائر, حيث ارتبطت هذه القضية بالاحتكاك الحضاري والصراع العسكري بين ضفتي البحر المتوسط، مما أدى إلى تصاعد النشاط البحري، وبخاصة في الحوض الغربي للمتوسط. تميزت هذه الدراسة بأنها جمعت إلى حد ما بين التناول العام للعلاقات الجزائرية الأوروبية وذلك من خلال المعالجة المتخصصة لقضية من صميم التاريخ المتوسطي، آلا وهي قضية الأسرى. إن البحث في موضوع الأسرى هو في الواقع دراسة لعلاقات سياسية اجتماعية، شكلت هذه العلاقات بين ضفتي المتوسط أساسا لحركية التاريخ في عمقه الحضاري وبعده الإنساني. إنّ قضية الأسر والرق قديمة قدم التاريخ، فخلال فترات التاريخ الإنساني التي اتسمت بالصراع بين القبائل أو الدول كانت قضية الأسرى تشكل نواة العلاقات بين هذه القبائل أو الدول، فإمّا يصبح هؤلاء الأسرى عبيدا يسخّرون لخدمة الأقوياء أو يتمّ افتداؤهم بدفع مبالغ مالية أو عن طريق التبادل.

إن هذه الدراسة هي في نظرنا بحث في التاريخ الاجتماعي المتوسطي، لأن البحث في تاريخ العلاقات بين ضفتي المتوسط يكاد يقتصر على الجانب السياسي وتعاقب الدول والحكام ، وأن حظ التاريخ الاجتماعي من الدراسة والبحث قليل. ومن النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث، أن الكنيسة البابوية كمؤسسة دينية على مستوى الفاتيكان من جهة، وعلى مستوى الفضاء الجغرافي المسيحي الأوروبي، لعبت دورا محوريا في العلاقات بين المغرب الإسلامي وأوروبا المسيحية، وأن تحرك أوروبا المسيحية المتوسطية باتجاه جنوب المتوسط قد نال مباركة الكنيسة البابوية.

أولت الكنيسة البابوية، وكذلك الدول الأوروبية، اهتماما متزايدا بقضية الأسرى المسيحيين من خلال تكثيف نشاط الجمعيات الدينية والمدنية، كما أصدرت السلطة البابوية أوامر في روما وخارجها من أجل تسهيل كل الإجراءات اللازمة لافتدائهم وإعادتهم إلى ذويهم. بالمقابل كان هناك نوع من الاهمال

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من طرف الحكام والمؤسسات في بلاد المغارب فيما يخص ألأسرى المغارب الذين رمت بهم الأقدار ليتحولوا إلى عبيد بمقتضى براءة بابوية صدرت عن البابا باولو فرنيز[48]

الهوامش:

[1].Archivio Storico « De Propaganda Fide »

[2] .Moulay Belhamissi, « Les relations entre l'Algérie et l'Eglise Catholique à l'époque Ottomane. » in, Majallat Attarikh, CNEN, Alger 1980, pp. 58-60.

[3] . يعني بذلك البايات، أي باي الغرب، وباي التيطري، وباي الشرق.

[4] . لم يذكر صاحب التقرير إن كان هؤلاء المسيحيون من الأسرى.

[5] .A.S.P.F, SC(Barbaria), Ristretto della relazione della missione di Algeri 10-12-1763.

[6] .A.S.P.F, Fondo di Vienna, Un plico contenente i propriseriti.

[7]. Corine Chevalier, Les Trente premières années de l'Etat d'Alger 1510-1541. Ed, OPU. Alger1986, p. 56.

[8]. Corine (C), Op-cit, p. 56.

[9] . مباركي نادية، الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال القرنين 10–11هـ/16–17م من خلال مرافقها الحضارية. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستيرفي التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2005–2006. ص 215. ينظر أيضا:

- محمة عائشة، الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 1432–1433هـ/2011–2012م. ص26.

[10]. Haedo (Diego Fray de), Topographie et histoire générale d'Alger, la vie à Alger au XVI siècle, traduction et notes de A. Berbrugger et Monnereau, 3éme édition, présentation de Abderrahmane Rebbahi, G.A.L, Alger2004, p55.

[11] .وهو من مسيحيي البندقية، كان اسمه قبل اعتناقه الإسلام اندريتا (Andretta) لقد كان وهو صغير أي في سن الطفولة يبحر على متن سفينة تسمى اسكلافون (Esclavon) وفي إحدى المعارك استولى على تلك السفينة دراغوث رايس حاكم طرابلس، فساقه أسيرا، وبعد وفاة دراغوث سنة 1565، أصبح من المقرّبين من علج علي وعلى يده أسلم. ولم تكن هذه الحادثة فريدة من نوعها، ولا هي حالة طارئة، ففي ذلك العهد وخلال القرون التي تلت، وجد كثير من الإيطاليين والمسيحيين بصفة عامة الذين وقعوا في الأسر من جرّاء حروب القرصنة، فسيقوا إلى الجزائر، وهناك اعتنقوا الإسلام

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

واندمجوا في المجتمع الجزائري وآخرون من الأوربيين – وهم كثيرون – غادروا بلادهم الأصلية عن طيب خاطر وقصدوا الجزائر وأصبحوا مسلمين وارتقوا في السلّم الاجتماعي واحتلّوا أعلى المناصب السياسية والعسكرية هناك.

ولمّا تولّى علج علي حكم الجزائر سنة 1568 رقّاه بسرعة، وأعدّه لخلافته، فعينه في بداية الأمر أمينا عامّا للخزينة، كما كلّفه بقيادة سفينته الخاصة، وانتقاء أشهر الجدّافين.

تولّى حسن باشا فينيزيانو حكم الجزائر سنة 1577 إلى غاية 1580.(4) وكان حازما وصارما في سياسته الداخلية، كما اشتهر بالدهاء والقسوة، والحزم والطموح. حول حسن فينيزيانو ينظر:

بونو سلفاتوري، " العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي" ترجمة أبي القاسم بن التومي، الأصالة عدد.6 الجزائر جانفي 1972 ، ص ص 98-118.

بن خروف عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.ج1، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1427هـ/2006م. ص، 110.

[12]. أخذ سجن الباستارد تسميته من واقعة حدثت خلال فترة حكم حسن باشا ابن خير الدين، فبعد انتصاره على الكونت دالكوديت في معركة مستغانم التي جرت في سنة 1558م، تمكن حسن باشا من أسر عدد كبير من الأسبان والمتحالفين معهم من الأوروبيين، وقد حاول هؤلاء الأسرى الإفلات والهروب بعد ذلك على متن السفينة المسماة باستارد، لكنهم وقعوا من جديد في الأسر، فاختار منهم حسن باشا الأقوياء أصحاب العضلات المفتولة، لتسخيرهم في عمليات التجديف. ينظر: هايدو.

Haedo, Op-cit, p56.

وينظر أيضا:

Venture de Paradis, Tunis et Alger au XVIIIème siècle. Mémoires et Observations rassemblés et présentés par Joseph Cuoq, éd, Sindbad, Paris1983.

[13]. Haedo, Ibid, p56.

[14] .Ibid, p56.

[15].نسبة للولي الصالح سيدي حمودي، الذي دفن إلى جوار هذا السجن بعد وفاته

[16]. سمّي بهذا الاسم، لأن غاليرتين نابولتانيتين وقعتا في الأسر، واقتيدتا إلى مدينة الجزائر، وكان على متنها بعض المجدفين الجزائريين الذين حصلوا على حريتهم، بينما افتدت حكومة نابولي بعض الضباط التابوليتان، وقام أباء الافتداء، بافتداء باقي الضباط النابوليتان. ينظر:

Henri Klein, Feuillet d'Ei-Djazair, 2vols, éd, du Tell, Alger2003, Vol,1, p157.

[17] . Ibid, p157.

[18]. Emmanuel d'Aranda, Relation de la captivité du sieur Emmanuel d'Aranda jadis esclave à Alger, Jean Mommart éditeur, Bruxelles1662,p156.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[19]. يذكر درندا في مذكراته عن الأسرى الأوروبيين مايلي: "...كنت أجد متعة كبيرة عندما أستمع إلى ما كان يحدث في أوساط أسرى السجن، وعلى الرغم من أنني كنت أقيم في منزل سيدي محمد شلبي فقد كنت أذهب إلى السجن لأتسلى، وأروّح عن نفسي بالحديث إلى الطالب فراسوا، الذي كان يجتمع حوله أسرى من دنكيرك، كانوا يروون مغامراتهم، ومصادماتهم البحرية مع غيرهم في عرض البحر، وكان الهولنديون يتحدثون عما حدث لهم في جزر الهند الشرقية، وفي اليابان والصين. وأمّا الأسرى الدنماركيون والألمان فكانوا يروون قصصا عن صيد الحيتان في غرينلند، وفي أي يوم كانت الشمس تسطع في إيسلندا، يواصل درندا حديثه فيقول: وإذا لم تعجبني حكايات هؤلاء، أذهب إلى الإسبان الذين يتحدثون عن مستعمراتهم، وطريقة حكمهم له، ويتحدثون أيضا عن ملذات المكسيك، وثروات البيرو. أما الأسرى الفرنسيون فكان حديثهم يدور دائما حول الأراضي الجديدة، كندا، وفرجينيا. ينظر:
Emmanuel d'Aranda, Ibid,p160.

[20] .Klein, Ibid, p157.

[21] .جون.ب. وولف، الجزائر وأوروبا 1500–1830، تعريب وتعليق أبي القاسم سعد الله. م.و.ك. الجزائر1984، ص288.

[22]. Dan (P), Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, éd Pierre Racolat, Paris1637, p422.

[23]. وولف، نفس المرجع. ص288.

[24].هو تيودور كروازيل، أقام في الجزائر بصفته مبعوثا كنسيا، برتبة سفير للفاتيكان من سنة 1757 إلى سنة 1763، حول المبعوثين الكنسيين ينظر:
-A.S.P.F, F.V, Appendice lista dei prefetti Apostolici, Vicari e Viscovi nelle sedi missionarie dell'Africa del Nord, tra il XVII e il XIX secolo.

[25]. A.S.P.F, SC(Barbaria), Groiselle chiedi sussidi per la ricostruzione della Chiesa nel bagno del Beilik. Algeri 7-6-1754.
– بماذا نفسّر هذا التناقض الذي وقع فيه هذا المبعوث الكنسي المسمّى كروازيل، ففي الوقت الذي نجده يصف سكان الجزائر بالهمجيين والبرابرة، وأن حالة الأسرى المسيحيين في هذه البلاد يرثى لها، ها هو يذكر في تقريره المؤرخ في 7–6–1754، والمذكور أعلاه، بأنّ الداي تدخّل شخصيا وأمر بإعادة بناء الجزء المهدّم من كنيسة البايلك، بعدما تسببت الأمطار الغزيرة في هدم جزء من الكنيسة المذكورة، آلا يدلّ هذا على التسامح الديني؟ إذا ما ذكره المبعوث الكنسي كروازيل، فيما يتعلق بحالة الأسرى المسيحيين ما هو إلا مبالغة زائدة لاستعطاف الكنيسة البابوية لجمع مبالغ كبيرة من المال قصد افتكاك الأسرى المسيحيين.

[26]. اعتمدنا في إعداد هذا الجدول على وثيقة عثرنا عليها في مركز أرشيف البربقندا فيدي. Archivio di Propaganda Fide.
-A.S.P.F, F.V, vol, 25. Op-cit.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[27]. نسخ من هذه الرسائل محفوظة في أرشيف الفاتيكان، وهي موزّعة كما يلي:

-A.S.V, Registra Vaticana, Epistolae ad Principes, Segretaria dei Brevi.

[28]. A.S.P.F, F.V. Op-cit.

[29]. نذكر على سبيل المثال لا الحصر: فينشانزو دي باولو(Vincenzo di Paolo) **جيروليمو كاستيلفيترانو** (Girolomo Castelvitrano) **فيرناندو هابا**(Fernando Habba) كارلو ماريا دي جينوفا(Carlo Maria da Genova) **فرانشيسكو قاتا**(Francesco Gatta) **إضافة إلى الجمعيات، ومنها جمعية آباء الافتداء** (Pères de la Rédemption)**آباء الرحمة**(Pères **de la Merci**) **آباء المستشفى** (l'Hôpital **Pères de**) **وغيرها من الجمعيات.**

[30]. **A.S.P.F, SC(**Barbaria**), Op-cit, vol, 4 (1708-1723) et vol, 5 (1724-1740)**

[31]**.** A.S.P.F, FV. Op-cit.

[32]**.** B.A.V, Arciconfraternità del Gonfalone. XX.B 36.

[33]**.** Luigi Ruggeri, l'Arciconfraternita del Gonfalone. Roma 1866, p.1.

[34]. نذكر من هذه البراءات (Brevi) تلك التي أصدرها البابا قرقوار الثالث عشر بتاريخ 12 أكتوبر 1576. ينظر:

Ruggeri, Ibid, p. 06.

[35]. Ruggeri, Op-cit.

[36]. ولد شارل الخامس، المعروف باسم شارلكان، سنة 1500، ورث ملك إسبانيا عن والدته جان، ابنة فرديناند وإزابيلا، انتخب أميرا لألمانيا بعد موت جدّه لأبيه الإمبراطور مكسيميليان، قضى أيامه في محاربة فرنسوا الأول ملك فرنسا، وحارب خير الدين أمير البحر الشهير بباربروس، قصد الاستيلاء على مدينة الجزائر، فلم يفلح، تنازل عنملك إسبانيا لابنه فيليب، وعن ألمانيا لأخيه فرديناند، واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة 1658, ينظر:

- محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية. تحقيق الدكتور إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت 1401هـ/1981م. ص. 204.

[37].سعيــود إبراهيم : " لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني " مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، عدد 7، سنة 2007، ص. 207.

[38]**.** Luigi Pinelli, Un Corsaro Sardo Re di Algeri. Sassari 1972, p. 59.

[39]. Pinelli, Ibid, p. 60.

[40]. Corine Chevalier, Les Trentes premières années de l'Etat d'Alger 1510-1541. O.P.U, Alger 1986, p. 95.

[41] بونو سلفاتوري: " العلاقات الجزائرية الإيطالية خلال العهد التركي " تر. أبي القاسم بن التومي، مجلة الأصالة، عدد 6، الجزائر 1391هـ/1972م، ص. 100.

[42]. تفاصيل أكثر حول حسن آغا وردت في كتاب بينيللي، ينظر الفصل الذي خصصه الكاتب لهذه الشخصية.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- Pinelli, Un Corsaro…, Op-cit, pp. 91-135.

[43] . بونو سلفاتوري، نفس المرجع. ص. 101.

[44]. Turk Ansiklopedie, p. 324.

[45] .سعيـود إبراهيم: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص. 47.

[46]. Salvatore Bono, Sciciliani nel Maghreb. Roma 1992, pp. 69-73.

[47] .الترجمة الواردة في النص قام بها صاحب هذه الدراسة.

[48] . حول القرار البابوي المذكور، راجع دراستنا الموسومة: وثيقة أرشيفية بابوية تتعلق بتعميد الأسرى المسلمين (قراءة تاريخية) مجلة الدراسات التاريخية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2،العددان 15 و 16، السنة 1434ه/2013م، ص 237 وما يليها.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الثعالبة في الجزائر من خلال المصادر المحلية

د. حمدون بن عتو

جامعة الشلف.

البريد الإلكتروني: hmadoun82@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2017/01/12 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

تعد قبيلة الثعالبة من القبائل العربية التي تصاهرت مع السكان الأمازيغ في الوسط الجزائري. و قد أرخ ابن خلدون لهذه القبيلة و صراعها مع الدويلات في العصر الموحدي ثم مع الزيانيين و المرينيين. ثم ارتبط اسمها بالتواجد العثماني و تحرير السواحل الجزائرية من الاحتلال الإسباني. أنجبت هذه القبيلة أحد أشهر علماء الجزائر و العالم الإسلامي الشيخ عيد الرحمان الثعالبي دفين مدينة الجزائر.

الكلمات الدالة:

قبيلة الثعالبة – الجزائر خلال العهد العثماني- الموحدون- الزيانيون – عبد الرحمان الثعالبي.

العنوان بالإنجليزية:

Thaalba in Algeria through local sources

Abstract:

The Thaalba tribe is one of the Arab tribes that have become famous with the Amazigh population in central Algeria. Ibn Khaldun chronicled this tribe and its struggle with the states of the Umayyad era and then with the Zayani and Marinites. Then its name was associated with the Ottoman presence and the liberation of the Algerian coasts from the Spanish occupation. This tribe was one of the most famous scholars of Algeria and the Islamic world, Cheikh Abderrahmane Al-Thalabi.

Key words:

The Thaalba tribe - Algeria during the Ottoman period - the Almohadine - Zayani - Abderrahmane Al-Thalabi

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

. قبيلة الثعالبة من ولد ثعلب بن عليّ بن بكر بن صغير بن معقل، كان موطنهم لعهد ابن خلدون بمتيجة من بسيط الجزائر، وكانوا قبلها بتطيري(إقليم المدية و نواحيها)، نزلوها منذ عصور قديمة، وأقاموا بها حياً حلولاً. من بطونهم : أولاد سباع بن ثعلب ومنهم بنو يعقوب، وأولاد محمد بن سباع بن ثعلب ومنهم أولاد حنيش. ومنهم أيضا بنو سالم وبنو تومي حكام الجزائر.كانت رياسة الثعالبة في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن بكر بن صغير. ومرّ به ابن تومرت فأكرمه فكان إذا وفد على خلفاء الموحدين وضعوا على عمامته دينارا عظيما إكراما له. واستمرت الرئاسة في عقبه، فكانت أولا لبني يعقوب بن سباع ثم لبني محمد بن سباع. ولما ملك السلطان أبو الحسن المريني تلمسان ولّى عليهم أبا الحملات بن عائد بن ثابت بن محمد بن سباع، وهو ابن عم حنيش. وهلك في الطاعون الجارف سنة 749 هـ/1349م فخلفه إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن ثابت. وهلك أيام السلطان أبي عنان، فخلفه ابنه سالم. في نهاية القرن الثاني عشر استوطنت قبائل "الثعالبة" العربية سهل" متيجة " بأكمله وهو سهل شاسع يُطل على العاصمة ويشمل الاراضي الممتدة من وادي يسر شرقا الى وادي جر غربا. ومن يسيطر عليه يسيطر على العاصمة وهو ما حدث إذ بعد سيطرة الثعالبة عليه واستطانهم لقراه

.

دخل هؤلاء الثعالبة في حرب دموية على السلطة والنفوذ مع جيرانهم بني مزغنة حكام المدينة ، انتهت تلك الحرب بانتصار الثعالبة ودخول المدينة في حكمهم واقطاعاتهم ، يقول صاحب كتاب (مملكة الجزائر) Royaume d'Alger عن سكانها وعاداتهم وأصولهم ومتحدثا عن نتائج تلك الحرب بين الثعالبة وبني مزغنة ، يقول عن بني مزغنة (بحثت عنهم فلم أجدهم والظاهر أنهم اختفوا وتلاشوا بسبب نزاعاتهم الدموية والمباشرة مع جيرانهم قبائل الثعالبة) .وهو ما يؤكده المؤرخ توفيق المدني بقوله أن بني مزغنة اندثروا في حربهم الشرسة مع الثعالبة ولم يبقى منهم إلا فرع صغير فروا من المدينة بعد دخول الثعالبة اليها ، ويتواجد حاليا بجبل طابلات. ففي سنة 1438م، عندما أغتال سكان الجزائر ملكهم الجديد، وضعوا أنفسهم تحت حماية قبائل الثعالبة الذين كانوا يستوطنون أراضي سهول متيجة (وطنهم التاريخي قبل دخولهم للعاصمة) ، ففي ذلك الحين أقامت مدينة الجزائر نوعا من الإدارة البلدية، أو نظام الجماعة، وكان أول رئيس جماعة باشر تسيير شؤون المدينة هو الشيخ "عبد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الرحمن الثعالبي".[1] قال الشيخ مبارك الميلي : " وإذا لم يظهر من الثعالبة أمراء عظام فكفاهم فخرا عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر وعالم القرن التاسع ،) [2].

يشكل الاهتمام بتاريخ مختلف مناطق الجزائر و حضارتها ، و التعرف على سكانها عبر العصور ، و على الدور الذي قام به مشاهير رجالها في تطورها ، عاصرا هاما من عناصر الهوية الوطني .و من المناطق التي ساهمت في تأسيس الوطن الجزائري ، فحص متيجة ، الذي كان ممرا رئيسيا بين المناطق الشرقية و الغربية بالجزائر و بشمال إفريقيا . ومن أقدم منه قزرونة، وتدعى أيضا قزرونة ، وتعى أيضا قزرونة متيجة ، و أطلق عليها اسم متيجة ، و يعتقد أنها مدينة بليدة . أما الثعالبة فهم من عرب المعقل ، الذي قدموا إلى بلاد المغرب مع بني هلال و سليم وتنقلوا بين أنحائه بحثا عن الأراضي الصالحة لرعي مواشيهم ، شأنهم في ذلك شأن أبناء عمومتهم ذوي عبيد الله و غيرهم من العرب البدو . ويبدو أن الثعالبة إتجهوا عبر التلول الشرقية نحو الغرب " فدخلوا من ناحية كزول ، وتدرجوا في المواطن إلى ضواحي المدية ،ونزلوا جبل تيطري ، وهو جبل أشير "[3] .

و يذكر عبد الرحمان ابن خلدون أنهم نزلوا جبل تيطري منذ عصور قديمة ، أي أنهم أقاموا به مدة أجيال عديدة ، منذ عهد المرابطين . ويبدو أن الأوضاع تغرت عندما ضعف شأن الموحدين بعد هزيمتهم في معركة العقاب سنة 609 هـ/ 1212 م، فتقلص نفوذهم في المغربين الأدنى و الأوسط ، و تغلبت القبائل الزناتية، من بني توجين ومغراوة وبني راشد وبني عبد الواد، على كثير من مناطق الأطلس التلي بالمغرب الأوسط . فاستولت مغرارة على ناحية شلف ، برئاسة منديل بن عبد الرحمان ، الذي ملك جبل والونشريس و المدية و فحص متيجة . "وكان بسيط متيجة لهذا العهد مستبحرا بالعمران ، آهلا بالقرى و الأمصار ، و نقل الأخباريون أن أهل متيجة لذلك العهد كانوا يجمعون في ثلاثين مصرا ، فجاس (منديل) خلالها وأوطأ الغازات ساحتها ، وخرب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها ، وهو في ذلك يوهم التنسك بطاعة الموحدين و انه سلم لمن سالهم ، وحرب على من عاداهم "[4]

وفي سنة 622 هـ/1225م، أغار يحي ابن غانية، الثائر على الموحدين من بقايا المرابطين، على بعض مناطق المغرب الأوسط ، و هجم على فحص متيجة ، فقام منديل المغراوي لقتاله ، والتقى الفريقان في متيجة فانهزم منديل اسر ، "و قتله (ابن غانية)صبرا ...... و تغلب على الجزائر إثر نكبته

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

، فصلب بها شلوه ، و صبره مثلا لآخرين "[5] . و بذلك لم يبق لمغراوة اي نفوذ في متيجة .و عندئذ اغتنم بنو توجين فرصة ضعف أولاد منديل من قبيلة مغراوة ، أغاروا برئاسة عبد القوى التوجيني على متيجة و المدية و جبل والونشر يس ، و ملكوها . و بهذا عظم شأن عبد القوي ، " فصار له ملك بدوي لم يفارق فيه سكنى الخيام ..."[6] . و أغار على جبل تيطري ، فقاومه الثعالبة ، " و كانت بينه و بينهم حرب و سلم ، إلى أن وفدت عليه مشيختهم ، فقبض عليهم ، و أغزى من ورائهم من بقية الثعالبة و إستلحمهم و اكتسح أموالهم ، و غلبهم بعدها على تيطري ، و أزاحهم عنها إلى متيجة "[7].

كانت منطقة متيجة تخضع لنفوذ قبيلة مليكش ، فدخل الثعالبة في إيالتهم ، و كان للمكيش عليهم سلطان [8] . و كانوا يدعون للأمير أبي زكرياء الحفصي ، الذي بسط نفوذه على بعض مناطق الغرب الأوسط ، منها فحص متيجة . غير أن يغمراسن بن زيان ، مؤسس الدولة الزيانية ، نج سياة التوسع في اتجاه ه المناطق الشرقية بالغرب الأوسط ، و أخذ يغير عليها . فاستغاث أمراء تلك المناطق بأبي زكرياء الحفصي ، الذي بسط نفوذه عليها سنة 635هـ /1238م، ثم أغار على تلمسان و احتلها سنة 640هـ/1243م، ثم عاد إلى عاصمته تونس بعد عقد صلح مع يغمراسن ، الذي أعيد على العرش الزياني شريطة الدعوة للسلطان الحفصي. و لماذا عاد هذا الأخير إلى بلده عقد على أمراء زناتة ، كل على قومه فعقد لعلي بن منصور على قبيلة مليكش ببسيط متيجة [9]. وفي سنة 666 هـ/1268م ، بعد هزيمة يغمرا سن في تلاغ ، أغار على المناطق الشرقية بالغرب الأوسط ، و منها فحص متيجة [10]. تكررت الغارات عليها أيام أبي سعيد بن يغمراسن و ابنه أبي حمو ، و انتظمها في أعماله " [11] .

لما استولى أبو الحسن المريني ، سنة 737هـ /1337م، على تلمسان و المغرب الاوسط ، ضم المناطق الشرقية إلى دولته ، و قضى على نفوذ قبيلة مليكش في متيجة ، ووضع حدا لنفود بني توجين في والونشريس و المدية و جبل التيطري ، و على نفوذ مغراوة في منطقة شلف ، و ضم فرسان مغراوة و توجين و بني عبد الواد إلى جيشه و ألحق رؤساءهم إلى بطانته ، و أقطعهم ببلاد المغرب سهاما تعويضا لهم عن أراضهم [12]. و عندئذ ، حصلت لأبي الحسن المريني زعامة قبائل زناتة .ثم لما تقدم أبو الحسن المريني من تونس بحرا ، بعد هزيمته بالقيروان ، و تعرض أسطوله قرب ساحل مدينة بجاية ، لعاصفة أغرقت العديد من السفن ، و نجا إلى مدينة الجزائر ، " بادر إليه أهل ضاحيتها من ملكيش و

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الثعالبة ، فاستخدمتهم و بث فيهم العطاء " [13]. و عندئذ ضم أبو الحسن المريني الثعالبة إلى قبائل العرب الموالية له ، وولي عليهم إبراهيم بن نصر بن حيش بن ابي حميد بن ثابث بن محمد بن سباع الثعالبي . و لم تزل رئاسة قبيلة الثعالبة إليه . "إلى أن هلك بعد استيلاء السلطان أبي عنان(المريني)على المغربيين...وقام برئاستهم ابنه سالم"[14]

ثم كان إحياء الدولة الزيانية على يد أبي حمموسى الثاني سنة 760هـ/1359م، بمساعدة عرب بني عامر ، الذين أصبحوا يقومون بدور رئيسي في الدفاع عن العرش الزياني. وتعرض السلطان أبو حمو الثاني إلى منافسة ابن عمه أبي زيان ابن السلطان لأبي سعيد الثاني، التي هددت عرشه سنوات عديدة ، وبخاصة إثر إنهزامه أمام مدينة بجاية ، في آخر سنة 767هـ./1366مووجد أبو زيان هذا أنصارا بين عرب المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط، ومنهم قبيلة حصين، من زغبة ، و الثعالبة [15] .

لقد أدت هذه الأحداث إلى ضعف الدولة الزيانية و انشغال أبي حمو الثاني بمواجهة منافسة إبن عمه أبي زيان الذي حظي بتأييد قبائل المناطق الشرقية . و كان أبو حمو الثاني بحاجة ماسة إلى نصرة بعض قبائل العرب للدفاع عن عرشه ، و التصدي لغارات منافسة و حلفائه من العرب . و أصبح هؤلاء يسيطرون على الموقف سواء في الشرق المغرب الأوسط أو في غربه، و لا يقدمون خدماتهم إلا بعد نيل الكثير من الأموال و الإقطاعات.و سرعان ما انقلبت الأوضاع في كثير من أنحاء المغرب الأوسط، وعظم نفوذ قبائل العربية ، فاستبد الثعالبة بفحص متيجة ، و ملك حصين جبل تيطري ، وتنافس سويد و بنو عامر في خدمة العرش الزياني. و تعد هذه الفترة مرحلة هامة في تاريخ متيجة و في غيرها من مناطق المغرب الأوسط ، لأنها سمحت للثعالبة و حصين و غيرهم بفرض نفوذهم في مختلف الأنحاء [16] ،و المساهمة بشكل ملحوظ في تطور تاريخ المغرب الأوسط .

و فيما يخص الثعالبة ، فإن رئيسهم آنذاك ، سالم بن إبراهيم بن نصر، قام بأدوار سياسية هامة ، سلك فيها مسلكا ينم عن الذكاء و الحذر وانتهاز الفرص و الدهاء، و تطبيق مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة ". و كان المؤيدين للأمير أبي زيان، فاحتال على علي بن غالب، من أعيان مدينة الجزائر، الذي عاد إلى هذه المدينة بعد غيابه عنها أيام الاحتلال المريني واستبد بها. "و نكره سالم (الثعالبي)، أمير الضاحية لطمعه في الاستيلاء على الجزائر، فداخل في شأنه الملأ من أهل المدينة، و حذرهم منه أنه يروم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الدعوى للسلطان أبي حمو، فأستشاطوا نفرة وثاروا به". و عندئذ قام سالم بتحويل دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيان تحت استبداده [17]. و لما تولى عبد العزيز المريني على تلمسان و المغرب الأوسط ، سنة 772 هـ/1371م ، أقام سالم الدعوة لبني مرين في الجزائر، إلى وفاة السلطان المريني في ربيع الثاني سنة 774 هـ/1373م، بعد استلاء دام سنتين. فعادت الأمور في المغرب الأوسط إلى ما كانت عليه قبل ذلك، و رجع كل من أبي حمو الثاني و إبن عمه أبي زيان إلى المناطق التي كان يمتلكها .

و لما غير أبو حمو الثاني سياسته نحو قبائل العرب، فتحالف مع السويد، واستطاع بذلك أن يستولي على ناحية شلف. و تلا ذلك إذعان الثعالبة و أهالي الجزائر و المدية إلى طاعته في جمادى الأولى سنة 776 هـ/1375م، بينما قبل أبو زيان الانصراف إلى بلاد الدواودة، على أن يدفع إليه أبو حمو مبلغا من المال .و في أوائل سنة 778 هـ/1377م انتقض سالم بن إبراهيم، شيخ الثعالبة ، على السلطان أبي حمو، و اتصل بخالد بن عامر أتباعه من بني عامر، فوافقوه على الخلاف، و اجتمعوا على البيعة للأمير أبي زيان، و أقاموا له الدعوة بمدينة الجزائر، ثم توجهوا إلى مليانة و حاصروها، فامتنعت عليهم، و عادوا إلى الجزائر حيث توفي خالد بن عامر، ثم نهض السلطان أبو حمو بجيشه لإخضاع الثعالبة، و توجه صوب فحص متيجة، فلاذوا إلى جبال تيطري و اعتصموا بها. فحاصرهم و ضيق عليهم إلى أن انقادوا لطاعته، وقبل مطالبهم شريطة أن يفارقوا ابن [18].

حينما عاد أبو حمو الثاني إلى تلمسان، "و في نفسه من سالم حزازة لكثرة اضطرابه و مسارعته إلى الفتن، حتى توسط فصل الشتاء و أبعدت العرب في مشاتيها، فنهض من تلمسان في جيوش زناتة، و أغذ السير، فصبح فحص متيجة بالغارة الشعواء، و أجفلت الثعالبة فلحقوا برؤوس الجبال، و امتنع سالم بجبل بني خليل و بعث ابنه و أولياءه إلى الجزائر فامتنعوا بها ... ثم غلبوه على مكامنه،وفأنتقل إلى بني ميسره من جبال صنهاجة ...وصار الكثير من الثعالبة إلى الطاعة، وأسهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة، وبعث سالم أخاه ثابتا إلى السلطان، فاقتضى له العهد ".

نزل سالم من معتصمه إلى الأمير أبي تاشفين ابن أبي حمو الثاني، في أواخر رمضان سنة 779 هـــ/1378م، فأتى به إلى أبيه، "فأخفر عهده و ذمة ابنه، وتقبض عليه ...وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها و أقام دعوته بها، و أوفد عليه مشيختها فتقبض عليهم، وعقد على الجزائر لوزيره

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

موسى بن برغوث "رجع أبو حمو إلى تلمسان و هو يقود سالما الثعالبي أسيرا. و بعد بضعة أيام أمر بإخراجه من محبسه إلى خارج المدينة، فقتل قعصا بالرماح. ثم تتبع أبو حمو بالقتل سائر أفراد أسرة سالم و عشيرته .

أنتهى بصفة مأسوية دور الثعالبة ورئيسهم سالم بن إبراهيم في الأحداث التي اتسمت بها مرحلة تغلب العرب على كثير من مناطق المغرب الأوسط، وقاموا خلالها بدور سياسي هام، وفي أحداث تحولات اجتماعية كان لها اثر بالغ الأهمية في تطور ناحية متيجة و المناطق المجاورة. و الظاهرة أن فصائل قبيلة الثعالبة اندمجت ، بعد ذلك، في النسيج السكاني لتلك المناطق، وساهمت بحفظ وافر في النشاطات الاقتصادية و الثقافية و في الإنتاج العلمي، فكان الشيخ عبد الرحمان الثعالبي ، المتوفى سنة 875 هـــ/1471م، من أكابر علماء عصره بالجزائر، ومن مشاهير المفسرين و المحدثين [19].

حكم هؤلاء الثعالبة مدينة الجزائر وتسمت بهم (جزائر الثعالبة) طيلة قرون ، واستمر حكمهم لها حتى حلول العثمانيين ، وعند قدوم العثمانيين الاتراك ودخولهم للمدينة وجدوا أن حاكم الجزائر كان هو الشيخ سالم التومي الثعالبي ، زعيم قبائل الثعالبة وحاكم الجزائر و الذي اغتاله فيما بعد القائد العثماني بابا عروج عن طريق مكيدة مدبرة رغم أن الشيخ سالم كان من بين أعيان القطر الجزائري الذين وجهوا نداءا للنجدة للباب العالي (الدولة العثمانية) لمساعدتهم في صد الاعتداءات الإسبانية . ويعود سبب الانقلاب العثماني على زعماء الثعالبة والغدر بهم بعدما استنجدوا بهم ، هو سعي الأتراك للقضاء على الزعمات الروحية والسياسية التي ستعيق ضم و تبعية هذه الأرض لسلطتهم (الدولة العثمانية) ، ومن تلك الزعامات هي شيوخ الثعالبة الذين كان نفوذهم يمتد على مساحة شاسعة من أراضي وسط الجزائر وتعترف بسلطتهم القبائل المجاورة لهم وباستطاعتهم جمعها تحت كلمتهم لإعلان أي تمرد ضد نية الأتراك البقاء وحكم هذه البلاد بإسم الباب العالي .

و من قبائل الثعالبة المذكورة والموجودة لحد اليوم في وطن الثعالبة التاريخي (سهول متيجة) هي قبيلة الحجوط التي كانت تسيطر على وطن السبت (واد شفة وواد مزفران شرقا الى وادي جر وشنوة غربا) و أولاد فايت وأولاد تومي وأولاد سالم وغيرهم[20].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يتضح مما سبق ذكره أن قبيلة الثعالبة لعبت دورا لا يستهان به في تاريخ منطقة المغرب الأوسط في المجال الجغرافي الممتد في وسط الجزائر عبر مراحل تاريخية في فترة الدولة الزيانة و التواجد العثماني. كما ارتبطت اسم القبيلة بالعالم الفقيه المفسر الشيخ عبد الرحمان الثعالبي دفين مدينة الجزائر.

الهوامش:

(1) Laugier deTassy, Histoire du Royaume d'Alger, Amsterdam ,Henri du Sauzet,1725,pp.10-14/31-35

(2) ولد عبد الرحمن الثعالبي سنة 786هـ /1384م بوادي يسر بمدينة (يسر) الواقعة حاليا بولاية بومرداس والقريبة بخمس كيلومترات من مدينة برج منايل شمال شرقي العاصمة الجزائرية. نشأ عبد الرحمن الثعالبي في بيئة علم ودين وصلاح، استهل تعلمه على يدي علماء منطقته. كان معروفا عن عبد الرحمن الثعالبي، أنه عالم زمانه في القطر الجزائري في علوم التفسير، العقيدة، الفقه، والتصوف، وغيرها من العلوم الدينية الأخرى و هو أحد أعلام القرن التاسع الهجري ذلك أن الإنتاج الفكري للثعالبي انتشر في مختلف مكتبات العالم العربي والغربي. عكف عبد الرحمن على التدريس والتأليف، وكانت معظم مصنفاته في علوم الشريعة، وقد ترك في هذا الحقل ما يزيد على تسعين مؤلفا في التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ والتراجم وغيرها، نذكر من بينها:- تفسيره الجواهر الحسان في تفسير القرآن في أربعة أجزاء. توفي يوم الجمعة 23 رمضان 875هـ منتصف شهر مارس 1471م. ودفن في زاويته بالجزائر العاصمة حيث ضريحه بها إلى اليوم في مقبرة سيدي عبد الرحمان الثعالبي. وقد رثاه كثير من العلماء من معاصريه، كان من بينهم تلميذه أحمد بن عبد الله الزواوي. حول حياة الثعالبي ينظر: أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،1500+-1830، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998،ج1،ص ص 91-93.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، (ضبط و مراجعة: خليل شحادة و سهيل زكار)، بيروت: دار الفكر، 1421هـ/2000م،ج6، ص ص 84-85.. و أيضا : عبد الرحمان، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1384هـ/1965،ج1،ص ص 280-285.

(4) نفسه ،ج7، ص173-174..

(5) نفسه ،ج7، ص174.

(6) نفسه ،ج7، ص430.

(7) نفسه ،ج6، ص84،و ج7،ص4315 .

(8) نفسه ،ج6، ص84،

(7) عبد الرحمان ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج7،ص167 .

(8) نفسه ،ج7، ص178.

(9) نفسه ج7، ص189.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(10) نفسه ،ج7،ص230 .

(11) نفسه ،ج7،ص176–177.

(12) نفسه ،ج6، ص85.

(13) نفسه ،ج7، ص179.

(14) نفسه ،ج6، ص128.

(15) نفسه ،ج7، ص216.

(16) نفسه ،ج7، ص217.

(17) نفسه ،ج7، ص289.

(18) نفسه ،ج6، ص 85

(19) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1،ص82–84.

(20) نفسه.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قواعد تحقيق مخطوطات الحديث النبوي الشريف وعلومه من خلال:(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت544هـ) أنموذجا.

الإسماعيلي عبد الرحيم
أستاذ باحث جامعة القاضي عياض- المغرب

تاريخ الاستلام: 2016/11/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

إن تحقيق النصوص أمانة دينية وعلمية وأخلاقية، وإنه من واجب المحقق أن يعلم أن هذه النصوص؛ إنما هي وثائق تاريخية لا يحق له أن يتلاعب بها أو أن يُنصب نفسه حاكما أو مصححا لها. إن الأمانة العلمية تقتضي منه الحرص التام على نقل هذه الوثائق كما هي. ولهذا سطر علماؤنا القدماء قواعد دقيقة لكل من رام الخوض في علم التحقيق، منها ما يتعلق بالخطوط، ومنها ما يتعلق بالنسخ، أو الناسخ، ومنها ما يتعلق بالسقط والزيادة والضرب والحك...الخ. وفي هذا السياق وقع اختيارنا على متن (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) للقاضي عياض (ت544هـ) باعتباره متنا للاشتغال يضم أصولا وقواعد تفيد في تحقيق النصوص بشكل دقيق جدا لدى المحدثين.

إن تصفحنا لهذا المصدر يفيد في تبين وكشف جهود عياض باعتباره محققا لا محدثا أو فقيها، ومفخرة للمغرب في تأصيله لعلم المخطوطات ببلاد المغرب الإسلامي. هذا وقد استفاد القاضي عياض من المشارقة كثيرا، نذكر: (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) للرامهمزي (ت365هـ)، و (الكفاية في علم الرواية)، و(تقييد العلم وفضله) للخطيب البغدادي (ت463هـ)، و(جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر(ت463هـ). ثم أضاف عليها إضافات علمية من بنات أفكاره.

الكلمات الدالة:

أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي–تحقيق النصوص– علوم الحديث– أصول الرواية

Rules for the realization of the Hadiths of the Prophetic Hadith and its Sciences Abi al-Fadl Ayyadh ibn Musa al-Husseibi al-Sabti.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

.Abstract:

The editing of texts (manuscripts) is a religious, scientific and ethical responsibility; so the worker on manuscripts must be aware that these texts are historical documents which he can't manipulate or change what is written. The scientific responsibility obliges him to edit these texts as they are, without any change.

The Muslim scholars had established many precise rules, they wrote many books relating with this subject. One of this books (الإلماع) of al Qadi Ayyad. This important includes many rules which are important in editing texts. This book is not the first in his field, it is preceded by many others, like (المحدث الفاصل والكفاية وتقييد العلم وجامع بيان العلم).)

Key words:

Manuscripts, scientific and ethical, Ayyad al-Husseibi al-Sabti,

إن تحقيق النصوص من حيث النشأة شديد الارتباط بنزول الوحي وذلك منذ فجر الرواية، إذ كان الصحابة يكتبون الحديث ويملونه على تلامذتهم من التابعين، ويوصونهم بالتثبت في الكتابة، وبمقابلة ما يكتبون؛ ومن ثم أصبحت المقابلة والعرض أو (السماع) شرطا في الرواية. فعن هشام بن عروة قال: قال لي أبي: أكتبت؟ قال: قلت: نعم. قال: عارضت؟ قلت: لا. قال: فلم تكتب. وفي رواية أخرى: قال: قابلت؟ قلت: لا. قال: لم تكتب يابني[1].

من خلال هاته الرواية عن هشام، نسجل حرص المصنفين (المحدثين) على مقابلة مكتوباتهم وتصحيحها، وكان ذلك يتم من خلال تصحيح الطالب لنفسه وبمساعدة أصحابه، أو أن يصحح بمساعدة شيخه. إن استقراء مصنفات أهل الحديث (المحدثون، وعلماء الحديث)، يفيد في تسجيل خلاصة هامة تتصل بضوابط تحقيق النص عند المتقدمين من أهل هذا الشأن، ومن ذلك: (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) للرامهرمزي و(الكفاية في علم الرواية)، و(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، للخطيب البغدادي و (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر و(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) للقاضي عياض...الخ. كما يفيد نفس الاستقراء في تبين طرق ومصطلحات وأدوات يستعملها علماء علم التحقيق المحدثين وعالم المخطوطات، نحو: (المقابلة، والعرض، والإلحاق، والمحو، والكشط، والضبط، والتضبيب، والتمريض، والنسخ ، والتصحيح...الخ).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تأسيسا على ما تقدم تستهدف هاته المداخلة تسليط الضوء على إسهامات علماء الحديث في التقعيد لعلم تحقيق النصوص، من خلال اكتشاف جهود الإمام القاضي عياض في الوعي بهذا الفن والتأسيس له في زمن مبكر جدا. وتستشرف أهم القضايا العلمية الواردة في كتابه (الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع). لهذا اقتضت طبيعة المداخلة تقسيمها إلى ستة مباحث عبارة عن قواعد تسبقهما مقدمة وتمهيد وتعقبهما خاتمة. سأتحدث في المقدمة عن أهمية الموضوع، وإشكاليته، وخطة البحث. كما سأعرج في التمهيد على أهمية الكتاب وصلته بعلم التحقيق. ثم أنتقل إلى دراسة القواعد، وأختم بخاتمة أضمنها أهم النتائج والخلاصات.

إن العلم بالحديث النبوي الشريف من أهم العلوم، لهذا حظي هذا العلم باهتمام العلماء قديما وحديث حيث ألفوا المؤلفات وصنفوا المصنفات في شتى فروع العلوم المتعلقة به، ومن ذلك أمهات كتب الحديث التي اهتمت بجمعه وتصنيفه وتبويبه نذكر منها: " الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه"، لأبي عبد الله البخاري (ت 256هـ)، و" المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم" لمسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابوري، (ت261هـ)، وغير هاته المصنفات كثير... ثم مالبث هذا العلم أن دُوِّن وقُعِّد بعد أن عرف نوعا من الاهتمام من طرف علماء (مصطلح الحديث) من خلال (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) للرامهرمزي (ت**365**هـ) و(معرفة علوم الحديث) لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري(ت405هـ) و(الكفاية في علم الرواية)، و(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، للخطيب البغدادي (ت463هـ) و (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر (ت463ه)، و(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت544هـ)...الخ.

إن المطلع على هاته المصنفات الحديثية يقف على بواعث تأليف هؤلاء الأعلام لمؤلفاتهم. إذا يذكر عياضا أن راغبا رغب إليه تلخيص فصول في معرفة الضبط وتقييد السماع والرواية، وتبيين أنواعها عند أهل التحصيل والدراية. وهو الأمر نفسه الذي دعا عياض إلى التأليف في هذا الموضوع، يقول: " ولم يَعتنِ أحدٌ بالفصل الذي رغبتَه كما يجب، ولا وقفتُ فيه على تصنيف[2] يجد فيه الراغب ما رغِب، فأجبتُك إلى بيان ما رغبتَ من فصوله، وجمعتُ في ذلك نِكتاً غريبة من مقدمات علم الأثر وأصوله"[3].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من خلال ماتقدم، نسجل حرص المحدثين المغاربة على المساهمة في التأليف في هذا العلم؛ علم أصول التحقيق من خلال وضع قواعد تتعلق بالضبط، والتصحيح، والشق والمحو، واختلاف الرواية...الخ تساعد المتلقي في ضبط طرق وروايات الحديث، منذ القرن الرابع الهجري ومن بعده إلى اليوم، كما تساعد على قراءة تلك الصحف وضبطها، ومحاولة الوقوف على الوجوه التي يرتضيها لها مؤلفوها. يقول عباس رحيلة: " وإذا كان الخلاف في شأن كتابة الحديث قائما خلال العهود الأولى؛ فقد تقررت كتابة الحديث بالإجماع. وبفعل التحولات الثقافية العامة، وجد طالب العلم نفسه في مطالع القرن الرابع، يواجه المخطوطات، يعاني من المقابلة بين نسخها، ورواياتها وتخريج نصوصها، وتحديد محتوياتها. وهذا المجهود يضع قارئ هذه المخطوطات في قلب ما اصطلح عليه بتحقيق النصوص، كما أرسى أصولها علماء الحديث، وتقررت اليوم في أعمال المستشرقين والمستعربين على السواء"[4].

انطلق القاضي عياض في التأسيس لهذا الفن من أنواع تحمل علم الحديث وحددها في ثمانية:

أولها: السماع من لفظ الشيخ، حين يُملي، أو يُحدث من حفظه أو يَقرأ من كتابه،

ثانيها: القراءة على الشيخ، أو الاستماع إليه، وقد تكون القراءة من كتاب أو حفظ،

ثالثها: المُناولة وذلك حين يتناول الطالب نُسخةً مصحّحة بخط الشيخ، أو كُتبت عنها فأقَرَّها، أو يأتيه الطالب بنسخة صحيحة من رواية الشيخ، أو بجزء من حديث فيقف عليه الشيخُ ويعرفه ويُحقق جميعَه ويُجيزه له.[5]

رابعها: الكتابة، ذلك أن الشيخ إذا كتب شيئا من حديثه للطالب فقد حَدَّثه،

خامسها: الإجازة، وهي الإذن للطالب بالمشافهة أو الكتابة، بأن يتولّى رواية الحديث،

سادسها: الإعلام للطالب أن هذا الحديث من رواية الشيخ،

سابعها: الوصية للتلميذ بحيث يوصي الشيخ بكتبه عند موته أو سفره لرجل،

ثامنها: الخط، وهو الوقوف على كتاب بخط مُحدث مشهور يُعرف خطُّه ويُصححه، وإن لم يَلْقَهُ ولا سمع منه، أو لَقِيَهُ، ولكن لم يسمع منه كتابَه فيقال: وجدتُ بخط فلان، وكتبتُ في كتاب فلان بخطه.[6]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ثم بعد مناقشة القاضي عياض لأنواع تحمل الرواية، ومعرفة آراء علماء الحديث والفقه والأصول؛ انتقل إلى صلب علم التحقيق مقعدا أهم القواعد:

القاعدة الأولى: المقابلة بين النسخ:

إن الفائدة العلمية من التحقيق هي أن نقدم للقارئ الكريم الكتاب، كما وضعه صاحبه دون زيادة أو نقصان، وإخراجه صحيحا سالما من العيوب والأخطاء نراعي فيه الدقة والضبط، مع تعريف موجز مختصر بصاحب الكتاب ووضع فهارس فنية له (فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث النبوية، فهرس الشواهد الشعرية، فهرس الأمثال، فهرس المحتويات، وهكذا...). لهذا تفيد عملية المقابلة أو(العرض) بين النسخ في تبين ترتيب النسخ، للوقف على النسخة التي خطها المؤلف بيده، وهي التي نسميها النسخة الأم). ومن ثم لابد من احترام تراتبية النسخ (نسخة في عصر المؤلف، نسخة عليها سماعات تقدم على ماليس عليها سماعات، نسخ كتبت بعد عصر المؤلف، ثم الأخذ بالأقدم فالأقدم... وهكذا). إن الوعي بالمقابلة بين النسخ كقاعدة مهمة في التحقيق عند القاضي عياض حاضر مؤصل في ثنايا كتابه. يقول: " وأما مقابلة النسخة بأصل السماع ومعارضته به فمتعينة لابد منها. ولا يحل للمسلم النقي الرواية مالم يقابل بأصل شيخه أو نسخة تحقق ووثق بمقابلتها بالأصل، وتكون مقابلته لذلك مع الثقة المامونماينظر فيه، فإذا جار حرف مشكل نظر معه حتى يحقق ذلك"[7].

لهذا فالمقابلة العلمية بين النسخ مهمة جدا؛ إذ لابد من الوقوف على اختلاف الروايات بحسب تعدد النسخ واختلافها. يقول عباس رحيلة: "و المحقق اليوم كما كان بالأمس يجمع نسخ المخطوطة ويرتبها من حيث أهميتها. ثم يفاضل بينها عند المقابلة، ومن البداهة أن يكون أساس المفاضلة نابع من طبيعتها وأهميتها بالقياس إلى غيرها" [8].

والمقابلة بنسخة الشيخ إما أن تكون **بمحضره أو مع شخص آخر، أو مع نفسه**؛ لهذا سطر القاضي عياض جملة خطوات للمقابلة بين النسخ.

أولها: الاعتماد على النفس كليا، والتسلح بالشك فيمن يثق به إذ يقول: " فليُقابل نسختَه من الأصل بنفسه حرفاً حرفاً حتى يكون على ثقة ويقين من معارضتها به ومطابقتها له، ولا ينخدع في الاعتماد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

على نَسْخ الثقة العارف دون المقابلة، نعم ولا على نَسْخ نفسه بيده، ما لم يُقابل ويُصحِّح؛ فإن الفكر يذهبُ، والقلب يسهو، والنظر يَزيغُ، والقلم يطغى"[9].

القاعدة الثانية: صيانة النص من الأخطاء:

عندما يجد المحقق خطأ في نسخته، لا ينبغي له أن يُبادر إلى تصحيحه قبل أن يتبيّن له وجه الصواب فيه. وقد لاحظ القاضي عياض أن أكثر الأشياخ يحترمون النص، وينقلون الرواية يقول رحمه الله: " كما وصلت إليهم وسمعوها، ولا يُغيرونها في كتبهم (...)، لكن أهل المعرفة منهم يُنبّهون على خطئها عند السماع والقراءة وفي حواشي الكتب، ويقرؤون في الأصول على ما بلغهم. ومنهم من يجْسُرُ على الإصلاح"[10]. وفي هذا السياق قدم لنا القاضي عياض أعلاما جسروا على الإصلاح كثيرا[11].

إن اللفظ قد يُحرّف[12] فيتغير معناه، وقد يصاب بالتصحيف[13]، فيتغيّر بسبب النَّقْط، وقد يدخل في النص ما ليس منه، وقد ينقص منه ما يضِلُّ به القارئ، وأمام أمثال هذه العوائق التي تحول دون التحَقُّق من النص؛ دعا القاضي عياض أهل العلم إلى ضرورة التنبيه على الخطأ عند السماع والقراءة في حواشي الكتب، وذلك حرصا منه على سلامة النص وصيانته. وقد حدَّد عياض الطريقة السليمة للأشياخ في التصحيح، ورسمها في الخطوات الآتية:

- " يُذكر اللفظ عند السماع كما وقع،
- ويُنبَّه عليه.
- ويُذكر وجه صوابه إما من جهة العربية أو النقل أو وروده كذلك في حديث آخر.
- أو يقرأه على الصواب.
- ثم يقول: وقع عند شيخنا أو في روايتنا كذا، أو من طريق فلان كذا، وهو أولى...
- أنْ ترد تلك اللفظةُ المُغيَّرَةُ صواباً في أحاديث أخرى (...) بخلاف إذا كان إنما أصلحها بحكم علمه، ومقتضى كلام العرب"[14].

القاعدة الثالثة: نقط الحرف وشكله:

إن نقط الحرف وشكله مهم جدا، ذلك أنه يسهل على المحقق قراءة اللفظ قراءة سليمة خالية من اللحن. لهذا أوجب القاضي عياض شكل مايُشكل ويشتبه يقول: " وأما النقط والشكل فهو متعيَّن فيما

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يُشْكِل ويَشتبه".[15] وأولى مايجب نقطه وضبطه، الأعلام. يقول عياض: " أولى الأشياء بالضبط أسماء الناس؛ لأنه لا يدخله القياس، ولا قبله شيء يدل عليه، ولا بعده شيء يدل عليه " [16]. ويُمثل لذلك بأبي الحوراء (بالحاء والراء)، وأبي الجوزاء ((بالجيم والزاي)؛ فالأول هو ربيعة بن شيبان، والثاني هو أوس بن عبد الله الرَّبعي[17]. كما يؤكد – رحمه الله– على وجوب شكل الجميع، فالمبتدئ وغير المتبحر في العلم، لا يميز ما أشكل مما لا يُشكل...وهذه في اعتقادي نظرة منهجية تربوية دقيقة كما يرى أستاذنا عباس رحيلة حفظه الله. فاللفظة تخرج إلى النور عندما تنقط و تشكل. وأما عن كيفية طريقة ضبط المهمل عند المشارقة والأندلسيين فقد صاغ لها القاضي عياض قاعدة مهمة جدا، مفادها: " أن يرسم ذلك الحرف المشكل مفردا في حاشية الكتاب قبالة الحرف بإهماله أو نقطه أو ضبطه؛ ليستبين أمره، ويرتفع الإشكال عنه، مما لعله يوهمه ما يقابله من الأسطار فوقه أو تحته من نقط غيره أو شكله، لا سيما مع دقة الكتاب وضيق الأسطار، فيرتفع بإفراده الإشكال. وكما نأمره بنقط ما يُنقط للبيان، كذلك نأمره بتبيين المُهمل بجعل علامة الإهمال تحته، فيجعل تحت الحاء حاءً صغيرةً (حـ) وهو عمل أهل المشرق والأندلس"[18].

القاعدة الرابعة: الضرب والحك والشق والمحو:

عقد القاضي عياض في كتابه (الإلماع) بابا لهذا الإشكال سماه: **" في الضرب والحك والشق والمحو"**، وهي علامات لعلاج الزيادة في الكتابة، أو الشيء الذي على غير وجهه مما يغلط فيها الناسخ. وإذا غلِطَ الناسخُ وزاد في كتابته شيئا، فإن الزائد لا يُمحى ولا يُضْرَبُ عليه، ولا يُطْمَسُ، أو يُكْشَطُ بالسكّين. وشيوخ الحديث — كما يقول عياض —" يَكرهون حضورَ السكين في مجلس السماع، حتى لا يُبشَرَ شيء؛ لأن ما يُبشَرُ منه قد يصحُّ من رواية أخرى. وقد يُسمعُ الكتابُ مرة أخرى على شيخ آخر يكون ما بُشِرَ وحُكَّ من رواية هذا صحيحاً في رواية الآخر؛ فيُحتاجُ إلى إلحاقه بعد أن بَشَرَه"[19]. لكن كيف يقع التنبيه على الزيادة دون طمس للمكتوب؟ في هذا الباب ضمّن القاضي عياض كتابه (الإلماع) مبادئ، يمكن صياغتها كما يلي:

- أكثر الضابطين أن يوضع **خط** يختلط بالكلمة المضروب عليها، فيحدث **(الضرب والشق)**.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– ومنهم من لا يخلط الخط بالكلمة ويُثْبِته فوقها، لكنه يعطف **طرف** الخط على **أول** المُبْطَل **وآخره** ليميزه من غيره.

– ومنهم من **يُحَوِّقُ** على الكلام المضروب عليه بنصف دائرة، وكذلك في آخره.

– وربما اكْتُفِيَ بوضع دائرة صغيرة على **أول** الكلام **وآخره**، وكأنها ترمز إلى الصفر لخلو موضع الكلام منها.

– إذا كان الزائد الكثير، كُتب عليه " لا " في أوله و" **إلى** " في آخره. وقد يُكتفى بمثل هذا بعلامة من ثبُتت له فقط، أو بإثبات " لا " و " إلى " فقط.

– وأما ما هو خطأ محضٌ **فالتحويق التام** عليه أو **حَكُّهُ** أولى. وإذا تكرّر الحرف وأُريد الضرب على أحدهما، وجد القاضي من يُبقي على الأول، ويُبطل الثاني، ومن يُبقي على أجودهما صورةً، لكنه **اختار** أن ينظر إلى موقع الحرف في السطر.

– فإن تكرر الحرف في **أول السطر مرتيْن** يُضرب على الثاني لئلا يُطمس أول السطر.

– وإن تكرّر في **آخر سطر وأول الذي بعده،** يُضربُ على الأول الذي في آخر السطر.

– وإن **وقعا جميعا في آخر السطر**، يُضرب على الأول أيضا؛ لأن ذلك من سلامة أوائل السطور[20].

وأما إذا تكررت **كلمتان أو عبارتان سهوا،** لاسيما إذا تكرر المضاف أو المضاف إليه، وكذلك الصفة مع الموصوف وشِبْهُ هذا، فينبغي ألا يُفصل ينهما في الخط، ويُضرب بعد على المتكرر من ذلك؛ كان أولا أو آخرا، فمراعاة هذا مضطر للفهم، وربما أدخل الفصل ينهما بالضرب والاتصال إشكالا وتوقفا. فمراعاة المعاني والاحتياط لها أولى من مراعاة تحسين الصورة في الخط. يقول القاضي عياض: " وأرى أنه إن كان الحرف تكرر في أول السطر مرتين، أن يضرب على الثاني؛ لئلا يطمس أول السطر ويسخَّم. وإن كان تكرر في آخر السطر وأول الذي بعده، فليضرب على الأول الذي في آخر السطر. وإن كانا **جميعا** في آخر السطر، فليضرب على الأول أيضا؛ لأن هذا كله– من سلامة أوائل السطور وأواخرها– أحسن في الكتاب وأجمل له، إلا إذا اتفق آخر سطر وأول سطر، فمراعاة الأول من السطر أولى" [21].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

فالإبقاء على النص مقروءاً يُعطي للنص قيمتَه عند المقابلة.

القاعدة الخامسة: التصحيح والتضبيب والتمريض:

عقد القاضي عياض أيضا في كتابه (الإلماع) بابا " **في التصحيح والتمريض والتضبيب**"؛ وضع فيه مجموعة مبادئ وإجراءات للتصحيح بغية الإبقاء على النص مقروءاً، لتظهر قيمته، وهذه المبادئ والإجراءات أسوقها كالآتي:

- أن يكتب القارئ "**صح**" على الحرف ليُعرَف أنه صحيح معنىً وروايةً.

- " فإن كان اللفظ غير صحيح في اللسان: إما في إعرابه أو بيانِه، أو فيه اختلال من تصحيف أو تغيير، أو نَقَصَتْ كلمة من الجملة أخلّت بمعنى، أو بُتِرَ من الحديث ما لا يَتِمُّ إلا به: إما لتقصير في حفظ راويه، أو للاختصار [...] أو بتقديم أو تأخير قَلَبَ مفهومَه، ونَثَرَ منظومَه". [22]

- في مثل هذه الحالات يوضَعُ على اللفظ، أو مكان البتْر أو الخلَل، **خط** أول مثل الصاد، يُسميه أهل التقييد " **ضبة** "، ويُسمونه " **تمريضا** "، وكأنها صاد التصحيح كُتِبتْ بمدتها، وحُرِّفتْ حاؤُها ليُفرَق بينها وبين ما صحَّ لفظاً ومعنىً [...]، وكُتب عليه هذا علامةً على مرضه، ولئلا يُرتاب في صحة روايته[23].

إن وضعَ " الضبة " تنبيه على الخلل الواقع في التعبير، وأمانة في نقل النص من مرضه حتى يستعيد صحّةَ لفظه ومعناه. ونجد عياضا يدعو مرة أخرى ألا يتجاسر أحدٌ على إصلاح المخطوط بغير علم، فقد يصبح عين الخطأ ما أصلحه. ويُفهم مما سبق يوجب احترام رواية المخطوط، ويُلزم أهل التحقيق بالتصحيح، والتضبيب والتمريض حتى يُحافظ النص على أصالته الأولى. لكن كيف نُصلحُ المخطوطة إذا وقع فيها بَتْرٌ أو نقص منها شيءٌ؟.

القاعدة السادسة: قواعد التخريج والإلحاق للنقص:

إنها علامات خاصة بعلاج السقط أي مايسقط من كاتب المخطوط سهوا، بحيث إنه إذا أراد أن يستدركه فإنه لايقحمه بين النصوص حتى لايشوه جمال الصفحة، وإنما يلحقه بالفراغ الموجود على جانبي الصفحة وهو المسمى بالحاشية. و يشير إلى مكانه من النص بما يسمى علامة الإلحاق، أو علامة الإحالة، وعي عبارة عن خط رأسي مائل نحو اليمين إذا كتب الاستدراك على الحاشية اليمنى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

للصحفة، ومائل نحو اليسار إذا كتب الاستدراك على الحاشية اليسرى للصحفة. ويمد بعضهم –بموضع النقص– خطا صاعدا إلى تحت السطر الذي فوقه ثم ينعطف إلى جهة التخريج في الحاشية باللحق، مقابلا للخط المنعطف بين السطرين، ويكون كتابها صاعدا إلى أعلى الورقة، حتى ينتهي اللحق في سطر هناك أو سطرين، ويكتب آخره: "صح"[24].

وكان القدماء يفرقون بين الحواشي، التي هي من صلب النص، وسقطت من الناسخ سهوا، وتلك الحواشي التي يفسر بها الكاتب كلمة، أو يوضح غامضا، أو يشير بها إلى رأي له، بتلك العلامات أو الخطوط المنعطفة، التي أشرنا إليها من قبل؛ يقول القاضي عياض: " وأول ما يكتب في الطرر والحواشي من تنبيه أو تفسير، أو اختلاف ضبط، فلا يجب أن يخرج إليه، فإن ذلك يدخل اللبس ويحسب من الأصل ولا يخرج إلا لما هو من نفس الأصل"[25].

مقتضيات عامة التحقيق:

إن الفائدة من تحقيق النص وإخراجه صحيحا للقارئ، كما وضعه صاحبه دون زيادة أو نقصان. **يتطلب** مقتضيات أساسية لابد منها لمن يريد أن يخوض غمار التحقيق العلمي للتراث، وقد لمحت إليها في مطلع هذا البحث، أذكر منها النقاط الآتية:

أولا: تحرير النص: ويتم بما يأتي:

1– ضبط ما يحتاج إلى ضبط (بالحروف) وشكل (بالحركات). مثلا التمييز بين مايبنى للمجهول، وما يبنى للمعلوم،

2– وضع علامات الترقيم؛ لتيسير فهم المقصود،

3– إثبات الفروق بين النسخ عند وجودها. من أجل تحديد النسخة الأم،

ثانيا– خدمة النص، وتتم بما يأتي:

1– شرح الغامض، نحو:

– **ضبط** أسماء الأعلام،

– **ببيان** المصطلحات العلمية،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– **إعادة** الضمائر إلى **الإظهار** عند الالتباس،

– **شرح** بعض الأفكار **والتعليق** عليها عند الحاجة،

2– تدقيق النصوص، ويشمل:

– عزو الآيات القرآنية، مع التنصيص على الرواية المعتمدة في النقل،

– تخريج الأحاديث، باعتماد كتب التخريج،

–توثيق النصوص المنقولة من الكتب الأخرى، لابد من العودة إلى المصادر الأصلية التي نقل منها المؤلف، وهذا يفيدنا في تصنيف الكتاب،

– ثم توثيق المسائل، ولو لم تُكتب بلفظها. لاسيما حين يعمد المؤلف إلى طريقة الاقتباس أو التضمين،

3– **التقديم للنص المحقق:**

يمكن للمحقق في هذا الباب أن يعمد إلى **التعريف بالمؤلف** وأن يترجم له ترجمة وافية يحدد فيها مولده، واسمه ونسبه وشيوخه، وتلاميذه، وأن يحاول نقد مصادر الترجمة من أجل ضبط تاريخ الولادة والوفاة، وبيان مذهبه العقدي، والفقهي ومكانته العلمية، وصلته بالعلم الذي برع فيه، ورحلاته العلمية...الخ؛ وذلك من خلال ماخطه بنفسه في مصنفاته، أو من خلال ما كتب عنه نحو: كتب التراجم المتخصصة في هذا الباب الذي برز فيه هذا العلَم نحو: (علم الحديث، أو التفسير، أو الفقه، أو الأصول، أو اللغة، أو النحو، أو القراءات، أو الطب وغير ذلك...الخ.

هذا وعلى الباحث أن يعمد أيضا إلى **تحقيق وضبط نسبة الكتاب إلى المؤلف،** وذلك بمحاولة مسح مؤلفات المؤلف، فلربما أشار إلى الكتاب، هنا أو هناك، ربما تحدث عنه، أو بالعودة إلى كتب الفهارس المتخصصة في هذا الشأن، أو كتب التراجم التي تشير إلى مؤلفات العلم المترجم له. ثم من أوجب الواجبات في هذا السياق **توثيق العنوان،**[26] **عنوان الكتاب الذي هو قيد التحقيق،** والتعريف **بمصادر الكتاب،** من خلال الإجابة عن أسئلة من قبيل: من أين استقى هذا العلم مادته؟ هل اعتمد الرواية الشفهية؟ وإذا كان ذلك كذلك فما حدود الرواية الشفهية إلى عصر المؤلف؟...الخ.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لاشك أن التعامل مع مصادر المؤلف، برؤية منهجية دقيقة، نحترم فيها هاته الخطوات تفيدنا في تبين خصوصية البلد الذي أنتج هذا العِلم، كما تساعدنا في فهم السياق العلمي الذي نشأ فيه. ثم الكشف عن **قيمته العلمية**، مع التعرف على الذين تأثروا به عبر العصور اللاحقة.

4- الفهرسة الشاملة، المعينة على الوصول إلى المعلومة المرادة بأيسر السبل؛ كفهرسة الآيات، والأحاديث، والأعلام، والبلدان، والأشعار، والكتب، والألفاظ الفقهية (المصطلحات) والقواعد الفقهية والأصولية. ولتحقيق هاته الأغراض والمقاصد، يجب الاستعانة بكتب البرامج والفهارس، (كبرنامج الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان التجيبي، وفهرست ابن خير، ورحلة العبدري الحاحي وغيرها كثير...

بعد هذه الرحلة العلمية الممتعة مع (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد فن السماع) لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت544هـ)؛ قاد الاستقراء إلى جملة نتائج، أجملها كما يلي:

1/ إن علماء الحديث سباقون لوضع قواعد تحقيق المخطوطات بالعالم الإسلامي نحو: الرامهرمزي، والخطيب البغدادي، وابن عبد البر، والقاضي عياض...؛ وليس المستشرقون كما يزعم بعض المنتسبين لهذا الفن.

2/ إن (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) للقاضي عياض باعبتاره عالما من علماء المغرب، أول مؤلف متخصص في علم مصطلح الحديث، بالغرب الإسلامي، ضمنه صاحبه قواعد أصل بها لأصول الحديث، كما ضمنه قواعد قعد بها لفن التحقيق. وقد قمت بدراسة بعضها، مستعينا في ذلك بمقال أستاذنا الدكتور عباس رحيلة الذي كشف لنا جهد عياض في صياغة هاته القواعد، وأهمها:

3/ المقابلة بين النسخ وأهميتها،

4/ صيانة النص من الأخطاء،

5/ نقط الحرف وشكله،

6/ الضرب والحك والشق والمحو،

7/ التضبيب والتمريض،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

8/ التخريج والإلحاق للنقص،

ثم ختمت المقال بمسرد لمقتضيات التحقيق العلمي، نحو: ضبط النص، وشرح غوامضه، وعزو آيه، وتخريج أحاديثه، وفهرسة مصطلحاته، وأشعاره وشواهده ... الخ.

قائمة المصادر والمراجع:

- **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع** أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الأولى، دار التراث، المكتبة العتيقة، تونس(1389هـ 1970م).
- **البحث العلمي في التراث الاسلامي معوقات، شروط، أولويات أسس البحث والتحقيق**، عبد العزيز فارح، الطبعة الأولى، مطبعة آنفو، برانت فاس (2008م).
- **المحدث الفاصل بين الراوي والواعي**، الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، تحقيق، محمد عجاج الخطيب، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت(1391هـ 1971م).
- **المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني**، تحقيق، محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- **مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين**، رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة (1406هـ 1986م).
- **معجم مصطلحات المخطوط العربي قاموس كوديكيولوجي** لأحمد شوقي بنبين، ومصطفى طوبي، الطبعة الثالثة، المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي- الداوديات- مراكش. (2005م).
- **مقال عباس رحيلة مجلة عالم الكتب**، مج16،ع1، رجب-شعبان 1415 هـ/يناير – فبراير 1995م.

الهوامش:

[1]- المحدث الفاصل، للرامهرمزي، ص544.

[2]- المقصود من كلام القاضي عياض، خلو التصنيف في هذا اللون من التأليف عند أهل المغرب والأندلس.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[3] – الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق أحمد صقر، الطبعة الأولى، دار التراث، المكتبة العتيقة، تونس(1389هـ 1970م). ص31.

[4] – مجلة عالم الكتب، مج16، ع1، رجب – شعبان 1415 هـ/يناير – فبراير 1995م، ص19.

[5] – الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، ص79.

[6] – نفسه، ص116– 117.

[7] – الإلماع، ص158.

[8] – مجلة عالم الكتب، ص 4.

[9] – الإلماع، ص159–160.

[10] – نفسه، ص185–186.

[11] – نفسه.

[12] –يقول الراغب الأصفهاني (ت502هـ): " وتحريف الشيء إمالته، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين. قال عز وجل:" يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ" [المائدة: 13] "ومِن بَعْدِ مَوَاضِعِه" [المائدة: 41] " وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [البقرة: 75]". المفردات في غريب القرآن، تحقيق، محمد سيد كيلاني، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، كتاب الحاء، ص114. فالتحريف في أصل الوضع يعني التغيير والإمالة. والتحريف في النصوص تغييرها لفظاً أو معنى والميل بها عن وجهها وحقيقتها .

[13] – التصحيف هو تغيير لفظ الكلمة الناشئ عن تشابه حروفها. ويقول حمزة الأصفهاني في "التنبيه على حدوث التصحيف": إن سر التصحيف هو تشابه هذه الأحرف بالعربية الباء والتاء والياء والنون". انظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي قاموس كوديكيولوجي لأحمد شوقي بنبين، ومصطفى طوبي، الطبعة الثالثة، المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي– الداوديات– مراكش. (2005م) ، ص 89.

[14] – الإلماع، ص186–187.

[15] – نفسه، ص149.

[16] – نفسه، ص154.

[17] – نفسه، ص 156.

[18] – نفسه، ص157.

[19] – الإلماع، ص170.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[20]– الإلماع، ص171–172.

[21]– نفسه، ص172.

[22]– نفسه، ص166.

[23]– نفسه، ص166–167.

[24]– الإلماع، ص162.

[25]– نفسه، ص164.

[26]– للتوسع في هذا الباب، يرجى العودة إلى مناهج تحقيق التراث بين القدماء والمحدثين، رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة (1406هـ 1986م)، ص، 75.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ثورة الطريقة الدرقاوية في الجزائر أواخر العهد العثماني

أ.د. صحراوي عبد القادر
جامعة سيدي بلعباس
البريد الإلكتروني: sahraoui1959@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2017/01/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

اعتبرت الطريقة الدرقاوية أقوى الطرق في الجزائر، وكان مركزها الرئيس هي جبال الونشريس وجنوب التيطري، كما كان لها أتباع في الغرب الجزائري، وتربطها بسلاطين المغرب علاقات وطيدة. وأقام شيخ الطريقة بمدينة فاس، وأظهر الدرقاويون مقاومة عنيفة للأتراك حتى صار مصطلح عاصي يوازي تعبير درقاوي، تزامن انتشار هذه الطريقة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات. وشملت ثورة الدرقاويين الخطيرة منطقة بايلك الشرق والغرب، وامتدت في المنطقة من الشلف إلى غاية الحدود المغربية إلى جانب أغلب الجهات الشرقية من الإيالة.

الكلمات الدالة:

الطريقة الدرقاوية-- الجزائر- العهد العثماني- البايلك.

العنوان بالإنجليزية:

The revolution of the Darkaouia way in Algeria in the late Ottoman period.

Abstract:

It was considered the most powerful road in Algeria, and its main position was the mountains of al-Wanshiris and south of al-Tatari. It also had followers in the Algerian west, and it had strong relations with the sultans of Morocco. The Sheikh of the way in the city of Fez, and showed the Darkaouia fierce resistance to the Turks to become the term Assi equivalent to the expression of Darwawi, coincided with the spread of this method as the political and economic situation of the Government of the Daiat. The dangerous Darqawi revolution included the region of

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Palek East and West, and extended in the region from Chlef to the Moroccan border along with most of the eastern parts of the Nile

.Key words:

The Darkaouia way - Algeria - Ottoman – Baylik

اعتبرت الطريقة الدرقاوية أقوى الطرق في الجزائر، وكان مركزها الرئيس هي جبال الونشريس وجنوب التيطري، كما كان لها أتباع في الغرب الجزائري، وتربطها بسلاطين المغرب علاقات وطيدة. وأقام شيخ الطريقة بمدينة فاس، وأظهر الدرقاويون مقاومة عنيفة للأتراك حتى صار مصطلح عاصي يوازي تعبير درقاوي، تزامن انتشار هذه الطريقة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات. وشملت ثورة الدرقاويين الخطيرة منطقة بايلك الشرق والغرب، وامتدت في المنطقة من الشلف إلى غاية الحدود المغربية إلى جانب أغلب الجهات الشرقية من الإيالة. ولا شك أن الثورة الدرقاوية من أخطر الثورات التي عجلت بسقوط الجزائر العثمانية، وإضعاف قدراتها الحربية في مواجهة الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، وتنسب هذه الطريقة إلى الشيخ مولاي الدرقاوي، وتفرعت الدرقاوية عن الطريقة الأم الشاذلية وتتركز مبادئها على ما يلي:

- إرجاع المسلمين إلى مبادئ الصوفية الصحيحة.
- الاعتراف بالحاكمية لله وحده.[1]

أما فيما يتعلق بأهم واجبات المريد عند الدرقاويين فيمكننا حصرها في ثلاثة:

- المشي حافي القدمين، ولبس الصوف.
- إقامة الشعائر والمدائح الدينية بواسطة الرقص، والعيش في الوحدة ومكابدة الجوع، وقيام الليل والابتعاد عن الكذب.
- عدم مخالطة الناس، وتحاشي ذوي الحكم.[2]

1- الثورة في بايلك الشرق:

بدأت الثورة في سنة 1804م ببايلك الشرق بزعامة محمد بن عبد الله بن الأحرش، وهو من أصل مغربي، سبق له أن اشترك في محاربة الفرنسيين في مصر أثناء عودته من الحج. وهناك من يعتبر أن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حركته كانت بتحريض من الإنجليز، الذين سعوا إلى خلق المتاعب أمام الداي مصطفى الذي اتبع سياسة تقارب مع فرنسا، وخاصة بعد إبرام رئيس الدبلوماسية الفرنسية ديبوا تانفيل اتفاقية سلام وصلح وتعاون مع داي الجزائر في 17 ديسمبر 1801م[3]. واتجه ابن الأحرش إلى مدينة جيجل التي استقر بمسجدها المسمى سيدي الزيتوني، وهناك بدأ يروج لأفكاره، وقد أكسبه انتسابه إلى الشرفاء هيبة ومكانة بين الناس، وبدأ سكان القبائل يلتفون حوله[□]، فادعى أنه المهدي المنتظر فنصروه وعقدوا له البيعة حزبا حزبا[5]. واستطاع ابن الأحرش من إقناع أتباعه بأنه مستجاب الدعوة، وأن النصر يكون حليفه حيثما يتوجه، وأن البارود عدوه لا يضره ولا يصيب أتباعه بل يرجع لديهم ماء.[6]

وناصرت عدة قبائل ابن الأحرش مثل مسلم وأولاد عيدون وبني خطاب، بالإضافة إلى تحالف أحد المرابطين المعروف باسم الزبوشي في بايليك الشرق، وكان يعمل على إثارة السكان ضد الأتراك العثمانيين. وقد أعلن ابن الأحرش بعد إكمال استعداداته العسكرية، عن تنصيب نفسه حاكما، وأصبحت المنطقة الممتدة من ساحل البحر إلى مدينة قسنطينة تحت سلطته، وكان باستطاعته تجنيد 100 ألف مقاتل من القبائل المستقرة ما بين جيجل وسكيكدة، حيث بدأت جموع القبائل تتوافد عليه من كل المناطق والمدن كعنابة وسطيف وبجاية، وأمر ببناء محطة هي قرية جراح على ضفاف وادي الزهور، والواضح أن ابن الأحرش قد نجح في إثارة قبائل بايلك الشرق، فحاول الاستيلاء على عاصمة البايلك قسنطينة في سنة 1804م، مستغلا خروج الباي عثمان في إحدى حملاته على قبائل الحضنة، وتشير بعض المصادر أن ابن الأحرش استطاع أن يستميل جموع القبائل بواسطة إغرائها بالأموال والحريم[7]، وأن الله سوف يفتح لهم قسنطينة والجزائر، في حين اختلفت الروايات بخصوص حجم الجيش الذي حاصر به مدينة قسنطينة، فهناك من يذكر 10آلاف مقاتل، ومنهم من يقدره ما بين 60.000 و70.000 مقاتل [8].

ولم تستطيع قوات ابن الأحرش اقتحام المدينة، بسبب قوة مدافعها وانشغال المقاتلين بجمع الغنائم ونهب الفنادق والإسطبلات، الأمر الذي أدى إلى وقوع فوضى داخل صفوفهم[9]. وجهز الباي عثمان قوة عسكرية تتكون من 4 آلاف مقاتل تركي و3500 مقاتل من قبائل المخزن المتحالفة، ترافقهم قطع من المدفعية متجهة إلى منطقة وادي الزهور لمواجهة ابن الأحرش، وأثناء المعركة استطاع ابن الأحرش بفضل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ذكاءه العسكري من تحويل مجرى الوادي في اتجاه المعسكر التركي الذي تحول إلى مستنقع، ويخبرنا العنتري عن هذه الحادثة فيقول: " فاستعان (أي ابن الأحرش) بالقبائل على استعمال مكيدة، وهي أنهم حولوا شركة من مياه الوادي المذكور عن مجراه الطبيعي إلى المرجة التي تعسكر بها المحلة ليلا، وأهلها لم يشعروا بتلك المكيدة حتى أدركتهم الفرق العسكرية من كثرة الماء، ولكون الأرض مرجة، فتم هلاكهم بها ولم ينج من تلك المحلة إلاّ القليل..."[10].

وحاصرت جيوش القبائل الجيش التركي، وقتل الباي، وتسبب ذلك في تشتت المقاتلين وانتشار الفوضى بين صفوف أفراد الجيش التركي، ثم جرت معركة المهراس التي شهدت سحق جيوش القبائل الجيش التركي. وعند سماع نبأ الهزيمة، أرسلت حكومة دار السلطان جيشا بقيادة الباي عبد الله نجح في هزم ابن الأحرش قرب مدينة ميلة[11]. وعندما حاول ابن الأحرش ضرب على الحصار مدينة بجاية، تحالف الأتراك مع المقرانيين، ونجحوا في القضاء عليه سنة 1806م في معركة الربط (سطيف). وتشير المصادر المحلية إلى أن ابن الأحرش التحق بابن الشريف الثائر في بايلك الغرب، واشترك معه في معركة عين السدرة بسهل غريس الواقع غرب مدينة معسكر، وذلك ضد الباي محمد مقلش، وفي هذا يشير بقوله: "...في ذلك اليوم قدم ابن الأحرش على درقاوة من المشرق فازدادوا بقدومه فرحا وسرورا..."[12] في حين يذهب ولسون استرهازي " W. Esterhazy " إلى أن نهاية ابن الأحرش كانت على يد زميله ابن الشريف في منطقة مسيردة[13]، وقد أشيع أن السلطان العلوي سليمان طلب نقل جثته وتحقيق رغبته بأن يدفن بفاس.[14]

والملاحظ في ثورة ابن الأحرش، هو أن بعض المصادر تربط نشاطاته الثورية ضد الأتراك العثمانيين بأطراف غير جزائرية كتونس وإنجلترا. فعندما كان ابن الأحرش راجعا من مصر ولقيه حمودة باشا، قام هذا الأخير بإكرام منزلته، وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر، ووعده بالمظاهرة بالمال فاستكان له ابن الأحرش...[15] "أمّا الزهار فيذكر بطبيعة العلاقات فيقول: "وبلغ خبره لأمير تونس يومئذ حمودة باشا، فبعث له واستقدمه، فلما قدم عليه بالبشر، وعظمه وشكر صنيعه، وسوس له قائلا أن رجلا مثلك شجاع يحب أن يذهب إلى ملك الترك بالجزائر، وينزعه من أيديهم ونحن نمدك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك..."[16] ومن خلال ذكر الروايتين يلاحظ بأن باي تونس حاول خلق

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الصعوبات لحكومة الدايات، لأنه يعتبرها عدوة. كما شجع الإنجليز ابن الأحرش على إعلان الثورة ضد الأتراك العثمانيين والقضاء على المصالح الفرنسية في بايلك الشرق، واقتنع ابن الأحرش بالأطروحة الإنجليزية من أن الحرب ضد الأتراك واجب ديني وجهاد مفروض، وذلك لكون الداي مصطفى يعمل لحساب الفرنسيين الذين هاجموا مصر الإسلامية. ولإبراز خطورة هذه الثورة وتأثيرها السلبي على الإيالة، جاء في وثيقة تركية: "أن ليس ما يكدر صفوفنا إلاّ خوفنا من امتداد التمرد الدرقاوي إلينا لأن ذلك سوف يشغلنا كما شغلنا من قبل[17]"، ونتج عن ثورة ابن الأحرش مقتل الباي عصمان باي قسنطينة (1803-1804) وهو متجه للقضاء على الثوار.[18]

2- الثورة في بايليك الغرب:

قام أتباع الدرقاوية بثورتهم في بايلك الغرب بسبب قيام الباي بقتل عدد كبير من الدرقاويين، وتزعم الثورة مقدم الدرقاوية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي[19]، الذي لقي تأييدا واسعا من القبائل الجزائرية التي كانت تناصره وتقدم له الهدايا والعطايا[20]، كما كانت تشكو إليه ما يصيبها من إرهاق بسبب ما يفرضه البايات من مغارم وضرائب. والراجح أن مسألة الثورة ضد الأتراك بدأت منذ اللقاء الذي جمع ابن الشريف مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي. واستغرقت عمليات الاستعداد للثورة مدة خمس سنوات (1800-1805م) ولعل فتيل الثورة يكمن في استغلال ابن الشريف هزيمة الأتراك العثمانيين ممثلة في انتصار قبائل الأنجاد على قبائل المخزن، فأعطى الإذن لأتباعه بنهب ممتلكاتها، الأمر الذي رفضه باي وهران مصطفى العجمي عند سماعه الخبر، وعسكر بعد ذلك على ضفاف وادي مينا، والتحم الجيشان بقرية فرطاسة قرب غليزان في 1805م، وكانت الهزيمة حليفة الإنكشاريين، "فأمسى الباي ومخزنه في ... وأصبح الدرقاوية وأتباعه في رغد..."[21].

وتمكن ابن الشريف من دخول مدينة معسكر، التي جعلها قاعدة لجيشه، ووجه نداءات إلى كل القبائل لإعلان الحرب والجهاد ضد الأتراك وخلفائهم من قبائل المخزن بعد أن نزع الجزية المفروضة من قبل الأتراك المحرمة على المسلمين، وقطع دابرهم، ودابر أتباعهم، لذلك تستوجب مبايعته ونصرته بالجهاد. ولقي نداء ابن الشريف صدى كبيرا، حيث انضمت إليه الكثير من قبائل الغرب والوسط الجزائري، إلى جانب بعض القبائل المخزنية مثل الحشم، والغرابة، والزمانة، والدواير[22]. وتمكن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الثوار من السيطرة على القبائل من حدود مليانة إلى مدينة وجدة بالمغرب، مما أدى إلى انسحاب الحاميات التركية، والتمركز في المدن الساحلية، وعلى إثر ذلك حاصر ابن الشريف وهران، وحاول باشا الجزائر نجدة المدينة المحاصرة، إلا أن القبائل الثائرة اعترضت طريق الجيش العثماني من أجل الوصول إلى وهران. وأمام هذه الوضعية الصعبة، طلب الباي تدخل السلطان المغربي سليمان لدى شيخ الطريقة مولاي العربي الدرقاوي المقيم في فاس ليقوم بتهدئة أتباعه، ولكن الشيخ أيد الثائرين بعد زيارته لتلمسان وسماعه لشكاوي أتباعه، ويظهر أنه دعاهم إلى مبايعة سلطان المغرب. واعتمادا على الرسائل المتبادلة بين شيخ الطريقة والسلطان سليمان سنة 1805م، يمكننا القول أن السلطان لم يرفض البيعة، وكان في نيته التدخل عسكريا في غرب الإيالة، ولكن الظروف الطبيعية حالت دون تحقيقه لذلك. وكان لفشل ابن الشريف في اقتحام وهران بعد حصار دام ثمانية أشهر، الأثر البالغ في تراجع سلطان المغرب عن الدخول في حرب ضد الأتراك العثمانيين، وبالتالي التخلي عن مشروعه. ثم قام داي الجزائر بتعيين الباي محمد المقلش الذي رافقته قوة من الإنكشارية قدرت بحوالي 1100 جندي، واتخذت سبيل البحر لدخول المدينة المحاصرة[23].

وعمد الباي إلى الوسائل الدبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة العلوية، واستعمال أنواع القمع والإرهاب ضد الثوار[24]. وتمكنت الجيوش العثمانية من ترجيح الكفة لصالحها، والانتصار في موقعة أولاد زائر، ومعركة السدرة التي أظهرت تفوق الجيش العثماني[25]. واستطاع الباي المقلش ما بين 1805 و1808م من إخضاع قبائل مهاجر والبرجية وبني عامر المتحالفة مع ابن الشريف. واختلفت المصادر المحلية والأجنبية حول تحديد تاريخ ومكان وفاة ابن الشريف، على أن المصادر المحلية ترجح تاريخ وفاته عند انتقاله للإقامة عند قبائل بني زناسن على الحدود المغربية. أمّا دي غرامون " De Grammont " فيذكر أن ابن الشريف لقي مصرعه وهو يحاول استعادة مدينة معسكر للمرة الثانية سنة 1806م[26]، وأمّا دي نوفو " De Neveux " فيذكر أن ابن الشريف قد مات بوباء الطاعون في منطقة مسيردة.[27]

ولكن المؤرخ نوال " Noel" يعارض فكرة وفاة ابن الشريف سنة 1809م، ذلك أنه ظهر مرّة ثانية سنة 1816م، وعمل على إثارة القبائل الصحراوية التي من بينها قبائل الأحرار[28]، وتؤيد الوثائق

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العثمانية صحة ما ذهب إليه نوال، فقد تطورت الأوضاع السياسية بالجزائر إثر المعارك التي شنت داخل البلاد ضد القبائل الثائرة، وضد أحد المدعين بأنه المهدي المنتظر في غرب وشرق البلاد. وقد كتب عمر باشا إلى السلطان قائلا: "أننا نطلب من حضرة السلطان مساعدتنا، بمدنا بالأسلحة إذ استوجب تقوية جيشنا، لقد انشغلت ليل نهار بالدفاع عن الإنكشاريين ... أما واجبكم فهو معاونتنا بإرسالكم الأوجاق والأسلحة خصوصا عندما ظهر المهدي الكاذب منذ خمس عشر سنوات في الغرب وشرق الجزائر. لقد ثار علينا، كما أن جماعته لا تؤمن بالله ولا عقيدة لهم ورؤوسهم مكشوفة ويسكنون الجبال ... هذا وقد ثاروا من جديد واضطر الجيش والأوجاق إلى محاربتهم، وعليه فإننا نعلمكم أن عددا من الموتى قد سجل إثر المعارك، وبفضل رعايتكم وبركتكم فإن الإنكشاريين قد لحقوا بهؤلاء الملاعين هزيمة نكراء...."[29].

وتشير وثيقة عثمانية هي عبارة عن رسالة من وكيل الخرج للأوجاق الجزائرية إلى القبطان علي الموجود بالسواحل المغربية لقتال أعداء الدين من المسيحيين، يعلمه فيها بأن الدرقاويين قد ثاروا ضد حاكم فاس، ويصفهم بالمتمردين الذين ارتكبوا أعمالا دنيئة، تمثلت في مهاجمة القصر ونهب الأموال وإزهاق الأرواح، ولو لا تدخل المرابطين لقتل الحاكم نفسه. كما هاجموا مدينة تطوان ومنعوا الناس من مزاولة أنشطتهم بالرعب والإرهاب، ويذكر وكيل الخرج أن أمثالهم قد ظهروا قبل سنة بنواحي مدينة جيجل. وأن أخشى ما تخشاه السلطة العثمانية هي ثورة الدرقاويين، وتشير نفس الوثيقة إلى وصف الدرقاويين بالعصاة والأشقياء من طرف أهل فاس[30]. وتظهر هذه الأحداث مدى قوة واتساع حركة الثورة الدرقاوية، ولو لا قوة الجيش العثماني ودور المرابطين في المغرب لما أمكن القضاء على هذه الثورة.
كما استطاعت هذه الطريقة التأثير على رموز النظام العثماني، وكان من بينهم الباي محمد بن عثمان الملقب ببوكابوس، أو المسلوخ (1808-1813م)، الذي تولى حكم البايلك في غرب الإيالة بعد محمد المقلش، فقد انتمى سرا إلى الطريقة الدرقاوية، وأعلن تحالفه مع السلطان المغربي مولاي سليمان، وتشير وثيقة إسبانية إلى أن الباي بوكابوس قد طلب من إسبانيا وإنجلترا في 1813م[31] تزويده بالبارود، من أجل مراقبة السواحل لمنع الأسطول الجزائري القادم من مدينة الجزائر، إذا حاول دخول ميناء وهران، وقد وعد الباي كلا من إسبانيا وإنجلترا بامتيازات اقتصادية إذا دعم تمرده على السلطة[32]. ومنعت

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الاتفاقيات المبرمة مع الجزائر في نهاية القرن 18م إسبانيا من الوفاء بوعدها، في حين أن إمكانيات المغرب العسكرية محدودة، ورفض السلطان مواجهة الأتراك خوفا من اتساع رقعة المعارك. وعلى إثر فشل ثورة بوكابوس، أمر الباي الجديد بتسليم رأسه بعد حشوه بالقطن، ثم إرساله إلى مدينة الجزائر، وتعليق جثته على أبواب المدينة وقتل أولاده الصبيان (33).

ويمكننا القول في نهاية هذا البحث أن الثورة الدرقاوية بقدر ما كانت ثورة شعبية، كانت أيضا مشروعا سياسيا لسلاطين المغرب قصد التوغل في الجزائر، بعد فشلهم الذريع في المواجهة العسكرية، وإن محاولة فهم ثورة الدرقاوية يفرض علينا تجاوز ما هو متوفر من أحداث تاريخية تضمنتها الوثائق، ذلك أن الثورات التي شهدتها الإيالة خلال القرن الثامن عشر والذي يليه تعبيرها دف عن السخط على الأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في الجزائر في أواخر العهد العثماني، على الرغم من أن شعارات هذه الثورات كانت دينية ومتسترة وراء مطالب قبلية. وشكلت الدرقاوية الطريقة الأكثر انتشارا وتوسعا ونفوذا، وإذ كانت الطريقة القادرية تأخذ المسار الأرستقراطي، فإن الدرقاوية أخذت الاتجاه الشعبي، إذ كان أتباعها من الرعية، وانتموا إلى بايليك الغرب ووسط الجزائر. واستغلت الطريقة الدرقاوية تمرد بعض القبائل ضد الحكم من أجل التحالف معها، ففي نهاية القرن 18م استقبلت قبائل بني عامر العديد من الأسر الدينية التي وجدت أرضية خصبة لدعوتها، ووجد بنو عامر في انتسابهم إلى هذه الطريقة وسيلة للوقوف في وجه السلطة العثمانية. وبالرغم من كونها طريقة دينية إلا أنها بدأت تأخذ منحى العمل الثوري من أجل التمرد على السلطة والعصيان لإضعاف الحكم.(34)

الهوامش :

---

[1] .De Neveux (E), op. cit., p. 128.

[2] .André (P.J), Contribution à l’étude des confréries religieuses musulmanes, ed., La maison des livres, Alger, 1906, p.104.

[3] .جمال، قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619–1830م، الجزائر، منشورات متحف المجاهد، 1999، ص. 196.

[4] .Féraud (Ch.), « Les cherifs kabyles » R. Af., n° 13, 1869, p .217.

[5] .الزياني، محمد بن يوسف، المصدر السابق، ص. 228.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[6] .العنتري، محمد صالح، سنين القحط والمسبغة ببلد قسنطينة، نشر وتحقيق رابح بونار، بعنوان مجاعات قسنطينة، الجزائر، 1974، ص. 29.

[7] .المبارك، أحمد، المصدر السابق، ص. 46.

[8] .العنتري، محمد صالح، المصدر السابق، ص. 30.

[9]. De Grammont (H.D), op. cit., p.363.

[10].العنتري، محمد صالح، المصدر السابق، ص. 33.

[11].سعيدوني، ناصر الدين، ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية، **مجلة الثقافة**، العدد 78، الجزائر، نوفمبر–ديسمبر 1983م، ص. 216–217.

[12] .ابن عبد القادر، مسلم، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم، رابح بونار، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1974، ص.95.

[13]. Esterhazy (W), La domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, C. Gosselin, 1840, p.208.

[14]المهدي، البوعبدلي، مقدمة، المرجع السابق، ص. 117.

[15] .محمد الأمير، بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ط2 ، شرح وتعليق ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة العربية، 1964، ص. 117.

[16] .الزهار، المصدر السابق، ص. 85.

[17] .خط همايون، عدد: 22547(A)، تاريخ، 1238هـ/1822م.

[18] .المبارك، أحمد، المصدر السابق، ص. 14–15.

[19] .يعود أصل محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي إلى قبيلة بربرية هي كسانة المقيمة على ضفاف وادي العبد بضواحي غريس بمعسكر، درس بالقيطنة والمغرب، وعين مقدما إثر عودته إلى الجزائر أنظر:
أبو العباس أحمد، الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتب، 1954–1956، ج8، ص. 109.

[20] .الزياني، محمد بن يوسف، المصدر السابق، ص. 208.

[21]ابن عبد القادر، مسلم، المصدر السابق، ص. 73.

[22]. Delpech (A), « Résumé historique sur le soulèvement des derkaoua de la province d'Oran », R. Af., n° 78, 1937, p.44.

[23]. Rotalin (Ch.) Histoire d'Alger et la piraterie des turcs dans la méditerranée, Paris, 1841, T.2, p. 591.

[24] .عبد الرحمن، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، بيروت، دار الطليعة، 1980، ج3، ص. 291.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[25]. ابن عبد القادر، مسلم، المصدر السابق، ص. 91؛ الزياني، أبو القاسم، الترجمان المغرب في دول المشرق والمغرب، نشر وتحقيق: هوداش، باريس، 1886، ص. 223.

[26]. De Grammont (H.D), op. cit., p .365.

[27]. De Neveux (E), op. cit., p.133.

[28]. Noel (A), « Documents pour servir à l'histoire des Hamyan et la région qu'ils occupent actuellement », B.S.G.A.O., T.36, 1915, pp. 165-166.

[29]. هذه مقتطفات من رسالة عمر باشا إلى السلطان في شهر رجب 1231هـ/جوان 1816، أنظر: عبد الجليل، التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (الجزائر وتونس وليبيا: 1816–1871)، ط2، الجزائر، د.م.ج، 1985، ص. 144.

[30]. خط همايون، عدد: 22547، تاريخ، 1238هـ/1822م.

[31]. مولاي، بلحميسي، "الثورة على الأتراك في الجزائر، شواهد مستقاة من وثائق إسبانية لم تنشر"، **مجلة الثقافة**، العدد: 46، نوفمبر–ديسمبر 1978، الجزائر، ص. 46.

[32]. نفسه، ص. 45.

[33]. ابن عبد القادر، مسلم، المصدر السابق، ص. 150.

[34]. Boyer (P), « Historique des Beni Amer d'Oranie des origines au senatus consulte », R.O.M.M, n° 24, 1977, pp. 53-54.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوربا خلال القرن 19م في عيون الرحالة العرب

د. دوحة عبد القادر
جامعة خميس مليانة
البريد الإلكتروني:aek.douha@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2017/01/10 تاريخ القبول: 2017/02/15

الملخص:

لقد كانت رحلات المغاربة إلى مختلف الدول الأوروبية، العامل الأساسي الذي أدركوا من خلاله الفرق بين ما وصلت إليــه أوربا من تمدن وحضارة في شتى المجالات، والوضعية المتردية التي تعيشها المجتمعات العربية. هذه الوضعية المتردية التي عاشتها المجتمعات العربية، هي التي حددت نظرة العرب إلى أوربا وولدت في أنفسهم سؤالا هاما، تمثل في البحث عن الوسائل التي تكفل عبور الفجوة بين التخلف والتقــدم، هـل يكـون باحتـذاء النمــوذج الغربي في السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها؟ أم يكون بإحياء التراث العربي؟ أم أن الحل يكمن في التوفيق بين النموذج الغربي والتراث العربي الإسلامي؟.

الكلمات الدالة:

أوروبا– الرحلات– العرب– القرن 19م.

العنوان بالإنجليزية:

Economic and social life in Europe during the 19th century In the eyes of Arab travelers

.Abstract:

It was the journey of Moroccans to various European countries, the main factor in which they realized the difference between the European civilization and civilization in various fields, and the deteriorating situation experienced by Arab societies. This depressing situation in the Arab societies has defined the Arabs' view of Europe and has given rise to an important question in their search for ways to bridge the gap between underdevelopment and progress. Is it by following the Western model in

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

politics, economy, culture and others? Or is it reviving Arab heritage? Or is the solution to reconciling the Western model with the Arab-Islamic heritage?

Key words:

Europe - trips - the Arabs - the 19th century

.

لقد كانت رحلات المغاربة إلى مختلف الدول الأوروبية، العامل الأساسي الذي أدركوا من خلاله الفرق بين ما وصلت إليه أوربا من تمدن وحضارة في شتى المجالات، والوضعية المتردية التي تعيشها المجتمعات العربية. هذه الوضعية المتردية التي عاشتها المجتمعات العربية، هي التي حددت نظرة العرب إلى أوربا وولدت في أنفسهم سؤالا هاما، تمثل في البحث عن الوسائل التي تكفل عبور الفجوة بين التخلف والتقدم، هل يكون باحتذاء النموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها؟ أم يكون بإحياء التراث العربي؟ أم أن الحل يكمن في التوفيق بين النموذج الغربي والتراث العربي الإسلامي؟.

إن الإجابة على ذلك السؤال تقتضي منا عرض وتحليل ما ورد في "مؤلفات الرحالة العرب" والتعرف على نظرتهم لأوربا في المجالين الاقتصادي، والاجتماعي.

1-النظام الاقتصادي الأوربي

شغلت القضية الاقتصادية في الغرب الأوروبي جانبا هاما من نظرة الرحالة العرب في القرن التاسع عشر. وتناول هؤلاء الرحالة في مدونات رحلاتهم عدة جوانب من الحياة الاقتصادية، والتاريخ الاقتصادي للممالك الأوربية، واهتموا خاصة بالنشاط الاقتصادي، ودور الدول فيه.

أ-النشاط الاقتصادي

في البداية نبدأ باستعراض نظرة أول رحالة عربي زار أوربا بعد الحملة الفرنسية على مصر، إنه رفاعة رافع الطهطاوي الذي خصص فصلا كاملا من كتابه: " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" حول «كسب مدينة باريس ومهارتها»،[1] متكلما عن الصناعة والتجارة، وطرق المواصلات، التي قال عنها بأنها السبب الرئيسي في غنى الفرنسيين. وأشاد الطهطاوي في أهل باريس« محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة إليه بالكلية ومدح الهمة وذم الكسل والتواني.»[2] مثلما أشاد بازدهار التجارة، منوها بدور

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الجرائـد في التعريف بالصناعة وتنشيط مختلف المجالات التجارية فقال: « ومـن الأمـور النافعــة فــي التجارات (الجرنالات)، فيكتبون فيـها كثيرا من البضائع النافعة والجيدة والمصنعة ويمدحونـها ليروجـوا السلع وليعلمـوا الناس بها ».[3]

و بالإضافة إلى العوامـل السالفـة الذكر، التي اعتبرها الطهطاوي من الأسباب الأولى في غنى الفرنسيين وحسن تدبيرهـم، فتدبير المصاريف والاقتصاد فيـها يشكل عماد الثروة كلها « ومن جملـة أسـباب عنــى الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف حتى أنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا مـن تدبير الأمور الملكيـة...».[4] وجملـة ما يمكن استخلاصه مـن نظـرة الطهطـاوي، إحساسـه بـأن المدنيـة تسـتند علـى أساس مادي لا بد منه، قوامه الصناعة والزراعة والتجارة. ولم يشذ محمـد بـيرم الخـامس بنظرتـه إلــى الاقتصاد الأوروبي عن سلفه، فلـفت انتباهه هو الآخر أخـلاق الإيطـاليين وجـدهم في العمـل والاشـتغال. كما لا حظ كثرة الطرق في ايطاليا ولاحظ دورها الايجابي في المبادلات التجارية ونقـل السـلع مـن مدينـة لأخرى، فقال « أن من أعظم أسباب الثروة واتساع التجارة تسهيل الطرق لنقل البضائع ».[5]
غير أن صاحب صفوة الاعتبار تعمـق في تحليلـه للنظـام المـالي في مملكـة ايطاليـا فتطـرق إلى نظـام عقـد الشركات التجارية بين الأشخاص، و الذي كـان حسـبه سـببا في اتسـاع التجـارة، لأن أمـوال الشـخص وحده لا تكفي لمزيد الاتساع في التجارة. وهو الشيء الذي لم يلحظه في بلده.[6]

و مما تنبه إليه بيرم كذلك، قضية تكوين وجمع رأس المال باعتباره أحد أركان الثروة الوطنية، فأشاد بدور البنوك في الاقتراض الذي ساعد على نمو الاقتصاد إلا أنه استدرك فأشار إلى سـلبيات ذلـك وأصـدر حكمه على هذه الطريقة التي لم يستحسنها باعتبارها تؤول إلى إفلاس الكثير.[7] غير أنه في المقابـل مـدح التعامل بالحوالات، ونوه بالبورصات التجارية التي وجدها تعج بالسماسرة لكنه قال بأن: « الكـثير مـن التجار يفلسون في تلك المتاجرة ». وأرجع ذلك إلى أن البيع والشراء فيهـا لا يكـون يـدا بيــد.[8] ويظهـر بيرم من خلال انتقاداته هذه إلى أنه لا يريد من المسـلمين اقتبـاس مثـل هـذه الأنظمـة الـتي اعتـبر أنهـا تخالف الشـرع. وكان ما اكتشفه محمد السنوسي من تراتيب العملة والنقود قد جعله يقيم مقارنة للوضـع الذي كانت عليه أمور العملة بالبلاد التونسية عصرئذ، فمدح التراتيب القاضية بصيانة النقود من الغش،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وفي هذا الصدد قال: « ولقد أخذت معي في هذا السفر عددا من نقود الفضة والفرنكات فلما صرت لنابلي ورأيت أوراق العملة الخفيفة الحمل المقبولة في جميع الأسواق بقيمتها، أردت استبدال الفضة بالأوراق فلم يمكن ذلك إلا بإعطاء صرف قدره اثنان في المائة. أما الذهب فإنه والأوراق سواء تستبدل أيهما تشاء بقيمته من الآخر من غير صرف. وأين هذا من تجار الدولة في غش النقود لتحصل على ربح يضيع بسببه على الأهالي في كل يوم أضعافه المضاعفة». [9]

وإذ كان أحمد فارس الشدياق قد لا حظ الفقر والفقراء في بعض أرياف مملكة الإنجليز فاكتفى بالقول « أن وجود الغني والفقير في الدنيا لا بد منه كوجود الجميل والقبيح »، فإنه انتقد مغالاة الإنجليز في العمل وسعيهم الشديد وراء الكسب وماديتهم فقال: « فلعمر الله إن كان هذا الغش نتيجة التمدن والترقي في العلوم فالجهل خير، فإن أهل بلادنا والحمد لله، على جهلهم، ما يعرفون شيئا من هذه الفنون الكيمياوية، والأخلاط غير المتناهية...» التي يلجأ إليها التجار ليغشوا الزبون ويحصلوا على مزيد من الربح. [10] وعلى العكس من ذلك فان أحمد بن أبي الضياف، ذكر بعد أن رأى المشير أحمد باي آثار العمران والثروة والطرق المفعمة بالمتاجر أنه تحقق له بعد ذلك كله معنى قولهم: «المتجر يقطع سلاسل الفقر». هذا الفقر الذي أقر بعدم وجوده في قوله « لا تكاد ترى واحدا بغير شغل ». [11]

و تفطن ابن أبي الضياف إلى شيء مهم في الحياة الاقتصادية للدولة عندما أشار إلى موضوع الاستثمارات الاقتصادية، فلاحظ أن الأوروبيين لا يستعجلون نتيجة العمل ويبنون أهدافهم في المستقبل فهم مثلا « يصرفون الأموال لفائدة يمكن حصولها بعد سنين ». وبهذا العمل يحققون القوة الاقتصادية والاستقلال عن الغير. واعتبر صاحب الإتحاف أن هذا « من أعظم أسباب العمران والثروة...» ولذلك تأسف على غياب هذه الإستراتيجية في السياسة الاقتصادية في بلده. [12]

و قبل استجلاء نظرة خير الدين الاقتصادية إلى الغرب الأوروبي ولمقارنتها مع نظرة الرحالة الآخرين، لابد أن نشير إلى أن خير الدين في كتابه لم يعزل الاقتصادي عن السياسي وحتى الاجتماعي والثقافي بحيث ربط بين النشاط الاقتصادي ورأس المال من جهة، ودور الدولة في تنظيم ذلك الاقتصاد من جهة أخرى، [13] فنظرته نابعة من أرضية سياسية واضحة المعالم والمكونات. إذ أن تجاربه داخل الدولة الحسينية وقراءاته وسفراته كلها مجتمعة ومتفاوتة الأهمية، عناصر تنويع

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وتوسيع مجال النظر فـي الجانب الاقتصادي، الذي تحدد مـن خلاله زوايا مختلفـة ومرتبطة في نفس الوقت، شملت الاقتصاد كمسألة إنسانية أولا، ثم الاقتصاد التونسي في القرن التاسع عشر.

لقد قدم خير الدين عرضا شامـلا عـن الحضارة الأوروبية منـذ شارلمان[14] و خاصة فيما يتعلـق بتطـور الاقتصـاد بأوروبـا وازدهار اقتصاديـات الـدول الأوروبيـة، من زراعة و صناعة و تجارة و خدمـات معلقا عن ذلك الازدهـار بقوله: « وليعلم الناظر أن هذه الزيادة [في الدخل القومي] إنما هي من نمو العمران والثروة وما يدخل في العصابة الفرنساوية من الأفراد والأجانب ونحو ذلك...».[15]

نظـر خير الدين إلـى الاقتصاد نظـرة المفكر الواعي، فرآه يقـوم على مقومين أساسيين هما العمل و رأس المال.[16] وقد ناقش أهمـية كل منهما في الدول الأوروبية في إطار نظام الحكم. فإذا كانت ثروة الأفـراد حسبه تقاس بما يملك كل منهم، فإن الثروة العامة لا تنتج إلا بالعمـل، والعمل هو تلك القيمـة المضافة إلى رأس المال المستثمـر وبه يتحقق امتياز دولة على أخرى. واستخلص خير الدين من خلال تحليله للإمكانيات الاقتصادية لمختلف الدول الأوروبية التي زارها أن الإمكانيات الطبيعية متاحة في كل أنحاء العالم ولو بمستويات متفاوتة، و لكن الإفادة من هذه الإمكانيات الطبيعية بالعمل، وهو ما جعل دول العالم تتفاوت فـي الإنتاج والثراء والرفاهية والتقـدم بدرجة أكبر وأوضح. يقول خير الدين بأن الممالك الأوروبية لم تبلغ تلك الدرجة من التقدم والرقي إلا عن طريق « تسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة...».[17]

قسم خير الدين النشاط الاقتصادي إلى مجالات مختلفة ومتفاوتة الأهمية ومرتبطة في آن واحد هـي: البناء والعمران، الغراسة والفلاحة، الصناعات، الحرف والتجارة والمتجر والكسب، وتلتقي هذه الأبعـاد الاقتصادية حسبه على اختلافها، في محور اقتصـادي مركـزي واحـد هـو رأس المـال والمـال عمومـا.[18] ولذلك ربطه بالنظام في الدولة وناقشه في إطار الحكم الرشيد، الذي يقـوم بإتاحـة الحريـة الاقتصاديـــة، وتنظيم التعامل الاقتصــادي، ووضع البرامج الاقتصادية، وتوجيه الإنفاق إلى المشروعات العامـة. وذلـك على غرار الدول الأوروبيـة التي تعتمـد لا مركزية التسيير فتضـع « في كـل مركـز إيالـة (ولايـة) واليـا عموميا يكلــف بتطبيــق القوانيــن و أوامـر الدولـة ... ولـه النظـر علـى نمـو الفلاحـة والتجـارة وسـائر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الصناعات...»، مقارنا ذلك مع النمط الذي سارت عليه الدولة العثمانية الذي كانت تحدد فيه اختصاصاتها في الدفاع الخارجي والأمن الداخلي و إقامة النظام الإداري الهادف إلى جمع الضرائب.[19]

ب–دور الدولة في الاقتصاد:

سجل ابن أبي الضياف بفكره الثاقب دور النظام السياسي في الميدان الاقتصادي فتعجب من انعدام المتظلمين من كثرة المغارم والمكوس، ففسر السر في ذلك بنفسه، بأن هذه المغارم والمكوس «غير مجحفة وأهلها على يقين بمقاديرها وأنها تصرف في مصالحهم على اختلاف أنواعها.».

وفي علاقة النظام السياسي بالاقتصاد دائما، يروي بيرم الخامس تفاصيل زيارة قادته إلى مقر مجلس النواب الإيطالي. وصادف ذلك اجتماعه لبحث إحدى القضايا المالية، تعلقت بطلب وزير المال بزيادة دخل الدولة بما يتناسب مع المصاريف وذلك عن طريق دفع الضريبة على السلاح. فسجل بيرم بدقة تلك المشادات التي وقعت بين وزير المال وأحد النواب الذي أتهمه بإفقار الشعب بالضرائب. واستنتج بيرم من ذلك الدور الكبير الذي يقوم به رجال السياسة والحكم في البلاد الأوروبية في سبيل التنمية الاقتصادية، التي لا يمكن أن تتم بزيادة الضرائب والأداءات على الشعب مما يؤدي إلى إفلاسه، وبالتالي عزوفه عن العمل وتحقيق المزيد من الثروة.[20]

وشغل نظرة محمد السنوسي ما أكتشفه من أنظمة النقود و العملة بالبلاد الأوروبية و خصوصا إيطاليا التي زارها المؤلف، وهو ما دفعه لعقد مقارنة مع الوضع الذي كانت عليه أمور العملة بالبلاد التونسية عصرئذ، فمدح الأنظمة القاضية بصيانة النقود من الغش في نابولي الإيطالية واستنكر ما تقوم به الدولة التونسية من غش، وتزوير للنقود لتحصل على ربح وصفه السنوسي بقوله: « يضيع بسببه على الأهالي في كل يوم أضعافه المضاعفة ».[21]

أما فيما يخص الضرائب فقد أكد خير الدين على حق الدولة في الجباية[22] المقررة، لكن هذا التصرف يجب أن يقوم على أساس عدم استبدادها في ذلك، ثم يشير بعد ذلك إلى مملكة انجلترا، فأكد أن مسؤولية سن الأداءات مسؤولية مشتركة بين الدول من جهة و بين البرلمان من جهة أخرى « وأعلم أن الدولة الإنجليزية بمقتضى قوانين المملكة لا تطلب من الأهالي أداء سنويا إلا المصاريف اللازمة لصالح

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الدولة ... وتحت نظارة البرلمان الكبير...» وهو تعليق لا يخلو من تلميح. فكأنه يلح على ضرورة إعادة النظر في الإصلاحات التي فشلت باندلاع الثورة على الجباية في تونس سنة 1864م، ولكأنه أدرك أن مأساة القرن التاسع عشر بتونس هي كامنة في السياسة الجبائية الجائرة التي أدت إلى العصيان والتمرد في وجه الدولة.[23] و يدعم ذلك ما نوه به خير الدين عندما تحدث عن مملكة النمسا التي مدح فيها رواج الصناعات وكثرة المصانع و الآلات. إذ أشار إلى عملية التصويت في المجالس على القوانين من طرف النواب وذلك بعد المفاوضة وموافقة غالبية الأعضاء لاسيما تلك القوانين التي تتعلق بتحديد الميزانية السنوية للدولة أو فيما يخص السياسة الجبائية.[24]   ولا حظ خير الدين دور وزير المالية في البلدان الأوروبية هو تسيير الشؤون الاقتصادية فقال بأنه هو« المكلف بفرض القوانين المتعلقة بالاقتصاد و ضبط مداخيل الدولة وصادراتها وإدارة ديونها وتوزيع المرتبات » ثم أضاف إلى جانب هذه المهام: « له الوصاية على البنوك والمصارف ويمضي مع الملك جميع الأوامر المتعلقة بوزارته ».[25]

وإذا كان بيرم الخامس قد لفت انتباهه وهو يتجول في أحد المعارض الإيطالية تقدم ايطاليا في الصناعات وسجل انطباعه عن هذه المملكة بما يفيد أنها صارت قادرة على الاستغناء بنفسها عن سائر الحاجات الضرورية وحتى الكمالية، فيما يعرف بالاكتفاء الذاتي للدولة.[26] لم يغفل خير الدين هذه القضية بل لا حظ اتجاه الأوروبيين إلى تصدير فوائض إنتاجهم وندد في هذا الشأن بأولئك الذين يتهافتون– من العرب– على ما تنتجه المصانع الأوروبية بدون أن يدركوا مدى الضرر الذي يحدثه هذا السلوك على المستويين الاقتصادي والسياسي، فحرمان صناع البلد من ثمرة جهودهم بسبب كساد بضاعتهم من جراء إقبال الناس على المصنوعات الأجنبية يلحق ضررا كبيرا لهم، ينعكس سلبا على حالة البلاد ككل. « فإن زادت قيمة الداخل والواردات على قيمة الخارج والصادرات، فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة » أما عن المستوى السياسي فإن البلاد إن اعتمدت في تلبية احتياجاتها الأساسية على الخارج، فإن ذلك سوف يضعف من قوتها ويشكل خطرا على استقلالها.[27]

وفيما يخص قضية الاقتراض والديون التي سجل أنها ترتبت على الدول الأوروبية، فهو يرى في ذلك أن هذه الديون لم تنشأ عن عدم ضبط سبب الاقتراض ولا عن سوء التدبير، وإنما يكون ذلك إذا حدث سبب موجب للاقتراض، لكن لن يكون ذلك إلا بعد عرض القضية للمجلس الوحيد الذي له

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الحق في أن يرخص للدولة للاقتراض ويعلن المبلغ للعامة، وتدفع الدولة نسبة فائدة لمن تقترض منه سواء من الأهالـي أو من الأجانب. وينبه خير الدين إلى شيء مهم عندما يشير إلى اختلاف فائـدة الـديون مـن دولة لأخرى و يقــول بأن « فوائد دين كل دولة عنـوان على حسن إدارتها و معاملتـــها ».[28]

أما موقف خير الديــن مـــن الاقتراض، بالنسبة للدول العربيـــــــة وبالنسبـة لتونس كـذلك، فقـــد لخصه في قولــــه: « الأفضل أن ندفع غاليا ثمن اقتراض نقترضه في بلدنا ونحافظ بذلك على حريتنا من أن نربح بعض الفوائد المادية علـى حسـاب اسـتقلالنا ». و يظهـر مـن ذلـك أن خـير الـدين يميـــل إلى الاقتراض الداخلي و ينبذ الاقتراض الخارجي الذي يسلب استقلال الدولـة.[29]وخلاصـة القـول أنـه إذا كان الطهطاوي قد نوه بأن التطور الاقتصادي يستلزم التطور السياسي « فمتـى تقـدمت المنـافع العموميـة استلزم ذلك تقدم المنافع السياسية »[30] فإن خير الدين التونسي قد ربط بـين الحكـم الصـالح والازدهـار الاقتصادي، هذا الازدهار الذي ينعكس بدوره على الجانب الاجتماعي.

2-النظام الاجتماعي الأوربي

لم تقتصر النظرة العربية للغرب الأوروبي في القرن 19م على المجالات السياسية والاقتصادية فقط، بل شملت أيضا الحياة الاجتماعية في ممالك الغرب الأوروبي، حيث تطرق الرحالـة العـرب إلى جوانـب اجتماعية عدة مثل وصف العادات والتقاليد الأوروبيـة، بالإضـافة إلى العدالـة الاجتماعيـة وقضـية المـرأة التي نالت كذلك جانبا من الاهتمام.

أ-العادات والتقاليد الاجتماعية:

سجل الرحالة العرب انطباعاتهم العديـدة التي اتسمت بالإعجاب تارة وبالاشمئزاز وعدم الرضا تـارة أخـرى. فهذا رفاعـة الطهطاوي يتجـول فـي شوارع البـلاد الفرنسيـــة ويبـــدي إعجابـــه بأهـــل بـاريس ويندهـش من كثـرة المراكز المختصة فـي مساعـــدة الضعفـــاء و المساكيـــن،[31] رغـم أنـــه أشـار في بدايـة رحلته إلى شح وبخل الفرنسيين لمـا قـارنهم مـع العـــرب وكرمهـــم وجودهـــم.[32] وهـــو مـا أشـار إليـــه الشدياق بعد ذلك بحوالي عشرين سنة عندمـا سافر إلى فرنسا واستقر بها وعاشر أهلهـا حيث تحدث في كتابـه فـي فصل (خواطر فلسفيـة) عن العادات القبيحة الـتي أتصـف بهـا الفرنسـيين، كمـا لم يعجبـه بخلهم.[33]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ويبدو أن كل من الطهطاوي و الشدياق اتفقا في تفسيرهم لهذه الظاهرة الناتجة حسبهم عن انصراف الغرب إلى للتصرفات المادية البحتة، في حين اتصف العرب والمسلمين حتى ذلك الوقت بأجوائهم الروحانية.[34] ولفت انتباه بيرم الخامس مغالاة الإنجليز في عقائدهم وتعصبهم لديهم عكس المسلمين في تسامحهم، عندما لاحظ إغلاق التجار لمحلاتهم يوم الأحد فقال« أن من فتح حانوته عوقب »، واعتبر ذلك تناقضا مع ما ينادون به من حرية.[35]

كما لاحظ محمد السنوسي أيضا خبث نفوس سكان نابولي التي مر بها أثناء سفره إلى ايطاليا، فوصف المدينة بقوله أنها كانت « مركزا مستهوا للسرقات والمفاسد». وأوعز صاحب الرحلة الحجازية هذه الظاهرة إلى كثرة السكان واختلاطهم ببعضهم البعض حتى صار الساكن لا يعرف من يسكن بجواره على حد تعبيره.[36]

لم يكن محمد الحجوي متفرجا وشاهدا سلبيا فهو (التاجر والموظف المخزني والفقيه المجتهد). وهذه الأبعاد الثلاثة المتفاعلة والمتصارعة في شخصيته، هي التي تكسب شهادته في تلك الفترة قيمة. فقد أعجب الحجوي أيم إعجاب بالمعاملات التجارية وبتقاليد البيع والشراء في المدن الأوربية التي زارها في فرنسا وانجلترا، فالتجارة تقتضي من صاحبها النظافة وحس الأناقة وتوافر الحس الترتيبي، كما تقتضي منه أيضا عدم الغش والحرص على النظافة: « يبهت طرفك في نظارة المحل وزخرفته وجمال منظره، ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها: كل جنس مع جنسه ونوع من نوعه...وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا ظريفا ذا كسوة جميلة ووجه بشوش وأخلاق كريمة وتربية حسنة وصبر وحذق ، فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصا أو غاليا» ثم يبدي ملاحظة هامة يتحلى بها الإنجليز مفادها: « القليل في الكثير كثير» و« صدق المعاملة والقناعة بالربح القليل ليباع العدد الكثير».[37] وكان الحجوي في أتم الاستعداد لقبول التسليم بواقع فرنسا: فهو يذكرها الذكر الحسن كله، وهو يستلذ ترديد شعارها الثلاثي(الإخاء– الحرية –المساواة) حين يذكر باريز« معدن المدنية العصرية ...والحرية المنظمة والأخوة المحكمة والمساواة الملزمة».[38] أما خير الدين التونسي وبحكم وظائفه في الدولة كرجل سياسية ودبلوماسية كان يرسل من طرف الحكومة التونسية للقيام ببعض الأعمال الدبلوماسية، فكانت كل اتصالاته ولقاءاته تتم مع كبار رجال الحكومات الأوروبية وعلمائها وأصحاب الرأي فيها، كما أن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الأوساط التي كان يقيم فيها خير الدين لم تكن تخرج عن عواصم تلك البلـدان أو بعض المـدن الكـبرى، في إطار زياراته الرسمية لتسوية مسـائل تجاريـة أو حربيـة أو إبـرام معاهـدات، وفي مجملـها لا تتعـدى مشاهدة الأوساط الحكومية في البلد الآخر.

فرحلات خير الدين إلى الممالك الأوروبية كانت محددة بمهام مسبقة ومن هنا كان معـزولا في ترحالـه وتجواله عن الاتصال المباشر بالجمهور الموسع، على نقيض أصحاب الـرحلات الأخـرى الذيـن كانـوا أحرارا في تجوالـهم ومخالطتهم للجمهور والتعرف إلى أخلاقه وعاداته ومظاهر حياته اليومية عـن قـرب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن سعة فكر خير الدين وإحساسـه بمسـؤوليته كعربـي يحـاول إخـراج بلاده من أوضاعها المتدهورة، لم تشغله العادات والأخلاق والمظاهر، وإنما انصبت بالخصوص على البنى الأساسية للحضارة في تلك البلدان التي ولدت لديها الرغبة في الاسـتفادة منهـا. فنظـرة خـير الـدين إذن انصبت على كل ما من شأنه أن يؤثر في المقومات الأساسية لبنية الدولـة، وامتـداداتها داخـل المجتمـع على غـرار قضية القضاء والعدالة الاجتماعية.

بـ-العدالة الاجتماعية:

لقد خص خير الدين التونسي للعدالة حيزا هاما من تفكـيره ونظرتـه إلى الغـرب الأوروبـي فـاق بكثير ما خصه الرحالة الآخرين إلى هذه القضية. وذلك باعتبار أن خير الدين راح يبحث عن منشـأ تلـك القوانـــين التي تخلق العدالـــة، و كيفية تطبيقها، والمؤسسات والهياكل التي تتولى ذلك.

ولعل ملاحظة خير الدين الأولى في هذا الجانب انصبت على مملكة انجلترا، التي سجل فيها تلك العلاقة الوثيقة بين استتباب الحياة الاجتماعية وطرق اشتغال المؤسسات القضائية مقسما إياها إلى طريقتين أساسيتين: الأولى طريقة اشتغال المحاكم في حلها للقضايا والمنازعات التي تعرض عليها، والتي أعتبر خير الدين أن « حكمها يقتصر على رفع المقدار الحاصل من الضرر أي الحقوق الثابتة »[39] ،أما الطريقة الثانية: فتتمثل في عمل المجالس القضائية التي قال عنها أنهـــــــــا: « تحكم بأخذ الحذر اللازم منها لعودة المضرة في المستقبل » ثم أضاف شارحا ذلك:« إنها تحيل نظرها إلى المستقبل فتمنع المضرات الواقعة والمتوقعة ».[40] و يظهر من كلام خير الدين أنه أعتبر قوة الجهاز القضائي في الدولة بمثابة الحصانة المستقبلية والدائمة للمجتمع من الانحرافات.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تعرض خير الدين إلى امتداد الجهاز القضائي في عمق المجتمع وتوزعه على كل الولايات ممثلا في محاكمه ومجالسه التي تنتهي جميع أحكامها الصادرة إلى المجلس الأعلى بعاصمة المملكة، وهذا المجلس لا ينظر في القضايا المرفوعة إليه من الناحية الموضوعية وإنما من ناحية تطبيقها للقوانين السارية. وإن أعترض هذا المجلس على قضية من القضايا، تعاد إلى المحاكم للنظر فيها من جديد. ونكتفي هنا باقتباس شيء مما قاله عن هذا المجلس « وصورة نظره أنه لا يتأمل في أصل النازلة من جهة ثبوتها أو بطلانها، وإنما ينظر في أعمال المجلس أكانت على مقتضى القانون أم لا...»[41] وأعتبر خير الدين أن ذلك هو الكفيل بتحقيق العدالة بين أفراد الأمة. أما قضية استقلال القضاء عن الدولة، أشار إليها خير الدين عندما زار انجلترا وتجول في محاكمها ومجالسها ولاحظ أن القضاة و رجال القضاء بصفة عامة لا يمكنهم الجمع بين وظيفتين في نفس الوقت، وظيفة القاضي من جهة والعضوية في البرلمان من جهة ثانية. فقال « إن من مزايا الأمة الإنجليزية، تحسين الإدارة الحكمية في فصل النوازل باستقلال مجالس الحكم ومنع أعضائها من الدخول في خدمة البرلمان ».[42]

غير أن خير الدين لاحظ أن القوانين التي يعتمدها القضاء الإنجليزي ليس مقيدة ومضبوطة مثلما جرت عليه عادة الفرنسيين، الذين يدونون جميع قوانينهم في دستور واحد « أحكامهم ليست محصورة بكتاب أو تقييد...و (إنما)... تستند إلى القانون العام المؤسس على مجاري العادات و تأخذ من الأحكام التي جرى بها العمل ».[43] ويبدو أن خير الدين لاحظ أن إنجلترا تعتمد في تشريعاتها على العرف والسوابق القضائية وهو الشيء الذي يتنافى مع قاعدة سمو الدستور في الدولة الفرنسية. ورغم أن بيرم الخامس أشار إلى هذه النقطة التي وصفها « بالعادة الغريبة » وانتقدها معتبرا إياها بأنها تزيد من نفوذ الطبقة العليا معللا ذلك بعدم علم المحكومين بتلك القوانين مسبقا، كما أنها تضع القضاة أمام عدة اختيارات فيأخذون منها ما شاءوا. مما يحول دون تحقيق العدالة في الأحكام، إلا أن خير الدين أعجب بذلك وأعتبره مؤشرا على مدى حيوية المجتمع الإنجليزي و سعيه الدءوب نحو التغيير و التطور.[44]

ولم تنفرد انجلترا بهذه المزية وحدها، فحتى روسيا التي أنتقد فيها خير الدين ظاهرة الطبقية في المجتمع وما يتمتع به الأعيان ملاكي الأراضي من سلطة وخصها بهذه الصفة دون سائر الممالك الأوروبية،[45] نوه فيها باستقلال القضاء عن السلطة السياسية قائلا لقارئ كتابه: « اعلم أن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التريبونالات (المحاكم) كلها مستقلة ولا تسلط لوزراء الحكم عليها إلا بتحسين الإدارة الحكمية وتسمية الإحكام ».[46]

ولم يكتف خير الدين بالتنويه بالاستقلالية التي تعتمدها مملكة روسيا فيما يخص الجانب القضائي، بل ذهب بعيدا بالإشارة إلى بعض القوانين الجديدة التي دخلت حيز التطبيق والتي تزامنت مع زيارته إلى هذه البلاد، وعلى الخصوص قانون إبطال الحكم بالإعدام فقال: « أن من مستحدثات قوانينهم إبطال الحكم بالقتل وكذا بالضرب إلا في نوازل نادرة، وقد عوضت هاته العقوبة مع عقوبات أخرى بالنفي إلى سيبيريا »[47] وإبطال الحكم بالإعدام ملاحظة هامة جدا من قبل مسؤول تونسي في القرن التاسع عشر، لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار ما كان يجري في تونس من إعدام للأشخاص بسبب موجب أو بدونه.

كما لم يغفل خير الدين اهتمامه ببعض الأنظمة ذات الطابع الاجتماعي التي تعتمدها الدول الأوروبية لتحقيق العدالة بين الأفراد وخاصة ما يتعلق بالحماية الاجتماعية ونظام التقاعد. فخير الدين التونسي بحكم اشتغاله في وظائف سياسية وعسكرية، لم يعجبه ما يعانيه الذين خدموا الدولة التونسية سنوات عديدة، ولما عجزوا عن الخدمة، أبعدوا من مناصبهم وانقطعت رواتبهم التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم وهمشوا. فكأنه بذلك ينتقد هذه الظاهرة ويدعوا المجتمعات الإسلامية إلى اقتباس تلك الأنظمة عن أوروبا، قائلا في ذلك « ومن عوائد الدولة الأوروباوية أن من خدم الدولة ثلاثين سنة بوظيفة سياسية أو عسكرية يرتب له مرتب مدة حياته بحسب ما بلغه من المراتب ».[48] وهذا المرتب في نظر خير الدين يحفظ للموظف كرامته بعد سنوات الخدمة التي قضاها في الدولة.

لفت انتباه رحالي المغرب الأقصى كذلك، ظاهرة التكافل والتعاضد الاجتماعي داخل أوربا. فأشار الغزال إلى وجود اثنتي عشرة مؤسسة اجتماعية في مدريد وحدها. وتسهر هذه الدور على التكفل بالعجزة والمعوزين، وتقدم لهم الخدمات الصحية اللازمة: « وقد ذكروا لنا أن هذا "الاسبطال" من اثني عشر..بهذه المدينة.» ولاحظ أن القيمين على هذه المؤسسات يرعون المرضى والعجزة ويحسنون إليهم ويقدمون لهم الأكل و الشرب، ويسهرون على تنقية أثواب هؤلاء وتطهير أماكنهم.[49]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولعل ابن أبي الضياف أشار إلى هذه النقطة لما زار أحد المراكز الاجتماعية في الدولة الفرنسية رفقة المشير أحمد باي فقال عنه بأنه« موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو ونحوه... ولمن طعن في السن وعجز عن الخدمة من العسكر». ثم أضاف قائلا عن المتواجدين فيه : « تجرى عليهم جرايات واسعة ونفقة لها بال من أحسن ما يتمنى الإنسان ».

غير أن صاحب الإتحاف لم ينظر إلى ذلك نظرة اجتماعية بحتة. تراعي فيها الدولة تحقيق كفالة اجتماعية للفئات العاجزة من سكانها، وإنما كانت نظرته نظرة عسكرية تجلت في قوله: « وهذا المحل مما يقوي قلوب عساكرهم حيث يرون مآل العاجز منهم وأنه لا يترك نسيا منسيا...»،[50] على عكس خير الدين التونسي الذي نظر إلى القضية من زاوية اجتماعية مرتبطة بنظام الحكم في الدولة. وذلك على غرار نظرته للمرأة التي أعطى لها مكانتها الاجتماعية وأعتبرها جزء لا يتجزأ من الهيكل الاجتماعي للدولة. لاسيما وأن اختلاف وضع و مكانة المرأة في المجتمعات الأوروبية عن وضعها و مكانتها في الشرق الإسلامي شغل اهتمام الكثير منذ الحملة الفرنسية على مصر.

جـ–المرأة الأوروبية:

تحددت نظرة العرب–عموما– إلى المرأة الأوروبية بالنظر إلى علاقاتها بقضايا السلوك الفردي والاجتماعي. ومثل عبد الرحمان الجبرتي منطلق هذه النظرة، حيث أدان خروج المرأة الفرنسية إلى الحياة العامة واختلاطها مع الرجال جملة وتفصيلا، والعبارات التي أوردها بهذا الشأن تعكس الموقف العام في الشرق الإسلامي آنذاك من قضية السفور.[51] غير أننا إذا حاولنا عقد مقارنة بين الرحالة المشارقة والرحالة المغاربة بخصوص موضوع المرأة الأوربية، سنجد التباين واضحا، إذ وجد الطهطاوي لزاما عليه أن يوضح هذه القضية(التي طرحها الجبرتي) من جوانبها المختلفة ولا يكتفي بالأحكام العامة البسيطة كما فعل الجبرتي فذكر أن « وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك للتربية الجيدة والخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبة، والالتئام بين الزوجين»[52] فالعفة عند الطهطاوي نتيجة التربية، أما خروج المرأة إلى الحياة الاجتماعية فتعد قضية أخرى.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولاحظ الطهطاوي أن مشاركة المرأة الفرنسية في الحياة العامة يأخذ عدة أشكال، من بيع وشراء إلى اشتغال في سائر النشاطات، وقد لفت الطهطاوي وجود المرأة إلى جوار الرجل في الأماكن العامة، مثل المقاهي والمنتزهات ومحال الرقص. وكان وجود المرأة عاملة في إحدى المقاهي ظاهرة طريفة سجلها الطهطاوي « وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها، فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب، والقهواجية إمرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة ».[53] و على العموم، فالفرق الشاسع بين المرأة الأوروبية المتعلمة والمتحررة والمرأة الشرقية المتحجبة الجاهلة في القرن التاسع عشر، جعل و بدون شك–الطهطاوي والشدياق في المشرق العربي– يعجبون بالمرأة الأوروبية.لكن الأمر ليس هو نفسه بالسبة للرحالة المغاربة.

فقد لفت انتباه الشدياق كثرة النساء في شوارع لندن وتحررهن فقال يصف لندن « أبت فيها النساء أكثر من الرجال و أجمل ».[54] و استغرب محمد السعيد بن علي شريف عدم مخالفة الرجال من كل ما يطلبنه، أو يصدر منهن فيقول: « وأما النساء فإنهن سيدات رجالهن، وهم كعبيدهن تحت أمرهن، ولم يسعفهم مخالفتهن قط» وطرح في آخر كلامه استفهاما حول ذلك فقال: « والله أعلم كيف و أنهم على رأي نسائهم وفي قبضتهن مع أنهن ناقصات عقل ودين ».[55]

وأعجب الطهطاوي بأناقة المرأة الفرنسية وجمالها وبعض صفاتها الأخلاقية كلطفها وحسن مسايرتها و بشاشتها. وعندما تناول العادات السائدة في اللقاءات الاجتماعية تطرق إلى مكانتها في هذه المجتمعات وأنها موضع احترام وتقدير« والغالب أن الجلوس للنساء، ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكتفت النساء ». وبهذه الملاحظة حاول الطهطاوي أن يبرز المكانة الاجتماعية السامية للمرأة في المجتمع الفرنسي.[56]و أجاب الطهطاوي عن الاستفهام الذي طرحه محمد السعيد بن علي الشريف حول انقياد الرجال الفرنسيين لنسائهم إذ لم يقف الطهطاوي – الذي أشار إلى هذه القضية كذلك– في موقع المعجب بل يرى أن الفرنسيين مخطئين في هذه النقطة و قال: « غاية الأمر أنهم يخطئون في تسليم القيادة للنساء ».[57]

ويبدو أن بيرم الخامس الذي لفت انتباهه وهو يزور ايطاليا وفرنسا العادلات والتقاليد لاسيما حياة المرأة الأوروبية المتحررة في المجالس العامة والخاصة، لم يقف موقف الطهطاوي سلفه من إعجابه بالمرأة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الفرنسية. ذلك أن بيرم قد برز بوجه رجل الدين المحافظ والمتعلق بمقومات شخصية المرأة الإسلامية، فأنتقد انتقادا لاذعا المرأة الإيطالية في مخالطتها للرجال ومراقصتهم دون خجل أو حياء قائلا: « وليس من عادتهم الحياء مثل ما عندنا، فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها...وترقص مع الرجال أمامهم....وترى إحدى النسوة الأعيان تغني وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة و مخاصرة وغيرها...بحيث أن المسلم الغيور يكاد ينفطر مما يرى...». [58]

ويسجل صاحب الصفوة قول رجالهم عن النساء المسلمات « بأن الذي حمل المسلمين على حجب النساء، مما في طباعهم من الخيانة وشدة الحجب تولد الشوق. وحيث أنا على خلاف ذلك فالأمن على نسائنا محقق والتي لا يحميها عرضها لا يحميها حائط دارها ». [59] ويظهر مما جاء في كلام بيرم بأنه دخل معهم في مساجلات فكرية فحاول تقديم بعض الاستدلالات العقلية المنطقية للرد على ما يقولون، ظهر ذلك في قوله: « أن موجب حجب أمر طبيعي في سائر البشر وفي سائر الحيوانات ». [60]

وتتوافق نظرة بيرم الخامس للمرأة مع نظرة محمد السنوسي، إلا أن هذا الأخير تجنب الخوض في سلبيات تقدم المرأة الأوروبية في رسالته " تفتق الأكمام " [61] أو (رسالة في المرأة) والتي قال فيها عن المرأة الأوروبية: « أنها اليوم متعلمة مثقفة تحضى باحترام كبير هي به جديرة ». وقال في موضع آخر: « لقد نالت النساء الأوروبيات في القرون الأخيرة نصيبا من التثقيف والفن وأطلق عليهن لقب الجنس اللطيف، وهن أهل لما يكال لهن من ثناء ». ومع ذلك تمسك بحق الرجل في الطلاق وتعدد الزوجات. ويدل ذلك على أن إعجابه بالمرأة الأوروبية وتفتحه للحوار مع الديانة المسيحية وأصحابها لا يعنيان انحيازه إلى النمط النسوي الغربي، أو دعوته النساء المسلمات طريق التقليد لأسلوب عيش المرأة الأوروبية في عصره. [62] ويعتبر دفاعه عن الحجاب أبلغ دليل على مناهضة لمحاكاة الغرب في السفور. أما قضية المساواة بين الرجل والمرأة فأعتبرها السنوسي أنها مساواة ليست مطلقة بل هي محكومة بمكانة كل من الرجل والمرأة في الأسرة و المجتمع. [63] و فيما يخص قضية تعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العامة، أقر السنوسي بوجوب تعليم المرأة تعليما دينيا ويدويا يتكفل به الرجل. [64]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ومهما يكن فنزعة السنوسي في قضية المرأة تنزل تفكيره ضمن التيار المحافظ الذي يلتقي به السنوسي في نقطة جوهرية وهي غلبة التناول الفقهي لقضية المرأة على المعالجة الاجتماعية.[65] بينما نجد أن خير الدين التونسي تفادى تلك النقاشات والسجالات التي تطرق إليها معظم الرحالة العرب، فيما يخص قضية المرأة معتبرا ذلك بمثابة القضايا الهامشية التي تحجب الواقع الاجتماعي، ولذلك نظر إلى المرأة كفرد من أفراد المجتمع يجب أن يحظى باحترام الرجل و تقديره.

ونفس عبارات الاستغراب التي وظفها محمد السعيد بن علي شريف في وصفه لعلاقة الرجال بزوجاتهم تتكرر مع الصفار، إذ الرجال مغلوبون على أمرهم وأن« طاعة النصارى لنسوانهم ومبالغتهم في إتباع مرادهم أشهر من تذكر». والأدهى والأمر من ذلك كله أن: « الغيرة على أزواجهن نادرة جدا: فيرى الرجل زوجته آخذة بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلا والملا فلا ينكر عليها، وربما وجه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لمنتزه أو فرجة».[66] ووصف الحجوي باريز فقال عنها ما ملخصه أنها، تلك التي ينعدم فيها الحياء وتخدش المروءة، ولاسيما النساء: « فقد خلعن ربقة الحياء وتبرجن تبرجا لا يتصور فوقه إلا سفاد الحيوانات في الطرق جهرا. فهذا شيء أفسد الأخلاق ولا تستحسنه ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع».[67]

أما خير الدين فقد أجرى مقارنة واقعية بين المرأة الأوروبية والمرأة الشرقية واكتشف أن الفرق الرئيسي بينهما هو قضية التعليم، ولذلك نادى بضرورة تعليم المرأة وتهذيبها لتكون زوجا صالحا للبيت ولتربية الأبناء الذين رأى فيهم مستقبل البلاد. وأبان في مقدمة كتابه غلط المسلمين المتزمتين الذين حجروا الدين ورفضوا كل اقتباس حسن من حضارة الأمم الغربية، واستنكر تخوف التونسيين والمسلمين عامة في عصره من تعلم المرأة واعتبر ذلك من أسباب تقهقرهم فقال: « ومن دواعي الأسف أن هذه النظرة الإسلامية إلى المدنية الغربية لا تزال تؤثر في بعض البيئات في الأمم الإسلامية، وإن اختلفت درجاتها في الإصغاء إلى هذه الدعوة كالتخويف من تعليم المرأة...ولعل هذا من الأسباب التي جعلت النصارى والمسلمين إذا ما اجتمعوا في قطر واحد، كان النصارى أسبق إلى تشرب المدنية الغربية والاستفادة منها ».[68] ورغم ما أبداه من استنكار لعقلية المسلمين المتخوفين من تعليم النساء فان عنايته بهذا التعليم كانت في المقام الأول في تفكيره، نظرا للجهل الذي كان يتخبط فيه السواد الأعظم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من الرجال والنساء في تونس زمن هذا المفكر. ويبدو واضحا هنا اتجاه خير الدين في ربط قضية المرأة بالجوانب الثقافية والعلمية للدولة، أنه ناتج من ملاحظته للفروق بين المجتمعات الغربية ومجتمعات الشرق الإسلامي ومن ثم إدراكه لضرورة التغيير الاجتماعي في العالم الإسلامي، والذي ارتبط في المجتمعات الغربية بما حققته من علوم مختلفة و ما أحرزته من أنماط ثقافية و فكرية. وهو ما كان محل نظرته كذلك.

إذا كان جل الرحالة العرب من المشارقة أو المغاربة – أمثال الطهطاوي و الشدياق وابن أبي الضياف والصفار وحمدان خوجة...، وهم من الذين أقاموا بأوروبا لفترات، أو زاروها في مناسبات مختلفة، قد سلموا لها بالقوة واعترفوا لها بالحضارة خلال القرن التاسع عشر وهو ما يظهر من خلال مدوناتهم التي سجلوا فيها كل ما يخص الحياة الأوروبية. كل حسب طريقته وميله ونظرته. فإن خير الدين التونسي نفذ إلى أعماق العقل و الفكر الأوروبيين و لم يكتف بوصف المشاهدات، و رأى في أوروبا الوسيلة الكافية لاسترجاع العرب لقوتهم التاريخية، حتى لا يقعون فريسة لها بل عليهم التعايش معها، والأخذ عنها و طلب مساعدتها.

ولذلك فقد دعا الحكومات والأفراد إلى الإقتداء بالأوروبيين مبينا لهم جميعا أن الاستعانة بعلماء الغرب وعلومهم المختلفة لا يتنافى ودعوة الإسلام إلى العلم، لأن الحضارة والمعرفة والعلوم ليست وقفا على شعب دون الآخر، بل إنها جاءت نتيجة تكامل الحضارات والجهود الإنسانية المختلفة، محاولا إقناعهم بأن علوم المسلمين وحضارتهم قد أسهمت في توصيل الغرب إلى ما وصل إليه فلولا العرب لما توصلت أوروبا إلى مستواها العلمي الحاضر.

الهوامش:

(1) اعتمدنا على نص رحلة الطهطاوي " تخليص الإبريز في تخليص باريز": المنشور كملحق في كتاب محمود فهمي حجازي: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، ط1، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1974م، ص 289 .

(2) المصدر نفسه، ص 288.

(3) نفسه، ص 291.

(4) نفسه، ص 292.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(5) محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأنصار و الأقطار، ج2، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان 1997م ، ص 46.

(6) المصدر نفسه، ص 45.

(7) نفسه، ص 46.

(8) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(9) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ط1، تحقيق: علي الشنوفي،ج1، الرائد التونسية للتوزيع، تونس، 1976م، ص 13.

(10) الشدياق أحمد فارس: الساق على الساق في ما هو الفارياق، تقديم وتعليق: نسيب وهيبة الخازن، الطبعة الرابعة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1966م، ص 637.

(11) أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الآمان، الباب 6، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية،ط2، الدار العربية للكتاب، تونس 2004م ، ص 150.

(12) المصدر نفسه، ص 138.

(13) أحمد جدي: « الإشكالية الاقتصادية في الفكر التونسي الحديث من خلال أحمد أبي الضياف وخير الدين باشا »، المجلة التاريخية المغربية، العددان: 55-56، ديسمبر 1989م، تونس، ص 71.

(14) شارلمان: Charlemagne (742-814م) ملك فرنسا (768-814م) ، من المناضلين في سبيل نشر النصرانية، أخفق في إفتكاك الأندلس من أيدي المسلمين، وأقام في آخر حياته علاقات تجارية و ودية مع المسلمين و خاصة مع هارون الرشيد العباسي.

(15) التونسي خير الدين: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ج1، تحقيق: المنصف الشنوفي، الطبعة الثانية، منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون " بيت الحكمة"، تونس 2000م ، ص 341.

(16) يزيد الأمير عبد القادر عن هذين العاملين دور العلوم والمعارف فيقول: "لأن كل من كان تحصيله للعلوم ،أكثر ،كانت قدرته على كسب الجديد أسهل. لأنه مهما حصلت معرفة أخرى، و ازاوجت مع معرفة أخرى ، حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتمادى الإنتاج ...كالذي لا راس مال معه فإنه لا يقدر على الربح .وقد يملك رأس المال ولكن لا يحسن صناعة التجارة، فلا يربح شيئا..." أنظر:

- الأمير عبد القادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم:عشراتي سليمان، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر،2004م، ص63.

(17) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 105.

(18) جدي، مرجع سابق.، ص 74.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(19) التونسي، مصدر سابق،ج1 ، ص 317.

(20) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 33.

(21) السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 13.

(22) بقيت التصورات الجبائية حتى القرن 19 م رهينة مفهوم العمران ويسبق مفهوم الاقتصاد في معناه الدقيق ، مما يؤول إلى القول أن الديمغرافيا كانت أساس الازدهار أو الانتصار، فعلى قدر تكاثر السكان يكون عدد الخاضعين للجباية.

(23) التونسي، مصدر سابق،ج1، ص 422.

(24) نفسه، ص 446.

(25) نفسه، ص 309.

(26) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 50.

(27) التونسي، مصدر سابق،ج1، ص 101.

(28) المصدر نفسه، ص 147.

(29) ابن أبي الضياف، مصدر سابق ،الباب 5، ص 96.

(30) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 233.

(31) المصدر نفسه، ص ص 285-286 .

(32) نفسه، ص 284 .

(33) الشدياق، مصدر سابق، ص 620.

(34) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 288.

(35) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2 ، ص 209.

(36) السنوسي، مصدر سابق ،ج1، ص 85.

(37) الرحلة الأوربية لمحمد الحجوي، مخطوطة في قسم الوثائق والمخطوطات في الخزانة العامة بالرباط-تحمل رقم 115، قام سعيد بن سعيد العلوي بتحقيقها والتقديم لها، ثم نشرها كملحق في مؤلفه: أوربا في مرآة الرحلة، ص 116.

(38) المصدر نفسه، ص 116.

(39) التونسي، مصدر سابق، ج1 ،ص410.

(40) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(41) نفسه، ص 329.

(42) نفسه، ص 399.

(43) نفسه، ص 404.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(44) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 198.

(45) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 478.

(46) المصدر نفسه، ص 486.

(47) نفسه، ص 489.

(48) نفسه، ص 309.

(49) المهدي الغزال: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م ، ص ص 154-155.

(50) ابن أبي الضياف، مصدر سابق، الباب 6، ص ص 104-105.

(51) عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم و الأخبار، ج3، ضبط وتصحيح: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، لبنان 1997، ص236. وللمزيد حول موقف الجبرتي من علاقة الرجال بالنساء، راجع:

– حسين عاصي: عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ الصدام الحضاري بين الشرق والغرب في العصر الحديث، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1993م، ص 24.

(52) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 212.

(53) المصدر نفسه، ص 187.

(54) الشدياق، مصدر سابق ، ص 581.

(55) محمد السعيد بن علي الشريف: « الرحلة الخيرية فيما عاينه ناظمها ببر فرانسة»، جريدة المبشر، العدد رقم 130، بتاريخ 08 رمضان 1269هـ/15 جوان 1853م، ص4.

(56) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 211.

(57) المصدر نفسه، ص212.

(58) بيرم الخامس، مصدر سابق ،ج2 ، ص 41.

(59) المصدر نفسه، ص 41.

(60) نفسه، ص42 .

(61) رسالة كتبها السنوسي نصها الأصلي مفقود، ولقد حرص علي الشنوفي على نشر ترجمتها الفرنسية التي ظهرت سنة 1897م مشفوعة بتعليق في (المجلة التونسية). وفي إطار اعتنائه بآثار السنوسي حلل بعض مؤلفاته، ومنها هذه الرسالة، في رسالته الجامعية باللغة الفرنسية: "مفكر تونسي من أهل القرن 19م، محمد سنوسي، حياته و آثاره.

(62) Ali Chennoufi : un Savant Tunisien du XIX siècle, Mohamed Assnoussi : Sa vie et son œuvre ,publication de t'université tunisienne 1977 , P.121.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(63) نور الدين الجريبي: « تفتق الأكمام، رسالة محمد السنوسي في المرأة »، مجلة الحياة الثقافية، العدد رقم52 ،السنة 1989م ،منشورات وزارة الثقافة ،تونس، ص 07.

(64)Chennoufi : Op. cit, P 135.

(65) الجريبي،مرجع سابق، ص 13.

(66) محمد الصفار: رحلة الصفار، مخطوط في الخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 113، الورقة 70.

(67) الحجوي، مصدر سابق، ص 131.

(68) التونسي، مصدر سابق ،ج1، ص 189.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التمثيل الدبلوماسي في الجزائر خلال العهد العثماني في ضوء الفرمانات العثمانية

أ.د. صحراوي عبد القادر
جامعة سيدي بلعباس.
البريد الإلكتروني: sahraoui1959@yahoo.fr
جميل عائشة
طالبة دكتوراه ،جامعة سيدي بلعباس

تاريخ الاستلام: 2016/12/15 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

إن الدبلوماسية الأوربية في إيالة الجزائر عرفت تنوعا وازدهارا كبيرا من القرن 17 إلى القرن 18م، وذلك راجع لسيادة الايالة الجزائرية على البحر الأبيض المتوسط، خاصة مع تطور نظام الحكم في عصر الدايات حيث أصبحت الجزائر مستقلة استقلال تاما عن الباب العالي، وتتمتع بسيادة الكاملة أمام ممالك وحكومات عالمية، فاستعملت هذه الدول دبلوماسيين لتمثيلها في الايالة، فكانوا بمثابة أداة لمعرفة عقلية الحكام والضغط على إيالة الجزائر عن طريق المعاهدات والاتفاقيات التي كانت سببا في إضعاف الجزائر وسقوطها تحت بيد الاحتلال الفرنسي بطريقة سهلة

.الكلمات الدالة:

التمثيل الدبلوماسي – الجزائر خلال العهد العثماني– البحر الأبيض المتوسط– الاحتلال الفرنسي – الفرمانات العثمانية.

العنوان بالإنجليزية:

Diplomatic representation in Algeria during the Ottoman period in the light

of Ottoman

Abstract:

Between the 17th and the 18 th Century, the european diplomacy and the Algerian one kneur a great diversity and prospesity because of the Algerian

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

sovereignty on the mediteranean sea in the « deys » era.Algeria became Independent from the «othman» Turkish empire, Et was respected by the Most world politiciens and gouvernements.They linked diplomatic relations just to know to make pressure through a greements which were the main cause to weaken the «Deys». Finally, Algeria was colonised by the french.

Key words:

Diplomatic representation - Algeria during the Ottoman period - Mediterranean - .French occupation - Ottoman Fermans

يكتسي موضوع الدبلوماسية والدبلوماسيون في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أهمية بالغة ولاسيما خلال الفترة الممتدة من القرن 17م إلى 18م في مجال البحث التاريخي، وفي السياسة الخارجية للبلاد والعلاقات الدبلوماسية لإيالة الجزائر مع الدول الأوربية، هذا ما سيعطي دفعا جديدا لظهور الجزائر كدولة بكيانها السياسي على مسرح الساحة الدولية، خاصة مع تطور نظام الحكم في عصر الدايات، حيث أصبحت الجزائر مستقلة استقلالا تاما عن الباب العالي وتتمتع بسيادة الكاملة أمام ساسات وحكومات عالمية، فكانت تعلن الحرب وتمضي السلم وتعقد معها المعاهدات وتقيم التحالفات بمطلق سيادتها وحرية تصرفها، حيث أصبحت الدول الأوربية تتعامل معها على اعتبارها كيانا سياسيا مستقلا، مما ألزمها إرسال دبلوماسيون لحماية مصالحها وتمثيلها في الإيالة.

❖ طبيعة العلاقات الجزائرية الأوروبية:

1- سيادة الجزائر:

يعود ظهور الجزائر الحديثة في الإطار الإقليمي الذي هو عليه الآن تقريبا، خاصة بالنسبة لحدودها الشرقية والغربية، إلى منتصف الأول من القرن السادس عشر، وبالرغم من انضمامها للإمبراطورية العثمانية لكن طبيعة علاقاتها مع هذه الإمبراطورية قد اكتسب منذ البداية طابعا خاصا ميزها عن كونها مجرد إقليم أو ولاية من ولايات الإمبراطورية وبحكم هذه الميزة كان عليها أن تضبط علاقاتها

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الخارجية منذ البداية وفق ما تقتضيه مصالحها وظروفها الخاصة بها.[1] وإن علاقات الجزائر الخارجية تندرج ضمن ثلاثة أصناف عريضة تلك التي مع دول المغرب المجاورة، والعلاقات الجزائرية الأوروبية والعلاقات مع الدولة العثمانية، ففي الحالتين الأولى والثانية كان الهدف الجزائري الأساسي واحدا يتمثل في القضاء على أي تجمع أو تحالف قوي بدرجة تؤدي إلى القضاء على الإيالة أو تهديد أمنها الداخلي.[2]

2- علاقات الجزائر بالدول الأوربية:

كانت الجزائر أقوى دول المغرب الإسلامي بسبب كبر مساحتها وطول سواحلها، وعناها الاقتصادي ووفرة تجارتها ورواجها مع الخارج وامتداد دواخلها إلى قلب القارة فيما وراء الصحراء الكبرى، وكانت علاقاتها مع الخارج أوسع مدى وكلمتها أكثر تأثير في السلم والحرب، وأكسبها هذا صفة الزعامة على سائر نيابات المغرب الأخرى، واعترفت دول أوروبا لها بذلك وأخذت تدفع لها الضرائب والهدايا وتهابها وتبرم معها معاهدات السلم والصداقة حتى تتجنب نقمتها وغضبها.[3] في هذا يقول دي غرامون: " لقد ظلت الجزائر طيلة ثلاثة قرون رعب النصرانية وكارثتها، فلم تنج واحدة من المجموعات الأوربية من البحارة الجزائريين الجريئين، بل وأخضعت الجزائر زيادة على ذلك لمهانة الضريبة السنوية ثلاثة أرباع أوروبا بل وحتى الولايات المتحدة الأمريكية."[4]

كانت الضريبة هي مفتاح العلاقات الجزائرية الأوربية و فكانت تدفع الجزية لأنها لم تستطع أو أنها لم تطور سياسة عمل جماعي ضد الجزائر، فكانت الضريبة المدفوعة بمثابة حماية فردية وأيضا امتياز للقوى الأوربية الصغيرة التي تعتمد في حياتها على التجارة السليمة، وفي مقابل هذا كان الجزائريون يمتنعون عموما من مهاجمة سفن أو موانئ الأمم التي تدفع الجزية، وهذا بالرغم من أنهم ربما يضاعفون قيمة الضرائب المفروضة من سنة إلى سنة على البلدان منفردة أو أنهم يطلبون هدايا أغنى من القناصل الأوربيين.[5] ومن أهم الدول التي تدفع الضرائب للجزائر هي الولايات المتحدة الأمريكية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

هولندا[6] والبرتغال والدانمارك، النرويج السويد والدويلات الايطالية تدفع الضريبة كل عامين، أما إسبانيا وفرنسا وانجلترا وسردينيا وهانوفر، والبندقية تدفع هدايا دورية للدايات والباشوات وأعضاء الديوان عند إبرام المعاهدات أو تعيين القناصل لها في الجزائر.[7] ونستثني من الدول الأوربية روسيا والنمسا[8] اللتين كانتا تعتبران الايالة مقاطعة عثمانية وعليه كانت تجبران الباب العالي على التدخل لمنع البحارة الجزائريين من الاعتداء على أساطيلها.[9]

لقد كانت السياسة الجزائرية الخارجية مرنة وتصورية، واتسمت بالاقتناع المطلق بالتفوق البحري والاعتقاد بدوام الدولة كعامل حيوي في سياسة أمة الإسلام، مع الفهم العميق لمخاوف ومطامح ومناهضات أوربا المسيحية. فكانت الدبلوماسية الجزائرية بالنسبة إلى الخارج تقوم على مبدئيين أساسين: الأول كل دولة تعتبر محاربة حتى توقع معاهدة صداقة وسلام مع الجزائر، والثاني كل معاهدة لا يعترف فيها بسيادة الجزائر على هذا البحر الأبيض المتوسط فهي مرفوضة وملغاة من طرف الجزائر،[10] ولقد اعتمدت العلاقات الخارجية للإيالة على مايلي:

- منع أي تحالف دول أوروبا ضد الجزائر وذلك بتنظيم المطالبة بالإتاوات والمعاملة الحسنة للأسرى حسب جنسياتهم.
- الاقتناع بالتفوق البحري والتأكد من أن بقاء الإيالة مقرون بمواصلة نشاط البحرية ضد الخطر الأوربي المسيحي، والاقتناع بأن قوة هذه البحرية ستفشل كل المحاولات لاحتلال الجزائر.[11]

ومن الصعب الإقرار بوجود آلة دبلوماسية جزائرية على غرار ما كان في أوروبا حيث كانت هذه المؤسسة تعكس مظهرا من مظاهر حيوية الدولة وطموحاتها، في حين كانت السفارة في الجزائر تندرج ضمن منطق إسلامي معهود في تاريخه لرحلة، أي القيام بسفر إلى دولة أجنبية من أجل قضاء أمر ما فهي عمل مؤقت وبأمر رسمي.[12]

3- التمثيل الدبلوماسي الأجنبي في الايالة:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

شكلت الدبلوماسية العنصر الأساسي والفعال في محاولات أوروبا اكتساح العالم، وكانت الجزائر من الدول التي ارتبطت قديما بعلاقات متنوعة مع الدول الأجنبية لدرجة جعلت الدايات يرون في كثافة العلاقات وتنوعها مؤشرا لعظمة الجزائر وعزتها.[13]

أ- مبادئ الدبلوماسية الجزائرية في العصر الحديث (من القرن 16 حتى 1830):

إن طرح موضوع الدبلوماسية[14] الجزائرية ومبادئها قبل عام 1830م قد يثير نوعا من التحفظ وربما حتى الارتباك، لأننا تعودنا أنه لم يكن للجزائر كدولة قبل عام 1962م، ووعيا منا بهذا القلق المشروع في ظل النظرة الخاطئة السائدة عن تاريخ الجزائر في العصر الحديث وتفهما منا للارتباك الذي قد يحدثه التطرق لموضوعات مثل هاته، في الفترة التي رغم قربها الزمني إلا أنها غير واضحة بسبب قلة المعلومات التي لنا عنها وسطحيتها.[15]

فقليلة هي الأدبيات التي اهتمت بموضوع الدبلوماسية في الجزائر ماعدا محاولات قليلة ومحدودة جدا، وذلك من خلال قراءات في تأليف ومراسلات رسمية أوروبية وأمريكية، والملاحظ أن علاقات الجزائر بالعالم الإسلامي محدودة وتحتاج إلى الاهتمام لما تضمنه من مصلحة البلاد، وأما علاقتها بالأجانب فإنها تتغلب عليها المجاملات والشكليات، ومن خلال هذه القراءات والمرسلات الرسمية يتبين أن الداي يظل المنشط الأساسي للدبلوماسية الجزائرية وكان يستعين في تحريكها بخدام له يبعثهم إلى البلدان التي يريد الاتصال بها وعرفوا باسم السفراء، والملاحظ أن الجزائر لم تهتم بتعيين سفراء لتمثيلها عند ملوك أوروبا على أساس أن يقيموا عند هؤلاء لمدة طويلة بل كان يرسل مبعوثين عنه لفترات قصيرة جدا في مهام مضبوطة، وغالبا ما كان هؤلاء السفراء يستعينون في رحلاتهم بخدمات القناصل المعتمدين في الجزائر أو التجار الأجانب بالإضافة إلى أهل الذمة، واعتادوا التنقل في السفن الأوربية، وهكذا كانت هذه السفارات تذهب إلى أوروبا في جو رسمي في الداخل والخارج، وعند وصولهم يجدون برامج تحركاتهم مسطرة ومضبوطة ينتقلون من مكان إلى أخر وفق ما رسمته الدولة المضيفة، ومن ثم ظلت معرفتهم بهذه المجتمعات سطحية، ولاسيما أن تكوينهم ظل معتمد على المألوف والتجربة.[16]

من مكانة الجزائر في البحر المتوسط يمكن أن نستشف المبادئ الدبلوماسية[17] من خلال علاقات الجزائر بالدول الأوربية دون غيرها، وبالرغم من أن الجزائر لها علاقات مع أطراف إسلامية سواء في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

منطقة المغرب أو في المشرق الإسلامي.[18] سنحاول استنتاج مبادئ هذه الدبلوماسية اعتمادا على ما سجلته المراسلات الدبلوماسية والمعاهدات المبرمة مع الدول الأوربية المختلفة:

1) التعاقد المباشر مع كل دولة تريد إقامة علاقات مع الجزائر: وهذا يظهر جليا من خلال العلاقات الجزائرية الفرنسية، فقد تأكد موقف الجزائر بخصوص العلاقات العثمانية الفرنسية في مبدئيين أساسين أولهما: إصرارها على عدم الاعتراف وبالتالي عدم تطبيق المعاهدات التي تبرمها الدولة العثمانية مع الأطراف الأخرى، والثاني يتمثل في المطالبة بالتعاقد المباشر مع كل دولة تريد إقامة علاقات مع الجزائر، وهذا المبدأ الذي سارت عليه الجزائر وتمكنت به بكل إصرار، هو الذي أجبر فرنسا في النهاية إلى الدخول في التعامل المباشر معها وضبط علاقاتها وفقا للترتيبات التي حددها الطرفان ووقعا عليها.[19]

2) مبدأ المعاملة بالمثل وتكافئ المصالح بين الطرفين المتعاقدين: ففي بعض الأحيان يتم التنصيص بذاك صراحة وأحيانا أخرى يترك ضمنيا وعدم التنصيص كان مثار خلاف في بعض الأحيان، خاصة لما يكون الطرف الأخر من المتمسكين بحرية النصوص دون مراعاة التوازن العام لترتيبات التعاقد.

3) عدم الربط والخلط بين العلاقات السياسية بين الدولتين والنشاط التجاري: الذي يقوم به رعايا الطرفين في كلا البلدين ملزمة نفسها باحترام وحماية هؤلاء الرعايا وممتلكاتهم حتى وإن كانت في حالة حرب مع دولهم.[20] ويعتبر هذا المبدأ حجر الزاوية في الدبلوماسية الجزائرية، وقد ثم التنصيص عليه صراحة في المعاهدات التي أبرمتها مع فرنسا "إننا لا نقر الخلط بين أمور التجارة وشؤون الدولة".[21]

4) مراعاة مقاييس وشروط في تعيين القناصل لاعتمادهم في البلاد: لقد أكد المسئولون الجزائريون في العديد من مراسلاتهم مع الأطراف الأوربية على ضرورة مراعاة هذا المبدأ والتقيد به عند تعيين القناصل لما في ذلك من مصلحة وفائدة في ترسيخ العلاقات السلمية بين الطرفين بمعزل عن تأثير الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية التي لهؤلاء التجار،[22] إذ أنها كانت تعتبر أن مصالح الدولة يجب أن توكل إلى أشخاص ليس لهم علاقة بالنشاط التجاري، ويجب أن يكونوا متجردين من كل الدوافع الشخصية أثناء تأدية مهامهم كموظفين وأعوان للدولة.[23]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

5) مبدأ السيادة الوطنية وحرمتها في تعاملها مع الأطراف الأوربية: أحسن مثل يجسد الحرص على الدفاع على هذا المبدأ هو ذلك الذي يتعلق بقضية المدفعين الذين سرقهما قرصان مسيحي كان في خدمة الأسطول الجزائري، وفر لبيعهما إلى الدوق دي قيز حاكم مقاطعة برونانس الفرنسية، لقد اعتبرت الجزائر أن استرداد هذين المدفعين قضية مبدأ تمس السيادة، فالمدفعين لم يؤخذا ولم يفتكا منها بالقوة ليعتبرا غنيمة حرب، ولقد رفضت إقرار أي صلح مع فرنسا قبل استردادها، بالرغم من إلحاح الدولة العثمانية من خلال وساطتها لإنهاء الحرب بين الطرفين.[24]

6) مبدأ الحياد في الصراعات الأوربية: لقد حاولت فرنسا مرارا عديدة وسعت بكل ما أوتيت من أساليب الإقناع والتأثير لجر الجزائر ورائها في الصراعات الأوربية ولكن بدون جدوى، وأخر مسعى بذلته في هذا الاتجاه على عهد لويس الرابع عشر هو إيفادها لبعثة كبيرة عام 1702م لغرض إقناع المسؤولين الجزائريين بالوقوف إلى جانبها في الحرب المرتقبة التي تعرف بحرب الوراثة الاسبانية.

وعند نهاية القرن السابع عشر سجلت الدبلوماسية الجزائرية موقفا على درجة كبيرة من الأهمية وبعد النظر والذي يتمثل في اعتبار منطقة المغرب منطقة متكاملة سياسيا وأمنيا لا يحق لطرف أوربي أي كان أن يتدخل في شؤونها ويقحم نفسه في أمورها، لقد عبرت عن هذا الموقف على إثر اندلاع حرب أهلية في تونس والتي استغلها قنصل فرنسا بهاته البلاد ليتدخل لصالح طرف ضد الطرف الأخر بمده الأسلحة وبعدد من المرتزقة من الفرنسيين المختصين في المدفعية، لقد ندد الداي شعبان[25] في رسالة شديدة اللهجة بعث بها إلى لويس الرابع عشر، بهذا الموقف الفرنسي الذي اعتبره بمثابة إعلان حرب ضد الجزائر، وطالب بأن يكشف عن موقفه بكل صراحة فيما إذا كان يعتبر نفسه في حالة سلم أو حالة حرب، وهو ما اضطر فرنسا إلى شجب موقف قنصلها واعتبار سلوكه عبارة عن مبادرة شخصية وليس موقف الحكومة.

7) مبدأ الوفاء بالعهد والتقيد بالالتزامات التي تعهدت بها: مهما كانت الظروف والتغيرات التي قد تطرأ على الحياة الدولية، فبرغم مما كتبته الأدبيات الصليبية وما سجلته حول عدم وفاء الجزائريين بتعهداتهم، فإن التقارير الدبلوماسية الموضوعية تؤكد دائما هذا الجانب الايجابي في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

سلوك دول المغرب البحرية ولدى الكيانات الإسلامية الأخرى والذي تعتبره من الثوابت التي ترتكز عليها دبلوماسيات هذه الدول في كل الظروف وفي جميع الفترات.[26]

وفي هذا يقول فونتير دي باردي: " يعتبر الوفاء بالعهد من مبادئ الايالة في علاقاتها مع الدول، كما لمعاهدات السلمية والامتيازات، وإن عدم الاعتماد على القوة فقط هو كذلك من المبادئ التي اعتمدها الجزائريون في تنظيم علاقاتهم مع الدول الأوربية حسب أهميتها..."[27]

8) مبدأ التعامل مع جميع الدول على قدم المساواة: فليس هناك في منظور الدبلوماسية الجزائرية دولا كبرى ودولا متوسطة ودولا صغرى، بل جميع الدول تتساوى عندها في المرتبة، وقد تعاملت مع كل الدول على هذا الأساس ويكفي للتأكد من ذلك تصفح المعاهدات التي أبرمتها الجزائر مع فرنسا أو هولندا ومع هامبورق مثلا، فكل لها نفس الامتيازات والالتزامات سواء بالنسبة لوضعية قناصلها بالبلاد أو بالنسبة للتعريفة الجمركية التي يدفعها رعايا هاته الدول من التجار أو بالنسبة للقضاء القنصلي وصلاحياته وغيرها من المسائل.[28]

ب- سلبيات النشاط الدبلوماسي الجزائري:

إن نشاط الدبلوماسية الجزائرية في العصر الحديث، ليس كله مضيئا فهناك ظلال وعناصر سلبية في هذا النشاط نجملها في النقاط التالية:

- انعدام المبادرة والحركية في نشاط الدبلوماسية الجزائرية حيث نلاحظ عليها أنها التزمت موقفا دفاعيا، فهي لا تطالب بشيء ولا تسعى لتحقيق أي شيء أو أية أهداف سواء أكانت هاته ظرفية أم مرحلية أو أهداف بعيدة المدى.
- انعدام توفر جهاز مختص لمتابعة هذا النشاط وتطويره يشكل حجر تقل في عمل هذه الدبلوماسية وتخفيض مردوديتها،[29] فلم يهتم الديوان بتكوين الأطر التي كان يكلفها بمهمة في البلدان الأجنبية وقد تكون السفراء الجزائريون في مهنتهم عن طريق التجربة والممارسة،[30] إلى جانب طغيان النظرة المثالية للعلاقات الدولية التي كانت تسترشد وتستوحي مسلكها من مبدئي "الحق والعدل" الذي نجده على شفاه كل المسؤولين الذين تعاقبوا على السلطة أثناء هذه الحقبة الطويلة.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- التأثير السلبي لقصور وسائل الإعلام والتبليغ المتوفرة لدى الدولة في هذه الفترة، على نشاطها الخارجي والآثار الضارة المترتبة على هذا النقص والذي جعلتها في عجز دائم وقصور مستمر في أن ترقى بنشاطها الخارجي وخاصة في علاقاتها مع الدول الأوربية إلى مستوى تصور سياسي متكامل يوازن مصالحها وأهدافها وتطلعاتها، على غرار ما وصلت إليه الدول الأوربية ويبلغ هذا القصور ذروته عندما ندرك أن الخطر الأوربي ضد الجزائر لم يدركه أي أحد .[31]
- انعدام المرونة والفعالية الدبلوماسية الجزائرية ذلك أن أسلوبها المباشر الصريح كان واحدا من العوامل التي مكنت الفرنسيين من عزلها ليس فقط على المستوى الأوربي وإنما حتى مع جيرانها وأشقائها كذلك،[32] إضافة أن الجزائريون كانوا يجهلون كثيرا من التحولات العميقة التي شهدتها أوربا خاصة، مثل أهم حدث هو الثورة الفرنسية التي لم يعيرها الجزائريون أية أهمية وبالتالي فإن بعض الكتابات الفرنسية قد ذكرت بأن الجزائريون كانوا يديرون أوجههم اتجاه ما كان يحدث في أوربا.[33]
- لم يهتم الجزائريين بمضمون بنود المعاهدات وكانوا يوقعونها من أجل الحصول على هدايا وفوائد مادية، وذلك على عكس الأوربيين الذين اهتموا ببنود المعاهدات ومن الصعوبات التي كانت تعترض العمل الدبلوماسي الجزائري وتجعله يترك المبادرة فيه لأوربا، مسألة اللغة التي كانت تحرر بها المعاهدات، ويمكن اعتبار هذا الموقف مؤشرا من المؤشرات التي تبين تجاوز أوربا للجزائر خلال العصر الحديث، لأنها ستعمل عن طريق تحرير المعاهدات على ضبط مضامين بنودها لتجعل منها الإطار القانوني الذي سيمكنها من تطويق الجزائر ومحاصرة سفنها الجهادية.[34]

فمن خلال ما سبق يظهر أن الجزائر لم تكن لها آلة دبلوماسية هادفة إلى تحقيق مصالح متداخلة اقتصاديا وسياسيا من أجل الدفاع عن مصالح الجزائر بل كانت دبلوماسية مندرجة في منطلق ما يراه الداي، وعلى العكس من هذا كانت بلدان أوربا تستخدم الدبلوماسية لتحقيق أهدافها والعمل على خلق الأسلوب الملائم لهذه، فاهتمت الدول الأوربية باستعمال الإطار القانوني القادر على محاصرة وتطويق العناصر التي كانت تعارض مصالحها، ولأجل الوصول إلى هذه الغاية لجأت إلى دعم وفرض أسلوب المعاهدات والمهادنة مع الدول الإسلامية بما في ذلك الجزائر خلال العصر الحديث.[35]

ج- توزيع القنصليات في مدينة الجزائر:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد كان الركن الشمالي الغربي من مدينة الجزائر حيا خاصا بالقناصلة الأجانب فكانت قنصلية فرنسا عام 1808م توجد على بعد ثلاث كيلومترات جنوب مدينة الجزائر،[36] ثم أصبح مقر عمل القنصل الفرنسي على حوالي ثلاث كيلومترات شمال مدينة الجزائر، أما قنصل السويد[37] وهولندا واسبانيا والدانمارك فكان مقر إقامته يقع جنوب غرب المدينة أي بحي مصطفى الحالي غير بعيد عن قلعة مولاي حسن، وأما قناصلة كل من نابل وتوسكانيا وبريطانيا فكانت قنصلياتهم موجودة شمال مدينة الجزائر على منحدرات بوزريعة، وعلى بعد 2500شمال شرق المدينة كانت قنصلية الولايات المتحدة موجودة، وأما قنصلية هولندا والحكومة الاسبانية فكانتا موجدتين على نحو 500 و600 جنوب قلعة الإمبراطور حسن علي يمين، ويسار الطريق المؤدية نحو جزيرة سيدي فرج وفي مدخل الأبيار حاليا، وكان لبعض هذه القنصليات الأوربية دور نافد الخطورة في عملية الاحتلال الفرنسي للجزائر فقد أقيمت بطاريات الملك شارل العاشر 1830م أمام منازل هذه القنصليات إذ اتخذ الجنرال لوفيردو قائد الفرقة الثانية من القنصلية الاسبانية مقرا عاما لقيادته.[38]

د– دور القناصل[39] (السفراء): [40]

- **وظيفة القناصل:**

حدد الدين جوهر علاقات المسلمين بالأجانب عندما كانت الغلبة لصالح العالم الإسلامي ولم يهتم المسلمون بأوربا لأنها كانت في وضعية لا تخيفهم، فالدبلوماسية الإسلامية لجأت في رأينا إلى تقسيم العالم إلى قسمين: دار الإسلام ودار الحرب وكان المسلمون يستعملون الجهاد كضرورة فرضها القانون والدين، ومن أجل هذا أصبح الغرب لا يرى في الإسلام إلى الحرب والمواجهة،[41] وقد كانت المدن الدويلات الايطالية سباقة في الانضمام بالآلة الدبلوماسية وكانت تحسن استخدامها لتحقيق مصالحها، فالسفارة في أوروبا مؤسسة اقتصادية بالأساس لهذا دعم الأمراء إقامة السفراء في البلدان الأجنبية لأن في استقرارهم مصلحة للبلاد، فاعتمدت أوربا على الآلة الدبلوماسية للتوغل داخل العوالم الأخرى، وكان القنصل أداة لإدراك ذهنية النخبة الحاكمة في هذه البلدان بحكم احتكاكهم بها، فأصبحت أوربا لا تستطيع الاستغناء عن خدمات دبلوماسيها لأن مصالحها التجارية قد تتوقف.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يبدو مما تقدم أن هذه المؤسسة ما هي إلا أداة استعملتها الدولة الحديثة في أوربا من أجل التوغل اقتصاديا وسياسيا في البلدان الأخرى، وقد سهرت هذه الدول على تكوين الدبلوماسيين تكوينا يجعلهم قادرون على تحمل هذه المسؤولية القاضية بالتعامل والتفاوض باسم بلدانهم ولصالحها على حساب الآخرون، فشكلت الدبلوماسية العنصر الأساسي والفعال في محاولات أوربا اكتساح العالم، وكانت الجزائر من البلدان التي ارتبطت قديما بعلاقات متنوعة مع البلدان الأجنبية لدرجة جعلت الدايات يرون في كثافة هذه العلاقات وتنوعها مؤشرا لعظمة الجزائر وعزتها.[42] التقاليد التي كانت جارية في المغرب هو قبول اعتماد القناصل الأوربيين مع منحهم امتيازات واسعة مثل الحصانة القنصلية والقضاء القنصلي وغيرها، والسلاطين العثمانيون لم يغيروا من هذه التقاليد بل أقروها في البداية ثم وسعوها فيما بعد وخاصة بالنسبة لفرنسا منذ معاهدة 1529م.[43] وعلى ذلك فليس هناك ما يوحي بالاعتقاد بكون الجزائر ترفض إقامة الأجانب في أرضيها وخاصة إذا كان هؤلاء يقومون بعمل مفيد للطرفين مثل التجارة وتبادل التسهيلات المختلفة والمصالح بينهما،[44] والدول التي ترتبط بمعاهدات مع الجزائر تحتفظ بعلاقات دبلوماسية معها ويمثلها وكلاء في الإيالة يطلق عليهم لقب (القنصل العام)، وهؤلاء القناصل يتمتعون عادة بنفس الحقوق والامتيازات والحصانة التي يعترف بها الباب العالي للوزراء المفوضين في القسطنطينية، وذلك باستثناء حق اللجوء السياسي الذي لم تعترف به الجزائر قط، ولو أنه وجد بطريقة مشكوك فيها في بعض المناسبات.[45]

كانت العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا وبعض بلدان أوربا خاضعة للقوانين المعمول بها فكانت مصالح هذه البلدان محمية في الجزائر يسهر عليها وعلى القائمين بها ممثلون للدول الأوربية أعني بهم القناصل،[46] ولقد كان الواجب الأساسي للقناصل الأوربيين هو الافتداء المباشر للأسر أو التدخل لدى السلطات الجزائرية نيابة عن المقبوض عليهم من أبناء وطنهم، وكان يساعدهم أعضاء من السلك الديني: مثل الآباء الثلاثيين واليسوعيين وكذلك مختلف الهيئات البروتستانتية التي كانت تقوم بإرسال بعثات إلى مدينة الجزائر لهذا الغرض الخاص[47] فيقول الأب دان: "في المدينة يوجد قناصل يمثلون الدول وهو مستشار عن الملك وله الحق في نظر في جميع الأمور التي تخص دولته من تجارة وذلك لضمان

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مصالحها."[48] فمهام القناصل كانت حساسة وصعبة فيجب أن يتمتع بشخصية قوية ومعرفة واسعة للعادات وأعراف البلد.[49]

إذا ما حاولنا التعرف على طبيعة وظيفة القنصل في هذه الفترة ونوعية الأشخاص الذين يشغلونها فإننا نلاحظ أن هذا المنصب في فرنسا كان يباع ويشترى كغيره من المناصب الأخرى، بمعنى أنه وظيفة تجارية بالدرجة الأولى، ذلك أنه جرت العادة أن يحصل أحد على وظيفة القنصل[50] عن طريق شرائها ويفوض غيره للقيام بمهامها واستثمارها في مكان التعين وصاحب الوظيفة الرسمي مقيما في فرنسا. فكان الدور الأساسي الذي يقوم به القناصل هو حماية المصالح البحرية وسلامة أساطيلهم في البحر ولذلك فإن الدول البحرية الكبرى كانت دائمة التمثيل في الجزائر، وغالبا ما كان قناصلها يتكلفون برعاية مصالح الدول الصغرى التي لا يصل نشاطها البحري إلى درجة اتخاذ قنصل لها في الجزائر، إلا ما كان من أمر النمسا وروسيا فإن هاتين الدولتين رغم نشاطهما البحري الواسع لم تكونا بحاجة إلى اتخاذ قنصل لأنهما كانت تتعاملان مع الباب العالي رأسا في حالة وقوع أي خلاف مع الجزائر، وهو ما جعل هاتين الدولتين تحترم من الجزائريين من دون أن تكونا مضطرتين على دفع ضريبة.[51]

كان القناصل الأوربيين يقدمون الهدايا ويدفعون الجزيات باسم دولهم لحكومة الجزائر، فكانت الجزائر تطالب بتبديل القناصل الأوربيين وعدم بقائهم في مراكز عملهم مدة طويلة حتى يتجدد دخل الخزينة، فكانت الدول الأوربية [ممين] ملزمة بتغيير قناصلها كل عام أو عامين، باستثناء الحكومة البريطانية التي يتجدد قنصلها كل خمس سنوات، وأصبحت هذه الهدية تسمى في الفترة الأخيرة للإيالة"هدية السنتين" وفي حالات معينة دفعت الهدية القنصلية وهدية السنين باعتبارهما دينان أحدهما مستقل عن الآخر.[53]

تزخر مراسلات القناصل[54] وكتب الرحالة الأوربيين[55] وسجلات الدولة الجزائرية[56] بقوائم طويلة للأتاوات والهدايا القنصلية[57] ومما يلاحظ أن هذه الإتاوات والهدايا لن تعد في الفترة الأخيرة من حياة الإيالة الجزائرية التزامات مالية تساهم بدخل محترم للخزينة، بل أصبحت مجرد هدايا دبلوماسية وترضيات مالية تقدم مقابل حرية الملاحة ولنيل الاحتكارات والامتيازات التجارية.[58]

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

من خلال هذا نستنتج أن العلاقات السياسية الجزائرية مع الخارج في أغلب الفترات التاريخية متوترة بسبب النزعة الصليبية التي شنها الدول الأوربية بدافع التوسع والتنصير والتصدي للإسلام بالإضافة إلى الدوافع الاقتصادية، فقابلها الجزائريون بحركة الجهاد في البحر وهذا لم يطور العلاقات ويحسنها في كثير من الأحيان، فكانت سياسة الايالة في علاقاتها الخارجية مع أوربا هي منع تحالف دول أوربا ضد الجزائر، وهذا بتنظيم المطالبة بالاتاوات وتحكمت مسألة الأسرى في العلاقات الخارجية مع الدول الأوربية، لهذا بنت الدول الأوربية مؤسسات دبلوماسية قوية أصبحت تتخذها سلاحا للتوغل داخل الايالة، فلم تكن قادرة على الاستغناء عن خدمات دبلوماسيها الذين كانوا أداة لإدراك ذهنية النخب الحاكمة وحماية مصالح بلدانهم بها، ومما يسترعي الانتباه هو موقف الايالة من هذه الدول والمبني على أساس الوفاء بالعهود، ولم تكن القوة لوحدها هي اللغة السائدة في العلاقات مع الدول الأوربية.

ومن خلال قراءات في بعض المؤلفات التي دونها الدبلوماسيون أو الرحالة نلاحظ التشويه والتحريف الذي تعرض له التاريخ الوطني قبل عام 1830م، فوصفت الجزائر بكونها بؤرة لقطاع الطرق وملجأ للقرصان الذين لا هم لهم سوى السلب والنهب وخنق التجارة الدولية وعرقلة قيام علاقة سليمة بين الشعوب، فأغلب المصادر التي تناولت الفترة اعتبرت عبارة عن مستعمرة خاضعة للأتراك، واعتمدت على الهمجية في علاقاتها وعدم تقيدها بالعرف والقانون الدولي، إلى أن عدد المعاهدات والاتفاقيات التي عقدتها إيالة الجزائر تثبيت عكس ذلك.

الهوامش:

[1] .جمال، قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص45.

[2] . وليم، سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، (تعريب وتعليق: عبد القادر زبادية)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص136.

[3] . يحي، بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص52.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[4] Grammont, (H.D), Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, édition Leroux, Paris, 1887, p1.

[5] وليم سبنسر، المرجع السابق، ص147.

[6] كانت هولندا أول دولة قامت بتنظيم الفداء والحماية من الغارات وذلك بدفع إتاوة فاعتبر القناصل الفرنسيون والانكليز هذا العمل مهانة ولكن الهولانديون قرروا أن شراء الحماية أرخص من فرضها بواسطة السفن الحربية. (للمزيد أنظر: جون، ب وولف، الجزائر وأوروبا 1500–1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص218.

[7] يحي، بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممااليك أوروبا (1500–1830)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ، ص22–23.

[8] ورغم هذه الوساطة فإن البحارة الجزائريين كانوا يستولون على السفن النمساوية. (خط همايون: علبة 23، عدد 48827، تاريخ 1230هـ)

[9] محمد العربي، الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792–1830م، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص43–44.

[10] عبد الرحمان، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ج3، ص262.

[11] بن جبور، محمد، صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية في القرنين 17 و18م، رسالة ماجستير، جامعة وهران، السنة الجامعية 2002–2003، ص103.

[12] علي، تابليت، العلاقات الجزائرية الأمريكية 1776–1830، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006–2007، ص89.

[13] المرجع السابق، ص87.

[14] أصل لفظة دبلوماسية تعني دبلوم أي شهادة رسمية صادرة من الحكام أو الملوك وحاملة لخاتم المصادقة عليها، كما تعني أيضا شيئا مطويا على اثنين وتعني مجموعة الوثائق الرسمية أو السرية التي تقيم الحكومات بها صلات فيما بينها على أساسها أو بواسطة ممثليها في الخارج، وتطلق لفظة الدبلوماسية Diplomatie اصطلاحا على علم علاقات الدول الخارجية وشؤونها الأجنبية هذا مدلول الدبلوماسية الواسع أما مدلولها الضيق فهو فن التفاوض فيما بين الدول وبالتالي فن التعامل الدولي، وأساليب الدبلوماسية وغايتها متنوعة ومتطورة، ولقد كان إبرام المعاهدات بين الدول لا يزال في طليعة هذه الأساليب والدبلوماسيون في هذا المعنى هم الأشخاص المكلفون بنقل "الدبلوم" والتاريخ الدبلوماسي يكمن عندئذ في جمع الوثائق الدبلوماسية والتعليق عليها والوثيقة الدبلوماسية وثيقة رسمية أو سرية يستخدمها رجال الدولة للمراسلة بينهم أو مع ممثليهم في الخارج وهو يهتم بوصف تطور العلاقات بين الدول ويرتكز هذا التاريخ على تسلسل المفاوضات وعرض

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الحوادث. (للمزيد أنظر: عمر عبد العزيز، عمر، محمد علي، الفوزي، دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815-1950، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص15.

عبد العزيز، جراد، العلاقات الدولية، موفم للنشر، الجزائر، 1992، ص22.

لويس، دوللو، التاريخ الدبلوماسي، ترجمة: سموحي فوق العادة، عويدات للنشر والطباعة، لبنان، 1999، ص ص6-7.

[15] جمال، قنان، المرجع السابق، ص43.

[16] علي، تابليت، المرجع السابق، ص89.

[17] وقد استعمل الدكتور "جمال قنان" كلمة الدبلوماسية بدل السياسة الخارجية، لاعتقاده أن نشاط الدبلوماسية الجزائرية خلال هذه القرون الثلاثة لم يرق إلى مستوى يسمح له بإطلاق كلمة السياسة الخارجية على هذا النشاط. (جمال، قنان، المرجع السابق، ص46-47.)

[18] المرجع نفسه، ص44.

[19] نفسه، ص46-47.

[20] نفسه، ص47-50.

[21] جمال، قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص258.

[22] جمال، قنان، قضايا...، المرجع السابق، ص48.

[23] المرجع السابق، ص258.

[24] المرجع السابق، ص48-49.

[25] شعبان آغا: امتد حكمه من 1072هـ/1661م إلى 1076هـ/1665م.

[26] جمال، قنان، معاهدات...، المرجع السابق، ص51-52.

[27] De paradis (v), Alger au XIII siècle 1788-1970, Présentation et notes par Abderaa bmane rebabi, Edition grand Alger livres, Alger, 2006,pp154-155.

[28] جمال، قنان، قضايا ...، المرجع السابق، ص53.

[29] جمال، قنان، معاهدات...، المرجع السابق، ص260.

[30] علي، تابليت، المرجع السابق، ص90.

[31] المرجع السابق، ص260.

[32] جمال، قنان، قضايا...، المرجع السابق، ص56-57.

[33] محمد، بن جبور،المرجع السابق، ص115.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[34] علي، تابليت، المرجع السابق، ص300.

[35] جمال، قنان، قضايا...، المرجع السابق، ص90.

[36] Esqure, (G), Le commencement d'un empire 1830, Ed la rose, Paris, 1929, pp22-23.

[37] فذكر حمدان أن قنصل السويد كان يسكن دار للاستجمام وكان ذلك المسكن مجهز بأفخر الأثاث وأواني الفضة وغيرها واستعملها الجنرال بورمون للهجوم على حصن الإمبراطور. (للمزيد أنظر: حمدان، بن عثمان خوجة، المرآة (تعريب وتقديم: محمد العربي الزبيري)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص208).

[38] محمد، زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية (1791-1830)، رسالة دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 1975-1976، ص ص10-11.

[39] عرف عبد الرحمان ابن زيدان القنصل بأنه " موظف تعينه الدول في البلاد الأجنبية...، ولاسيما في الثغور لحماية رعايا دولته والعابرين...وينطق به المغاربة قونصو ويكتب أحيانا قنص." (للمزيد راجع: عبد المجيد، قدوري، المغرب وأوربا ما بين القرنين 15 و18م، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص306.)

[40] كلمة سفير في الاصطلاح العربي القديم تعني الرسول، المصطلح بين القوم وجمعها سفراء ويقال سفير بينهم يسفر سفرا وسفارة السفراء نوعان: سفير فوق العادة وسفراء عاديون هم الذين تكون إقامتهم في البلدان التي يعينون فيها لمدة طويلة، وأما الصنف الأول فإنه يكون مكلفا بمهمة مهددة. (للمزيد راجع: عبد المجيد، قدوري، المرجع السابق، ص307.)

[41] عبد المجيد، قدوري، المرجع السابق، ص309-310.

[42] علي، تابليت، المرجع السابق، ص87-88.

[43] لا نملك معلومات عن الكيفية التي تمت تسوية هذه المسألة بين الجزائر وفرنسا وإنما يكفي أن نشير أن القنصل الفرنسي بالجزائر لم يمارس في هذه البلاد تلك الصلاحيات وذلك الامتياز الواسع الذي منحتها إياه المعاهدات التي أبرمتها فرنسا مع الدولة العثمانية.

[44] جمال، قنان، معاهدات...، المرجع السابق، ص40.

[45] وليام، شالر، مذكرات وليام شالير قنصل أمريكا في الجزائر 1516-1824، (تقديم وتعليق: إسماعيل العربي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص64.

[46] محمد، زروال، المرجع السابق، ص7.

[47] وليم، سبنسر، المرجع السابق، ص131.

[48] Dan, (P), Op.cit, p93.

[49] Nettement, (M.A), Histoire de la conquête d'Alger, nouvelle édition librairie, Alger, 1867, p81.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

[50] ستطرح الدبلوماسية الجزائرية في مراسلاتهم مع السلطات الفرنسية، قضية عدم وضوح وظيفة القنصل وتداخلها مع النشاط التجاري مبرزة خطورة ذلك على العلاقات بين دولة وأخرى وملحة على ضرورة الفصل بين النشاط الذي يتعلق بخدمة الدولة وذلك الذي يخص المصالح الخصوصية عن طريق تعيين قناصل تكون مهمتهم الوحيدة القيام بخدمة دولتهم في البلدان التي يمثلونها. (أنظر: جمال، قنان، معاهدات...، المرجع السابق، ص50.)

[51] أحمد، بحري، الحياة الاجتماعية بالجزائر في عهد الدايات 1671-1830، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2001-2002، ص22.

[52] من الدول الأوربية التي يتغير قنصلها كل سنتين اليونان والسويد والدانمارك وهولندا. (للمزيد أنظر:
- De Paradis, (v), Op.cit, p198

[53] وليام، شالر، المصدر السابق، ص65.

[54] Plantet, (E), Les consuls de France à Alger avant le conquête 1579-1830, Hachette, Paris, 1930, p55.

[55] .مثال شاو- فانتير دي بارادي- دي بواتانفيل- شالير.

[56] . مجموعة الوثائق العثمانية.

[57] .سميت كذلك بالعوائد لما تعود الأجانب على دفعها للايالة.

[58] Emerit,Marcel, « Le voyage de la condamine à Alger », in R.A, N°98, 1954, p378.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في منطقة تلمسان خلال العهد الزياني(633-962هـ/1235-1554م)

د. قويسم محمد
جامعة سكيكدة
البريد الإلكتروني: Kouicem_moh1@yhoo.com

تاريخ الاستلام: 2016/11/15 تاريخ القبول: 2017/02/20

الملخص :

بدأ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في عهد الدولة الفاطمية مند عهد الخليفة المعز لدين الله بمصر الذي سن للمجتمع المصري الاحتفال بستة مواليد منها ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الثاني عشر من ربيع الأول. ثم بعد ذلك انتشر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في مكة المكرمة خلال القرن السادس الهجري الموافق للثاني عشر الميلادي، وفي أربيل من أعمال الموصل زمن الدولة الأيوبية تحت حكم الملك مظفر الدين صهر صلاح الدين الأيوبي، وفي بلاد المغرب الإسلامي و الأندلس عند بني العزفي أصحاب مدينة سبتة حيث دعى أبو العباس أحمد بن القاضي محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي للاحتفال بالمولد النبوي الشريف في مدينة سبتة وألف كتابا عنوانه الدر المنظم في مولد النبي المعظم. وفي العصر المريني زاد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عناية واهتماما في عهد يعقوب بن عبد الحق لكن الاحتفال ظل محصورا في مدينة فاس فقط،ث م انتشر الاحتفال في جميع أقاليم المغرب الأقصى في عهد السلطان يوسف بن يعقوب وأصدر مرسوما سنة جعل المولد النبوي عيدا رسميا.

الكلمات الدالة:

الاحتفال– المولد النبوي– الدولة الفاطمية–المغرب الإسلامي– المرينيون– الحفصيون– الزيانيون

العنوان بالإنجليزية:

Celebrating the Prophet's birth in TlemcenDuring the Zayani era

Abstract:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

The celebration of the Prophet's birth began in the era of the Fatimid state from the time of the caliph al-Mu'izz Ladin Allah in Egypt, which gave the Egyptian society the celebration of six births, including the birth of the Prophet Muhammad peace be upon him on the twelfth of spring. And then spread the celebration of the Prophet's birth in Mecca during the sixth century AH, corresponding to the twelfth century, and in Erbil of the work of Mosul during the Ayubid state under the rule of King Muzaffaruddin smear of Saladin, and in the Islamic Maghreb and Andalusia Beni Azafi owners of the city of Ceuta Where he called Abu al-Abbas Ahmad bin al-Qadi Mohammed bin Ahmed al-Lakhmi Al-Sabti to celebrate the birth of the Prophet in the city of Ceuta and wrote a book entitled the dir organized in the birth of the Prophet. In the era of Marini, the celebration of the birth of the Prophet of Islam increased attention and interest in the reign of Jacob bin Abdul Haqlkn the celebration was confined to the city of Fez only, and then spread the celebration in all regions of the Maghreb during the reign of Sultan Yusuf bin Jacob and issued a decree year made the birth of the Prophet officially.

Key words:

Celebration - the birth of the Prophet - the Fatimid - Islamic Maghreb - Marinites - Hafcion - Zeyani

بدأ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في عهد الدولة الفاطمية مند عهد الخليفة المعز لدين الله بمصر(341ـ365هـ/953ـ975م) الذي سن للمجتمع المصري الاحتفال بستة مواليد منها ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الثاني عشر من ربيع الأول.[1] ثم بعد ذلك انتشر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في مكة المكرمة خلال القرن السادس الهجري الموافق للثاني عشر الميلادي، وفي أربيل من أعمال الموصل زمن الدولة الأيوبية تحت حكم الملك مظفر الدين (ت630هـ/1232م) صهر صلاح الدين الأيوبي،وفي بلاد المغرب الإسلامي و الأندلس عند بني العزفي أصحاب مدينة سبتة حيث دعى أبو العباس أحمد بن القاضي محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي(ت633هـ/1235م) للاحتفال بالمولد النبوي الشريف في مدينة سبتة وألف كتابا عنوانه الدر المنظم في مولد النبي المعظم.[2] وفي العصر المريني زاد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عناية واهتماما في عهد يعقوب بن عبد الحق(656ـ685هـ/1258ـ1286م) لكن الاحتفال ظل محصورا في مدينة فاس فقط،ثم انتشر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الاحتفال في جميع أقاليم المغرب الأقصى في عهد السلطان يوسف بن يعقوب(685ـ706هـ/1286ـ1308م) وأصدر مرسوما سنة (691هـ/1292م) جعل المولد النبوي عيدا رسميا في الثاني عشر من شهر ربيع الأول بإشارة من الفقيه أبي طالب بن عبد الله بن القاسم العزفي،وفي عهد أبي حسن لمريني(731ـ749هـ/1331ـ1348م) صارت الدولة تتحمل نفقات الاحتفال بهذه الليلة ضمن المراسيم الرسمية، وزاد الاحتفال باليوم السابع منه،وزاد ابوعنان (749ـ759هـ/1348ـ1358م) الاحتفال بهذه المناسبة جمالا وأبهة.[3]

أما الحفصيون فقد أقتدوا بهذا الاحتفال في عهد السلطان أبي يحي بن أبي بكر(718ـ747هـ/1318ـ1347م)،وتحول الاحتفال رسميا في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز(796ـ837هـ/1394ـ1433م) في أول المائة الثامنة،وتحول إلى عادة عند عامة الناس يستعدون لها في كل سنة. والسؤال لماذا تأخر المجتمع التلمساني عامة والندرومي خاصة عن غيره من المجتمعات في المغرب الإسلامي في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف؟،وكيف كانت مظاهر الاحتفال به؟ وكيف هي اليوم؟وما الغرض من الاحتفال بمولد محمد صلى الله عليه وسلم؟

1ـ بداية الاحتفال بالمولد النبوي في تلمسان وندرومة:

يحتفل أهل مدينة ندرومة وتلمسان خاصة والمسلمين عامة بمولد محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل كل سنة في 12 من شهر ربيع الأول، مند عهد أبي حمو موسى الثاني الزياني الذي عاش في الأندلس ومدينتي فاس وتونس وشاهد الاحتفالات والرسمية ، وذلك مند توليه العرش سنة(760 هـ/1359م)،وهذا تأثرا بغزوات بني مرين وبني حفص لمدينة تلمسان،خاصة السلطان المريني يوسف بن يعقوب الذي أصدر مرسوما حكوميا سنة(691هـ/1292م) يتضمن تعميم هذه الظاهرة في المناطق التي تخضع إلى نفوذه منها منطقة تلمسان حيث حاصر مدينة تلمسان تسع سنوات وبنى مدينة المنصورة قربها على بعد أربع كيلومترات.[5] كما كان أبو الحسن المريني يحتفل بالمولد النبوي سفرا وحضر ولا يشغله عن إقامته شاغل لدرجة أنه كان يعاقب كل من يتخلف عن الاحتفال في أي مكان كان به،وأثناء ضمه لتلمسان طيلة اثنتي عشرة سنة كان يحتفل بالمولد (738ـ749هـ/1338ـ1348م)،وبالتالي يكون أهل تلمسان قد عرفوا هذه الذكرى لكن لم تكن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

منتظمة لان سلاطين بني زيان لم يتولوها،ولمعارضة فقهاء المالكية في تلمسان لهذا الاحتفال واعتبروه بدعة أو على الأقل عارضوا طريقة الاحتفال.[6]

اكتسى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بمدينة تلمسان في عهد أبي حمو موسى الثاني، حلة جميلة وطابعا شعبيا ورسميا مند توليه العرش الزياني سنة 760هـ/1359م لأنه عاش في مدينة فاس وتونس وفي الأندلس وشاهد الاحتفالات الشعبية والرسمية بها، وكان لأبي حمو شعر كثير في المولديات أي حول المولد النبوي.[7]

2ـ الغرض من الاحتفال بالمولد النبوي:

كان وراء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عدة أسباب هي:

أـ مقاومة تقليد الاحتفال بميلاد أهل الكتاب: بعد هزيمة المسلمين في معركة حصن العقاب وتوال سقوط مدن الأندلس في يد النصارى،ضعف المسلمون وأضحوا مغلوبين يقلدون الغالب من النصارى في كل شيء حتى في الاحتفال بعيد المسيح يوم 25ديسمبر كل عام ،وعيد النبي يحي في عنصرة (يوحنا المعمدان)، فخيف على المسلمين من نسيان وترك كل مايتعلق بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ماجعل العزفي أبو القاسم بن أبي العباس يدعو للاحتفال بالمولد النبوي الشريف.[8]

ب ـ التظاهر السياسي بالتقوى: سواء من خلال الحكام المرينيين والحفصيين الذين قلدوهم أو الفاطميين من قبلهم، أو كان من طرف أشراف حقيقيون أو مزيفون ، فالأمر له علاقة بالنسب وعلاقته بالحكم أو التقرب من الحكام.[9] والغرض إذا من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ليس التشبه بالمسيحيين وإنما التذكير بسيرة محمد صلى الله عليه و وسلم لعل الذكرى تنفع المؤمنين، ووحدة المسلمين التي هي واجب بنص القرآن[10] ،وما حقق الواجب كان واجب، رغم تشدد بعض الفقهاء المالكية في إنكار الاحتفال به ووصفه بالبدعة، والصحيح الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بدعة حسنة مثل صلاة التراويح وغيرها، من أنكره فلينكر صلاة التراويح مثلا،وبعض الفقهاء اعترض على الاحتفال والبعض الآخر مثل البرزلي على طريقة الاحتفال وهنا جوهر الحقيقة.[11]

3ـ مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وتميز الاحتفال في عهد أبي حمو موسى الثاني(723-791هـ/1323-1389م) بإيقاد الشموع الملونة في المنازل والمساجد والزوايا،ويتلقى طلاب المدارس والمنح والهبات التي يقدمون جزءا منها إلى أساتذتهم في هذا اليوم المبارك،ويكون توزيع ماد الورد وماء الزهر ورشه بالرشات وإقامة المباخر بالعنبر، وتوزع فيه الهدايا المتنوعة ، وتسدد الديون عن المسجونين والأموات،ولباس أحسن الثياب، وتقديم أحسن الأطعمة خاصة للفقراء، ثم يأتي الإنشاد والتباري في مدح الرسول، ، والمتنوعة ، وهذا لتعميم الفرح عند كل الناس بهذه المناسبة فالرسول رحمة للعالمين[12]

فعندما انتصر أبي حمو موسى الثاني على بني مرين وأعاد إحياء دولة بني زيان بالمغرب الأوسط صادف حلول ذكرى المولد الشريف،فلم يتوان في انتهاز الفرصة للاحتفال به، وأقام بهذه المناسبة حفلا كبيرا، وجعل هذا اليوم من الأعياد الرسمية للدولة، وخصه بعناية فائقة دون غيرها، وفي ذلك يقول التنسي« **وكان يقوم بحق ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم،ويحتفل بها بما هو فوق سائر المراسيم**».[13]

وكان السلطان الزياني أبو حمو الثاني يدعو كافة الناس خاصتهم وعامتهم بحضور هذا الاحتفال، وينقل يحي بن خلدون جانبا من احتفال السلطان في مجلسه في ليلة المولد بقوله«**فأقام لها بمشور داره العليا عرسا حافلة، احتشدت لها الأمم وحشر بها الأشراف والسوقة...** ».[14]

ووضع لها إمكانات مادية ومعنوية هامة نمارق مصفوفة و زرابي مبثوثة، وبسط موشاة ووسائد مغشاة بالذهب ومشامع كالاسطوانات، وكان السلطان يتصدر المجلس، جالسا على سريره،الذي يسر الناظرين في أبهة وإجلال، ثم تليه أعيان المدينة من مختلف الطبقات الاجتماعية،من أمراء ووزراء ووجهاء وعلماء وشعراء وموظفين ونقباء الحرف المختلفة التي تعج بها تلمسان و ندرومة وغيرهما،ومن عامة الناس أجلسهم على مقاعد حسب مراتبهم الاجتماعية،وخصص لهم ولدانا تطوف عليهم، يرتدون لباسا من حرير ملون، ويحملون بأيديهم مباخر ومرشات يخرج منها دخان العنبر وماء الورد المجلوب من نصيبين[15]. وبعد تقديم أنواع الأطعمة للحاضرين،يأتي دور الإنشاد حيث يعم الهدوء والوقار، فيتقدم المنشد بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويستهل ذلك بقصيدة من نظم السلطان أبي حمو موسى الثاني، في مدح مولد النبي المصطفى[16]. ثم يأتي دور إنشاد القصائد والتباري بها في مجلس السلطان

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بهذه المناسبة الكريمة، نظمها شعراء تلمسان وأدباؤها،ويستمر قراءة القصائد إلى آخر الليل، حيث يؤتى بأصناف الأكل إلى وقت صلاة الصبح، فيؤدي السلطان الصلاة بالمجلس ثم يقوم الحاضرون فينصرفون إلى منازلهم حيث ذكر يحي بن خلدون« وجيء في آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ الحافل الملامح والمشام المتعدد الخوانات،مما أرحبت ساحته،وناء بالقصبة أولى القوة محملة ثم الفواكه فالحلواء،وطعم الناس بين يدي الخليفة، وشكروا الله سبحانه وتعالى ولم يبرح مكانه حتى صلى صلاة الصبح في الجماعة ثم غدا إلى داره السعيدة[17].

وكان استخدام المنجانة[18] التي صنعها أبو الحسن المعروف بإبن الفحام لقياس الوقت ليلة المولد والتي أخترعها بمناسبة الاحتفال بالمولد الشريف، وقد خلد المؤرخ يحي بن خلدون هذه الساعة بقصيدة بين يدي السلطان أبو حمو موسى الثاني، وصارت ليلة المولد فرصة لقرض الشعر والتباري به ، وهي مظاهر لا تختلف عن الاحتفال في مدينة تلمسان أو بقية المدن الجزائرية،وبهذه الطريقة كان السلطان أبو حمو الثاني يحتفل بذكرى المولد النبوي الشريف وصارت عادة مستحبة لذى سلاطين بني زيان الذين جاؤوا من بعده ولدى المجتمع التلمساني الذي صار يبالغ في الاحتفال به.[19]

وقد أوصى أبو حمو الثاني ابنه أبا تاشفين الثاني بإتباع أثاره في هذه المناسبة بقوله «**يابني عليك بإقامة شعائر الله عزوجل، وابتهل إليه في مواسم الخير وتوسل واتبع أثارنا في القيام بليلة مولد النبي عليه السلام و استعد لها بما تستطع من الإنفاق العام،واجعله سنة مؤكدة في كل عام تواسي في تلك الليلة الفقراء وتعطي الشعراء، وإن ركبت فيك الغريزة الشعرية وتحليت بالحلية الأدبية زادت جمالا إلى جمالك،كمالا إلى كمالك فانظم المولديات**».[20] فعمل أبو تاشفين بنصائح والده،ونسج هذه العادة على نسج أبيه،وزاد عليه احتفال آخر بالليلة سابع المولد وفي ذلك قال التنسي« **ولما كانت ليلة سابع المولد المذكور احتفل لها أعلى الله مقامه بمثل احتفاله لليلة المولد أو أعظم**»[21] ومازال أهل تلمسان وندرومة يحتفلون بيوم المولد ويوم السابع منه إلى يومنا هذا.

وظل سلاطين بني زيان يرعون هذا الاحتفال، منهم أبو زيان محمد بن أبي حمو(796ـ801هـ/1394ـ1399م) حيث كان يحتفل بالمولد احتفال أسلافه إلى الصباح ترفع إليه

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القصائد والمدائح بهذه لمناسبة لذلك تطورت المدائح النبوية بشكل كبير،وفي الصباح يقوم النساء بالزغاريد ثم زيارة قبر أبي مدين بالعباد.[22]

يعد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من الأعياد التي يحتفل بها المسلمون سواء مند العهد الفاطمي أو غيره العزفيين حكام سبتة أو المرينيين ثم الحفصيين، وأصبح رمز التدين، وفي منطقة تلمسان بدأ الاحتفال بالمولد مند عهد أبو حمو موسى الثاني سنة760هـ/1359م من أجل تذكير الناس بمناقب النبي محمد صلى الله عليه وسلم،وجمع وتوحيد المسلمين على محبة رسولهم فما حقق الواجب فهو واجب، ورغم اعتراض بعض الفقهاء على الاحتفال لكونه بدعة وتقليد للنصارى في الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، والبعض الآخر أعترض على طريقة الاحتفال الإسراف والشموع ...

وسواء على المستوى الرسمي أو المستوى الشعبي مناسبة المولد النبوي كل سنة في يوم الثاني عشر ربيع الأول مناسبة للفرح والتوسعة على الناس بالمأكولات والحلويات، التضامن مع الفقراء والمحتاجين ، فهو يوم رحمة كما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.

الهوامش :

---

[1] .المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريرزية،ج2، طبعة جديدة بالاوفست بولاق القاهرة 2002،ص490 ،عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني،(دراسة سياسية،عمرانية،اجتماعية،ثقافية)،ج1، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ جامعة الجزائر1995، ،ص267.

[2] .لسان الدين بن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة،ج3، تحقيق ،تقديم محمد عبد الله عنان ،دار المعارف القاهرة (دت)، ص11،عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم،دار البعث قسنطينة1986،ص214وما بعدها،عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص268، عبد الهادي التازي:لماذا أعيد المولد في المغرب الإسلامي،والأسباب التي كانت وراءه،مجلة دعوة الحق،العدد277،جمادي الأول 1410هـ ديجنبر1989،ص48.

[3] . عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص268ـ269، روبار برنشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي،ج2، نقله إلى العربية حمادي الساحلي،ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان1988،ص318ـ319

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[4] . ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تونس 1967، ص290، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص268-269، روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص318-319

[5] بن خلدون يحي: بغية الرواد، ج1، تحقي عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر 1980، ص208-209، ابن مرزوق الخطيب: المسند، الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ،تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1981، ص153-154، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص270، 276، عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، المطبعة العربية، الجزائر 1954، ص81-82، روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص318-319 ، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275.

[6] . بن خلدون يحي: المصدر السابق، ج1، ص208-209، ابن مرزوق الخطيب: المصدر السابق، ص153-154، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص270، 276، عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج2، ص81-82، روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص318-319 ، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275.

[7] .مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، السفر الثاني، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائر2011، ص47 وما بعدها، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص276، روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص318-319، يحي بوعزيز: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران 2003، ص58-59، عبد الحميد حاجيات: أبو موسى الزياني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1982، ص220-226، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275، عبد الحميد حاجيات: إحياء الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب1984، ص399-410، الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية1995، ص105-112.

[8] . عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص273-275، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص224 وما بعدها ، عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص50،

[9] . روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص318-319.

[10] . ﴿وَأَنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة المؤمنون آية 53]

مصداقا لقوله تعالى﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩١﴾﴾ [سورة الأنبياء آية 91]،

[11] . روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص318-319، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص276

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[12] . ابن الحاج النميري: فيض العباب وفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، إعداد ودراسة محمد بن شقرون الرباط 1990،ص86، مجهول: المصدر السابق، السفر الثاني،ص47–56، عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص276، محمد الطمار: تلمسان عبر العصور،دورها في سياسة وحضارة الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر2007،ص156ـ157، عبد الله حمادي:المرجع السابق،ص249ـ275.

[13] . التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل الحافظ: نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ،ص162، عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص276،محمد الطمار المرجع السابق،ص156ـ157. عبد الله حمادي:المرجع السابق،ص249ـ275.

[14] . بغية الرواد،ج2، تحقيق بوزيان الدراجي ص40، 49، عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص276، محمد الطمار المرجع السابق،ص156ـ157. عبد الله حمادي:المرجع السابق،ص249ـ275.

[15] .بن خلدون يحي:بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد وما حازه أمير المسلمين مولانا أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد،ج2، تقديم ،تحقيق ،تعليق بوزيان الدراجي ،دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع الجزائر2007، ،ص40، المقري :المصدر السابق،ج9،ص215، عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص276، محمد الطمار: المرجع السابق،ص156ـ157. عبد الله حمادي:المرجع السابق،ص249ـ275.

[16] . المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب،ج9، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،القاهرة 1949،ص218، التنسي:المصدر السابق،164، مجهول: المصدر السابق، السفر الثاني،ص47–56، عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص277، محمد الطمار المرجع السابق،ص156ـ157، عبد الله حمادي:المرجع السابق،ص249ـ275.

[17] . التنسي: المصدر السابق ،ص163ـ164، بن خلدون يحي:المصدر السابق،ج2،ص49، مجهول: المصدر السابق، السفر الثاني،ص47–56، عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ج1،ص277، محمد الطمار المرجع السابق،ص157ـ160 ،عبد الله حمادي:المرجع السابق،ص249ـ275.

[18] .المنجانة :أو المنكانة أو المنقانة ومعناها الساعة،ولازال أهل تلمسان يسمون ساعة الحائط بكلمة ملكانة وقدم لها يحي بن خلدون وصفا دقيقا بقوله« أما المنجانة،ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه وبخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجدر الأيكة صعدا، وبصدرها أبواب مجوفة، عدد ساعات الليل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزمانية...ينظر التنسي: المصدر السابق، ص162-163، ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج2، ص40-41، محمد الطمار المرجع السابق، ص157-160، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275.

[19] التنسي: المصدر السابق ، ص162-163، بن خلدون يحي: بغية الرواد، ج2، ص40-41، المقري: نفح الطيب، ج9، ص216-217، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص278-279، عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الثاني...، ص180، محمد الطمار: المرجع السابق، ص157-160، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275.

[20] التنسي: المصدر السابق ، ص186، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص278-279، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275.

[21] التنسي: المصدر السابق ، ص196، عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص278-279، عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275.

[22] عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص249-275.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قانون كريميو 24 أكتوبر 1870م أو تجنيس اليهود: الاختيارات الصعبة في ظل الهيمنة الاستعمارية.

د.ة. شيخ فطيمة
باحثة جامعة سيدي بلعباس

تاريخ الاستلام: 2017/02/10 تاريخ القبول: 2017/03/05

الملخص:

عرف التواجد اليهودي في الجزائر منذ قرون كما بينته الدراسات والكتب، وهو ما يثبت وجودهم كسكان أصليين في شمال إفريقيا عامة و(الجزائر) خاصة، غير أنه مع مجيء الإسلام حوّل هذه الفئة إلى صفة "أهل الذمة" كما أقرها الإسلام وفرضت عليهم ضريبة "الجزية" التي كانوا يدفعون قيمتها حسب أحوالهم الاجتماعية، غير أن هذا تغير مع الاحتلال الفرنسي (للجزائر) 1830م الذي كان مرحلة جديدة لسكان (الجزائر)، أنهت الحكم العثماني، وأقامت نظام استعماري امتداد للسلطة الفرنسية (بباريس) كانت له سياسية واضحة اتجاه الأقليات (بالجزائر)، وأهمها اليهود الجزائريين.

تحاول هذه الدراسة تبيان ملامح السياسة الفرنسية تجاه يهود الجزائر من خلال:

- انعكاسات السياسة الفرنسية اتجاه اليهود في الجزائر؟
- موقف اليهود من الاحتلال الفرنسي للجزائر؟

الكلمات الدالة:

يهود الجزائر ، الاحتلال الفرنسي، تجنيس اليهود، مرسوم كريميو.

العنوان بالإنجليزية:

The Cremio Law of October 24, 1870 or the Naturalization of the Jews: The Difficult Choices**.**

Abstract:

The Jewish presence in Algeria has been known for centuries, as evidenced by studies and books, which proves their existence as indigenous people in North

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Africa in general and Algeria in particular. However, with Islam coming to this category, Which was a new stage for the population of Algeria, ended the Ottoman rule and established a colonial regime extending to the French authority (Paris) which had a clear political orientation towards the minorities (in Algeria)), The most important of which are Algerian Jews.

This study attempts to demonstrate the characteristics of French policy towards the Jews of Algeria through:- Reflections of French policy towards the Jews in Algeria?- The position of the Jews from the French occupation of Algeria?

Key words:

The Jews of Algeria, the French occupation, the naturalization of the Jews, the decree of Cremio

.

عرف التواجد اليهودي في الجزائر منذ قرون كما بينته الدراسات والكتب، وهو ما يثبت وجودهم كسكان أصليين في شمال إفريقيا عامة و(الجزائر) خاصة، غير أنه مع مجيء الإسلام حوّل هذه الفئة إلى صفة "أهل الذمة" كما أقرها الإسلام وفرضت عليهم ضريبة "الجزية" التي كانوا يدفعون قيمتها حسب أحوالهم الاجتماعية، غير أن هذا تغير مع الاحتلال الفرنسي (للجزائر) 1830م الذي كان مرحلة جديدة لسكان (الجزائر)، أنهت الحكم العثماني، وأقامت نظام استعماري امتداد للسلطة الفرنسية (بباريس) كانت له سياسية واضحة اتجاه الأقليات (بالجزائر)، وأهمها اليهود الجزائريين. لقد اختلف المؤرخون حول تحديد موقف اليهود من الاستعمار الفرنسي (للجزائر) ومن ضمن ما ورد ذكره: بفايفر سيمون" يقول: "كان يعتدي اليهود على المسلمين متظاهرين أمام الفرنسيين بالشجاعة فاتسمت تصرفاتهم بالجرأة، والوقاحة وغالبا ما طال الاعتداء الأطفال "[1].

تحاول هذه الدراسة تبيان ملامح السياسة الفرنسية تجاه يهود الجزائر من خلال:

- انعكاسات السياسة الفرنسية اتجاه اليهود في الجزائر؟
- موقف اليهود من الاحتلال الفرنسي للجزائر؟

ذكر "كلود مارتن" (Claude martin) يصف موقف اليهود من الاحتلال بأنه: "...في يوم 29 جوان 1830م التقت طليعة الجيش الفرنسي باليهود الأوائل على منحدر جبل (بوزريعة) الذين فروا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بمجرد رؤيتها، فأدى ذلك إلى الاعتقاد بأنهم قناصة الأعداء، وسيقومون بإطلاق النار عليهم، فيقول شاهد عيان "كانوا يقبلون أقدامنا، وهندامنا طلبا من الرحمة، ثم تظاهروا بصخب تعبيرا عن اعترافهم...ليلتحق بهم بكري ودوران ويعرضوا خدماتهم على القائد العام "[2] ،وأصبح بكري[3] أقرب مستشاري القائد العام، وحصل على امتيازات كبيرة منه له ولطائفته، كما اشتغل اليهود في الجوسسة، والتقاط الأخبار عن الأهالي المسلمين لصالح المحتلين الفرنسيين [4].

لتكون بذلك الخطوة الأولى نحو حصولهم على امتيازات سياسية، دينية واقتصادية كانت نقطة التحول فيها إصدار مرسوم يحول فيه يهود (الجزائر) إلى رعايا فرنسيين بشكل عام وهو مرسوم "كريميو" الصادر في 24 أكتوبر 1870م، وقد صدر بعد مجموعة من الامتيازات مهدت الطريق أمام إصداره أهمها:

- 09 نوفمبر 1845م تكوين مجلس يهودي مركزي في مدينة (الجزائر) ومجلسان آخران في مدينتي (وهران) و(قسنطينة) بإشراف حاخامات[5] (فرنسا). أصدرت حكومة الدفاع الوطني في مدينة تور الفرنسية قرار التجنيس، و مما جاء في نصه: " إن جميع الإسرائيليين الأهالي في عمالات الجزائر قد أصبحوا مواطنين فرنسيين" . وكان وراء المرسوم الفرنسي القاضي بتجنيس اليهود وزير العدل الفرنسي ذي الأصل اليهودي إسحاق كريميو() (1796-1880) ، الذي قام بعدة إصلاحات عندما تولى حقيبة العدل أهمها:
- – إلغاء نظام الرق في المستعمرات الفرنسية.
- – إلغاء نظام عقوبة الإعدام في القضايا السياسية
- شمل القرار خمسة و ثلاثين ألف يهودي في الجزائر و الذي منح الجنسية تلقائيا.[6].
- تعيين الحاخامات كان يتم بعد حصولهم على الجنسية الفرنسية فقط في حين يرفض تعيينه في مهامه إن لم يحصل عليها، خاصة بالنسبة لليهود القادمين من (المغرب) و(تونس)[07].
- إصدار مرسوم 1848م وهو عبارة عن إجراءات سنها الملك "لويس فليب"[08] يخضع بموجبها يهود الجزائر لنفس التنظيمات التي كانت تنظم اليهود بفرنسا ،وإنشاء مجمع ديني ليهود

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(الجزائر) يسهل تطبيق هذه الإجراءات، يتفرع إلى ثلاث في كل من (قسنطينة) و(الجزائر) و(وهران) مع إقرار إجبارية اللغة الفرنسية في المدارس الدينية الخاصة باليهود [09].

- إصدار مرسوم 1867/17/14م الصادر عن مجلس الشيوخ الفرنسي ،وهو مشروع قانون ينص على إمكانية إدماج يهود (الجزائر) في المجموعة الفرنسية [10]، لتكون آخر خطوات التجنيس الشمال والإدماج القانوني والرسمي عن طريق مشروع حكومة "أوليفي" e.olivier [11] في مارس 1870م غير أنه فشل نتيجة التحفظات التي أبداها اليهود ومعارضتهم لتردد السلطة الفرنسية على إصدار قانون غير قابل للنقض[12].

قام أعضاء حكومة الدفاع الفرنسي المشكلة على أنقاض إمبراطورية "نابليون الثالث"[13] بإصدار مرسوم 24 أكتوبر 1870م ،وهو قانون صدر باسم "أدولف كريميو"[14] ضم قرار تجنيس اليهود في الجزائر بشكل جماعي دون استشارتهم وإدخال المحلفين في القضاء وهو قرار كان وليد جهود كثيرة ومراحل تحضير مهد لها "أدولف" نفسه ،وبحصوله على امتيازات مالية خاصة مفتاح البنوك لتكون القروض مقابل قرار التجنيس واستعمل الصحافة اللبرالية وضبط النواب عن طريق الرأي العام، بحملة الإبقاء على القرار أيضا هذان هما سلاح المال والإعلام[15]، الذين وظفهما "أدولف" لتجسيد تطلعاته وتحقيق أهدافه.

ومن ضمن الأحكام الني نص عليها القرار ما يلي:

أ–إقامة نظام مدني في (الجزائر) يهدف إلى إلحاق هذا البلد العربي الأمازيغي الأفريقي بفرنسا، بالقوة العسكرية وجعله جزء لا يتجزأ منها رغم رفض سكانها الأصليين لهذا الإجراء.

ب–تعيين حاكم عام مدني (للجزائر) تابع لوزارة الداخلية الفرنسية يعوض الحاكم العام الفرنسي (للجزائر) الذي كان تابعا لوزارة الحربية الفرنسية.

ج–منح الجنسية الفرنسية لليهود المقيمين (بالجزائر) بصفة جماعية دون التخلي عن عقيدتهم الدينية [16].

المواقف الصادرة عن إعلان مرسوم التجنيس:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كان قرار التجنيس الجماعي لليهود نقطة تحول لكل سكان (الجزائر) و(فرنسا) لما حملة من تغيير للأحداث، والقوانين والصفات مما تولد تضارب في الآراء والمواقف اتجاهه على كافة المستويات واختلاف المواقف من قرار التجنيس كان باختلاف الفئات التي مسها من بعيد أو من قريب ويمكن حصرها كالتالي:

1-موقف اليهود من إعلان مرسوم "كريميو"

فرح اليهود المساندون لمجهودات يهود (فرنسا) بالقانون يضاف لهم أشراف وأغنياء (الجزائر) من اليهود المنفتحين على النظام الاستعماري، غير أن النسبة الأكبر من اليهود الجزائريين كانت تنتظر، وتترقب التطورات، ويرجع البعض هذا إلى أن أغلبهم كانوا بعيدين عن الأحداث والتطورات السياسية منغلقين في شؤون الحياة اليومية وضرورة المعيشة والنشاط المهني، كما وجدت عناصر عادت المشروع في قسنطينة، تخوفا من تأثيره على هويتهم ودينهم لأنه كانوا يروه منافيا للشريعة اليهودية، وكان على رأسها "هنري طوبيانا" وهناك من عبر عن رفضه بالرحيل عن (الجزائر) خاصة نحو (تونس) مثل عائلة قج (guedj).

كما ظهرت حركة طالب بإلغائه تزعمها "لامبريخت"[17] صخر لها "كريميو" إمكانياته وأسلحته وأحبطها [18]،و بصدور فتوى من كبار المتدينين اليهود حول شرعيته أدى ذلك إلى إذابة الشكوك حول شرعيته ومصداقيته وجعل هذا المرسوم مطابق للتعاليم التلمودية، ومن ضمن ما جاء حوله ما كانوا سيقولنه لليهودي "اتبع قانون المكلة التي تعيش فيها إذا فرضت عليك".

وأرجعوا الفضل "لكريميو" في ترفيه أوضاع اليهود في العالم عامة و(الجزائر) خاصة، وكتب كبار حاخامات (الجزائر) رسالة تأديبية لنعيه يوم وفاته.

ومن خلال وثائق أرشيف ولاية (تلمسان) وجدنا بأن الكثير من يهود (بالمغرب الأقصى) (تونس) الذين سارعوا لتقديم طلبات الجنسية الفرنسية.

2-موقف المعمرين من إعلان المرسوم:

مثل "مرسوم كريميو" خيبة أمل للمعمرين الفرنسيين الذين كانوا غير مستعدين نفسيا لتقبل التجنيس الجماعي لليهود وبدأت بوادر الاحتجاج والعنف تلوح في الأفق ،وإرسال برقيات احتجاجية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ضده، ومن ضمنها ما كتبه والي مقاطعة (وهران) "شال دي بوزي"[19]، "المرسوم لا يستجيب لإدارة وتطلعات الجزائريين والانفجار الشعبي آتي" [20].

ظهرت حركة مطالبة بإلغاء "مرسوم كريميو" مستعملين حجج عدة وقامت حملة إعلامية نددت بالمرسوم والتصرفات اليهودية السلبية، كما اتبعت بعرائض مطالبة بإلغائه، ومناورات سياسية هدفت إلى تحريك المسلمين وخلق مواجهة بينهم وبين اليهود[21].

ركز المعمرين في رفضهم على الحقوق السياسية خاصة ، وأحقية إلغائها لأنه أمر يمكن أن يؤدي إلى هيمنة اليهود على مصير (فرنسا) [22] ، كما ندد رجال السياسية بالهيمنة اليهودية على الانتخابات إذ كان اليهود يشكلون 15٪ من الهيئة الانتخابية الفرنسية في (وهران) و50٪ من (تلمسان) [23]، لأنه بحصول يهود (الجزائر) على حق المواطنة الفرنسية أصبح لهم الحق في النشاط السياسي حيث أصبح لأصواتهم دور كبير في العديد من الدوائر الانتخابية وهو أمر اعتبره المعمرون فضيحة ولم يتقبلوه ، وخاصة أن الناخبين اليهود كانوا بعيدين عن الثقافة السياسية، وكانت أصواتهم جاهزة للمقايضة بالأموال وحتى البرامج السياسية للمترشحين[24].

أصبح لليهود نفوذ في الاقتصاد وحق الاستيراد والتصدير وهو امر زاد في تعقيد العلاقة بينهم والمعمرين، كما أورد المؤرخ مورينو "**morinaud**" أن "مرسوم كريميو" مليء بالثغرات وأنه استفاد منه حتى اليهود التونسيين والمغاربة لنقص وثائق إثبات الأصلية الجزائرية ليهود (قسنطينة)[25] كما قدم عدة نواب جزائريين يطالبون بإلغاء المرسوم مرددين أنه هو فعل "رجل يهودي" لا فعل وزير فرنسي[26]، كما ظهر موقف "هنري كاروا" من هذا المرسوم بغلاف المعارض على أنه مرسوم مغشوش تضليلي، إمضاءاته مزورة، خال من إمضاء عشرة أعضاء من حكومة الدفاع الوطني كما يجب أن يكون[27]، كما وجد تنظيم أعد تقريراً حمل رقم 530 حول المرسوم بزعامة "لاميرشت" مع "دي فوتو" (de fourtou) حاولوا من خلاله إصدار قانون يلغي مرسوم التجنيس الجماعي اليهود (الجزائر) وهو تقرير قدم في 21 أوت 1871م في سبع بنود نص البند الأول منها على إلغاء "مرسوم كريميو" ،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

والبند الثاني أقر إمكانية اليهود من تقديم طلب خطي في سبيل البقاء تحت تبعية القانون المدني الفرنسي[28].

3- موقف الأهالي الجزائريين من قانون "كريميو":

غداة إعلان "مرسوم كريميو" عم السخط الأهالي في كل مكان في (الجزائر) وأخذوا يرددون: "لم تعد فرنسا شيئا، إذ يحكمها يهودي" ، وآخرون يقولون: "إنها إشارة على أن الله قد أعمى (فرنسا) وقد قرب رحيلهم، وجاء نصر الإسلام فعلى الذين يدركون ذلك أن يستعدوا للحرب المقدسة"[29]، كما صرح "ابن شريف باشا" آغا سلاطة أمام القائد الفرنسي: " كم نحن مجرمون من تجنيس اليهود بالجملة، دون تعريف أو تمييز بين الرجال اليهود الذين تعرفهم مثلي..."، كما نقلت "صحيفة الشمال" عن أحد الزعماء الجزائريين قوله: "إن الجزائريين كلهم على كلمة واحدة، في أنه ليس اليهود هم الذين أصبحوا فرنسيين، لكن (فرنسا) هي التي أصبحتن يهودية"[30].

كما وقعت مواجهات بين المسلمين اليهود مثل أحداث 1871/02/25م في عيد الأضحى حين اعتدى بعض الجنود اليهود على أشخاص مسلمين بمدينة (الجزائر)، وهو أمر تحول إلى مشادات عنيفة بين الطرفين، تحولت إلى انتفاضة كبيرة انتهت بعد تدخل السلطات الاستعمارية فقط،وخلقت موتى وجرحى وحبس حوالي 260مسلم ظهر فيها التحيز الفرنسي لليهود على حساب المسلمين،كما توالت المواجهات في عدة مناسبات من ضمنها أحداث مدينة (مليانة)، وأحداث (مستغانم) 04 مارس 1871م، ثم أحداث في (وهران) و(باتنة) التي كانت الأشد عنفاً[31].

بقي الشعور العام لدى المسلمين محتقراً لليهود لأنهم غيروا دينهم[32]، وقد رد المقراني[33] على إصدار هذا القانون قائلاً: " لعن مثل هذه الدولة يفعل فيها اليهود ما يشاءون"[34]، كما أعلن المقراني: "...لا أطيع أبدا يهودي، وإذا كان جزء من بلادكم وقع تحت يهودي فقد انتهى الأمر، وسأضع عنقي بسرور تحت السيف ليقطع رأسي، أما تحت يهودي فلن يكون ذلك أبداً، وإني أعطيت كلمت شرف للحاكم العام، ولكن لم أعطيها للحاكم الذي خلقه وهو النظام المدني..."[35].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كانت هذه بعض مواقف التي أظهرت رد فعل اليهود والمعمرين وحتى الأهالي الجزائريين من "مرسوم كريميو" 24 أكتوبر 1870م والتي غلب عليها طابع الرفض، دون القبول لأن التجنيس الجماعي لليهود أمر أضر بمصالح العامة (لفرنسا) ،والمعمرين وكانت له انعكاسات وأحداث كان أغلبها مرتبط بالانتخابات البلدية والولائية التي انتهت بصراع ومواجهات بين المعمرين الأوروبيين واليهود خاصة انتخابات سنوات 1884م 1889م، وسنة 1898م حيث انتهت بصراع كبير وظهور حركات معادية لليهود نشطت على مستوى عالي.

رغم الجهود التي بذلتها الأطراف الرافضة "لقانون كريميو" لم تستطع أن تلغيه لأن "أدولف كريميو" صخر لها كل إمكانيته السياسية والمالية ،والإعلامية وأفشلها ليبقى قائما إلى غاية استقلال (الجزائر) سنة 1962م رغم إقرار حكومة "فيشي" إبطاله في الحرب العالمية الثانية وفق قانون 1940/10/11م القاضي بإلغاء حق المواطنة الفرنسية لليهود سواء بصفة جماعية أو فردية [36]، ليعاد العمل بالمرسوم في 14 مارس 1943م وإلغاء جميع القوانين والمراسيم الصادرة من حكومة "فيشي" وأهمها كان بتاريخ 20 أكتوبر 1943م وإعادة سريان مفعول "مرسوم كريميو" [37].

الهوامش:

(1) بفايفر ،سيميون، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر(تعريب دود أبو العيد) ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989م، ص109.

(2) André, chourqui, la Marche vers l'occident , Les Juifs d'Afrique du nord presse universitaire de France, paris, saint germain, 1954, p99

(3) بكري: كان صاحب نفوذ بفرنسا، واسع النطاق في مرسيليا، فتح متجر في مدينة الجزائر سنة 1770م ليشكل بعد ذلك أبناءه جوزيف ، سليمان، ويعقوب ومراد وابنه الأخير داوود شركة.

(4) فوزي ،سعد الله، يهود الجزائر، موعد الرحيل، ج02، دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ط01.

(5) الحاخام: هو لقب أطلق على زعيم ديني كما هو مرادف لكلمة: الرباني في اليهودية، و"الحبر" والراب" و"الحاخام" ترجع إلى الكلمة العبرية "حكيم" و"سيد" أو "معلم" وهو لقب أطلق على زعيم اليهود في البلدان العربية الإسلامية.

(6) لتفاصيل أكثر ينظر: أمينة، عباسي، السياسة الفرنسية إتجاه يهود الجزائر(1830-1870)،مذكرة ماستر، جامعة بسكرة 2014،101 ص

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(7) أرشيف ولاية سعيدة، علبة رقم 667، ملف p03

(8) الملك لويس فليب:ولد سنة 1773م وتوفي 1850م كان على الديانة الرومانية الكاثوليكية ،كان متفتحا في أفكاره الجديدة ،عرض عليه العرش سنة 1830 م واتخذ لقب ملك الفرنسيين ،حكم إلى غاية ثورة 1848مليتنازل عن الحكم وتوفي في منفاه بانجلترا .

(9) سعيدوني، ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربة للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، ط01، بيروت، ص200–373م

(10) Frégien(C), Les Juifs Algériens Leur passé leur présent leur nenir juidique, leur naturatisation in collective, Ed Michel, livre ,Paris, p240

(11) حكومة أولييفي (Emile ollivier) هي الحكومة الأخيرة لعهد الإمبراطورية الثانية، قامت ما بين 1869م–1870م.

(12) Durieu (L), Les Juifs de 1870-1901, Paris, 1902, p19.

(13) نابليون الثالث (1858–1873م) حاكم فرنسا، جمع السلطات بين يديه، وعين نفسه إمبراطور لفرنسا سنة 1852م، بعد أن كان رئيسيا، حكم إلى غاية 1870م.

(14) أدولف كريميو: ولد بمدينة (نيم nime) سنة 1805م وأضاف عليه أبوه ادولف وسحب اسم "إسحاق" ليحتفظ باسم "أدولف"، كان كريميو شخصا ذكيا زاول مهنة الحقوق وعمره 21 سنة، ودافع عن يهود تلك المدينة وأضفت عنه فصاحته وبلاغته شهرة فتحت أمامه آفاق العمل السياسي ،تولى وزارة العدل سنة 1848م في الحكومة المؤقتة، ساند نابليون الثالث ،اشتغل في منصب نائب مدينة (باريس) سنة 1869م ،وفي منصب وزير العدل في حكومة الدفاع الوطني سنة 1870م، تحت إمرة الجنرال "طورتو" إلى غاية فبراير 1871م كان نشيط بالجمعية الإسرائيلية بفرنسا، وأنشأ الاتحاد الإسرائيلي العالمي زار الجزائر أكثر من إثني عشر مرة واستعمل سلاح الأعلام والمال لتحقيق التجنيس الجماعي ليهود الجزائر.

انظر: رابح ،لونيسي، تاريخ الجزائر المعاصر 1830–1900م، ج01، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص83.

(15) شارل أندري، جوليان، تاريخ الجزائر المعاصر، تر: عياش سليمان، ج01، دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص782.

(16) بشير كاشتة الفرجي، مختصر وقائع وأحداث ليلة الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830–1962م)، وزارة المجاهدين للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص77–78.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(17) فوزي، سعد الله، المرجع السابق، ج02، ص37.

(18) أبو القاسم ،سعد الله، الحركة الوطنية (1830-1900) ج01، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، طبعة خاصة، ص240.

(19) شارل دي بوزي، أستاذ فلسفة في ثانوية الجزائر وصحفي قديم في صحيفة الوقت، "temps" كانت له شعبية واسعة في أوساط الأوروبية، وصل بها إلى منصب المحافظ المدني وكسب تعاطف المسلمين بإنقاص عشرة المسلمين من مخالب المرابي اليهود، لتكون بداية العداوة بينه وبين اليهود.

(20) فوزي ،سعد الله، المرجع السابق، ج02، ص41.

(21) صالح، عباد، الجزائريين والمستوطنين 1800-1930م (لا توجد دار النشر)، الجزائر، 1999، ص128.

(22) أبو القاسم ،سعد الله، الحركة الوطنية، ج01، المرجع السابق، ص241.

(23) Charles de Bouzet, Les Israélites Indigènes de L'Algérie pétition a I'assem blée nationale contre le décret du 24 octobre1870, imprimerie, ch, Schiller, paris, 1871, pp03-12.

(24) François, Renadot, histoire des français Algérie, 1830-1962 Et Robert Laffout France, 1979, p213.

(25) Emile, Morinocd, Mésmen, Première Contre le Décret Crémieux, Ed bocannier frère, 1941 , pp192-193

(26) Anonyme, Alger du 28 juin au 05 juillet 1884, d'Après tous les journaux, Imprimerie de l'association ouvrière Alger, 1884, p199.

(27) Pierre, Hebey, Alger 1898, la Grande Vague anti Juive l'édition, paris, 1996, pp47-48.

(28) Cahan (A.B), Nolise Historique sur les Israélite de l'Algérie imprimerie générale d'Emile yrugy, Bordeaux, 1878, p15.

(29) Vignon (Louis), La France en Algérie, éd Hachette et Cie, paris, 1893, p359.

(30) بسام، العسلي، جهاد الشعب الجزائري محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية، دار النفائس للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010ـ ص86.

(31) فوزي سعد الله، المرجع السابقـ ج02، ص39-40.

(32) أبو القاسم ،سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954م، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع، الجزائر، ج06، 1999م، ص399.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(33) محمد المقراني: هو ابن محمد المقراني، أحمد قادة، أحد قادة الثورات الشعبية التي عرفتهاالجزائر، ولد في 1815م وتوفي في 05 مايو 1871م، عين باشا آغا على منطقة (مجانة) (الهضاب العليا) بعد وفاة أبيه، قاد المقاومة بدعم أخيه، ثم انضم إلى الشيخ الحداد وكانت القروض اليهودية من أسباب قيام مقاومته.

(34) بسام ،العسلي، المرجع السابق، ص125.

(35) عمار ،قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، ج02، دار البحث للنشر والتوزيع، الجزائر، 1991م، ص131.

(36) عيسى، شنوف، يهود الجزائر، 200 سنة من الوجود، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص115.

(37) نفسه، ص115.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

واقع المخطوطات الجزائرية دراسة للمخطوطات في الخزائن الخاصة و المكتبات العامة

د. بونقاب مختار
جامعة معسكر
البريد الإلكتروني:mboungab@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2016/12/10 تاريخ القبول: 2017/01/12

الملخص:

إن الاهتمام بالمخطوطات هو إحياء للتراث الثقافي الجزائري ، هذا التراث الفكري الذي يعد مقياس مساهمة كل أمة في الحضارة الإنسانية ، كما يبرز نسبة صمودها في الحفاظ على الذاكرة الجماعية و التاريخية لشعوبها.
نسعى من خلال هذه الورقة إلى إبراز أهمية المخطوطات الجزائرية ، وواقعها في الخزائن الخاصة — المكتبات العائلية — كمراكز غير رسمية ، وفي المكتبات العامة باعتبارها مراكز رسمية ، معتمدين في ذلك على أنموذجين اثنين هما :

1- واقع المخطوطات في الخزائن أو المكتبات الخاصة والتي غالبا ما تنعدم فيها الفهرسة، و تقل فيها العناية بالمخطوطات ، فكثيرا ما تكون عرضة للتمزيق ، البتر ، أو الإتلاف ... إضافة إلى صعوبة إن لم نقل عدم إمكانية الاطلاع عليها و استفادة الطلبة و الباحثين منها ، وقد ركزنا عملنا على نماذج من منطقة معسكر.

2- واقع المخطوطات في المكتبات العامة أو العمومية أين تكون مفهرسة ، معالجة فنيا و علميا و مصنفة ، مما يتيح الفرصة للاطلاع عليها و بالتالي الاستفادة منها ، زيادة على إمكانية تحقيقها ، وقد ركزنا على المكتبة الوطنية الجزائرية وعرفنا بما تقوم به من مجهودات للحفاظ على المخطوطات و العناية بها بغية التعريف بالتراث الثقافي و الفكري الجزائري .

الكلمات الدالة:

المخطوطات ، المكتبات ، الفهرسة ، التحقيق ، معسكر ، المكتبة الوطنية .

العنوان بالإنجليزية:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

The reality of the Algerian manuscripts is a study of the manuscripts in the safes Private and public libraries .

Abstract:

the conference wille deal with the importance of manuscripts and their reality in Algeria through escitence in public and private libraries .
We will focus on the place and situation of the manuscript through its conservation, and protection , and its nomenclature, and the esctent of its esploitation from researchrism , students , and the puplic at large . on the basis of programmes of officials {El hamma library} and unofficial centers {Mosq s and Zaouia s libraries} .

Key words:
Manuscripts , private libraries , conservation , protection , Elhamma library

تعد المخطوطات جزءا من التراث الثقافي، و التاريخ الحضاري الذي عرفته الحضارة العربية الإسلامية ، فهي أحد حوامل العلم ،و المعرفة ، و أحد معايير ما وصل إليه مجتمع ما من تطور فكري، و مادي ، يسعى أصحابها – من خلالها – لحفظ المعرفة الإنسانية، و نقلها إلى الأجيال القادمة .

إن الحديث عن المخطوطات يعني الحديث عن التاريخ، و الفكر، و الثقافة لأن المخطوط كانت و ما تزال مصدر إطلاع ، أو وعاء تثقيف ، و وسيلة لتحريك الفكر، و تعزيز الوصول إلى المعرفة ، باعتبارها تجمع الإسهامات العلمية، و الأدبية، و الاجتماعية ،و الدينية التي تركها السابقون للأجيال اللاحقة .

تزخر الجزائر كغيرها من البلدان العربية الإسلامية بتراث علمي ، و فكري ، و ديني مخطوط يمثل الذاكرة التاريخية، والثقافية التي تؤصل للذات الجزائرية ، هذا المخزون الذي لا يزال مبعثرا بين رفوف المكتبات، و مخازن العائلات ، موزعا بين المساجد، و الزوايا ،على ضوء ذلك سنحاول في هذه الورقة الموسومة : " واقع المخطوطات الجزائرية " إبراز مكان المخطوطات الجزائرية و مكانتها بالتركيز على أنموذجين ؛ الأول خزائن المخطوطات العائلية بمنطقة معسكر ، و الثاني المكتبة الوطنية الجزائرية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

، في هذه المقارنة نسعى لمعرفة واقع المخطوطات و مكانتها ، و كذا مدى أهميتها، و الاستفادة منها ، و عليه طرحنا الإشكالية التالية :

– ما واقع المخطوطات الجزائرية ؟

–كيف يتعامل الأشخاص و العائلات مع المخطوطات كتراث ثقافي ؟

–ما مصير هذه المخطوطات ؟

–هل للمكتبة الوطنية الجزائرية من الإمكانات و الوسائل المادية و البشرية التي تخصصها للمخطوطات ما يجعلنا نطمئن على هذا المخزون الهام و الذخر العظيم .

–ما مدى قدرة مراكز المخطوطات في الجزائر على تجاوز العراقيل ، و توفير الظروف و التسهيلات للباحثين من أجل الاطلاع عليها ؟

–ما مدى مساهمة المخطوطات الجزائرية في تطوير البحث العلمي في ظل حوامل المعلومات الجديدة ؟

للإجابة على هذه الأسئلة حصرنا الموضوع في عناصر ثلاثة :خصص أولها للمخطوطات في الجزائر. وثانيها حول واقع المخطوطات في خزائن بعض العائلات المعسكرية .أما ثالثها فركز على المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية .كما اعتمدنا في هذا العمل على مجموعة مراجع متخصصة من ناحية ، و على دراسة ميدانية من ناحية ثانية قادتنا إلى زيارة بعض خزائن المخطوطات بمنطقة معسكر ،ومحاورة أصحابها قصد تكوين فكرة عن الموضوع .

المخطوطات في الجزائر :

شهدت الجزائر كغيرها من البلاد العربية الإسلامية اهتماما كبيرا بالمخطوطات تأليفا و نسخا ، و عُرفت بمراكز ومخازن جمعت التراث المخطوط في مختلف فنون المعرفة الإنسانية من فقه ، و عقيدة ، و تفسير ، و حديث ، و فلسفة ، و تصوف ، و بلاغة ، و حساب ، و طب ، وفلك ، و زراعة ، وكيمياء ،... و عملت بفضل رجالها من العلماء و رجال الدين على تنشيط الحركة العلمية ، و تفعيل الفعل الثقافي ، فازدهرت حركة التعليم و التأليف ، وظهرت المراكز التي تُعنى بالمخطوط جمعا و حفظا كالزوايا ، و المساجد ، و الخزانات الشعبية . إن اهتمام الجزائر بالمخطوطات يعود لسببين على الأقل ، يتمثل الأول في بروز فئة من العلماء و الكتاب الذين ساهموا بتآليفهم و كتاباتهم في إثراء الخزائن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و المكتبات . أما السبب الثاني فيعود لموقع الجزائر الذي يجعل منها محطة عبور القوافل ، و مجال مرور العلماء ، و رجال الدين ، مما منحها فرصة التعرف على بعض المخطوطات .

يشير عبد الكريم عوفي إلى أن بداية الاهتمام بالمخطوطات في الجزائر كان مع بداية عمل بعض المستشرقين الفرنسيين و الضباط المثقفين الذين عملوا على جمع المخطوطات وفهرستها .[1] إلا أن الاهتمام بالمخطوطات كان قبل ذلك ، وفي هذا السياق يقول سعد الله : " ... كانت الكتب في الجزائر تنتج محليا عن طريق التأليف و النسخ ، أو تجلب من الخارج لا سيما من الأندلس و مصر و اسطنبول و الحجاز ... و كانت تلمسان – قبل مجيء العثمانيين – عاصمة علمية مزدهرة بلغت فيها صناعة الكتاب تأليفا و نسخا و جمعا درجة عالية ، و كذلك بجاية و قسنطينة ".[2]

تشهد عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا و جمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ، و من تنوعها و جمالها ، و العناية بها ، فقد اعترف بذلك البارون " ديسلان " الذي كتب تقريرا عن المكتبات بقسنطينة عقب احتلالها مباشرة ، كذلك " أدريان بيربروجر" الذي رافق الحملة الفرنسية على قسنطينة و تلمسان و معسكر ، و جمع المخطوطات من هذه المدن . أما " شارل فيرو " الذي كتب عن المؤسسات الدينية في قسنطينة و عن العائلات الكبيرة بها ، فقد ذكر أن بعض هذه المؤسسات، و العائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة ، و أن في هذه المخطوطات نوادر تعتبر فذة في موضوعها .[3]

يشير محمد صاحبي أن هذه الكتب و المخطوطات كانت تصل إلى الجزائر عن طريق ما يلي :[4]

*/ هجرة أهالي الأندلس نحو المغرب الإسلامي و خاصة بعد سقوط غرناطة .

*/ الإنتاج المحلي ، مادة و علما ، حيث اشتهر العديد في ذلك .

*/ انتقالها عبر الحجيج و العلماء ، من مصر و الحجاز .

*/ الاستنساخ ، و قد شاعت هذه الحركة ، حتى أنه كانت لها أسواق رائجة ، و اختصاصيون مشهورون .

*/ وقف عدد مهم من المخطوطات على الجوامع والمساجد ، الزوايا ، سواء من طرف العلماء ، أو من طرف العوام من الناس .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و الواقع أن مصير هذه المخطوطات لم يكن دائما آمنا ، فقد ضاع أو تلف الكثير منها نتيجة الإهمال ، و الحروب ، والنهب ، و التهريب ، و كذلك جراء الحرائق و الفيضانات ، و غيرها من العوامل الطبيعية و البشرية ، يعزز ذلك عبد الكريم عوفي حين يذكر أن الاستعمار أحرق آلاف المخطوطات ، و نهب أنفسها ، فما سلم من يد المستعمر لم يحفظ في أماكن لائقة ، إذ أن الكثير منه ظل مدفونا تحت الأتربة و في الأقبية و في الأضرحة ينتظر الموت البطيء .[5] إضافة إلى ما سبق ذكره ، لا بد لنا هنا أن نشير إلى عملية هجرة المخطوطات و نقلها من مكان إلى آخر، كهجرة مخطوطات مكتبة الأمير عبد القادر من " الزمالة " إلى باريس ، وقد تكون هذه الهجرة لأغراض علمية ، أو لأغراض تجارية ، و هو العمل الذي يقوم به تجار المخطوطات من خلال تتبع المخطوطات النادرة و المهمة في أرجاء العالم ، و اقتنائها بأزهد الأثمان استغلالا لجهل أهلها بقيمتها ، ثم بيعها بأغلى الأثمان لمن يدرك قيمتها من العلماء و المكتبات و المتاحف .[6]

المخطوطات في الخزائن الخاصة :

و للوقوف على أهمية المكتبات الخاصة ، ارتأينا دراسة بعض خزائن منطقة معسكر كأمثلة محاولين التعريف ببعضها حسبما توفر لنا من وقت و جهد ، و هي كالتالي :

***/ خزانة الشيخ البشير محمودي :**

استند الشيخ محمودي على خزانة جده الشيخ "اعمر بن دوبة" التي كانت تحتوي على أكثر من 400 مخطوط نفيس ، فكانت أحد منابع تعلمه ، تنقل بعد ذلك داخل الوطن و خارجه و بذل الجهد و المال لجمع أمهات الكتب و أنفس المخطوطات في مختلف الفنون و العلوم .[7] أثناء زيارتنا لخزانة الشيخ البشير محمودي بمسكنه الكائن في دائرة البرج ولاية معسكر عام 2001، وجدناها تنقسم إلى ثلاثة خزائن صغيرة تجمع عددا من الكتب والمخطوطات الأصلية و المنسوخة ، و هي الكتب و المخطوطات التي كان الشيخ البشير مهوسا و مفتونا بها، لدرجة أنه كان يقوم بجمعها ، و نسخها بنفسه ،لتصبح جزءا من التراث العربي الإسلامي . إن إلمام الشيخ محمودي بتفاصيل خزانته ، و ما تحويه من كتب جعلنا نندهش من معرفته مكان و موقع كل مخطوط من خلال الإشارة باليد رغم مرضه و عدم قدرته على القيام من فراشه .[8] و على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الشيخ في جمع

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المخطوطات ، فإنه ظل يتألم و يتحسر على ضياع الكثير منها بسبب أن كثيرا من الباحثين لم يرجعوا هذه المخطوطات المعارة إلى صاحبها .

أما بخصوص خزانة الشيخ البشير فقد جمع أغلب محتوياتها الدكتور حمدادو بن عمر في مقاله : " مخطوطات خزانة الشيخ البشير محمودي " [9] إذ يذكر أنه قدم قائمة مخطوطات خزانة الشيخ البشير محمودي كما نقلها عنه ، إلا أنه يعرفنا على محتوى خزانتين منها فقط ،دون التطرق إلى الخزانة الثالثة . نجهل سبب إغفال محتوى الخزانة الثالثة ، هل لاحتوائها على كتب لا مخطوطات ، أم لعوامل أخرى قد تتعلق بالشيخ ، أو بالأستاذ حمدادو؟

تحتوي مكتبة الشيخ البشير محمودي حسب ما ذكره حمدادو – في خزانتين فقط – على 183 مخطوطا، و ردت عناوينها في قائمة . و لم يقتصر دور الشيخ محمودي على جمع المخطوطات ، بل كان يلجأ إلى نسخ بعضها مستعملا ألوانا مميزة في الكتابة .

فقد كان يضع الألوان المناسبة مثل اللون الأزرق و الأخضر و الأحمر و البنفسجي

و الأسود ، وقد ذكر الشيخ بهذا الخصوص : " كل لون له دلالة خاصة به ، إما للتزويق و إما لإبراز إشارة مهمة و إما للتسطير و إما للوقوف على مسألة ما ". [10] أما فيما يخص الخط فإن الشيخ كان له ثلاثة أنواع من الخطوط كلها مختلفة عن بعضها البعض ، و لكن ترجع في أصلها إلى الخط المغربي ، فكان يتفنن في الكتابة من مخطوط لآخر . مثل الشيخ البشير محمودي الجزائر في عديد المناسبات و التظاهرات الثقافية داخل الوطن و خارجه ، لاهتمامه بجمع المخطوطات و نسخها ، وكان في ذلك حريصا ، دقيقا ، و موضوعيا ، و لعل مشاركته في فرنسا و إبرازه للتراث الثقافي الجزائري – من خلال اهتماماته – دليل على ذلك ، و قد ذكر لنا السيد بومدين عبد الحميد – مدير الثقافة بولاية معسكر سابقا – أن الشيخ البشير محمودي رحمه الله كان نسابة تلجأ إليه بعض العائلات لإبراز نسبها الشريف . [11] توفي الشيخ البشير محمودي سنة 2003 تاركا إرثا كبيرا و ذخرا عظيما ، وقد حاولنا زيارة مكتبته مرة أخرى لكننا لم نوفق في ذلك نظرا لصعوبة الإتصال بالورثة ومنذ سنوات قليلة ، و أنا بصدد الإشراف على طالبة بجامعة معسكر تشتغل على الشيخ أبي رأس الناصري – تفاجأت بما جمعته من مادة علمية أغلبها عن مخطوطات نادرة ، و كان ذلك من خزانة الشيخ محمودي الذي تربطها

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بعائلته علاقة قرابة ، و بذلك استفدنا من عدد لا بأس به من مخطوطات هذه الخزانة .[12] أفنى الشيخ البشير محمودي عمره في جمع المخطوطات و الاهتمام بها ، فجمع مكتبة حوت مجموعة كبيرة من الكتب النفيسة و المخطوطات النادرة التي نرجو الحفاظ عليها و الاستفادة منها ، كما أنه كان من بين آخر النساخ الجزائريين – مع قلتهم – الذين تعلقوا بفن الخط ، و إننا لنتأسف اليوم على أن هذه الحرفة أصبحت تسير نحو الزوال . وقد أخبرنا مؤخرا من نثق به أن إماما من مدينة جديوية اشترى مكتبة الشيخ البشير محمودي من ورثته بما فيها من مطبوع و مخطوط .

* **خزانة الشيخ بوكعبر بلقرد :**

لا تقتصر خزائن المخطوطات بمنطقة معسكر على خزانة الشيخ محمودي فحسب ، بل تزخر المنطقة بالعشرات من المكتبات العائلية أو الشعبية التي يجمع أصحابها المخطوطات ،و نشير هنا إلى الشيخ بوكعبر بلقرد الذي ينحدر من عائلة علم ، اهتم الشيخ بوكعبر بالمخطوطات منذ لقائه بالشيخ البشير محمودي سنة 1982 ، و تنافسهما في سوق المدينة الجديدة بوهران على كتاب أراد كل منهما الظفر بشرائه ، إذ ذكر لنا الشيخ بلقرد العلاقة التي ربطته مع الشيخ محمودي ، علاقة قائمة على حب الكتاب و المخطوط . و يضيف الشيخ بوكعبر بلقرد قائلا إن مكتبته تحتوي على حوالي 5000 عنوان ، وأن محتويات خزانته من المخطوطات هي كالتالي :[13] مابين 60 إلى 70 مخطوطا أصليا { مخطوط حي } ، منها 04 أو 05 مخطوطات أصلية نادرة مثل " حاشية الشيخ الرماصي على السنوسية " الذي يرى أنه يتوفر على النسخة الأصلية الوحيدة .المئات من المخطوطات المصورة .حوالي 140.000 مخطوطا مسجل رقميا .وهو الآن يدير معهدا خاصا { مدرسة الأمير عبد القادر في العلوم الشرعية } بمدينة وهران ، و يشرف على مجموعة طلبة يعملون على تحقيق المخطوطات. للإشارة فقط فإن الشيخ بلقرد كان قد حقق مخطوط " الكوكب الدري " للشيخ أبي رأس الناصري ، ومن أهم المخطوطات التي تحتويها خزانته نذكر حسب ما ذكره لنا [14] :

شرح السنوسية الكبرى للإمام السنوسي .

شرح منظومة القدسية لسيدي عبد الرحمن الأخضري .

شرح السنوسي لمختصره في المنطق

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الكوكب الدري في الكلام على الجذري .

يشرف الشيخ بوكعبر حاليا على مجموعة طلبة في " مركز لتحقيق التراث تابع لمدرسة الأمير عبد القادر في العلوم الشرعية "بوهران .

* **خزانة الشيخ الحاج بلعيد بروابن :**

يعد الحاج بلعيد بروابن أحد المهتمين بتراث و تاريخ منطقة معسكر ، و له مكتبة خاصة بمنزله في مدينة" بوحنيفية "، جمع فيها المئات من كتب الفقه ، و التراجم ، و النوازل ، و الأنساب ، و الرحلات ، و الأنساب ، و التصوف ، و الأدب ... اهتم مؤخرا بتاريخ المنطقة ، أشرافها ، أوليائها ، علمائها ... ، كما كانت له تجارب في نسخ المخطوطات ، إذ نسخ " القول الأعم في ذكر قبيل الحشم " و " السلسلة الوافية و الياقوتة الصافية " و " منظومة عيسى بن موسى الإغريسي " ، و كان قد تعلم المبادئ الأولية للنسخ على يد " الشيخ محمودي البشير " [15]. بعد ذلك انشغل بإنجاز بحث حول " النسب و الشرف بمنطقة معسكر " ،و بغية إتمام عمله هذا ، اضطر إلى البحث عن بعض المخطوطات التي من شأنه أن يوثق بها مؤلفه ، و منه بدأت تجربته مع المخطوطات ، و اهتمامه بها .

إلى جانب جمعه بعض المخطوطات المنسوخة ، و المصورة ، فقد جمع مئات المخطوطات المصورة رقميا . أهمها : [16]

- التحفة المرضية في البلاد البكداشية .
- صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر .
- الرحلة الناصرية في جزأين .
- شجرة الشامة ، أصلها ثابت و فرعها في السماء .
- عجائب الأسفار و لطائف الأخبار في جزأين .
- كتاب التحقيق في النسب الوثيق .
- قصيدة في علوم القرآن .
- فتح وهران .
- الزهرة الناثرة حينما أغارت على الجزائر الجيوش الكافرة .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

- كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس .
- السيرة الذاتية للأمير عبد القادر .
- كتاب الجمان في أخبار الزمان .
- رسائل تاريخية خاصة بالأمير .
- عقد الجمان النفيس .
- ربح التجارة و مغنم السعادة .
- الدرة الأنيقة في شرح العقيقة .
- بلوغ الأماني في مناقب القطب الرباني الشيخ التجاني .
- تاج الحسن الباهر في أهل النسب الطاهر .
- توهين القول المبين .
- علم النصرة في تحقيق قراءة عالم البصرة .
- وقف و تقييد القرآن للهبطي .
- جوهرة العقول في ذكر آل الرسول .
- رسائل الشيخ الدرقاوي .
- سيرة سيدي أحمد بن يوسف الملياني .

يحاول الآن الشيخ بلعيد مواصلة عملية نسخ المخطوطات التي تستهويه ، لكن عدم توفر الورق الخاص بالنسخ يمنعه من ذلك .

* **خزائن أخرى :**

تزخر منطقة معسكر بخزائن المخطوطات لعديد العائلات و الأسر المعسكرية ، منها :

* **مكتبة "الحاج جلول الجيلالي"** وهو أحد المهتمين بتراث المنطقة ، كان معلما ، ثم شغل منصبا في مصلحة التراث بمعسكر ، ورث مكتبة عمه السيد " جلول البدوي " ، و تمكن من جمع عدد من المخطوطات وبخاصة تلك المتعلقة بالأنساب ، وعلماء معسكر، و أوليائها .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

زرنا مكتبة جلول الجيلالي الغنية بالكتب النادرة ، كما تبادلنا معه بعض المخطوطات المصورة ، لكننا لم نوفق في معرفة رصيده من المخطوطات [17]. كتب الحاج جلول بعض الكتب ، التي طبعت بتمويل من مديرية الثقافة لولاية معسكر ، مثل :" معسكر: رجال وتاريخ "، و" كتاب حول علماء غريس "، كما ذكر لنا أنه بصدد طبع مخطوط " درء الشقاوة في حرب الترك مع درقاوة " ، لكن عدم تخصصه ، جعل منهجية البحث العلمي غائبة في مؤلفاته ، و كان ينقصه التفتيش ، و التقميش ، و التهميش ، على حد قول " أسد رستم في كتابه " مصطلح التاريخ " ، مما يجعله يقع في الغلط ، و الخطأ .[18]

*مكتبة عائلة شنتوف** : وهي عائلة علم ، تنتسب إلى الطريقة الدرقاوية ، ولا تزال تشرف على الزاوية الدرقاوية بمدينة معسكر ، لهذه العائلة مكتبة تحوي مجموعة من الكتب ، و كذا عدد من المخطوطات التي كتبها أفراد العائلة نفسها في مختلف الفنون ، و العلوم ، أهمها :" رسالة التجريد و التفريد "، و" الحقيقة و المجاز في الرحلة إلى الحجاز " ، ....

* **مكتبة الأستاذ بونقاب مختار** [19] : إضافة إلى أكثر من ألف كتاب – أغلبها – في التاريخ ، و الدين ، و الآداب ،تحتوي المكتبة على عدد من المخطوطات الأصلية ، و المصورة . أهمها :

– المخطوطات الأصلية : جزء من القرآن الكريم ، وهو مخطوط قديم مبتور ، أمدنا به الأستاذ الشيخ بن عمر . مخطوط فقهي مجهول ، زودنا به" الشيخ بلعيد بروابن" – معلم قرآن بمدينة بوحنيفية –

– المخطوطات المصورة : حوالي 70 مخطوط ، أغلبها في التصوف ، و التاريخ ، و الأنساب ، الدين ... جمعناها بحكم المهنة ، و رئاستنا "لجمعية أصدقاء الكتاب " بمعسكر ، و كذا من خلال زياراتنا المتعددة للمغرب الأقصى و الرقمية .مسجل في حوامل إلكترونية .

* هناك عائلات أخرى تمتلك عددا هاما من المخطوطات ، لكنه لم يسعفنا الحظ و الظروف للإطلاع عليها ، مثل :

عائلة شريفي بمدينة " تيزي "، ولاية معسكر .

عائلة المشرفي في بلدية " الكرط" ، ولاية معسكر ، وكانت هذه العائلة من أشهر بيوتات العلم ، يعرف أفرادها بمؤلفاتهم .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عائلة سلطاني المنتشرة في كل من " تيغنيف " و معسكر.

مكتبة الحاج محمد عبد الوهاب بمنزله وسط مدينة معسكر الغنية بالكتب و المخطوطات .

إضافة إلى خزائن منطقة "البرج "، و" غريس "، و " تيغنيف " ، و " الكرط "، وزلامطة " ، ...

هذه العائلات التي لا تزال تحتفظ بمخطوطات ، و خزائن أجدادها كموروث تاريخي ، و حضاري .

هذا فيما يخص المكتبات ، و الخزائن الخاصة ، لكن زوايا معسكر ، و بعض مساجدها لا تزال تحتفظ ببعض المخطوطات النادرة ، لا بد لنا في هذا المقام الإشارة إلى المكتبة البلدية لمدينة معسكر التي تجمع العديد من المخطوطات المصورة ،

المخطوطات في المكتبة الوطنية:

تعد المكتبة الوطنية الجزائرية أهم مركز رسمي للمخطوطات في الجزائر ، ليس من حيث رصيدها فحسب ، بل من حيث حفظها ، فهرستها ، تصنيفها ، و العناية بها ، إضافة إلى جعلها في متناول الباحثين و المهتمين قصد الاستفادة منها ، ومنه تتبدى أهمية المكتبة في الاهتمام بالمخطوط . تتوفر المكتبة كذالك على موظفين مدربين و متخصصين يعملون بوسائل و آليات متطورة في سبيل الحفاظ على قيمة المخطوط .يتزايد رصيد المكتبة الوطنية من المخطوطات باستمرار، وذلك عن طريق الشراء ، استقبال الهدايا ، أو التبادل ، { 3369 مخطوطا سنة 1999 ، أكثر من 4000 مخطوط سنة 2011 ، و ما يزيد عن 5000 مخطوط عام 2013 } و يمر المخطوط بعدة مراحل بداية من عملية الجرد إلى غاية تقديمه للباحث نوجزها في مايلي :

1 – الفهرسة : وقد تكون " وصفية " وذلك بوصف ملامح المخطوط قصد سهولة التعرف عليه ، أو " موضوعية " وهي التي تهتم بالكيان الموضوعي للمخطوط . تتخذ الفهرسة أشكالا و أنواعا ، فمن أشكالها نذكر الفهرس البطاقي ، و فهرس في شكل كتاب ، أما عن أنواعها فنجد فهرس العنوان ، فهرس المؤلف ، و فهرس الموضوعات [20].

2 – الحفظ الوقائي للمخطوطات و طرق معالجتها : هناك العديد من العوامل التي تؤدي إلى إتلاف المخطوطات كإصابتها بالجراثيم ،و الحشرات ، و القواضم ، وهو ما يسمى" بالتلف البيولوجي" . أو كفساد و انكسار هيكل الورقة المكونة المخطوط ، وهو ما يدعى" التلف الكيميائي ". زيادة على تمزيق

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أوراق المخطوط نتيجة المعاملة الخشنة التي يتعرض لها ، و هو ما يسمى " التلف المادي " . ذلك ما استوجب وجود حفظ وقائي ، و طرق علاجية في الوقت نفسه حسب ما تذكره خضرة سباح .[21]

أما الحفظ الوقائي فيكون عن طريق :

الاعتناء بمخازن الحفظ نظافة و تنظيما .

المعاملة المناسبة للمخطوطات .

توفير الظروف المناخية الملائمة .

مكافحة عوامل التلف البيولوجي .

الوقاية ضد الحرائق و الفياضانات .

بينما تتمثل طرق معالجة المخطوطات في التالي :

عملية التطهير و إبادة الحشرات : المعالجة الحيوية .

إزالة الحموضة الزائدة بوضع الورقة في محلول بيكاربونات الكالسيوم .

إزالة البقع باستعمال محاليل كيمياوية : المعالجة الكيمياوية .

الترميم و ذلك بإزالة الثقوب ، و تصليح التمزقات ، و إعادة الصلابة للورقة ، و التجليد الفني .

توفر لنا التكنولوجية الحديثة حاليا وسائل جديدة لحفظ و صيانة المخطوطات ، فالرقمنة تعمل على تحويل مختلف أنواع المعلومات المكتوبة ، المطبوعة ، المصورة ، المرسومة ، و المخطوطة في الوثيقة إلى ذاكرة الحاسوب عن طريق تحويلها إلى إشارات رقمية قابلة للتخزين في ذاكرة الحاسوب ،أوفي وسائط إلكترونية أخرى .[22] تعد" الأقراص الضوئية المدمجة" التي يتسع الواحد منها إلى حوالي 65000 صفحة ، و" الميكروفيلم" الذي يضم تسجيل مصغر للوثائق و المعلومات ، و كذا " البرمجيات "التي تحول صورة الكلمة إلى رموز – تعد من أهم وسائط تخزين البيانات حاليا .[23] تتوفر المكتبة الوطنية على جهاز" ماسح ضوئي "لتصوير المخطوط ، ثم تنسخ صورة المخطوط في قرص مضغوط ، و يوجد بها :

كاميرات مزدوجة 16 – 36 مم .

ألة تحميض الميكروفيلم .

آلة نسخ الميكروفيلم .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ماسح ضوئي للمخطوطات الكبيرة الحجم .

جهاز ماسح للميكروفيلم ، و جهاز تحويل من الميكروفيلم إلى القرص المضغوط

وهي تسعى اليوم للأفضل من خلال رقمنة المخطوطات ، و حفظها ، و صيانتها ، و الدعوة إلى تحقيقها ، و ذلك لضمان إتاحتها للباحثين ، كما تطمح بتوفير غلاف مالي يسمح لها باقتناء الوسائل المادية و التقنية ، و إجراء تربصات و دورات تدريبية لصالح عمال مصلحة المخطوطات .[24]

تكتسي العناية بالمخطوط أهمية خاصة باعتبارها مهمة تاريخية، ووطنية ينبغي أن ترصد لها الإمكانات المادية و البشرية ، و هو ما يقع على عاتق المكتبة الوطنية ،و مخابر البحث الخاصة بالمخطوطات التي عليها اللجوء للتكنولوجيا الحديثة لحفظ ، و صيانة ، و ترميم ، و فهرسة ، وتحقيق ،و رقمنة المخطوطات .

في ختام موضوعنا هذا المتعلق بالمخطوطات مكانها و مكانتها ، تمكنا من الوصول إلى النتائج التالية

– يجب التعاون للقيام بفهرسة و جرد المخطوطات الجزائرية لإنقاذ ما تبقى من تراث تاريخي ، وللحفاظ على الموروث الثقافي .

– شأنها شأن الأرشيف ، تعتبر المخطوطات مصدرا هاما في الدراسات التاريخية ، و البحوث العلمية ، خاصة تلك المتعلقة بالعلوم النقلية ، و تراجم علماء الدين .

– نسجل صعوبة الوصول إلى المكتبات الخاصة ، و الخزائن الشعبية لتخوف أصحابها من ضياع ما بها من مخطوطات ، إذ غالبا ما يتطلب دخولها و التعرف على محتوياتها معرفة شخصية ، أو توصية من جهات معينة .

– إن المكتبات و الخزائن العائلية و ما تزخر به من مخطوطات نادرة يصعب حصرها و التعرف على محتوياتها بالنظر إلى التكتم و التحفظ الذي تبديه العائلات بخصوص الموضوع .

– رفض بعض العائلات تقديم مخطوطاتها ، أو نسخ عنها بدعوى أنها تمثل بركة و إرثا عائليا و قد تبرر بعض التجارب السيئة هذا الخوف ، كتهريب المخطوطات أو سرقتها .

– إن ضياع المخطوطات هو نتاج غياب الوعي لدى الورثة الشرعيين لهذا الإرث الثقافي و الحضاري الذي يمثل الذاكرة الجماعية .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

– لا يجب النظر إلى المخطوطات على أنها تحف نزين بها رفوف المكتبات المنزلية ، أو كتب نتبرك بها ، بل لا بد من تقديمها للمختصين قصد تقديمها ، و تحقيقها ، و من ثم الاستفادة منها .

*/ يجب التفكير في رقمنة المخطوطات كتراث مكتوب لنقيه من الضياع و التلف .

– ننوه بالدور الذي يقدمه النساخون القلائل في الحفاظ على ما بقي من هذه المخطوطات ، خاصة و أن عددا كبيرا منها لا تتوفر إلا على نسخة واحدة .

– نلفت انتباه القائمين على دور الأرشيف ، و مراكز المخطوطات إلى ضرورة تقديم التسهيلات ، و رفع العراقيل أمام عمل الطلبة ، و الباحثين .

– نثمن مبادرة الجزائر لشرائها حوالي 600 وثيقة كانت قد وضعت في المزاد العلني ب فرنسا ب 94 ألف أورو ، تضم كتب ، و وثائق ترجع إلى العهد العثماني ، و عهد الاحتلال الفرنسي .

الإحالات :

1/ عبد الكريم عوفي ، " جهود الجزائر في فهرسة المخطوطات العربية منذ منتصف القرن السابع عشر حتى نهاية القرن العشرين " الثقافة ، العدد 117 – 118 ، السنة 1999 ، ص : 36 .

2/ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1999 ، ص : 285 .

3/ لمزيد من المعلومات ، يراجع : أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ، ص: 286 – 309 . نوار جدواني ، " مخطوطات المكتبة الوطنية و أهميتها للباحثين " الثقافة ، العدد 117 – 118 ، السنة 1999 ، ص : 59 . و المجلة الإفريقية لسنة 1925 ، ص : 103 – 106 .و المجلة الإفريقية لسنة 1892 ، ص: 165 .و مقال " المخطوطات في الجزائر ... كنوز بلا حراس " جريدة الفجر ، بتاريخ 08 ماي 2001 .

4/ صاحبي محمد ،" تاريخ الجزائر الثقافي من خلال المخطوطات " ، عصور ، جامعة وهران ، العدد 01 ، 2002 ، ص،ص: 41، 42 .

5/ عبد الكريم عوفي ، المرجع السابق ، ص: 36 .

6/ عز الدين بن زغيبة ، "هجرة المخطوطات : الأسباب و الطرق "، عصور الجديدة ، جامعة وهران ، العدد 01 ، السنة 2011 ، ص : 152 .

7/ حمدادو بن عمر ، " مخطوطات خزانة الشيخ البشير محمودي " ، المجلة الجزائرية للمخطوطات ، جامعة وهران ، العدد 01 ، السنة 2004 ، ص: 157 .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

8/ نشير هنا أننا وجدنا السيخ محمودي طريح الفراش لمرض ألم به ، لا يستطيع القيام ، وعندما سألناه مساعدتنا ببعض المخطوطات ، حدد لنا الخزانة ، و الرف ، و ترتيب عدد المخطوط ، فوجدناه كما ذكر .

9/ حمدادو بن عمر ، المرجع السابق ، ص،ص: 158 ، 167 .

10/ نفسه ، ص: 157 .

11/ شهادة شفوية تقدم بها بومدين عبد الحميد – مدير الثقافة سابقا لولاية معسكر – في لقاء خصنا به يوم : 02/ 04/ 2017 .

12/ كانت الطالبة تمدنا ببعض المخطوطات ، فنصورها إلكترونيا ثم نعيدها لها ،وتزودنا بمجموعة أخرى نصورها و نرجعها ، و هكذا تمكنا من تسجيل ثلاثة أقراص مضغوطة تجمع عددا من مخطوطات خزانة الشيخ محمودي .للإشارة فإن هذا العمل كان بالتعاون بين :أ/ بونقاب مختار ،أ/ بليل رحمونة ،أ/ هرباش زاجية .

13/ مقابلة شخصية مع الشيخ بوكعبر بلقرد في مكتبته المنزلية ، بتاريخ 07 /04 /2017 .

/14 نفسه .

/15 مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الشيخ بلعيد برواين – معلم قرآن في بوحنيفية ، و مهتم بالتراث – بمنزله ، يوم : 01 /04 /2017 ، و قد ذكر لنا أنه تعلم مبادئ نسخ المخطوطات على يد " الشيخ محمودي البشير" بما فيها طريقة التسطير عن طريق اللوحة . و أن الشيخ محمودي بدوره تعلم ذلك حينما كان مجندا في الخدمة العسكرية بالشام .

/16 جمع الشيخ برواين هذه المخطوطات عن شخص – مهتم بالمخطوط و متخصص في صيانته و تصويره – من إحدى ولايات الجنوب ، أخذ منا عهدا أن لا نذكر اسمه .

/17 تبادلنا مع جلول جيلالي بعض المخطوطات المصورة ، لكنه كلما سألناه عن خزانة مخطوطاته ، غير الموضوع ، وبالتالي لم نوفق في إحصاء مخطوطاتها .

/18 مقابل نسخة مصورة" للرسائل الدرقاوية" ، أمدنا الحاج جلول بنسخة عن مخطوط " درء الشقاوة في حرب الترك مع درقاوة "، لكنه حينما اطلعنا عليها، وجدناها مقتطفات من بعض المخطوطات .

/19 الدكتور بونقاب مختار أستاذ التاريخ الحديث و المعاصر بجامعة معسكر ، و رئيس " جمعية أصدقاء الكتاب " بمعسكر من 1995 إلى 2011 . مهتم بالتاريخ الثقافي .

/20 أحمد مولاي ، " المخطوطات و البحث العلمي : دراسة تقييمية لنشاط مخابر البحث في المخطوطات بالجامعات الجزائرية ، رسالة ماجستير في علم المكتبات ، جامعة وهران ، 2009 ، 2010 ، ص : 27 .

/21 خضرة سباح ، " حفظ و ترميم المخطوطات " الثقافة ، العدد 117 –118 ، السنة 1999، ص،ص: 273 ، 280 .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[22]/ عبد المالك سبتي ، التسيير الإلكتروني للوثائق " ، المكتبات و المعلومات ، العدد 02 ، السنة 2003 ، ص : 15 .

[23]/ لمزيد من المعلومات يراجع : أحمد مولاي ، المرجع السابق . و مزلاح رشيد الأنظمة الآلية و دورها في تنظيم المخطوطات

[24]/ دحماني حليمة وضياف جهيدة ، "المخطوطات الجزائرية بين الواقع و الطموح "
مذكرة ليسانس في التاريخ العام ،جامعة معسكر ،2012 – 2013 ، ص، ص: 28 ، 29 .

قائمة المصادر و المراجع :

باللغة العربية :

1/ بونقاب مختار ، "المكتبات الخاصة في الجزائر "، محاضرة ألقيت في الملتقى الوطني حول الكتاب و المكتبات ، ولاية معسكر ،مطبوعة ضمن أعمال الملتقى من قبل جمعية أصدقاء الكتاب بمعسكر ، بتاريخ 28 ماي 1998 .

2/ بن زغيبة عز الدين ، " هجرة المخطوطات : الأسباب و الطرق " ، عصور الجديدة ، جامعة وهران ، العدد :01 ، السنة : 2011 .

3/ جيلالي جلول ،" التركيب المادي لمخزن المخطوطات "، محاضرة ألقيت في الملتقى الوطني حول الكتاب و المكتبات ،جمعية أصدقاء الكتاب ، ولاية معسكر ، غير مطبوعة .

4/ جدواني نوار ، " مخطوطات المكتبة الوطنية و أهميتها للباحثين " ، الثقافة ، العدد : 117 – 118 ، السنة : 1999 .

5/ حمدادو بن عمر ، "مخطوطات خزانة الشيخ البشير محمودي "، المجلة الجزائرية للمخطوطات ، مخبر المخطوطات ، جامعة وهران ، العدد01 ، السنة 2004 .

6/ دحماني حليمة ، و ضياف جهيدة ،" المخطوطات الجزائرية بين الواقع و الطموح "، مذكرة ليسانس ، جامعة معسكر ، السنة الجامعية : 2012 – 2013 .

7/ سباح خضراء ، " حفظ و ترميم المخطوطات "، الثقافة ، العدد : 117 – 118 ، السنة : 1999 .

8/ سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ،الطبعة الأولى ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1998 .

9/ عوفي عبد الكريم ، " جهود الجزائر في فهرسة المخطوطات العربية منذ منتصف القرن السابع عشر حتى نهاية القرن العشرين " ، الثقافة ، العدد : 117 – 118 ، السنة : 1999.

10/ مزلاح رشيد ، الأنظمة الآلية و دورها في تنظيم المخطوطات ، رسالة ماجستير في علوم المكتبات ، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ، 2006 –2007 .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

11/ مولاي أحمد ، المخطوطات و البحث العلمي: دراسة تقييمية لنشاط مخابر البحث في المخطوطات بالجامعات الجزائرية ، رسالة ماجستير في علم المكتبات و العلوم الوثائقية ، جامعة وهران ، 2009 – 2010 .
12/ مجهول ، المخطوطات في الجزائر : كنوز بلا حراس ، جريدة الفجر ، بتاريخ : 08 ماي 2011
13/ صاحبي محمد ،" تاريخ الجزائر الثقافي من خلال المخطوطات "، عصور ، جامعة وهران ، العدد 01 ، 2002 .
14/ مقابلة مع الشيخ بوكعبر بلقرد في مكتبته المنزلية ، بتاريخ 07 أفريل 2017 .

باللغة الأجنبية :

*R.A ;1892 ; P : 165 .
*R.A .1925 : p :103 -106 .

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مشروع توحيد الإيّالات المغاربية في عهد الداي شعبان 1688- 1695م

أ.د. صحراوي عبد القادر
جامعة سيدي بلعباس
البريد الإلكتروني: sahraoui1959@yahoo.fr
محمد عطية
طالبة دكتوراه ،جامعة سيدي بلعباس

تاريخ الاستلام: 2017/01/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

عقدت الجزائر اتفاقية سلم وتجارة مع فرنسا في سبتمبر 1688م، و عندما تولى الداي شعبان الحكم كان أهم ما يؤرقه هو ايجاد مداخيل مالية لخزينة الايالة لتغطية مرتبات الجيش وقد نجح في تجاوز ذلك العجز. و في أواخر حكمه اضطربت أحول تونس مما استدعى تدخل الجزائر، حيث توجه نحوها الداي شعبان وهزم قوات الباي محمد المرادي و نصب ابن شكر بايا عليها، وعاد بغنائم كثيرة كانت سببا في نشوب خلاف بينه و بين خليل حاكم طرابلس الذي فر من أمامه و لم يحصل على الغنائم التي كان يريدها، و بذلك اصبح الداي شعبان السيد الاول على ايالات شمال افريقيا بلا منازع عله يحصل على لقب بايلرباي كما حصل عليها سلفه الداي حسين ميزومورتو.

الكلمات الدالة:
الداي شعبان – ايالات شمال افريقيا– الجزائر– طرابلس – تونس– بايلرباي.

العنوان بالإنجليزية:

The project of unification of the Maghreb communities in the era of Dey Chaaban 1688-1695**.**

Abstract:

Algeria signed a peace and trade agreement with France in September 1668. When Dey Chaaban took rule, the most important problem he faced was finding financial incomes to fund regency treasury for military salaries. However, he succeeded in

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

doing so. At the end of his reign, many troubles happened in Tunisia which requires the intervention of Algeria led by Dey Chaaban who defeated Bey Muhammad Moradi's forces and appointed Ibn Chokr as a Bey there. He also came back with many spoils that were the cause of a dispute between him and Khalil, the ruler of Tripoli who escaped without any spoils. As a result, Dey Chaabane , with no competitor, became the first master over North Africa's Regencies in pursuit of title of Pacha Dey obtained by his predecessor, Dey Hussein Mezzo Morto.

Key words:

Dey Chaaban- North Africa's Regencies- Algeria - Tunisia- Tripoli- first master

استطاعت الدولة العثمانية أن تفرض سلطتها على شمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر ميلادي عبر مراحل متباينة وبدرجة متفاوتة، لعدة أسباب أبرزها الاحتلال الاسباني لهذه المناطق فالتواجد العثماني كان في زمن مبكر بالنسبة للمغرب الأوسط أما بالنسبة لطرابلس الغرب ثم تونس فقد كان متأخرا نوعا ما، مما أدى إلى وجود صعوبة كبيرة في إنهاء الاحتلال المتجذر، فضلا عن وجود حركات مناوئة لها من بقايا الحكم المحلي سابقا والتي كانت تحدث من حين لآخر. ومهما يكن من أمر فإن الدولة العثمانية بعد أن ضمت الجزائر عام 1519م، جعلت منها قاعدة لتحرير باقي الموانئ ومساهمة الاخيرة بشكل كبير في تحرير طرابلس الغرب عام 1551م، ثم تحرير بعض المناطق من البلاد التونسية ليتم القضاء نهائيا على التواجد الإسباني في قلعتي ميناء "حلق الوادي و "سان جون" سنة 1574م[1].

كان سنجق[2] تونس و سنجق طرابلس الغرب تابعين لإيالة الجرائر حسب الكثير من الكتابات التي تشير إلى ذلك خاصة بالنسبة لتونس التي ألحقت بإدارة الجزائر منذ عام 1569م[3]. وعلى أية حال فإن من كان يدير شؤون إيالة الجزائر هو البايلرباي، ذلك المنصب الذي اقتصر على فئة قليلة ممن له باع طويل و نظرة ثاقبة وكفاءة عالية من بين رياس البحر الذين اشتهر بهم أسطول الجزائر طيلة القرن 16م تقريبا. ولم تلبث الأمور طويلا فقد سارعت الدولة العثمانية إلى تغيير نظام الحكم في الجزائر في عام 1587م، مما ترتب عليه فصل طرابلس الغرب و تونس عن إدارة الجزائر حيث أصبحتا إيالتين تابعتين رأسا لسلطة الباب العالي بإسطنبول.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وما يثير الاهتمام أنه على الرغم من مضي القرن تماما من هذه الأحداث التي شهدتها الإيّالات المغاربية بشمال إفريقيا واختلاف أنظمة الحكم العثماني فيها فقد برزت محاولة جادة لإعادة منصب البايلرباي من قبل الداي شعبان من خلال مشروعه الطموح المتمثل في محاولة توحيد الإيالات المغاربية من جديد تحت سلطته، فهل يمكن اعتبار أن هذه المحاولة كانت صدفة بوقوعها في هذا التاريخ بالذات؟ أم أن شخصية الداي الطموحة هي من أوجدت هذا المشروع. فمن يكون الداي شعبان؟ و إلى أي مدى نجح في تجسيد مشروعه؟

أولا– التعريف بالداي شعبان:

لا شك أن فترة حكم الداي شعبان كانت مميزة عن فترات حكم الكثير من الدايات الذين حكموا إيالة الجزائر ذلك أنه في الوقت الذي بدأت فيه عائدات النشاط البحري في التراجع المستمر مما أثر على مداخيل خزينة الإيّالة بدت الخزينة الجزائرية وكأنها تحافظ على حالتها المعهودة في زمن الرخاء الاقتصادي بفضل جهود الداي الذي أوجد مصادر مالية معتبرة استطاع من خلالها سد النفقات الكثيرة وخاصة منها مرتبات الجند المتزايدة في هذه المرحلة الحرجة التي شهدت تنافسا اوربيا خطيرا خاصة بين فرنسا و انجلترا حول الامتيازات الاقتصادية الممنوحة لهم بايالة الجزائر. فالداي شعبان لم يحظ كغيره من حكام الجزائر العثمانية بدراسات وافية تسلط الضوء على الكثير من جوانب شخصيته، على الأقل فيما يتعلق بمميزات حكمه، الأمر الذي جعلنا نفكر في البحث عن شخصية هذا الداي وطموحاته، حيث أننا لم نجد تواريخ معينة تبين مولده وأصله وأهم ما كان يشتغل به حتى وصل إلى مرتبة الداي التي أهلته لإدارة شؤون الإيالة الجزائرية، وكل ما عثرنا عليه مجرد ومضات لا تتعدى العموميات.

يعد الداي شعبان من أشهر رياس البحر الذين اشتهرت بهم البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، كما يعد من أبرز المحاربين الذين تولوا منصب الداي، فقد تقلد منصب الحكم عام 1100ه/1689م[4] كداي رابع على الإيالة عندما عاد رياس البحر للحكم من جديد بعد الإطاحة بنظام الأغوات غير الطويل.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولكننا نجد ازدواجية في التعريف بالداي سواء ما كتبه شيخ المؤريخين أبو القاسم سعد الله أو غيره إذ يصفه بأنه من طائفة رياس البحر ثم يصفه بأنه من ابرز المحاربين(؟) حسب ما ورد في مخطوطة الشهب المحرقة، وعلى كل فإن من بين الآراء التي تتناسب و الوصف الأخير تقول بأنه بعد القضاء على آخر الأغوات المدعو علي آغا انفرد الرياس بالحكم ثانية نظرا للإختلالات التي صاحبت عهد الأغوات وبعد انقضاء حكم الداي الحاج حسين ميزومورتو نتيجة عدم إحرازه انتصارات عسكرية في تونس بسبب وباء الطاعون، آل الحكم إلى الداي شعبان الذي كان يشغل منصب آغا العسكر آنذاك(5)، كما أن الدكتور هلايلي حنيفي يورد في كتابه بأن الداي شعبان هو أول جندي انكشاري يعتلي منصب الدايليكية بعد ارغام الداي ميزومورتو على الاستقالة منذ الاطاحة بنظام الاغوات قبل خمسة عشرة سنة قد خلت(6).

يُقال عن الداي شعبان أنه كان يظلم الناس كثيرا، وكان كثير قراءة القرآن، حتى أن المصحف الشريف لا يكاد يفارق يده، متواضعا في معيشته، آمنا في بيته، ولا يوجد عنده أحد إلا شيخ نصراني يقضي حوائجه وكان يخبره بمن هو آت إليه، ومن غرائب ما يُقص من شأنه أنه حفر قبره بيديه أثناء فترة حكمه، ومن أهم صفاته أيضا أنه كثير البكاء و كثير الصدقات ، ويحب جمع المال(7). إن هذه الصفات التي أوردها صاحب "الشهب المحرقة" أحمد برناز تحمل الكثير من التناقضات، فكيف لمن يقرأ القرآن إلى هذه الدرجة التي وصفه بها ويهتم بالآخرة أيما اهتمام من خلال حفر قبره يقوم بظلم الناس و جمع المال.

ومما يجب الإشارة إليه أنه في هذه الفترة وبالضبط قبل سنتين تقريبا كان هناك واحدا من أهم البايات الذين تعاقبوا على حكم بايليك الغرب يدعى شعبان كذلك، كان قد أغتيل وهو محاصرا لمدينة وهران قصد استرجاعها من لدن الإسبان(8)، ولعل هذه المحاولات الحثيثة و المتكررة هي التي شجعت حكام الجزائر فيما بعد لافتكاك المدينة عنوة واسترجاعها. وهكذا بدا الداي شعبان وكأنه يكمل مسيرة الباي شعبان، ولكن ليس على رأس البايليك وإنما على رأس الإيالة الجزائرية بأسرها.

ثانيا– الأوضاع السائدة في بداية حكمه:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يظهر مما سبق أن الداي شعبان كان قد ورث عن سلفه الحاج حسين أوضاعا مزرية للغاية، ليس فقط على الصعيد الداخلي وإنما حتى على المستوى الخارجي في الشق المتعلق بالعلاقات مع الدول الأوربية خاصة منها فرنسا، ومن بين الأوضاع السائدة آنذاك في الجزائر نذكر منها مايلي:

أ- ازدواجية السلطة بين الرياس و الجند الإنكشاري التي كانت حجر الزاوية في صفاء العلاقات بينهما أو تعكرها(9).

ب- تفشي وباء الطاعون القاتل الذي كان يفتك بالمئات من الأشخاص في اليوم الواحد في فترات متقاربة(10).

جـ- تراجع مداخيل الخزينة الجزائرية خاصة من عائدات النشاط البحري بسبب الحرب غير المعلنة من طرف الأوربيين على السفن الجزائرية.

د- توجيه القوى الأوربية لحملات عسكرية على مدينة الجزائر كان أبرزها قبيل مجيئ الداي شعبان حملة الماريشال دوستري (d’estrées) التي حلت قبالة السواحل يوم 02رمضان 1099ه/28 جوان 1688م (11).

بقيت حملة الماريشال دوستري أمام مدينة الجزائر لمدة خمسة عشر يوما، قذفت المدينة خلالها بعشرة آلاف قنبلة، فكانت النتيجة كارثية على السكان والعمران، و ليس هناك إحصائيات واضحة تبين عدد القتلى وكل ما كتب عنها يخبرنا بأنه تم إغراق خمسة سفن حربية جزائرية كانت راسية في ميناء المدينة. لقد أحدثت هذه الحملة هلعا كبيرا في نفوس السكان كما ولدت لدى القادة استياءً كبيرا أدى في آخر المطاف إلى الانتقام من الفرنسيين الذين كانوا موجودين في المدينة حيث تم القبض على أربعين منهم و وضعهم في فوهات المدافع التي أردتهم أشلاءً، وكان من بين هؤلاء القنصل الفرنسي بيول (Piolle)، بعدها انتقم قائد الحملة من بعض الأسرى المسلمين الذين كانوا لديه شر انتقام(12). ولكن هذه الازمة انتهت بتوقيع اتفاقية صلح و انهت حالة التوتر، حيث ستشهد العلاقات تحسنا كبيرا على الاقل لن تكون كما كانت. قبيل نهاية حكم الداي الحاج حسين ميزومورتو (1683- 1688م) كانت هناك مفاوضات تجري على قدم وساق بين الطرفين الجزائري والفرنسي من أجل عقد اتفاقية للسلم، وواضح هنا أن فرنسا هي التي طلبت عقد هذه الاتفاقية ولم تطلبها الجزائر، نتيجة تضرر مصالحها في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الجزائر و البحر المتوسط، وعليه تم عقد الاتفاقية بين الطرفين في 19سبتمبر1689م عرفت بمعاهدة مارسيل قيوم(Marcel Guillaume)[13].

ثالثا– مظاهر حكمه:

تدل الحملة الفرنسية الاخيرة على بلوغ العلاقات بين البلدين أسوء درجاتها، فإن الداي حاج حسين ميزومورتو كان قد خرج منتصرا على جيوش الملك الفرنسي لويس الرابع عشر" الملك الشمس" حيث انه كان قد أثلج صدر السلطان العثماني الذي منحه لقب "بايلرباي"[14]. وهكذا فإن خليفته الداي شعبان لم تشغله العلاقات مع فرنسا كثيرا فالرجل أراد أن يكمل مشروع سلفه بالحصول على هذا اللقب ولكن ليس قبل أن يسيطر أو بالأحرى يعيد حكم إيالتي تونس وطرابلس الغرب للجزائر، إذن مشروع توحيد الإيالات المغاربية و الحصول على لقب البايلرباي من لدن السلطان العثماني لم يكن من أفكار الداي شعبان وإنما كان قبله، فهل سيستطيع الداي الجديد حمل هذا اللقب الذي كان موجودا قبل قرن من الزمن؟

– التدخل في شؤون تونس:

على الرغم من أن الداي شعبان كان منهمكا في إيجاد ترضية لأعضاء الديوان الناقمين على سلفه و التخفيف من غضبهم و بالتالي الخروج من هذا الموقف المحرج الذي كثيرا ما وقع فيه حكام الجزائر نتيجة تراجع عائدات النشاط البحري. فانه بالمقابل كانت الأمور في إيالة تونس ليست على ما يرام و تستدعي التدخل من طرف الجزائر ككل مرة لفض النزاع المحتدم على السلطة، فهذا ابن شكر يوشك أن يقوم بانقلاب على الباي التونسي، ويعرف ابن شكر بكاهية الباي محمد المرادي التونسي، وفي الوقت نفسه هو صهره أي زوج أخته. كان في البداية مخلصا لسيده ولم يخطر ببال محمد المرادي أن يفكر بن شكر هذا التفكير، فممارسته للحكم عن كثب من خلال تواجده الدائم بجانب الباي بل و البت في العديد من القضايا، ولدت لديه رغبة في اعتلاء عرش البايات في تونس على الرغم من أنه لا يمت بصلة للأسرة الحاكمة، إن هذه الاطماع غير البسيطة ستؤدي إلى التخلص من الباي الذي لم يمض فترة طويلة على تقلده المنصب، ولن يكون ذلك إلا بإقحام الجزائر مجددا في هذا النزاع فكيف تم له ذلك، خاصة وأن الداي شعبان لم يكن ممن يسهل التأثير فيهم وإغرائهم.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أ– قدوم ابن شكر إلى الجزائر:

لم تكن الوجهة الحقيقية للكاهية هي الجزائر وعلى ما يبدو كانت لديه أغراض أخرى، فقد قام باستئذان الباي لأداء فريضة الحج، وهذه هي عادة الكثير ممن حكموا تونس عندما يحسّون بالخطر ممن سبقهم كإبراهيم رودسلي أول من حكم في عهد الدايات فعندما أحس بالخطر طلب أداء فريضة الحج فَسُمِحَ له بذلك، شريطة عدم عودته، وقد تبعه كم من واحد في هذا الأمر، و الكاهية ابن شكر واحد منهم بيد أن أمره لم يكن على الشاكلة نفسها. غادر ابن شكر عن طريق البحر، وفي طريقه اعترضه قراصنة فرنسيون نهبوا أمواله و أغراضه، فلم يعد بوسعه إكمال طريقه فغيّر وجهته نحو الجزائر التي نزل بإحدى مراسيها. وكان في هذه الفترة إبراهيم خوجة الذي ظفر بالنصر في تونس قبل سنتين، مُحاصِرا لمدينة وهران، وكان في منصب الداي كما سبق و أشرنا الباشا حسين ميزومورتو، الذي استقبل الكاهية أحسن استقبال(15). على الرغم من تغير الحكم في الجزائر الذي آل إلى الداي شعبان، إلا أن ابن شكر بقي يَزِنُّ على أذن الداي ويحرضه ضد باي تونس محمد المرادي؛ إذ استطاع في الأخير إقناع الداي شعبان بقطع علاقاته بتونس(16) كخطوة أولى، بعد أن رفض الاعتراف بفضل الجزائريين الذين يعود لهم الفضل في تنصيبه، منذ أربع سنوات قد خلت، عندما تم دحر قوات الداي أحمد شلبي وعمه محمد الحفصي، ولن يتم ذلك إلا بعد أن تتحسن الظروف وتكون الفرصة مواتية للقيام بأي عمل من هذا النوع(17).

كانت الحرب الدائرة بين الإيّالتين الجزائرية والتونسية طويلة، ومع أواخر القرن السابع عشر ميلادي، كانت قد تعدت إلى الدخول في تحالفات أخرى مع إيّالة طرابلس، ولم نعد نميز الأسباب الحقيقية التي أدت إلى حدوث هذه الاضطرابات. إنّ توسع دائرة الصراع إلى طرابلس الغرب، سيزيد الأمور تعقيدا و يدفع بحكام الإيالات إلى التفكير جليا في إعلان الاستقلال عن سلطة الباب العالي الذي كان يعاني من مشاكل هو أيضا، وكثيرا ما تظاهر السلاطين بعدم اكتراثهم بما يجري في ولاياتهم الغربية البعيدة عن نظرهم.

يجب علينا قبل الخوض في هذه الحرب أنّ نوضح بأنّ الحرب القائمة، إنما هي حرب بين الجند الإنكشاري القادم من الدولة العثمانية في إطار سياسة التجنيد؛ لأن المعارك التي دارت رحاها ولا زالت

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مستمرة، المتسبب فيها بالدرجة الأولى هم حُكّام هذه الإيّالات وجندهم المتكون من الأتراك والمماليك[18]. ولم تشارك القبائل العربية إلا نادرا فهؤلاء بقوا دائما خارج حلبة الصراع، إلّا إذا حَلّ الصراع بأقاليمهم فسيجدون أنفسهم مضطرين إلى الوقوف إلى جانب طرف معين حسب مصالحهم. استدعى الداي شعبان قبل القيام بأيّة خطوة أعضاء الديوان للإجتماع، قصد اتخاذ القرار بشأن إعلان الحرب على تونس[19]، وهذا شأن أي داي عندما يواجه قضية مماثلة، خاصة إذا تعلقت بالعلاقات الخارجية، لضمان الولاء والمساندة، حتى وإن كان هناك إخفاق فإنّ مصير الداي يُقرر من طرف ضباط الإنكشارية المتغطرسين، و النافذين في الحكم. وإذا عدنا إلى الصراع الثلاثي فإنّ صاحب كتاب التحفة المرضية لم يذكر أمر تحالف الجزائريين و الطرابلسيين في هذه المعركة وإنما اكتفى بذكر استيلاء الجزائر على تونس، عام 1105هـ/1694م[20].

- أسباب التدخل في تونس:

يجب الإشارة إلى أن أسباب هذه التحالفات مختلفة وسنذكر بعضها:

1- تحالف الباي محمد التونسي مع مولاي إسماعيل المغربي لمهاجمة الجزائر في آن واحد، كل من جهته ومساندة فرنسا للتونسيين بالسلاح والمؤن وغيرها[21].

2- تحريض ابن شكر للداي شعبان بالاستيلاء على تونس، انتقاما من الباي محمد المرادي.

3- محاولة الجزائر القضاء على هذه التحالفات، التي كادت أن تنتظم في ضربة واحدة تنهي وجود الإيّالة الجزائرية.

4- رفض الباي التونسي دفع الضرائب التي أقرّ بها للجزائر في المرة السابقة عند تنصيبه.

5- الفتن القائمة بتونس ضد البايات، الذين تم تعيينهم من طرف حكومة الجزائر، كابن شكر وأحمد بن الشقير[22].

6- مراسلة داي طرابلس الغرب للداي شعبان يطلب منه مساعدته على الباي محمد المرادي الذي كان يخطط لعمل ضد الإيالّتين الجزائرية و الطرابلسية نتيجة حشده لجيش من الترك وغيرهم[23].

على إثر هذا الادعاء الأخير جهّز داي طرابلس المدعو محمد الإمام، جيشا يتكون أساسا من الجند الإنكشاري وأرسله عن طريق البحر حيث تم إنزاله بميناء عنابة، في عام1105هـ / 1694م،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

و كانت هي مكان لقاء المحلتين الجزائرية والطرابلسية المتفق عليه. يُذكر أن هذه المعركة كانت عام 1694م[24]، و كان تعداد جنود المحلة كبيـرا جدا، و قادها الداي شعبان الذي تَتُوق نفسه إلى تأديب باي تونس، وقطع رأسه لمخالفته الأوامر وعدم أداء ما عليه من الأموال، وهناك من يقول أن أساطيل الجزائر وطرابلس حاصرت تونس أي أنها كانت حربا بحرية[25].

لما عَلِم الباي محمد بقدوم المحلتين، سارع إلى حشد جيوشه المؤلفة من أربعة عشرة ألف جندي، وسبعمائة خيمة و سار بها نحو الغرب، و التقى الطرفان في مدينة الكاف، هذه البلدة التي رَوَتْ أرضها بدماء المسلمين[26]، ومن الوهلة الأولى انكسر جيش الباي حيث ولى الأدبار مسرعا، قافلا إلى عاصمته مدينة تونس، لعلها تكون ملاذه الآمن[27]، ومن أسباب هزيمته خذلان العرب له من أولاد سعيد وغيرهم ممن تبعهم، وقد تمخضت عن المعركة نتائج كثيرة.

جـ- نتائج معركة الكاف:

كان لهزيمة باي تونس وقعا كبيراً، خاصة على مدينة تونس و أهاليها ومن أهم نتائجها نذكر:

1- الذُّعر الكبير الذي أصاب الأهالي، من جراء الهزيمة المنكرة التي مُنِيَ بها جيشهم، و ما يمكن أن يحصل بعدها، فالعواقب كثيرا ما تحمل وزرها الاهالي دون الحكام.

2- تعطل أعمال الأهالي كالفلاحة في البساتين المجاورة لمدينة تونس، و في طريق الجيش الجزائري القادم نحو مدينة تونس لتنصيب الباي الجديد و فرض الامن.

3- توقف الحركة التجارية المتنقلة في الأسواق الداخلية اليومية و الأسبوعية.

4- أخذ الأهالي للحيطة والحذر وتدبير شؤونهم بنفسهم للصمود.

5- هروب الباشا رمضان و الداي علي ريّس إلى أوربا[28].

6- حصول قائد الجيش الجزائري و حليفه غنائم كثيرة في هذه الحرب، بالإضافة إلى إلزام الرعية بدفع أداءات مالية سنوية مستقبلا قيل أنها كانت كبيرة و تفوق طاقة خزينة تونس[29].

7- ضرب محلة الجزائر وحليفها للحصار على مدينة تونس[30].

د- حصار مدينة تونس 1105ه/ 1694م:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

سارت الجيوش المتحالفة و المنتصرة في معركتها الأولى نحو مدينة تونس بخطى متثاقلة، واثقة من نفسها، وبعد شهر من الهزيمة التي ألمت بالباي، وصلت المحلتين إلى أسوار مدينة تونس، وضُرب حصار حولها فاقت مدته ثلاثة أشهر، إذ أمطرت المدينة من خلاله بقذائف المدافع وتم تبادل إطلاق النار بين الجانبين، ومهما يكن من أمر التحصينات والمؤَنْ التي تم جمعها فإن مدة الحصار كانت طويلة تكفي لإفناء ما جمعه الأهالي طيلة شهر، بداية من المعركة حتى تاريخ ضرب الحصار. لذا نجد أن أهالي المدينة ظهر عليهم الملل والقلق الذي كان يتزايد يوما بعد يوم ولم تظهر في الأفق بوادر لانفراج الأزمة. بناءا على الضغط الكبير والمتزايد على الباي التونسي والأهالي من جهة، وقوة المحلتين من جهة أخرى، خاصة بعد إحراز نصر كبير في معركة الكاف، انضمت العديد من القبائل إلى الجزائريين و الطرابلسيين، هذا بالإضافة إلى الأنباء التي كانت قد ذاعت و مفادها أنّ مرسى غار الملح الذي يحتوي على مخازن الأسلحة التونسية و القطع البحرية وبعض القبائل، قد اعترفت بسلطة محمد بن شكر كباي على البلاد، مما سيعرض حكم الباي محمد المرادي إلى مهب الريح ومصيره سيكون مسألة وقت لا غير[31].

هـ- نتائج حصار مدينة تونس:

يبدو أن الحصار كان خانقا لحد أن الرعية ثارت في وجه الباي محمد المرادي وتمنت نهاية سعيدة لهذا المأزق الكبير، ولم يجد الباي أي طريقة للنجاة سوى الهروب حيث فرّ من المدينة، يوم 24 ربيع الأول 1106ه / نوفمبر 1694م[32]، وتوجه صوب مدينة القيروان التي منعه أهاليها من دخولها، وبذلك بقي هائما على وجهه في الصحراء. بعد أن تأكدت الرعية من فرار الباي طلبوا الصلح من الداي شعبان الذي قبل به ومنحهم الآمان و بالمقابل أعلنوا ولائهم التام له. أدى هذا إلى نجاح ابن شكر في تنفيذ مساعيه و مخططاته الرامية إلى السيطرة على مقاليد الحكم بتونس؛ حيث تم تنصيبه بايا عليها، وتولية داي جديد كي لا يجد معارضة من قبله[33]. وكنتيجة لهذا الولاء فإنّ داي الجزائر اعتبر الحاكم الجديد تابع له، ومن مظاهر ذلك أنّهم منحوا امتياز صيد المرجان للفرنسيين بجزيرة طبرقة[34].

وقد أشار صاحب الحوليات التونسية أن الحكومة الجزائرية أرادت الاستفادة من انتصاراتها التي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حققها جيشها في تونس لتوسيع حدودها الشرقية على حساب تونس، حيث استند في ذلك إلى وثيقة مؤرخة، في عام 1693[35].

وإذا نظرنا بتمعن لهذا القول فإننا نرى بأن الانتصارات كانت، عام1694م، وهو قد ذكر بأن الوثيقة مؤرخة عام 1693م، وهنا المعركة لم تَجْرِ بعد ولم ينتصر الجزائريون كذلك، حتى يحققوا أطماعهم التوسعية، كما أنّهم لو أرادوا ذلك لألزموا حكّام تونس على تغيير اتفاقية رسم الحدود الموضوعة منذ عام 1628م، وتكون بذلك التوسعات محكومة باتفاقيات و لا يلجئوا لهذا الأسلوب الضعيف مادامو في موقف قوة، و لأقاموا حكّاما جزائريين لضمان التبعية، أو حكاما تابعين لهم لا يساورهم أدنى شك في ولائهم. كنا قد أسلفنا القول بأن الجزائريين كانوا يمارسون الوصاية على تونس من منطلق أنّهم كان لهم الفضل في تحريرها أواخر القرن المنقضي، و ما على بايات تونس إلّا الاعتراف بذلك والإقرار بأمر التبعية، أمّا بالنسبة لامتياز صيد المرجان فإن الجزائر كان لها نصيب من مرجان طبرقة في عهد صالح باي قسنطينة[36]، ونحن نجهل تاريخ بداية الاستفادة من هذه المادة الحيوية التي أسالت لعاب فرنسا بالدرجة الأولى. كما أن الحصول على ضرائب صيد المرجان بهذه المنطقة لا تعني بأنها خاضعة للجزائر أو تمارس عليها السلطة الكاملة، وعلى أيّة حال قربها من الحدود الجزائرية ووجود مراكز صيد المرجان الرئيسية شرق الجزائر بسواحل عنابة، جعل منها محط أنظار حكام الجزائر ولم يفكروا في ضمها للإيالة و ربما لو أرادوا لفعلوا ذلك ما داموا في موضع قوة.

كان خوف أهالي مدينة تونس من عمليات النهب و الاغتصاب التي عادة ما تصاحب هذه الأوضاع كبيرا، إلّا أنّ ذلك لم يحدث ماعدا بعض التجاوزات التي أحدثها جند الجزائر، بعد أن سكروا، عندما وجدوا مخزوناً من الخمور في دهاليز السجون التي اقتحموها. بعد المعركة تم تنصيب ابن شكر بايا و فرض عليه الداي شعبان دفع مبلغ خمسمائة ألف قرش كمقابل لدعمه له، منها مئة ألف للداي و الباقي لخزينة إيّالة الجزائر. وبمقارنة حجم المبالغ المفروضة مع ظروف تونس القاسية في هذه الفترة سوف لن يستطيع الباي الجديد أداء ما عليه من الأموال، إلّا بالعودة إلى اضطهاد الرعية وسلب أموالها دون رحمة وشفقة[37].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قرر الداي شعبان العودة إلى الجزائر بعد ما تم فرض الاستقرار في تونس؛ حيث تنتظره مهام جسيمة وعلى رأسها قضية تحرير وهران، وإيجاد مصادر مالية أخرى للخزينة الجزائرية، وهكذا غادر الداي و كان محملا بل مثقلا بغنائم كثيرة، وأخرى وُعِدَ بالحصول عليها لاحقا[38]، و عليه صودرت أموال الأهالي في مدينة تونس بقرار من الباي الجديد محمد بن شكر ليوفي بوعده نظير مساعدته[39]. و يقال أنه عند مغادرة الداي شعبان لمدينة تونس تخاصم مع صاحب طرابلس وقائد محلتها خليل الأرناؤوطي، وبعيدا عن الاختلافات الواضحة، نجد أن خليل تخاصم مع الداي شعبان حول الغنائم المتحصل عليها، حيث اعتبر الأخير أنّ ما غنمه خليل من المراكب التونسية في مرسى غار الملح وغيرها هو كل حصته ولا أكثر، إلّا أنّه كان يطمع في غنائم المدينة، عندها شتم خليل الداي شعبان الذي استشاط غضبا؛ وكاد أن يقتله و قصفت مدافع الجزائريين سفن طرابلس من القلاع الحربية بعد مغادرتها لمرسى حلق الوادي[40].

وهكذا بعد أن نصب الداي شعبان خليفته ابن شكر على رأس الإيالة التونسية، و ها هو خليل صاحب إيالة طرابلس الذي كان بالأمس القريب حليفا له، واليوم يفر من وجهه خوفا منه بسبب الغنائم. يكون الداي شعبان هو السيد الوحيد للإيالات المغاربية الثلاث، ولكن ذلك لن يكفي إلا بمباركة من سلطات الباب العالي ومنحه لقب بايلرباي شمال إفريقيا[41]، كما كانت تفعل من ذي قبل مع البايلربايات في القرن السادس عشر ميلادي، فهل سيستطيع الداي المحافظة على هذه التبعية له والحصول على اللقب كما كان يتمنى؟

غادر الداي شعبان على رأس جيشه مفضلا طريق البر، و رافقه ابن شكر لتوديعه، كما نقل جزءاً من الجيش عن طريق البحر وكان ذلك في 17 –01 – 1695م، ومباشرة بعد الرحيل فإنّ دوامة العنف والتقاتل على السلطة في تونس لم تكن لتهدأ وكأنها قدر محتوم على أهاليها؛ إذ ثارت الرعية من جديد على الباي محمد بن شكر مرة أخرى وخلعته، ولطالما سئمت الرعية من الحكام الذين تنصبهم الجزائر بسبب الضرائب التي يباشرون جمعها لتسديد ما عليهم لأسيادهم حكام الجزائر[42]. ولكن طائفة الجند الإنكشاري عزمت على منع دخول هذا الباي إلى الجزائر كي لا يتمكن من الاستنجاد بالداي ثانية، ويدخلهم في حرب هم وقودها، وبالمقابل هددت الداي شعبان في حالة عودته إلى تونس

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بالانتقام منه ولكن الداي لم يكن ممن يخشون التهديدات فقد صمم على محاربة المتمردين على سلطته في الجزائر و تونس للحصول على الأموال التي كانت الخزينة بحاجة إليها.

و هناك عقبات كثيرة وكبيرة كانت تعترض الجزائر بل وتشغلها عن مسائل أكثر حيوية، كما أثرت بشكل مباشر على إدارة الداي لأمور الإيالة، ولعلها كانت تحدث في غير محلها، ذلك أن الإنجليز، في سبتمبر من عام 1694م، اغتنمـوا فرصة غيــاب الداي شعبان وتواجده في توس و اقترحوا على ديوان الجزائر أن يعلن الحرب على فرنسا مقابل مبالغ مالية معتبرة وعتاد حربي وهدايا كثيرة، بَيْد أن الديوان رفض ذلك متحججا بعدم البت في مثل هذه القضايا التي هي من شأن الداي وحده، وعندما عاد الداي شعبان أكد هذا الرفض. كل هذه المساومات كانت بعد استرجاع فرنسا لمؤسساتها التجارية بالقالة، بعد أن كانت بِيَدِ الإنجليز منذ عام 1684م[43]. وهو ما يفسر حرص القنصل الفرنسي بتونس سورهاند (Sorhainde) بتتبع مجريات الحرب و معرفة ما ستؤول إليه الامور هناك[44].

عقدت فرنسا اتفاقية سلم و تجارة مع الجزائر، في مطلع 1694م، يدل هذا على أن التنافس كان على أشده بين الأوربيين على خدمة مصالحهم الشخصية على حساب مشاكل الآخرين بواسطة الأموال والهدايا، التي كانوا يبتذلونها لقاء ذلك، وهكذا فإنّ موت الداي شعبان لم يخدم التونسيين فحسب بل حتى الفرنسيين، وعندما تقلد الداي أحمد حكم الجزائر(1695– 1698م) أمر باحترام المؤسسات الفرنسية، كما أقرّ بدمج شركة الرأس الأسود بطبرقة و مؤسسة القالة في مؤسسة واحدة[45]. هذا ما يثبت لنا مرة أخرى، استفادة الجزائر من ضرائب مرجان جزيرة طبرقة. إنّ التصرفات الأحادية للداي شعبان وحكّام الإيّالات الثلاث والحروب فيما بينها أزعجت الباب العالي، حيث عبر عن سخطه لما يجري هناك متسائلا عن الأسباب الكامنة وراء هذه الحروب[46].

أثّرت الحرب المستمرة وحالة عدم الاستقرار على أوضاع الجزائر الداخلية، و أرهقت الجند، كما ساهمت كذلك في إثارة القلاقل والفتن و تأليب فرق الإنكشارية على الداي، بداية من فرق الجيش التي كانت تحرص الحدود الشرقية الجزائرية، حيث اتجهت نحو مدينة الجزائر للفتك بالداي المنتصر، فكيف الحال إن كان منهزما. ولم نجد أسباب هيجان الإنكشارية في المصادر، وهذا ما أدى إلى اختلاف الآراء حول نهايته.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

رابعا– نهايته المأساوية:

كانت نهاية الداي شعبان مأساوية للغاية، و نجد سبباً أو اثنين ربما يكونا كافيين لفهم المأساة، التي أنهت حياة هذا الداي ومنها:

أ– أنّه قرر العودة لحرب تونس لمساندة الباي محمد بن شكر بعد رفضه للصلح الذي تقدم به باي تونس الجديد[47].

ب– أنّه لم يعط للجند الذين حاربوا معه من الغنائم ما يكفي، لقاء ما بذلوا من عناء في الحرب.

تعرض الداي شعبان لمحاولة إغتيال أولى أثناء تأديته لصلاة الجمعة، عندما هم أحدهم بأن يقتله بالرصاص ثم بالشاقور، ولكن الداي أحس بذلك وفرّ من المأزق الذي كان لا يحسد عليه. ومهما يكن فإن الداي شعبان حاول عبثا أن يثني القوات المتمردة عليه بزعامة محمود خوجة[48] على ما عزمت عليه، حيث بعث جماعة موثوق بها يتزعّمها القاضي والمفتي الحنفيان ولكن دون جدوى، و كَحَلٍ بديل فتح الخزينة ووزع الأموال على الجند، بمدينة الجزائر ليقفوا معه ضد الفرق المتمردة ولكنهم ساعدوا الجند الثائر في القبض على الداي بدل مساعدته[45]، حتى اولئك الكراغلة الذين سمح لهم الداي بالانتساب لفرق الاوجاق و لو جزئيا لم يقفوا معه[49].

بعد أن تم إيداع الداي السجن ويكون هذا السجن هو سجن سركاجي اليوم، لم يكن الداي يفهم ما هو سبب هذا الانقلاب عليه، حيث كان قد استفسر من المتمردين عن ذلك فأجابوه بأن ظلمه للناس هو من أدى بهم إلى ذلك وأثناء وجوده بالسجن يقال أنه طلب بأن يوضع له قنديل للإنارة كي يقرأ القرآن، ولكن حراس السجن أخبروه بأن الداي منع ذلك ويقصدونه هو، حيث كان من قبل قد أمر بإزالة القناديل من السجن، وفي وقت لاحق قام سجانوه بتعذيبه كي يريهم مخبأ الأموال التي بحوزته فقال لهم كيف أستطيع ذلك وأنا تحت التعذيب فطلب منهم الأمان له ولعائلته بعدها يخبرهم بمكان الأموال وعندما هم هؤلاء بذلك كان الداي الجديد قد سارع إلى خنقه في السجن خوفا منه[50].

كثيرة هي الانجازات التي حققها الداي شعبان في مدة قصيرة جدا لم تتعد الستة سنوات في سبيل استقرار الايالة، ومواقفه الصلبة ازاء التنافس الاوربي بقيت شاهدة عليه، و لكنه لقي المصير نفسه الذي لقيه كم من واحد من حكام ايالة الجزائر العثمانية خاصة منذ عهد الأغوات وبموته قُبِرَ مشروعه

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الوحدوي وانتهى حلمه في أن يكون بايلربايا جديدا للمنطقة بسرعة كبيرة، ولم نجد محاولات جادة لتوحيد شمال افريقيا تحت سلطة واحدة كما كانت منذ القرن الثالث عشر ميلادي، إلا في عهد الاستعمار الفرنسي الذي سعى لتوسيع نفوذه خدمة لمصالحه، فكيف لم تكن هذه المصلحة بالذات من اهتمامات حكام الايالات المغاربية مثل الداي شعبان على الاقل في التصدي للمحاولات الاستعمارية الاولية التي انهكت قواها و جعلت منها لقمة سهلة للعدو.

الهوامـــش:

(1) هلايلي ،حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر2008م، ص ص43–44.

(2) هو جزء من الإيّالة يتكون من أقضية التي تتكون من نواحي والنواحي من قرى.

(3) البشروش، توفيق، جمهورية الدايات في تونس(1591 – 1675)، شركة اوربيس للطباعة، تونس 1992م، ص ص29 –30.

(4) سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت2005م، ص322.

(5) غطاس،ن عائشة وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954م،الجزائر2007م، ص56.

(6) هلايلي ،حنيفي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ص95.

(7) سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ص326.

(8) المزاري ،الأغا بن عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر واسبانيا و فرنسا، تحقيق بوعزيز يحي، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2008م، ص228.

(9) غطاس، عائشة، المرجع السابق، ص56.

(10) وولف ،جون ب، الجزائر وأوربا 1500– 1830م، ترجمة و تعريب سعد الله أبو القاسم، دار الرائد، الجزائر 2009م، ص158.

(11) ابن عبد الكريم، محمد، مقدمة كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لـ ابن ميمون محمد الجزائري، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر2007م، ص22.

(12) نفسه، ص22.

(13) بوعزيز، يحي، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500–1830، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2009م، 89.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(14) غطاس عائشة، المرجع السابق، ص55.

(15) روسو، ألفونسو، الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة و تقديم الوافي محمد عبد الكريم، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي ، ليبيا 1992م، ص 140.

(16) نفسه، ص141.

(17) المدني، أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر1766-1791م، دار البصائر، الجزائر2009م، ص64.

(18) روسو ،ألفونسو، المرجع السابق، ص 141.

(19) De Voulx (A), Tachrifat, Recueil De Notes Historiques, Alger, Imprimerie du Gouvernement, 1852, p11 .

(20) ابن عبد الكريم، محمد، المرجع السابق، ص25.

(21) قنان ،جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا(1619-1830م)، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 2007م، ص142.

(22) ابن عبد الكريم ،محمد، المرجع السابق، ص 25.

(23) ابن غلبون، الطرابلسي، تاريخ طرابلس الغرب (التذكار)، تعليق الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة 1349ه، ص ص154-155.

(24) ابن أبي الضياف، أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج1، ج2، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس2004م، ص 63.

(25) فيرو ،شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي،ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي ليبيا، ص 234.

(26) De Voulx, Tachrifat, op. cit, p11.

(27) Maggil (M,Thomas), Nouveau voyage a Tunis, publié en 1811, Paris, editeur de dictionnaire des sciences médicales, 1981, p76.

(28) روسو ،ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.

(29) ابن عبد الكريم ،محمد، المرجع السابق، ص 25.

(30) مقديش ،محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق الزواري علي ومحفوظ محمد، ط1، مج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م، ص136.

(31) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.

(23) Maggil (M,T) , op. cit, p77.

(33) حسن ،حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، تحقيق حمادي الساحلي، دار الجنوب، تونس2015م، ص122.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(34) جزيرة تونسية قريبة من شاطئ البحر والحدود الجزائرية التونسية، ذات شكل مثلث، استغلها الجنويون مقابل ضرائب تدفع لحكام الإيّالتين قبل 1740م حيث استرجعها علي باشا الحسيني، وأبقى نصيبا من ضرائبها للجزائر. أنظر: بيسونال جون أندري، الرحلة إلى تونس 1724م، ترجمة و تحقيق السنوسي محمد العربي، مركز النشر الجامعي، تونس 2003م، ص147.

(35) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.

(36) مراسلات بايات قسنطينة، مخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم1641، ورقة 6.

(37) روسو،ألفونسو، المرجع السابق، ص 143.

(38) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.

(39) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص137.

(40) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 143 .

(41) ابن عبد الكريم ،محمد، المرجع السابق، ص 25.

(42) جون ،وولف، المرجع السابق، ص ص 365 – 366.

(43) بوعزيز ،يحي، المرجع السابق، ص92.

(44) Garrot Henri, Histoire générale de l'Algérie, Alger, imprimerie P. Grescenzo, 1910,p .

(45) Plantet (Eugène), Correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France, T1,(1579-1700), paris, 1889,p441.

(46) قنان، جمال، المرجع السابق، ص 143.

(47) سعد الله،أبو القاسم، المرجع السابق، ص326.

(48) ابن عبد الكريم ،محمد، المرجع السابق، ص25.

(49) هلايلي، حنيفي، المرجع السابق، ص81.

(50) سعد الله ،أبو القاسم، المرجع السابق، ص326.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قضايا البحر الأبيض المتوسط بين الجهاد والصليبية
من خلال كتابات فرناند بروديل

أ.د. هلايلي حنيفي
جامعة سيدي بلعباس
البريد الإلكتروني:hanifi_andalous@yahoo.fr
بوجلال مسعودة
طالبة دكتوراه جامعة تلمسان

تاريخ الاستلام: 2016/11/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

لقد شكلت العلاقات بين إسبانيا والدولة العثمانية في حوض البحر الأبيض المتوسط, مرحلة هامة من مراحل الصراع الإسلامي المسيحي الذي قادته كل من الدولة العثمانية في الشرق, والإمبراطورية الإسبانية في الغرب للهيمنة على البحر الأبيض المتوسط. وقد برز هذا الصراع بشكل كبير خلال القرن 16م, الذي تصفه بعض المصادر بقرن الصراع الإسلامي مع إسبانيا, خاصة في الجزء الغربي منه. وبالإضافة إلى ذلك فهو قرن يستحيل معه فصل السياسة عن الدين و بالأخص ما كان متعلقاً منه بملف الصراع الإسباني – العثماني, حيث وجب أن لا يغيب عنا أن الدين قد أثر على فكر وسلوك الإنسان خلال القرن السادس عشر سواء أكان عثمانياً أو إسبانيا أو أوروبياً, وتلك هي الحقيقة التي تشرح لنا طبيعة الأحداث والصراعات السياسية والعسكرية بالبحر الأبيض المتوسط.

إن تلك المرحلة كانت حتمية تاريخية ؛ لأن الظروف التي توفرت خلال القرن 16م، فرضت ذلك النوع من الاحتكاك بين منهجين حضاريين مختلفين، وإيديولوجيتين متناقضتين –خاصة في تلك الفترة– بالإضافة إلى المصالح المتصارعة..

الكلمات الدالة:

البحر الأبيض المتوسط– الدول الأوروبية– الدولة العثمانية– القرن 16م.

العنوان بالإنجليزية:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Notes on the evolution of intellectual life in Algeria during the Almowahidin

.Abstract:

The relations between Spain and the Ottoman Empire in the Mediterranean basin constituted an important stage in the Muslim-Christian conflict, which was led by the Ottoman Empire in the East and the Spanish Empire in the West to dominate the Mediterranean. This conflict emerged significantly during the 16th century, which is undoubtedly the century of great transformations. This is what we will study from the point of view of the French historian Fernand Braudel, the latter whose view of the conflicts in the Mediterranean was worthy of attention.

Key words:

Mediterranean - European countries - the Ottoman Empire - 16th century

.

لقد شكلت العلاقات بين إسبانيا والدولة العثمانية في حوض البحر الأبيض المتوسط, مرحلة هامة من مراحل الصراع الإسلامي المسيحي الذي قادته كل من الدولة العثمانية في الشرق، والإمبراطورية الإسبانية في الغرب للهيمنة على البحر الأبيض المتوسط. وقد برز هذا الصراع بشكل كبير خلال القرن 16م، الذي تصفه بعض المصادر بقرن الصراع الإسلامي مع إسبانيا، خاصة في الجزء الغربي منه. وبالإضافة إلى ذلك فهو قرن يستحيل معه فصل السياسة عن الدين و بالأخص ما كان متعلقاً منه بملف الصراع الإسباني – العثماني, حيث وجب أن لا يغيب عنا أن الدين قد أثر على فكر وسلوك الإنسان خلال القرن السادس عشر سواء أكان عثمانياً أو إسبانيا أو أوروبياً، وتلك هي الحقيقة التي تشرح لنا طبيعة الأحداث والصراعات السياسية والعسكرية بالبحر الأبيض المتوسط.

إن تلك المرحلة كانت حتمية تاريخية؛ لأن الظروف التي توفرت خلال القرن 16م، فرضت ذلك النوع من الاحتكاك بين منهجين حضاريين مختلفين، وإيديولوجيتين متناقضتين- خاصة في تلك الفترة بالإضافة إلى المصالح المتصارعة. والسؤال الذي يطرح في هذه الحالة هو: ما هي الظروف والأوضاع التي تحكمت في العلاقات بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن 16 م ؟ ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل من خلال ما يلي:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

1- القضية الموريسكية:

لقد اعتبرت إسبانيا نفسها المدافع الأول عن جميع المسيحيين في المتوسط, خاصة بعد إتمام وحدتها, نتيجة زواج فرديناند وإيزابيلا[1] سنة 1469 م والقضاء على آخر معاقل المسلمين بالأندلس, بسقوط غرناطة عام 1492م[2]. هذه الوحدة أو الزواج السياسي أفرز دولة قوية ناشئة مسيحية في الشمال, وهو ما جعل أحد الباحثين يعلق على هذه القضية بقوله:" إسبانيا من دولة ناشئة إلى إمبراطورية موحدة للمسيحيين"[3]. وبانضمام عدة أقاليم، تحقق حلم الوحدة الإسبانية بسرعة كبيرة، ومن ذلك تولدت أسطورة إسبانيا "الإمبريالية"،كما يقول بروديل. وأطلق هذان الملكان على نفسيهما لقب "الملكين الكاثوليكيين"مما يعكس صورة التعصب الديني ضد الإسلام[4].

تحدث بروديل عن هذه الوحدة فقال:" كانت اللحمة القوية التي عاشتها إسبانيا في القرن الخامس عشر لحمة شعب كان الأضعف والأقل لمعاناً وذكاءً وغناً في مواجهة الحضارة الإسلامية. ثم ما لبث أن تحرر وأصبح الأقوى في مواجهتها من دون أن يملك يقيناً عميقاً بقوته, فاستمر في الصراع وأقام محاكم التفتيش تحت سطوة خوف ظلامي يتملكه"[5]. ويضيف بقوله:" لقد شكل كل من نهوض الحس الديني وعودة فكرة الصليبية في إسبانيا في القرن الخامس عشر, قاعدة الصوفية الإمبراطورية لقيام الوحدة الإسبانية. وفي سيرها نحو هذه الوحدة السياسية لم يكن في وسعها أن تُصورها إلا على صورة وحدة دينية. هذه الأخيرة التي كانت من وجهٍ آخر ضرورية لاحتلال غرناطة عام 1492م, وللتوجه نحو شمال إفريقيا, وهكذا أصبح الملك الكاثوليكي الإسباني (فرديناند) بطل الصليبية الجديدة"[6].

ولعل أهم عمل قام به الملكان الكاثوليكيان, هو تصفية الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس, وقد رأى بروديل أن سقوط غرناطة في يد الإسبان الكاثوليك يُعد تتويجاً لانتصارات كانت قد بدأت تتلاحق منذ القرن الحادي عشر في كل من أراغون وفالنسيا والأندلس, كوجه من وجوه الصراع الديني الحضاري, بين المسيحية والإسلام , هذا الصراع الذي اتخذ شكلاً استيطانيًا ضد الشعب الموريسكي(المسلمين)[7]. وهو هنا ينوه لمدى أهمية القضية الموريسكية بالنسبة للطرفين، كونها مثلت وجهًا جديدًا من أوجه الصراع الحضاري بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كما يمكن القول أنه وبعد سقوط غرناطة اتبعت إسبانيا المسيحية تجاه مسلمي إفريقيا والأندلس سياسة تهدف للقضاء تدريجيًا وبصورة جذرية على كل مظاهر الإسلام، ذلك أن نخوة النصر التي اجتاحت إسبانيا قد ألهبت العواطف وطغت على منطق العقل وكرست منطقاً جديدًا أحاطه رجال الكنيسة بقدسية سماوية, لتسهيل عملية القضاء على النفوذ الإسلامي بالأندلس، واستئصال جذور المسلمين الثقافية والدينية، بل وملاحقتهم إلى شمال إفريقيا في إطار الصراع القائم بين الهلال والصليب(8).

وفي هذا الصدد بدأ ملوك إسبانيا بوصف أنفسهم بالملوك الكاثوليك، فكل مراسلاتهم حول المسائل الإفريقية, ومطاردة الأندلسيين تدل على الطابع والصبغة الصليبية لسياستهم, ويمكن أن نستدل على ذلك بقول بروديل: إن الحروب الإسبانية في إفريقيا قد أخذت صبغة الصليبية الحقيقيةن وذلك نظرًا للدور العظيم الذي قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت، الكنيسة بإسبانيا قد ساهمت بجميع ما لديها من الحماس ومن الجرأة في هذه المعركة ضد المسلمين, بل إن الكنيسة قد أرادت في الكثير من الأحيان اعتبار هذه المعركة, معركة خاصة بها(9). وقوله أيضا: " إن التعصب الديني والرغبة الجامحة في محاولة تنصير المسلمين وإرادة إبعاد حدود الإسلام كل ذلك مجتمعًا قد دفع بالإسبانيين في أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر, إلى التدخل بالغزو في البلاد الإسلامية بالشمال الإفريقي، والكلمة التي نجدها معبرة عن هذا المعنى ولا نجد لها بديل، هي كلمة الصليبية"(10).

وهكذا أصبحت إسبانيا تؤمن بأن عليها واجب تطهير أرضها من الإسلام والمسلمين, والتي أصبحت تخشى منه ومن شبحه, فاندفعت في محاولة لتنصير المسلمين, وصادرت أملاكهم، وحرّمت عليهم التكلم باللغة العربية، وارتداء الألبسة، والتردد على الحمامات، كما منعتهم من فتح منازلهم أيام الحفلات يومي الجمعة والسبت، بالإضافة إلى منعهم إقامة الشعائر الدينية, وعدم التسمية بأسماء عربية, كما حولت جميع المساجد إلى كنائس وأرغمتهم أن يحملوا إشارة زرقاء على القبعة إذا ما بقوا على دينهم(11).

ومن هنا يمكن القول أن كل تلك الأعمال التي قام بها ملوك إسبانيا تجاه الموريسكيين ما هي إلا بداية فعلية لاضطهاد وابتلاع لهذه الشخصية المسلمة القويمة من أرض الأندلس. في محاولة منهم للقضاء

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

على الموروث الحضاري الإسلامي الذي خلدته الأندلس, ويمكن أن نستدل هنا بما جاء به بروديل في قوله: "... وهذا كله لم يمنع فيليب الثاني من الحكم بالإعدام على حضارة الموريسك بأكملها، حيث قام بمنعهم من ارتداء أزيائهم وكذا التحدث باللغة العربية..."(12). وقد أوكلت مهمة تحقيق هذا الهدف إلى دواوين محاكم التفتيش، هذه الأخيرة التي وجدت في الموريسكيين ميدان نشاطها المفضل(13)، وهذا ما يظهر في حملاتها ضد الموريسكيين والتي بلغت درجة اللاإنسانية(14).

لقد أقرت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم وعن هويتهم الثقافية, وهذا الأمر جعل بروديل يصر على القول: " أن المشكل الموريسكي هو صراع ديني وبمعنى آخر صراع حضاري بين المسيحية والإسلام يصعب حله فهو مدعو لأن يستمر"(15).

وهكذا كانت السياسة الإسبانية ترمي بتصرفاتها تلك إلى تقديم إنذار إلى المسلمين لكي يخلصوا في تبعيتهم لإسبانيا، وليعلموا أن المستقبل لإسبانيا الكاثوليكية, ولا مكان لدين آخر فيها، فمن أراد أن يعيش كمواطن إسباني لا بد أن يكون مسيحياً كاثوليكياً, وإن لم يعتنق هذا طوعاً. فسيجد نفسه مجبرًا على اعتناقه بكل الطرق والوسائل(16)، ويؤكد بروديل على هذه الفكرة بالقول: أن الملوك الإسبان وبعد الانتصارات التي حققوها على المسلمين في الأندلس, قاموا بإرغامهم على اعتناق الدين المسيحي, وهذا ما حدث في كل من كاستيل وغرناطة, أما في كاتالونيا فقد تم طرد المسلمين (الموريسكيين) على نحوٍ كامل. وبعد سقوط غرناطة لم يبق رسمياً مسلمون في إسبانيا، لأنهم أرغموا كلهم على اعتناق المسيحية(17).

ولعل ما حدث في كل من غرناطة(18) والحمراء وغيرها من المناطق التي كان يتواجد بها الموريسكيون الأندلسيون في إسبانيا من انتفاضات وثورات, ما هو إلا نتيجة من نتائج هذا الاضطهاد الشامل, ولاسيما السياسي(الملوك) والكنسي (الكنيسة ورجال الدين) منه, والذي انتهى بالمجازر والسبي والأشغال الشاقة بعد مصادرة أملاك الموريسكيين وطردهم منها وإسكان ما يقارب اثنتي عشر ألف (12ألف) عائلة فلاحية مسيحية فيها. وأمام إصرار الموريسكيين على البقاء في إسبانيا ومواصلة كفاحهم، لجأ الملك فيليب الثاني لإصدار أمر يقضي بإجبار الرجال من الموريسكيين على العمل في البواخر تفادياً لتناسلهم وبالتالي محاولة منع تكاثرهم(19).

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يمكن القول أن الحكومة الإسبانية قد عملت على مطاردة ومنع كل ما يمكنه أن يؤدي إلى مواصلة عيش أو استمرارية الإسلام في غرناطة, وهدفت من وراء هذه السياسة إلى تقديم إنذار إلى المسلمين (الموريسكيين الأندلسيين)، لكي يُخلصوا في تبعيتهم لها ولجعلهم يشعرون بالخوف والارتباك[20]. ومن هذا المنطلق الديني- المتعصب- تأججت نار الحقد الصليبي الأوروبي الذي كانت توجهه الكنيسة ضد الإسلام والمسلمين بالمشرق والمغرب، ونال مسلموا الأندلس النصيب الأكبر من ويلات الحرب الصليبية هذه, بصفتهم يقطنون جزءًا من أوروبا ويهددون المسيحية في عقر دارها[21].

ومن هنا يمكن القول أن هذا الحقد المسلط على الموريسكيين لم يتوقف إلا بعد طردهم نهائيًا من إسبانيا كلها, ما بين عام1609 وعام1614م[22], ويقدر المؤرخون عدد الذين طردوا بثلاث مائة (300) ألف نسمة. ويرى بروديل أن كل تلك التصرفات والسلوكات النابعة من الملوك الإسبان والكنيسة الكاثوليكية لم يكن مصدرها الحقد العنصري (التمييز العنصري)، بل كانت في حقيقتها نابعة من حقد ديني أو حضاري كموجه أساسي لها[23].

إن ما حدث في إسبانيا اتجاه الموريسكيين الأندلسيين يمكن اعتباره استعمارًا حقيقياً، وهذا بالنظر إلى كل ما تعرضوا له من نهب واعتداء وقتل واستبداد ومجازر واضطهاد، ديني...الخ. ومثل هذا الاستعمار ليس ثمرة تحولات اقتصادية واجتماعية، بل هو نتيجة مباشرة للسيطرة السياسية، وهذا ما يتضح في إرغامهم على اعتناق الدين المسيحي[24]. وأحسن ما يمكن أن نختم به كلامنا عن القضية الموريسكية هو التساؤل الذي طرحه بروديل، والذي كان مفاده: لماذا فعلت إسبانيا ما فعلته بالموريسك؟

وقد جاءت الإجابة عن هذا التساؤل من وجهة نظره على النحو التالي: أن إسبانيا قد فعلت ما فعلته بالموريسكيين، لأنهم واجهوا الحضارة الغربية المفروضة عليهم بالرفض، في مقابل سعيهم للمحافظة على دينهم وأزيائهم وروابطهم العاطفية التي كانت تشدهم إلى عوالم الإسلام. وفي المقابل كان يستحيل على إسبانيا التعايش مع مركز إسلامي يقوم في قلبها- وهذا اعتراف بعجزها- فوجدت نفسها في مواجهة خيارين اثنين: إما اقتلاع ذلك المركز من جذوره، وإما التعايش معه بغية دمجه وهضمه على نحو شامل. وقد تأرجح السلوك الإسباني بين هذين الحدين, لتختار أخيراً الحد الأكثر جذرية أو

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

راديكالية ألا وهو اقتلاع الموريسكيين ونفيهم من المدن أولاً ومن الأرياف ثانياً. لكن ما حصل لم يمحُ أثر الإسلام من إسبانيا التي تشبّعت بعدد كبير من المؤثرات الحضارية الإسلامية[25].

ويمكن أن نستشف موقف بروديل الشخصي من القضية الموريسكية في قوله: " ... فضلاً عن تجنب الأخذ بأحكام الأخلاقيين المبسطة التي ترسم خطاً فاصلاً بين الصالح والسيئ وبين الخير والشر. إنني أرفض اتهام إسبانيا بالإجرام في حق اليهود[26] ، لأنه ليس من حضارة في التاريخ كله قامت بتفضيل الآخر على نفسها. أقول هذا في الوقت نفسه الذي أقف فيه, ومهما حصل, إلى جانب جميع الذي يُسلبون حريتهم وممتلكاتهم وتنتهك أجسامهم وتُحتقر معتقداتهم، أي أنني أقف إلى جانب كل من الموريسك واليهود في إسبانيا. لكن موقفي هذا، فضلاً عن أحاسيسي ومشاعري، لا علاقة لها البتة بحقيقة المشكلة التاريخية المطروحة"[27]. وختم بروديل كلامه بالقول أن الحروب "الاستعمارية" كلها هي في الأصل صدام بين حضاراتٍ أكثر تطلباً من المجتمعات التي تنتمي إليها، حضارات تتغذى من الحقد والغضب ولا تعرف الرحمة. هكذا هو حال القضية الموريسكية، التي ما هي إلا حلقة من حلقات الصراع الحضاري الطويل في البحر المتوسط بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي اللذين يتبادلان الغنى والفقرو التفوق والتأخر، ويتناوبانهما[28].

2- القــرصـــنـــة البحرية:

أطلق على الحروب البحرية في القرن الخامس والسادس عشر لفظ القرصنة ويُعتبر البحر المتوسط مهد القرصنة البحريّة, فالقرصنة البحريّة قديمة قدم التاريخ[29]، ولم تكن إذًا وليدة القرن السادس عشر، بل تعود جذورها إلى أبعد من ذلك بكثير، إلاّ أن ازدهار نشاطها, بدأ منذ القرن السادس عشر[30]. إلا أنّ للقرصنة قوانين تحكمها, ونظامها الدّولي الذي يؤطّرها. وفي هذا يقول بروديل: "... القرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط لكنّها تختلف عنها في الأطلسي, في أنّ الأولى لها قواعدها وأعرافها, وتقاليدها, إذ كانت تعقبها مفاوضات بين الدّول والمدن التي كانت تقوم بينها إلى تبادل القرصنة صلات". ويضيف قائلا: "... كانت القرصنة شكلاً من أشكال الحرب, وهي أي القرصنة لم تكن نشاطاً فرديًا, بل نشاط جماعات وشبكات تشترك المدن والدول في تنظيمها، الأمر الذي يؤكّد أنهّا كانت من طباع ذلك الوقت ومزاياه ..."[31]. إن البحر الأبيض المتوسط بأكمله، كان مجال صراعات مستمرة,

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بين كيانات متجاورة ومتحاربة. إن الحرب تبرز كواقع دائم, يبرز اللصوصية البحرية، وتبريرها يعني ترتيبها ضمن فئة قريبة منها, لكنها موصوفة بالنبل وهي القرصنة. لكن ثمة فارق له أهميته وهو أن القرصنة لصوصية عتيقة, ترسخت في مجالها، بعرفها ومستوياتها وحواراتها المتكررة[32].

لقد كانت الجزائر من أهمّ الدّول التي قامت ونشأت على القرصنة, كما صُنفت واعتبرت من أقوى الدّول التي تعاطت هذا النشاط, إلاّ أن الواقع في حوض البحر الأبيض المتوسط، هو ما ذكره بروديل حين قال: " كان هناك أكثر من جزائر مسيحية (يقصد بذلك القرصنة), كمالطة, وبيزا, وليفورن"[33]. ويضيف معقباً على ذلك بقوله: "... وفي الجهة الأخرى من البحر المتوسط كانت مالطة مركزاً للقرصنة وشبكاتها على نحو ما كانت الجزائر. هكذا كانت القرصنة,، بتقلباتها وبمناطق ازدهارها تعكس بوضوح الحركات الكبرى للحياة المتوسطية".

وعليه يمكن القول أن القرصنة لم تكن حكرًا على الجزائر والدولة العثمانية فحسب, بل كانت كل الأمم تتعاط القرصنة، ويمكن أن نستدل على هذا بقول بروديل: "... وفي القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر, حين كان الهلال يقف في وجه الصليب في البحر الأبيض, كان البحّارة يحاربون إمّا باسم الصليب وإمّا باسم الجهاد. فهؤلاء فرسان القدّيس يوحنا, نصبوا أنفسهم في جزيرة مالطة وانطلقوا إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط للاستيلاء على السفن التجاريّة وركّابها وربّانيها. وقد جعلوا البحر والطريق غير آمن على الحجّاج المسلمين، وهي الطريق التي تمتد بين رودس والإسكندرية. فبالإضافة إلى كونها طريق للحج, كانت طريق لتجارة التوابل والحرير والخشب والأرز والقمح والسكر..."[34]. لقد قوى الطابع الديني القرصنة في القرن السادس عشر, وغلب على القرصنة المسيحيّة وكذا الإسلاميّة[35] على حدٍ سواء, ولاسيما إثر اشتداد الصراع بين الخلافة العثمانيّة والدول الأوروبيّة. وفي هذا تقول المؤرّخة كورين شوفالييه: " كانت القرصنة بالنسبة للمسلمين قبل كل شيء شكلاً من أشكال الجهاد البحري, ولو أنها تتخذ أحيانًا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين"[36].

لقد كان النصف الأول من القرن السادس عشر فترة لتفوق القرصنة الإسلامية انطلاقاً من شمال إفريقيا, ويظهر هذا التفوق والازدهار خاصة عقب سيطرة الأتراك على جزيرة رودس في عام 1522م، لتنمو بشكلٍ واسع بعد سيطرة الإسلام على المتوسط في عام 1538م. ليكون النصف الثاني من القرن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

نفسه لصالح توسع القرصنة المسيحية خاصة بعد التفوق الذي تم إحرازه في معركة ليبانت لصالح المسيحية عام 1580م، وهكذا سيتوسع نشاط القرصنة البحرية بالنسبة للطرفين بالوتيرة نفسها حتى بداية القرن السابع عشر أين ستتجه القرصنة الإسلامية المثلة في القرصنة الجزائرية اتجاه المحيط الأطلسي, ليتم في المقابل توغل القرصنة المسيحية المثلة في المالطيون والصقليون (نسبة إلى صقلية) و النابوليون (نسبة إلى نابولي) في المشرق في منتصف السبعينات من القرن السادس عشر، ليقف هؤلاء جنباً إلى جنب ويشتركوا في نهب السفن الإسلامية وإغراقها وأسر ركابها(37). وعلى هذا يمكن توضيح الرؤى؛ أن العامل الديني كان له بالغ الأثر في تحريك الدول في حوض المتوسط؛ نحو الصراع وتضارب المصالح بينهما، ولا يمكن التعبير عن ذلك بغير القول أن الشعوب أصبحت في تصادم(38). ويعبر جون وولف عن ذلك بقوله: " لقد كان الأمر بالنسبة للطرفين المسيحي والإسلامي,، أمر جهاد وحرب مقدسة"(39).

لقد كان لبروديل رأي مخالف فيما يخص القول أن القرصنة مرتبطة أساساً بالعامل الديني (المسيحية والإسلام)، ويظهر هذا في قوله: " إن القرصنة كانت منتشرة في أنحاء المتوسط كلها دون أن تعرف ديناً أو وطناً. فهي مهنة للعيش تتوسل الدين كذريعة حملها المؤرخون على محمل الجد فأتت استنتاجاتهم متسرعة"(40). لقد كانت عملية القرصنة إذن تحمل طابع الحرب المقدّسة لدى المسلمين والمسيحيين، ولكنّ الطابع الديني بدأ يضعف ويفسح المجال للطّابع الاقتصادي بعد توقف الصراع الكبير بين الدول الكبرى (حرب الأرمادات)، ليتم فسح المجال أمام الغزو البحري أو الحروب الصغرى (حرب المغامرات)(41).

كما يرى بعض المؤرخون أنها ذات طابع اقتصادي, وهناك من يرى أنها شكل من أشكال الحرب التجارية تعتمد على التفوق في العتاد الحربي(42)، وهناك من يرى أنها حرب استنزافية غير معلنة. ويذهب بروديل إلى النقطة نفسها بقوله: هذا المحيط الذي كان ينبض بالحياة جرّاء انتعاش الملاحة التجاريّة فيه, فكان من أهم أسباب التحوّل في مهام البحريّة الجزائريّة الوفرة الاقتصاديّة للمتوسط والمحيط الأطلسي، والتي استمرت إلى ما بعد منتصف القرن السابع عشر, وانحطاط الدول الكبرى ووهنها. فعلى نحو ما كانت تضعف سيطرة الأتراك في الحوض الشرقي, كانت تضعف في المقابل سيطرة الإسبان في الحوض الغربي منه(43)، فبدأت البحريّة الجزائريّة تتحول شيئًا فشيئًا نحو الغزو البحري

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الذي كان الهدف من ورائه هو القيمة الاقتصادية، ومن هنا كانت نقطة التحوّل من الجهاد البحري إلى الغزو البحري, وبذلك غدت القرصنة الجزائرية تتمحور بشكل أساسي حول فكرة الغنائم الجيّدة والثمينة, لا حول فكرة الدين، خاصة بعدما احتضنت البحريّة الجزائريّة المغامرين الأوروبيين الرّاغبين في الثراء السريع[44]. وبالتالي أضحت القرصنة والنشاط الاقتصادي مترابطان، فهذا يرتفع وذلك يستفيد من الازدهار والتقدم[45].

وهكذا هيأت القرصنة من وجهة نظر بروديل بروز حقبتين من الازدهار لمدينة الجزائر, فبين العام 1560 والعام 1570م اجتاح قراصنة الجزائر حوض المتوسط الغربي كله, من البحر الأدرياتيكي إلى مضيق جبل طارق والشواطئ الأطلسية للأندلس, حيث أسروا خمسين سفينة في مضيق جبل طارق في جوان 1566م. وقد أدت جرأة أولئك القراصنة إلى أن تعيش كل من صقلية وجزر البليار في ما يشبه حالة حصار لدرجة الحديث عن توقف الملاحة في حوض المتوسط الغربي في العامين (1563-1564م). أما الحقبة الثانية من ازدهار الجزائر فكانت في الفترة الممتدة ما بين (1580-1620م). وفي هذه الحقبة ساعدت زيادة الثروة التي جنتها الجزائر في الحقبة الأولى على تطوير سفنها لتصبح قادرة على الوصول إلى مرسيليا والبندقية، وأصبح الجزائريون عندئذ يجوبون البحر الأبيض المتوسط، من البحر الأدرياتيكي إلى مضيق جبل طارق, بل إنهم اجتازوا إلى المحيط الأطلسي. وقد بلغوا أراضي ايرلندا وانجلترا والدنمارك والبرتغال واسبانيا وأخذوا منها الأسرى والغنائم[46]. ويمكن القول أن اعتبار القرن السابع عشر ميلادي عصر البحريّة الجزائريّة الذهبيّ راجع إلى كون أن نشاطها البحري قد شمل البحر المتوسط كلّه، وامتد إلى سواحل أوروبا الشمالية والبرازيل وأيسلندا والأراضي الجديدة(47)،وهكذا استطاعت الجزائر وبفضل هذه القوة, وبتقنياتها المتقدمة أن تسيطر سيطرة تكاد تكون كلية على الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط بل والانطلاق في اتجاه المحيط الأطلسي[48].

ففي الفترة الممتدة بين (1621-1627م), كان في الجزائر عشرون ألف أسير منهم فلامنديون وإيقوسيون وإنجليز ودانمركيون وإيرلنديون وهنغاريون وإسبان وفرنسيون وإيطاليون وسوريون ومصريون, ويابانيون وصينيون و من إسبانيا وإثيوبيا، فكلّ أُمّة كان لها في الجزائر طابور من الأسرى, ومن المرتدين (العلوج), وتجاوزت الغنائم في أوائل هذا القرن ما قيمته ثلاثة ملايين جنيه. وهكذا وبداية من القرن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

السابع عشر أصبحت الجزائر مدينة في حجم المتوسط الذي مدّت فيه شباك قراصنتها حتى سواحل إنجلترا وسواحل إيسلندا, لقد شكّلت ظاهرة عالمية أدّت إلى ولادة مؤسّسات لاسترجاع الأسرى منها وافتدائهم, وعميلة تبادل الأسرى والسلع غيّرت من جغرافية الأسواق والتجارة فولّدت روابط واتصالات ووسطاء[49].

كانت مدينة الجزائر بمثابة السوط المُسلّط على العالم المسيحي، إنّها رعب أوروبا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر"[50]. وفي هذا الصدد يذكر بروديل قوله:" لم يرفق رياس البحر بالسواحل الإسبانية, والمناطق التابعة لها خلال القرن 10هـــ/16م. لم يمثل نشاطهم هذا خطرًا على المصالح السياسية الإسبانية فحسب, بل مثل تهديدًا للمصالح الاقتصادية فقد ألحق بعض الضرر بتجارة موانئ اسبانيا، وأثرى مدينة الجزائر بما ضمنه لها من غنائم"[51].

لقد ساهمت البحريّة الجزائرية وقراصنتها في تطوير الاقتصاد الجزائريّ, وجعل مدينة الجزائر مدينة ثريّة مزدهرة, وفي هذا يذكر بروديل قوله:" مدينة الجزائر بنموها اللاطبيعي, تغيرت وتبدل واقعها الاجتماعي في حقبات متتالية: انتقلت من مدينة للبربر(1516-1538م) إلى مدينة للأتراك وللمرتدين عن المسيحية(الأعلاج) قبل أن تصير مدينة شبيهة بالمدن الإيطالية بين العام 1560م والعام 1587م, ثم ما لبث كل من الإنجليز والهولنديون أن وصلوا إليها, حاملين معهم مدافعهم المتطورة التي استفادة منها الجزائر في قرصنتها وزادت من ثروتها, ليقال أنه كان فيها بين عام 1621 وعام 1627م حوالي 20 ألف أسير..."[52].

وقد سعت أغلب المصادر الأوروبية إلى تضخيم حجم "القرصنة البربرية"، والنتائج المترتبة عنها بشكلٍ يصعب تصديقه, وعليه يجب الابتعاد عن الادعاءات الأوروبية التي ترى في النشاط البحري للدولة العثمانية والإيالة الجزائرية ودول شمال إفريقيا عملاً لصوصيًا[53]. وهذا ما يوضحه بروديل في قوله:" بأنه وعلى الرغم من أن المؤرخين قد أكثروا من الحديث عن قرصنة إسلامية خصوصاً في الجزائر, فإن القرصنة كانت منتشرة في أنحاء المتوسط كلها من دون أن تعرف ديناً أو وطناً. فهي مهنة للعيش تتخذ أحياناً الدين كذريعة حملها المؤرخون على محمل الجد فجاءت استنتاجاتهم متسرعة"[54]. وعمومًا لقد كانت القرصنة جزءا لا يتجزأ من مجموع المتغيرات السياسية والتقنية والتجارية, لقد جمعت

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القرصنة بين السيئ والحسن الذي كان يربط ويجمع بين ضفّتي البحر الأبيض المتوسط خلال التاريخ, من خلال إعطاء المثل التاريخية التي كانت تنتمي لضفّتي المتوسط, وفي هذا الشأن يذكر بروديل قوله: " كانت القرصنة البحرية تستهلك الجهاد الإسلامي والصليبية المسيحية، في حقبة لم يعد يهتم فيها بهما غير المجانين والقديسين. ولن تعود الحروب الكبرى إلى المتوسط والتي كانت قد اندلعت في كلٍ من الشمال والأطلسي, في نهاية القرن السادس عشر لن تعود الحروب الكبرى إلى المتوسط, لأنه لم يعد قادرًا على تحمل أعبائها ونفقاتها"[55].

3- معركة ليبانت 1571م:

لقد امتدت مناطق الصراع العثماني الصليبي إلى ميادين بحرية بعيدة عن مركز الدولة, ولكن البحر المتوسط ظل الميدان الأهم باعتباره المركز الأول والميدان الأساسي لهذا الصراع، خاصة في أواسط القرن السادس عشر. وقد ارتكزت السياسة العثمانية على إضعاف إسبانيا باعتبارها القوة الصليبية الرئيسية في أوروبا. وتعتبر معركة ليبانت من مظاهر العداء بين الدولة العثمانية, وإسبانيا في حوض البحر المتوسط, حيث قررت إسبانيا نقل الصراع بعيدًا عن سواحلها, وإشعال النزعة الصليبية الأوروبية في مواجهة الخطر الإسلامي المتنامي[56]. وتعد هذه المعركة من أهم الأحداث العسكرية التي جرت في البحر الأبيض المتوسط كونها كانت انتصار للشجاعة والتقنية البحرية[57].

ويتحدث بروديل عن المعركة فيقول: " لقد تحدى بعض كبار الوجوه القدر, مثل البابا بيوس الخامس الذي تبنى القرار الذي أدّى عام 1571م إلى تكوين تكتل مقدس بين البندقية وروما وإسبانيا, ونجح في ذلك بفضل شخصيته الفريدة، إذ لولاه لما كان ممكناً تكوين كتلة مقدسة وما كانت معركة ليبانت لتقع عام 1571م. وهكذا يمكن أن نقدّر مدى أهمية شخصية البابا القوية في إنجاح هذا التكتل فهو من تولى القيادة الروحية لهذه المعركة، وحثّ جميع المسيحيين على الاشتراك في حرب المسيحية ضد الإسلام, والمسلمين[58]. حصلت هذه المواجهة بين الطرفين عند بزوغ شمس يوم 7 أكتوبر من سنة 1571م، في المكان الواقع بين خليج ليبانت و باتراس (Patras)[59], تمكن خلالها الطرف المسيحي المكون من 208 سفينة حربية من محاصرة السفن التركية التي بلغ عددها 230 سفينة. لقد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كانت السفن المسيحية سفن متطورة استعملت في هجومها المدفعية، أما السفن التركية فقد اقتصرت في الغالب على استعمال وسائل بسيطة كالرمح والأقواس وغيرها[60].

كانت الخسائر العثمانية كبيرة، وهذا ما يوضحه محمد فريد الذي حددها على النحو التالي:" أُخذت مائة وثلاثون سفينة عثمانية, وأُحرقت وأُغرقت أربع وتسعون, وغنمت ثلاثمائة مدفعًا وثلاثين ألف أسير"[61]. أما بروديل فقد قدّر الخسائر بـــــ 30000 شخص بين قتيل وجريح وفقدان3000 أسير و15000 آخرين تم إطلاق سراحهم ممن كانوا يعملون كمجدفين في السفن. أما من جانب التحالف المسيحي, فقد قتل8000 شخص, وقد ذكر أن عدد الجرحى بلغ 21000 جريح, كما فقد المسيحيون عشرة سفن[62]. وهكذا أدت هذه الهزيمة إلى تزعزع التفوق الذي كانت عليه البحرية العثمانية, والذي استمر منذ عام 1538م[63].

فرح المسيحيون كثيرًا بهذا النصر الذي حققوه؛ لأنهم بذلك يكونون قد انتصروا على الإسلام. وقاموا بوضع مخططات لشن حملات عسكرية مستقبلية حول المتوسط بداية من شمال إفريقيا وصولاً إلى مصر وسوريا[64]. غير أن هذا الانتصار الذي حققه العالم المسيحي لم يُفد كثيرًا سوى أنه رفع روحهم المعنوية لفترة وجيزة, ففي العام التالي خرج الأسطول العثماني أقوى إلى البحر المتوسط واستطاع أن يُجبر المتحالفين على الانسحاب من مياه بحر إيجة و الأدرياتيكي, مما أدى إلى خيبة أمل كبيرة في العالم المسيحي, لا سيما الإسبان, كما ازدادت تلك الخيبة أكثر عندما تم استرجاع تونس من جديد عام 1574م وهذا الصراع الذي تحقق فيه أكبر الصدامات لأعظم قوتين إحداهما في الشرق والثانية في الغرب،قد وضع نهاية لمستقبل الإسبان في شمال إفريقيا ولسياستهم في "استعمار" و"حرب الاسترداد" وبموجب معاهدة عام 1581م تباعدت هاتان القوتان إحداهما عن الأخرى[65].

والجدير بالملاحظة أن بروديل لا يتحمّس كثيرًا لإبراز تفاصيل المعركة العسكرية بقدر ما تستدعيه نتائجها (هزيمة الدولة العثمانية) من تفكير وتأمل وتقييم لدلالات الحدث, وربط هذه الدلالات بتراجع القوة العثمانية كجزء من بدايات تراجع أهمية المتوسط العالمية[66]. كما أن انتصار الطرف المسيحي في معركة ليبانت هو من وجهة نظر بروديل وبعض المؤرخين الغربيين, نصر لم تؤدِ نتائجه إلى شيء يُذكر كونه لم يحقق أهداف إستراتيجية, بل أدى وفقط إلى رسم آمال عريضة لمواصلة تحقيق انتصارات أخرى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

على الدولة العثمانية دون أن يتم الوصول إلى هذا الهدف, فبالرغم من هذا الفوز لم يكن بالإمكان القضاء على الجذور العثمانية التي كانت ذات امتداد عميق في الداخل القاري. وبالتالي يمكن اعتبار هذا النصر هو وفقط بمثابة انقضاء فترة طويلة من الاضطهاد ونهاية لعقدة النقص لدى المسيحيين. ويدعم بروديل فكرته هذه بالقول أن إسبانيا مثلاً قد استغلت فرصة السلام القائم في الغرب المسيحي آنذاك لضرب الشرق الإسلامي في البحر المتوسط, إلا أنها وبالرغم من كل هذا لم تكن قادرة على تجميع كل قواها لتوجيه ضربة شاملة للقضاء على خصمها, بل اكتفت وفقط بشن هجمات متناثرة هنا وهناك، تلك الهجمات التي كانت مدفوعة بالظروف أكثر منها بالرغبات، وهذا ما يفسر انتصارها الذي لم يؤدِ إلى نتيجة ولم يحمل أية ثمار(67).

وعليه فإن هذا التصادم الكبير الذي حدث بين الطرفين في معركة ليبانت لم يكن بالنسبة إلى الإسبان إلا انتصاراً مفرداً, لأنه كان يهدف إلى إعادة توازن يُهدده التقدم العثماني. حيث أن العثمانيين قد توجهوا نحو المحيط الهندي, والإسبان نحو المحيط الأطلسي ونحو الشمال. وقد مثلت هذه المعركة نهاية للمواجهات الكبرى بين الدولة العثمانية وإسبانيا،حيث جنحت كلتاهما إلى السلم؛ الدولة العثمانية بسبب انشغالها بحربها مع الصفويين، وإسبانيا التي كانت منشغلة بحروبها في الأراضي المنخفضة (هولندا). وهكذا كانت الإمبراطوريتان تبتعدان عن المتوسط بالوتيرة نفسها، في الوقت الذي كانت تدق في قلب المتوسط ساعة تراجع الإمبراطوريات(68). ومن هنا يمكن القول أنه ومع نهاية سنة 1574م، انتهى الصراع الذي احتدم منذ بداية القرن السادس عشر بين الدولة العثمانيّة التي رفعت راية الجهاد الإسلامي وحامية الأقطار الإسلامية من جهة، والإمبراطوريّة الإسبانيّة التي رفعت لواء الحروب الصليبية لمواصلة احتلال ما تبقى من أراضي المسلمين من جهة أخرى. ولقد كان فتح تونس في سنة 1574م، آخر عملية كبرى للأسطول العثماني في الأقطار المغاربية, أما الإسبان من جهتهم فقد حوّلوا أنظارهم إلى أفاق أخرى ونتيجة لهذه الظروف ولأول مرّة تمكّن كلٌ من الإسبان والعثمانيين من التوصل إلى اتفاق هدنة ثم سلم سنة 1578م بطلب من إسبانيا(69).

ومن هنا يمكن اعتبار نهاية القرن السادس عشر نهاية للحروب الكبرى في المتوسط باتجاه الشمال والأطلسي, وفي هذا السياق يذكر بروديل قوله: "... لن تعود الحروب إلى المتوسط لأنه لم يعد قادرًا على

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تحمل أعبائها ونفقاتها. فالحروب الكبرى اتجهت, بعد معركة ليبانت نحو الشمال والأطلسي, في نهاية القرن السادس عشر, لتقبع طيلة قرون فيها, حيث راح يخفق قلب العالم. هكذا بدأت في العام 1618م حرب الثلاثين سنة بعيدًا عن البحر الداخلي (المتوسط) الذي لم يعد يخفق بعنف، لأنه فقد موقعه القديم كقلب للعالم كله"[70]. لقد كلّفت الحروب كلا المعسكرين خسائر باهظة من الرّجال والعتاد, فكانت مسؤولة إلى حدٍ كبير عن الإفلاس المالي الذي أصاب كلا الإمبراطوريتين (الإسبانية والعثمانية)[71]. كان البحر المتوسط ولمدة طويلة من الزمن حلبة صراع إسلامي مسيحي مرير خاصة خلال الفترة الحديثة، ويمكن اعتبار القضية الموريسكية والصراع الإسباني المغربي (الإيالات العثمانية) وكذا القرصنة وجهاً من وجوه هذا الصراع؛ بل هي جزء هام منه. إن لم نقل أهم مرحلة فيه. هذا الصراع الذي كانت تغذيه النزعة الدينية بالدرجة الأولى؛ خاصة من الطرف الإسباني المتعصب، لكن ذلك لا ينفي وجود دوافع أخرى؛ اقتصادية وأمنية وغيرها.

إن العلاقات بين ضفتي حوض البحر المتوسط تحكمت فيها عدة عوامل مختلفة, ولا يمكن حصرها في ظرف أو عامل واحد, فطبيعة القوى الموجودة إلى جانب المصالح الاقتصادية والاستراتيجية، دون إهمال العامل الديني الحضاري، كلها تحكمت في رسم العلاقات الدولية في المتوسط لا سيما منها العثمانية والإسبانية خلال القرن 16م.

الهوامش:

[1] بزواج إيزابيلا وفرديناند, تكونت الخريطة السياسية لشبه الجزيرة الأيبيرية في القرن 15م/ 9هـــ؛ من عدة كيانات سياسية أهمها: مملكة "قشتالة" ومملكة " آراغون" أو الآراغوان، و"مملكة النفار" والبرتغال, وهي ممالك مسيحية، حدث هذا الزواج في سنة 1469م, حيث تزوج فرديناند ملك الآراغون، من إيزابيلا ملكة قشتالة. وقد ترددت إيزابيلا قبل أن تختار ملك آراغون على حساب ملك البرتغال. رغم أن هذا الزواج لم يؤد إلى توحيد كلي، لاهتمام الآراغون بجزر البحر الأبيض المتوسط. أما قشتالة فكان لها نظرة سياسية أكثر عدوانية على المسلمين. ينظر: جون،ب، وولف،"رياس البحر" تعريب: أبو القاسم سعد الله، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 03، الجزائر،1987، ص ص 201-222.

[2] رجاء، العودي، "عدوني, الجهاد البحري المشترك بين إفريقيا والمغرب الأقصى بين القرن الثالث عشر والسادس عشر ميلادي" مجلة اللجنة المغربية لتاريخ البحرية الإسلامية, سلا – المغرب، ماي– جوان 1997. ص 109.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(3) صالح، حيمر، التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541م وتأثيراته الإقليمية والدولية، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، غير منشورة، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2006-2007م، ص26.

4) Fernand, Braudel, La Méditerranée et Le monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II,Paris,Armand colin,1965.
Paul Carmignani , Autour de F. Braudel, Presse Universitaire de Perpignan, 2002.

(5) فرنان، بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي(ترجمة: مروان أبي سمرا) الطبعة الأولى،بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993, ص- ص144-145.

(6) نفسه، ص 124.

(7) نفسه، ص 139.

(8) Fernand, Braudel, Les Espagnols et La Berbérie De 1492 à 1577, éd, N°02, Belles Lettres étude, Algérie, 2013, pp.200 - 201.

(9) Fernand ,Braudel ,La Méditerranée …, Op. Cit ,T2,p.199.

(10) أحمد توفيق، المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا(1492-1792م)، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص81.

(11) فرنان،بروديل، المرجع السابق، ص139. وينظر أيضا: عبد الجليل، التميمي," رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م" مجلة الأصالة،الجزائر, جانفي- فيفري، العدد 2-3 ،1975م، ص 64.

(12) فرنان، بروديل،المرجع السابق، ص139.

(13) محمد عبد الله، عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الطبعة الثالثة،القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1966، ص 356.

(14) ليلى، الصباغ،" ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ/ أواخر عام 1568 والدولة العثمانية"، مجلة الأصالة، العدد 27، الجزائر، 1975، ص ص116- 117.

(15) Fernand ,Braudel ,La Méditerranée …, Op. Cit, T2, p.118

(16) لوي، كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون المجابهة الجدلية (1492- 1640)، تعريب: عبد الجليل التميمي، الطبعة الأولى، منشورات زغوان، تونس، 1989، ص87.

(17) فرنان، بروديل، المرجع السابق، ص139.

(18) حول موضوع ثورة غرناطة، ينظر: Fernand ,Braudel ,La Méditerranée …, Op.cit, T2, pp.893-904.

(19) فرنان، بروديل، المرجع السابق، ص ص139-140.

(20) Fernand ,Braudel ,La Méditerranée …, Op. Cit ,T2,pp.526 -527.

(21) محمد عبد الله ،عنان، المرجع السابق، ص78.

(22)حول قرارات الطرد التي تعرض لها الموريسكيين، ينظر: حنيفي, هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى، الجزائر، 2010.

(23) فرنان، بروديل، المرجع السابق، ص 140.

(24) نفسه، ص 139.

(25) نفسه، ص 140.

(26) حول ما تعرض له اليهود في إسبانيا من اضطهاد وعمليات طردنينظر: فرنان، بروديلن المرجع السابق، ص ص141- 144. وينظر أيضا: Fernand ,Braudel ,La Méditerranée…, Op. cit, T2,pp, 539-563.

(27) فرنان، بروديل، المرجع السابق، ص144. وينظر أيضا:
Fernand ,Braudel ,La Méditerranée,… Op. Cit ,T2,pp.539 -563.

(28) فرنان، بروديل، المرجع السابق،ص140. وللاطلاع أكثر على القضية الموريسكية من وجهة النظر البروديلية (بروديل) : ينظر: Fernand ,Braudel ,La Méditerranée …, Op. Cit ,T2,pp.515- 539.

(29) كورين، شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر(1510-1541م)، تعريب، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص49.

(30) احتوت كتب اللغة على كلّ أنواع المراكب البحريّة المعروفة آنذاك وعلى خصائصها وحجمها وحمولتها وطرق استخدامها، كالمركب, الجفن، القطعة...الخ. ينظر: مولاي, بالحميسي، البحر والعرب في التاريخ والأدب، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية, الجزائر، 2005م، ص ص11-12.

(31) فرنان، بروديل، المرجع السابق، ص ص 151– 152.

(32) فرنان، بروديل، البحر الأبيض المتوسط (التاريخ والمجال), تعريب: يوسف شلب، دمشق،1990، ص19.

(33) فرنان، بروديل،المتوسط ...، المرجع السابق، ص151. وينظر أيضاً: محمد خير, فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، الطبعة الأولى، مكتبة دار الشرق،ن بيروت، 1979، ص89.

(34) فرنان، بروديل، المتوسط...،المرجع السابق، ص 152.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(35)حول الصراع البحري الذي استفحل بين المسلمين والمسيحيين قبل ظهور الخلافة العثمانية, ينظر: مولاي، بلحميسي، المرجع السابق، ص ص65 - 109.

(36) كورين، شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541), تعريب: جمال حمادنة, ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007, ص ص49 - 50.

(37) فرنان،بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص153.

(38) محمد، أمين،" القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر" المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التصميم للبحث العلمي والمعلومات، زغوان, تونس، العدد 21، سبتمبر2000م، ص 24.

(39)جون، ب، وولف، المرجع السابق، ص 239.

(40) فرنان, بروديل, المتوسط..., المرجع السابق, ص152.

(41) نفسه، ص 154.

(42) Moulay, Belhamissi, Histoire de La marine Algérienne (1516-1830),2eme éditions, ENAL, Alger, 1983,p.19.

(43) فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص153.

(44) Lafi, Nora, "Salvator, Bono, Corsari nel méditerraeo, Christianie musulman fra, Guerra, Schiavithu commercio" in Revue du Monde musulman et de La méditerranée, Vol 68, N°01, 1993,p.302.

(45) كورين، شوفالييه، المرجع السابق، ص49.

(46) فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص153. وينظر أيضا: عائشة، غطاس، وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر الجزائر، 2007، ص19.

(47) محمد، خير فارس، المرجع السابق، ص 92.

(48) فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص 152.

(49) فرنان، بروديل،المتوسط...، المرجع السابق، ص153.

(50) وليم، سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب: عبد القادر زبادية، الطبعة الأولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص11.

(51) Braudel, La Méditerranée…,Op.cit,T2,p.562.

- وينظر أيضا: شارل أندري،جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية, تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الطبعة الثانية،الدار التونسية للنشر، تونس، 1983نج2، ص334.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(52) فرنان، بروديل المتوسط...، المرجع السابق، ص153.

(53) Boyer,(P), La Vie quotidienne à Alger a La Veille de L'intervention Française hachette, 1963,p.231.

(54) فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق, ص152.

(55) نفسه، ص ص153-154.

(56) عبد الجليل، التميمي، الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، تونس، 1984، ص99.

(57) Fernand ,Braudel ,La Méditerranée …, Op. Cit ,T3, Les événements, La politique et Les hommes, p.233.

(58) Ibid, pp.234-235.

(59) هي مدينة ساحلية قديمة تقع في المورة. وتبعد عن ليبانت بواحد وثمانين كيلومترًا يفصل بينهما مضيق باتراس, وتضم العديد من المساجد, والكنائس الإغريقية. يتواجد بها اليهود بكثرة. استولى عليها البنادقة في عام 1687م. واستقروا فيها إلى غاية 1716م. تشتهر المدينة بإنتاج الحرير والجلد. ينظر:

Giraud et Vosgien, Dictionnaire géographique ou description de quatre parties du monde Tourna chan - Moline Librairie Lyon, 1810,p.514.

(60) Fernand, Braudel, La Méditerranée …, Op. cit, T3,pp.249-250.

(61) محمد فريد بك, المحامي, تاريخ الدولة العلية العثمانية, تحقيق: إحسان حقي, الطبعة الخامسة, دار النفائس, بيروت, 1986, ص257.

(62) Fernand ,Braudel ,La Méditerranée…,Op.cit, T3,pp.250 -251.

(63) Ibid, p.233.

(64) Ibid ,pp.252.

(65) Ibid, p.233.

(66) وجيه، كوثراني، تاريخ التأريخ (اتجاهات، مدارس، مناهج)، الطبعة الثانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013، ص216.

(67) Fernand ,Braudel ,La Méditerranée…,Op.cit,T3,pp.251-254.

(68) فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص ص 124- 125.

(69) Fernand, Braudel, Les Espagnols…, Op.cit,p.401.

(70) فرنان، بروديل،المتوسط...، المرجع السابق، ص154.

(71) نفسه،ص148.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

رؤية المستشرق اسكوفتز في التحول القضائي المملوكي على عهد القاضي تاج الدين بن بنت الأعز

أ.م. د.زاهدة محمد طه المزوري
اقليم كردستان العراق جامعة دهوك
البريد الإلكتروني: zahida@yahoo.com
م.د شفان ظاهر عبد اللّه
اقليم كردستان العراق جامعة دهوك
البريد الإلكتروني: sh_dosky@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2017/02/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص

كان لموضوع التحول القضائي في مصر خلال عصر دولة المماليك الاولى(648-784هـ/1250-1382م) أهمية خاصة في دراسات المستشرق الامريكي الجنسية جوزيف اسكوفتز Joseph H. Escovitz، الذي قدم دراسة شاملة في اطروحته الموسومة (مكتب قاضي القضاء في مصر في عهد المماليك البحرية The office of : qâḍî al-quḍât in Cairo under the Baḥrî Mamlûks). تحاول الكشف عن أسباب تحول المؤسسة القضائية المملوكية من نظام القضاء الشافعي إلى القضاء القائم على المدارس الأربعة؛ مبيناً دور القاضي الشافعي تاج الدين ابن بنت الأعز في ذلك التحول .عنى اسكوفتز بنقد المصادر التاريخية والدراسات الغربية التي رأت في القاضي ابن بنت الأعز السببَ الرئيس في إقدام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (658-676هـ/ 1258-1277م) على تغير توجهات المؤسسة القضائية المملوكية عام (663هـ/1265م). كما خصص جانبا آخرَ من عنايته لبحث أثر ذلك التحول على سلطة القاضي ابن بنت الأعز؛ وعلى المذهب الشافعي في مصر.

حظيت دراسةُ اسكوفتز باهتمام الباحثين الغربيين والمستشرقين المختصين بدراسة المظاهر القضائية في الدولة المملوكية؛ وكانت أغلب دراساتهم للقضاء المملوكي تستند على ما قدمه مِن طروحات؛ وما توصل إليه من استقصاءات في هذا الموضوع. ولموضوع اسكوفيتز هذا أهمية أخرى؛ بخلاف استقصاء مرجعية ذلك التغيير، ألا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وهي إلقاء الضوء على حالة حضارية وفكرية ذات أبعاد تطورية تحتاج إلى مزيد من العناية والتقصي من لدن الباحثين المختصين..

الكلمات الدالة:

المماليك . بيبرس. اسكوفتز.القاضي. البحرية

العنوان بالإنجليزية:

Orientalist Escovitz's Vision of the Mamluk Era of Judicial Transformation during the Reign of Judge Tajuddin bin Bint al- A'azz

Abstract:

The judicial transformation in Egypt during the first era of the Mamluks (648-784h / 1250-1382m), was of particular interest to the American Orientalist, Joseph Escovitz who presented a comprehensive study in his thesis entitled "The office of qâḍî al-quḍât in Cairo under the Baḥrîl Mamlûks" which tries to detect the causes of the transformation of the Mamluk judicial institution from the Shafei justice system to a system that is based on the four schools; noting by that the role of the Shafei judge, Taj Din Ibn Bint al- A'azz in that transformation.

Escovitz criticized the Western historical sources and studies that saw judge Ibn Bint al- A'azz to be the main reason behind the decision of the Mamluk Sultan Baybars (658-676h / 1258-1277m) to alter the tendencies of the Mamluk judicial institution in 663 AH (1265 AD). Moreover, he focused on discussing the impact of this shift on the authority of judge Ibn Bint al- A'azz; and the Shafi'i sect in Egypt.

Escovitz' study attracted the attention of Western scholars and Orientalists specialized in studying the judicial aspects of the Mamluk state, and whose majority of studies of the Mamluk judiciary were based on Escovitz' proposals and the findings he arrived at from investigating the subject. In addition to its investigation of the origin of that transformation, the significance of Escovit's work lies in the fact that it sheds light on a cultural and intellectual case of evolutionary dimensions, which requires further investigation and attention from current specialists and researchers.

Key words:

Mamluks. Baybars. Escovitz. qâḍî. Baḥrîl

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عنى الباحثون الغربيون بدراسة موضوع التحول القضائي في مصر خلال عصر الدولة المملوكية الأولى(648-784هـ/1250-1382م)، بوصفه أحدَ التحولات التاريخية الخطيرة في سلك المؤسسة القضائية، وحاول العديد منهم التحري عن دور قاضي قضاة تاج ابن بنت الأعز(665هـ/ 1267م) في عملية التحول القضائي تلك. ويُعد المستشرق الألماني الأصل الأمريكي الجنسية جوزيف اسكوفتز Joseph H. Escovitz (1945...) أحد ابرز المستشرقين والباحثين الغربيين المختصين بالدراسات المملوكية، إذ درس التاريخ الإسلامي في جامعة ماكجيل McGill وفيها اختص بالدراسات المملوكية تحت إشراف المستشرق الأمريكي الشهير دونالد ليتل Donald Little، ونال في عام 1974 درجة الماجستير عن رسالته في التاريخ المملوكي الموسومة :" دراسة الدرر الكامنة كمصدر لتاريخ الدولة المملوكية A Sutuday of al –Durar al-kamina as a Souce the History of the Mamluk Empire"، كما واصل اهتمامه بالدراسات لاحقا؛ ووجه عنايته لدراسة موضوع تطور المؤسسة القضائية في الدولة المملوكية الأولى، فاختار هذا الموضوع في عام 1978 ليكون موضوعا لأطروحته للدكتوراه والموسومة (مكتب قاضي القضاء في مصر في عهد المماليك البحرية: The office of qâḍî al-quḍât in Cairo under the Baḥrî Mamlûks)، والذي خصص فيه مبحثا لمعالجة قضية تحول نظام القضاء المملوكي من القضاء الشافعي إلى نظام مُتعدد المذاهب؛ في عهد حكم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس(658-676هـ/ 1258-1277م).

لم يكتف اسكوفتز ببحث هذا الموضوع في أطروحته الدكتوراه فحسب؛ بل عمد في عام 1982 إلى اختيار المبحث الخاص بالتحول القضائي المملوكي في أطروحته تلك ونشره منفردا في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية Journal of the American Oriental Society تحت عنوان (تأسيس أربعة مناصب قضائية في الدولة المملوكية: the Estabilshment of four Chief Judgeships in the Mamluk Empire). ويمكن القول أن محور دراسات اسكوفتز للتحول القضائي المملوكي تركزت على شخصية القاضي ابن بنت الأعز؛ ودورها في عملية التحول تلك، إذ عنى اسكوفتز ببحث جوانب من سيرة هذا القاضي ودوره في إدارة المنظومة القضائية في الدولة المملوكية؛ واثر تلك الإدارة على المؤسسة السياسية الحاكمة في مصر.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

تاج الدين ابن بنت الأعز: سيرته

ولد القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر أبو محمد العلامي الملقب بتاج الدين الفقيه الشافعي المعروف بابن بنت الأعز في عام (604هـ/ 1207م)، ويقال أيضا عام (614هـ-1217م) [1] ، توفى والده وهو لمّا يزل صغيرا، فتربى في حجر جده لامه المعروف بالصاحب الأعز فخر الدين مقدام بن الكمال ابن شكر، ومن خلال الأعز فخر الدين اخذ تاج الدين لقبه "ابن بنت الأعز"[2].

بدت ملامح النجابة واضحة على تاج الدين ابن بنت الأعز منذ نعومة أظافره[3]، فنشأ ذكيا قوي الحافظة، درس على فضلاء عصره ومشايخه[4]. وكان تاج الدين قد توجه بصحبه جده الصاحب الأعز ابن شكر إلى الاسكندرية وهناك تعلم الكتابة والحساب وبرع فيهما لفرط ذكائه، حتى كان يُضرب به المثل في معرفته، ثم اتسعت معارفه وكثُرت فضائلُه، وعرف عنه انه لم تعرف له صبوة وكان الطلبة" اذا فرغوا من الاشتغال يتمازحون ويمزحون، وهو لا يخالطهم حتى كانوا إذا رأوه سكتوا عما هو فيه هيبة له"[5].

تولى ابن بنت الأعز العديد من المناصب الجليلة في عهد الدولتين: الأيوبية (567-648هـ/1171-1250م) والمملوكية الأولى. ففي العهد الأيوبي ولاه الملك الكامل الأيوبي(615-635هـ/1218-1237م) منصبَ شاهد بيت المال؛ وذلك بعد أنْ جهد الملك الكامل في البحث عن رجلٍ يكون أمينا عاقلا عارفا بأمور الحساب، فدله وجهاءُ بني أيوب على تاج الدين بنت الأعز[6]، وعلى الرغم من أن ابن بنت الأعز طلب إعفائه من هذا المنصب؛ لكن الملك الكامل أبى إلا أن يبقيه على بيت المال[7].

أمّا في عهد الدولة المملوكية فقد برز نجم تاج الدين في مصر واسند إليه أعلى المناصب في الدولة آنذاك. ففي عهد سلطنة المعز ايبك المملوكي (648-655هـ/ 1250-1257م) تولى في عام (654هـ/ 1250م) منصب قاضي القضاة في الديار المصرية[8]؛ فسار في الناس سيرة حسنة؛ حتى حمده الجميع؛ حيث " بسط العدل، ورفع قدر الشرع، وتصرف تصرفات استحسنها كل من عرف بها، وتفقد أحوال الشهود. واستفسر عن أحوالهم"، لذلك تعلق الناس به كثيرا. ويُقال أن الملك المعز

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ايبك المملوكي سأل عن أحوال مصر بعد تولي ابن بنت الأعز القضاء فقيل له: " يا مولانا، مصر سعدت بالقاضي تاج الدين .... فقال المعز يضاف للقاضي تاج الدين جميع الأعمال؛ فكتب له تقليدا عظيما بذلك" [9].كما تقلّد تاج الدين منصب الوزارة في عام (655هـ/1257م) [10]، وشهدت فترة وزارته استقرار الوضع المالي للدولة آنذاك، ومن آثاره المستحسنة في الوزارة :"انه لما وليها كانت العادة قد جرت... أنْ يؤخذ من أملاك الناس في كل سنة أجرة شهرين. فقام القاضي تاج الدين في ذلك حق القيام حتى أبطله فبطل"[11].

ولم يكن لحسن سياسته في إدارة المناصب والأعمال التي تكلَّف بها إلا انعكاسا واضحا لما امتاز به مِن علم ومعرفة ودين؛ جعله لا يحظى باهتمام السلطة المملوكية الحاكمة فحسب؛ بل نال أيضا إعجاب كبار علماء عصره؛ مثل العالم الشهير العز بن عبد السلام المعروف بـ "عز الدين" صاحب لقب "سلطان العلماء"[12]، والذي كان من أكثر علماء عصره أهمية وحضورا على الساحة السياسية الحاكمة آنذاك. وقد عُرف عنه انه كان شديد الإعجاب بنزاهة تاج الدين وعلمه، وكان له دورا فاعلا في رفع شأنه في الدولة المملوكية في عهد سلطنة الملك الظاهر بيبرس المملوكي (658-676هـ/ 1258-1277م). وكان يرى في تاج الدين احد الأركان الرئيسية لاستقامة الدولة؛ وحين تولى الملك الظاهر بيبرس السلطنة في مصر استشار العلماء في الشخصيات الكفوءة لإدارة دولته، فنصحه الشيخ عز الدين بإقامة تاج الدين ابن بنت الأعز لأمور القضاء؛ بوصفه أفضل الشخصيات المتقدمة في الدولة ممن يمكنه القيام بواجب" الشرع الشريف"[13]، فعهد الظاهر بيبرس منصب القضاء إلى تاج الدين ابن بنت الأعز مع الوزارة[14].

ارتفع شأن تاج الدين في عهد سلطنة الملك الظاهر بيبرس فحصلت له "رئاسة عظيمة في الدولة الظاهرية"؛ وعهد إليه بالعديد من المناصب: فنظر في الدواوين والأوقاف والخطابة والاحباس والمساجد[15]، فضلا عن تدريس الشافعية والصالحية ... وغيرها من المناصب الأخرى[16]، حتى اجمع المؤرخين على انه قد اجمع لتاج الدين بن بنت الأعز في عهد سلطنة الملك الظاهر بيبرس ما لم يجمع لغيره من علماء عصره[17].

ويعلل المؤرخون دوافعَ إشغال ابن بنت الأعز بجميع تلك الاعمال إلى ما كان يمتاز به من صفات حميدة أجملها السبكي في كتابه طبقات الشافعية في كونه " رجلا فاضلا، ذكي الفطرة، حاد القريحة،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

صحيح الذهن، رئيسا عفيفا نزيها، جميل الطريقة، حسن السيرة، مقدما عند الملوك، ذا رأي سديد، وذهن ثاقب، وعلم جم"[18]. وكان ابن بنت الأعز – على كفاءته في إدارة الوظائف والمناصب التي عهدت إليه خلال فترة حياته وإشادة المؤرخين له والثناء بحسن أدائه لتلك المناصب – غزيرَ العلم والمعرفة حتى أن السبكي أشار في كتابه "طبقات الشافعية" عن شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد قوله: "لو تفرغ ابن نبت الأعز للعلم لفاق ابن عبد السلام"[19].

ومثل هذا النص الذي أورده السبكي في طبقاته يعكس حجم المسؤوليات الكثيرة التي كانت ملقاة على عاتق ابن بنت الأعز؛ والتي شغلت معظم وقته؛ ولكنه وعلى الرغم من ذلك استطاع وطوال فترة تسلمه السلطة القضائية أن يثبتَ جدارته في إدارة أمور الدولة، فعرف عنه بأنه "احد القضاة الاجواد القائمين بحدود الله؛ لا تأخذه في الله لومة لائم؛ ولا يراعي أحدا ولا يقبل مدينا ولا يراعي جاها"[20]، حتى قيل عنه بأنه كان "حجة الله في قضاء عصره"[21]. كما قيل عنه انه كان "آخر قضاة العدل"[22].

توفى ابن بنت الأعز في القاهرة عام (665ه/ 1267م) ودفن هناك، وكانت جنازته حافلة[23]. وقد رثاه الشيخ أبو عبد الله ابن النعمان بقوله:

نعى الناس تاج الدين قاضي قضاتنا وما النعي في التحقيق إلا على الشرع
لقد عز حكم الشرع في وقت حكمه لان التقى كان الأمين على الطبع[24]

اسكوفتز ومؤسسة القضاء الشافعي في مصر في العصر الأيوبي .

كرس اسكوفتز مساحةً من دراسته للوقوف على دور الشافعية في السيطرة على السلطة القضائية في مصر خلال العهدين الأيوبي وبداية العهد المملوكي، وكانت عناية اسكوفتز في بحث هذا الجانب تنصب – كما تشير الباحثة الأمريكية ليندا نورثورب Linda S. Northrup – على معالجة العلاقة بين السلطتين القضائية والسياسية في الديار المصرية آنذاك[25].وبحسب اسكوفتز فإن إدخال الشافعية في قلب المؤسسة القضائية المصرية من أهم الانقلابات القوية التي أحدثها السلطان صلاح الدين الأيوبي(567-589هـ/1171-1193م) في مصر بعد أن أزال الدولة الفاطمية عام (567هـ/1171م) وقضى بذلك على المذهب الإسماعيلي، والذي كان يعد التشريع الرئيسي الذي استندت عليه الدولة الفاطمية في مجال القضاء[26]، لاسيما وأن الفاطميين كانوا يتخذون من النظام

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القضائي وسيلة لنشر الدعوة الإسماعيلية[27]. ويعدُّ التغير أو الانقلاب القضائي الذي حدث في العصر الأيوبي بالنسبة لـ اسكوفتز أمرا طبيعيا؛ طالما كان القضاء يتبع الهيكل السياسي الحاكم في الدولة[28]، وبهذا يكون صلاح الدين قد تمكن – بحسب رؤية اسكوفتز – من تأسيس الأرضية المناسبة لغرس جذور المذهب الشافعي؛ ليس داخل مؤسسة القضاء فحسب؛ بل وفي داخل البلاد نفسها حتى عد المذهب السائد والرسمي للدولة الأيوبية[29].

والمعروف أن عناية السلطان صلاح الدين الأيوبي بالمذهب الشافعي ارتبط ارتباطا وثيقا بدعم برنامجه الرامي إلى إحياء المذهب السني في مصر؛ منذ بداية توليته لوزارة العاضد الفاطمي (555–567هـ/1160–1171م) [30]، ويمكن القول أن أهم خطوة كانت في برنامج صلاح الدين الداعم للمذهب الشافعي بناءُ مدرسة للفقهاء الشافعية عام(566هـ/1170م) سميت باسم المدرسة الناصرية؛ نسبة للناصر صلاح الدين، كما ولّى أحد الفقهاء الشافعية المدعو صدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني (ت605هـ/1208م) القضاء بمصر وأعمالها[31]. ولا يمكن القول أن صلاح الدين الأيوبي كان قد اتخذ موقفا معاديا من المدارس المذهبية الأخرى؛ بل انه أحيا إلى جانب الشافعية المذهب المالكي؛ فأنشأ مدارسَ خاصة بهذا المذهب، ؛ فضلا عن ذلك فأن منصب القضاء لم يختص بالشافعية في العصر الأيوبي كما يعتقد اسكوفتز، بل تعاقب على هذا المنصب قضاة من مختلف المدارس. وخلاصة القول ان كل ذلك لم يكن يعني استبعادَ رجالات المذاهب الفقهية الأخرى عن تولي القضاء على وفق المذهب الشافعي؛ بل يعني التزامهم بالأحكام القضائية المنبثقة عن ذلك المذهب؛ والتي لم تكن تختلف عن أحكام المذاهب الأخرى اختلافا كبيرا، لاسيما وأن المذاهب جميعا تكاد تُجمع على موقف اعتقادي واحد؛ يدور في فلك التوجه السني المُعتمِد على أحكام القرآن الكريم والمُحقَقِ من السنة النبوية المطّهرة.

اسكوفتز وقضية التحول القضائي في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس

صاغ سكوفتز في بحثه موضوع النظام القضائي في الدولة الإسلامية جوانب من نظيرته من منطلق أن المؤسسة القضائية الإسلامية اتخذت مسارا يتمحور حول النهج المذهبي للسلطة السياسية، وهي على هذا النحو تصبح القوة المسيطرة على التشكيلات القضائية الأخرى في الدولة[32].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وبحسب اسكوفتز فإن القضاء المملوكي اتخذ مسارا جديدا خرج عن اطره التقليدية في الانكفاء على مذهب واحد؛ يشتق منه احكامه؛ حين عمد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس إلى إحداث انقلاب نوعي في المؤسسة القضائية في مصر[33]، وأصدر في عام (663هـ/1265م) مرسوما يقضي بتولية أربعة قضاة في المؤسسة القضائية المملوكية: فـ "ولّى الشيخ صدر الدين سليمان الحنفي قضاء الحنفية بالديار المصرية ... وولى القاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي قضاة المالكية، وولى الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ العماد الحنبلي قاضي قضاء الحنابلة، وفوَّض لكل واحد منهم أن يستنيب بالأعمال وغيرها"[34]. وعلى هذا النحو يرى اسكوفتز أن التحولَ القضائي إلى نظام القضاء بحسب المدارس الفقهية الأربعة كان يعد ابرز خصائص القضاء المصري في العصر المملوكي، لان ذلك التحول استطاع أن يحدث – برأيه – انقلابا نوعيا على النظام الذي سنه صلاح الدين الأيوبي حين جعل المذهب الشافعي رأس السلطة القضائية في الدولة الأيوبية[35].

وعلى الرغم من أن اسكوفتز أكد على الدور المركزي لـ السلطان الظاهر بيبرس في عملية التحول نحو القضاء بحسب المدارس المذهبية الأربعة؛ لكنه في الوقت نفسه كان يرى أن ذلك التحول قد مهد له في عهد الدولة الأيوبية. فـــ بحسب ما رأى اسكوفتز فالتوجه القاضي بتعين أربعة قضاة كان يرتبط ارتباطا وثيقا بتأسيس الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب(636-647هـ/1238-1249م) للمدرسة الصالحية عام (641هـ/1243م) في القاهرة، وفي أن هذه المدرسة عنيت بتعين أربعة أساتيذ يمثلون المذاهب الرسمية الأربعة في الدولة(الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية)، ويضيف اسكوفتز في أن هذا التعادل في التدريس واستقبال طلاب من مختلف المذاهب دخل طورا عمليا في عام (663هـ/1265م) حين أمر بيبرس بتعين ثلاثة قضاة آخرين بجانب القاضي الشافعي[36].

والجدير بالذكر أن المدرسة الصالحية لم تكن المدرسة الوحيدة التي عنيت بالمذاهب الأربعة كما تصور اسكوفتز، إذ سبقتها في ذلك المدرسة الكاملية التي تأسست في عام (622هـ/1225م) في عهد الملك الكامل الأيوبي (615-635هـ/1225-1237م)، وكان الملك الكامل بعد إنشائه دار الحديث الكاملية لتدريس علم الحديث وما يلحق به من علوم قد قرر بحسب ما يشير إليه القلقشندي دعم "مذاهب الأئمة الأربعة"[37]. أما عن سبب عزوف اسكوفتز عن ذكر دور هذه المدرسة فربما يعود إلى قلة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عنايته بالمؤرخ القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى في صناعة الانشا"، واكتفى بما ذكره المقريزي في كتابه "الخطط المقريزية" الذي كان قد رجح أن المدرسة الكاملية قد وقفت "على المشتغلين بالحديث النبوي ثم مِن بعدهم على الفقهاء الشافعية "[38].

تفسير اسكوفتز لدور القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في التنوع القضائي.

عنى اسكوفتز في بحثه في موضوع التحول القضائي في عهد الظاهر بيبرس المملوكي بقضية دفع الأخير إلى تغير نظام المؤسسة القضائية والتحول من نظام القضاء القائم على مذهب واحد إلى نظام متعدد القضاة بحسب المدارس المذهبية الرسمية الأربعة للدولة. إذ عكف اسكوفتز على دراسة هذا الجانب بشيء من التفصيل، وخصص لمعالجته مساحة واسعة[39]. واهم ما ميز معالجته لهذا الموضوع انه كان شديد الحرص على الاعتماد على المصادر التاريخية العربية التي تناولت موضوع التحول القضائي بنوعيها المعاصرة والمتأخرة؛ فضلا عن كتب السير والطبقات[40]. ولم تكن دراساته لهذه المصادر تعتمد على مجرد النقل أو الاستشهاد، بل أن بحث اسكوفتز فيها قام على نقد الروايات التاريخية من خلال اتباع النهج المقارني في دراسة النصوص. وهذا الأمر جعل من دراساته تتسم بالتميز؛ الأمر الذي حمل بعضا من المستشرقين إلى الإشادة بجهوده التي اتصفت بالسعة والموضوعية[41].وعلى ما يبدو فأن عناية اسكوفتز في دراسة المصادر العربية كانت تنصب على رصد ما أشارت إليه تلك المصادر بخصوص دور تاج الدين في دفع الظاهر بيبرس إلى تغير النظام القضائي القديم في الدولة، وتعين أربعة قضاة ممثلين للمذاهب الأربعة.

ويرى اسكوفتز أن غالبية المصادر التاريخية أحالت الدافع الرئيسي لإقدام الظاهر بيبرس على تعيين أربعة قضاة إلى القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز، ويؤكد على أن هذه المصادر كادت تجتمع على مسألتين. الأولى تتعلق بسياسة التشدد القضائي في إصدار الأحكام القضائية التي كانت لا تتناسب أو تتوافق مع رؤيته. والثانية تتعلق بالضغوط التي مارسها الأمير جمال الدين ايدغدي[42]على ابن بنت الأعز؛ لاسيما وانه لم يكن على وفاق مع القاضي.

استعرض اسكوفتز ما أوردته المصادر التاريخية حول ابن بنت الأعز في بحث تلك المسألتين في كتابه (The office of qâḍî al-quḍât in Cairo under the Baḥrî Mamlûks)، وعنى أولا

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بمعالجة المصادر التي أكدت على قضية التشدد القضائي في أحكام تاج الدين. والملاحظ أن اسكوفتز استعان بمصدرين تاريخيين لبحث هذه المسألة. الأول كتاب(حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية) لشافع بن على(ت730هـ/1330م)، وفي هذا المصدر اكتفى اسكوفتز بالقول: أن شافعا بن علي أوضح أن سياسة القاضي ابن بنت الأعز امتازت بالتردد في قبول الشهادات؛ فضلا عن العناد الذي عرف به[43].وكان شافعُ بن علي – وهو يدون لسيرة الملك الظاهر بيبرس في كتابه المذكور (حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية – يحاول أن يبرر لبيبرس تعيين أربعة قضاة من خلال نقده القاسي لسياسة القاضي بالقول "فرط عجب قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الاعز، وتعقيده وسلاطته وإيغاله في الأذى، وتوقفه في قبول الشهادات، وتصميمه"[44].

وهذه الرواية التي ساقها شافع تنسف القضية التي رجّحها اسكوفتز والروايات التاريخية الأخرى التي سقناها؛ والتي مجدت بسيرة تاج الدين وعدالته، فجعلت منه قاضيا يتصف بالقسوة والتسلط وتعمد الاذى في الناس من خلال أحكامه؛ ومثل ذلك الوصف لا يمكن الأخذ به جملةً؛ لكونه يخالف حقيقة ثابتة وهي تمسك الملك الظاهر بـ ابن بنت الاعز، فلو صح ما كان يراه من تعسف لديه لكان من السهل عليه تغييره واستبعاده من القضاء. وعلى ما يبدو فأن اسكوفتز لم يكن يميل إلى رواية شافع بن علي؛ إذْ رآه متحاملا بعض الشيء على ابن بنت الاعز، وحاول إعطاء مبرر لنقد شافع بن علي لسياسة القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز حين استعان بـ مصدر ثان ألا وهو كتاب (البداية والنهاية) لـ ابن كثير(ت774هـ/1373م) وفيه يشير اسكوفتز إلى أن هذا المؤرخ بين أن التشدد القضائي الذي عممه شافع ابن علي تعلق بالمسائل التي لا تتوافق مع المذهب الشافعي[45]. وكان ابن كثير قد بين أن السبب الرئيسي لتعين أربعة قضاة يعود إلى "توقف القاضي تاج الدين بن بنت الأعز في أمور تخالف مذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب"[46].

وينتقد اسكوفتز المصادر التاريخية بعامة؛ ويرى أنها لم تعنَ بتقديم تفاصيل دقيقة تبين دور القاضي ابن بنت الأعز في دفع الظاهر بيبرس لاتخاذ قرار تعين أربعة قضاة على القضاء، كما رأى أن هذه المصادر تكاد تتفق مع بعضها على الأسباب نفسها؛ والتي سبق وان أشار إليها شافع بن علي وابن كثير في تشدد القاضي في أحكامه ورفضه ما لا يتناسب مع المذهب الشافعي؛ كما يجد أن عناية تلك

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المصادر لم يتجاوز ترصد اثر التشدد القضائي عند القاضي ابن بنت الأعز في تأليب الأمراء ضده، مثل الأمير جمال الدين ايدغدي وهي المسألة الثانية التي كان اسكوفتز يجد أن المصادر التاريخية عوّلت عليها في عملية دفع الظاهر بيبرس لتعيين أربعة قضاة عن كل مذهب(47).

تعمّق اسكوفتز في دراسة المصادر التاريخية المتوفرة لديه وهو يبحث عن الروايات والنصوص التي تظهر موقف الأمير ايدغدي ضد القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز. لكن اسكوفتز وجد ضالته فيما ذكره المؤرخَين: النويري (ت733هـ) في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) و المقريزي (ت 845هـ) في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)ـ فبحسب هذين المصدرين يرى اسكوفتز أن جلسة دار العدل لبحث الأحكام القضائية؛ لاسيما المعلقة وبحضور السلطان المملوكي الظاهر بيبرس كشفت ومن خلال ثلاثة قضايا مقدار تشدد القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في أحكامه، الأمر الذي أفسحت الطريق للأمير ايدغدي لتقديم مقترحه في تغير النظام القضائي. وهذه الرواية التي اوردها النويري ترجح ما ذهب إليه شافع بن علي وتتناقض كما بينا مع مجمل الروايات التي مجدت بسيرة تاج الدين ودوره هو في التوسع القضائي.

وقد عنى اسكوفتز بذكر نص القضايا الثلاثة التي دارت في جلسة دار العدل وكما جاءت عند المؤرخَين النويري والمقريزي في كتابه(The office of qâḍî al-quḍât in Cairo under the Baḥrî Mamlûks). وعلى ما يبدو أن اهتمام اسكوفتز بإيراد كامل النص على الرغم مما فيه من إطالة، لا يعكس حرص اسكوفتز على الاستشهاد بالنصوص التاريخية حسب مصادرها الأولية بقدر ما يعكس رغبته في معالجة موقف المصادر التاريخية من القاضي ابن بنت الأعز. والمصدران اللذان اعتمدا عليها اسكوفتز (النويري والمقريزي) كانا حريصين على التشديد على مسألتين: الأولى كراهية الأمير ايدغدي للقاضي تاج الدين والثانية تذمر الناس من سياسة القاضي وأحكامه القضائية.

وفي ذلك يشير المؤرخون: إلى أن " الأمير جمال الدين ايدغدي العزيزي يكره قاضي القضاة تاج الدين ويحط من قدره عند السلطان، بسبب تشدده في الأحكام وتوقفه في القضايا التي لا توافق مذهبه، فاتفق جلوس السلطان بدار العدل في يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة، فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة فيها: أنَّ ورثة الناصر اشتروا دارَ قاضي القضاة بدر الدين السنجاري في حياته، فلما مات ذكر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ورثته أنها وقف. فعندما قرئت اخذ الأمير ايدغدي يحط على الفقهاء وينقصهم، فقال السلطان للقاضي تاج الدين "يا قاض هكذا تقول القضاة". فقال تاج الدين "يا مولانا كل شاة معلقة بعرقوبها". قال "فكيف الحال في هذا" قال "إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة". فقال السلطان "فإذا لم يكن مع الورثة شيء" قال القاضي "يرجع الوقف إلى أصله، ولا يستعاد الثمن". فغضب السلطان من ذلك، وما تم الكلام حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال: " يا مولانا السلطان. سالت هذا القاضي أنْ يسلم إليّ مبلغّ ربع الوقف الذي تحت يده، لينفقه صاحب المدينة في فقراء أهلها، فلم يفعل". فسأل السلطان القاضي عما قاله، فقال :"نعم" قال السلطان:" أنا أمرته بذلك فكيف رددت أمري" قال "يا مولانا هذا المال أنا متسلمه وهذا الرجل لا اعرفه، ولا يمكنني أن أسلمه لمن لا اعرفه، ولا يتسلمه إلا من اعرف انه موثوق بدينه وأمانته، فان كان السلطان يتسلمه مني أحضرته إليه". فقال السلطان" تنزعه من عنقك وتجعله في عنقي؟" قال "نعم" . قال السلطان: " لا تدفعه إلا لمن تختاره". ثم تقدم بعض الأمراء وقال: "شهدت عند القاضي فلم تسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته"، فسال السلطان القاضي عن ذلك فقال" ما شهد احد عندي حتى أثبته" فقال الأمير :"إذا لم تسمع قولي فمن تريد؟" قال السلطان "لم لا سمعت قوله؟" فقال "لا حاجة في ذكر ذلك". فقال الأمير ايدغدي:"يا قاضي مذهب الشافعي لك، ونولي من كل مذهب قاضيا". فأصغى السلطان لقول ايدغدي وانفض المجلس"[48].

وبحسب ما يراه اسكوفتز فإنه وبالاستناد إلى ما ذكره هذان المؤرخان (النويري والمقريزي) يكون الأمير ايدغدي هو مَن اقترح على الظاهر بيبرس فكرة تعين ثلاثة قضاة آخرين إلى جانب القاضي الشافعي، وهو على النحو صاحب الدور الرئيس في دفع الظاهر بيبرس للإقدام على عملية التحول القضائي لمصلحة المذاهب الأربعة وكسر احتكار الشافعية للسلطة القضائية[49]. لكن لا نجد في القصة التي يسردها المؤرخان تعارضا لأحكام الشافعية مع أحكام المذاهب الأخرى. والنص لم يشر إلى اختلاف بين تلك المذاهب؛ فهل لو أخذ تاج الدين بالمذهب الحنفي مثلا كان سيرد ما رآه حقا بينا لمدّعي وقف الدار من الورثة!؟. وهل تكفي قضية واحدة حدث فيها إشكالٌ ما لتكون سببا في تغيير النهج القضائي نحو التوسع والتعدد في الأصول؟. والمرجح أن هناك أمور واسباب أعمق من كل ذلك دفعت بالمؤسسة السياسية الحاكمة إلى التحول لتغير المنظومة القضائية التي يحاول اسكوفتز تقصيها.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

اسكوفتز والدوافع السياسية لعملية التحول القضائي في المصادر التاريخية .

على الرغم من أن أغلبية المصادر التاريخية التي كانت تحت مجهر دراسة اسكوفتز قد ألقت تبعية التحول القضائي في عهد سلطنة الظاهر بيبرس على عاتق السياسة القضائية المتشددة لتاج الدين ابن بنت الأعز والموقف السلبي للأمير ايدغدي من القاضي. لكن اسكوفتز على ما يبدو لم يكن مقتنعا بالتفاسير والتحليلات التي قدمتها تلك المصادر وحاول أن يبحث في مصادر تاريخية أخرى عن أسباب أكثر إقناعا له في بحث الموضوع. وبحسب ما رآه فهناك مؤرخان قدم كلا منهما رأيين مختلفين عن بقية المصادر الأخرى وهذان الرأيان لهما من وجهة نظر اسكوفتز أهمية لكونهما يعطيان تفسيرين آخرين لبحث عملية تغير المؤسسة القضائية في عهد الظاهر بيبرس. الرأي الأول هو لـلمؤرخ ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) إذ يشير اسكوفتز أن هذا المؤرخ بيَّن في كتابه (رفع الأُصر عن قضاة مصر) أن فكرة تعيين ثلاثة قضاة آخرين إلى جانب القاضي الشافعي كانت في الأصل فكرة القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز نفسه، وفي كونه هو من اقترح هذا المقترح على السلطان الظاهر بيبرس؛ وليست الفكرةُ فكرة ايدغدي؛ كما ادعى بقية المؤرخين، وفي أن ذلك المقترح الذي تقدم به القاضي ابن بنت الأعز جاء – بحسب اسكوفتز– من اجل توسيع السلطة القضائية في إصدار الأحكام بين الناس كل بحسب مذهبه(50).

وكان ابن حجر العسقلاني قد بين أن تعين ثلاثة قضاة آخرين كممثلين للمدارس المذهبية (الحنفية والمالكية والحنبلية) كان بناء على اقتراح ابن بنت الأعز في ضرورة أن يكون له " أربع نواب من المذاهب الأربعة، واستنابهم بأذن السلطان له في ذلك توسعه على الناس في أحكامهم. فاتفق له مع جمال الدين ايدغدي منازعة، فحسن للسلطان أن يكون النواب الثلاثة الذين من غير مذهب القاضي نوابا عن السلطان، مع بقاء القاضي الكبير ونائبه، ويكون ذلك أعظم في حق السلطان. ففعل ذلك وجعل لكل واحد منهم مجلسا في يوم معين بمصر، وشاركوا القاضي في استنابة النواب على البلاد"(51). وهذا الكلام الذي يسوقه ابن حجر يوحي بأن القضية أشبه ما تكون بجهاز رقابي يمثل سلطة السلطان، وهو على الحقيقة كلام يحتاج أيضا إلى إثبات؛ ولن نحصل على مثلك تلك الإثبات إلا بالكشف عن آلية عمل هؤلاء القضاة المُلحقين بالقاضي تاج الدين.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وعلى الرغم من أن اسكوفتز لم يبد تعليقا أو يظهر تحيزا لرأي ابن حجر العسقلاني وكأنه لم يكن يساير ذلك الرأي، وإنما اكتفى بتقديم التفاتة إلى ما أورده المؤرخ في كتابه (رفع الإصر عن قضاة مصر)، في أن فكرة التغير القضائي تبقى – بحسب ما أشار إليه العسقلاني– في دائرة مقترحات ابن بنت الاعز؛ لكن تلك الالتفاتة من لدن اسكوفتز في الواقع لم تحظ باهتمام الباحثين الغربيين. حتى أن إشارته إلى رأي ابن حجر العسقلاني واجهت نقدا لاذعا مِن لدن بعض الباحثين الذين عنوا بدراسة تطور النظام القضاء في العصر المملوكي. فنلاحظ مثلا أنّ الباحث الأمريكي شارمن جاكسون Sherman Jackson (1959...) والذي خصّ دراسة اسكوفتز لدوافع التحول القضائي في مصر بمساحة واسعة في بحثه" تأسيس القضاة الأربعة في الإمبراطورية المملوكية" " The Establishment of Four Chief Judgeships in the Mamlūk Empire"، نقد عناية الأخير بكتاب ابن حجر العسقلاني، ورأي أن رأي العسقلاني لا يمكن الأخذ به؛ لأنه يعكس ما كان يكنه ابن حجر من التقدير العالي للقاضي ابن بنت الاعز؛ كما انه يرى أن اسكوفتز لم يستطيع أن يدرك حقيقة تاريخية واضحة ألا وهي: "أن ابن الأعز لا يمكنه أن يقترح رأيا كان في الأصل غير راض في الأصل عنه"[52].

وأيا كان وجهة نظر Jackson ونقده لطرح اسكوفتز فالقول أن ابن الأعز لم يكن راضيا أو انه أبدى اعتراضا وان كان سطحيا على قرار الملك الظاهر بيبرس لا يمكن الركون إليه؛ لأنه ليس لدينا أي نص من مجمل المصادر التاريخية المتوفرة خلال تلك الفترة يشير أن القاضي لم يكن راضيا على ذلك؛ بل بحسب جميع الروايات أن ابن الأعز ساهم بتنفيذ قرار السلطان؛ لاسيما وان سلطته القضائية في الدولة المملوكية بقيت أعلى من مستوى قضاة المذاهب الآخرين، حين أبقى الظاهر بيبرس عمليا على نفوذ الشافعية وضم إلى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز :"الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام"[53].

أما المؤرخ الثاني الذي أبدى اسكوفتز إعجابه بما قدمه من تفسير لتحليل قضية التحول القضائي في مصر فهو ابن عبد الظاهر(ت692هـ) ويجد أن هذا المؤرخ المعاصر للسلطان المملوكي بيبرس قدم في كتابه (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) تفسيرا أخرَ بدا من وجهة نظر اسكوفتز أكثر قبولا مما قدمه ابن حجر العسقلاني نفسه، وهذا التفسير كان يتعلق بمشكلة زيادة الكثافة السكانية في القاهرة[54]. إذ

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يشير ابن عبد الظاهر في كتابه (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) إلى انه:" في هذه السنة نظر السلطان في كثرة الناس، وان القاهرة هي دار الملك، وقد جمعت أهل المذاهب من العلماء، فأمر بنصب أربعة قضاة نوابا لقاضي القضاة تاج الدين"[55]. وكان لهذا النص الذي طرحه ابن عبد الظاهر في تحليل دوافع الظاهر بيبرس في تعيين أربعة قضاة ممثلين عن المذاهب الأربعة اخذ عند اسكوفتز بعدا هاما، فهو يحاول أن يسوْقه إلى مسار آخر ويحاول ربطه بموضوع الغزو المغولي لبلاد الشام. وبحسب ما يرى اسكوفتز فأن رواية ابن عبد الظاهر تعكس جانبا مما كانت تعانيه القاهرة آنذاك من مشكلة الضغط السكاني منذ عام (661هـ/ 1263م)؛ وذلك بسبب زيادة أعداد النازحين من الشام إلى مصر بسبب الغزو المغولي، وان هؤلاء النازحين كانوا يفضّلون السكن في القاهرة؛ لأنها مقر السلطنة ودار الملك (dar-al-Mulk)، فضلا عن وجود العلماء من مختلف المدارس الذين فضلوا الإقامة في القاهرة [56].

وعلى ما يبدو فأن تحليل اسكوفتز القائم على ربط التحول القضائي في مصر بالغزو المغولي لبلاد الشام وأثره على الكثافة السكانية في القاهرة، لم يلقى هو الآخر ترحيبا من لدن الباحثين والمستشرقين الذين نقدوا ذلك الرأي ووصفوه بأنه ابعد نص ابن عبد الظاهر عن السياق الذي كان يعنيه. وكان أكثر الباحثين نقدا لطرح اسكوفتز ذلك هو Jackson، الذي قدم هذه المرة أيضا نقدا لاذعا لـ اسكوفتز مبينا أن عد الكثافة السكانية إحدى دوافع تحول المؤسسة القضائية المملوكية تفتقد هي الأخرى للتحليل الموضوعي، وذلك لأنه بحسب ما ذهب إليه كان من المفترض أن يهتم اسكوفتز برصد موضوع الكثافة السكانية في الشام أيضا؛ ويقارنها بالقاهرة؛ مضيفا "أن إحالة نسبة زيادة سكان القاهرة إلى الغزو المغولي لبلاد الشام؛ فأنه كان من المفترض أن ينخفض عدد سكان الشام بنفس مستوى ارتفاعه في القاهرة"[57].

ولا نجد تبريرا منطقيا لما ذهب إليه Jackson؛ فـ اسكوفتز يتناول قضية محصورة في مصر والقاهرة على التحديد فما شأن حال الشام وغيرها من الأقاليم؛ لاسيما وان تاج الدين كان قاضيا على القاهرة وليس على بلاد الشام. ولم يقدم Jackson تبريرا منطقيا وتاريخيا لرفض العامل الاجتماعي في كونه سببا في ذلك التحول القضائي. ثم أن هذا الرأي ليس رأي اسكوفتز بل هو رأي ابن عبد الظاهر. وسواء أقبل به اسكوفتز أم رفضه فأمر لا تثريب فيه ولا مشكلة.على أننا نرجح رأي ابن عبد الظاهر ونجده

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

سببا منطقيا وعمليا؛ حريا بالدراسة والتقصي؛ فقضية أسباب توسع القاهرة قضية عرَضية؛ ولا ندري لِم جعلها اسكوفتز وغيره محور المشكلة؛ فالمهم أن النمو السكاني حاصل والاضطرار إلى التوسع القضائي قائم، مهما كان سبب ذلك النمو.

ولكن يمكن القول إن تخصيص ابن عبد الظاهر مدينة القاهرة بالضغط السكاني في عهد الظاهر بيبرس جعل اسكوفتز يتصور أن القاهرة وحدها كانت تعاني من هذا الضغط، وقد فسر ذلك الضغط على انه جاء من نزوح السكان في الشام إلى القاهرة بوصفها عاصمة السلطنة المملوكية آنذاك، ومما دعّم وجهة نظر اسكوفتز هو أن التحول في مجال القضاء كان في البدء يشمل القاهرة تم أمر الظاهر بيبرس أن يعمل به أيضا في بلاد الشام وذلك في عام (664هـ/1266م). لكنْ على الرغم من ذلك النقد فاهتمام اسكوفتز برواية ابن عبد الظاهر دفع بعض المستشرقين إلى رصد مسألة الكثافة السكانية وأثرها في عملية التحول القضائي في الدولة المملوكية؛ وإذا كان اسكوفتز قد ربط التوسع السكاني في القاهرة بقضية الغزو المغولي لبلاد الشام، فأن بعض المستشرقين ذهبوا في دراستهم لرواية ابن عبد الظاهر إلى منعطف آخر حاولوا فيه تصحيح طرح اسكوفتز في هذا المجال.

فالمستشرق البريطاني بيتر مالكوم هولت P.M.Holt (1918–2006) استوحى من دراساته للقضاء في العصر المملوكي أن قضية التحول القضائي في ذلك العصر ارتبط في جانب منه – كما ذهب اسكوفتز – بعملية التوسع السكاني، وأن ذلك التوسع لم يشمل القاهرة فحسب، بل مجمل الدولة المملوكية؛ لاسيما في عهد سلطنة الظاهر بيبرس حيث شهدت البلاد توسعا عاما وغدت دولة مترامية الأطراف تضم شعوبا وأجناسا من مختلف المذاهب، وانه كان من البديهي ان يعمل الظاهر بيبرس على تغير المؤسسة القضائية المملوكية من هذا المنطلق؛ بوصفها من متطلبات تلك الفترة، لاسيما وان بيبرس كان حريصا على كسب دعم العلماء للنظام المملوكي الجديد بما يعزز بالتالي حكمه في البلاد[58].

ويمكن القول أن اسكوفتز استبعد من خلال إشارته لروايتي شافع بن علي وابن عبد الظاهر أن يكون الظاهر بيبرس قد أقدم على فكرة تعين ثلاثة قضاة بجانب القاضي الشافعي على أساس مسألة توتر العلاقات بين الظاهر بيبرس والقاضي تاج الدين كما كانت تصوره الدراسات الغربية، وبحسب ما أكد عليه اسكوفتز في دراساته فالتوتر بين الاثنين على افتراض وجوده؛ لم يكن بين الملك الظاهر بيبرس

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

والقاضي ابن بنت الاعز؛ بل كان هناك بعض ردود أفعال سلبية من لدن الناس؛ وتحديدا العنصر المملوكي من أحكام القاضي ابن بنت الاعز؛ لاسيما فيما يتعلق الأحكام القضائية التي لم تكن تتوافق مع المذهب الشافعي، وهذا الأمر توصل إليه اسكوفتز بعد دراسات مستفيضة في المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة[59]. وعلى الرغم من أن اسكوفتز حاول الالتزام بما لديه من مصادر ونصوص تاريخية في دراساته لبحث الدوافع الفعلية في أقدام الظاهر بيبرس على تحويل النظام القضائي بحسب المذاهب الأربعة؛ لكن استبعاده لمسألة وجود توتر بين الملك الظاهر بيبرس والقاضي ابن الأعز لم يحظى بتأييد العديد من المستشرقين، إذ حاول بعضهم تقديمَ طرح جديد لبحث أبعاد التحول القضائي في العصر المملوكي بما يصحح مسار دراسة اسكوفتز في هذا المجال.

فمثلا نرى أن المستشرق البريطاني روبرت ايرون Robert Trwin (1946...) والذي تناول دراسة المظاهر الحضارية في الدولة المملوكية في بحثه "الخصصة: في القضاء في عهد المماليك الشراكسة The Privatization of Justice under the Cirassian Mamluk "، يؤكد على أن قضية التحول القضائي في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس لا يمكن معالجتها من غير إدراك حقيقة وجود صراع وتنافس بين السلطتين السياسية والقضائية؛ لاسيما وان السلطة القضائية امتازت بنفوذ واسع في الدولة المملوكية، وفي أن القوة المستقلة للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز كانت تعمل بطريقة أو بأخرى على إثارة السلطة السياسية التي استحكم نفوذها الكامل في عهد سلطنة الظاهر بيبرس ضده[60].

ونرى أن هذا الذي ذهب إليه روبرت ايرون ضعيف، ونتساءل وتكرارا لما سبق: هل أن مشكلة التنافس بين تاج الدين والمؤسسة السياسية لم يمكن حلها إلا بتعدد مصادر القضاء، أم بعزل تاج الدين فحسب؛ وتنتهي المشكلة.

أما المستشرق الدانماركي جورجن نلسن Jorgen S Nielsen فيرى أن الظاهر بيبرس وان دعم الشافعية في بداية حكمه، فأن ذلك كان يصبو في الأساس إلى ضمان الحصول على الدعم اللازم لتوليه السلطة والدعم الشرعي للنظام المملوكي الذي لم يكن ليتحقق لولا تأييد الشافعية[61]، لكن ذلك لا ينفي حقيقة أن هناك صراعا باطنيا واضحا بين السلطتين السياسية التي مثلها الظاهر بيبرس والقضائية التي مثلها القاضي ابن بنت الاعز، وهذا الصراع كان له علاقة وثيقة بسيطرة المذهب الشافعي على المنظومة

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

القضائية في الدولة المملوكية ومحاولة حصر الأحكام في المذهب الشافعي الذي لم يكن يتوافق مع مذهب بيبرس الحنفي.

وبحسب ما يذهب إليه Nielsen في أن المواجهة التي جرت في دار العدل بين القاضي ابن بنت الأعز وايدغدي بعد أن توالت الشكاوى في الجلسة على القاضي ابن بنت الأعز عدت بالنسبة للظاهر بيبرس فرصة ذهبية لإضعاف نفوذ الشافعية والقاضي ابن بنت الأعز معا، وكان إصدار بيبرس أمره بتعيين أربعة قضاة في المؤسسة القضائية عام (663هـ/1265م) بغض النظر عن كون ايدغدي هو مَن اقترح التغيير والتوسع؛ أم كان بأمر بيبرس نفسه؛ لأمر كان يصبو إليه بيبرس قبل ذلك التاريخ، وذلك من اجل فتح الطريق للطبقة العسكرية المملوكية الحاكمة لتأسيس علاقات متينة مع الحنفية في مصر[62].

ويشاطر Jackson نلسن Nielsen الرأي مؤكدا أن الاخير استطاع من خلال بحثه في هذه المسألة أن يترصد جانبا مهما في تفسير دوافع التحول القضائي في العصر المملوكي، هذا الجانب الذي كان بحسب رأيه قد أغفله اسكوفتز؛ ولم يتمكن بسبب حصر دراساته في المصادر التاريخية الأولية من الاهتداء إليه، ويضيف Jackson إلى ما ذكره Nielsen في أن صلاحيات القاضي الشافعي ابن بنت الأعز كانت واسعة؛ حتى أنها شملت الأحكام القضائية التي كانت تتداخل في أمور السياسية، وهذه القضايا بلا شك أسهمت في إحداث نوع من التنافر بين المؤسستين السياسية والقضائية[63]، وهذا النوع من التنافر كان كفيلا – بحسب ما يراه ياكوف ليف Yaacov Lev – بإحداث اشتباك بين المؤسستين؛ فيما لو أخذنا بنظر الاعتبار أن المؤسسة السياسية كانت تديرها شخصية امتازت بالقوة والسلطة وهو الظاهر بيبرس في مقابل المؤسسة القضائية التي كانت تديرها شخصية عصامية وهو ابن بنت الأعز[64].

ومن الجدير بالذكر إنَّ تنامي السلطة السياسية للمؤسسة المملوكية الحاكمة في عهد السلطان الظاهر بيبرس لا تعني بالضرورة وجود صراع أو شرخ بين المؤسستين السياسية وقضائية؛ وان وجد مثل ذلك النوع من الصراع فلا يعني أن يتحول إلى عداوة؛ كما استدل عليها المستشرقون؛ لاسيما وان أيا مِن المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة وحتى المتأخرة عنها لم تُشر – وكما أكد اسكوفتز– إلى وجود أي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

نوع من العداوة بين الطرفين أو حتى إشارات إلى محاولة القاضي ابن بنت الأعز منافسة السلطان الظاهر بيبرس في مجال سلطاته السياسية. وحتى وإنْ كان القاضي متشددا في أحكامه فأن ذلك التشدد لا يمكن تفسيره من منطلق معاداة السلطة السياسية؛ بل هو تشدد أملاه عليه طبيعة المذهب الذي ينتمي إليه القاضي نفسه ومحاولته التقيد بحدود ذلك المذهب.

وهناك ملاحظة مهمة تطال جهود اسكوفتز ومن سواه من المستشرقين الذي عنوا بقضية التحول القضائي في العصر المملوكي على يد الملك الظاهر بيبرس أو على يد تاج الدين ابن بنت الاعز. هذه القضية إهمال آلية اشتغال السلطة القضائية الجديدة في مذاهبها الأربعة، والجواب عليها سيلقي الضوء على الدوافع الأساسية الكامنة وراء هذا التحول. بمعنى لم يطرح اسكوفتز ولا سواه المستشرقين ولا حتى المصادر التاريخية القضية في هذا المجال بسعة تتناسب مع هكذا تحول. فإذا كان القضاء يتصدى للقضايا المطروحة على انفراد كل قاض بحسب مذهبه فما هو المعيار الذي يحدد طرح القضية لهذا القاضي دون الآخر. أمَّا إذا كان الأمر شراكة بين القضاة حيث يتصدون جميعهم لقضية معينة فلمن سيكون الكلام الحسم والقضاء النافذ فيها!. هذا ما لم نجد له توضيحا كافيا في المصادر القديمة؛ ولا فيما طرحه المستشرقون.

اسكوفتز وأثر التحول القضائي على السلطة الشافعية.

من البديهي أن تقود دراسة التحول القضائي في الدولة المملوكية المستشرق اسكوفتز إلى دراسة اثر ذلك التحول على السلطة الشافعية في إطار مشروع قضائي كان قائما على إشراك المدارس المذهبية الثلاثة الأخرى (الحنفية–المالكية–الحنبلية) في السلطة القضائية. وعلى الرغم من أن اسكوفتز رآى أن ذلك المشروع كان نظريا يعكس محاولة الظاهر بيبرس إلى تحقيق المساواة بين المدارس المذهبية الأربعة في السلطة القضائية، لكن تلك المحاولة على الصعيد العملي لم تكن –برأيه– ترمي إلى مساواة الشافعية بالمدارس المذهبية الأخرى في الدولة كما تصورها برأيه الدراسات التاريخية الشرقية والغربية[65].

وبحسب ما يراه اسكوفتز فالمؤسسة السياسية لم تسعَ إلى تسوية الشافعية ببقية المذاهب الأخرى بضمنها المذهب الحنفي الذي كان يعد المذهب الرسمي للسلطان الظاهر بيبرس وأغلبية المماليك. وعلى ما يبدو فـ اسكوفتز بنى طرحه هذا على مسألتين: الأولى هو حرص الظاهر بيبرس على إبقاء العديد من

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المناصب بيد القاضي ابن بنت الأعز دون بقية المدارس الأخرى بضمنها الحنفية مثل: الأوقاف والاحباس والأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال... وغيرها من المناصب الأخرى، والثانية إبقاء ابن بنت الأعز على مكانته القضائية في الجلسات القضائية بالجلوس إلى يمين السلطان المملوكي في دار العدل[66].وعلى وفق ذلك لم يكن اسكوفتز يرى أن هناك ما يشير إلى تقدم المدرسة الحنفية في عهد سلطنة الظاهر بيبرس سوى مسألة جلوس القاضي الحنفي صدر الدين سليمان إلى يسار السلطان في جلسات دار العدل، وحتى هذه المسألة لم تكن من وجهة نظره ذات قيمة عظيمة يمكن أن تمثل شأنا ملحوظا في مكانة الحنفية بالدولة على حساب الشافعية نفسها[67].

ويبدو أن اسكوفتز – مع شدة عنايته بتقصي أبعاد التحول القضائي ودوافعه في المصادر التاريخية – لم يستدل على نصوص كافية يُستشف منها تقدم المدرسة الحنفية على بقية المدارس الأخرى بضمنها المدرسة الشافعية؛ سوى إشارته بمكانة الحنفية في جلسات دار العدل؛ لذلك لم يعلق على مظاهر الثقل الحنفي في الدولة المملوكية في عهد سلطنة الظاهر بيبرس؛ بل كانت عنايته في مجمل بحثه عن قضية التحول القضائي لا تتجاوز حدود المدرسة الشافعية والقاضي ابن بنت الاعز؛ وعلى الرغم من أن اسكوفتز عمد في بحثه عن مسألة اثر التحول القضائي على السلطة الشافعية إلى تحري منهج موضوعي في معالجة تلك القضية معتمدا على ما لديه من نصوص تاريخية في هذا الشأن، حتى أشاد له الباحث الألماني كيهارد كونراد Gerhard Conrad بـ " الشفافية البحثيه في دراسة القضاء المملوكي"[68]. لكن تلك الموضوعية لم تسلم هي الأخرى من نقد الباحثين ونخص بالذكر المدرسة الاستشراقية البريطانية؛ فـــ المستشرق Irwin انتقد اسكوفتز في معالجته لأثر التحول القضائي على مركز المدرسة الشافعية؛ وبحسب ما يراه فأن الظاهر بيبرس بإقدامه على تعين ثلاثة قضاة آخرين بجانب القاضي الشافعي ابن بنت الأعز كان لرفع مكانة المدرسة الحنفية أكثر من اهتمامه بموضوع التسوية بين المدارس السنية الأربعة، وفي أن ذلك التحول عمل ضمنيا على إضعاف السلطة المستقلة للقاضي ابن بنت الأعز رغم إبقائه على الأولوية في المجال القضائي وفي دورات دار العدل بالجلوس إلى يمين السلطان[69].

ويحاول المستشرق الالماني بيتر توراو Peter Turao من جانبه معالجة مسألة المكانة القضائية للقضاة الأربعة في جلسات دار العدل، على الرغم من انه يستند في بحثه عن القضاء المملوكي على

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

دراسات اسكوفتز، لكنه على ما يبدو رأى أن اسكوفتز لم يولي هذه المسألة العناية الكافية ولم يتمكن من الإلمام بأبعادها السياسية، وبحسب ما يذهب إليه Turao فان مسألة الإبقاء على مكانة القاضي ابن بنت الأعز في جلسات دار العدل وإبقائه على مركزه بالجلوس إلى يمين السلطان رغم كل الدعوات الرامية إلى تحقيق التسوية بين المدارس الأربعة، فهو يرتبط ارتباطا مباشرا بحقيقة تاريخية تتمركز في أن السلطان الظاهر بيبرس كان على دراية بأي محاولة جدية تعمد إلى إزالة كافة الامتيازات عن سلطة القاضي الشافعي ابن بنت الأعز ومنها مكانته في دورات دار العدل أمر سيكون من شأنه إثارة الأهالي ضده؛ لان الشطر الأعظم من الأهالي كانوا على المذهب الشافعي، وفي أن ذلك كان وحده كافيا لأن يدعي القاضي ابن بنت الأعز لنفسه الحق في أولوية معينة إلى جانب السلطان مثل الجلوس إلى يمين السلطان في دار العدل، وفي الوقت نفسه يرى توراو أن جلوس ابن بنت الأعز إلى جانب السلطان لم يكن بتلك الأهمية والقيمة التي تصورها اسكوفتز، لان إشراك ثلاثة قضاة آخرين في السلطة القضائية كلٌّ بحسب مذهبه كانت خطوة فاعلة دعمت أركان السلطة السياسية الحاكمة آنذاك، حين بات في وسع الملك الظاهر بيبرس أن :"يؤدي لعبته بين المدارس الفقهية الأربع المتنافسة، ويتأكد من دعم هذه المدرسة أو تلك " [70].

لكن اعتراضات توراو لـ اسكوفتز أوقعته هو الآخر في مطب افتقاره إلى دليلٍ يدعم فكرة أن التوسع القضائي كان بدافع دعم المؤسسة السياسية للدولة المملوكية آنئذ، وتوراو لم يسق أدلة نقلية كافية ولا حتى أدلة منطقية تثبت رأيه ذاك؟ والى جانب ما ذكره Turao فقد حاول مستشرقين آخرين إضافة طروحات جديدة تلقي الضوء على أهمية إشراك المذاهب الأربعة في السلطة القضائية ودورها في دعم السلطة السياسية الحاكمة، وفي هذا الصدد يشير Holt في أن إشراك ثلاثة قضاة آخرين إلى جانب القاضي الشافعي ابن بنت الأعز كانت عملية تصبو إلى زيادة المنح للمدارس الدينية والمؤسسات الدينية التي تمثل تلك المذاهب من المتبرعين لدعم تلك الأساتذة والطلاب فيها، وكان لحصوله على دعم العلماء ومن كافة المذاهب يعد بحسب ما يراه Holt ذات قيمة كبيرة لسلطة بيبرس[71]، وفي أن هذه السياسية كانت تتناسب كما يراه Jackson مع مصالحه السياسية الرامية إلى دعم نفوذه في الدولة

المملوكية[72]. لاسيما وان بيبرس كان مدركا للدور الذي قدمه العلماء لتوفير الشرعية اللازمة لسلطنته بعد معركة جالوت عام(658هـ/1260م) [73].

ومن هنا يمكن القول أن الدراسات الاستشراقية حاولت تعميق طروحات اسكوفتز في مجال بحث اثر التحول القضائي على السلطة الشافعية في الدولة المملوكية؛ وان كانت اغلب تلك الدراسات أخذت مسارا اختلف عن مسار الذي اتخذه اسكوفتز في معالجة الموضوع، ففي الوقت الذي كانت عناية اسكوفتز محصورة في المناصب التي عهد بها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس للقاضي ابن بنت الأعز ومركزه في دورات دار العدل، فأن الدراسات الاسشتراقية وعلى اختلاف مدارسها حاولت معالجة القضية من زاوية مختلفة انصبت على أهمية اشتراك المدارس المذهبية الأربعة في دعم السلطة السياسية الحاكمة في الدولة المملوكية.

ولا شك في أن اختلاف تلك المعالجة من لدن الجانبين يعكس الهدف والقيمة من الدراسة نفسها، فاسكوفتز خص موضوع التحول القضائي بمجمله سواء في كتابه الشهير(مكتب قاضي القضاء في مصر في عهد المماليك البحرية: (The office of qâḍî al-quḍât in Cairo under the Baḥrî Mamlûks)، أو بحثه المستل(تأسيس أربعة مناصب قضائية في الدولة المملوكية: the Estabilshment of four Chief Judgeships in the Mamluk Empire)، بدراسة أهمية منصب قاضي القضاء في الدولة المملوكية أكثر من عنايته بدراسة العلاقة بين المؤسستين القضائية والسياسية وهذا ما يبدو واضحا في كتابه، حتى انه في معالجته لإشراك المدارس المذهبية الأربعة في المؤسسة القضائية كانت عنايته في بحث دوافع السلطان المملوكي لتغير السلطة القضائية تحاول أن لا تتجاوز حدود المصادر التاريخية التي كانت بين يديه؛ وهذا الأمر ربما يفسره طبيعة كتاب اسكوفتز نفسه بوصفه أطروحة دكتوراه، ومن هنا حاول ألا يتجاوز حدود الموضوع والمصادر التاريخية نفسها. في حين كانت الدراسات التي جاءت فيما بعد من لدن المؤسسة الاستشراقية أخذت بعدا جديدا قائما على إعطاء تفسيرات أخرى ترجح دور السلطة السياسية في تغير هيكلية المؤسسة القضائية بما تخدم مصالحها التي كان لا يخدمها فكرة الإبقاء على المدرسة الشافعية العائدة للنظام الأيوبي السابق.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

وفي ختام البحث يمكن القول إن دراسة اسكوفتز رصدت دور القاضي ابن بنت الأعز في عملية تغير المؤسسة القضائية المملوكية من خلال اعتماده على المصادر التاريخية وعنايته بدراسة النصوص والروايات التي ذكرها المؤرخون والتي اجتمع اغلبها على نقد سياسة القاضي ابن بنت الأعز ووصفها بالتشدد في إصدار الأحكام القضائية. وقد حاول اسكوفتز نقد جوانب من تلك الروايات ووصف مؤرخيها بالمتحاملين على شخصية ابن بنت الأعز، وخص في نقده المؤرخ شافع بن علي؛ وحاول من جانبه تبرير التشديد القضائي لدى ابن بنت الأعز بكونه كان يختص بالأحكام القضائية الخارجة عن المذهب الشافعي.

كما حاول اسكوفتز تقديم تبريرات أخرى لمعالجة أسباب التحول في المؤسسة القضائية المملوكية في عهد سلطنة الظاهر بيبرس من خلال بحثه في مصادر تاريخية أخرى بدت من وجهة نظره أكثر موضوعية من غيرها، مثل "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" لمؤلفه ابن عبد الظاهر، ورجح من خلال هذا المصدر السبب الرئيسي والدافع الأول لقضية التحول إلى الغزو المغولي لبلاد الشام وأثره في ارتفاع الكثافة السكانية في القاهرة.

ولم يكن منهج اسكوفتز يتوقف عند حدود نقد المصادر التاريخية في بحث دور القاضي ابن بنت الأعز في عملية التحول القضائي إلى نظام المذاهب الأربعة فحسب؛ بل تعدى إلى دراسة اثر التحول القضائي على نفوذ القاضي ابن بنت الأعز من جهة؛ وسلطة الشافعية من جهة أخرى. ليؤكد بحسب ما توصل إليه أنّ المؤسسة السياسية لم تسع إلى تسوية الشافعية ببقية المذاهب الأخرى بضمنها الحنفية على الرغم من كونها المذهب الرسمي للسلطان الظاهر بيبرس وأغلبية المماليك، مبينا أن السلطان المملوكي حرص على إبقاء العديد من المناصب بيد القاضي ابن بنت الأعز دون بقية المدارس الأخرى بضمنها الحنفية مثل: الأوقاف والاحباس والأيتام والمساجد... وغيرها من مناصب الأخرى من جهة، فضلا عن إبقاء ابن بنت الأعز على مكانته القضائية في الجلسات القضائية بالجلوس إلى يمين السلطان المملوكي في دار العدل من جهة أخرى.

وكان لما قدمه اسكوفتز من آراء وطروحات في معالجة مسالة تحول السلطة القضائية في العصر المملوكي الأول وبحثه في دور القاضي ابن بنت الأعز في عملية التحول أهمية في الدراسات المملوكية حتى أن اغلب الباحثين والمستشرقين المهتمين بهذا المجال خصصوا مساحة من دراساتهم لمناقشة طروحاته

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ونقدها فيما لم يتوافق مع مسار البحث الاستشراقي. على أننا نرى أن القصور الذي شاب طروحات اسكوفتز وناقديه من المستشرقين سواء الذي قبلوا آراءها أو الذين رفضوها كانت تفتقر إلى أمر مهم وهو البحث الموسع في الدوافع الاجتماعية والأخلاقية والسكانية والحضرية التي دعت – أو على الأقل أسهمت – في اللجوء إلى ذلك التوسع وسريانه في أصقاع الدولة المملوكية على عهد السلطان الظاهر بيبرس. فهذا الأمر من الظواهر الخطيرة التي تمس التغيرات الحضارية والعمرانية للأمم، وتمس – من جانب آخر – فكرة التجديد الديني.

الهوامش:

(1) السبكي،تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي،طبقات الشافعية،تحقيق:عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي،دار إحياء الكتب العربية، د/م،د/ت،ج8، ص318 ؛ الصفدي،صلاح الدين خليل بن ايبك،الوافي بالوفيات،تحقيق:احمد الارناؤوط تزكى ومصطفى، ط1،دار احياء التراث العربي، بيروت،2000،ج19،ص200.

(2) Sherman A. Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics: Ibn Bint al-A,azz and the Establishment of Four Chief Judgeships in Mamlûk Egypt", JAOS, Vol. 115, No. 1 ,Jan. - Mar., 1995,p59.

(3) ابن حجر العسقلاني، رفع الاصر عن قضاة مصر،د/ت،د/م،ص258.

(4) ابن كثير،عماد الدين إسماعيل بن عمر،طبقات الشافعية،تحقيق:عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي،بيروت، 2002، ج1، ص 814.

(5) العسقلاني،رفع الاصر،ص258.

(6) Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics…',p 59.

(7) ابن حجر العسقلاني،رفع الاصر، ص258.

(8) ابن ايبك الدوداري،أبي بكر عبد الوهاب،كنز الدرر وجامع الغرر،تحقيق: اوارخ هارمان،القاهرة،1971،ج8، ص 30؛ النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب،نهاية الارب في فنون الادب،دار الكتب العلمية،بيروت،2004،ج29،ص46.

(9) ابن حجر العسقلاني،رفع الاصر،ص259.

(10) ابن كثير،طبقات الشافعية،ج1، ص 814

(11) ابن حجر العسقلاني، رفع الاصر،259.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(12) العز بن عبد السلام: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن مهذّب السُلمي، مغربي الأصل، ولد في دمشق في سوريا عام 577 هـ، وعاش فيها وبرز في الدعوة والفقه، وقد نشأ في دمشق في كنف أسرة متدينة فقيرة مغمورة، وابتدأ العلم في سنّ متأخرة نسبياً. ينظر: ابن واصل، جمال الدين محمد ابن سالم بن نصر الله بن سالم، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ص306.

(13) النويري، نهاية الارب، ج29، ص46؛ الحنبلي، عبد الحي بن احمد بن محمد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الارناؤوط ومحمود الارناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1406ه، ج3، ص438.

(14) ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، دار القلم، بيروت، 1984 ، ج3، ص438.

(15) ابن عبد الظاهر، محيي الدين، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1976، ص84؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج19، ص200.

(16) اليونيني، قطب الدين ابي الفتح موسى بن محمد بن احمد، ذيل مراة الزمان، مطبعة دائرة المعارف النظامية ، حيدر اباد الدكن – الهند ، 1954–1961، ج1، ص225.

(17) ينظر: الاسنوي، طبقات الشافعية، ج1، ص77؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص318؛ الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص319.

(18) ينظر: طبقات الشافعية، ج8، ص 318.

(19) ينظر: طبقات الشافعية، ج8، ص319.

(20) ابن كثير، طبقات الشافعية، ج1، ص814–815.

(21) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص319.

(22) الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص320.

(23) الاسنوي، طبقات الشافعية، ج1، ص 77؛ ابن ثغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج7، ص 195.

(24) ابن حجر العسقلاني، رفع الاصر، ص262.

(25) Linda S. Northrup, From Slave to Sultan the Career of Al-mansur Qalawun and the Consolidation of Mamluk Rule in Egypt and Syria, 678-689 A.H. / 1279-1290 A.D. (Freiburger Islamstudien) 1998, p231.

(26) Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics…",p55

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(27) سرور، محمد جمال الدين ،مصر في عصر الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،د/ت،ص217؛ الاتروشي، لولاف مصطفى، القضاء في مصر والشام في العصر الايوبي،ط1،دار دجلة،الاردن، 2007، ص247.

(28) Jorgen S Nielsen,"Sultan al-Ẓāhir Baybars and the Appointment of Four Chief Qāḍīs',Studia Islamica,No.60,1984,p176..

(29) Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics…",p53.

(30) سلام ،ايمن شاهين ،المدارس الاسلامية في مصر في العصر الايوبي ودورها في نشر المذهب السني، اطروحة دكتوراه مقدمة الى كلية الاداب جامعة طنطا، 1999، 75.

(31) أبو شامة، شهاب الدين ابي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل، الروضتين في اخبار الدولتين،دار الجبل، بيروت، د-/ت، 320.

(32) Nielsen,"Sultan al-Ẓāhir Baybars and the Appointment of Four Chief Qāḍīs",p172

(33) Joseph, H. Escovitz , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo under the Bahri Mamluks, Berlin:1984, Kalus Schvarz Verlag

(34) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة،ج7،ص110.

(35) Joseph H. Escovitz," Patterns of Appointment to the Chief Judgeships of Cairo during the Baḥrī Mamlūk Period", Arabica 30, 1983,p. 147.

(36) Escovitz , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo…",p22 .

(37) القلقشندي، شهاب الدين احمد بن علي،صبح الاعشى في صناعة الانشا، تحقيق: محمد حسنين شمس الدين، دار الكتب العلمية،بيروت، 1987،ج3،ص414.

(38) ينظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، دار الطباعة المصرية، القاهرة، 1988، ج2،ص375.،

(39) Robert Trwin, Joseph H. Escovitz, , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo under the Bahri Mamluks",(Islamk undliche untersuchung Bd 100)V,200,Brrlin:Klaus Schwarz verlage 1994,BSOS,1980,P574.

(40) Northrup,From Slave to Sultan the Career

(41) احمد ،احمد رضا،السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في دراسات المستشرقين البريطانيين–وليم ميور وبيتر ملكوم هولت وبروبرت ايرفن نموذجا–،اطروحة دكتوراه مقدمه الى كلية الآداب جامعة موصل عام 2013،ص204.

(42) جمال الدين ايدغدي العزيزي: وهو من اكابر الامراء في الدولة المملوكية، وكان مشهورا بالشجاعة والكرم والديانة وسعة الصدر وكثرة الصدقة، وكان له منزلة رفيعة عند السلطان الظاهر بيبرس حتى قيل ان السلطان الظاهر بيبرس لم يكن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يخرج عن مشورته؛ لاسيما في الامور الدينية واحوال القضاة، توفى ايدغدي في عام(664ه/1227م). ينظر: النويري، نهاية الارب، ج30، ص85.

(43) Escovitz , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo…",p22

(44) ينظر: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق: عبد العزيز عبد الله الخويطر، ط2، الرياض، 1989، ص142.

(45) Escovitz , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo…",p22

(46) بنظر: البداية والنهاية، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد ومحمد حسن عبيد، دار ابن كثير، دمشق، 2010، ج15، ص403.

(47) Escovitz, "The Establishment of Four Chief Judgeships in the Mamlūk Empire",AOS.Vol.102,No.3,1982 ,p530.

(48) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، 1997، ج2، 27-28؛ للمزيد ينظر كذلك : النويري، نهاية الارب في فنون الادب، ج30، ص ص75 -76.

(49) Escovitz , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo…,p22

(50) Escovitz, "The Establishment of Four Chief Judgeships in the Mamlūk Empire",p530.

(51) ينظر: رفع الاصر، ص 262.

(52) Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics…",p56

(53) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص320.

(54) Escovitz , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo…,p23.

(55) ينظر: الروض الزاهر، ص182 .

(56) Escovitz, "The Establishment of Four Chief Judgeships in the Mamlūk Empire",p530.

(57) Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics…",p56

(58) Holt,P.M,"The Mamluk institution', in Youccef Chouieri,(ed) A Compaion to the history of the Middle , Blackwell,London,2005,p167.

(59) Escovitz , The Office of Qadi al-Qudat in Cairo…,p23

(60) R,Irwin,"The Privatization of Justice under the Cirassian Mamluk',Mamluk,Vol .6,2003,p.66

(61) Nielsen,"Sultan al-Ẓāhir Baybars and the Appointment of Four Chief Qāḍīs",p172.

(62) Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics…",p56

(63) Ibid,p.56

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

---

(64) Lev,yaacov,"Symbioltic Rellations:Ulama and the Mamluk sultans",Mamluk Studies Review,Vol.13,p15

(65) Escovitz, "The Establishment of Four Chief Judgeships in the Mamlūk Empire",p530 .

(66) Escovitz, The Office of Qadi al-Qudat in Cairo under the Bahri Mamluks,p25 .

(67) Escovitz, The Office of Qadi al-Qudat in Cairo under the Bahri Mamluks,p25.

(68) The Office of Qadi al-Qudat in Cairo under the Bahri Mamluks by Conrad.Gerhard, " Joseph .H.Escovitz",1989,p228.

(69) Irwin,"The Privatization of Justice under the Cirassian Mamluk',p66.

(70) ينظر: الظاهر بيبرس، ترجمة: محمد جديد، ط2، دار قومس، سورية، 2002، 158-159.

(71) Holt,'the Mamluk Institution"

(72) Jackson ,"The Primacy of Domestic Politics…",p56

(73) Lev,Symbioltic Rellations:Ulama and the Mamluk sultans,p15

ملف اللغات الأجنبية

مارس
2017

DIALOGUE MEDITERRANEEN

N°
15-16

الحوار المتوسطي

Mars
2017







DIALOGUE MEDITERRANEEN

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et Sociales
éditée par le laboratoire de recherches sur les études orientalistes de civilisation du Maghreb Islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbés - Algérie



N° 15-16
Mars 2017

ISSN 1112-945X
E-ISSN: 2571 - 9742

Dialogue Méditerranéen

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et sociales éditée par le laboratoire de recherches sur les études orientalistes de la civilisation du Maghreb Islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbés- Algérie



N° 15-16

Mars 2017

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

Dialogue Méditerranéen

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et Sociales éditée par le laboratoire de recherche sur les études Orientalistes de la civilisation du Maghreb Islamique

SOMMAIRE

Hommage

Le comité de rédaction de la revue « Dialogue Méditerranéen » lance un appel à contribution pour l'édition d'un numéro sur la thématique « Hommage à l'historien Abd El Hamid Hadjiyat ».

Nous allons consacrer un numéro spécial de la Revue et donner un hommage rendu et marquer l'importance de l'œuvre scientifique de l'historien Algérien Abdel Hamid Hadjiyat .

Abdel Hamid Hadjiyat était en rapport avec tous ceux qui étudiaient l'histoire du Maghreb médiéval, l'histoire de civilisation, culture populaire, littérature maghrébine et arabo musulman.

Tous lui demandaient des renseignements, Et c'était toujours avec empressement qu'il mettait à la disposition de quiconque l'interrogeait. L'inépuisable trésor de son savoir encyclopédique, de sa vaste érudition historique de sa riche bibliothèque.

Abdel Hamid Hadjiyat suivait, avec constante et paternelle solidité, les travaux qu'il entre prenaient sous sa direction, il stimulait leur zélé avec autant de soin qu'il secondait leurs efforts et guidait leurs premiers recherches.

Arrive à Alger, comme enseignant de cours de littérature arabe à l'université d'Alger, en 1965,puis à Tlemcen en 1985,Hadjiyat s'attache définitivement à l'histoire du Maghreb islamique, qu'il allait parcourir et étudier a côte de ses publications sur l'histoire d'Algérie, littérature arabo musulmane.

Même ceux qui n'étaient pas directement les élèves de Hadjiyat, parmi les enseignants chercheurs Algériens spécialisés dans le domaine particulier l'histoire médiévale, se rangeaient volontiers sous son étendard ; reconnaissant les qualités de ce Maître.

Directeur de la Revue

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Das Leben zwischen zwei Kulturen

Dr. NOUALI Ghaouti
Université Sidi-Bel-Abbés ; Algérie
e-mail : noualighaouti@yahoo.fr

Titre en anglais :
Life between two cultures

Abstract:
The aim of my work was to find out whether the children feel attracted to one of the two cultures, two cultures or no culture at all. For this purpose the concept of cultural identity had to be defined, which defines a person's sense of belonging to a community, which is defined by common customs, habits, traditions and often also by the same language. Then I have explained the various possible constellations arising from the interplay of bilingualism and culture: two languages - two cultures, two languages - no cultures and the situation of «Third Culture Kids»

Key words:
Children - Life between two cultures - cultural identity - society - - customs and traditions – language

Titre en arabe :

الملخص:

الحياة بين ثقافتين

كان الهدف من أطروحتي هي معرفة ما إذا كان الأطفال ينجذبون إلى واحد فقط من الثقافتين(**الجزائرية و الألمانية**)، أو حتى أي ثقافة. لهذا، يحتاج مفهوم الهوية الثقافية إلى تعريف، و هو الذي يشير إلى الشعور بالانتماء من شخص إلى المجتمع الذي تم تعريفه من قبل التقاليد المشتركة والعادات والتقاليد ،وغالبا عن طريق نفس اللغة. ثم لدي مختلف الحالات الممكنة التي تنتج عن تفاعل ثنائية اللغة – الثقافة ا، والواضح أن: لغتين – ثقافتين، الحاصلة بينهما في حالة "الأطفال ذو الثقافات الثلاث".

الكلمات الدالة:

الأطفال– *الحياة بين ثقافتين* – الهوية الثقافية– المجتمع– –العادات والتقاليد– اللغة.

Einleitung

Mit einer Sprache heranzuwachsen bedeutet immer auch mit einer Kultur heranzuwachsen**.** Zwar ist die Sprache das wichtigste Symbol einer Kultur. Dennoch sind Sprache und Kultur nicht identisch.

Wird das Kind tatsächlich mit zwei Sprachen und Kulturen groß oder wächst es vielmehr zwischen zwei Kulturen auf?

Zu welcher kulturellen Identität fühlt sich also das Kind mehr hingezogen?

Diesen Fragen möchte ich mich in meinem Beitrag widmen d.h. ob sich die Kinder nur zu einer der beiden Kulturen, oder zu gar keiner Kultur hingezogen fühlen. Welche Gedanken kreisen eigentlich einen Menschen im Kopf, der nicht wirklich weiß, wo er sich einzuordnen hat und wo er sich zu Hause fühlen soll, der sich hin und her gerissen fühlt und der oft ein Gefühl von Unverständnis, vielleicht sogar Verzweiflung mit sich tragen muss oder auf der Suche nach der eigenen Persönlichkeit.

Hören Sie bitte diese Aussage einer Französin:

‘’Je suis incapable de dire si je suis française ou allemande. En gros, je me sens française en Allemagne et allemande en France. Mais, en même temps, je ne me sens étrangère ni en France ni en Allemagne’’

Diese Aussage einer französisch-deutsch Zweisprachigen entspricht wohl dem berühmten **«überall und nirgendwo»** zu Hause Sein. Besonders wenn Eltern, ZB: aus geschäftlichen Gründen, immer wieder in einem anderen Land leben, kann es vorkommen, dass die Zeit für die Kinder nicht ausreicht, um sich in der neuen Umgebung einzuleben. Die Kinder besuchen meist internationale Schulen und fühlen sich keiner kulturellen Gruppe zugehörig. Aber auch Menschen, welche zweisprachig aufgewachsen sind und **«nur»** einmal

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

den Wohnort gewechselt haben, berichten, dass sie sich weder in der einen noch in der anderen Kultur zu Hause fühlen.

Spracherwerb geht Hand in Hand mit der Eingliederung in ein soziales Umfeld. Das Kind wird geprägt durch die Menschen, mit denen es kommuniziert: zuerst die Familie und später auch seine Umgebung.

Sprache ist eng verbunden mit Kultur. Spracherwerb geht daher auch immer Hand in Hand mit dem Erwerb kulturellen Wissens. Es gibt Zweisprachige, die sich zu beiden Kulturen hingezogen fühlen, jene, welche sich in keiner Kultur richtig zu Hause fühlen und jene, welche sich eine neue, dritte Kultur konstruieren.

Man sagt: ,''*Andere Kulturen, andere Welten*'' Wir leben so - sie leben anders. Kulturen unterscheiden sich vor allem durch die Lebensweise der Menschen. Die Lebensweise wird - je nachdem, welcher Kultur man angehört - sehr stark von den Werten, die sie vermittelt, geprägt.

In der europäischen Kultur dreht sich (fast) alles um das Individuum, den einzelnen Menschen. Jeder Mensch soll sich selbst verwirklichen können. Deshalb werden Kinder in europäischen Familien zur Selbständigkeit erzogen; Jungen und Mädchen sollen gleichberechtigt sein. Jeder für sich - dieses Prinzip schafft Unabhängigkeit. Die Kehrseite davon ist, dass sich viele Menschen einsam fühlen.

Was heißt das für Kinder? Kinder, die in der europäischen Tradition aufwachsen, haben viele Freiheiten: Sie bekommen Taschengeld und dürfen es nach ihren Wünschen ausgeben; sie dürfen alleine rausgehen, sich mit Freunden und Freundinnen treffen, zusammen ins Kino oder auf Partys gehen und bei Freunden und Freundinnen übernachten.

Es gibt jedoch auch Kulturen, in denen nicht der Einzelne, sondern die Familie im Mittelpunkt steht. Hier gilt der Einzelne in erster Linie als ein Teil seiner Familie. Das schafft ein großes Zusammengehörigkeitsgefühl. Es heißt aber auch, dass man sich der

Familie unterordnen muss; das gilt vor allem für die Mädchen und Frauen.

Viele Mädchen und Frauen fühlen sich deshalb nicht gleichberechtigt. Das zeigt sich ganz besonders, wenn es um Freundschaften und Liebe zwischen Jungen und Mädchen geht.

Kann man lernen und mit verschiedenen Kulturen leben?

Wie soll man aber sich verhalten? Was soll man unbedingt vermeiden?

Für Kinder, die aus einer Kultur stammen, in der die Unschuld des Mädchens einen hohen Stellenwert hat, ist es nicht immer leicht, sich zu Recht zu finden. Viele Einwandererfamilien haben gute Kontakte zu der neuen westlichen Kultur, in der sie leben; sie sind mit Familien aus dem anderen Kulturkreis befreundet und befolgen die Regeln ihrer Kultur nicht so streng. Es gibt aber auch Einwandererfamilien, die sich ganz eng an ihre Traditionen halten und Kontakte mit der Kultur des Einwandererlandes weitgehend meiden. Egal, aus welcher Art Einwandererfamilie ein Junge oder ein Mädchen stammt - es ist nicht leicht für sie, die richtigen Entscheidungen zu treffen.

Einwanderer-Kinder **pendeln zwischen zwei Kulturen.**

Was bedeutet das für die Mädchen?

Die meisten Mädchen, die aus Einwandererfamilien kommen und von ihren Eltern angehalten werden, ihre Unschuld zu bewahren, befolgen dieses Gebot.

Wie können europäisch erzogene Jungen damit umgehen?

Es bleibt ihnen kaum etwas anderes übrig, als das "Nein" des Mädchens zu akzeptieren.

Es kommt immer wieder vor, dass sich Mädchen aus Einwandererfamilien in westlich geprägte Jungen verlieben und gerne mit ihnen zusammen sein möchten.

Doch wie sollen, wie dürfen sie ihre Gefühle zeigen? Dürfen sie es überhaupt? Weil sie auf ihren guten Ruf achten müssen, sind sie besonders vorsichtig. Es kann vorkommen, dass der Junge gar nicht mitbekommt, wenn ein Einwanderer-Mädchen in ihn verliebt ist.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Auch für Einwanderer-Jungen ist die Situation nicht ganz einfach. Westlich geprägte Mädchen bewegen sich selbstbewusst, sie schauen Jungen neugierig an und weichen ihren Blicken nicht aus. Einwanderer-Jungen verstehen dieses Verhalten oft als Aufforderung, näher miteinander in Kontakt zu kommen. Das ist aber oft von den Mädchen gar nicht so gemeint.

Jeder ist neugierig auf alles, was ein wenig "**anders**" ist, und möchte es gerne kennen lernen. Das gilt auch für Menschen. Einwanderer-Jungen geben sich oft betont männlich und wirken auf westlich-geprägte Mädchen sehr attraktiv. Jungen geht es ähnlich mit Einwanderer-Mädchen: Viele kleiden sich betont weiblich; auch ihre schüchterne Art kann sehr anziehend sein.

Macht es Sinn, sich mit jemandem aus einem anderen Kulturkreis anzufreunden und eine Liebesbeziehung zu beginnen? Wenn beide Rücksicht aufeinander nehmen, kann es klappen. Natürlich sind solche Beziehungen nicht einfach. Aber sie haben einen großen Vorteil: Indem man eine andere Kultur kennen lernt, kann man viel über andere und auch über sich selbst erfahren. Vielleicht entdeckt man dabei mehr Gemeinsamkeiten, als man vorher vermutet hat.

Auch Wenn sich Kulturen begegnen, erlebt man, dass die anderen die gleichen Dinge ganz anders sehen, die gleichen Probleme anders lösen, sich in gleichen Situationen nach ganz anderen Erwartungen, Normen, Werten richten usw. Sie „sind“ ganz anders als man selbst, und das wird in aller Regel nicht einfach festgestellt und nüchtern zur Kenntnis genommen, sondern das berührt, erstaunt, irritiert – jedenfalls weckt es Emotionen und Reaktionen.

Die Umfrage hat schlussendlich gezeigt, dass nur jene Kinder, welche die zweite Sprache auch zu Hause sprechen, auch die damit zusammen hängende Kultur richtig verinnerlicht haben, da sie diese im alltäglichen Leben.

Kurz und gut ist festzuhalten, dass wir nicht zwischen Guten und Schlechten unterschieden haben sondern gezeigt, dass der Mensch seine Gründe für seine Handeln habe, und

- Wie man zwischen zwei Kulturen leben kann

- Wie man zwischen Traditionen und Moderne leben kann
- Wie man mit der Differenz leben kann
- Und wie man zwischen zwei Stühlen sitzen kann.

Bibliographie :

1- Abdalilah-Bauer, Barbara, 2006. *Le défi des enfants bilingues: Grandir et vivre en parlant plusieurs langues.* Paris: Éditions La Découverte.
2- Abdelilah-Bauer, Barbara, 2008. *Zweisprachig aufwachsen. Herausforderung und Chance für Kinder, Eltern und Erzieher.* München: C.H. Beck.
3- Boysson-Bardies, Bénédicte de, 1996. *Comment la parole vient aux enfants: De la naissance à deux ans.* Paris: Editions Odile Jacob.
4- Burkhardt Montanari, Elke, 2000. *Wie Kinder mehrsprachig aufwachsen. Ein Ratgeber.* Frankfurt am Main: Brandes & Apsel.
5- Dalgalian, Gilbert, 2000. *Enfances plurilingues. Témoignage pour une éducation bilingue et plurilingue.* Paris/ Montréal : L'Harmattan.
6- De Florio-Hansen, Inez und Hu, Adelheid, 2007. *Plurilingualität und Identi-tät. Zur Selbst- und Fremdwahrnehmung mehrsprachiger Menschen.* Tübingen : Stauffenburg.
7- Kail, Michèle (Hg.) und Fayol, Michel (Hg.), 2000. *L'acquisition du langage. Le langage en émergence. De la naissance á trois ans.* Paris: Presses Universitaires de France.
8- Kielhöfer, Bernd (Hg.) und Jonekeit, Sylvie (Hg.), 200611. *Zweisprachige Kindererziehung.* Tübingen: Stauffenburg-Verlag.
9- Kremnitz, Georg, 1995. *Sprachen in Gesellschaften. Annäherung an eine dialektische 9- Sprachwissenschaft.* Wien: Braumüller.
10- Metzeltin, Michael, 2000. *Nationalstaatlichkeit und Identität. Ein Essay über die Erfindung von Nationalstaaten.* Wien: 3 Eidechsen Verlag.
11- Montanari, Elke, 20088. *Mit zwei Sprachen groß werden. Mehrsprachige Erziehung in Familie, Kindergarten und Schule.* München: Kösel.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Vers une société de l'information axée sur les besoins humains

Benabderrahmane Yasmina
Université Salah Boubnider – Constantine 3

Résumé en Français :

La nouvelle étape du développement humain que nous vivons actuellement se caractérise par la prééminence de l'information, de la communication et de la connaissance dans l'ensemble des activités humaines. Certes, la technologie a déclenché l'accélération de ce processus, mais ce n'est pas un facteur neutre et la route n'est pas tracée d'avance puisque le développement technologique lui-même est guidé en fonction de jeux d'intérêts. Dans cette perspective, les politiques visant au développement de la société de l'information doivent être axées sur les besoins des personnes, dans le cadre des droits humains et de la justice sociale. Il est donc important que l'information soit déterminée en fonction de la société, et non pas l'inverse. En conséquence, chaque société doit s'attacher à s'approprier les technologies en fonction de ses priorités et besoins spécifiques de développement au lieu de s'adapter à celles-ci pour pouvoir faire partie d'une société de l'information définie d'avance. Aussi, il s'agit d'une part d'appréhender la société de l'information comme un processus fondamentalement humain, et d'autre part veiller à ce que l'information ne soit pas réduite à sa fonction économique et considérée comme une simple source de profit.

Mots clés :

Information- technologie- communication- connaissance- développement humain

Titre en anglais :

Towards the pillars of the Information Society in humanitarian needs

Abstract:

The new stage of human development in which we live today is characterized by the pre-eminence of information, communication and

knowledge in all human activities. While technology has sparked the acceleration of this process, it is not a neutral factor and the road is not traced in advance since technological development itself is guided by interests. From this perspective, policies aimed at the development of the information society must be geared to the needs of people, in the context of human rights and social justice. It is therefore important that information is determined in terms of society, not the other way round.

As a result, each society must focus on appropriating technologies according to its specific development priorities and needs rather than adapting them to being part of a defined information society, advanced. On the one hand, the information society must be understood as a fundamentally human process and, on the other, that information must not be reduced to its economic function and considered as a simple Source of profit.

Key words:

The information- Human Development- Telecommunications-Knowledge-Technology

Titre en arabe :

نحو ركائز مجتمع المعلومات ضمن الاحتياجات الإنسانية

الملخص

تتميز المرحلة الجديدة من التنمية البشرية التي نعيشها حاليا تتمثل في غلبة المعلومات والاتصالات والمعرفة في جميع الأنشطة البشرية. وقد أثارت التكنولوجيا في تسريع هذه العملية، ولكنها ليست عاملا محايدا و رسمت الطريق مقدما نحو التطور التكنولوجي .ويسترشد نفسها وفقا لألعاب الفائدة. في هذا المنظور، فإن السياسات تهدف إلى تطوير مجتمع المعلومات بحيث يجب أن تركز على احتياجات الناس في سياق حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية. لذلك فمن المهم أن يتم تحديد المعلومات من قبل الشركة، وليس العكس. وبناء على ذلك، ينبغي أن تركز كل شركة على التكنولوجيات الملائمة على أساس الأولويات والاحتياجات التنموية المحددة بدلا من التكيف معها من أجل أن تكون جزءا من مجتمع المعلومات التي تحددها مقدما، هناك يد لفهم

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

مجتمع المعلومات كعملية الإنسان بشكل أساسي، وأيضا التأكد من أن المعلومات لا يمكن تخفيضها إلى الوظيفة الاقتصادية، واعتبارها بسيطة مصدرا للربح.

الكلمات الدالة:

المعلومات –التنمية البشرية– الاتصالات–المعرفة– التكنولوجيا

Introduction

La nouvelle étape du développement humain que nous vivons actuellement se caractérise par la prééminence de l'information, de la communication et de la connaissance dans l'ensemble des activités humaines. Certes, la technologie a déclenché l'accélération de ce processus, mais ce n'est pas un facteur neutre et la route n'est pas tracée d'avance puisque le développement technologique lui-même est guidé en fonction de jeux d'intérêts.

Dans cette perspective, les politiques visant au développement de la société de l'information doivent être axées sur les besoins des personnes, dans le cadre des droits humains et de la justice sociale. Il est donc important que l'information soit déterminée en fonction de la société, et non pas l'inverse.

En conséquence, chaque société doit s'attacher à s'approprier les technologies en fonction de ses priorités et besoins spécifiques de développement au lieu de s'adapter à celles-ci pour pouvoir faire partie d'une société de l'information définie d'avance. Aussi, il s'agit d'une part d'appréhender la société de l'information comme un processus fondamentalement humain, et d'autre part veiller à ce que l'information ne soit pas réduite à sa fonction économique et considérée comme une simple source de profit.

1. Un déterminisme technologique à modérer

Nombreux sont ceux qui considèrent que le sentier du développement durable peut être atteint grâce à la généralisation des TIC. En effet, depuis quelques années, les organismes tels que la Banque Mondiale ou l'ONU défendent l'idée que le déploiement des TIC est bénéfique au développement humain et à la réduction de la pauvreté[1] et que les TIC sont des instruments essentiels pour la lutte contre la pauvreté.

Selon le PNUD (2000), « les pays qui réussissent à tirer le meilleur parti des TIC peuvent espérer enregistrer une croissance économique fortement accrue, une protection sociale considérablement améliorée et des formes de gouvernement plus démocratiques »[2]. Cette vision empreinte de déterminisme technologique confond progrès technique et progrès social, réduction de la fracture numérique et réduction de la fracture du développement. Ce déterminisme technologique associe dans une relation causale linéaire TIC et bienfaits pour l'humanité. Comme le souligne Annie Chéneau-Loquay, « tous ces programmes témoignent surtout du fait que, pour les intervenants du Nord, Internet est devenu un réel besoin pour le développement de l'Afrique, mais un besoin encore « virtuel », c'est-à-dire senti de l'extérieur (…). L'Internet apparaît ainsi comme un besoin, certes à satisfaire, mais avant tout à définir, à proposer et même à imposer par différentes actions de coopération »[3].

Ainsi, les objectifs principaux formulés par les organismes internationaux sont de réduire la fracture numérique et de mettre les TIC au service du développement. Les TIC sont ici perçues comme un moyen de réduire les inégalités. Elles sont présentées dans un rapport du PNUD comme uniques, incontournables, omniprésentes et omnipotentes : « En quoi les technologies de l'information et des communications sont-elles un outil sans précédent dans la lutte pour en finir avec la pauvreté au XXIème siècle ? Premièrement elles interviennent à presque tous les niveaux de l'activité humaine car elles peuvent être utilisées quasiment partout et pour tout. Deuxièmement ces technologies suppriment les obstacles au développement humain dans au moins trois domaines (…) »[4]. Selon les auteurs de ce rapport,

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

les TIC peuvent permettre d'éliminer les obstacles au savoir, les obstacles à la participation et les obstacles aux opportunités économiques. Par ailleurs, on peut lire dans ce rapport du PNUD que « le potentiel des TIC ne sera limité que par l'imagination humaine et la volonté politique »[5]. Les coupables d'une éventuelle contre-performance des TIC sont donc connus d'avance.

En réalité, les effets positifs des TIC ne pourront être exploités qu'avec l'intervention de la puissance publique. Selon Nicolas et Occis (2001)[6], deux axes d'intervention peuvent être envisagés : d'une part, favoriser le développement des TIC à travers des mesures incitatives et de subvention, et d'autre part, mettre en place les conditions d'exploitation de ces TIC, avec des mesures en faveur de la formation, des infrastructures… Selon le degré de développement, les interventions seront différentes. Par exemple, les économies émergentes peuvent élaborer des politiques industrielles fondées sur le ciblage de certaines activités liées aux TIC, tandis que les pays les moins avancés privilégieront plus les interventions en amont. La difficulté pour ces pays est de réaliser à la fois les objectifs de court terme liés à la survie de la population, et ceux de moyen et long terme comme l'intégration du pays dans les réseaux internationaux.

L'utilisation des TIC est plutôt controversée : certains pensent qu'il faut avant tout satisfaire les besoins élémentaires, tandis que d'autres estiment que les TIC peuvent justement permettre cela plus facilement et de manière moins coûteuse. Etant donné la rareté des ressources requises et les priorités de développement, les dirigeants auront peut-être à choisir entre l'investissement dans les TIC et dans d'autres secteurs, et l'on observe parfois une réticence à investir dans l'édification de capacités pour une utilisation efficace des TIC tant que d'autres problèmes pressants n'ont pas été réglés.

Il est à noter que les avantages potentiels de l'investissement dans les TIC et dans les capacités connexes ne risquent guère de se

concrétiser si cet investissement n'est pas coordonné à des stratégies d'investissement dans des secteurs extrêmement prioritaires du développement. Les dirigeants travaillent dans un monde où les pratiques établies et les problèmes de développement pressants limitent leur capacité d'action. Les domaines classiques d'intervention des politiques publiques concernent le soutien à l'éducation, la promotion de la R&D, la protection des droits de propriété intellectuelle ou la garantie de la normalisation, de la réglementation et de l'assurance qualité.

Selon les institutions internationales, l'utilisation des TIC peut apporter des bénéfices non négligeables et à l'inverse, la non-participation à la révolution de l'information risque d'avoir un coût important. Autrement dit, les problèmes de développement ne seront pas résolus avec les TIC mais risquent d'être aggravés si l'on laisse ces technologies de côté. Il faut dire que la situation des pays en développement face aux TIC est différente selon le niveau de développement. Les pays émergents peuvent espérer augmenter leur croissance grâce aux TIC en suivant de façon proche le modèle des pays industrialisés. Ils peuvent par exemple demeurer intégrés dans les réseaux internationaux de production ou attirer des IDE grâce aux TIC.

Par contre, dans les pays les moins avancés, il ne suffira pas d'introduire les TIC pour voir tous les problèmes de développement résolus. Dans ces pays, il ne sera pas possible de faire l'économie des mesures élémentaires telle la promotion de l'éducation, des infrastructures et de la mécanisation de base.

L'enjeu pour les pays en développement est d'utiliser les TIC pour contribuer à atteindre les objectifs primordiaux tout en évitant qu'elles n'absorbent les ressources destinées aux besoins fondamentaux. En somme, les TIC ne doivent être considérés que comme un simple outil au service du développement, en complément d'autres mesures. Compte tenu des enjeux de la fracture numérique, elles doivent être

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

mises en œuvre en tenant compte des besoins de la population (Lanvin, 1996)[7].

Finalement, l'affirmation selon laquelle les TIC peuvent réduire la pauvreté et permettre le rattrapage des pays en développement est à modérer, l'enjeu étant d'utiliser les potentialités de ces TIC pour aider à satisfaire certains besoins de base.

2. Les TIC comme facilitatrices des processus de développement

Face au paradigme dominant, notamment dans le milieu des organisations internationales, qui considère que la technologie conditionne le développement, nous présentons un paradigme alternatif dont la force principale réside dans la demande des utilisateurs et qui considère la technologie comme facilitatrice des processus de développement (Miguel Saravia, 2004)[8]. Ce paradigme considère que la société de l'information doit avant tout être axée sur les besoins humains. En effet on ne peut pas appliquer un modèle unique pour tous les pays, il s'agit de tenir compte des spécificités de chacun, des besoins et demandes de la population. Pour cela, Miguel Saravia considère trois aspects de l'innovation technologique : l'utilisation du potentiel d'environnements propices, la prise en compte du contexte d'origine des TIC et enfin la promotion de réels processus d'appropriation. Nous constatons alors la priorité qu'il y a à agir sur les processus d'appropriation sociale de la technologie afin que les TIC servent les intérêts de la société avant tout.

a- Utiliser le potentiel d'environnements propices

Le premier aspect tire son origine de l'énoncé même de la représentation dominante de l'innovation technologique qui attribue à la technologie elle-même et au processus d'innovation une capacité transformatrice et un potentiel émancipateur, c'est-à-dire que la simple

introduction de technologies génèrerait une chaîne qui aboutirait automatiquement à un développement social. Mais même si l'on dispose d'une infrastructure ou d'une technologie cela ne veut pas dire qu'on les utilise de manière efficace et qu'elles contribuent au processus de développement. En effet, il existe une dimension immatérielle qui ajoute de la valeur au processus d'innovation. Cette dimension est celle qui génère véritablement le développement. L'accent est ici mis sur le processus d'apprentissage et de développement des compétences dans l'objectif de permettre un usage adéquat de l'infrastructure.

Les insuffisances de compétences en matière de TIC doivent être comblées en insistant avant tout sur le développement humain et le renforcement institutionnel local, considérant les conditions préalables pouvant permettre aux TIC de devenir des éléments clés du processus de développement et de la lutte contre la pauvreté. Ces conditions ou pré-requis résident dans un environnement démocratique, des mécanismes de participation citoyenne renforcée, des niveaux adéquats d'éducation et d'accès à la santé, ainsi que l'existence d'une culture de paix et de responsabilité sociale. En d'autres termes, comme l'ont judicieusement souligné Ricardo Gomez et al. (2001) « les TIC ne sont pas une formule magique qui transforme le cuivre en or ni les zéros et les uns en démocratie, en participation et en développement. Les programmes de TIC pour le développement doivent utiliser le potentiel d'environnements propices »[9]. Si les pays en développement ne créent pas un environnement propice à l'introduction des TIC, cela risque d'aggraver encore les inégalités qui existent.

b- Considérer le contexte d'origine des TIC à introduire

Le second aspect à prendre en compte est le contexte d'origine de la technologie que l'on désire introduire, puisqu'il conditionne la technologie elle-même. En effet, si telle technologie est introduite dans une société caractérisée par une culture spécifique, sa portée sera sans doute différente si elle est introduite dans un autre contexte avec

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

une culture différente. Il est donc légitime de se demander quel est le contexte historique et social dont les TIC tirent leur origine et qui ont permis leur développement.

« Se référer à la technologie suppose d'essayer de comprendre de quelle manière les activités pratiques (les techniques) ont été conçues et mises en valeur par ceux qui les emploient ; quelle conception générale du monde, de ses éléments et de leur comportement ont été élaborés à partir des expériences de transformation du milieu ambiant ; en somme cela suppose de se référer à une totalité culturelle historiquement déterminée. La technologie n'est pas alors une réalité super-objective, neutre ; elle naît, se développe et se transforme dans un milieu historique qui en est le fondement »[10].

Considérant que les TIC participent à la globalisation qui profite à une minorité de personnes tout en laissant en marge la majorité de la population mondiale, on peut dire que ces technologies peuvent contribuer à accroître les inégalités, à renforcer l'exclusion et la marginalisation. Il faut dire que le phénomène des TIC est proche du paradigme dominant dans notre société, qui présente le changement technologique en cours comme obligatoire et inéluctable, neutre et rationnel, motivé uniquement par des raisons techniques liées fondamentalement au développement même de la technologie. En effet, comme le regrette Michel Saravia (2004) « ceci fait que les nouvelles technologies de l'information sont présentées comme des technologies ouvertes, pleines de promesses, à condition seulement de savoir utiliser leurs potentialités, pratiquement de manière indépendante du contexte social d'où elles proviennent et dans lequel elles s'appliquent »[11].

c- Promouvoir de réels processus d'appropriation

La pensée dominante en matière de nouvelles technologies considère qu'envisager des innovations technologiques suppose

l'équipement de ces technologies dans tous les recoins des pays en développement, même les plus pauvres. « Il y a dans cette perspective une méconnaissance des processus d'apprentissage, et de la différence entre une information et une connaissance »[12]. On oublie donc qu'il faut avant tout promouvoir de réels processus d'appropriation.

Améliorer la qualité de la vie des pays en développement passe par l'intégration d'une solide base de connaissances et de formes d'apprentissage. Or, toute connaissance utile intègre les compétences pratiques acquises par l'expérience, de même que par l'enseignement et la formation théorique, lesquels peuvent intégrer les applications des TIC. Les modalités de diffusion de la connaissances dépendent de son caractère plus ou moins codifié et tacite. Les mécanismes d'apprentissage peuvent alors jouer un rôle important dans l'acquisition progressive de connaissances difficilement codifiables.

Selon Credé et Mansell (1998)[13], les pays en développement ont besoin d'initiatives pour s'assurer que les processus d'apprentissage à l'aide des TIC qu'ils introduisent sont adaptés à leur milieu social, culturel et organisationnel particulier. Il serait en effet insuffisant de s'en tenir à une simple imitation des procédés d'apprentissage fondés sur les TIC en usage dans les pays industrialisés.

Au contraire, « dans les processus d'acquisition de connaissance et d'apprentissage, il y a d'une part l'interaction entre l'expérience accumulée par celui qui reçoit l'information et cette dernière, et d'autre part un processus de validation préalable pour estimer si un usage déterminé de l'information et de la technologie apportera une solution adéquate aux problèmes réels posés »[14]. L'importance des connaissances tacites est ici aussi montrée.

Au total, on peut dire que ce paradigme alternatif axé sur la demande des utilisateurs suppose la mise en place de réels processus d'appropriation sociale de la technologie. Ce paradigme alternatif annonce un retour de l'Etat mais avec des modes d'intervention profondément différents. Là où il devait intervenir directement dans

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

l'économie pour pallier l'insuffisance des acteurs privés et où intervention publique se confondait avec gestion publique, il doit désormais beaucoup plus agir comme architecte et comme stratège de la compétitivité nationale, en structurant la coopération entre tous les acteurs, la science, la technologie, l'économie, les institutions et l'évolution des cadres culturels qui conditionnent la capacité à innover et à la reconstruction des consensus sociaux. Dans l'évolution des nations, la capacité à adopter, voire à façonner les idées montantes du nouveau paradigme, va définir leur capacité à sortir de la crise et à tirer les fruits des possibilités de développement portées par les TIC.

Conclusion

Jeskanen-Sundström (2001) a défini la Société de l'information comme « une société qui fait un usage intensif des réseaux d'information et de la technologie de l'information, produit de grandes quantités de biens et de services d'information et de communication et possède une industrie de contenus diversifiée »[15]. Il ne s'agit pourtant pas de réduire le champ de la Société de l'information à des questions économiques ou d'infrastructure sans prendre en compte ses aspects sociaux et humains. Ces aspects sont en effet importants dans la mesure où il existe des disparités dans l'accès aux TIC et leur utilisation entre pays développés et en développement, mais aussi entre la population d'un même pays.

Il apparaît évident que la simple création d'une Société de l'Information telle que définie ci-dessus est insuffisante pour résoudre les problèmes du développement humain au niveau mondial. L'évolution de l'innovation technologique dans les pays en développement ne peut certainement pas suivre le même chemin que dans les pays développés. En même temps, la société de l'information ne se développe pas dans les pays en développement de manière indépendante des pays développés. Cependant, le développement de cette société de l'information doit être adapté à chaque cas et non

suivre un transfert linéaire et identique pour tous. Le potentiel des TIC peut être exploité afin de mieux répondre aux besoins essentiels de l'humanité.

Aussi, il s'agit de bien identifier ces besoins afin de pouvoir définir les politiques adéquates qui permettront par exemple de réduire les inégalités, améliorer l'éducation et la santé ou encore soutenir la justice sociale, le tout à travers la mise en place d'une société de l'Information à la fois équitable et durable.

En outre, la mise en place d'une société de l'information durable et équitable dans les pays en développement passe par la transformation du rôle de l'Etat. Ce dernier doit en effet passer du rôle de gestionnaire à celui de fondateur, à la fois aménageur (infrastructures de base), catalyseur (dynamique de réalisation), régulateur (organisation et arbitrage) et éducateur (sensibilisation, apprentissage).

Références bibliographiques :

Carrasco Valencia A., *Cambio tecnologico en comunidades rurales andinas,* Lima, ITDG, 1987, pp. 12-13.

Chéneau-Loquay Annie, Ntamboue Raphaël, La Coopération à l'assaut de l'Afrique, in *Société de l'information et coopération internationale, development.com,* Genève, IUED, 2003.

Credé A. et Mansell R., *Les Sociétés du Savoir,* Les Editions du CRDI, 1998.

Ellul J., *Le bluff technologique,* Paris, Hachette, 1988

Gomez R., Martinez J., Reilly C., *Accion al Margen de la Conectividad : Experiencia de America Latina y el Caribe,* Cooperation Sur, N°1, PNUD, 2001, p. 130.

Jacquet Pierre**,** Thierry de Montbrial **(**dir.), Ifri, *Rapport Annuel Mondial sur le Système Economique et les Stratégie 2002*, Paris, Dunod, 2001.

Jeskanen-Sundström H., *ICT Statistics at the new Millennium – Developing Official Statistics - measuring the Diffusion of ICT and its Impact,* IAOS Satellite Meeting on Statistics for the Information Society, 2001, Tokyo.

Lanvin B., *L'Afrique qui gagne,* Afrique 2000, 1er octobre 1996.

PNUD, *Mettre les nouvelles technologies au service du développement humain,* Bruxelles, De Boeck, 2001. < http://www.undp.org/hdr2001/french/ >

Saravia M., *Les TIC, une réponse à la pauvreté ?* in Revue latino-américaine Tecnologia et Sociedad, N°6, Edition ITDG, octobre 2004.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

[16]Institut de statistique de l'UNESCO, *Mesurer l'état et l'évolution de la société de l'information et du savoir : un défi pour les statistiques*, Publications de l'UNESCO pour le Sommet mondial sur la société de l'information, Paris, 2003.

Référence :

[1]. Annie Chéneau-Loquay et Raphaël Ntamboue, La Coopération à l'assaut de l'Afrique, in *Société de l'information et coopération internationale, development.com,* Genève, IUED, 2003.
[2]. PNUD, Extrait d'un communiqué de septembre 2000, < http://www.undp.org/french/ICTf2011.pdf>
[3]. Annie Chéneau-Loquay et Raphaël Ntamboue, op. cit. p. 12.
[4]. J. Ellul, Le bluff technologique, Paris, Hachette, 1988, p. 35.
PNUD, *Mettre les nouvelles technologies au service du développement humain,* Bruxelles, De Boeck, 2001. < http://www.undp.org/hdr2001/french/ >
[5] .Ibid. p. 36.
[6] .Nicolas F. et Occis N., Technologies de l'information : une chance pour le développement ? in Pierre Jacquet**,** Thierry de Montbrial **(**dir.), Ifri, *Rapport Annuel Mondial sur le Système Economique et les Stratégie 2002*, Paris, Dunod, 2001.
[7]. Lanvin B., L'Afrique qui gagne, Afrique 2000, 1er octobre 1996.
[8] .Saravia M., « Les TIC, une réponse à la pauvreté ? » in Revue latino-américaine Tecnologia et Sociedad, N°6, Edition ITDG, octobre 2004.
[9]. Gomez R., Martinez J., Reilly C., Accion al Margen de la Conectividad: Experiencia de America Latina y el Caribe, Cooperation Sur, N°1, PNUD, 2001, p. 130.
[10] .Carrasco Valencia A., Cambio tecnologico en comunidades rurales andinas, Lima, ITDG, 1987, pp. 12-13.
[11]. Saravia M., op.cit.
[12]. Ibid.
[13]. Credé A. et Mansell R., *Les Sociétés du Savoir,* Les Editions du CRDI, 1998.
[14] .Saravia M., op. Cit.
[15] .Jeskanen-Sundström, H., ICT Statistics at the new Millennium – Developing Official Statistics - measuring the Diffusion of ICT and its Impact. *IAOS Satellite Meeting on Statistics for the Information Society, 2001*, Tokyo ; cité par Institut de statistique de l'UNESCO, Mesurer l'état et l'évolution de la société de l'information et du savoir : un défi pour les statistiques, Publications de l'UNESCO pour le Sommet mondial sur la société de l'information, Paris, 2003.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Les écrits de Muhammad Hamidullah en français : Tendances et nouveautés[1]

Belabas Abderrazak[2]
Université du Roi Abdulaziz, Jeddah, Arabie saoudite
E-mail : abelabes@kau.edu.sa

Titre en anglais : The writings of Muhammad Hamidullah in French: Trends and innovations

Abstract:

Despite their undeniable importance, the writings of Muḥammad Hamidullah in French remain beyond the reach of the vast majority of non-Francophones except for translations carried out in isolation from time to time. Hence the need to shed light on the major features that characterize this literature in view of writings of the author who had remained unknown until then. To avoid any overlap with papers presented at the symposium, the present study focuses on the following question: What are the trends and novelties of Hamidullah's writings in French.

The study addresses the major trends of his writings in French through their respective distributions according to the year, the publication medium, the nature of the writing, as well as the major themes discussed: the Qur'an, the life of the Prophet, Law in Islam, the economic system in Islam and the Muslim question in the Indian peninsula which remains current in many respects.

Key words:

Mohammed Hamid Allah - French - Louis Massignon - Oriental Studies - Indian Peninsula

Titre en arabe :

كتابات محمد حميد الله باللغة الفرنسية :الاتجاهات والتطورات

الملخص:

تظل كتابات محمد حميد الله باللغة الفرنسية بعيدا بالرغم من أهميتها و لا يمكن إنكارها، عن متناول الغالبية العظمى من ترجمات غير فرنسية باستثناء التي أجريت في العزلة من حين لآخر. ومن هنا تأتي الحاجة إلى تسليط الضوء على السمات الرئيسية التي تميز بها هذا الأدب في ضوء كتابات المؤلف التي ظلت مجهولة حتى الآن. لتجنب التداخل مع أوراق المؤتمر، ترتكز هذه الدراسة على السؤال التالي: ما هي الاتجاهات والتطورات التي ساقها حميد الله باللغة الفرنسية؟ وفي هذا السياق، سنعالج فقط الحقائق غير معروفة من سيرته الذاتية في ضوء مراسلات لويس ماسينيون الذي كان لديه علاقة خاصة به منذ ثلاثة عقود، إلى درجة تثير في بعض الأحيان اشتباه في المخبر الأصلي في دستور المعرفة الاستشراقية.

تتناول هذه الدراسة الاتجاهات الرئيسية باللغة الفرنسية لحميد الله من خلال التوزيع الخاصة بها قبل وسيلة نشرها وطبيعة الكتابة، فضلا عن موضوعات رئيسية مثل : القرآن، حياة الرسول، الشريعة في الإسلام، النظام الاقتصادي في الإسلام وقضية المسلمين في شبه الجزيرة الهندية، التي لا تزال ذات الصلة في نواح كثيرة.

الكلمات المفتاحية:

محمد حميد الله– – اللغة الفرنسية– لويس ماسينيون– الدراسات الإستشراقية– شبه الجزيرة الهندية.

I. Introduction

En dépit de leur importance indéniable, les écrits de Muḥammad Hamidullah en français restent hors de portée de l'immense majorité des non-francophones hormis les traductions réalisées de manière isolée de temps à autre. D’où la nécessité de jeter la lumière sur les traits majeurs qui caractérisent cette littérature au vu d’écrits de l’auteur qui étaient restés jusque-là inconnus.

Pour éviter tout risque de chevauchement avec les communications présentées au colloque, la présente étude s'articule autour de la question suivante : Quelles sont les tendances et nouveautés des écrits de Hamidullah en français ? Dans ce cadre, seuls les faits inconnus de sa biographie seront abordés à la lumière des correspondances de Louis Massignon avec lequel il entretenait une relation privilégiée

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

durant trois décennies, au point de susciter parfois la suspicion d'informateur indigène dans la constitution du savoir orientaliste.

Après avoir précisé le protocole de collecte des données, esquisser le contexte scientifique français dans lequel opérait Hamidullah, et jeter la lumière sur sa relation avec l'orientaliste Louis Massignon, l'étude aborde les tendances majeures de ses écrits en français à travers leurs distributions respectives selon l'année, le support de publication, la nature de l'écriture, ainsi que les thèmes majeurs abordés: le coran, la vie du Prophète, la loi en Islam, le système économique en Islam et la question musulmane dans la péninsule indienne qui demeure d'actualité à bien des égards. La conclusion résume les principaux enseignements tirés de l'analyse de ces écrits et propose des recommandations pour la recherche future dédiée à la pensée de cet érudit hors du commun qui n'a pas bénéficié de l'intérêt qu'il mérite.

II. Protocole de collecte des données

La présente étude se base sur cent soixante-quatre écrits et entretiens (Annexe), de Hamidullah en français compilés essentiellement à partir des sources suivantes:

- L'étude 'Contributions de Muhammad Hamidullah in Islamic Economics' de Abderrazak Belabes (2011) qui a compilé des écrits en français, en anglais et en arabe.
- Le catalogue Sudoc, qui est un réseau de bibliothèques françaises proposant plus de douze millions de références bibliographiques(3).
- Le site de la bibliothèque nationale de France Gallica(4).
- Le '*Catalogue of Dr Hamidullah's Books and Articles in Various Languages*' compilé par Nadira Mustapha[1], tiré de son mémoire de master '*Muhammad Hamidullah and Islamic Constitutional Law*', soutenu à l'université McGill de Montréal (Mustapha, 2002 : 172-177).

- La compilation scannée de Daniel-Youssof Leclercq qui comporte des documents écrits par Hamidullah anonymement, sous pseudonyme ou avec son accord[2]. Certaines références ne mentionnent pas le nom du support de publication.

III. Contexte scientifique français dans lequel opérait Hamidullah

Au-delà du sujet traité, comme le relève à juste titre l'historien Sadek Sellam (2012), il y a deux aspects majeurs qui distinguent l'œuvre scientifique de Hamidullah:

D'une part, la valorisation du patrimoine scientifique islamique basé sur les manuscrits originaux (*makhtūtāt*) inconnus aux orientalistes français. D'où la remarque de Louis Massignon : « *Vous avez soutenu une bonne thèse, mais sans citer aucun auteur orientaliste* ». D'autre part, le souci de faire connaître les historiens classiques musulmans inconnus ou mésestimés pour une raison ou une autre.

A travers cette démarche inédite, il fut l'interlocuteur des orientalistes français avec aisance, sans complexe, ni complaisance, à leur tête: Maurice Gaudefroy-Demombynes (1862-1957), son directeur de thèse, William Marcais (1872-1956), Louis Massignon (1883-1962), Henri Laoust (1905-1983), Philippe Marcais (1910-1984), Charles Pellat (1914-1992). Dans son ouvrage initiation à l'islam, il note à juste titre : "*le musulman n'a pas besoin de leçons ou de conseils de ceux qui ne croient pas ou ne pratiquent pas l'islam*" (Hamidullah, 1970: 210).

Si son érudition suscitait l'admiration, sa posture épistémologique ne manque pas de susciter la méfiance, parfois tacite, parfois explicite, sous couvert d'une prétendue rationalité. Dans un compte rendu consacré au livre '*Le prophète de l'Islam'*, l'orientaliste Georges Vajda (1960 : 110) écrit : « *La documentation de ses deux gros volumes est très ample ; elle met en œuvre des matériaux peu ou point utilisés jusqu'ici et profite aussi de la connaissance directe pratiquement refusée à la quasi-totalité des orientalistes occidentaux, des lieux mêmes où s'était déroulée la carrière étonnante du*

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

fondateur de l'Islam ». Les manuscrits en question ont été récoltés, comme l'indique Hamidullah, (1959: 72) dans les bibliothèques des pays suivants: Hedjaz, Yémen, Syrie, Liban, Palestine, Egypte, Turquie, Allemagne, Hollande, France, Afghanistan, Maroc, Tunisie, Algérie, Inde. Dans un compte rendu consacré au même ouvrage, Marcel Pacaut (1961: 720-721) écrit : "*L'ouvrage de Muhammad Hamidullah n'est pas un ouvrage d'histoire. C'est un témoignage, le témoignage d'un croyant qui entreprend d'expliquer la vie, l'œuvre et la pensée du fondateur de l'Islam* […] *Et pourtant, j'ose l'écrire, ce livre a autant d'intérêt, si ce n'est bien davantage, que la plupart des études scientifiques sur Mahomet*".

Par ailleurs, dans son ouvrage « *Islam et capitalisme* », Maxime Rodinson (1974[1966]: 35 ; 243) qualifie Hamidullah d'apologiste et de proche des frères musulmans, bien que celui-ci n'ait jamais adhéré à cette mouvance. Pour sa part, Paul Balta (2005 : 125) le présente comme un croyant, c'est-à-dire un musulman qui accomplit ses obligations religieuses quotidiennes. Ce qui ne favorise pas, à ses yeux, la pensée critique. Or, comme l'a montré Pierre Bourdieu (2002), sociologue et professeur au Collège de France, loin de s'opposer, les sciences sociales et le militantisme, indépendamment de son référentiel de valeurs, peuvent constituer les deux faces d'un même travail: l'analyse et la critique de la réalité sociale qui contribuent à sa transformation par la création de nouvelles finalités et, par conséquent, de nouveaux moyens d'action.

Pour ce qui est du public visé à proprement parlé, il convient de distinguer ses écrits destinés aux chercheurs et ceux destinés au grand public tels que la traduction du saint Coran (1959), les livres et articles : '*Le Prophète de l'Islam*' (1959), '*Le pèlerinage à la Mecque*' (1960), '*La prière en Islam*' (1960), '*Pourquoi jeûner* ?' (1961), '*Initiation à l'Islam*' (1966). Durant des décennies, il s'est investi dans l'encadrement intellectuel et moral des jeunes musulmans à travers la création du centre culturel islamique en 1952, qui a compté parmi ses membres Haydar Bammate (1889-1965), Malek Bennabi (1905-1973), Eva de Vitray-Meyerovitch (1909-1999) convertie à l'Islam en 1950.

Ses cours du dimanche furent très appréciés. D'abord, au 23 rue Boyer-Barret, siège de l'Association des Etudiants Islamiques en France (AEIF)[(5)], puis à la mosquée Da'wa au 19 rue Tanger.

Sa démarche a montré que l'on pouvait être parfaitement musulman sans nier sa culture d'origine. Comme le relève l'écrivaine française Malika Dif, convertie à l'Islam depuis plus de quarante-cinq ans, et auteur de nombreux ouvrages pour les musulmans de France[3], '*Hamidullah fait partie des personnalités musulmanes qui nous ont ouvert la voie. Il est le premier qui nous a montré que l'on pouvait être parfaitement musulman et européen. Pour les Français de ma génération, convertis à l'islam, les écrits de Hamidullah ont été les premiers livres qui ont permis de donner du sens à notre pratique sans nier notre culture occidentale*' (Bamba, 2007).

IV. Mise au point sur la relation de Hamidullah avec Massignon

Bien qu'il soit considéré comme le plus grand islamologue français, l'accusation d'espionnage poursuivit Louis Massignon durant quasiment toute sa vie. En mars 1953, la revue de l'université d'al-Azhar '*Majallat al-Ahzar*', l'accusa de ne s'intéresser au soufisme que pour détourner les musulmans de la vraie foi. Elle le dénonça comme agent des missionnaires chrétiens. Les nationalistes arabes et réformateurs musulmans n'étaient pas en reste. Ils le présentaient comme un agent au service du colonialisme pour concurrencer Lawrence d'Arabie (Meunier, 2009).

La réflexion des orientalistes, comme tout être humain, n'est toutefois pas figée. Elle peut évoluer en fonction des évènements de la vie. Comme le relève l'historien Sadek Sellam (2014), Louis Massignon a radicalement modifié son attitude à l'égard des musulmans suite à une lettre de l'un de ses étudiants, l'essayiste et penseur algérien Hamouda Bensai (1902-1998) qui a préparé un mémoire sur Abū Ḥāmid al-Ghazālī (1058-1111) à l'université de la Sorbonne où il était lié avec Louis Massignon, et a influencé Malek Bennabi (1905-1973) dont il était l'ami.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Après les Massacres du 8 mai 1945 en Algérie, Hamouda Bensai, hospitalisé à Paris, reçut une lettre de Massignon sollicitant l'autorisation de lui rendre visite. La réponse de Hamouda Bensai fut sans équivoque. « *Je m'en veux de vous avoir aimé* », lui écrivit-il en lui reprochant de lui avoir fait croire aux possibilités de dialogue entre « *arabes musulmans et français chrétiens* ». Cette lettre a profondément affecté Massignon, conseillé à l'époque du gouvernement français pour les affaires musulmanes, qui avoue avoir eu « *beaucoup de peine à sa lecture* » (Sellam, 2009). Son article « *Heure critique entre la France et l'Islam* » publié dans le journal *Combat* des 22-23 juin 1947 témoigne de ce sentiment : « *Depuis quelque temps déjà, y était-il dit, un mécontentement grandit et se répand dans le monde musulman, avec des cris hostiles à la France* » (Bormans et de Peretti, 2014 : 17).

Sa préface au livre de Max Vintéjoux « *Le miracle Arabe* » ne fait que confirmer cette évolution qui demeure inconnue au monde musulman : « *Il est vrai que les Arabes d'à présent sont découragés par le mal que l'on dit d'eux. Aussi est-ce à leurs hôtes, comme Vintéjoux, et moi-même, qu'il appartient de crier à nos amis arabes de tenir le coup, de résister à toute cette propagande asservissante qui leur propose de renoncer à leur honneur, à leur tradition, à leurs pères, de capituler devant la force colonialiste et les capitaux des banques pour conformer leur manière de penser et d'agir à cette fausse civilisation de robots qui ne croit plus en elle-même, ni en Dieu, et aspire à soumettre l'univers à un climat de « digests » américains imbéciles, rédigés en « basic » (ou en « pigeon ») English. Toute cette fabrication d'ersatz truqués tombera avant peu. Qu'ils tiennent le coup ? Le monde a besoin d'eux* » (Massignon, 1950 : 15).

Les correspondances de Hamidullah avec Massignon (Bormans, 2009) doivent être abordées dans ce contexte évolutif afin d'éviter les amalgames, tout en relativisant les croyances entourant l'orientalisme du type : '*tous les puissants se sont entourés de chercheurs à leur solde*' (Said, 2003 : iv). C'est ce qui fait la différence entre une posture idéologique figée et une recherche historique, digne de ce

nom, qui évolue en fonction des documents d'archives et des écrits enfouis dans les trésors cachés des grandes bibliothèques publiques ou privées.

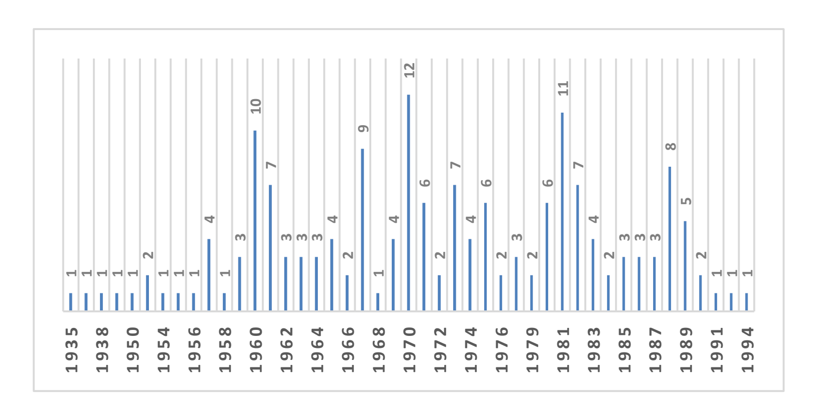
IV. Distribution des écrits par année

La distribution des écrits en français par année (figure 1) montre que Hamidullah a consacré toute sa vie à la recherche depuis sa thèse de doctorat en histoire soutenue à l'Université de Paris (1896-1968) en 1935 à 1994, c'est-à-dire deux années avant son départ aux États-Unis pour des raisons de santé. Sa publication est régulière depuis 1954 date à laquelle il bénéficie d'un poste de maître de recherches au CNRS grâce à l'appui de Louis Massignon et Henri Laoust dont il a été un collaborateur.

En pratique, l'activité de chaque chercheur affecté dans un laboratoire de recherche du CNRS est évaluée périodiquement sur la base de son rapport d'activité et de la liste de ses publications. Dans une lettre datée du 21 février 1962, Massignon écrit a Hamidullah à propos de son projet d'enseignement à l'université d'Istanbul: '*Envoyez-moi, en résumé, les éléments du rapport que je dois fournir sur votre activité au CNRS*' (Bormans, 2009: 9). Outre les références purement scientifiques, d'autres aspects sont pris en compte telles que la diffusion de la science, les activités d'enseignement, les relations science-société et l'ouverture vers l'extérieur. Dans une lettre datée du 5 novembre février 1953, Hamidullah écrit à Massignon : '*J'ai été voir M. Virolleaud*[6]*, qui est d'accord pour mon départ pour Istanbul. Mme Meyerowitch me dit que le directeur du CNRS est aussi d'accord là-dessus*' (Bormans, 2009: 6). Par ailleurs, la figure montre que l'activité scientifique de Hamidullah ne s'est pas arrêtée à la retraite en 1978.

Figure 1. La distribution des écrits de Hamidullah en français par année

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742



Source : Réalisé par l'auteur

V. Distribution selon le support de publication

La distribution selon le support de publication (figure 2) montre que la plupart des écrits de Hamidullah ont été publiés sous forme d'articles (84%), puis sous forme de livres (12%), de chapitres dans des ouvrages collectifs et d'entretiens (2%).

Figure 2.a. Distribution selon le support de publication (en voulme)

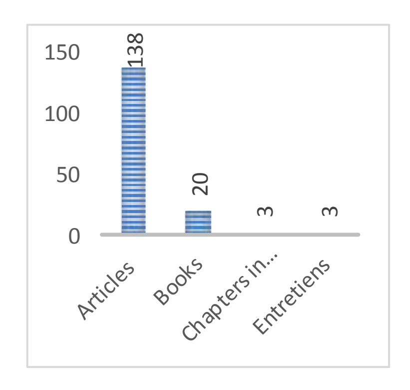
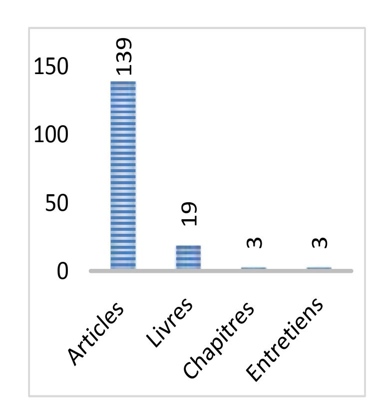


Figure 2.b. Distribution selon le support de publication (en pourcentage)



Source : Réalisé par l'auteur

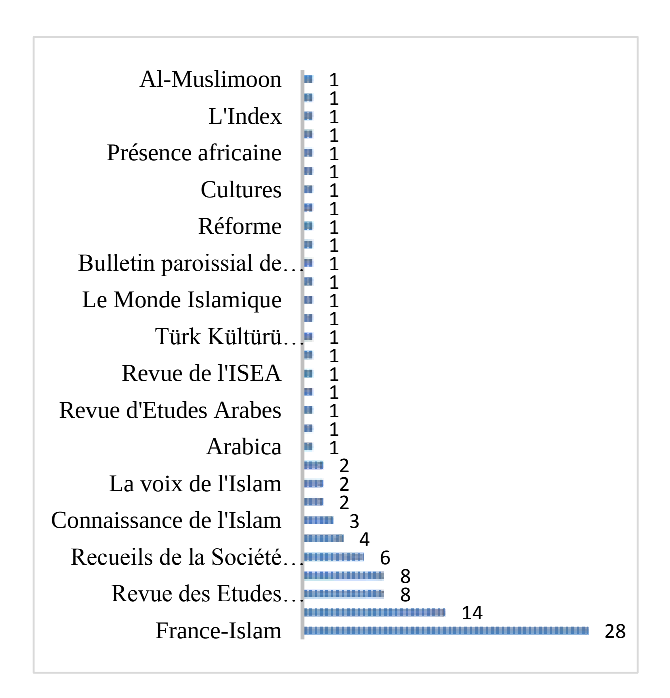
Source : Réalisé par l'auteur

En dépit de son identité musulmane affichée, certains de ses articles sont publiés dans les plus prestigieuses revue françaises consacrées aux études orientales et islamiques (figure 3), ce qui n'est pas chose aisée. Parmi ces revues, il convient de citer ce qui suit :

- *Revue d'études islamiques* : fondée par Louis Massignon en 1927;
- *Bulletin d'études orientales* : créé en 1931 à l'initiative des chercheurs français travaillant au Proche-Orient ;
- *Revue de l'Occident musulman* et de la Méditerranée d'Aix-en-Provence : à l'origine *Revue de la Méditerranée* fondée à l'université d'Alger en 1944 par Jean Alazard (1887-1960), doyen de la faculté des lettres et directeur du musée national des beaux-arts d'Alger. Elle est l'ancêtre de l'actuel *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* ;
- *Arabica* : revue d'études arabes et islamiques fondée en 1954 par Evariste Lévi-Provençal (1894-1956) historien, orientaliste, et islamologue français.

Figure 3. Les revues ayant publié les articles de Muhammad Hamidullah en français

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742



Source : Réalisé par l'auteur

VI. Distribution selon la nature de l'écrit

La distribution selon la nature de l'écrit (figure 4) montre que la plupart de ses publications se présentent sous forme d'articles ou de livres (93%).

Ils sont suivis de deux traductions de l'arabe au français :

- La première traduction de Hamidullah (1973) est '*Le Dictionnaire botanique'* (*Kitâb al Nabât*) of Abū Hanifa ad-Dinawari (828-896), publié au Caire par l'Institut français d'Archéologie orientale, 1973. Seuls deux des six volumes de ce livre sont parvenus à nous. Le sixième volume, reconstitué d'après des citations et passages d'autres ouvrages, par

Hamîdullah en 1973 contient les noms de 637 plantes. Il complète les travaux de Bernhart Lewin (1953) qui avait dressé le classement de 400 plantes classées selon l'alphabet arabe.

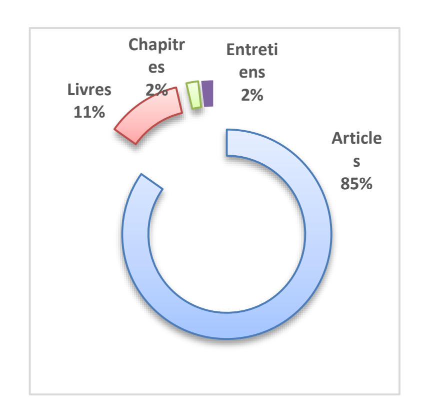
- La seconde traduction est '*Le grand livre de la conduite de l'État'* (Kitāb as-Siyar al-Kabīr) by Muhammad ibn al-Hasan Al-Shaybani (749-805), Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı, 1989-1991, pour montrer que le droit international était une discipline dans le monde musulman dès le VIII[e] siècle.

Puis d'une préface au livre '*La vie des prophètes'* d'Abou Al Hassan Ali Nadawi, traduit de l'arabe au français par Mohammed Benhamza.

Figure 4.b. Distribution selon la nature de l'écrit (en pourcentage)

150
100
50
0
139
19
3
3
Articles
Livres
Chapitres
Entretiens

Source : Réalisé par l'auteur



Source : Réalisé par l'auteur

VII. Ses thèmes majeurs

VII. 1. La traduction du Coran

Pour les musulmans francophones, Hamidullah est célèbre pour sa traduction du Saint Coran de l'arabe au français, réalisée en six mois et

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

encouragée assez discrètement par Maurice Gaudefroy-Demombynes et Louis Massignon pour pallier aux insuffisances de la traduction de Régis Blachère dont le parti pris est plus que flagrant. Il suffit pour s'en convaincre de lire l'introduction (Blachère, [1947]1966 : 11-22).

La traduction de Hamidullah fut rééditée douze fois entre 1959 et 1989 avec une préface de ce dernier, une introduction et des notes. Elle constitue la huitième traduction française du Coran depuis 1647 comme le montre la figure 5.

Figue 5. Historique des traductions du Coran en français (1647-2009)

Source : Réalisé par l'auteur

Il s'agit davantage d'une traduction de vulgarisation motivée par la nécessité d'expliquer l'Islam aux musulmans de France que d'une traduction destinée à un public spécialisé ou savant. Comme le relève Louis Massignon, "*l'intérêt majeur de cette traduction du Coran présente, c'est qu'elle est l'œuvre réfléchie d'un musulman, d'un penseur et d'un croyant : que ce Livre Saint concerne personnellement. Il en vit, il veut le transposer en français comme il le*

récite en arabe, avec une Foi nue" (Massignon, 1977[1955]: 3). D'où son succès parmi les jeunes musulmans nés en France ou convertis à l'islam et le choix du Complexe du Roi Fahd pour l'impression du noble Coran (2000 : ii) de l'adopter avec quelques révisions qui s'imposent à tout effort humain quel que soit le mérite.

VII.2. La vie du prophète

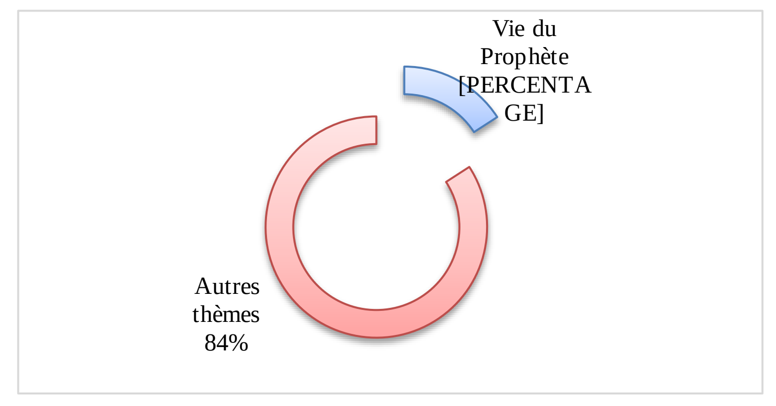
La vie du prophète constitue la seconde œuvre majeure et occupe quasiment le tiers de ses écrits en langue française qui nous sont parvenus jusqu'à ce jour (figure 6) sur une période de plus d'un demi-siècle depuis le début de sa thèse de doctorat à Paris en 1934, soutenue en 1935, jusqu'en 1990 (figure 7). L'intérêt de sa thèse est d'avoir jeté la lumière sur l'existence d'une intense activité diplomatique du vivant même du Prophète Mohamed –paix et salut sur lui–. Ce qui n'a pas manqué de susciter l'admiration de Louis Massignon, un des membres du jury de thèse, selon lequel la réalisation d'un travail aussi colossal sur la base de manuscrits originaux constitue un tour de force admirable. Le 1er février 1935, alors qu'il s'apprête à embarquer à Marseille pour l'Inde lointaine, Hamidullah écrit à Massignon : *'En quittant votre pays, un peu précipité, je crois devoir de vous assurer ma sincère gratitude pour vous. En effet, c'était vous qui m'aviez encouragé de venir à Paris ; et pendant environ un an de mon séjour à la Métropole de France, vous m'avez aidé dans mes études malgré votre grande préoccupation. Hier, au jour de la soutenance de ma thèse, vos remarques d'éloges m'ont touché énormément et vous m'avez donné beaucoup à réfléchir par votre savante critique. Je me permets donc de vous présenter encore une fois mon remerciement le plus cordial'* (Bormans, 2009: 2).

Une autre lettre à Massignon datée du 22 février 1951 montre que la vie du Prophète constitue un thème majeur de sa recherche : *'Comme vous le savez, la période du Prophète a été mon sujet spécial, et je n'ai cessé de pousser mes recherches dans le même sens*' (Bormans, 2009: 5). Dans l'introduction de son ouvrage, « Recueils de documents politiques », il écrit : « *En dépit de mon attachement à recueillir tout ce qui a été attribué au Prophète, prière et salut sur lui, je n'ai retenu*

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

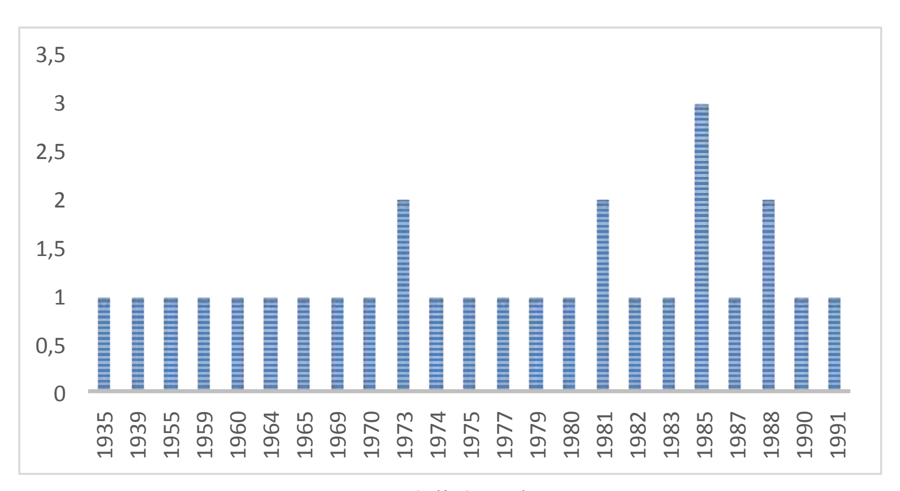
ici que ce qui a été authentifié comme écrit » (Hamidullah, 1985: 566).

Figure 6. Proportion des écrits de Muhammad Hamidullah sur la vie du prophète



Source : Réalisé par l'auteur

Figure 7. Distribution temporelle des écrits de Muḥammad Hamidullah sur la vie du prophète



Source : Réalisé par l'auteur

Tableau 1. Traduction des écrits de Hamidullah sur la vie du Prophète

Année	Titre original en français	Traduction en anglais
1935	Documents sur la diplomatie musulmane à l'époque du Prophète et des khalifes orthodoxes	Documents on Muslim Diplomacy in the Time of the Prophet and the Orthodox Caliphs
1939	Les champs de bataille au temps du Prophète	Battlefields in the time of the Prophet
1955	La lettre du Prophète à Héraclius et le sort de l'original	The Prophet's letter to Heraclius and the fate of the original
1959	Le Prophète de l'Islam	The Prophet of Islam
1960	Problèmes internationaux lors de la naissance du Prophète	International Problems at the Birth of the Prophet
1964	La psychologie des grands ennemis du Prophète	The psychology of the great enemies of the Prophet
1965	Original de la lettre du Prophète à Kisra	Original of the Prophet's letter to Kisra
1969	La date de naissance du Prophète Muhammad	The date of birth of Prophet Muhammad
1970	Le chef de l'état musulman à l'époque du Prophète et des califes	The head of the Muslim state at the time of the Prophet and the caliphs
1973	Le premier empire musulman du temps du Prophète et de ses trois successeurs	The first Muslim empire of the time of the Prophet and his three successors
1973	Les frères et soeurs de lait du Prophète	The Prophet's milk brothers and sisters
1974	Le Prophète de l'Islam en tant qu'éducateur	The Prophet of Islam as an Educator
1975	Sur la trace du Saint Prophète dans ses voyages en Arabie de l'Est	On the track of the Holy Prophet in his travels in East Arabia
1977	Les voyages du Prophète avant l'Islam	The Prophet's Journeys Before Islam
1979	L'émigration du Prophète	The Emigration of the Prophet

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

1980	Muhammad, prophète de Dieu	Muhammad, the prophet of God
1981	Les ambassades du Prophète et d'Abu Bakr auprès de l'empereur Héraclius et le livre byzantin de la prédication des destinées et l'ambassade du Prophète en Chine	The embassies of the Prophet and Abu Bakr to the emperor Heraclius and the Byzantine book of the preaching of destinies and the embassy of the Prophet in China
1981	La tolérance dans l'œuvre du Prophète à Médine	Tolerance in the Prophet's Work in Medina
1982	Le village arabe au temps du Prophète de l'Islam	The Arab village at the time of the Prophet of Islam
1983	L'original de la lettre du Prophète aux co-rois de l'Oman	The original of the letter of the Prophet to the co-kings of Oman
1985	Six originaux des lettres du Prophète de l'Islam: étude paléographique et historique des lettres du Prophète	Six originals of the letters of the Prophet of Islam: a paleographic and historical study of the letters of the Prophet
1987	Muhammad, Le Prophète de l'Islam en tant qu'éducateur	Muhammad, The Prophet of Islam as an Educator
1988	L'individu (Musulman et non-Musulman) face au pouvoir à l'époque du Prophète et de ses premiers Califes	The individual (Muslim and non-Muslim) facing power in the time of the Prophet and his first Caliphs
1988	Problèmes constitutionnels aux premiers temps de l'Islam	Constitutional problems in the in the early Islamic period
1990	Les gens de la race noire dans la vie du Prophète de l'Islam	People of the Black race in the life of the Prophet of Islam
1991	La rédaction du Hadith aux premiers temps de l'Islam	The writing of the Hadith in the early days of Islam

Source: Compilation et traduction de l'auteur

VII.3. **Le droit en Islam**

Le droit en Islam constitue le sujet de prédilection de Hamidullah (tableau 2), après le Coran et la vie du Prophète, de par sa formation initiale. Diplômé en droit international de l'Université al-Uthmaniyah de Ḥyderabad, où il exerça la fonction d'assistant à la faculté de droit, il obtient en 1933 à l'Université de Bonn une thèse de doctorat sur le principe de neutralité dans le droit musulman international, '*Die*

Neutralität im Islamischen Völkerrecht', où il montra que le droit international était une discipline autonome au VIII[e] siècle durant l'époque de Muḥammad ibn al-Ḥasan al-Shaybānī (749-805). Les thèmes traités, sans entrer dans les détails, sont variés comme le montre le tableau 2. A ce titre, sur la base de ses sources et d'autres rédigées en d'autres langues, il mérite qu'on lui consacre une thèse de doctorat.

Tableau 2. Traduction des écrits de Muḥammad Hamidullah sur le droit

Année	Titre original en français	Traduction en anglais
1951	Nouvelle étude des sources du droit islamique	New study of the sources of Islamic law
1953	Règne conjoint: la théorie et la pratique islamiques	Joint Reign: Islamic Theory and Practice
1957	La constitution de la République islamique du Pakistan	Constitution of the Islamic Republic of Pakistan
1960	Le droit romain a-t-il influencé le droit islamique ?	Has Roman Law Influenced Islamic Law ?
1962	La notion du droit international privé	The notion of private international law
1963	La genèse du droit de la preuve en Islam	The Origin of the Law of Evidence in Islam
1964	La loi constitutionnelle du Pakistan	The Constitutional Law of Pakistan
1965	Les liens entre la religion et le droit en Islam	The links between religion and the law in Islam
1968	La philosophie juridique des musulmans	The legal philosophy of Muslims
1970	Le statut du non-Musulman selon l'Islam	The status of non-Muslims according to Islam
1971	Le contrat de la monogamie obligatoire en Islam et l'épisode du Calife	The contract of the obligatory monogamy in Islam and the episode of the Caliph 'Abbasid al-Mansour

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

	‘Abbasside al-Mansour	
1973	Problèmes constitutionnels aux premiers temps de l’Islam	Constitutional problems in the early days of Islam
1974	Le problème des origines des sûretés personnelles dans l'Islam	The problem of the origins of personal security in Islam
1974	L’application du droit islamique à la société moderne	The application of Islamic law to modern society
1980	Les droits de l’homme dans l’enseignement du Prophète Mohammad	Human rights in the teaching of Prophet Muhammad
1984	Contribution musulmane au droit international	Muslim contribution to international law
1989	Arbitrage international	International arbitration.
1989	Liberté d’expression	Freedom of expression

Source: Compilation et traduction de l’auteur

VII.3. Le système économique en Islam

Dans un compte rendu consacré au livre « *Le prophète de l’islam* » de Hamidullah, l’orientaliste Georges Vajda (1960 : 110) écrit : « *l’auteur, savant juriste et expert ès sciences politiques, est très attentif aux aspects juridiques, administratifs, sociaux et économiques de l’Islam naissant* ». Il eut le privilège de consulter la plupart des manuscrits relevant de l’économie avant qu’ils soient publiés : ‘*Kitāb al-Kharāj*’ (Livre de l'impôt foncier) du Qādī Abū Yūsuf (d, 798), ‘*Kitab al-amwāl*’ (Livre des biens) d’Abū 'Ubaid al-Qāsim Ibn Salām (d. 838), ‘*Kitāb al-amwāl*’ d’Ibn Zinjawīh (d. 885), ‘*Kitab al-Kharāj*’ Yaḥyā ibn Ādam (d. 818), ‘*Kitāb al-Kharāj wa Sinā’at al-Kitāba*’ (Livre des biens et de l’art administratif) d’Ibn Ja’far (d. 948) (Belabes, 2011 : 78-81).

Par ailleurs, Hamidullah a été le premier, semble-t-il, à consacrer un chapitre économique dans la vie du Prophète (Hamidullah, 1959), sachant que l'historien irakien Saleh Ahmed Al-Ali (1918-2003) a publié en 1951 un article qui fait autorité sur '*le niveau des prix durant le premier siècle de l'hégire'*. Il sera suivi par d'autres publications, à leur tête : '*L'organisation économique au début de l'Islam*' de l'historien irakien Abdul-Aziz al-Douri (1919-2010) (1981) et '*La vie économique et sociale durant la vie prophétique*' de l'historien irakien Akram Dia'a Al-Umari (1997).

Il semble également le premier à utiliser la notion d'économie islamique dans un article en anglais intitulé '*Islam's Solution to the Basic Economic Problems – the Position of Labour*' (Hamidullah, 1936). Il l'a utilisé également en français dans un article intitulé '*La politique étrangère du Pakistan et son arrière-plan*', publié dans la revue française '*Politique étrangère*' où il souligne que '*la raison d'être du Pakistan était le désir de la grande majorité de ses habitants de vivre une vie islamique. Le premier et le plus important principe de la politique étrangère du Pakistan était donc l'accomplissement des devoirs islamiques*'. Une des conséquences de ce principe, '*est que les Pakistanais veulent garder leur neutralité dans la lutte entre le communisme et le capitalisme. Le système d'économie islamique est un système indépendant. L'islam ne peut s'entendre avec le matérialisme, soit chez les capitalistes, soit chez les communistes*' (Hamidullah, 1951: 138-139).

Il est intéressant de se pencher sur le lien entre la réflexion de Hamidullah sur le système économique en islam et la thèse du juriste syrien Mouhssine Barazi (1909-1946) '*Islamisme et socialisme*' soutenue le 7 juin 1929 à l'université de Paris, à l'heure où la Syrie était occupée par la France (1920-1946). Parmi les traits distinctifs de cette thèse, l'exploration du lien entre islam et socialisme, pour conclure que ce dernier, en niant la propriété privée, était incompatible avec les règles de la jurisprudence islamique et que, par conséquent, il était inadmissible de justifier ce qui est communément qualifié de socialisme islamique par des textes canoniques ou des faits historiques

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

(Vincent, 1933 : 461; Wallacher *et al.*, 2006 : 53-54 ; Martin and Barzegar, 2009 : 158 ; Ende and Steinbach, 2010 : 131).

Il convient, par ailleurs, de relever que Hamidullah utilise la notion d'économie islamique dans une perspective comparative, et celles de *'système économique'* (1959) et de *'système économique en Islam'* (1966) dans les ouvrages de vulgarisation pour le grand public comme le montre le tableau 3. Cette question mérite d'être explorée au-delà de la considération du précurseur connue des historiens des sciences et techniques (Clark, 1959: 103; Canguilhem, [1968]2002: 20-22).

Tableau 3. Ecrits de Muḥammad Hamidullah sur le système économique de l'Islam

Année	Titre original en français	Traduction en anglais
1957	Al-Ilaf, ou les rapports économico-diplomatiques de la Mecque pré-islamique	Al-Ilaf, or the economic-diplomatic relationships of pre-Islamic Mecca
1959	Système économique, in Le Prophète de l'Islam	Economic System, In the Book 'the Life of the Prophet'
1961	Banque sans intérêt	A suggestion for an Interest Free Islamic Monetary Fund
1961	Le monde musulman devant l'économie moderne	The Muslim world in front of the modern economy
1966	Système économique de l'Islam, in Initiation à l'Islam	Economic System of Islam, in the Book 'Introduction to Islam'
1974	Le problème des origines des sûretés personnelles dans l'Islam	The problem of the origins of personal security in Islam
1975	La connaissance musulmane du pétrole au Moyen Age	Muslim Knowledge of Petrol and gas during middle age

Source: Compilation et traduction de l'auteur

VII.4. La question musulmane dans la péninsule indienne

Après la soutenance de sa thèse le 31 janvier 1936 à l'université de la Sorbonne, Hamidullah rentre à Hyderabad le lendemain à bord d'un bateau du port de Marseille à celui de Bombay comme l'atteste une lettre envoyée de la cité phocéenne à Louis Massignon le 1er février 1936 (Bormans, 2009: 2). Il garde contact avec Paris comme

correspondant, en Inde, de la *Revue des études islamiques* comme en témoigne un article intitulé *'Lettre de l'Inde*' publié en 1938 (tableau 4).

En septembre 1948, l'armée indienne annexe l'Etat de Hyderabad dont le prince est musulman. Peu avant cet événement, le 21 août 1948, le prince de Hyderabad envoie une délégation auprès du Conseil de sécurité des Nation-Unies pour demander le respect de l'intégrité territoriale de Hyderabad. Hamidullah faisait partie de cette délégation composée de cinq membres. La mission n'aboutira pas. Hamidullah ne remettra plus les pieds sur Hyderabad, sa terre de naissance. Dans une lettre de Paris à Louis Massignon datée du 5 janvier 1948, il écrit : *'J'ai lu, dans des coupures des journaux indiens que j'ai reçues, qu'à l'Université de Hayderabad la langue d'enseignement (c.à.d l'urdu) a été remplacée par le hindi avec effet immédiat'* (Bormans, 2009: 3). Dans une autre lettre datant du 29 novembre 1948, il évoque les *'envahisseurs Gandhi-istes à Hayderabad'* (Bormans, 2009: 3).

Il se rend ensuite au Pakistan naissant où il est invité au comité de rédaction de la constitution. Dans une lettre à Louis Massignon, datée du 24 mars 1950, il écrit : *'Mon humble travail dans la Constituante ici continue et il y a eu d'intéressants résultats ; mais je ne sais pas si les haut-placés vont les accepter. Néanmoins, il y a une indéniable insistance de la part du peuple pour l'islamisation des lois*' (Bormans, 2009: 4). Préférant la recherche scientifique aux débats politiques interminables, il démissionne du comité et s'installe à Paris dans un modeste logement au 4 rue Tournon, où vécu le célèbre poète Alphonse de la Martine (1790-1869).

Tableau 4. Ecrits de Muhammad Hamidullah sur la question musulmane dans la péninsule indienne

Année	Titre original en français	Traduction en anglais
1937	Lettre de l'Inde sur le mouvement des études islamiques dans l'Inde	Letter from India on the Movement of Islamic Studies in India
1938	Lettre de l'Inde	Letter from India
1950	Le progrès des études	The progress of Islamic studies in

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

	islamiques au Pakistan	Pakistan
1951	La politique étrangère du Pakistan et son arrière-plan	Pakistan's foreign policy and its background
1955	Défense de la culture islamique pendant la domination anglaise de l'Inde	Defense of Islamic Culture during the English Domination of India
1957	La constitution de la République islamique du Pakistan	Constitution of the Islamic Republic of Pakistan
1957	Les études islamiques au Pakistan	Islamic Studies in Pakistan
1964	La loi constitutionnelle du Pakistan	The Constitutional Law of Pakistan
1969	Les Etudes islamiques à Haiderabad-Deccan	Islamic Studies in Hyderabad-Deccan
1971	La vérité sur l'Inde et le Pakistan : Intrigues impérialistes au Pakistan oriental	he truth about India and Pakistan: Imperialist intrigues in East Pakistan
1980	Le Pakistan, passé et présent	Pakistan, past and present
1990	Les derniers miracles de l'Islam en France et en Inde	The last miracles of Islam in France and India

Source: Compilation et traduction de l'auteur

VIII. Conclusion

L'étude des écrits de Hamidullah en français a montré que l'auteur a consacré plus de soixante ans de sa vie à la recherche scientifique depuis sa thèse de doctorat soutenue en 1935 à 1994, deux années avant son départ aux Etats-Unis pour des raisons de santé, avec un souci de valorisation du patrimoine scientifique islamique, sur la base de manuscrits originaux, afin que l'étude de l'Islam ne soit pas tributaire des modes intellectuelles, ni des intérêts étatiques et de groupes. D'où l'usage modéré de l'adjectif « islamique » dans l'étude comparative afin d'éviter toute généralisation abusive. Dans son esprit, le monde musulman comprend des sociétés, des langues, des expériences variées, qu'il convient d'étudier avec minutie.

La plupart de ses écrits ont été publiés dans des revues scientifiques, puis sous forme de livre ou de chapitres dans des ouvrages collectifs.

Les autres activités, en premier lieu la traduction, ne représentent qu'une infime partie. Ceci s'explique par son statut de chercheur au CNRS, de 1945 à 1978, pour lequel, comme toute autre institution de recherche digne de ce nom, la publication d'articles dans des revues scientifiques est un enjeu important.

Les thèmes majeurs traités sont la traduction du Coran, la vie du Prophète avec une préférence pour les relations diplomatiques, le droit en Islam, l'économie en Islam, la question musulmane dans la péninsule indienne qui demeure un sujet d'actualité. L'intérêt de cette étude est de compiler les écrits de l'auteur en français pour les traduire éventuellement en urdu et en anglais afin qu'ils soient accessibles aux chercheurs de tous horizons. Il serait également utile d'avoir des compilations thématiques qui faciliteront la tâche aux spécialistes.

Bibliographie :

Ad-Dinawari, abu Hanifa (1973). Le Dictionnaire botanique, reconstitué et traduit par Muhammad Hamidullah, d'après les citations des ouvrages postérieurs, Le Caire: Institut français d'archéologie orientale.

Al-Ali, Saleh Ahmed (1951). Mustawah al-As'ār fī al-Qarn al-Awal al-Hijrī [The Level of Prices during the first Century of the Hegira], *al-Thaqāfah*, Baghdad, September, pp. 18-21.

Al-Douri, Abdul-Aziz (1981). Fi al-Tandhīm al-Iqtisādī fi Sadr al-Islām [Economic Organization at the beginning of Islam], *Majalat al-'Ulūm al-Ijtimū'iyah*, Kuwait, Special Issue, pp. 75-90.

Al-Shaybānī, Muhammad ibn al-Hasan (1989). Le grand livre de la conduite de l'État [Kitāb al-Siyār al-kabīr = Kitâb as-Siyar al-kabîr], commenté par as-Sarakhsī, traduit par Muhammad Hamidullah, Ankara : Türkiye Diyanet Vakfi.

Al-Umari, Akram Dia'a (1997). *Al-Hayāt al-Iqtisādiyah wa al-Ijtimā'iyah fi al-Áhd al-Nabawī* [Social and Economic Life during the Prophetic Era], Riyad: Dar Kunuz Ishbiliya.

Balta, Paul (2005). *L'islam*, Paris : Le Cavalier Bleu Editions.

Bamba, Amara (2007). Hamidullah à Istanbul comme à Paris, *Saphinews*, 22 janvier.

Belabes, Abderrazak (2011). Contributions of Muḥammad Ḥamidullah in Islamic Economics (in Arabic), in *Wednesday Seminars 2010-2011*, Jeddah: Islamic Economics Institute, King Abdulaziz University, pp. 55-120.

Blachère, Régis [1947]1966. *Le Coran*, traduit de l'arabe, Paris : G. P. Maisonneuve & Larose Editeurs.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Borrmans, Maurice (2009). Louis Massignon, Muḥammad Ḥamidullah et sa traduction française du Coran, in Islalochristiana, Rome, PISAI, 35, pp. 31-49.
Borrmans, Maurice et de Peretti, André (2014). L*ouis Massignon et le Comité Chrétien d'Entente France-Islam* (1947-1962), Paris : Karthala.
Bourdieu, Pierre (2002). Pour un savoir engagé, *Le Monde diplomatique*, Février, p. 3.
Canguilhem, Georges ([1968] 2002). *Études d'histoire et de philosophie des sciences*, Paris : Vrin.
Cesari, Jocelyne (1998). *Musulmans et républicains* : *les jeunes, l'islam et la France*, Bruxelles : Editions Complexe.
Clark J. T. (1959). The Philosophy of science and the history of science, in Marshall Clagett (ed). *Critical problems in the history of science*, Madison: University of Wisconsin Press, pp. 103-140.
Complexe Roi Fahd pour l'impression du Noble Coran (2000). *Le Noble Coran et la traduction en langue française de ses sens*, Medine: Complexe Roi Fahd pour l'impression du Noble Coran.
Ende, Werner & Steinbach, Udo. (2010). *Islam in the World Today*: *A Handbook of Politics, Religion, Culture, and Society*, Ithaca: Cornell University Press.
Hamidullah, Muhammad (1936). Islam's Solution to the Basic Economic Problems – the Position of Labour, *Islamic Culture*, Hyderabad (Deccan), 10(2), April, pp. 213-233.
Hamidullah, Muhammad (1951). La politique étrangère du Pakistan et son arrière-plan, *Politique étrangère*, Vol. 16, No. 2, pp. 135-144.
Hamidullah, Muhammad (1970). *Introduction to Islam*, Gary, In.: International Islamic Federation of Student Organizations.
Hamidullah, Muhammad (1985). *Majmu`at al wathāiq al-siyāsiyah lil 'ahdi al-nabawi wa al-khilāfah* [Compilation Political Document during the Prophetic Period and the Caliphate], Amman: Dar al-Nafais.
Islahi, Abdul Azim (2015). *Hamidullah and his Pioneering Works on Islamic Economics*, Jeddah: Scientific Publishing Center, King Abdulaziz University.
Martin, Richard & Barzegar, Abbas (2009). *Islamism*: *Contested Perspectives on Political Islam*, Stanford: Stanford University Press.
Massignon, Louis (1950). Préface de Max Vintéjoux. *Le miracle arabe*, Paris : Charlot.
Massignon, Louis (1977). Préface à M. Hamidullah. Le Coran, Paris : Le Club Français du Livre, 3e édition, pp. II-IV.
Munier, Gilles (2009). Louis Massignon et les dessous de l'orientalisme français, *Réseau Voltaire*, 10 août.
Mustapha, Nadira (2002). *Muhammad Hamidullah and Islamic Constitutional Law*, A Thesis Submitted to the Faculty of Graduate Studies and Research in Partial

Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arts and Humanities, McGill University, Montreal, June.
Pacaut, Marcel (1961). Hamidullah (Muhammad) - Le Prophète de l'Islam. I. Sa vie. II. Son œuvre, compte rendue, *Revue française de science politique*, Volume 11, Numéro 3, pp. 720-722.
Puech, Henri-Charles (1968). Éloge funèbre de M. Charles Virolleaud, membre de l'Académie, *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, Vol.112, No. 4, pp. 600-604.
Rodinson, Maxime (1974). *Islam and Capitalism*, translated from French by Brian Pearce, Penguin Books.
Said, Edward (2003). *L'orientalisme : l'Orient créé par l'Occident*, traduit de l'américain, Paris: Seuil.
Sellam, Sadek (2009). L'œuvre inachevée, *Djazairess*, 6 février.
Sellam, Sadek (2012). Muḥammad Ḥamidullah (1908-2002), 5 August 2012, https://www.youtube.com /watch?v=AbAsWotOfKg
Sellam, Sadek (2014). Al-Macha': Sadek Sellam wa tafkik qabiliyat al-isti'mar (Al-Macha': Sadek Sellam and the Decontruction of Colonizablity), *Al-Jazeera.net*, 22 november 2014.
Vajda, Georges (1960). M. Hamidullah. Le Prophète de l'Islam, *Revue de l'histoire des religions*, Vol. 158, No 1, pp. 109-110.
Vincent, A. (1933). Chronique d'histoire des religions, *Revue des Sciences Religieuses*, Vol. 13, No. 3, pp. 458-480.
Wallacher, Johannes, Reder, Michael, & Karcher, Tobias. (2006). *Unternehmensethik im Spannungsfeld der Kulturen und Religionen*, Stuttgart: W. Kohlhammer Verlag.

Annexe

Ecrits de Muhammad Hamidullah en français

1) *Documents sur la diplomatie musulmane à l'époque du Prophète et des khalifes orthodoxes*, préface de Maurice Gaudefroy-Demombynes, Université de Paris, faculté des lettres, thèse de doctorat d'Université, Paris : G.-P. Maisonneuve, 1935.
2) Lettre de l'Inde sur le mouvement des études islamiques dans l'Inde, Revue des Etudes islamiques, 1937, 11, pp. 301-305.
3) Lettre de l'Inde, Revue des Etudes islamiques, 1938, pp. 101-111.
4) Les champs de bataille au temps du Prophète, Revue des Etudes Islamiques, tome XIII, 1939, pp. 1-13.
5) Le progrès des études islamiques au Pakistan, Revue des Etudes Islamiques, 1950.
6) La politique étrangère du Pakistan et son arrière-plan, Politique étrangère, vol. 16, n° 2, 1951, pp. 135-144.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

7) Nouvelle étude des sources du droit islamique, *Congrès international d'Istanbul*, 2, 1951, pp. 253-259.
8) Règne conjoint: la théorie et la pratique islamiques, *Rivista degli studi orientali*, vol. XXVIII, 1953, pp. 99-104.
9) Le "Livre des généalogies" d'Al-Balādurīy, in Damas : *Bulletin d'études orientales*, (1952-1954), tome XIV, pp. 197-211.
10) Défense de la culture islamique pendant la domination anglaise de l'Inde, Lahore: Panjab University Press, 1955.
11) La lettre du Prophète à Héraclius et le sort de l'original, in Paris : Arabica, vol. II, n°1, 1955, pp. 97-110.
12) Les Arabish de la Mecque, Studi orientalistici in onore di Giorgio Levi Della Vida, vol. I, 1956, pp. 433-447.
13) *Al-Ilaf, ou les rapports économico-diplomatiques de la Mecque pré-islamique,* Damas: Institut français, 1957, 19 p.
14) La constitution de la République islamique du Pakistan, *Revue des Etudes Islmamique,* 1957.
15) Le congrès international des orientalistes à Munich, qui a tenu ses assises à Munich (Mûnchen) du 28 août au 4 septembre 1957, pp. 34-37.
16) Les études islamiques au Pakistan, *Revue des Etudes Islamiques*, 1957.
17) L'Afrique découvre l'Amérique avant Christophe Colomb, in Présence africaine, Février-mai 1958, pp. 173-183.
18) Histoire de l'usûl al-fiqh chez les Musulmans, Annales de la Faculté de Droit d'Istanbul, tome IX-XI, 1959, pp. 72-91.
19) Note sur la littérature religieuse de la nouvelle Turquie, Annales de la Faculté de Droit d'Istanbul, 1959.
20) *Le Prophète de l'Islam*, Paris: Vrin, 1959, 2 volumes.
21) *Le pèlerinage à la Mecque,* Paris: Seuil, 1960.
22) La prière en Islam, *La pensée chiite,* Paris, 1960, n°4, pp. 9-14.
23) Contribution de l'Iran a la botanique et à la science juridique, *Pensée chiite*, 1, 1960.
24) Le droit romain a-t-il influence le droit islamique, *Pensée chiite*, 2, 1960.
25) Les premiers contacts arabo-islamiques avec l'Afrique noire, *Pensée chi'ite*, 1960, pp. 13-21.
26) Problèmes internationaux lors de la naissance du Prophète, *Pensée chi'ite,* 1960, pp. 11-17.

27) Bienfaits du Coran pour la première communauté musulmane, *Pensée chi'ite*, 1960.
28) Noir de peau, blanc d'esprit, 1960, pp. 15-16.
29) Nouveaux documents sur les rapports de L'Europe avec L'Orient Musulman au Moyen Age, *Arabica* : Revue d'Etudes Arabes, vol. VII, 1960.
30) Le Coran dans toutes les langues (Français), *Pensée chiite*, 1960, pp. 18-21.
31) Le Coran dans toutes les langues (Arabe), *Pensée chiite*, 1961, pp. 17-20.
32) *Pourquoi jeûner? Une étude sur le jeûne dans l'Islam envisagé du point de vue spirituel et temporel,* Genève: Centre islamique, 1961, 16 p.
33) Les bibliothèques publiques de Médine, *Pensée chiite*, 7, 1961, pp. 34-36.
34) Le Coran de Fatma-Zaida, centenaire d'un ouvrage mystérieux, *Pensée chiite, 8, 1961.*
35) Le monde musulman devant l'économie moderne, Revue de l'ISEA, Paris, supplément n°120, série V, n°3, décembre 1961, pp. 23-41.
36) Nouveaux documents sur les rapports de la France, de l'Italie et de l'Espagne avec les pays musulmans au moyen âge, *Pensée chiite, 7, 1961*
37) Nouveaux documents sur l'Iran médiéval (rapports avec la Chine), *Pensée chiite*, 9, 1961.
38) Banque de prêt sans intérêt, *Pensée chi'ite, 12, 1962.*
39) *Islam: civilisation et religion,* avec Pierre Marthelot et Roger Arnaldez, Paris: Fayard, 1965, 258 p.
40) La notion du droit international privé, *Annales de la Faculté de droit d'Istanbul*, 12, 1962, pp. 320-339.
41) Le 1100 anniversaire de la mort de Dinawari, *Turk Bioloji Dergisi*, 4e série 3, 1963.
42) Original de la lettre du Prophète à Kisra, *Rivista degli studi orientali*, vol. XL, 1965, pp. 57-70.
43) La genèse du droit de la preuve en Islam, *Recueils de la Société Jean Bodin*, 18, 1963, pp. 187-200.
44) Le Hajj, *al-Muslimoon*, 1964, No. 7-8, pp. 10-12.
45) La psychologie des grands ennemis du Prophète, *Revue des études islamiques*, 1964, p. 109-114.
46) Les liens entre la religion et le droit en Islam, *Recherches et débats,* Cahier n°51, juin 1965.
47) La loi constitutionnelle du Pakistan, *Revue des études islamiques,* 1964, 32, pp. 87-108.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

48) Introduction au *Kitâb al-Mu'tamad fi Usûl al-Fiqh* d'Abû'l-Hussain at-Taiyib al-Basri, Damas: Institut Français de Damas, 1965, tome II, pp. 1-42.
49) *Initiation à l'Islam,* Paris: Imprimerie de Carthage, 1966, 246 p.
50) *Le Musulman dans le milieu occidental et son retour au pays d'origine,* in Jacques Berque et Jean-Paul Charnay, *Normes et valeurs dans l'islam contemporain,* Paris: Payot, 1966, pp. 192-209.
51) La Bible en tant que source canonique du droit musulman, *France-Islam, 7-10, 1967.*
52) L'initiation à l'Islam et Visages de l'Islam (critiques littéraires), *France-Islam*, No.1, 1967, pp. 5-6.
53) Pourquoi prier seulement en Arabe ? *France-Islam*, No.1, 1967, p. 9.
54) Le Coran, Livre Saint des Musulmans, *France-Islam*, No.1, 1967, pp. 12-13.
55) Réponse à M. le Prof. Monteil, *France-Islam*, No.1, 1967, pp. 17-18.
56) Réponses à des correspondants, *France-Islam*, No.1, 1967, pp. 2-3.
57) Le jour de l'an musulman, *France-Islam*, No.2-3, 1967, pp. 7-9.
58) Le Hadith, la Sunna, *France-Islam*, No.2-3, 1967, pp. 25-31.
59) Le Ministre de DIEU, l'Imam, Bulletin Saint Jean-Baptiste, Tome VII-8, juin-juillet 1967, pp. 385-396.
60) Les Etudes islamiques à Haiderabad-Deccan, *Revue des études islamiques,* Vol. XXXVI, No.1, 1969, pp. 165-166.
61) La date de naissance du Prophète Muhammad, *France-Islam*, n°28-29, 1969.
62) Les notions islamiques sur l'ange, Colloque 1968 de l'Alliance mondiale des religions, 1969.
63) La philosophie juridique des musulmans, *Annales de la faculté de droit d'Istanbul*, 18, 1968, pp. 137-152, 29-32, 1968.
64) Le 1200 anniversaire de la mort de l'imam Muhammad ac-Chaibani: contemporain de Charlemagne, Islam Medeniyeti, 20, 1969.
65) L'administration de la justice au début du Califat*: Les instructions de 'Umar à Abû Mûsà al'Ach'ari,* in France-Islam, n°32-35, 1969- 1970, reproduit sous forme d'une brochure avec textes arabes des documents.
66) Le chef de l'état musulman à l'époque du Prophète et des califes, Recueils *de la Société Jean Bodin,* XX, 1970, pp. 481-502.
67) Le Saint Coran, Le Monde Islamique, n°1, décembre 1970, p. 6.
68) Le Prophète de l'Islam. Sa vie, son œuvre, *France-Islam*, n°37-38, 1970, pp. 7-10.

69) Les Juifs furent-ils vraiment les habitants de la Palestine ? *France-Islam*, n°37-38, 1970.
70) Le statut du non-Musulman selon l'Islam, *France-Islam*, n°41, 1970, p. 5.
71) Les anniversaires et les souvenirs, *France-Islam*, n°45-46, 1970, pp. 10-11.
72) Notices spéciales (sur la langue ourdoue et sur la notion de gens du livre), Tradition et modernisme, 1970, pp. 125-127.
73) Critique du livre de Paul Toinet, « Religions sans frontières ? », *France-Islam*, n°40, 1970, p. 10.
74) Critique du livre de Montgomery Watt « Islamic political thought », *France-Islam*, n°41, 1970, p. 15.
75) Ce que l'islam reconnait dans le christianisme, *Réforme*, 17 janvier, 1970, pp. 10-11.
76) Le Christianisme et l'Islam lors de la rencontre de Malazgird, *France-Islam*, n°53-54, 1971, pp. 5-6/8.
77) La vérité sur l'Inde et le Pakistan : Intrigues impérialistes au Pakistan oriental, *France-Islam*, n°53-54, juillet-août 1971.
78) Le contrat de la monogamie obligatoire en Islam et l'épisode du Calife 'Abbasside al-Mansour, *France-Islam*, n°52, 1971.
79) Un affront de l'éditeur Garnier à l'égard de l'Islam, 1971.
80) Le Pèlerinage à La Mecque, 1971.
81) *Les Musulmans : consultations islamo-chrétienne* entre Muhammad Arkoun, Hassan Askari, Muḥammad Hamidullah, Hassan Hanafi…, postface par Kamel Hussein et Daniel Pézeril, Paris: Beauchesne, 1971, 140 p.
82) Consultation islamo-chrétienne, *France-Islam*, n°59, 1972, p. 9.
83) La symbolique en Islam, *France-Islam*, n°59, 1972, pp. 14-15.
84) Le premier empire musulman du temps du Prophète et de ses trois successeurs, Recueils *de la Société Jean Bodin*, XXXI, 1973, pp. 509-532.
85) Contribution des Musulmans méditerranéens à la science historique, *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°15-16, 1973, pp. 35-42.
86) La religion en évolution, France-Islam, 68-74, 1972-1973.
87) Un nouveau système pour transcrire l'Arabe en caractères latins, in Mubārak, Yuwākīm. *Pentalogie islamo-chrétienne 4, Les Chrétiens et le monde arabe*, Beyrouth : Ed. du Cénacle libanais, 1973, pp. 129-131.
88) *Le dictionnaire botanique d'Abu Hanifa ad-Dinawari (Kitâb an-Nabât de la lettre sîn à la lettre yâ'*), reconstitué d'après les citations des ouvrages postérieurs, Institut français d'Archéologie Orientale du Caire, Le Caire, 1973.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

89) Problèmes constitutionnels aux premiers temps de l'Islam, 1973, pp. 35-68.
90) Les frères et sœurs de lait du Prophète, *France-Islam*, n°78-80, 1973.
91) Le problème des origines des sûretés personnelles dans l'Islam, *Recueils de la Société Jean Bodin pour l'histoire comparative des institutions*, tome 8, pp. 327-344, 1974.
92) L'application du droit islamique à la société moderne, *Le Musulman*, 1974, p. 11/14.
93) Les fêtes religieuses en Islam, *Le Musulman*, 1974, p. 20.
94) Le Prophète de l'Islam en tant qu'éducateur, *Le Musulman*, 1974, pp. 19-20.
95) Un grand serviteur de DIEU nous quitte ! Mustafa Valsan, *France-Islam*, n°93-94-95, 1975, p. 15.
96) Les escales arabes au début de l'Islam, *Recueils de la Société Jean Bodin pour l'histoire comparative des institutions*, tome 32, 1975, pp. 191-206.
97) La femme en Islam, *Le Musulman*, 1975, pp. 9-13/21.
98) Abraham en Islam, 1975, pp. 3-4.
99) La connaissance musulmane du pétrole au Moyen Age, *France-Islam*, n°96-97-98, 1975.
100) Sur la trace du Saint Prophète dans ses voyages en Arabie de l'Est, *France-Islam*, Paris, 93-94-95, 1975, pp. 3-4.
101) Le Coran (compte rendu de conférence), *Comprendre*, n°95, 5 mai 1976, pp. 1-7.
102) Les israëliyat ou données de source non musulmane dans la science islamique, *France-Islam*, n°116-117-118, 1976, pp. 1-6.
103) Pourquoi jeûner ? 1977, pp. 32-39.
104) Les voyages du Prophète avant l'Islam, *Bulletins d'études orientales*, 29, 1977, pp. 221-231.
105) Vieux textes persans chez les auteurs arabes, *Islami Ilimiler Fakultesi Dergisi*, 1977.
106) *Sahifah Hammam ibn Munabbih*, texte en français et en arabe, Paris : Association des Etudiants Islamiques en France, 1979.
107) L'émigration du Prophète, Ligue islamique mondiale, bureau de Paris, janvier 1979, pp. 1-5.
108) Muhammad, prophète de Dieu, in Hégire, an 1400, *Cultures*, 1980, vol. 7, n°4, pp. 27-40.

109) *Les traditions islamiques,* introduction et notes correctives de la traduction française El-Bokhâri de Octave Houdas et William Marçais, Paris : Association culturelle islamique, 1981, 282 p.
110) Les droits de l'homme dans l'enseignement du Prophète Mohammad, 1980, pp. 37-39.
111) La réunification du temporel et du spirituel, 1980, pp. 9-10.
112) Le Pakistan, passé et présent, 1980, pp. 5-10.
113) Sur le Coran, Badr et la conquête de La Mecque (Conférence transcrite), 1980, pp. 65-66.
114) Les fêtes chez les Musulmans, *Pensée chiite*, 1980, pp. 13-21.
115) Activités de Dawah islamiya en France et les problèmes connexes, papier présentée dans une conférence, 1981, 43 p.
116) Vieux textes persans chez les auteurs arabes, 1981, pp. 7-9.
117) Histoire du mariage dans la société humaine, Causerie du 15 novembre 1981, pp. 1-10.
118) La vie du Prophète, 1981, pp. 6-10.
119) Les ambassades du Prophète et d'Abu Bakr auprès de l'empereur Héraclius et le livre byzantin de la prédication des destinées et l'ambassade du Prophète en Chine, *Connaissance de l'Islam*, Paris, n°7, mai 1981, pp. 14-20.
120) La tolérance dans l'œuvre du Prophète à Médine, in *L'islam, la philosophie et les sciences*, Paris : Les Presses de l'Unesco, 1981, pp. 15-33.
121) Entretiens à l'Ile de la Réunion, *Le journal de l'île de la Réunion*, 14 janvier 1981.
122) L'histoire du Coran, 1981, pp. 17-18.
123) Les rapports islamo-chrétiens. Quelques faits, 1981, p. 13.
124) Le Coran a confirmé tous les Livres Saints sauf ce qui fut abrogé, 1981, pp. 1-6.
125) Le village arabe au temps du Prophète de l'Islam, in Les communautés rurales, troisième partie : Asie et Islam, Recueils de la Société Jean Bodin, XLII, 1982, pp. 37-57.
126) Documents inédits sur les débuts de l'Islam en Iran, Connaissance de l'Islam, 1982.
127) L'Islam et son impulsion scientifique originelle, Tiers-Monde, 1982, vol. 23, n°92, pp. 785-790.
128) Les femmes et l'Islam, *Dialoguer*, 1982, pp. 10-11.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

129) Compte rendu d'une conférence à Tlemcen sur la codification du hadith, M. G. Recherche de la vérité historique (Visite en Algérie), *El Moujahid*, juillet 1982,
130) L'arrière-plan des guerres téléguidées de Jamal et Siffin, 1982, pp. 73-90.
131) L'histoire d'usul al fiqh chez les Musulmans, 1982, pp. 8-17.
132) L'original de la lettre du Prophète aux co-rois de l'Oman, in Connaissance de l'Islam, Paris, n°13, janvier-février 1983, pp. 4-9.
133) Les débuts de traduction en arabe, 1983, *Pensée chi'ite*, pp. 11-13.
134) Théorie et pratique islamiques de la tolérance religieuse, 1983, pp. 13-16.
135) L'épisode du projet d'un testament-écrit par le Prophète sur son lit de mort, 1983, pp. 13-32.
136) Contribution musulmane au droit international, Colloque franco-pakistanais, IVe, Paris, 14-16 mai 1984, Unesco, Paris : Université René Descartes, 1984, 7 p.
137) Pratiques islamiques, *1984, p. 14.*
138) *Six originaux des lettres du Prophète de l'Islam: étude paléographique et historique des lettres du Prophète*, Paris: Tougui, 1985.
139) Prière de l'univers, 1985, pp. 23-24.
140) Un intellectuel islamique à La Réunion, entretien, *Journal de l'île de la Réunion*, 19 juillet 1985, p. 10.
141) La Symbolique en Islam, Le Pré-Saint-Gervais : Aslim, 1986.
142) Quelques miracles perpétuels du Saint Coran, 1986, pp. 18-20.
143) *Marwan Ibn al-Hakam et 'Amr ibn al-'As, victimes de fausses accusations,* in Turk Kulturu Arastirmalari, 24, 1986, pp. 63-71.
144) *Muhammad, Le Prophète de l'Islam en tant qu'éducateur*, Paris : Centre d'éducation islamique, 1987.
145) Islam et christianisme, 3e édition, Paris : Association des Etudiants Islamique en France, 1987.
146) Le mois sacré de Ramadan, *La voix de l'Islam*, n°5, 1987, pp. 3-8.
147) *Problèmes constitutionnels aux premiers temps de l'Islam*, Dar al Azhar, 1988.
148) Le beau modèle, *La voix de l'Islam*, n°7, 1988, pp. 28-34.
149) Après Ramadan la piété continue, *La voix de l'Islam*, n°8, 1988, pp. 10-12.
150) Les liens entre la religion et le droit en Islam, 1988, pp. 24-28.
151) Lettre ouverte à Mr. M. Gorbatchhev, à propos des Musulmans de Crimée, 1988, PP. 33-35.

152) Quoi et pourquoi de l'Islam, *L'Index*, n°1, novembre 1988, pp. 1-2.
153) L'Islam, 1988, pp. 269-273.
154) L'individu (Musulman et non-Musulman) face au pouvoir à l'époque du Prophète et de ses premiers Califes, *Recueils de la Société Jean Bodin pour l'histoire comparative des institutions*, XKVII, 1988, pp. 94-116.
155) *Le grand livre de la conduite de l'Etat (Kitâb al-Siyar al-kabîr de Muhammad ibn al-Hassan ach-Chïbâni,* traduit par Muḥammad Hamidullah, Ankrara: Türkiye Diyanet Vakfi, 1989, 474 p.
156) Arbitrage international, 1989, pp. 109-114.
157) Liberté d'expression, *Le Musulman*, 1989, pp. 21/33.
158) Histoire de la rédaction du Coran, *Le Musulman*, 15 septembre – 15 décembre, 1989, pp. 16-31.
159) Lettre ouverte au Roi Fahd d'Arabie Saoudite, 1989.
160) *Les gens de la race noire dans la vie du Prophète de l'Islam,* s.n., 1990.
161) Les derniers miracles de l'Islam en France et en Inde, Le Musulman, 15 décembre – 15 mars, 1990, pp. 24-25.
162) La rédaction du Hadith aux premiers temps de l'Islam, Le Musulman, 15 décembre – 15 mars, 1991, pp. 13-16.
163) *Abraham,* avec Emile Moatti et Pierre Roclave, Paris: Centurion, 1992, 166 p.
164) *Le 1400^{e} anniversaire du parachèvement de l'Islam,* Paris: Association des étudiants islamiques en France, 1994.

Référence :

---

(1) Cet article est la version française d'un papier présenté en anglais à la conférence internationale '*The Legacy of Muhammad Hamidullah and its Contemporary Relevance'*, New Delhi, 17-18 février 2017. J'ai voulu en faire profiter les esprits curieux est avides de connaissances

(2) Ehessien, chercheur à l'Institut d'économie islamique, Université du Roi Abdulaziz, Jeddah, Arabie saoudite, membre du groupe de recherche en finance islamique de l'Université de Strasbourg.
https://archive.org/details/ACatalogueOfBooksAndArticlesOfDrMuhammadHamidullah

(3) https://mdhamidullah.wordpress.com/index-liens-vers-les-articles/

(4) Etre musulmane aujourd'hui (1998), Les épouses du prophète de l'Islam (2001), Relations Parents-Enfants selon le Coran et la Sunna (2002), La maladie et la mort selon l'Islam : Rites et comportement (2008).

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

De l'absurdité du discours *intellectualiste*. Cas du bennabisme. *Deux illustrations*.

Ben Brahim Hamida
Centre universitaire. Aïn-Témouchent.
E-mail : benbrahimhamida@gmail.com

Résumé en Français :

La notion d'intellectuel est par trop problématique. Sartre, participant déjà de l'absurdité de la posture *intellectualiste*, définit les intellectuels comme enclins à l'**abus** (« *...personnes qui ayant acquis quelque notoriété par des travaux qui relèvent de l'intelligence […] [en]* ***abusent*** *[…] pour sortir de leur domaine et se mêler de ce qui ne les regarde pas* ». Sartre, in ***Plaidoyer pour les intellectuels***, p. 13).

Plus absurde encore l'abus de l'intellectuel musulman relevant du bennabisme. Conforme déjà à cette définition ; cet *intellectualisme* abusera notamment du livre sacré de l'Islam en présentant son *discours constituant* **(**Coran) sous les espèces du matérialisme. Posture irrecevable non pour la foi mais pour l'***impropriété du discours*** ; désormais ***absurde***.

Mots clés :
Intellectualisme, discours, énonciation, phénoménologie, politique, absurde

Titre en anglais :

From the absurdity of intellectualist discourse.Case of bennabism. Two illustrations.

Abstract:

The notion of intellectual is too problematic. Sartre, taking part already of the nonsense of the intellectualist posture defines the intellectuals as inclined in the abuse *("... people who having acquired some notoriety by work which concerns the intelligence […]* ***misuse*** *it*

to leave their field and interfere themselves what does not look at them”. Sartre, in ***Plea for the intellectuals***, p. 13).

Absurder still the abuse the concerning Moslem intellectual bennabism. Conform already to this definition; this intellectualism will misuse in particular the ***holy Book*** of Islam by presenting its *discourse constituting* (Coran) under the species of the materialism. Unacceptable posture not for the faith but for the ***impropriety of the discourse*** ; from now on ***absurd***.

Key words:

The notion of intellectual- Moslem intellectual- bennabism-discourse-Islam- Quran

Titre en arabe :

عبثيّة الموقف "الثَّقافَوِي حالة ابن نبي ، اثنين من الرسوم التوضيحية.

الملخص:

مفهوم المثقّف مشكلٌ للغاية. سارتر، و هو بعدُ طرفٌ في عبثيّة الموقف "الثَّقافَوِي"، يُعرِّف المثقفين بأنّهم مَجْبُولين على الإفراط ("...أُناسٌ، و بعد أن حصلوا على بعض الشُّهرة من خلال أعمال من قبيل الذكاء [...] يتمادَوْن مُفرِطين لِيَخْرُجوا من ميدانهم ليتدخّلوا في ما لا يعنيهم." في سارتر، دِفاعاً عن المُثقَّفين، ص. 13).

و أكثر عبثية إفراطُ المُثقَّف المسلم المنتسب إلى فكرة ابن نبيّ. مُطابق بالفعل لهذا التعريف، هذا النّحْوُ "الثّقافوي" قد أفرط خصوصا في الكتاب المقدس للإسلام من خلال تقديم خطابه المُؤسِّس (القرآن) من أَصْناف المادّية. موقفٌ غير مقبول لا للإيمان ولكن لعدم قَوامةِ الخطاب؛ الذي لن يكون إلاّ عَبَثيًّا.

الكلمات الدالة:

المثقّف– ابن نبيّ– الإسلام– القرآن– الخطاب

Introduction

L’article soutient le propos que les discours intellectuels , notamment des Sartre et BENNABI (M.) , issus d’imagos narcissiques forment un treillis de contradictions internes (aux discours) et contradictions relatives aux énonciations telles que ces discours n’en sont plus. En effet, ce qu'ils donnent pour

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

argumentations ne sont en définitive que *légendes d'hommes illustres* pour le bennabisme et *Je suis l'Homme* pour Sartre (un ***Ego** homo* mieux même qu'un ***Ecce** homo*).

Il y a dans le propos *intellectualiste* méprise sur le discours ; manifestement confondu avec opinion voire moins…le discours pour l'*intellectualiste* est simplement conseil et par surcroît sous les espèces de l'injonction et des fois de la subjonction [1]… ce qui est une mystification.

Notre problématique est : dans quelle mesure le bennabisme est-il discours ?

Et l'hypothèse que nous faisons est que le bennabisme n'est pas un discours, il en est question d'autre chose ; en raison de son absurdité.

Parce qu'à son orée déjà il entre en contradiction abrupte avec l'énonciation même dont il se revendique : l'Islam.

Nous aborderons quelques idées de Sartre, promoteur majeur de toute la pseudophilosophie de **l'engagement** de **l'intellectuel** dans les arcanes du ***pouvoir politique*** (**exécutif**) au titre d'une **responsabilité due à la liberté** de **l'Homme**… schème paradoxalement fidéiste (et prosélyte) ; certes séduisant mais qui n'en sera pas moins absurde. Pour enfin exposer quelques extraits, dans la même veine ; de deux ouvrages de BENNABI (M.) ; illustrant l'hiatus, la béance irréductible entre l'opinion *intellectualiste* et toute l'énonciation dont l'*intellectualisme* se revendique ; l'Islam en l'occurrence. Confusion se soldant systématiquement par une absurdité.

Cette approche n'est pas du jugement de valeur mais de l'***analyse du discours*** d'une parole publique (celles d'un Sartre, d'un BENNABI (M.) …) ; ce qui est la mission sociopolitique des universitaires. Ce serait sinon alors tout autant absurde.

Analyse

Notre étude s'inscrit dans l'***analyse du discours*** bien que la convocation du **Coran** donnerait à croire à du prosélytisme. Or, non. Tout comme on n'étudierait plus alors saint Thomas d'Aquin ou saint Augustin… sans leur énonciation chrétienne voire *christique*.

Mais, d'abord qu'est-ce que le discours et qu'est-ce que l’absurde ?
Sans tergiverser, la définition du ROBERT :

> **3. Philos. , log.** Pensée discursive*, raisonnement (opposé à *intuition*).
> ▫ *L'univers du discours :* **l'ensemble du contexte**.

Et de même, une définition pour l’absurde celle par exemple du C. N. R. T. L./ http://www.cnrtl.fr ─ cf. bibliographie.

> ABSURDE, adj. et subst. masc.
> **A.–** [En parlant d'une manifestation de l'activité humaine : parole, jugement, croyance, comportement, action] Qui est manifestement et immédiatement senti comme **contraire à la raison** au sens commun ; […]
> **D.–** *LOG.* [En parlant d'un énoncé] **Qui renferme une contradiction** […].

De la théorie où s’origine le bennabisme : Sartre

Un détour par la théorie de l’engagement de Sartre s’impose pour relever comment l’*intellectualisme* provoque par lui-même sa propre faillite.

C'est qu'en définitive dans sa philosophie même l’*intellectualisme* se nourrit d’illusions et d’erreurs de jugement. En effet, d’emblée ; comment un Sartre philosophe, RAISON emblématique de la liberté et, en l’occurrence l’intellectuel par excellence ; a-t-il pu se laisser mystifier par un Staline, puis par un Mao ? Pourtant il est évident que les politiques, ceux-là singulièrement ; sont ennemis ontologiques de la liberté et, par conséquent, ennemis mortels du philosophe. Comme un Heidegger , trouvant admirables les mains d’un Hitler[2]. Par principe même, le philosophe ne peut être d’une telle naïveté. Irrecevable.

La discussion de quelques-unes des idées données en synthèse dans l’article de **Patrick Wagner** qui suit (***La notion d'intellectuel engagé chez Sartre***) [3] mettra en lumière les étranges errements de l’*intellectualisme*. Bien qu'il soit permis de croire qu'il est animé de toutes les bonnes intentions (ce qui est à notre sens déjà une erreur car il y a confusion entre le philosophique et la ***P***-politique (entendu ***pragmatique politique*** qui est à distinguer de la ***politique*** versus ***éthique*** qui est l’affaire du philosophe).

De l’intellectuel ; idéologie qu'on confond avec le concept

Qu'est-ce qu’un intellectuel ?

Cette question pourrait paraître superflue ou absurde. Or, non. En effet, c'est parce que d’aucuns partent de leur *égolectes* qu'ils se

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

construisent une philosophie impropre. La philosophie, sagesse donc ; suppose une ***phénoménologie*** du langage ; telle qu'en partant du langage le philosophe aboutit à une cognition objective. Le contraire n'est pas vrai ; il dévisse droit dans l'illusion.

Revenons à la langue (dic. de la langue française ; **Le ROBERT**) :

> **ETYM.** 1265 ◊ latin *intellectus*, de *intellegere* « comprendre »
> **intellectualisme** [ɛ̃telɛktɥalism] nom masculin
> Philos. Doctrine qui affirme la prééminence des éléments intellectuels sur ceux de l'affectivité et de la volonté. *L'intellectualisme de Spinoza*.
>
> ◆ Où l'intelligence… excessive. « Les hommes avides de sensations, voire de sensations intellectuelles » (Benda). …
> (fin XIXe) Qui a un goût … (ou excessif) pour les choses de l'intelligence, …chez qui prédomine la vie intellectuelle. …. Elle est très intellectuelle.
>
> ◆ … vie… consacrée aux activités intellectuelles. ... *travailleurs intellectuels* (opposé à travailleurs manuels). *L'élite intellectuelle* (➙ intelligentsia).

En définitive il s'agit d'esprit. Seulement. Voire de ***présomption*** ; l'intellectuel ***serait*** **celui qui « *comprend* »**. Entendu ***qui comprendrait plus et sans doute mieux que d'autres…*** D'où l'aventure risquée, pour lui, d'aller s'essayer à la politique. Un tel projet se parachèvera dans la faillite (éthique). C'en est la fatalité. Pour cette raison que l'*intellectualiste* n'a pas les moyens de ***sa*** politique puisqu'il n'est pas politique (homme ~). Pis, dans ce cas ; ***il sera amené à s'aligner*** ou voué à disparaître.

Considérons cette définition de Sartre même :

> Intellectuels : « personnes qui ayant acquis quelque notoriété par des travaux qui relèvent de l'intelligence […] **abusent** de cette notoriété pour sortir de leur domaine et se mêler de ce qui ne les regarde pas ». Sartre . (En exergue dans l'article cité) [4]

Il s'agit donc d'abus.

De la notion d'intellectuel engagé chez Sartre

Notre propos est de montrer par quel truchement l'*intellectualiste* arabe, BENNABI (M.) en l'occurrence ; s'illusionnera sur ses aptitudes propres qui ont rapport avec non une existence (au sens de l'existentialisme même ; et *trompeur* déjà) mais avec le lyrisme d'une fiction littéraire.

Sartre l'archétype de l'*intellectualiste* pose, en effet, à travers l'***analyse du discours*** de l'auteur de cet article (***La notion d'intellectuel engagé chez Sartre*** (de Patrick Wagner)) ; des définitions et autres principes qui n'ont en définitive d'assise « argumentative » que ***ses idées* à lui *sur lui-même*** (cf. ***Les mots***). Ce qui est forcément le contraire d'une théorie cognitive où l'on parlerait de tout sauf de soi comme paradigme. Il s'agit en fait de posture politique (voire *politicienne*) dont un Sartre se sera servi pour **servir un ego *très grand***. Où la pensée philosophique a cédé le pas à la tentation du pouvoir exécutif (qu'il ne réalisera pas puisqu'il (Sartre) n'existe pas en tant que ***P***-politique (*homme* de la pragmatique-**~**).

Ce n'est pas un jugement de valeur auquel d'aucuns concluront mais quelqu'un qui prétend

que les hommes sont non seulement libres

mais, par surcroît,

que tout homme est responsable

non seulement de ses actes

mais

de toute l'humanité…

…alors…

A ─ ou qu'il s'agit d'un clerc

B ─ ou qu'il s'agit de littéraire (féru de fiction, seulement).

Improbable en effet qu'une autorité occidentale se sente rationnellement responsable de toutes les calamités « humaines » survenant dans le tiers-monde. Sauf pour quelque âme charitable *componctionniste* (piétiste) ou autres poètes tragiques (un littérateur donc.) Sartre en illustre ici le prototype qu'accusera ensuite un bennabisme…

L'engagement (*in article de Patrick Wagner*)

> « Nous nous rangeons du côté de ceux qui veulent changer à la fois la condition sociale de l'homme et la conception qu'il a de lui-même. »

Voilà pour le projet.

Commentaire :

Ou, plutôt, *voilà pour* **l'illusion**. Tant il est illusoire de changer la nature (humaine) par la politique ; quand bien même on en aurait la puissance (théorique). Encore moins par la philosophie (quand il y en

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

aurait ; et ce n'est pas le cas ici.) Il s'agit de « projet », par conséquent, absurde parce qu'il contredit le matérialisme historique même auquel les intellectuels souscrivent. Ils ne verraient sinon plus en ce matérialisme sa dimension fondamentale de stochasticité (« (opposé à *déterministe*). » *Dic. ROBERT*)) des évènements (historiques). Il est, en effet, absurde que le philosophe prononce « " ... *ceux qui veulent changer* ***à la fois*** *la condition sociale de l'homme et la conception qu'il a de lui-même.* " ».

Pour lui, il s'agit seulement de « *vouloir* » et vouloir rien de moins que changer la conception de l'homme et aussi, pourquoi pas ; la société des hommes. Il appelle cela le « projet ». En d'autres termes, l'impossible. D'où absurdité du (semblant de) discours qui ne tient de rien et ne tient à rien.

La notion d'engagement chez Sartre

> Il est essentiel de comprendre l'engagement […] comme un état de fait, lié à la condition humaine comme telle. Nous sommes condamnés à l'engagement de la même façon que nous sommes condamnés à être libres. L'engagement n'est pas l'effet d'une décision volontaire, …: je ne décide pas d'être ou non engagé car je suis toujours déjà engagé, comme je suis jeté au monde. L'engagement et le délaissement sont un seul et même état de fait. Cette précision est fondamentale car c'est sur cette conception de l'engagement que l'existentialisme affirme ses positions. L'engagement n'est pas l'enrôlement, ni même l'adhésion à tel ou tel parti politique . Il n'est pas même déterminé car il refuse justement la réduction de la situation humaine à un simple déterminisme des causes et des choses. L'engagement sartrien s'oppose en ce sens au matérialisme selon lequel l'homme n'est que le reflet d'une situation de base économico-sociale. Mais il s'oppose également à l'idéalisme qui postule la contingence de toute situation par rapport à l'éternité d'une « nature humaine ». « Nous sommes embarqués » disait déjà Pascal. C'est dans un sens identique que Sartre proclame le devoir d'engagement : nous sommes condamnés à être libres, sans cesse appelés à choisir entre différents possibles. Dans ce cas, personne ne peut prétendre à la neutralité. L'homme, cet être-au-monde, détient une liberté prise dans les choses et insérées en elles. Autrement dit, le sujet ne saurait se retirer au sein d'une pure subjectivité. Donc, refuser de choisir implique néanmoins un choix car c'est choisir de ne pas choisir. Ainsi, quoi que nous fassions, nous sommes toujours dans le coup, « embarqués », et par là même responsables.

Commentaire

Comme Sartre s'est *mis en tête* (parce qu'il s'agit bien d'*entêtement*) que l'engagement est, selon lui, une nécessité existenti***ale*** ; alors rien de plus naturel qu'il réduise l'univers entier à sa représentation. Excès portant en lui-même l'absurdité du propos. En effet, c'est au-delà de tous les dogmes. Récapitulons : « … *l'engagement au sens sartrien* »… :

- un état de fait
- Nous sommes condamnés à l'engagement
- L'engagement n'est pas l'effet d'une décision volontaire
- je ne décide pas d'être ou non engagé
- je suis toujours déjà engagé
- L'engagement et le délaissement sont un seul et même état de fait
- L'engagement n'est pas l'enrôlement
- ni même l'adhésion
- Il n'est pas même déterminé
- L'engagement sartrien s'oppose en ce sens au matérialisme
- il s'oppose également à l'idéalisme
- Sartre proclame le devoir d'engagement
- personne ne peut prétendre à la neutralité
- le sujet ne saurait se retirer au sein d'une pure subjectivité
- Donc, refuser de choisir implique néanmoins un choix
- c'est choisir de ne pas choisir
- Ainsi, …, nous sommes toujours dans le coup

Enfin :

- On ne peut pas, pour Sartre , ne pas être engagé.

En définitive Sartre pouvait très bien substituer cette *Condamnation à l'engagement* à *Existence* (en tant que *ontologie phénoménologique*) . Ce qui manifestement ne s'entend pas ; et s'entend seulement comme absurdité.

Comment peut-on proposer « ça » aux hommes qu'on chercherait à convaincre de liberté :

1- un état de fait
2- Nous sommes condamnés…
3- n'est pas l'effet d'une décision volontaire…
4- je ne décide pas…
5- je suis toujours déjà…

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

6- un seul et même état de fait…
7- L'engagement n'est pas…
8- Il n'est pas même déterminé
9- …s'oppose en ce sens au matérialisme
10- … s'oppose également à l'idéalisme
11- (*Sartre proclame le devoir*)…personne ne peut prétendre à…
12- le sujet ne saurait se retirer…
13- refuser de choisir … c'est choisir
14- …quoique nous fassions, nous sommes toujours…

Violence digne des plus grands tyrans que la terre ait portés. D'où d'ailleurs l'explication de son adhésion aux communismes.
C'est proprement : *Marche « dans le coup » (sic) ou… crève*.

C'est bien la conclusion, dans l'article :

Ainsi, quoique nous fassions, nous sommes toujours dans le coup, « embarqués », et par là même responsables.

Qui plus est *parachevée* par une **responsabilité**. Il y a tout lieu de s'interroger sur la capacité à mesurer ses ***mots***.

Pourtant l'humanité n'est rien de tout ***Ça*** et surtout…

A. … surtout que **l'engagement est politique et est volontaire**. Condition que les sartriens considèrent comme condition phénoménologique de la responsabilité.

B. … surtout **parce qu'il n'existe pas d'engagement *moral***. En effet, la morale n'attend pas un engagement. Elle est un donné phénoménal. C'est-à-dire que l'homme aime ***le bien*** *naturellement* et rejette ***le mal*** *naturellement* ; ***exception*** faite des cas pathologiques.

Le roman, philosophique certainement ; ***L'étranger*** d'A. CAMUS analyse cette problématique en identifiant, dans la bouche de Meursault ; la mort de sa mère (***non par sa faute…***) à la mort de l'Arabe (**apparemment** ***par sa faute… MAIS…) par la présence du même SOLEIL***… TOUTE SA RAISON à lui n'y pouvant ***existentiellement*** rien.

En effet, A. CAMUS philosophe a su, mieux que quiconque, convaincre de l'irresponsabilité ***phénoménale*** de Meursault (paradigme du dasein ; l'être-là ; ***là*** étant la ***situation ontique*** de Meursault ; par deux truchements phénoménaux :

1- la ***topographie*** (espace physique) de ce jour-***là*** : ***toute en pente***[5] ; soit ***une descente aux enfers*** exprimée objectivement (que ne recouvre ni intention ni volonté ; la pente est *phénoménale*) par l'acte naturel de « descendre » (cf. roman)

ET

2- ***l'efficience d'un soleil*** qui l'aveugle (aveuglement effectif, phénoménal et non métaphorique) enlevant toute conscience à Meursault de l'acte homicidaire.

Voici comment est-ce exprimé : ***Un homme aveuglé par une brûlure atroce aux yeux et sur une pente glissante***… naturel, non ?; d'emporter ce qui se trouve sur son chemin ? À observer ***la*** **simplicité logique** et ***idoine*** **du penser de Meursault** ***et*** de même de ***la volition d'agir de Raymond*** **ET** **la contrariété des évènements** a-rationnels ; traduisant le fait constaté historiquement (qu'est l'histoire des hommes). À moins de dénier l'a-rationalité d'une *venue au* monde comme d'un *départ du monde*… d'une maladie qui survient et emporte le médecin et non le malade…

Il n'échapperait que cette responsabilité sartrienne a tout de la notion de Péché originel, chrétienne ; dont il n'a pas eu les moyens intellectuels de s'en déprendre. Contrairement à CAMUS dont l'athéisme a été réussi non en théorie mais en praxis (en littérature) à travers le personnage Meursault. En effet, l'acte en responsabilité de Meursault, paradigme du dasein (et non l'Homme de Sartre ; **cet homicide** ─ acte limite de puissance: vie/mort ─ n'a **aucune dimension (épaisseur) historique** (qui remonterait à un autre dasein, un Adam, comme chez Sartre), **ni même historiale** (c'est-à-dire ontologique ; discursive).

Pour Meursault l'acte (l'agir mondain ; l'homicide) n'a pas même eu lieu. Il n'a tout simplement pas tué cet homme puisque ***rationnellement*** cet acte ne peut pas exister. En effet, aucun schème rationnel ne le lie historiquement ou historialement même à l'Arabe. Ou alors que l'acte n'a pas eu lieu (n'a pas existé) ou alors que

l'existence est absurde. Telle est la problématique que Camus ne tranchera pas. Philosophie oblige. Puisque la réponse n'existe pas. L'existence étant une aporie.

Remarque :

Nous nous épargnerons la caricature du ***Camus colonialiste qui a fait assassiner un « Arabe » anonymisé exprès, par mépris*** ; comme si l'« Arabe » était en soi une insulte et comme si un meurtrier devait connaître le nom de ses victimes…

- **Conclusion sur Sartre**

Il en ressort, surtout, de la confusion. Confusion entre le ***désir de soi*** et le monde. Le monde qui en est indépendant (**~** de soi, **~** du désir ; **~** du ***désir de soi***).

Du discours de BENNABI (M.) :

Il y a tout lieu de poser cette question problématique voire aporétique :

> **Dans le milieu *intellectuel* ; sous quelle(s) espèce(s) considère-t-on le Coran ?**

Nous n'y répondrons pas ici parce que ce serait insuffisant. Toutefois nous préciserons ce détail d'importance : le **Coran** s'impose comme ***référent*** à cause du fait même de la **méthodologie** de l'***analyse du discours*** . Laquelle a pour principe de fonder l'analyse (du discours) sur le ***<u>discours constituant</u>*** . Ce qui s'entend.

Or, pour l'objectivité, le ***<u>discours constituant</u>*** de l'Islam est le **Coran**.

Quant au reste, notamment le champ exégétique et, plus arbitraire encore, le champ herméneutique ; c'est de la subjectivité dont nous ne nous encombrerons pas.

Aussi, quand il sera question, dans notre discours de paradis et d'enfer ; de courroux de DIEU et de miséricorde… ; ce ne sera pas de prosélytisme mais pour rapports objectifs entre énoncés (ceux des propos intellectualisants et ceux du ***<u>discours constituant</u>***) . En d'autres

termes, notre discours ne sollicite pas de foi (quelle qu'elle soit) mais seulement convoque la raison ; dans le sens : convient-il de tenir pareil propos ? Ou bien : parlerait-on, par exemple, de l'École d'un pays *epsilon* en convoquant règles et lois d'un pays *oméga* ? Auquel cas on est alors absurde. Cette disparité manifeste rend bien étrange la *réception* ─ favorable, paradoxalement ─ de la posture *intellectualiste*. D'où l'objet de notre article.

Quelques illustrations dans les ouvrages de BENNABI (M.) où l'Islam est annoncé et non présenté, sans droit de cité ; proprement oublié aussitôt après annonce. Distraction qui renvoie à l'espèce de la *manipulation* publicitaire plutôt qu'à la consistance du discours (philosophique) dont d'aucuns se revendiqueraient… Ce qui est en revanche présenté ce sont les hommes dits en l'occurrence les *intellectuels* au sens des *Lumières* .

Première illustration : **Les conditions de la renaissance. Problème d'une civilisation** [6]

Extrait :

STADE POLITIQUE ET IDEE

La parole est divine.

Elle crée, pour une grande part, le phénomène social, grâce à sa puissance irrésistible sur l'homme. Elle creuse dans son âme le sillon profond où lève la moisson de l'histoire . (***L. c. de la renaiss.***, p 25).

Commentaire

D'où lui vient-il que la **parole** est divine ? Nonobstant la **PAROLE** de DIEU est divine. La parole de l'homme est humaine. Tautologie peut-être mais qui nous semble nécessaire pour relativiser l'absolue attribution dans l'extrait ci-dessus.

D'autre part, à comprendre ce que BENNABI (M.) ***aurait voulu dire…*** ; d'où lui vient-il que la **PAROLE** divine **destine** l'homme **à l'histoire** ? Parce que ce qui est admis, chez les musulmans, c'est que la **PAROLE** divine, qui est le **Coran**, destine à une eschatologie. Les versets ci-après définissent la ***vie Ici- bas*** (**الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**) et la vie de l'au-delà ; pour rester dans la cohérence discursive d'une même énonciation (celle de l'Islam, convoqué par l'intellectuel BENNABI (M.) . Il ne s'agit pas pour nous de prosélytisme mais d'opposer des énoncés en tant que donnés langagiers objectifs d'une même énonciation : l'Islam en l'occurrence ; comme le définit, d'une

part, l'intellectuel musulman et, d'autre part, le **Coran** texte fondement de l'Islam.

1- وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ... (الأنعام 32)

2- إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ [...] حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ[...] (يونس 24)

3- مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[...]نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا[...] (هود 15)

4- ...(القصص 60)

5- ...(العنكبوت 64)

6- وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً <u>لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ</u> لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ... (33) ... وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [...] (الزُّخرف 35)

Notons dans le verset **(الزُّخرف 33)** la *hauteur* du propos stipulant que si les hommes ne risquaient de se méprendre sur ce que fera DIEU aux incroyants ; eh bien DIEU octroierait à ces incroyants justement ***tous les biens du monde*** (**سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ... (34) وَزُخْرُفًا**) tant leur incroyance L'indiffère. Mais comme DIEU ne veut induire les autres dans cette grave méprise de leur part, DIEU ne le fait pas.

Notons aussi que les versets ci-dessus sont au plus près de l'opulence de ***l'Occident qui a réussi*** : une vie ***ornementale*** (**الزُّخرف**-*l'Ornement*) même s'il s'agit d'illusion des intellectuels du Sud. Nonobstant il faut lire le propos qui suit ; dans la même énonciation :

7- اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [...] ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا [...]إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (الحديد 20)

En fait, il est difficile d'éluder cette induction énonciative, à partir des propos de l'*intellectualiste* qui se dispense du ***<u>discours constituant</u>*** dans son discours propre sur l'Islam ; le **Coran**,

jugé à ce propos trop métaphysique, par trop idéaliste… Il s'agit, par conséquent, de **matérialisme historique** (au sens marxiste ; *l'histoire des hommes ... créée par les hommes*). Ce qui se comprend pour l'époque mais qui n'est plus audible quand il prétend à une posture *islamique*. Le discours ne peut donc qu'être absurde.

Enfin, à supposer que la **PAROLE** divine constitue quelque valeur principielle dans le discours *intellectualiste* (du *bennabisme*) ; voici qu'immédiatement après l'avoir **déclarée *en intention*,** voici que l'auteur ***passe à autre chose***. Il passe aux hommes qui sont objectivement faillibles. BENNABI passe déjà à ***EL AFGHANI*** ; où la *parole* susdite est traduite en ***VOIX***, ce qui revient au même tout en ayant cependant déjà évacué l'incipit (« *La parole est divine.* ») :

> […] La voix de Djamal Eddine avait déposé dans la conscience encore assoupie des peuples de l'Islam une simple idée : celle du réveil.
> Elle est vite devenue une idée force, une force transformatrice et créatrice de nouvelles conditions d'existence pour les peuples musulmans. […]
> Le rayonnement de cette force parvenait en Algérie, … (***L. c. de la renaiss.***, p 25).

Commentaire

En effet, après l'annonce : « ***La parole est divine*** » ; l'analyse est en fait des ***chroniques***. L'auteur conte les évènements d'hommes qu'il juge glorieux (Djamal Eddine , Cheikh Salah Mohanna, Cheikh Abdelkader El-Madjawi) sous les espèces héroïques : ***untel a fait***…, ***untel a accompli***… Ce qui est une ***chronique*** qui n'a pas à s'encombrer d'argumentation.

> **Il s'agit bien, par conséquent, de *contes et légendes*. Non de discours.**

Il s'agit de croyance où la parole des hommes (Djamal Eddine , etc.) a été substituée à la parole du DIEU. D'où un prosélytisme, cette fois-ci, pour un matérialisme historique avec un nouveau mythe fondateur : la ***Renaissance/النَّهضة***.

En définitive c'est sur l'effet illusionniste que l'*intellectualisme* œuvre. Puisqu'il s'agit d'effet d'annonce « ***La parole est divine*** » ; et dès que le ***client*** est hameçonné l'auteur se distrait du discours (intellectuel ; à supposer qu'il existe) promis et s'en va conter

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

merveille (au sens du genre littéraire ***le*** merveilleux (*Il y a des hommes sublimes… remplis de sagesse…qui ont si bien compris…*)

L'hypothèse que nous ferons est que cette tendance (consistant à prendre les propos des uns et des autres en tant que propos ***de l'Islam***, voire pour « ***La parole est divine*** » (*sic*)) ; l'hypothèse que cette tendance s'origine dans le même topos *intellectualisant* suivant… :

Le Coran n'est pas littéral mais métaphorique.

Et, par conséquent, sujet à une heuristique exégétique/herméneutique infinie ; interminable.

En effet, le principe (vouloir) ***adapter*** l'Islam aux conjonctures ne saurait se faire sans (vouloir) ***adapter*** son texte fondement, le **Coran**. Or, cette tendance, dès son ébauche, s'installe dans une contradiction naturelle (bien qu'à peine sensible.)

> **En effet, quand même le Coran serait métaphorique, quelle instance d'autorité serait-elle capable de faire la distinction univoque (sans trop ambiguïté) entre le littéral et le métaphorique dans le Coran ?**

…à moins de postuler que tout le **Coran** est métaphorique. Puisqu'à l'évidence aucun *intellectuel* ne fera l'hypothèse contraire ; que : tout le **Coran** est **littéral**. Et ce au titre d'une prémisse de l'*intellectualisme* : le **Coran** s'entend (de l'entendement/**الإدراك**) selon notre compréhension (intelligence, savoir ; connaissance ; culture…). Prémisse dont on ne mesure pas suffisamment l'abus.

Abus, en effet, car il y a problème. Une entière problématique en fait. Une autre. Problématique à cause de l'irruption de l'*intellectualisme* dans le champ de la foi islamique : qu'en est-il, en effet, de l'amplitude de cet entendement/**الإدراك** ? L'intellectuel est-il certain de ses connaissances pour être assuré que son entendement/**الإدراك** est avéré ? Ou serait-ce ses impressions esthétiques qu'il présenterait en tant que science (exégèse/**تفسير** et/ou herméneutique / **التّأويل**) ?

D'aucuns trouveront recevable juste la tentative, la participation au débat public… Postulant par là une ***autorité « amateur »*** se justifiant par des ***pourquoi pas ? Pourquoi pas moi (l'intellectuel*) **?**

Or, partant de l'axiome fidéiste (idoine) que le **Coran** est parole de DIEU, en tant que donné anthropologique fermement établi et établissant cette anthropologie même ; il est absurde alors que tout individu s'en autorise le discours (supposé) sans en avoir les capacités **savantes** suffisantes.

La science non avérée, ce ***scientisme*** *intellectualiste* autorise donc toute la méfiance. Notamment concernant la compréhension du discours en langue arabe même qu'est le **Coran**. Citons BENNABI (M.) :

> **[…], plus conséquent et plus profond, l'islahisme formule clairement le principe doctrinal :** ***''Dieu ne change rien à l'état d'un peuple que celui-ci n'ait d'abord changé son état d'âme.''*** **(Coran).**
> Il faut ***se renouveler*** : ce fut […] le leitmotiv et la devise de toute l'école islahiste issue de Badis. Les congrès des Oulémas indiqueront ***les bases de ce renouvellement*** **nécessaire à la renaissance**. (***L. c. de la renaiss.***, p 28).

– **À propos de « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ... »**

Commentaire

Certes, il s'agit du verset 11 de la sourate ***Le tonnerre*** /**الرّعد**.

Mais qu'en est-il ? Y aurait-il quelque rapport avec le propos de BENNABI et de l'*intellectualisme* musulman en général ?

La réponse est non. C'est bien le problème.

> **Son propos étant :** ***Les conditions de la renaissance*** **; BENNABI convoque ce fragment du verset 11 sans tenir compte de son énonciation. Ce qui est attendu quand s'installe dans la confluence de confusions systémiques entre discours, récit et opinion (de l'***intellectualiste***.)**

Or, cette énonciation est profondément centrée sur la FOI (rappelons que le propos de l'*intellectualisme* des musulmans n'est pas la foi mais la ***Civilisation***). Soit, entre contextualisation et décontextualisation ; l'*intellectualiste* optera pour la **décontextualisation**. Soit ce qui est non avenu. En effet, voici les énoncés analysant cette situation que d'aucuns thématisent sous la

chapitre politique « le changement/التّغيير ». Thème confondu encore avec l'Islam. Revenons à l'énonciation du ***discours constituant*** :

8- [...] آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ [...] ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ [...] يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ [...] يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ [...] (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَ [...] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [...] (5) [...] وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) [...] إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ [...] (7) اللَّهُ يَعْلَمُ [...] (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) [...] (10) ...

<u>TOUT ce préambule</u> présentant le DIEU dans toute Sa Majesté induisant la foi nécessaire **<u>pour enfin aboutir à *cette mise en garde*</u>** ; cette **menace** (soit **tout le contraire de ce que l'*intellectualiste* présume**) : verset 11 :

9- ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ

Encore, **<u>seconde menace</u>** ; en conclusion dans le **<u>verset même</u>** :

10- وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ[...] (11 الرَّعْدُ)

Menace, en effet, parce que voici le sens du changement dans l'énonciation originaire ; celle du **Coran** où nous retrouvons le segment noyau commun) de ce changement « **يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** »

11- ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (51) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ [...] (الأنفال 52)

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ [...] (الأنفال 53)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ[...] كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم [...] (الأنفال 54)

De fait ; le segment commun entre le verset cité par l'*intellectualiste* « **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتّى...** » et ce verset, établissant

le contraire de l'interprétation *intellectualiste* « ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا » ; montre bien que « le changement/التّغيير » entendu renvoie seulement au **changement de la croyance** (la foi) ***vers l'incroyance***.

Il s'agit, objectivement, du châtiment consécutif à l'abjuration. D'autres versets dans le même sens et dans la cohérence de l'énonciation phénoménale du ***discours constituant***, sur ce thème :

12- [...] قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا [...] فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ [...] (النّحل 112)

13- و كم أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا [...] (القصص 58)

Voici manifestement « le changement/التّغيير » promis par l'Islam (c'est-à-dire par le ***discours constituant*** de l'Islam ; seul habilité et compétent pour les définitions lui afférentes.)

Il ne s'agit aucunement de changement dans l'absolu et encore moins en direction du l'archétype occidental. En somme, le « التّغيير » dans ce verset élu par l'*intellectualisme* arabe, aliéné par la modernité occidentale, n'est pas pour un ***mieux*** mais pour le ***pire***.

Ce qui explique la suite immédiate du verset convoqué, et tronqué-décontextualisé par BENNABI (M.)

14- [...] وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ

Ce « سُوءًا » est le châtiment du DIEU à l'encontre de ceux qui ont « **changé » la foi** et la soumission à Dieu ─ tel que présenté en amont ─ **en incroyance**. Tel que réitéré ici, par le terme équivalent « بَدَّلُوا » :

15- [...] الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا [...] (إبراهيم 28)

C'est d'autant entendu que le **Coran** par définition ne se mêle pas de la ***vie Ici- bas*** (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا), ne s'y intéresse que pour en détourner les croyants.

Sinon, en revanche ; « le changement/التّغيير » se ferait mais toujours dans l'énonciation fidéiste :

16- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا...← لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ......وَلَٰكِن كَذَّبُوا... ←فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف 96)

Le **Coran** est un discours eschatologique par définition. Et non pour faire concurrence à l'Occident de la ***Civilisation*** moderne.

Remarque :

Nous nous épargnerons de discuter le tour dans le bennabisme même qui consiste à condamner la ***colonisabilité*** du colonisé tout en lui proposant l'ancien colonisateur — au nom de sa ***Civilisation*** — comme modèle. Parce que c'est absurde.

Deuxième illustration : **Vocation de l'Islam** [7]

Il s'agit d'*aliénation* **.**

Toujours à cause du chaos méthodologique caractéristique de l'*intellectualisme*, le propos de BENNABI (M.) ; en pages 138-139 de ***Vocation de l'Islam*** contredira le ***discours constituant*** de l'Islam même. Citons BENNABI (M.) :

Extr. § 1 - D'un côté, […], la <<solidarité islamique>> est fondée sur la notion de fraternité, qui n'est qu'un sentiment, tandis qu'elle devient, chez Haçan El-Banna , la <<fraternisation>> - acte fondamental par lequel on se fait <<Frère musulman>> […], une transformation totale de l'homme, qui passe […] au stade de la renaissance, comme […] jadis par le même acte de la société djahilienne à la communauté islamique.

Extr. § 2 - […] le chef des <<Frères musulmans>> n'utilise que le verset coranique, mais il l'utilise dans les conditions psychologiques mêmes où l'utilisaient jadis le Prophète et ses compagnons. Tout le <<mystère>> […] : se servir du verset comme d'une notion révélée et non comme d'une notion écrite.

Extr. § 3 - […] c'est précisément parce qu'il n'interprète pas le Coran, mais le *révèle* …. Sur ses lèvres, le Coran […] jaillissement d'un verbe vivant, […] lumière qui vient directement du ciel, qui éclaire et qui guide, […].

Extr. § 4 - Ce n'est pas le Dieu théologal et rationnel qu'il manifeste, mais le Dieu agissant, immanent, celui dont les premiers musulmans sentaient physiquement la présence et le souffle à Bedr et à Honain. La vérité coranique se vérifie ici …sur les hommes et sur les choses.

Commentaire

Du lyrisme. À rapporter l'émerveillement de BENNABI (M.) devant l'acte de « *<<fraternisation>> […] comme […] jadis […] de la société djahilienne à la communauté islamique.* » au ***discours constituant*** de l'Islam (le **Coran**) on ne peut que constater la parfaite

impropriété. Puisque pareil acte (<<*fraternisation*>>) n'est attribué pas même au PROPHETE, lui-même ; cf. verset **63 الأنفال** ci-après.

17- [...] و لَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصبحتم بنعمته إخوانًا [...] (آل عمران 103)

18- وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [...] (الأنفال 63)

Cette « *<<fraternisation>> [...] comme [...] jadis [...] de la société djahilienne à la communauté islamique.* » (*sic*) que BENNABI (M.) attribue à Haçan El-Banna est, dans l'énonciation islamique, le **Coran** ; œuvre du DIEU.

C'est donc ou que l'intellectuel n'en est pas informé, ou que, décuplant l'aliénation,[8] le matérialisme est favorisé. Autrement dit, l'*intellectualisme* musulman est un prosélytisme. Non pour l'Islam mais pour ***des*** hommes de pouvoir (**~** politique par définition) ; Haçan El-Banna étant une illustration majeure de la modernité musulmane.

Conclusion

En définitive, quelle pertinence dans l'*intellectualisme* ***des musulmans*** (*islamique* étant impropre), tel que le bennabisme ?

Notre hypothèse était qu'il ne pouvait être qu'absurde (au sens de discours contradictoire ; donc non avenu.)

Étant, en effet, remonté à l'archétype, Sartre , nous avons surtout constaté que pour l'essentiel la théorie de l'engagement était en fait un ***égolecte*** ; le bennabisme s'inscrira dans cette même et seule impasse : prendre ses opinions pour un logos (une philosophie) et confondre quelques velléités politiciennes avec puissance (volonté de **~**) pour changer le monde.

Absurde aussi dès lors qu'il **souffre de méconnaissance**…

1. …de **ce qu'est le discours** (sa confusion entre ***discours*** et ***récit*** (***des hommes illustres***) ; ce qui est le ***Merveilleux***,

2. …de **ce qu'est une analyse du discours** (s'agissant du ***discours constituant*** de l'Islam, le **Coran** ; auquel son propos ne réfère que dans l'exception)

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

3. …de **ce qu'est l'anthropologie** ; qu'en fait les hommes ni ne sont égaux ***par nature*** [9] ni qu'ils revendiquent ou attendent cette égalité. En effet, ***les hommes*** savent qu'ils ***sont hiérarchisés***. Confusion qui s'origine dans la *substitution* de ***l'Homme*** (de Nietzsche, de Sartre et du bennabisme… en tant que ***concept***) *aux hommes naturels*.

4. …de **ce qu'est enfin la politique** (la pragmatique ~) puisque l'*intellectualisme* s'illusionne sur le fait qu'il l'exerce sans pourtant en avoir ni la puissance ni la reconnaissance de son destinataire même le citoyen qui *s'en désintéresse*. Le citoyen ─ cible de l'*intellectualiste* ─ étant intéressé par les hommes politiques qui président à son quotidien ─ travail, transport, école pour les enfants ; protection contre les agressions extérieures…

De toutes ces méprises ressort l'absurdité de cette posture ; l'*intellectualisme* et notamment le bennabisme, l'un des *intellectualismes* les plus infondés qui soient car il part exclusivement d'un référent allogène (la ***Civilisation*** occidentale) pour y faire aboutir l'histoire des musulmans. Ce qui est une entreprise absurde.

Bibliographie :

1- BENNABI (M.), ***Les conditions de la renaissance. Problème d'une civilisation***. Éd. ANEP. ISBN : 9961-768-09-4. 2005.
2- BENNABI (M.), ***Vocation de l'Islam***. ANEP 2006. Originale 1954.
3- CAMUS (A.), ***L'étranger***. (Roman)
4- SARTRE (J.-P.), ***Plaidoyer pour les intellectuels***, Gallimard, 1972.
5- Wagner (P.), ***La notion d'intellectuel engagé chez Sartre***. URL : http://leportique.revues.org/381 ISSN : 1777-5280 Éditeur Association "Les Amis du Portique"

- Le **Coran**

a) Centre national des ressources textuelles et lexicales. http://www.cnrtl.fr
b) **ROBERT (Le** Petit ~), dictionnaire de la langue française.
1.Heidegger (M.), [http://skildy.blog.lemonde.fr/2015/01/24/heidegger-est-a-la-droite-dhitler/]
2.Schopenhauer, ***Le monde comme volonté et comme représentation***

[1] .Pour Schopenhauer ; ***Le monde comme volonté et comme représentation*** ; nous aurons compté plus de 350 occurrences « …**il faut**… » et plus de 600 de « …**doit**… »**.** Exemple ; dès PRÉFACE DE LA PREMIÈRE ÉDITION
[…] ***Cette pensée***, […], apparaît […] comme […] métaphysique, … ; et … **il faut qu'elle soit** bien tout cela à la fois, ***si elle est ce que j'ai déjà affirmé qu'elle était***. Quand il s'agit d'un *système de pensées*, il doit nécessairement se présenter dans un ordre architectonique : […], chaque partie du système en doit supporter une autre, […], *lorsqu'il s'agit d'une pensée une*, […], elle doit s'offrir avec la plus parfaite unité. […] ; *la pensée* dans son ensemble doit de sa clarté à […], […], le contenu devra ressembler à […].
Cela étant, il n'y a […] qu'**un conseil à donner** à …
Or, en logos telle que la connaissance newtonienne ; dirait-on « **Il faut** que la force soit égale à la masse multipliée par l'accélération » ? Non.
[2]. « Moi, Heidegger , […]. J'ai soufflé à Hitler, […] aux « mains admirables », ce qu'il en est de la « vérité de l'être ». Je suis […]. »
[http://skildy.blog.lemonde.fr/2015/01/24/heidegger-est-a-la-droite-dhitler/]
[3] .***La notion d'intellectuel engagé chez Sartre***. Revue : Le Portique. Cahier 1 2003. Travaux de DEA. Lien : https://leportique.revues.org/381
[4]. Origine exacte : Jean-Paul Sartre, ***Plaidoyer pour les intellectuels***, Gallimard, 1972, p. 13.
Remarque : Difficile de classer ce livre improbable tant son propos ne réfère à aucune analytique. Peut-être que le meilleur qualifiant est ***Les devinettes***. En effet, le titre ***Deuxième conférence. FONCTION DE L'INTELLECTUEL*** en laisse coi. Que signifie l'opérateur ─ désormais ─ « NUL… » ? Sinon que son prédicat n'a pas d'existence ? Cet intellectuel…
…nul ne l'a mandaté, nul ne le connaît, nul ne le reconnaît… La classe dominante l'ignore… Ce sera un raisonnement anonyme…
Est-ce quelqu'un ?… quelque chose de différent de « nul » (que *les hommes* réels, existant ; puissent entendre) ?
De notre point de vue académique ; qui peut-il admettre pareille argumentation présumée existentialiste ou phénoménologiste ?
Nonobstant il n'échappera pas que Sartre est à l'évidence en quête de placer l'intellectuel dans le cadre d'une philosophie négative. Autrement dit, l'intellectuel est tout à fait digne d'incarner l'être, littéralement. Soit, consciemment ou inconsciemment, Sartre énonce l'imago christique.
[5]. Un aperçu : Chapitre - VI du roman (le jour du meurtre)
En descendant, nous avons frappé à la porte de Raymond. …a répondu qu'**il descendait**.
Nous sommes descendus dans la banlieue d'Alger. […]
Raymond m'a demandé : «**JE le descends ?**»
«***Non***, […]. Prends-le d'homme à homme ***et donne-moi ton revolver***. Si ***l'autre*** […] tire son couteau, ***JE le descendrai***. »
Quand Raymond m'a donné son revolver, **le soleil a glissé** dessus. […] …

ISSN : 1112-945X
E-ISSN : 2571-9742

[6]. BENNABI (M.). ***Les conditions de la renaissance. Problème d'une civilisation***. Éd. ANEP. ISBN : 9961-768-09-4. Dépôt légal : 1627-2005.

[7]. BENNABI (M.). ***Vocation de l'Islam***. Éditions ANEP. ISBN: 9947-21-293-9. Dépôt légal : 2377-2006. Publication originale en 1954.

[8]. Celles déjà de l'humanisme (à l'occidentale) et du volontarisme de Haçan El-Banna. Deux idéologies du ***matérialisme historique*** . Autrement dit, c'est ***l'Homme qui se fait*** envers et/ou contre TOUT. Soit, du sartrisme commun. Or, les musulmans réfèrent à leur DIEU et non à l'Homme. Un exemple du ***discours constituant*** y afférent : الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران 173)

[9]. Confusion avec leur égalité **devant la justice**. Ce qui n'est pas la même chose. Bien que ceci s'explique par l'aliénation marxisante… Nonobstant il ne faut pas perdre de vue les ravages humains de ce qui était annoncé comme *humanisme*.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

L'impact de la qualité d'accueil sur le service bancaire

Mostefa kara Amel
Université de Sidi Bel Abbes
Bouabdallah Wassila
Université de Sidi Bel Abbes

Résumé en Français :

Reconnu comme un vecteur de satisfaction du client et comme un facteur d'efficacité, de rentabilité et de différenciation, l'accueil s'inscrit dans la politique globale de communication de l'organisation et est confié à des professionnels, beaucoup d'organisations utilisent les technologies de l'information et de la communication pour renforcer leur fonction d'accueil. C'est dans ce contexte que le marketing bancaire intervient en utilisant des stratégies telles que la GRC et la démarche benchmarking, que la banque d'aujourd'hui doit impérativement les introduire, pour faire face d'un côté au marché caractérisé par une forte concurrence, et d'un autre côté par une clientèle très exigeante.

Mots clés :

Marketing bancaire, communication, accueil bancaire.

Titre en anglais :

The impact of host quality on banking services.

Abstract:

Recognized as a vector of customer satisfaction and as a factor of efficiency, profitability and differentiation, reception is part of the overall communication policy of the organization and is entrusted to professionals, many organizations use Information and communication technologies to strengthen their reception function. It is in this context that banking marketing intervenes using strategies such as the RCMP and the benchmarking approach, which today's bank must introduce, in order to cope with a market characterized by a

strong Competition, and on the other hand by a very demanding clientele..

As a result, each society must focus on appropriating technologies according to its specific development priorities and needs rather than adapting them to being part of a defined information society, advanced. On the one hand, the information society must be understood as a fundamentally human process and, on the other, that information must not be reduced to its economic function and considered as a simple Source of profit.

Key words:

Marketing banking, communication, banking reception.

Titre en arabe :

تأثير نوعية الاستقبال على الخدمات المصرفية

الملخص

تعدّ وظيفة الاستقبال المصرفي كعامل رضا للعملاء ومحفز للكفاءة و الربحية والتمايز. وفي الآونة الأخيرة أصبح عنصر فعال في السياسة العامة للاتصال داخل المنظمة ويسير من طرف مختصين، بحيث أصبحت العديد من المنظمات تستخدم تكنولوجيا المعلومات والاتصال لتعزيز هذه الوظيفة وذلك من خلال استخدام استراتيجيات التسويق المصرفي وعلى سبيل المثال " GRC ":تسيير العلاقات بين الزبائن أو طريقة "Benchmarking". ولهذا فمن الضروري على البنوك حاليا أن تستخدم هذه التقنيات من أجل مواجهة التّولفة بين شدة التنافس داخل السوق والزبائن الذي أصبح من الصعب إرضاؤهم.

الكلمات الدالة:

التسويق المصرفي، الاتصال، الاستقبال

Introduction :

Comme tout secteur de l'économie, les banques sont des entreprises qui proposent des services visant à satisfaire une demande de plus en plus exigeante de leurs clients. Le secteur bancaire évolue dans un univers concurrentiel qui va modifier le comportement des consommateurs et améliorer la relation entre la banque et son client,

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

donc les banques vont devoir développer des stratégies de marketing relationnel pour fidéliser leurs clients et en accroître la valeur.

Le marketing bancaire est au cœur de l'activité bancaire pour renforcer son rôle stratégique et promouvoir les nouvelles technologies de l'information, il est aussi appelé à développer une image de marque à travers le choix de positionnement et la création d'une identité propre à elle. Proposer un service de qualité devient alors un enjeu primordial pour la banque, ce dernier nécessite un bon accueil qui est considéré comme un des forts facteurs de différenciation, permettant aux entreprises financières et bancaires de mieux répondre aux attentes des clients des banques concurrentes.

Quelques études similaires antérieurs :

De nombreuses études ont été effectuées dans ce domaine, et nous pouvons citer les exemples suivants :

1- En 2005 Eric Lamarque confirme aussi que L'avantage concurrentiel d'une entreprise est bien davantage à rechercher du côté des modes d'organisation et de management.

2- Enfin, et pour ne citer que cela, en 2009 Peelen, Frédéric Jallat, Eric Stevens et Pierre Voll trouvent qu'il est nécessaire d'introduire la gestion de la relation client au sein de la banque afin de pouvoir identifier, acquérir et fidéliser les meilleurs clients.

Problématique :

Afin d'essayer d'apporter une nouvelle contribution dans ce domaine on a trouvé adéquat de poser la problématique suivante :

Est-ce que l'optimisation de la qualité de l'accueil joue un rôle crucial dans le développement des services bancaires ?

Hypothèses :

Pour consolides notre recherche nous proposons les hypothèses suivantes :

1- Améliorer la qualité d'accueil est un des facteurs clé pour concevoir des prestations de services qui correspondent aux mieux aux besoins des clients.

2- La formation et la sensibilisation du personnel contribuent à améliorer la qualité du service perçu.

Intérêt du sujet :

Afin d'accroitre les performances de la banque, un travail sur la qualité de l'accueil apparait comme inéluctable, la satisfaction client est un des facteurs qui a le plus d'impact, aussi la compétition passe aujourd'hui par la recherche de la perfection en matière de qualité des services.

I- Cadre théorique :

1- Comprendre l'accueil bancaire :

a) Définitions de l'accueil :

L'accueil est « la manière de bien recevoir quelqu'un, de se comporter avec lui quand on le reçoit ou quand il arrive ».
Cette définition insiste sur l'aspect relationnel de l'accueil, pour certaines entreprises, la définition est étroite et se limite à l'accueil « orientation » dans un point de vente et aux premiers échanges avec l'agent d'accueil de l'entreprise.

En tant qu'élément de communication, l'accueil participe à la construction de l'image de l'organisation, puisqu'elle cristallise la première impression d'un visiteur. L'accueil est à la fois :

- un processus qui consiste à recevoir des personnes venues de l'extérieur, à les guider ou à les diriger de manière à ce qu'ils trouvent ce qu'ils sont venus chercher ;
- le site où se déroule la première rencontre entre le visiteur et l'organisation.

b) La place de l'accueil et sa professionnalisation dans la relation de service:

b-1) Place de l'accueil :

L'accueil est un élément important dans la qualité d'une relation de service entre une entreprise et son client, l'analyse montre que l'accueil intervient à plusieurs moments tout au long du contact avec le client. Ainsi c'est l'interface entre l'offre de l'entreprise et la demande du client, il constitue un point névralgique au cœur du dispositif de contact de l'entreprise avec ces clients, il est au carrefour entre les demandes variées des clients et l'offre de produits et de services nécessairement limitée de chaque entreprise.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

C'est par l'accueil que sera transmise une grande partie du service souvent bâti sur un fort contenu informationnel, ainsi, meilleure sera la qualité de la relation lors de l'accueil, meilleure sera celle du service rendu.

b-2) Professionnalisation de l'accueil :

Longtemps négligé, l'accueil s'est aujourd'hui professionnalisé. L'importance de l'accueil transparaît aujourd'hui à travers les investissements des entreprises consacrées à ce poste. De même, de plus en plus d'organisations utilisent les technologies de l'information et de la communication pour renforcer leur fonction d'accueil. Reconnu comme un vecteur de satisfaction du client et comme un facteur d'efficacité, de rentabilité et de différenciation, l'accueil s'inscrit dans la politique globale de communication de l'organisation et est confié à des professionnels

c) Savoir accueillir dans l'activité bancaire :

c-1) Construire une stratégie d'accueil :

Dans un premier temps, il est important, pour toute organisation, de mesurer la satisfaction des utilisateurs de l'accueil. Cet état des lieux aura pour finalité de choisir des pistes de progrès et des pistes d'actions pour élaborer le plan d'action de l'accueil.

La mise en place d'une stratégie d'accueil s'élabore en plusieurs étapes :

- établir un diagnostic sur l'accueil en vue d'apporter des solutions aux dysfonctionnements éventuellement constatés et de proposer des améliorations ;
- formuler les objectifs de l'accueil en vue d'installer une politique d'accueil à tous les niveaux de l'entreprise ;
- contrôler la qualité de l'accueil.

c-2) Critères de différenciation d'accueil :

Les cinq principaux critères de différenciation en matière d'accueil sont :

1- l'objet de la prestation : peut-être de la simple information, du conseil, de la vente, de la mise à disposition d'un service ou d'un produit.

2- La durée de la fréquence de la relation
3- L'implication du client dans la relation : est une caractéristique à bien identifier par le responsable de l'accueil.
4- La position de chacune des parties prenantes va influer sur la relation de service d'accueil.
5- Le support de contact peut être très varié, il s'agit du moyen pour le client d'entrer en relation avec l'entreprise.

2- Stratégies d'amélioration de l'accueil :

Deux méthodes et stratégies qui permettront aux organisations en général et en particulière au niveau des banques, d'optimiser la qualité de leur accueil :

a) La gestion de la relation client «GRC» :

C'est une stratégie qui consiste à identifier, à retenir et à développer les clients les plus profitables et en acquérir des nouveaux, elle met en place une stratégie, des processus et des outils orientés vers la satisfaction et la fidélité du client, axée sur le marketing différencié, personnalisé.

Sa mise en œuvre s'effectue à deux niveaux :

- Au niveau de l'agence et c'est la GRC opérationnelle, il s'agit de l'automatisation de la force de vente, qui vient en appui aux forces commerciales et aux processus de vente.
- Au niveau de la direction et c'est la GRC analytique, il a pour but d'étendre la connaissance des clients et aide les responsables marketing à mieux connaitre les différentes segments de clientèle.

b) Le benchmarking bancaire :

C'est un processus qui consiste à identifier, analyser et adopter les pratiques des organisations les plus performantes dans le monde en vue d'améliorer les performances de sa propre organisation, c'est le concept de « l'étalonnage » des performances compétitives face à la concurrence exacerbée due :

- A la mondialisation des marchés.
- A la rapidité des mutations technologiques.
- A l'évolution des systèmes d'informations.

Le benchmarking est un formidable levier d'innovation dans l'entreprise. C'est à la fois une méthode d'analyse permettant de

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

s'étalonner en s'inspirant des meilleurs points, et à la fois un état d'esprit, un style de management.

Il peut s'effectuer en interne entre les services, ou les entités, comme en externe, avec ses différents fournisseurs, distributeurs, concurrents, produits du marché.

3- Concrétiser l'amélioration de l'accueil « charte d'accueil» :

Une démarche accueil ne peut être couronnée de succès que si l'entreprise adopte le slogan « l'entreprise orientée client», et mettre en place un système d'amélioration continu de l'accueil, pour prouver cet engagement l'entreprise peut décider de formaliser ses objectifs dans un document appelé « **charte d'accueil**».

la charte accueil est un document interne qui est rédigé pour indiquer les éléments clés du service accueil et le niveau de qualité que le personnel doit fournir à la clientèle dans ce domaine, ce document ne doit donc pas apriori être communiqué à l'extérieur et doit servir de guide rappelant à l'ensemble du personnel les objectifs que l'entreprise s'est fixés, ce document interne permet :

- La création d'un langage commun à l'ensemble du personnel.
- La mobilisation du personnel vers la fidélisation de la clientèle.
- Et c'est également un outil de changement des comportements. Pour cela trois démarches fondamentales :
- Créer des outils pour anticiper les attentes clients en accueil,
- Faire participer le personnel à l'amélioration de l'accueil,
- Pérenniser l'amélioration de l'accueil.

II- Etude empirique :

Pour consolider notre travail et réflexions on a effectué une enquête quantitative par questionnaire auprès des banques de notre ville Sidi Bel Abbes qui se situe au nord-ouest de l'Algérie.

a) Présentation de l'enquête :

Nous avons élaboré trois questionnaires :

- Le premier destiné au personnel des banques privées.
- Le deuxième est destiné au personnel des banques publiques.
- Le troisième questionnaire est destiné aux clients

- On a choisi la méthode d’échantillonnage probabiliste
- On a utilisé 3 types et formes de questions : fermées uniques, fermées multiples et question à échelle « l’échelle de linkert ».
- En totalité nous avons validé 330 questionnaires destinés aux clients dont 250 pour les clients du secteur public et 80 pour les clients du secteur privé.
- En ce qui concerne les questionnaires pour le personnel, il y avait en tout 92 dont 63 du personnel des banques publiques et 29 du personnel des banques privées.

Dans le but de traiter les informations et après avoir validé les questionnaires, nous avons effectué le traitement des questions à l’aide du logiciel « sphinx » avec une analyse croisée composée de quatre tests et opter pour une étude comparative entre le secteur publics et privé que ce soit pour les clients ou le personnel :

1-qualité-stratégie :

qualité-stratégie

	Oui	Non	**Total**
Très satisfaisante	**125**	**21**	**146**
Satisfaisante	**114**	**49**	**163**
Insatisfaisante	**9**	**12**	**21**
Total	**248**	**82**	**330**

p = **<0,1%** ; chi2 = **22,66** ; ddl = **2** (**TS**)
La relation est très significative.

Le premier test montre l’impact positif entre les deux variables, X= la qualité d’accueil perçue par les clients et Y= l’existence d’une stratégie marketing.

2- stratégie-publique-privée :

Le deuxième test montre une différence significative entre le pourcentage des clients de banques privées et publiques

stratégie-publique-privé

	Oui	Non	**Total**
Public	**71,2%**	**28,8%**	**100,0%**
Privé	**87,5%**	**12,5%**	**100,0%**
Total	**75,2%**	**24,8%**	**100,0%**

p = **0,3%** ; chi2 = **8,62** ; ddl = **1** (**TS**)
La relation est très significative.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

confirmant l'existence d'une stratégie.

Comme $f_1 = 87.5\% > f_2 = 71.2\%$, ceci prouve que les banques privées donne plus d'importance à l'introduction et l'amélioration des stratégies marketing par rapport aux banques publiques.

3-qualité-correspondance :

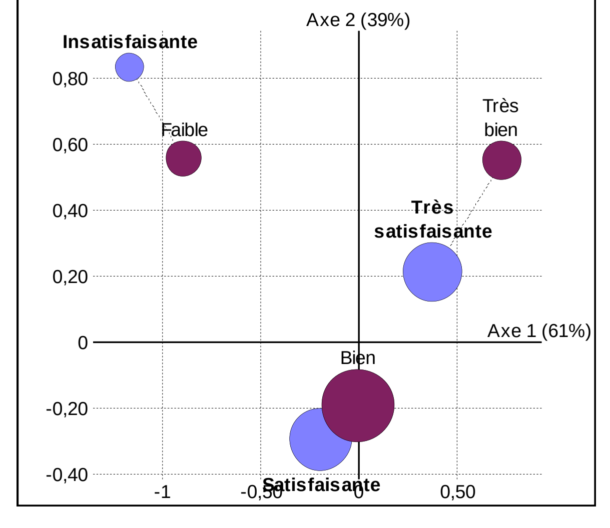
L'analyse factorielle des correspondances « AFC » entre X=qualité d'accueil et Y=correspondance des prestations montre une attraction positive entre les modalités de « X » et les modalité de « Y ».

Donc le troisième test prouve que plus la banque donne de l'importance à la qualité d'accueil, plus les prestations correspondent au mieux aux besoins des clients.

qualité-correspondance

	Très satisfaisante	Satisfaisante	Insatisfaisante	**Total**
Faible	**9**	**17**	**12**	**38**
Bien	**95**	**142**	**8**	**245**
Très bien	**42**	**4**	**1**	**47**
Total	**146**	**163**	**21**	**330**

p = **0,0%** ; chi2 = **89,61** ; ddl = **4** (**TS**)
La relation est très significative.
Carte : analyse factorielle des correspondances sur le tableau croisé



4-correspondance- besoins :

correspondance-besoins			
	Public	Privé	**Total**
Faible	94,7%	5,3%	**100,0%**
Bien	**71,8%**	**28,2%**	**100,0%**
Très bien	**80,9%**	**19,1%**	**100,0%**
Total	**75,8%**	**24,2%**	**100,0%**

p = **0,6%** ; chi2 = **10,17** ; ddl = **2** (**TS**)
La relation est très significative.

Le quatrième test indique une différence très significative entre l'existence d'une faible correspondance des prestations avec les besoins des clients, estimée a 94.7 % dans le public contre 5.3% dans le privé.

d) Résultats et analyse :

La lecture des résultats globaux nous a permis de relever les points suivants :

1- On peut confirmer dans le premier test que l'introduction d'une stratégie marketing dans la banque, optimise la relation du client envers sa banque.

2- L'ensemble des clients des banques privées sont très satisfait en termes de service rendue, de qualité de services et de l'amabilité de son personnel en contact, qui est très apprécié pour sa qualité d'accueil, tandis que pour les clients du secteur public, ils sont moins satisfaits de ces critères car les banques publiques donnent moins d'importance aux stratégies marketing.

3- Le troisième et quatrième test nous a permis de prouver que pour arriver à concevoir des prestations de services qui correspondent au mieux aux besoins des clients il faut impérativement améliorer la qualité d'accueil.

Dans l'optique de vous transmettre nos résultats déduites de notre enquête on peut dire que Le secteur privé donne plus d'intérêt au marketing bancaire, à la communication, aux informations et à la relation avec les clients ainsi, il donne une grande importance aux facteurs de la technologie et d'accueil client, leurs points faibles c'est la diversité des produits offerts.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Cependant, le secteur public néglige ces aspects, néanmoins les clients leurs font encore confiance, et pour garder cette dernière, les banques doivent mieux introduire les études marketing afin de mieux connaître et cibler leurs objectifs, tout cela commence en premier par l'accueil, premier contrat du client avec sa banque, alors pour nous trois défis doivent être relevés :

- Le premier consiste à équiper et former rapidement l'ensemble du personnel des réseaux à l'utilisation généralisée des technologies.
- Le deuxième vise à s'assurer que les contrats technologiques avec les clients ne se traduisent pas par une importante déshumanisation des relations.
- Le troisième concernant la hausse du chiffre d'affaires qui repose aujourd'hui sur une autre stratégie: la capacité des banques à exploiter les caractéristiques clients.

Conclusion :

Exigeant !

Voilà comment l'on pourrait qualifier le client d'aujourd'hui, et pour le satisfaire quoi de plus efficace que de mettre en place une stratégie d'accueil irréprochable. Les banques doivent lancer des réflexions globales sur leurs relations et décident dans ce cadre de mettre en œuvre des stratégies d'accueil élaborées.

Dans ce contexte concurrentiel, l'état de santé d'une banque passe absolument par sa capacité à mobiliser, à satisfaire, à impressionner et à marquer la clientèle, la banque doit s'engager donc à réserver aux clients un accueil chaleureux, tout en leurs permettant de garder en mémoire un souvenir inoubliable de la qualité du service reçue lors de leur passage. On peut conclure et dire que **réserver un bon accueil aux clients permet de garder une longueur d'avance sur les concurrents.**

Bibliographie :

1. Alexandre Kamyab Samii, « Stratégies de service, E-business, supply chain », édition DUNOD, 2001.
2. Anne Julien André Marot, « Marketing de la banque et de l'assurance », édition DUNOD, 24 Octobre 2012.

3. Anne Laure Pierre : DESS « Banque et finance », « La fidélisation du client bancaire », responsable : Pr Sylvie de coussergues, Paris, 2000.
4. Arnaud cielle, « comment trouver et fidéliser vos clients », édition DUNOD, 15 Janvier 2014.
5. C .Lovelock - J.wirtz - D.Lapert, « Marketing des services », édition Pearson , 2004.
6. Catherine Cudicio, « Les régles d'or de l'accueil » édition d'organisation, 2003.
7. Claude Lévy -Leboyer, « Evaluation du personnel: Quels objectifs ? Quelles méthodes », édition Eyrolles, 10 Mars2011.
8. Dubarry Alexandre, Alain Ducass , « L'enchantement du client », édition LEDUC.S, 11 octobre 2013.
9. Eric Lamarque, « Gestion bancaire » édition PEARSON, 2008.
10. F. le Poivre, « Benchmarking, concept et métrologie », édition NEVAO conseil, 1996.
11. Frédéric Vendeuvre, Philippe Beaupré, « Gagner de nouveau client : la prospection efficace », édition DUNOD, 21 Aout 2013.
12. G.J.Balm, « Evaluer et améliorer ses performances: le Benchmarking », édition AFNOR, 1992.
13. Georges Gloukoviezoff, Jeanne lazarus, « La relation bancaire avec la clientèle : des particuliers », Revue de littérature, volet 1: la relation de service dans la banque, octobre 2005.
14. Hermel , "Le Benchmarking", edition AFNOR, 2007.
15. Laurent Hermel , « L'accueil client », édition AFNOR, 2004.
16. Laurent Hermel, « Améliorer l'accueil des clients », édition AFNOR, 2004.
17. Le nouveau petit Robert, dictionnaire le Robert.
18. Line Lasserre, Bernard Legrand, « CRM : les attentes des clients », édition VMP, 21 Avril 2002.
19. Marie-Agnès Martin , « Les clés de l'accueil », le génie des glaciers éditeur, Avril 2010.
20. Michel Badoc , « Le marketing bancaire et de l'assurance: Nouvelles tendances », édition RB, 22Aout 2013.
21. Monique Zollinger, Eric Lamarque, « Marketing et stratégies de la banque », édition DUNOD 2008.
22. Nadine Tournois, « Le marketing bancaire face aux nouvelles technologies », édition Masson, 2002.
23. Nicolas Saint cast, « Organiser sa relation client aujourd'hui : Le CRM nouvelle manière », édition MAXIMA, Paris 2003.
24. Pierre Alard, Damien Dirringer, « La stratégie de la relation client, un support dynamique de management de la relation client : le modèle customer connections », édition DUNOD, Janvier 2000.
25. R.C CAMP, « Le benchmarking », edition organization, 2004.
26. Sylvie de conssergues, « Gestion de la banque », du diagnostic à la stratégie, édition DUNOD, 2005.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

27. Xavier Quérat-Hement , « Esprit de services passer du marketing au management de l'expérience client » , édition Lexitis, 21 mai 2014.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Le terrorisme : cadre conceptuel et théorique

Bouriche Riadh
Université Salah Boubnider – Constantine 3
E-mail :bouricher@yahoo.fr

Résumé en Français :

Cet article a pour objectif de proposer une étude concise sur le terrorisme. En premier lieu, nous avons mis en place des références théoriques afin de permettre une meilleure compréhension du concept du terrorisme. En deuxième lieu, nous évoquons la question de la prévention contre le terrorisme avant d'en proposer une approche en termes de promotion du politique. Enfin, nous traitons dans cet article la question du lien entre le terrorisme et la pauvreté.

Mots clés :
Terrorisme, références théoriques, prévention, politique, pauvreté.

Titre en anglais :
Terrorism: conceptual and theoretical framework

Abstract:

The aim of this article is to propose a concise study on terrorism. In the first place, we have put in place theoretical references in order to allow a better understanding of the concept of terrorism. Secondly, we raise the question of prevention against terrorism before proposing an approach in terms of promoting policy. Finally, we deal with the link between terrorism and poverty.

Key Word:
Terrorism, theoretical references, prevention, politics, poverty.

Titre en arabe :
الإرهاب: الإطار المفاهيمي والنظري

الملخص:

تهدف هذه المقالة إلى تقديم دراسة موجزة عن الإرهاب. في البداية، وظفنا المراجع النظرية لتمكين فهم أفضل لمفهوم الإرهاب. وفي المرحلة الثانية، ناقشنا مسألة التصدي لظاهرة الإرهاب قبل أن نقترح نهجا من حيث مقاربة تعزيز ترقية مفهوم هذه السياسة. وأخيرا، نتناول في هذا المقال مسألة العلاقة بين ظاهرة الإرهاب والفقر.

الكلمات الدالة:

الإرهاب، المراجع النظرية، مقاربة، الفقر.

Introduction

Le concept de terrorisme fait l’objet de nombreuses recherches dans diverses disciplines, notamment en sciences politiques et en sociologie. Ce terme est non seulement largement employé au niveau académique, mais il est aujourd’hui très souvent utilisé par la communauté internationale, donc par les organismes internationaux. Mais le problème est qu’il n’y a toujours pas de consensus sur une définition unique et universelle du terrorisme.De manière général, le terrorisme peut être entendu comme une méthode de combat fondée sur l’usage de la terreur et s’inscrivant dans le cadre d’une stratégie « du faible au fort ». Mais depuis le début de la Guerre froide, aucune définition cohérente et universelle du terrorisme n’a pu être adoptée sur le plan international, ce qui va à l’encontre de l’efficacité des nombreuses résolutions des Nations unies contre le terrorisme international.

La difficulté principale pour définir le terrorisme est qu’il est souvent considéré comme un phénomène monolithique, sans prendre réellement en considération la diversité des contextes dans lesquels il se manifeste. En effet, les stratégies de lutte contre le terrorisme sont le plus souvent orientées sur les effets du terrorisme (antiterrorisme) que sur ses causes (contre-terrorisme). Or, des stratégies très distinctes devront être mises en œuvre afin d’anticiper l’action terroriste.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Le terrorisme est bien sûr ostracisé, mais il n’a pas disparu pour autant. Remarquons qu’aujourd’hui, le développement des techniques avantage les armées régulières par rapport aux guérillas. Ainsi, le terrorisme tend à se substituer à celles-ci et correspond à une réponse du faible au fort.

1. Le concept de terrorisme : approches théoriques

Le phénomène du terrorisme est difficile à comprendre et de ce fait il n’y a pas de consensus quant à la définition de ce terme : « The term ‘terrorism’ has no precise or widely accepted definition »[1]. Benoît Gagnon précise qu’un examen de littérature sur ce sujet fait apparaître autant de définitions que d’auteurs traitant le sujet[2].

Le dictionnaire du « Trésor de la langue française », définit le terme « terrorisme » selon deux acceptions principales. Dans la première acception, ce dictionnaire considère le terrorisme comme la « politique de terreur pratiquée pendant la Révolution »[3], faisant référence à la Révolution française de 1789. Cette définition considère le terrorisme comme « l’emploi systématique par un pouvoir ou par un gouvernement de mesures d’exception et/ou de la violence pour atteindre un but politique »[4].

La deuxième acception considère le terrorisme comme « l’ensemble des actes de violence qu’une organisation politique exécute dans le but de désorganiser la société existante et de créer un climat d’insécurité tel que la prise du pouvoir soit possible »[5]. Ce dictionnaire français définit donc simplement ce concept qui est pourtant un phénomène à la fois complexe et multiforme. De même, le Petit Larousse donne une définition restreinte en stipulant que le terrorisme est « l’ensemble des actes de violence commis par une organisation pour créer un climat d’insécurité ou renverser le gouvernement établi »[6].

Les définitions qui réduisent le terrorisme à l’usage de la terreur ne semblent pas très satisfaisantes. En effet, les Etats en guerre

ne cherchent aussi, à "terroriser" l'ennemi, sans que l'on parle de terrorisme pour autant. Les groupes terroristes profitent de cette analogie pour banaliser leurs actes et revendiquer une légitimité militaire. Mais il existe des règles de la guerre : des conventions sur les conflits armés, signées à Genève et à La Haye, ont transformé ces règles en lois internationales. Ces lois interdisent de prendre des civils en otages, stipulent des principes relatifs aux droits des prisonniers de guerre, interdisent les représailles, conceptualise la notion de « territoire neutre » et la protection des diplomates.

Bruce Hoffman remarque qu'un « survol même rapide des activités terroristes du dernier quart de siècle, de leurs tactiques et de leurs cibles, montre que les terroristes ont violé toutes ces règles »[7]. Les terroristes ne respectent donc pas les règles de la guerre, ce qui les exclut du champ militaire. Ils sont alors considérés comme des assassins même s'ils défendent une cause légitime.

Il s'agit de souligner qu'il arrive que des Etats ne respectent pas le droit de la guerre mais la différence avec les organisations terroristes est que ces Etats doivent rendre des comptes. Quand ces pays persistent à violer les lois de la guerre ils peuvent être qualifiés d'Etats terroristes et isolés par la communauté internationale. C'est ce qui arrive par exemple à l'Iran ou au Soudan.

Pour leur part, Gérard Chaliand et Arnaud Blin (2004), rejettent les définitions restrictives et rejoignent Raymond Aron pour qui l'on peut parler d'acte terroriste « lorsque ses effets psychologiques sont hors de proportion avec ses résultats purement physiques »[8].

Quant au sein de l'Organisation des Nations Unies (ONU), il faut reconnaître qu'aucun accord sur la signification de ce terme n'a pu être possible malgré de nombreuses discussions censées aboutir à une convention internationale[9]. En effet, il existe plusieurs points de divergence au sein de cette organisation, notamment par rapport à la distinction à faire ou à ne pas faire entre organisations terroristes et mouvements de libération, et aussi par rapport au terrorisme d'Etat dont l'existence est parfois niée[10].

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

Au-delà de ces définitions, il existe une multitude d'approches définissant ce concept de terrorisme. Mais quelque soit la nature de ces approches (théoriques, politiques, juridiques…) elles ont toutes en commun de présenter le terrorisme comme une forme de violence politique ou de terreur. Toutefois, certains auteurs contestent que le terrorisme soit confondu avec l'utilisation de la violence. Ils font pour cela référence à la résistance à l'oppression, qui ne peut être qualifiée de terrorisme.

Par ailleurs, le philosophe allemand Jürgen Habermas rend légitime le terrorisme lié aux mouvements de libération. Ainsi, il fait « la différence entre le terrorisme politique et le crime habituel [...] lors de certains changements de régime qui portent au pouvoir les terroristes d'hier et en font des représentants respectés de leur pays »[11]. Il ajoute « qu'il reste qu'une telle transformation politique ne peut être escomptée que pour des terroristes qui, d'une manière générale, poursuivent avec réalisme des buts politiques compréhensibles et qui, eu égard à leurs actes criminels, peuvent tirer de la nécessité dans laquelle ils étaient de sortir d'une situation d'injustice manifeste, une certaine légitimation »[12].

Ceci traduit l'absence d'accord, sur le plan international, sur la définition du concept de terrorisme. En effet, les Etats ne peuvent s'accorder sur une définition du concept de terrorisme puisque les terroristes des uns sont parfois considérés comme les résistants des autres. De plus, il est difficile de donner une définition à un phénomène aussi hétérogène que le terrorisme. Ce dernier peut en effet être le fait d'un Etat ou d'une secte, il peut revêtir une dimension religieuse, être lié à une volonté d'autodétermination… Seule une démarche scientifique, impartiale et neutre, peut permettre d'éviter l'amalgame de toutes ces dimensions du terrorisme, et par là même toutes les assimilations dangereuses et les dérives[13].Plusieurs types de terrorismes peuvent être identifiés en fonction du contexte stratégique dans lequel ils évoluent :

- **le terrorisme de droit commun** : c'est l'usage de la terreur pour satisfaire des objectifs exclusivement criminels ;
- **Le terrorisme marginal** provient de quelques individus qui tentent d'entamer un processus révolutionnaire, mais sans aucun support populaire ;
- **Le terrorisme politique** se situe dans un processus révolutionnaire, mais juste en amont d'un conflit ouvert. Il constitue l'outil armé de partis politiques officiels, dont il exploite le soutien populaire pour se légitimer.
- **Le terrorisme d'extrême droite** a pour objectif de créer une situation de chaos qui doit pousser l'Etat à renforcer sa présence, voire instaurer un régime de dictature ;
- **Le terrorisme de guérilla** s'inscrit dans un processus révolutionnaire ou dans une guerre de libération en cours et bénéficie d'un large soutien populaire ;
- **Le terrorisme religieux** se veut porteur d'un message religieux et s'inscrit dans une croisade contre « l'infidèle ». Il se rapproche du terrorisme politique, mais s'en distingue par une violence plus intense ;
- **Le terrorisme à cause unique** s'est développé dans les pays anglo-saxons. Il comprend les mouvements végétaliens, écologistes, anti-vivisection, anti-avortement et les mouvements racistes.

On constate donc la multiplicité des causes terroristes, ce qui implique la mise en œuvre de stratégies diverses de lutte contre le terrorisme qui soient appropriées à chaque cause.

Tout au long de l'histoire, le terrorisme a été considéré comme un problème social, c'est-à-dire comme un phénomène qui, pour des raisons sociales particulières, devient un problème socialement constitué comme important et qui demande une intervention. Mais l'on remarque que ce qui est considéré à un moment donné comme un problème social se transforme selon les époques et les sociétés et peut ne plus être considéré comme tel. Ainsi, ce qui était considéré comme « terrorisme » à une époque donnée peut ne plus l'être à un autre moment. Ainsi, « Nombre d'individus historiquement qualifiés de

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

« terroristes » sont devenus des hommes d'Etat respectés, sans rien renier de leur passé »[14].

Le terroriste désigne celui qui recourt à la terreur pour tenter d'imposer sa volonté sur la scène politique. Mais en le désignant par son nom, on émet aussi un jugement de valeur. Car désigner « le terroriste », c'est parler subjectivement de **"l'autre"** : par exemple, l'israélien est le terroriste pour les hommes du Hamas ; les Etats-Unis pour le milliardaire saoudien Oussama Ben Laden… Ainsi, le fait d'employer le terme « terroriste », empêche toute neutralité[15].

Certains auteurs pensent qu'il est aujourd'hui préférable de définir les actes de terrorisme, plutôt que d'en chercher les causes, ou motivations. Pourtant, pour mieux les combattre, il semble au contraire nécessaire d'en rechercher les causes profondes. Ainsi, Jacques Baud considère que le terrorisme n'est ni une fatalité, ni une doctrine, mais qu'il s'agit d'une méthode mise au service des stratégies et des objectifs les plus divers. Selon cet auteur, même si les attentats se ressemblent, ils répondent le plus souvent à des finalités différentes. Il s'agit donc d'étudier les structures terroristes, leurs motivations, leurs stratégies et leurs objectifs afin de pouvoir commencer à les combattre avec une stratégie adaptée à chaque adversaire[16].

En d'autres termes, le phénomène du terrorisme ne peut être appréhendé simplement comme une réalité sociale donnée. Il s'agit de mener un travail, aussi laborieux soit-il, afin de découvrir derrière les apparences des réalités sociales liées par des relations nécessaires.

2. La prévention contre le terrorisme

Les conflits entre les Etats et les groupes terroristes sont des guerres asymétriques. Il ne s'agit pas de guerres de position, liées à des conflits géographiques précis, mais de guerres transnationales. Ceci montre l'importance d'utiliser le renseignement, qui est un

instrument de prévention dans la lutte anti-terroriste en démocratie. A ce sujet, Giudicelli affirme que « Les politiques strictement répressives ne pourront qu'échouer face à un phénomène terroriste qui génère ses mutations en réponse aux tentatives de le contrer (…). Renforcer l'efficacité du renseignement doit prévaloir sur l'accroissement des mesures de sécurité et la répression policière et judiciaire »[17].

Il s'agit ici d'une lutte en amont. En effet, le renseignement permet de détecter des éventuels indices qui laissent à penser à la préparation d'actes terroristes. Le renseignement peut permettre de n'appréhender toute personne susceptible de commettre ces actes. La recherche du renseignement doit se faire à la fois à l'intérieur et à l'extérieur du pays.

La plupart des pays développés veillent au renforcement de leurs systèmes de renseignement en instaurant des systèmes de vidéo surveillance, des mécanismes d'écoutes téléphoniques, des procédures de dépouillement du courrier... Mais ce genre d'actes constitue une atteinte grave aux droits de l'homme puisque ces derniers interdisent toutes intrusions arbitraires dans la vie privée de l'individu[18]. En outre, il faut signaler certaines pratiques dégradantes et inhumaines d'Etats sur les prisonniers présumés terroristes qui, pour la majorité font l'objet de détentions indéfinies et sans jugement[19].

Par ailleurs, on assiste de la part des Etats à un renforcement du système de filtration au niveau des frontières, ce qui rend plus compliqués les déplacements des immigrants et les demandes d'asile pour les réfugiés. Ceci constitue une atteinte à la déclaration universelle des droits de l'homme sur la liberté de circulation et le droit à l'asile. Il existe aussi certaines ingérences de la part des Etats au niveau des transactions bancaires dont l'objet est d'intercepter les fonds susceptibles de financer les activités terroristes.

Toujours en ce qui concerne la prévention du terrorisme par le renseignement, les Etats membres de l'Organisation du Traité d'Atlantique Nord (OTAN) se sont engagés à renforcer le partage des données du renseignement et la coopération contre les menaces

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

antiterroristes, à accorder des autorisations de survols générales pour les appareils liés à des opérations antiterroristes, à assurer aux pays membres l'accès aux ports et aux aérodromes situés sur les territoires des pays de l'OTAN. Dans ce sens, le congrès américain a adopté le 11 octobre 2001, le « Patriot Act » dont l'objectif est d'accroître les pouvoirs de l'administration en matière de collecte d'information, d'interception par téléphone ou par e-mail…

De telles pratiques vont donc à l'encontre des principes de la déclaration universelle des droits de l'homme qui préconisent le respect de la dignité humaine et recommandent un procès public à toute personne détenue. D'ailleurs, dans cette optique, certains prisonniers présumés terroristes retrouvent leur liberté, ce qui est approuvé par les défenseurs des droits de l'homme.

Finalement, la recherche du renseignement suppose une atteinte sérieuse aux droits des personnes, notamment le droit à la vie privée. La répression brutale du terrorisme entraîne des réactions de la part de l'opinion internationale, qui s'insurge contre la violation des droits de l'homme. Ainsi, si le renseignement est important voire indispensable pour combattre le terrorisme, il faut insister sur le fait que le respect des droits humains et des libertés fondamentales doit devenir la norme et non un luxe. Il serait donc nécessaire de promouvoir dans le monde entier la démocratie et le développement, comme autres moyens de lutte contre le terrorisme.

3. Le terrorisme et la promotion du « politique »

Certains analystes pensent que la misère et le sous-développement sont des facteurs favorisant l'émergence du terrorisme surtout lorsqu'il y a une faible appropriation de l'espace territorial par l'Etat. Il apparaît donc essentiel, pour lutter efficacement contre le terrorisme, de s'attaquer non pas aux effets de ce dernier, mais à ses causes. En effet, le phénomène du terrorisme n'est pas un acte isolé mais bien une œuvre organisée, un instrument de justice sociale selon

ses auteurs.Bruce Hoffmann propose « d'établir un pont entre la société et les extrémistes »[20]. En d'autres termes, il considère que le renforcement de la démocratie peut permettre d'éviter d'atteindre « le point de rupture psychologique » à partir duquel un groupe de personnes frustrées se regroupe en une organisation terroriste.

Selon Irène Khan, « La lutte anti-terroriste implique la reconnaissance du fait que l'insécurité et la violence sont d'autant mieux combattues par les Etats que ceux-ci sont efficaces et responsables et respectent les droits de l'homme plutôt que de les violer »[21]. Dans cette optique, on est amenés à penser que des valeurs comme la liberté et la démocratie peuvent permettre de lutter contre le terrorisme. De nombreux spécialistes considèrent donc que le meilleur moyen de lutter contre le terrorisme est de respecter les droits de l'homme, promouvoir la justice sociale et renforcer la démocratie.

Comme le remarque Gérard Chaliand, le terrorisme « ne peut pas déstabiliser les Etats industriels mais représente une nuisance dont l'impact, dans les esprits, est important »[22]. Ce même auteur se demande si le terrorisme n'est pas le prix que doit payer l'Occident pour son hégémonie planétaire, C'est-à-dire pour l'insuffisance de démocratie qui caractérise la scène internationale.

Face à l'accroissement des actes terroristes, le monde démocratique accorde une importance particulière à la lutte antiterroriste. Mais la contradiction se trouve dans le fait que la lutte contre le terrorisme entraîne l'adoption de lois qui restreignent les droits de l'homme du fait par exemple de l'allongement des gardes à vue des terroristes, des cameras de surveillance… Il s'agit tout de même de préciser qu'en démocratie, l'on doit utiliser les voies démocratiques pour contester.

Aussi, la vulgarisation de la démocratie contribue à la lutte contre le terrorisme et la démocratie elle-même est obligée de restreindre certains droits de l'homme pour faire face à la menace terroriste.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

La violence terroriste se justifie souvent lorsqu'il s'agit d'un contexte de dictature affirmée. Le terrorisme prend alors le nom de résistance. Mais quand il s'agit d'une démocratie, la terreur ne peut pas être justifiée, même si la démocratie en question fait acte de manipulation afin d'empêcher les plaintes et les points de vues opposés d'émerger correctement dans les médias. En effet, du moment qu'un système accorde un certain espace à la critique et aux solutions pacifiques pour exprimer sa colère et son sentiment d'injustice, aucun acte terroriste ne peut être admis. Il suffit donc qu'il y ait une possibilité unique de se libérer d'une oppression de manière pacifique, et le terrorisme perd toute crédibilité.

Par exemple, si un peuple est injustement traité par un autre peuple sous un régime démocratique, le peuple opprimé peut choisir de contester sa situation avec des actes pacifiques symboliques (manifestations pacifiques, grèves, attirer l'attention des médias…). Aussi, dans cet exemple, aucun acte terroriste ne peut être justifié.

C'est pourquoi le monde démocratique actuel réfute catégoriquement toute violence comme moyen de lutte pour se faire entendre. Ce refus d'accepter le terrorisme comme "expression de la souffrance" (même s'il en est une), ne va pas à l'encontre des peuples opprimés, mais permet d'apprendre à abandonner les pulsions violentes, et ce en remplaçant l'énergie brutale en énergie verbale politique, médiatique, symbolique…

L'objectif est ainsi de permettre aux groupes agressés de développer des moyens de lutte compatibles avec les principes démocratiques. Il faut toutefois vérifier que ces groupes ont effectivement les moyens d'utiliser d'autres armes que la violence pour s'exprimer. Finalement, il s'agit de pousser les peuples opprimés vers la démocratie.

En effet, il semble aujourd'hui clair que la lutte contre le terrorisme passe par la justice avec tous ses attributs : la justice

politique, la primauté de la loi, la justice sociale, la justice économique. Mais la démocratie n'est pas un acquis, elle est le fruit d'une vigilance permanente et d'un travail constant permettant de la faire vivre.

Il est donc nécessaire d'envisager l'exercice effectif d'un contrôle politique, juridique et citoyen par des moyens renouvelés tels que le développement des pouvoirs d'inspection juridique et administrative sur les agences de sécurité, l'identification de cadres théoriques, législatifs et institutionnels intermédiaire, pour des temps de crise qui ne relèvent ni de la guerre ni de la situation en temps de paix…

4. Terrorisme et pauvreté : un lien incertain

Il existe encore de nos jours des populations qui ne bénéficient pas de l'électricité ni de l'eau courante, qui n'ont pas accès aux médicaments et aux vaccins, et encore moins à l'éducation et à la formation. Existerait-il un lien étroit entre la pauvreté et le terrorisme ?

Certains spécialistes répondent affirmativement à cette question en avançant que la pauvreté alimente le terrorisme, l'immigration sauvage, la violence, les trafics et les conflits divers. Ils considèrent que la pauvreté est la plus grande menace qui soit contre la démocratie, les droits de l'Homme, la paix, la sécurité et l'environnement. D'où l'idée que la démocratie doit accompagner le développement économique et que la lutte contre la pauvreté doit accompagner le combat pour la sécurité. Partant de là, de nombreux pays préconisent de donner plus d'argent aux pays pauvres afin d'y faire baisser le terrorisme.

A l'inverse, de nombreux autres spécialistes considèrent qu'il n'est pas efficace de combattre le terrorisme en luttant contre la pauvreté. En effet, selon eux, il n'existe pas de liens significatifs entre la richesse d'un pays et le niveau de terrorisme sans prendre en compte d'autres facteurs comme le niveau de liberté politique. En d'autres termes, les partisans de cette idée considèrent que c'est la liberté politique qui est liée au terrorisme. Ce lien est complexe. Le

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

terrorisme a tendance à émerger dans les pays les moins libres, mais aussi dans ceux qui le sont le plus. Remarquons que les terroristes appartiennent souvent aux classes moyennes et aisées, qu'ils sont rarement sans instruction, mais au contraire bien formés, bien intégrés et qu'ils possèdent de bonnes perspectives professionnelles.

Les partisans de cette idée remettent donc en question l'idée reçue qui veut que la pauvreté soit la raison fondamentale derrière le terrorisme international. Ils considèrent en effet que souvent les terroristes ne seraient pas originaires de pays pauvres mais de régimes répressifs et seraient par conséquent moins motivés par la pauvreté que par des facteurs politiques ou la croyance désespérée en une cause. Certains d'entre eux déclarent même que les politiques occidentales, en particulier américaines serait un des facteurs principaux du terrorisme[23].

Les groupements terroristes veulent s'approprier le droit, ils utilisent la violence pour atteindre des objectifs qu'ils ne peuvent pas atteindre avec des moyens pacifiques. Aussi, au-delà de la lutte contre la pauvreté, il convient pour les Etats d'assurer leur sécurité afin de faire face à ces groupements, d'instaurer la paix et le respect du droit.

La société mondiale a donc besoin d'Etats forts, afin d'empêcher l'apparition d'espaces de non-droit. En particulier, il faut veiller à ce que les populations fragilisées par la pauvreté aient les moyens de faire valoir leurs droits. Il s'agit en effet de respecter le principe selon lequel tous les individus sont égaux en droit. Autrement dit, la sécurité ne doit pas profiter seulement aux riches et rester hors de portée des pauvres.

Par ailleurs, les menaces actuelles à la sécurité sont transnationales et souvent mondiales, d'où la nécessité d'une coopération internationale et régionale. Le multilatéralisme apparaît donc comme un élément essentiel de la sécurité mondiale puisqu'il

constitue un outil fondamental au service de solutions qui sont par nécessité multilatérales.

Dans une interaction complexe, divers facteurs rendent les individus et les groupes vulnérables aux attaques terroristes. Il semble impossible d'établir un lien de causalité simple entre le terrorisme et la pauvreté ou tout autre facteur. Il n'existe pas de causes profondes évidentes du terrorisme. Ainsi, l'affirmation selon laquelle la pauvreté est l'une des causes du terrorisme semble erronée puisque le lien entre ces deux éléments demeure indirect et incertain. En réalité, tous les groupes frappés par la pauvreté n'ont pas recours au terrorisme pour contester leur situation, et à l'inverse, certaines études montrent que ceux qui ont recours à des actes terroristes appartiennent souvent à un milieu socio-économique plus élevé que la majorité des membres de leur collectivité.

Conclusion

La lutte contre le terrorisme fait aujourd'hui partie des préoccupations principales des Etats. De nombreuses actions sont entreprises pour lutter contre le terrorisme. Mais l'alliance contre le terrorisme ne peut suffire à enrayer voire prévenir ce dernier si l'on se contente d'en observer les effets sans en étudier véritablement les causes.

Il apparaît aujourd'hui clair que la violence ne doit pas conduire à l'usage symétrique de contre-violence. Si l'on applique des moyens inappropriés à la lutte antiterroriste, c'est une spirale de violence qui se met en place et qui compromet l'issue souhaitée, à savoir la paix. Il s'agit en effet de promouvoir l'Etat de droit et la démocratie. Car tous les êtres humains ont besoin d'espoir, ils doivent pouvoir vivre dignement, dans la paix et la sécurité. La lutte contre le terrorisme nécessite avant tout de créer un partenariat mondial des Etats et de la communauté internationale, dans un souci de multilatéralisme.

Enfin, chaque Etat devrait faire en sorte de créer des espaces de concertation où des chercheurs appartenant à différentes disciplines pourraient mener des études sur le phénomène du terrorisme afin de produire les éléments essentiels à la prise de décision finale. Car

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

l'étude d'évaluation préalable devrait précéder toute prise de décision. La communication apparaît donc comme un enjeu capital : plus on la maîtrise et mieux on se prémunit contre des dangers potentiels tels que le terrorisme.

Toutefois, il faut reconnaître que pour ce qui est de la question du terrorisme, de nombreux chercheurs se sont attelés à travailler sur ce thème et pourtant, il semble difficile de produire des éléments nécessaires à une meilleure compréhension de ce phénomène. Autrement dit, de nombreuses recherches sur le terrorisme sont menées mais elles sont souvent descriptives et partielles, sans parvenir à donner de véritables solutions.

Références bibliographiques :

- Baud Jacques, Encyclopédie des terrorismes et violences politiques, Éditions Charles Lavauzelle, Collection Renseignement et Guerre secrète, 2003, 752 p.
- Bola Ki-Khuabi Frédéric, La question du terrorisme international - "nécessite d'une analyse sociologique pour la reconnaissance d'un conflit social", L'Harmattan, juin 2006.
- Chaliand Gérard, préface à l'ouvrage de Bruce Hoffman, La mécanique terroriste, Calmann-Lévy, 1999, 304 p.
- Chaliand Gérard, Arnaud Blin (dir.), Histoire du terrorisme de l'Antiquité à Al Quaida, Éditions Bayard, 2004, 668 p.
- Coady Tony, Michael O'Keefe (dir.), Terrorism and Justice, Melbourne University Publishing, 2002, 144 p.

- Gagnon Benoît, L'approche théorique du terrorisme - criminologie et science politique, ERTA, 2006.
- Habermas Jürgen, Qu'est-ce que le terrorisme ? in Le Monde diplomatique, février 2004, p. 17.
- Hoffman Bruce, La mécanique terroriste, Calmann-Lévy, 1999, 304 p.

- Ioannides Ariane, Terrorisme et sécurité nationale. Au mépris des droits humains, in Le Monde diplomatique, août 2003, p. 4.
- Jenkins Brian M., in Kegley, 2003.
- Le Trésor de la langue française informatisé, Dictionnaire de langue française.
- Le Petit Larousse, Dictionnaire de la langue française.
- Observatoire pour la protection des défenseurs des droits de l'homme. FIDH et OMCT, Les défenseurs des droits de l'homme en première ligne, rapport annuel 2002, Editions de l'Aube, La Tour-d'Aigues, 2003.
- Santo Sandrine, L'ONU face au terrorisme, Rapport du Groupe de recherche et d'information sur la paix et la sécurité (GRIP), 2001, Bruxelles.
- Zanardi Bianca, Terrorisme et antiterrorisme : comprendre les changements, irenees.net, Paris, 2009.

Référence :

[1]. Brian M. Jenkins, in Kegley, 2003, p. 16.
[2] .Benoît Gagnon, L'approche théorique du terrorisme - criminologie et science politique, ERTA, 2006.
[3] Le Trésor de la langue française informatisé, Dictionnaire en ligne <http://atilf.atilf.fr/dendien/scripts/tlfiv5/advanced.exe?8;s=3927275400;>
[4]. Idem
[5]. Idem
[6]. Le Petit Larousse, Dictionnaire de la langue française.
[7]. Bruce Hoffman, La mécanique terroriste, Calmann-Lévy, 1999, 304 pages.
[8]. Gérard CHALIAND, Arnaud BLIN (dir.), Histoire du terrorisme de l'Antiquité à Al Quaida, Éditions Bayard, 2004, 668 p.
[9] Sandrine Santo, L'ONU face au terrorisme, Rapport du Groupe de recherche et d'information sur la paix et la sécurité (GRIP), 2001, Bruxelles, p. 10.
[10] .Ibid., p. 23.
[11] .Habermas Jürgen, "Qu'est-ce que le terrorisme", in Le Monde diplomatique, février 2004, p. 17.
[12]. Idem.
[13] .Frédéric Bola Ki-Khuabi, La question du terrorisme international - "nécessite d'une analyse sociologique pour la reconnaissance d'un conflit social", L'Harmattan, juin 2006

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742

---

[14]. Zanardi Bianca, Terrorisme et antiterrorisme : comprendre les changements, irenees.net, Paris, 2009.
[15]. Bruce Hoffman, La mécanique terroriste, Calmann-Lévy, 1999, 304 pages.
[16]. Jacques Baud, Encyclopédie des terrorismes et violences politiques, Éditions Charles Lavauzelle, Collection Renseignement et Guerre secrète, 2003, 752 p.
[17] Idem
[18]. Cf. Ioannides Ariane, "Terrorisme et sécurité nationale. Au mépris des droits humains", in Le Monde diplomatique, août 2003, p. 4.
[19] .Cf. Observatoire pour la protection des défenseurs des droits de l'homme. FIDH et OMCT, Les défenseurs des droits de l'homme en première ligne, rapport annuel 2002, Editions de l'Aube, La Tour-d'Aigues, 2003
[20]. Bruce Hoffman, La mécanique terroriste, Calmann-Lévy, 1999, 304 pages.
[21]. Ancien secrétaire d'Amnesty International
[22] .Chaliand Gérard, préface à l'ouvrage de Bruce Hoffman, La mécanique terroriste, Calmann-Lévy, 1999, 304 pages.
[23] .Tony Coady, Michael O'Keefe (dir.), Terrorism and Justice, Melbourne University Publishing, 2002 (144 p.).